

الكشاف

عن

حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل

للعلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري
(٤٦٧-٥٣٨ هـ)

تحقيق وتعليق ودراسة

الشيخ عادل أحمد عبد الموجود　　الشيخ علي محمد معوض

شارك في تحقيقه

الأستاذ الدكتور فتحي عبد الرحمن أحمد حجازي
أستاذ البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر

الجزء الرابع

مكتبة العبيكان

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب. ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ - فاكس ٤٦٥٠١٢٩



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةُ مَرْيَمَ

مَكِّيَّةٌ [إلاَّ آيَتَيْ ٥٨ و٧١ فَمَدَنِيَّتَانِ]
وَآيَاتُها ٩٨ [نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ فَاطِرٍ]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾

﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾﴾: قرأ بفتح الهاء[1] وكسر الياء: حمزة، وبكسرهما: عاصم، وبضمهما: الحسن، وقرأ الحسن ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: هذا المتلوّ من القرآن ذكر رحمة ربك، وقرئ: «ذكر»: على الأمر[2]، راعى سنة الله في إخفاء دعوته؛ لأنّ الجهر والإخفاء عند الله سيان، فكان الإخفاء أولى؛ لأنه أبعد من الرياء وأدخل في الإخلاص، وعن الحسن: نداء لا رياء فيه، أو أخفاه لئلا يلام على طلب الولد في إبان الكبرة والشيخوخة[3]، أو أسره من مواليه الذين خافهم، أو خفت صوته لضعفه وهرمه، كما جاء في صفة الشيخ: صوته خفات، وسمعه تارات، واختلف في سنّ زكريا ـ عليه السلام ـ فقيل: ستون، وخمس وستون، وسبعون، وخمس وسبعون، وخمس وثمانون.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾

قرئ (وهن): بالحركات الثلاث؛ وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن وبه قوامه وهو

---

(١) قوله «كهيعص قرأ بفتح الهاء» عبارة النسفي. قرأ علي ويحيى بكسر الهاء والياء، ونافع بين الفتح والكسر، وإلى الفتح أقرب. وأبو عمرو بكسر الهاء. وفتح الياء. وحمزة بعكسه. وغيرهم بفتحهما (ع).

(٢) قوله «وقرأ الحسن (ذكر رحمة ربك) أي هذا إلخ» يحتاج إلى تحرير، فإن الرفع قراءة الجمهور. وقوله «ذكر على الأمر» أي و(رحمة ربك) بالنصب. (ع).

(٣) قوله «في إبان الكبرة والشيخوخة» في الصحاح: الكبر في السن، والاسم الكبرة بالفتح. وفيه أيضاً: شاخ الرجل يشيخ شيخاً بالتحريك: جاء على أصله، وشيخوخة اهـ. وليس فيه شيوخة. وفيه أيضاً: إبان الشيء بالكسر والتشديد: وقته وأوانه. (ع).

أصل بنائه، فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته؛ ولأنه أشد ما فيه وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن، ووحده؛ لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، وقصده إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن، ولو جمع لكان قصداً إلى معنى آخر، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها، إدغام السين في الشين عن أبي عمرو، شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشعر وفشوّه فيه وأخذه منه كل مأخذ، باشتعال النار، ثم أخرجه مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته، وهو الرأس، وأخرج الشيب مميزاً ولم يضف الرأس: اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا؛ فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة، توسل إلى الله بما سلف له من الاستجابة، وعن بعضهم أن محتاجاً سأله وقال: أنا الذي أحسنت إليّ وقت كذا، فقال: مرحباً بمن توسل بنا إلينا، وقضى حاجته.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾

كان مواليه ـ وهم عصبته إخوته وبنو عمه ـ شرار بني إسرائيل، فخافهم على الدين أن يغيروه ويبدّلوه، وألاّ يحسنوا الخلافة على أمته، فطلب عقباً من صلبه صالحاً يقتدي به في إحياء الدين ويرتسم مراسمه فيه ﴿مِن وَرَآءِى﴾: بعد موتي، وقرأ ابن كثير: «من وراي»: بالقصر، وهذا الظرف لا يتعلق بخفت؛ لفساد المعنى، ولكن بمحذوف، أو بمعنى: الولاية في الموالي، أي: خفت فعل الموالي وهو تبديلهم وسوء خلافتهم من ورائي، أو خفت الذين يلون الأمر من ورائي، وقرأ عثمان، ومحمد بن علي، وعلي بن الحسين ـ رضي الله عنهم ـ: «خفت الموالي من ورائي»، وهذا على معنيين:

أحدهما: أن يكون (ورائي) بمعنى: خلفي وبعدي، فيتعلق الظرف بالموالي، أي: قلوا وعجزوا عن إقامة أمر الدين، فسأل ربه تقويتهم ومظاهرتهم بوليّ يرزقه.

والثاني: أن يكون بمعنى: قدامي، فيتعلق بـ «خفت»، ويريد أنهم خفوا قدامه ودرجوا، ولم يبق منهم من به تقوّ واعتضاد، ﴿مِن لَّدُنكَ﴾: تأكيد لكونه وليًّا مرضيًّا، بكونه مضافاً إلى الله ـ تعالى ـ وصادراً من عنده، وإلا ـ فهب لي ولياً يرثني ـ: كاف، أو أراد اختراعاً منك بلا سبب؛ لأني وامرأتي لا نصلح للولادة، ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ﴾: الجزم جواب الدعاء، والرفع صفة؛ ونحوه: ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ [القصص: ٣٤] وعن ابن عباس والجحدري: «يرثني وارث آل يعقوب»: نصب على الحال، وعن الجحدري: «أويرث»: على تصغير: وارث، وقال: غليم صغير، وعن علي ـ رضي الله عنه ـ وجماعة: «وارث

من آل يعقوب»، أي: يرثني به وارث، ويسمى: التجريد في علم البيان، والمراد بالإرث: إرث الشرع والعلم؛ لأنّ الأنبياء لا تورّث المال، وقيل: يرثني الحبورة وكان حبراً، ويرث من آل يعقوب الملك، يقال: ورثته وورثت منه لغتان، وقيل: «من» للتبعيض لا للتعدية؛ لأنّ آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء، وكان زكريا ـ عليه السلام ـ من نسل يعقوب بن إسحاق، وقيل: هو يعقوب بن ماتان أخو زكريا، وقيل: يعقوب هذا وعمران أبو مريم أخوان من نسل سليمان بن داود.

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧﴾

﴿سَمِيّٗا﴾: لم يسمّ أحد بيحيى قبله، وهذا شاهد على أنّ الأسامي السنع جديرة بالأثرة، وإياها كانت العرب تنتحي في التسمية؛ لكونها أنبه وأنوه وأنزه عن النبز، حتى قال القائل في مدح قوم [من الكامل]:

سُنْعُ الأَسَامِي مُسْبِلِي أُزُرٍ حُمْرٍ تَمَسُّ الأَرْضَ بِالْهُدُبِ / ٢/ ٢أ[1]

وقال رؤبة للنسابة البكري ـ وقد سأله عن نسبه ـ: أنا ابن العجاج، فقال: قصرت وعرفت، وقيل: مثلاً وشبيها عن مجاهد؛ كقوله ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥]؛ وإنما قيل للمثل: «سَميّ»؛ لأنّ كل متشاكلين يسمى كل واحد منهما باسم المثل والشبيه والشكل والنظير، فكل واحد منهما سميّ لصاحبه؛ ونحو: «يحيى» في أسمائهم: «يعمر، ويعيش» إن كانت التسمية عربية، وقد سموا بيموت ـ أيضاً ـ وهو يموت بن المزرع، قالوا: لم يكن له مثل في أنه لم يعص ولم يهم بمعصية قط، وأنه ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر، وأنه كان حصوراً.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨﴾

أي: كانت على صفة العقر: حين أنا شاب وكهل، فما رزقت الولد لاختلال أحد السببين، أفحين اختل السببان جميعاً أُرزقه؟

---

(١) يقال سنع الرجل كظرف، فهو سنيع أي جميل، وأسنع، والمرأة سنعاء، وسنع جمع أسنع: أي أسماؤهم حسنة، فهي أنبه وأنوه وأنزه عن النبز، والحمر: صفة الأزر، وتمس: صفة أخرى لها. وهدب الشيء: طرفه، والمناسب للمعنى أن المراد به الجمع، ويمكن أن يكون ضمنه مفرداً كقفل، وجمعا كفلك. ويجوز أنه اسم جمع، ولذلك جاء في واحده هدبة، ومس الأرض بالأطراف: كناية عن طولها، بل عن غناهم وثروتهم اللازم له ذلك.

فإن قلت: لم طلب أولاً وهو وامرأته على صفة العتيّ والعقر[١]، فلما أسعف بطلبته استبعد واستعجب؟

قلت: ليجاب بما أجيب به، فيزداد المؤمنون إيقاناً ويرتدع المبطلون، وإلا فمعتقد زكريا أولاً وآخراً كان على منهاج واحد: في أنّ الله غني عن الأسباب، أي: بلغت عتياً، وهو: اليبس والجساوة في المفاصل والعظام كالعود القاحل[٢]، يقال: عتا العود وعسا من أجل الكبر والطعن في السن العالية، أو بلغت من مدارج الكبر ومراتبه ما يسمى عتيًا، وقرأ ابن وثاب وحمزة والكسائي بكسر العين، وكذلك صليًا، وابن مسعود بفتحهما[٣]، وقرأ أبيّ ومجاهد: «عسيا»[٤].

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾: الكاف رفع، أي: الأمر كذلك تصديق له، ثم ابتدأ ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾: أو نصب بقال، وذلك إشارة إلى مبهم يفسره ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾؛ ونحوه: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الحجر: ٦٦] وقرأ الحسن: «وهو علي هين»، ولا يخرج هذا إلا على الوجه الأول، أي: الأمر كما قلت، وهو على ذلك يهون علي. ووجه آخر: وهو أن يشار بذلك إلى ما تقدم من وعد الله، لا إلى قول زكريا، و«قال»: محذوف في كلتا القراءتين، أي: قال هو عليّ هين، قال وهو عليّ هين؛ وإن شئت لم تنوه؛ لأن الله هو المخاطب، والمعنى: أنه قال ذلك ووعده، وقوله الحق: ﴿شَيْـًٔا﴾؛ لأن المعدوم ليس بشيء، أو شيئاً يعتد به[٥]؛ كقولهم: عجبت: من لا شيء، وقوله [من البسيط]:

---

(١) قال محمود: «إن قلت لم طلب أولاً وهو وامرأته على صفة العتي... إلخ» قال أحمد: وفيما أجاب به نظر؛ لأنه التزم أن زكريا استبعد ما وعده الله عز وجل بوقوعه، ولا يجوز للنبي النطق بما لا يسوغ، لمثل هذه الفائدة التي عينها الزمخشري ويمكن حصولها بدونه، فالظاهر في الجواب ـ والله أعلم ـ أن طلبة زكريا إنما كانت ولدا من حيث الجملة، وبحسب ذلك أجيب، وليس في الإجابة ما يدل على أنه يولد له وهو هرم، ولا أنه من زوجته وهي عاقر، فاحتمل عنده أن يكون الموعود وهما بهذه الحالة، واحتمل أن تعاد لهما قوتهما وشبابهما، كما فعل الله ذلك لغيرهما. أو أن يكون الولد من غير زوجته العاقر، فاستبعد الولد منهما وهما بحالهما، فاستخبر أيكون وهما كذلك، فقيل: كذلك، أي: يكون الولد وأنتما كذلك، فقد انصرف الأبعاد إلى عين الموعود فزال الإشكال. والله أعلم.

(٢) قوله «كالعود القاحل» أي اليابس، كذا في الصحاح. (ع)

(٣) قوله «بفتحهما» لعله بفتحها. (ع)

(٤) قوله «عسياً» في الصحاح: عسى الشيخ يعسو عسياً: ولى وكبر، مثل عتا. (ع)

(٥) قال محمود: «إنما قيل ذلك لأن المعدوم ليس بشيء أو شيئاً يعتد به... إلخ» قال أحمد: فسر أولاً على ظاهر النفي الصرف وهو الحق، لأن المعدوم ليس شيئاً قطعاً، خلافاً للمعتزلة في قولهم: =

وقرأ الأعمش والكسائي وابن وثاب: «خلقناك».

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠﴾

أي: اجعل لي علامة أعلم بها وقوع ما بشرت به، قال: علامتك أن تمنع الكلام فلا تطيقه، وأنت سليم الجوارح سويّ الخلق، ما بك خرس ولا بكم، دل ذكر الليالي هنا، والأيام في آل عمران، على أن المنع من الكلام استمر به ثلاثة أيام ولياليهن. ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾

أوحى: أشار عن مجاهد؛ ويشهد له: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١]، وعن ابن عباس: كتب لهم على الأرض، ﴿سَبِّحُوا﴾: صلوا، أو على الظاهر، وأن: هي المفسرة.

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢﴾

أي: خذ التوراة بحد واستظهار بالتوفيق والتأييد ﴿ٱلْحُكْمَ﴾: الحكمة؛ ومنه [من البسيط]:

= إن المعدوم الممكن شيء. ومن ثم كافح الزمخشري عن البقاء على التفسير الأول إلى الثاني بوجه من التأويل يلائم معتقد المعتزلة. فجعل المنفي الشيئية المعتد بها، وإن كانت الشيئية المطلقة ثابتة عنده للمعدوم، والحق بقاء الظاهر في نصابه.

(١) وضاقت الأرض حتى كان هاربهم ... إذا رأى غير شيء ظنه رجلا

يقول: وضاقت الأرض على أعدائنا؛ لأن كل مسلك يريدونه يظنون أحداً منا فيه فيرجعون، فاستعير الضيق الحسي لذلك على طريق التصريح، حتى كان الهارب منهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً منا، فيرجع خوفاً، والشيء هو الموجود وغيره هو المعدوم، ولكن استعير للشيء الحقير التافه لعدم الاعتداد بكل على طريق التصريح، وذلك ليصح وقوع الرؤية عليه.

(٢) واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت ... إلى حمام سراع وارد الثمد
قالت: ألا ليتما هذا الحمام لنا ... إلى حمامتنا ونصفه فقد
فحسبوه فألفوه كما وجدت ... ستًا وستين لم تنقص ولم تزد

للنابغة واسمه زياد، يخاطب النعمان بن المنذر، والفتاة: زرقاء اليمامة التي يضرب بها المثل في حدة البصر، نظرت إلى حمام مسرع إلى الماء فقالت: ليت الحمام ليه. إلى حمامتيه. ونصفه قديه. ثم الحمام ميه. فوقع في شبكة صياد، فوجدوه ستاً وستين حمامة، ونصفه ثلاثة وثلاثون، فإذا ضم الكل إلى حمامتها صار مائة، والحمام: كل ذي طوق من الطيور. وسراع: جمع سريع، وصفه به؛ لأنه جمع في المعنى، وبوارد لأنه مفرد في اللفظ: ويروى «شراع» بالشين المشالة جمع شارع. والثمد: الماء القليل. وروي الحمام ونصفه بالرفع. على إهمال ليتما. وبالنصب على إعمالها؛ لأن «ما» زائدة لا كافة، وإلا وجب الإهمال. وروي «أو نصفه» فـ «أو» بمعنى الواو، =

وَأَحْكُمْ كَحُكْمِ فَتَاةِ الْحَيِّ. . .[1] . . . .

يقال: حكم حكماً كحلم، وهو الفهم للتوراة والفقه في الدين عن ابن عباس، وقيل: دعاه الصبيان إلى اللعب وهو صبي، فقال: ما للعب خلقنا، عن الضحاك، وعن معمر: العقل، وقيل: النبوّة؛ لأنّ الله أحكم عقله في صباه وأوحى إليه.

﴿وَحَنَانًا مِن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾

﴿وَحَنَانًا﴾: رحمة لأبويه وغيرهما، وتعطفاً وشفقة؛ أنشد سيبويه [من الطويل]:

وَقَالَتْ: حَنَانٌ مَا أَتَى بِكَ هٰهُنَا ... أَذُو نَسَبٍ أَمْ أَنْتَ بِالْحَيِّ عَارِفُ[2]؟

= والكلام على تقدير مضاف؛ لأنها تمنت أن يكون هذا الحمام ومقدار نصفه لها. وإلى حمامتنا: متعلق بمحذوف، أي: منضما إليها. وقد: اسم بمعنى حسب، أضيفت إلى ياء المتكلم بغير نون الوقاية، كما يقال: حسبي: ويحتمل أن الياء حرف إطلاق، فلا إضافة ولكنها متعينة في كلام زرقاء، والهاء فيه للسكت، وهو يرجح الإضافة في كلام النابغة، والفاء فيه زائدة لتحسين اللفظ كفاء فقط، وكلاهما بمعنى انته، وكأنها فاء الجواب، أي: إذا بلغت هذا الحد فانته كما أفاده السعد في مطوله، وحبسوه ينبغي تشديده ليسلم الشعر من الخبل، وهو نوع من الزحاف يقبح دخوله هنا. ويروى «حسبوه» بتقديم السين على الباء.

ينظر: ديوانه ٢٣/ الكتاب ١/١٦٨، شرح أبيات سيبويه ١/٣٣، الحيوان ٣/٢٢١، الدرر ١/ ٢١٧، ٢/٢٠٦، لسان العرب (حكم)، (حمم)، أدب الكاتب ٢٥، شرح التصريح ١/٢٢٥، البحر المحيط ٤/٣٣٠، الدر المصون ٣/٢٩٢.

(٢) وأحدث عهد من أمينة نظرة ... على جانب العلياء إذ أنا واقف

فقالت حنان: ما أتى بك هاهنا ... أذو نسب أم أنت بالحي عارف؟

لمنذر بن درهم الكلبي، يقول: وأقرب عهد: أي لقاء ورؤية لأمينة محبوبتي تصغير آمنة، هو نظرة مني لها بجانب تلك البقعة، إذ أنا واقف هناك: أي حين وقوفي بها. وفيه إشعار بأنه كان واقفاً يترقب رؤيتها، فلما رأته هي قالت له: حنان أي: أمري حنان ورحمة لك، وهو من المواضع التي يجب فيها حذف المبتدأ؛ لنيابة الخبر عن الفعل؛ لأنه مصدر محول عن النصب. وقولها «ما أتى بك هاهنا» استفهام تعجبي. أذو نسب: أي أأنت ذو نسب أم أنت عارف بهذا الحي؟ ويجوز أن «أذو نسب» بدل من ما الاستفهامية: أي الذي حملك على المجيء هنا أو الذي دلك عليه صاحب قرابة من الحي أي معرفتك به؟ ويجوز أن الاستفهام حقيقي حكته على لسان غيرها. لتلقنه الجواب بقولها: أذو نسب. . . إلخ، مع معرفتها سبب مجيئه وهو حبها، ربما يسأله أحد من أهلها فيجيبه بأحد هذين الجوابين.

ينظر البيت في خزانة الأدب ٢/١١٢؛ وشرح أبيات سيبويه ١/٢٣٥، وبلا نسبة في أمالي الزجاجي ص١٣١، وأوضح المسالك ١/٢١٧، والدرر اللوامع ٣/٦٦، وشرح الأشموني ١/١٠٦، وشرح التصريح ١/١٧٧، وشرح عمدة الحافظ ص١٩٠، وشرح المفصل ١/١١٨، والصاحبي في فقه اللغة ص ٢٥٥، والكتاب ١/٣٢٠، ٣٤٩، ولسان العرب (حنن)، والمقاصد النحوية ١/٥٣٩، والمقتضب ٣/٢٢٥، وهمع الهوامع ١/١٨٩.

وقيل: حنانا من الله عليه، وحنّ في معنى ارتاح واشتاق ثم استعمل في العطف والرأفة، وقيل لله «حنان»، كما قيل: «رحيم» على سبيل الاستعارة، والزكاة: الطهارة، وقيل: الصدقة أي: يتعطف على الناس ويتصدّق عليهم.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾﴾

سلم الله عليه في هذه الأحوال، قال ابن عيينة: إنها أوحش المواطن.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾﴾

﴿إِذِ﴾: بدل من ﴿مَرۡيَمَ﴾: بدل الاشتمال؛ لأنّ الأحيان مشتملة على ما فيها، وفي أنّ المقصود بذكر مريم ذكر وقتها هذا؛ لوقوع هذه القصة العجيبة فيه، والانتباذ: الاعتزال والانفراد، تخلت للعبادة في مكان مما يلي شرقي بيت المقدس، أو من دارها معتزلة عن الناس، وقيل: قعدت في مشرفة للاغتسال من الحيض محتجبة بحائط أو بشيء يسترها، وكان موضعها المسجد، فإذا حاضت تحوّلت إلى بيت خالتها، فإذا طهرت عادت إلى المسجد، فبينا هي في مغتسلها، أتاها الملك في صورة آدمي شاب أمرد، وضيء الوجه، جعد الشعر، سويّ الخلق، لم ينتقص من الصورة الآدمية شيئاً، أو حسن الصورة مستوي الخلق؛ وإنما مثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه ٢/٢ب ولو بدا لها في الصورة الملكية، لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه، ودلّ على عفافها وورعها أنها تعوّذت بالله من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن، وكان تمثيله على تلك الصفة ابتلاء لها وسبراً لعفتها، وقيل: كانت في منزل زوج أختها زكريا، ولها محراب على حدة تسكنه، وكان زكريا إذا خرج أغلق عليها الباب، فتمنت أن تجد خلوة في الجبل لتفلي رأسها، فانفجر السقف لها، فخرجت فجلست في المشرفة وراء الجبل فأتاها الملك، وقيل: قام بين يديها في صورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس، وقيل: إنّ النصارى اتخذت المشرق قبلة لانتباذ مريم مكاناً شرقيًا، الروح: جبريل؛ لأنّ الدين يحيا به وبوحيه، أو سماه الله روحه: على المجاز؛ محبة له وتقريباً، كما تقول لحبيبك: أنت روحي، وقرأ أبو حيوة: «روحنا»: بالفتح؛ لأنه سبب لما في رَوح العباد، وإصابة الرَّوح عند الله الذي هو عدة المقربين في قوله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ﴾ [الواقعة: ٨٨ ـ ٨٩] أو؛ لأنه من المقرّبين، وهم: الموعودون بالروح، أي: مقرّبنا وذا روحنا.

﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾﴾

أرادت إن كان يرجى منك أن تتقي الله وتخشاه وتحفل بالاستعاذة به، فإني عائذة به منك؛ كقوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٦].

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾

أي: إنما أنا رسول من استعذت به، ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾: لأكون سبباً في هبة الغلام بالنفخ في الدرع[1]، وفي بعض المصاحف: إنما أنا رسول ربك أمرني أن أهب لك، أو هي حكاية لقول الله تعالى.

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾

جعل المسّ عبارة عن النكاح الحلال؛ لأنه كناية عنه؛ كقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣]، والزنا ليس كذلك؛ إنما يقال فيه: فَجَرَ بها وخبث بها وما أشبه ذلك، وليس بقمن أن تراعى فيه الكنايات والآداب، والبغيّ: الفاجرة التي تبغي الرجال، وهي فعول عند المبرد «بغوي»، فأدغمت الواو في الياء، وقال ابن جني في كتاب التمام: هي فعيل، ولو كانت فعولاً لقيل: «بغوّ»، كما قيل: فلان نهوّ عن المنكر، ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً﴾: تعليل معلله محذوف، أي: ولنجلعه آية للناس فعلنا ذلك، أو هو معطوف على تعليل مضمر، أي: لنبين به قدرتنا ولنجعله آية؛ ونحوه: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢]، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾ [يوسف: ٥٦]، ﴿مَّقْضِيًّا﴾: مقدّراً مسطوراً في اللوح لا بدّ لك من جريه عليك، أو كان أمراً حقيقاً بأن يكون ويقضى؛ لكونه آية ورحمة، والمراد بالآية: العبرة والبرهان على قدرة الله، وبالرحمة: الشرائع والألطاف، وما كان سبباً في قوّة الاعتقاد والتوصل إلى الطاعة والعمل الصالح، فهو جدير بالتكوين.

﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾

عن ابن عباس: فاطمأنت إلى قوله، فدنا منها، فنفخ في جيب درعها، فوصلت النفخة إلى بطنها فحملت، وقيل: كانت مدّة الحمل ستة أشهر، وعن عطاء وأبي العالية والضحاك: سبعة أشهر، وقيل: ثمانية، ولم يعش مولود وضع لثمانية إلا عيسى، وقيل: ثلاث ساعات، وقيل: حملته في ساعة، وصوّر في ساعة، ووضعته في ساعة، حين زالت

---

(١) قوله «في الدرع» في الصحاح «درع المرأة قميصها». (ع)

الشمس من يومها، وعن ابن عباس: كانت مدة الحمل ساعة واحدة، كما حملته نبذته، وقيل: حملته وهي بنت ثلاث عشرة سنة، وقيل: بنت عشر، وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل، وقالوا: ما من مولود إلا يستهلّ غيره[1]، ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ﴾ أي: اعتزلت وهو في بطنها؛ كقوله [من الوافر]:

. . . . تَـدُوسُ بِـنَـا الْـجَـمَـاجِـمَ وَالـتَّـرِيـبَـا[2]

أي: تدوس الجماجم ونحن على ظهورها؛ ونحوه قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، أي: تنبت ودهنها فيها: الجار والمجرور في موضع الحال، ﴿قَصِيّٗا﴾: بعيداً من أهلها وراء الجبل، وقيل: أقصى الدار، وقيل: كانت سميت لابن عم لها اسمه يوسف، فلما قيل: حملت من الزنا، خاف عليها قتل الملك، فهرب بها، فلما كان ببعض الطريق حدّثته نفسه بأن يقتلها، فأتاه جبريل فقال: إنه من روح القدس فلا تقتلها، فتركها.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾﴾

﴿فَأَجَآءَهَا﴾: أجاء: منقول من جاء، إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى: الإلجاء، ألا تراك تقول: جئت المكان وأجاءنيه زيد، كما تقول: بلغته وأبلغنيه؛ ونظيره: «آتى»؛ حيث لم يستعمل إلا في الإعطاء، ولم تقل: أتيت المكان وآتانيه فلان، قرأ ابن كثير في رواية: ﴿ٱلۡمَخَاضُ﴾: بالكسر، يقال: مخضت الحامل مخاضاً ومخاضاً، وهو تمخض الولد في بطنها[3].

طلبت الجذع لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة، وكان جذع نخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا ثمرة ولا خضرة، وكان الوقت شتاء، والتعريف لا يخلو: إمّا أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة كتعريف النجم والصعق، كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة متعالم عند الناس، فإذا قيل: جذع ٢/٣أ النخلة فهم منه ذلك دون غيره من جذوع النخل، وإمّا أن يكون تعريف الجنس، أي: جذع هذه الشجرة خاصة، كأن الله تعالى إنما أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب الذي هو حرسة النفساء الموافقة لها، ولأن النخلة أقل شيء صبراً على البرد، وثمارها إنما هي من جمارها، فلموافقتها لها مع جمع الآيات فيها اختارها لها وألجأها إليها، قرئ: ﴿مت﴾: بالضم والكسر، يقال: مات يموت،

---

(١) قوله «ما من مولود إلا يستهل غيره» في الصحاح «استهل الصبي» أي صاح عند الولادة. (ع)
(٢) تقدم شرح هذا الشاهد عند تفسير آية ٥٠ من سورة البقرة فراجعه إن شئت اهـ.
(٣) قوله «وهو تمخض الولد في بطنها» في الصحاح «تمخض اللبن واستمخض» أي تحرك في الممخضة، وكذلك الولد إذا تحرك في بطن الحامل. (ع)

ومات يمات، النسيّ: ما من حقه أن يطرح وينسى، كخرقة الطامث ونحوها، كالذبح: اسم ما من شأنه أن يذبح في قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧﴾ [الصافات: ١٠٧]، وعن يونس: العرب إذا ارتحلوا عن الدار قالوا: انظروا أنساءكم، أي: الشيء اليسير نحو العصا والقدح والشظاظ[1]، تمنت لو كانت شيئاً تافهاً لا يؤبه له، من شأنه وحقه أن ينسى في العادة، وقد نسي وطرح فوجد فيه النسيان الذي هو حقه؛ وذلك لما لحقها من فرط الحياء والتشوّر[2] من الناس على حكم العادة البشرية، لا كراهة لحكم الله، أو لشدّة التكليف عليها إذا بهتوها[3]، وهي عارفة ببراءة الساحة وبضدّ ما قرفت به، من اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام؛ لأنه مقام دحض قلما تثبت عليه الأقدام: أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر تستحق به المدح وتستوجب التعظيم، ثم تراه عند الناس لجهلهم به عيباً يعاب به ويعنف بسببه، أو لخوفها على الناس أن يعصوا الله بسببها، وقرأ ابن وثاب والأعمش وحمزة وحفص: (نسياً): بالفتح، قال الفراء: هما لغتان كالوتر والوتر، والجسر والجسر، ويجوز أن يكون مسمى بالمصدر كالحمل، وقرأ محمد بن كعب القرظي: (نسأ): بالهمز وهو الحليب المخلوط بالماء، ينسؤه أهله لقلته ونزارته، وقرأ الأعمش: (منسيا): بالكسر على الاتباع، كالمغيرة والمنخر.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝٢٤﴾

﴿مِن تَحْتِهَآ﴾: هو جبريل ـ عليه السلام ـ قيل: كان يقبل الولد كالمقابلة، وقيل: هو عيسى، وهي قراءة عاصم وأبي عمرو، وقيل: (تحتها): أسفل من مكانها؛ كقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [طه: ٧٦]وقيل: كان أسفل منها تحت الأكمة، فصاح بها: ﴿وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾، وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص: (من تحتها)، وفي ناداها ضمير الملك أو عيسى، وعن قتادة: الضمير في تحتها للنخلة، وقرأ زرّ وعلقمة: «فخاطبها من تحتها».

سئل النبي ـ ﷺ ـ عن السري، فقال: «هُوَ الْجَدْوَلُ» (٩١٨)؛ قال لبيد [من الكامل]:

---

٩١٨ ـ أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (ص ١٤٢)، وابن عدي في «الكامل» (٦/٢٣٩٨) من طريق معاوية بن يحيى الصدفي عن أبي سنان سعيد بن سنان الشيباني عن أبي إسحاق عن البراء بن =

---

(١) قوله «والشظاظ» في الصحاح «الشظاظ» العود الذي يدخل في عروة الجوالق. وفيه «الجوالق» وعاء. (ع)

(٢) قوله «من فرط الحيا، والتشور من الناس» خوف إظهار العورة. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله «إذا بهتوها وهي عارفة... إلخ» اتهموها بما ليس فيها. وقرفت: اتهمت. (ع)

= عازب مرفوعا.

وقال الطبراني: لم يرفعه عن أبي إسحاق إلا أبو سنان.
وأعله ابن عدي بمعاوية بن يحيى الصدفي، ونقل تضعيفه عن النسائي، وابن المديني، وابن معين.
وقد خالف شعبة أبا سنان في هذا الحديث فرواه عن أبي إسحاق عن البراء موقوفاً.
أخرجه الحاكم (٢/ ٣٧٣)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
وعلقه البخاري في صحيحه (٧/ ١٤٧) فقال: وقال وكيع عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء موقوفاً.
وأخرجه ابن مردويه والطبري من طريق إسرائيل به موقوفاً.
وأخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٦ ـ ٧) من طريق الثوري عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب موقوفاً.
وللحديث شاهد من حديث ابن عمر.
أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٣٤٦) رقم (١٣٣٠٣)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٣٤٦)؛ كلاهما من طريق يحيى بن عبد الله البابلي ثنا أيوب بن نهيك عن عكرمة مولى ابن عباس عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ: إن السري الذي قال الله عز وجل ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾: نهر أخرجه الله لتشرب منه.
وقال أبو نعيم: غريب من حديث عكرمة لم يروه عنه إلا أيوب بن نهيك ولا عنه فيما أعلم إلا يحيى اهـ وقال الزيلعي في تخريج «الكشاف» (٢/ ٣٢٢): وهو حديث غريب وأيوب بن نهيك هذا هو الحلبي. قال أبو حاتم: ضعيف، وقال أبو زرعة: منكر الحديث اهـ والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٥٨)، وقال: رواه الطبراني في «الكبير» وفيه يحيى بن عبد الله البابلي وهو ضعيف.
قال الحافظ: أخرجه الطبراني في الصغير، وابن عدي من رواية أبي سنان سعيد بن سنان عن أبي إسحاق عن البراء عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، قال: السري النهر.
قال الطبراني: لم يرفعه عن أبي إسحاق إلا أبو سنان رواه عنه معاوية بن يحيى وهو ضعيف، وأخرجه عبد الرزاق عن الثوري عن أبي إسحاق عن البراء. موقوفاً، وكذا ذكره البخاري تعليقاً عن وكيع عن إسرائيل عن أبي إسحاق. ورواه ابن مردويه من طريق آدم عن إسرائيل كذلك. وأخرجه الحاكم من وجه آخر عن أبي إسحاق موقوفاً، وفي الباب عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «إن السري الذي قال الله تعالى لمريم: نهر أخرجه الله لتشرب منه، أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية في ترجمة عكرمة عن ابن عمر. وراوية عن أيوب بن نهيك. ضعفه أبو حاتم وأبو زرعة. انتهى.

---

(١) فمضى وقدمها وكانت عادة   منه إذا هي عردت أقدامها
فتوسطا عرض السري فصدعا   مسجورة متجاوراً قلامها

للبيد من معلقته، يصف حماراً وحشياً بأنه مضى خلف أتانة نحو الماء وقدمها أمامه. وأقدامها: اسم كان، وألحقه التاء لاكتساب الأقدام التأنيث من الضمير المضاف إليه. وقيل: لأنه بمعنى =

وقيل: هو من السرو[1]، والمراد: عيسى، وعن الحسن: كان والله عبداً سريًّا.

فإن قلت: ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلى بالسري والرطب؟

قلت: لم تقع التسلية بهما من حيث أنهما طعام وشراب؛ ولكن من حيث أنهما معجزتان تريان الناس أنها من أهل العصمة والبعد من الريبة، وأن مثلها مما قرفوها به بمعزل، وأن لها أموراً إلهية خارجة عن العادات خارقة لما ألفوا واعتادوا، حتى يتبين لهم أنّ ولادها من غير فحل ليس ببدع من شأنها.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾﴾

﴿تُسَٰقِطۡ﴾: فيه تسع قراءات: تساقط: بإدغام التاء، وتتساقط: بإظهار التاءين، وتساقط: بطرح الثانية، ويساقط: بالياء وإدغام التاء، وتساقط، وتسقط، ويسقط، وتسقط، ويسقط: التاء للنخلة، والياء للجذع، ورطباً: تمييز، أو مفعول على حسب القراءة، وعن المبرد: جواز انتصابه بهزيّ وليس بذاك، والباء في: (بجذع النخلة): صلة للتأكيد؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، أو: على معنى: افعلي الهزّ به؛ كقوله[من الطويل]: يَجْرَحْ فِي عَرَاقِيبِهَا نَصْلِي[2]

قالوا: التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت، وكذلك التحنيك، وقالوا: كان من العجوة، وقيل: ما للنفساء خير من الرطب، ولا للمريض خير من العسل، وقيل: إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب، عن طلحة بن سليمان: (جِنيا): بكسر الجيم للإتباع، أي: جمعنا لك في السريّ والرطب فائدتين، إحداهما: الأكل والشرب، والثانية: سلوة الصدر؛ لكونهما معجزتين، وهو معنى قوله ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾ أي: وطيبي

= التقدمة التي هي مصدر قدمها المضاعف كالتقديم. وعادة خبر كان و«إذا هي عردت» بالتضعيف أي: تأخرت وجبنت، «فتوسطا» أي: الحمار والأتان، «عرض السرى» أي: ناحية النهر الصغير وجانبه، «فصدعا» أي: شقّا عيناً مسجورة مملوءة، وكان المقام للإضمار، فأظهر ليتأتى الوصف. أو للتجربة، أو العين من النهر، وليست هي هو وهذا أوجه. والقلام ـ كرمان ـ: القاقلي، وقيل مطلق النبات، وتجاوزه: كناية عن كثرته.

ينظر البيت في ديوانه ص ٣٠٧، ولسان العرب (سجر)، (عرض)، (صدع)، (قلم)، وتهذيب اللغة ٩/ ١٨١، وجمهرة اللغة ص ٧٤٧، ٩٧٤، وتاج العروس (عرض)، (صدع)، وكتاب العين ١/ ٢٧٦، ومقاييس اللغة ٤/ ٢٧٥، ومجمل اللغة ٣/ ٤٧٠، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٤٥٧.

(١) قوله «وقيل هو من «السرو» في الصحاح «السرو» سخاء في مروءة. (ع)

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد.

نفساً ولا تغتمي وارفضي عنك ما أحزنك وأهمك، وقرئ: (وقرّي) بالكسر لغة نجد، (فإمّا ترئن): بالهمز: ابن الرومي، عن أبي عمرو: وهذا من لغة من يقول: لبأت بالحج، وحلأت السويق[1]، وذلك لتآخ بين الهمز وحرف اللين في الإبدال، ﴿صَوۡمًا﴾: صمتاً، وفي مصحف عبد الله: «صمتاً»، وعن أنس بن مالك مثله، وقيل: «صياماً»، إلا أنهم كانوا لا يتكلمون في صيامهم، وقد نهى رسول الله ـ ﷺ ـ عن صوم الصمت(٩١٩)؛ لأنه نسخ في أمته، أمرها الله بأن تنذر الصوم؛ لئلا تشرع مع البشر المنهمين ٢/٣ب لها في الكلام لمعنيين:

أحدهما: أن عيسى ـ صلوات الله عليه ـ يكفيها الكلام بما يبرئ به ساحتها.

والثاني: كراهة مجادلة السفهاء ومثاقلتهم، وفيه أن السكوت عن السفيه واجب، ومن أذل الناس: سفيه لم يجد مسافها، قيل: أخبرتهم بأنها نذرت الصوم بالإشارة، وقيل: سوغ لها ذلك بالنطق، ﴿إِنسِيًّا﴾ أي: أكلم الملائكة دون الإنس.

﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾﴾

الفريّ: البديع، وهو من فرى الجلد، ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾: كان أخاها من أبيها من أمثل بني إسرائيل، وقيل: هو أخو موسى ـ صلوات الله عليهما ـ وعن النبي ـ ﷺ ـ: «إِنَّمَا عَنُوا هَارُونَ النَّبِيَّ» (٩٢٠)، وكانت من أعقابه في طبقة الإخوة، بينها وبينه ألف سنة وأكثر،

---

٩١٩ ـ ورد من حديث علي بن أبي طالب مرفوعاً بلفظ «لا يتم بعد احتلام ولا صمات يوم إلى ليل».
وقد تقدم تخريجه في سورة النساء.
ويراجع شواهده هناك.
قال الحافظ: لم أره هكذا، وأخرج عبد الرزاق من حديث جابر بلفظ: «لا صمت يوم إلى الليل»، وفيه حزام بن عثمان وهو ضعيف، ولأبي داود من حديث علي مثله. وقد تقدم في تفسير النساء. انتهى.

٩٢٠ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٣٢٣): غريب وذكره الثعلبي هكذا من غير سند.
قال الحافظ: لم أجده هكذا إلا عند الثعلبي بغير سند، ورواه الطبري عن السدي. وقوله ليس بصحيح؛ فإن عند مسلم والنسائي والترمذي عن المغيرة بن شعبة. قال: «بعثني النبي ـ ﷺ ـ إلى نجران، فقالوا لي: أرأيتم شيئا يقرأونه: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾، وبين موسى وعيسى ما شاء الله من السنين، فلم أدر ما أجيبهم فقال لي النبي ـ ﷺ ـ: «هلا أخبرتهم أنهم كان يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين من قبلهم»، وروى الطبري من طريق ابن سيرين، «نبئت أن كعباً قال: إن قوله تعالى: =

---

(١) قوله «يقول لبأت بالحج وحلأت السويق» والكثير: لبيت بالحج، وحليت السويق، أي: جعلته حلوا. (ع)

وعن السدي: كانت من أولاده؛ وإنما قيل: يا أخت هَارون، كما يقال: يا أخا همدان، أي: يا واحداً منهم، وقيل: رجل صالح أو طالح في زمانها، شبهوها به، أي: كنت عندنا مثله في الصلاح، أو شتموها به، ولم ترد إخوة النسب، ذكر أن هارون الصالح تبع جنازته أربعون ألفاً، كلهم يسمى هارون؛ تبركاً به وباسمه، فقالوا: كنا نشبهك بهارون هذا، وقرأ عمر بن لجاء التيمي: (ما كان أباك امرؤ سوء)، وقيل: احتمل يوسف النجار مريم وابنها إلى غار، فلبثوا فيه أربعين يوماً حتى تعلت من نفاسها[1]، ثم جاءت تحمله فكلمها عيسى في الطريق، فقال: يا أماه، أبشري؛ فإني عبد الله ومسيحه، فلما دخلت به على قومها وهم أهل بيت صالحون تباكوا وقالوا ذلك، وقيل: هموا برجمها حتى تكلم عيسى ـ عليه السلام ـ فتركوها.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩)﴾

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي: هو الذي يجيبكم إذا ناطقتموه، وقيل: كان المستنطق لعيسى زكريا ـ عليه السلام ـ وعن السدي: لما أشارت إليه، غضبوا وقالوا: لسخريتها بنا أشدّ علينا من زناها، وروي أنه كان يرضع، فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه، واتكأ على يساره وأشار بسبابته، وقيل: كلمهم بذلك، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان، و﴿كَانَ﴾: لإيقاع مضمون الجملة في زمان ماض مبهم يصلح لقريبه وبعيده، وهو ههنا لقريبه خاصة، والدال عليه مبنى الكلام، وأنه مسوق للتعجب، ووجه آخر: أن يكون (نكلم): حكاية حال ماضية، أي: كيف عهد قبل عيسى أن يكلم الناس صبياً في المهد فيما سلف من الزمان حتى نكلم هذا.

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾

أنطقه الله أوّلاً بأنه عبد الله ردًّا لقول النصارى، و«الكتاب»: هو الإنجيل، واختلفوا في نبوّته، فقيل: أعطيها في طفوليته: أكمل الله عقله، واستنبأه طفلاً نظراً في ظاهر الآية،

= ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ ليس بهارون أخي موسى، فقالت له عائشة: «كذبت. فقال لها: يا أم المؤمنين إن كان النبي ـ ﷺ ـ قال: فهو أعلم، وإلا فأنا أجد بينهما ستمائة سنة». انتهى.

(١) قوله «حتى تعلت من نفاسها» في الصحاح «تعلى» أي علا في مهلة. وتعلت المرأة من نفاسها: أي سلمت، وتعلى الرجل من علته. (ع)

وقيل: معناه: إن ذلك سبق في قضائه، أو جعل الاتي لا محالة كأنه قد وجد، ﴿مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾: عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «نَفَّاعاً حَيْثُ كُنْتَ» (٩٢١)، وقيل: معلماً للخير، وقرئ: ﴿وَبَرًّا﴾: عن أبي نهيك، جعل ذاته براً لفرط بره، أو نصبه بفعل في معنى أوصاني، وهو كلفني؛ لأن أوصاني بالصلاة وكلفنيها واحد، ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ﴾ قيل: أدخل لام التعريف لتعرفه بالذكر قبله؛ كقولك: جاءنا رجل، فكان من فعل الرجل كذا، والمعنى: ذلك السلام الموجه إلى يحيى في المواطن الثلاثة موجه إليّ، والصحيح: أن يكون هذا التعريف تعريضاً باللعنة على متهمي مريم ـ عليها السلام ـ وأعدائها من اليهود، وتحقيقه أن اللام للجنس، فإذا قال: وجنس السلام عليّ خاصة فقد عرض بأن ضدّه عليكم؛ ونظيره قوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه:٤٧] يعني: أنّ العذاب على من كذب وتولى، وكان المقام مقام مناكرة وعناد، فهو مئنة لنحو هذا من التعريض.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

قرأ عاصم وابن عامر: (قول الحق) بالنصب، وعن ابن مسعود: قال الحق، وقال الله، وعن الحسن: «قُول الحق» بضم القاف، وكذلك في الأنعام: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٧٣] والقول والقال والقول بمعنى واحد، كالرهب والرهب والرهب، وارتفاعه على أنه خبر بعد خبر، أو بدل، أو خبر مبتدأ محذوف، وأما انتصابه فعلى المدح إن فسر بكلمة الله، وعلى أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة إن أريد قول الثبات والصدق؛ كقوله: هو عبد الله حقًّا، والحق لا الباطل؛ وإنما قيل لعيسى: «كلمة الله»، و: «قول الحق»؛ لأنه لم يولد إلا بكلمة الله وحدها، وهي قوله: (كن) من غير واسطة أب؛ تسمية للمسبب باسم السبب، كما سمى العشب بالسماء، والشحم بالندا، ويحتمل إذا أريد بقول الحق: عيسى، أن يكون الحق اسم الله ـ عزّ وجل ـ، وأن يكون بمعنى: الثبات والصدق؛ ويعضده قوله: ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: أمره حق يقين وهم فيه شاكون، ﴿يَمْتَرُونَ﴾: يشكون، والمرية: الشك، أو يتمارون ٢/ ١٤أ: يتلاحون[1]، قالت اليهود: ساحر كذاب،

---

٩٢١ ـ أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٥) من طريق شعيب بن محمد الكوفي ثنا هشيم بن بشير عن يونس عن الحسن عن أبي هريرة به.
وقال أبو نعيم: غريب من حديث يونس تفرد به هشيم وعنه شعيب.
وأخرجه أيضاً ابن مردويه كما في «تخريج الكشاف» (٢/ ٣٢٤)، قال الحافظ: أخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة يونس بن عبيد عن الحسن عن أبي هريرة بهذا وأتم منه. وقال تفرد به هشيم عن يونس، وعنه شعيب بن محمد الكوفي، ورواه ابن مردويه من هذا الوجه. انتهى.

---

(١) قوله «يتلاحون» التلاحي بمعنى التنازع كما في الصحاح. وعبارة النسفي: أو يختلفون، من المراء، =

وقالت النصارى: ابن الله وثالث ثلاثة، وقرأ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: «تمترون». على الخطاب، وعن أبيّ بن كعب: «قول الحق الذي كان الناس فيه يمترون».

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾

كذب النصارى وبكتهم بالدلالة على انتفاء الولد عنه، وأنه مما لا يتأتى ولا يتصور في العقول وليس بمقدور عليه؛ إذ من المحال غير المستقيم أن تكون ذاته كذات من ينشأ منه الولد، ثم بين إحالة ذلك بأن من إذا أراد شيئاً من الأجناس كلها أوجده بكن، كان منزهاً من شبه الحيوان الوالد، والقول ههنا مجاز، ومعناه: أنّ إرادته للشيء يتبعها كونه لا محالة من غير توقف، فشبه ذلك بأمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور الممتثل.

﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

قرأ المدنيون وأبو عمرو بفتح أن، ومعناه: ولأنه ربي وربكم فاعبدوه؛ كقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨]، والأستار وأبو عبيد بالكسر على الابتداء، وفي حرف أبيّ: «إن الله»: بالكسر بغير واو، و«بأن الله»، أي: بسبب ذلك[1] فاعبدوه.

﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿ٱلۡأَحۡزَابُ﴾: اليهود والنصارى: عن الكلبي، وقيل: النصارى، لتحزبهم ثلاث فرق: نسطورية، ويعقوبية، وملكانية، وعن الحسن: الذين تحزبوا على الأنبياء لما قص عليهم قصة عيسى اختلفوا فيه من بين الناس، ﴿مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: من شهودهم هول الحساب والجزاء في يوم القيامة، أو من مكان الشهود فيه وهو الموقف، أو من وقت الشهود، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم، وأن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وسوء الأعمال، أو من مكان الشهادة أو وقتها، وقيل: هو ما قالوه وشهدوا به في عيسى وأمه.

﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

= فقالت اليهود... إلخ. (ع)

(١) قوله: «وبأن الله أي بسبب ذلك» لعله: أي بأن الله. ويمكن أنه عطف على أن الله، ويكون في حرف أبي القراءتان. (ع)

لا يوصف الله تعالى بالتعجب، وإنما المراد أن أسماعهم وأبصارهم يومئذٍ جدير بأن يتعجب منهما بعد ما كانوا صمًّا وعميًا في الدنيا، وقيل: معناه: التهديد بما سيسمعون ويبصرون مما يسوءهم ويصدع قلوبهم، أوقع الظاهر، أعني: الظالمين موقع الضمير، إشعاراً بأن لا ظلم أشد من ظلمهم؛ حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين يجدي عليهم ويسعدهم، والمراد بالضلال المبين: إغفال النظر والاستماع، ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾: فرغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار، وعن النبي ﷺ أنه سئل عنه، أي: عن قضاء الأمر، فقال: «حِينَ يُذْبَحُ الكَبْشُ وَالفَرِيقَانِ يَنْظُرَانِ» (٩٢٢)، وإذ: بدل من يوم الحسرة، أو منصوب بالحسرة، ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾: متعلق بقوله: «في ضلال مبين»: عن الحسن،

---

٩٢٢ ـ قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢/ ٣٢٥): غريب بهذا اللفظ.
وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده هكذا. اهـ
وقد ورد حديث آخر في معناه عن عدد من الصحابة، وهم أبو سعيد الخدري وابن عمر وأبو هريرة وأنس.
حديث أبي سعيد:
أخرجه البخاري (٩/ ٣٥٤) كتاب التفسير: باب: (وأنذرهم يوم الحسرة) حديث (٤٧٣٠)، ومسلم (٤/ ٢١٨٨ ـ ٢١٨٩) كتاب الجنة وصفة نعيمها باب النار يدخلها الجبارون حديث (٤٠، ٤١/ ٢٨٤٩)، والترمذي (٥/ ٣١٥ ـ ٣١٦) كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة مريم حديث (٣١٥٦)، والنسائي في «تفسيره» (١٣٣٣)، وأحمد (٣/ ٩)، وأبو يعلى (٢/ ٣٦٤) رقم (١١٢٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٣٥٠) رقم (٣٨٧)؛ كلهم من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً بلفظ «يؤتى بالموت كأنه كبش أملح حتى يوقف على السور بين الجنة والنار...» الحديث.
وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٨٩)، وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.
حديث ابن عمر:
أخرجه البخاري (١١/ ٤٢٣) كتاب الرقاق: باب صفة الجنة والنار حديث (٦٥٤٨)، ومسلم (٤/ ٢١٨٩) كتاب الجنة وصفة نعيمها حديث (٤٣/ ٢٨٥٠)، وأحمد (٢/ ١١٨).
حديث أبي هريرة:
أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٤٤٧) كتاب الزهد باب صفة النار حديث (٤٣٢٧)، وأحمد (٢/ ٢٦١)، وابن حبان (٢٦١٤ ـ موارد)، والحاكم (١/ ٨٣)؛ كلهم من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة.
وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم.
قلت: محمد بن عمرو لم يحتج به مسلم، بل روى له متابعة، وقال البوصيري في «الزوائد»: هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات، وقد أخرج البخاري بعضه من هذا الوجه اهـ. والحديث ذكره المنذري في «الترغيب» (٤/ ٥٦٤)، وقال: رواه ابن ماجه بإسناد جيد. =

وأنذرهم: اعتراض، أو هو متعلق بأنذرهم، أي: وأنذرهم على هذه الحال غافلين غير مؤمنين، يحتمل أنه يميتهم ويخرب ديارهم، وأنه يفني أجسادهم ويفني الأرض ويذهب بها.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾

الصدّيق: من أبنية المبالغة، ونظيره: الضحيك والنطيق، والمراد: فرط صدقه وكثرة ما صدّق به من غيوب الله وآياته وكتبه ورسله، وكان الرجحان والغلبة في هذا التصديق للكتب والرسل، أي: كان مصدقاً بجميع الأنبياء وكتبهم، وكان نبيًا في نفسه؛ كقوله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الصافات: ٣٧] أو: كان بليغاً في الصدق؛ لأن ملاك أمر النبوة الصدق، ومصدق الله بآياته ومعجزاته حريّ أن يكون كذلك، وهذه الجملة وقعت اعتراضاً بين المبدل منه وبدله، أعني: إبراهيم، و﴿إِذْ قَالَ﴾: نحو قولك: رأيت زيداً، ونعم الرجل أخوك، ويجوز أن يتعلق إذ بـ«كان» أو بـ«صديقاً نبيًا»، أي: كان جامعاً لخصائص الصديقين والأنبياء، حين خاطب أباه تلك المخاطبات والمراد بذكر الرسول إياه وقصته في الكتاب أن يتلو ذلك على الناس ويبلغه إياهم؛ كقوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الشعراء: ٦٩]، وإلا فالله ـ عزّ وجل ـ هو ذاكره ومورده في تنزيله، التاء في ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾: عوض من ياء الإضافة،

= وللحديث إسناد آخر.
أخرجه النسائي في «التفسير» (٣٣٧) من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة به.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٤٨٩)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه.
حديث أنس بن مالك:
أخرجه أبو يعلى (٥/٢٧٨) رقم (٢٨٩٨)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/٣٩٨)، وقال: رواه أبو يعلى، والطبراني في الأوسط بنحوه والبزار، ورجالهم رجال الصحيح غير نافع بن خالد الطاحي وهو ثقة.
قال الحافظ: لم أجده هكذا. وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح» الحديث، وفيه: وكلهم قد رآه فيذبح. ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر﴾ الآية، وأخرجاه عن ابن عمر نحوه دون قراءة الآية. وفي الباب عن أبي هريرة عند ابن حبان والحاكم والنسائي. وأخرجه البخاري دون ذكر الذبح. وأخرجه أبو يعلى والبزار من حديث أنس. وفي آخره: «فيأمن هؤلاء، وينقطع رجاء هؤلاء». انتهى.

ولا يقال: يا أبتي؛ لئلا يجمع بين العوض والمعوض منه، وقيل: يا أبتا؛ لكون الألف بدلاً من الياء، وشبه ذلك سيبويه بأينق، وتعويض الياء فيه عن الواو الساقطة، انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورّطاً فيه من الخطأ العظيم والارتكاب الشنيع الذي ٢/ ٤ب عصا فيه أمر العقلاء وانسلخ عن قضية التمييز، ومن الغباوة التي ليس بعدها غباوة: كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق، وساقه أرشق مساق[1]، مع استعمال المجاملة، واللطف، والرفق، واللين، والأدب الجميل، والخلق الحسن؛ منتصحاً في ذلك بنصيحة ربه ـ عز وعلا ـ. حدّث أبو هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أَوْحَى اللَّهُ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ـ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ـ: إِنَّكَ خَلِيلِي، حَسِّنْ خُلُقَكَ وَلَوْ مَعَ الكُفَّارِ، تَدْخُلْ مَدَاخِلَ الأَبْرَارِ ـ فَإِنَّ كَلِمتِي سَبَقَتْ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ: أُظِلُّهُ تَحْتَ عَرْشِي، وأُسْكِنُهُ حَظِيرَةَ القُدْسِ، وأُدْنِيهِ مِنْ جِوَارِي» ٩٢٣ح، وذلك أنه طلب منه أولاً العلة في خطئة طلب منبه على تماديه، موقظ لإفراطه وتناهيه؛ لأن المعبود لو كان حيًّا مميزاً، سميعاً بصيراً، مقتدراً على الثواب والعقاب، نافعاً ضارًا، إلا أنه بعض الخلق: لاستخفّ عقل من أهله للعبادة ووصفه بالربوبية، ولسجل عليه بالغيّ المبين والظلم العظيم، وإن كان أشرف الخلق وأعلاهم منزلة كالملائكة والنبيين؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝٨٠﴾ [آل عمران: ٨٠] وذلك أن العبادة هي غاية التعظيم، فلا تحق إلا لمن

---

٩٢٣ ـ أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢٤٣٢)، والطبراني في «الأوسط» (٧/ ٢٦١) رقم (٦٥٠٢) من طريق مؤمل بن عبد الرحمن الثقفي عن أبي أمية بن يعلى عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة به.

وقال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن سعيد المقبري إلا أبو أمية بن يعلى تفرد به مؤمل بن عبد الرحمن ولا يروى عن رسول الله ـ ﷺ ـ إلا بهذا الإسناد اهـ.

وأعله ابن عدي بمؤمل بن عبد الرحمن، وقال: عامة حديثه غير محفوظ.

وضعفه أيضاً الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»، فقال: وفيه مؤمل بن عبد الرحمن الثقفي عن أبي أمية بن يعلى الثقفي وهما ضعيفان.

وله طريق آخر عند الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، كما في «تخريج الكشاف» (٢/ ٣٢٦) للزيلعي، من طريق عمر بن أبي عمر عن أبي هريرة مرفوعاً.

وقال الزيلعي: وهذا معضل.

قال الحافظ: أخرجه الطبراني في الأوسط، وابن عدي، والحكيم والترمذي في «النوادر» من حديث أبي هريرة، وفيه مؤمل بن عبد الرحمن الثقفي عن أبي أمية بن يعلى الثقفي وهما ضعيفان. انتهى.

---

(١) قوله «في أحسن اتساق وساقه أرشق» في الصحاح: «الاتساق» الانتظام، وفيه أيضاً «رجل رشيق» أي: حسن القد لطيفه. (ع)

له غاية الإنعام: وهو الخالق الرازق، المحيي المميت، المثيب المعاقب، الذي منه أصول النعم وفروعها، فإذا وجهت إلى غيره ـ وتعالى علوًا كبيراً أن تكون هذه الصفة لغيره ـ لم يكن إلا ظلماً وعتوًا وغيًا وكفراً وجحوداً، وخروجاً عن الصحيح النير إلى الفاسد المظلم، فما ظنك بمن وجه عبادته إلى جماد ليس به حس ولا شعور؟ فلا يسمع ـ يا عابده ـ ذكرك له وثناءك عليه، ولا يرى هيئات خضوعك وخشوعك له، فضلاً أن يغني عنك بأن تستدفعه بلاء فيدفعه، أو تسنح لك حاجة فيكفيكها، ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقاً به متلطفاً، فلم يسم أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم وشيئاً منه ليس معك؛ وذلك علم الدلالة على الطريق السوي فلا تستنكف، وهب أني وإياك في مسير وعندي معرفة بالهداية دونك، فاتبعني أُنجك من أن تضل وتتيه، ثم ثلث بتثبيطه ونهيه عما كان عليه: بأن الشيطان ـ الذي استعصى على ربك الرحمن الذي جميع ما عندك من النعم من عنده، وهو عدوّك الذي لا يريد بك إلا كل هلاك وخزي ونكال وعدوّ أبيك آدم وأبناء جنسك كلهم ـ هو الذي ورّطك في هذه الضلالة وأمرك بها وزينها لك، فأنت إن حققت النظر عابد الشيطان، إلا أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لإمعانه في الإخلاص ولارتقاء همته في الربانية لم يذكر من جنايتي الشيطان إلا التي تختص منهما برب العزة من عصيانه واستكباره، ولم يلتفت إلى ذكر معاداته لآدم وذرّيته، كأن النظر في عظم ما ارتكب من ذلك غمر فكره وأطبق على ذهنه، ثم ربع بتخويفه سوء العاقبة وبما يجره[1] ما هو فيه من التبعة والوبال، ولم يخل ذلك من حسن الأدب؛ حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له وأن العذاب لاصق به، ولكنه قال: «أخاف أن يمسك عذاب»، فذكر الخوف والمس ونكر العذاب، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب؛ وذلك أن رضوان الله أكبر من الثواب نفسه، وسماه الله تعالى: المشهود له[2] بالفوز العظيم؛ حيث قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]؛ فكذلك ولاية الشيطان التي هي معارضة رضوان الله، أكبر من العذاب نفسه وأعظم، وصدّر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله: ﴿يَا أَبَتِ﴾؛ توسلاً إليه واستعطافاً، فـ(ما) في: ﴿مَا لَا يَسْمَعُ﴾، و﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾: يجوز أن تكون موصولة وموصوفة، والمفعول في: (لا يسمع ولا يبصر): منسي غير منوي؛ كقولك: ليس به استماع ولا إبصار، ﴿شَيْئًا﴾: يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون في موضع المصدر، أي: شيئاً من الغناء، ويجوز أن يقدر نحوه

---

(١) قوله: «وبما يجره» لعله وما يجره، فيكون عطفاً على سوء العاقبة. (ع)

(٢) قوله: «وسماه الله تعالى المشهود له» لعله «مشهود له بأن رضوانه أكبر من الثواب» فليحرر. (ع)

مع الفعلين السابقين.

والثاني: أن يكون مفعولاً به من قولهم: أغن عني وجهك، ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾: فيه تجدد العلم عنده.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦)﴾

لما أطلعه على سماجة صورة أمره، وهدم مذهبه بالحجج القاطعة، وناصحه المناصحة العجيبة مع تلك الملاطفات، أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر وغلظة العناد، فناداه باسمه، ولم يقابل (يا أبت): بيا بنيّ، وقدّم الخبر على المبتدأ في قوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾؛ لأنه كان أهمّ عنده وهو عنده أعنى، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته، وأن آلهته ما ينبغي أن يرغب عنها أحد، وفي هذا سلوان وثلج لصدر رسول الله ﷺ عما كان يلقى من مثل ذلك من كفار قومه، ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾: لأرمينك بلساني، يريد: الشتم والذمّ، ومنه (الرجيم): المرميّ باللعن، أو لأقتلنك، من رجم الزاني، أو: لأطردنك رمياً بالحجارة، وأصل الرجم: الرمي بالرجام[1]، ﴿مَلِيًّا﴾: زماناً طويلاً من الملاوة، أو: مليًا بالذهاب عني، والهجران قبل أن أثخنك بالضرب، حتى لا تقدر أن تبرح، يقال: فلان مليّ بكذا،: إذا كان مطيقاً له مضطلعاً به.

فإن قلت: علام عطف (واهجرني) ٢/ ٥أ؟

قلت: على معطوف عليه محذوف يدل عليه: (لأرجمنك) أي: فاحذرني واهجرني؛ لأن (لأرجمنك): تهديد وتقريع.

﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨)﴾

﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾: سلام توديع ومتاركة؛ كقوله تعالى: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، وقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]؛ وهذا دليل على جواز متاركة المنصوح والحال هذه، ويجوز أن يكون قد دعا له بالسلامة استمالة له؛ ألا ترى أنه وعده الاستغفار.

فإن قلت: كيف جاز له أن يستغفر للكافر وأن يعده[2] ذلك؟

---

(١) قوله «وأصل الرجم الرمي بالرجام» أي الحجارة الضخام؛ كذا في الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «إن قلت: لم استغفر لأبيه وهو كافر... الخ» قال أحمد: وهذه لمظ من الاعتزال، مستطيرة من شرور شر قاعدة التحسين والتقبيح. والحق أن العقل لا مدخل له في أن يحكم بحكم الله تعالى قبل ورود الشرع به، ثم لم يوف الزمخشري بها؛ فإنه جعل العقل يسوغ =

قلت: قالوا: أراد اشتراط التوبة عن الكفر، كما ترد الأوامر والنواحي الشرعية على الكفار والمراد اشتراط الإيمان، وكما يؤمر المحدث والفقير بالصلاة والزكاة، ويراد اشتراط الوضوء والنصاب، وقالوا: إنما استغفر له بقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء: ٨٦]؛ لأنه وعده أن يؤمن؛ واستشهدوا عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، ولقائل أن يقول: إنّ الذي منع من الاستغفار للكافر إنما هو السمع، فأمّا القضية العقلية فلا تأباه، فيجوز أن يكون الوعد بالاستغفار والوفاء به قبل ورود السمع، بناء على قضية العقل؛ والذي يدل على صحته قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤]، فلو كان شرطاً للإيمان لم يكن مستنكراً ومستثنى عما وجبت فيه الأسوة، وأمّا: ﴿عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ فالواعد هو إبراهيم لا آزر، أي: ما قال: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ﴾ إلا عن قوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ وتشهد له قراءة حماد الراوية: وعدها أباه، والله أعلم، ﴿حَفِيًّا﴾ الحفيّ: البليغ في البر والإلطاف، حفى به وتحفى به، ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾: أراد بالاعتزال المهاجرة إلى الشام، المراد بالدعاء: العبادة؛ لأنه منها ومن وسائطها، ومنه قوله ﷺ «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ» (٩٢٤)؛ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٩]، ويجوز أن يراد الدعاء الذي حكاه الله في سورة الشعراء، عرّض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤]، مع التواضع لله بكلمة (عسى)، وما فيه من هضم النفس.

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا

---

٩٢٤ ـ أخرجه الترمذي (٥/ ٣٧٤، ٣٧٥) كتاب تفسير القرآن: باب «ومن سورة المؤمن» رقم (٣٢٤٧)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٨) كتاب الدعاء: باب «فضل الدعاء» رقم (٣٨٢٨)، وأحمد (٤/ ٢٦٧ ـ ٢٧١ ـ ٢٧٦ ـ ٢٧٧)، والطيالسي (١/ ٢٥٣) كتاب الأذكار والدعوات: باب «ما جاء في فضل الدعاء وآدابه» رقم (١٢٥٢)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٩١) كتاب الدعاء، وابن حبان (٨/ ١٣٢) باب «ما جاء في فضل الدعاء» رقم (٢٣٩٦).

قال الحاكم: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد رواه شعبة وجرير عن منصور عن ذر.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

قال الحافظ: أخرجه أبو داود وبقية أصحاب السنن وابن حبان والحاكم من حديث النعمان بن بشير. وأخرجه أحمد وإسحاق وابن أبي شعبة وأبو يعلى والبزار والطبراني وابن أبي حاتم والطبري من حديثه، وأخرجه ابن مردويه من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنهما ـ. انتهى.

= الاستغفار، وجعل الشرع مانعاً منه، ولا يتصور هذا على قاعدتهم المهدمة، كما لا يتصور ورود الشرع بما يخالف العقل في الإلهيات، نعم قد يحكم الشرع بما لا يظهر العقل عندهم خلافه، وأما ما يظهر العقل خلافه فلا.

﴿لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

ما خسر على الله أحد ترك الكفار الفسقة لوجهه، فعوّضه أولاداً مؤمنين أنبياء، ﴿مِّن رَّحْمَتِنَا﴾: هي النبوّة عن الحسن، وعن الكلبي: المال والولد، وتكون عامّة في كل خير ديني ودنيوي أوتوه، لسان الصدق: الثناء الحسن، وعبر باللسان عما يوجد باللسان كما عبر باليد عما يطلق باليد وهي العطية؛ قال [من البسيط]:

إنّـي أتـتـنـي لِـسَـانٌ لاَ أُسَـرُّ بِـهَـا . . . . (١)

يريد الرسالة، ولسان العرب: لغتهم وكلامهم، استجاب الله دعوته: (واجعل لي لسان صدق في الآخرين)، فصيره قدوة حتى ادّعاه أهل الأديان كلهم، وقال عز وجل: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، و﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، وأعطى ذلك ذرّيته فأعلى ذكرهم وأثنى عليهم، كما أعلى ذكره وأثنى عليه.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ۚ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾

المخلص ـ بالكسر ـ: الذي أخلص العبادة عن الشرك والرياء، أو أخلص نفسه وأسلم وجهه لله، وبالفتح: الذي أخلصه الله، الرسول: الذي معه كتاب من الأنبياء، والنبيّ: الذي ينبئ عن الله ـ عز وجل ـ وإن لم يكن معه كتاب، كيوشع.

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾

الأيمن من اليمين، أي: من ناحيته اليمنى، أو من اليمن صفة للطور، أو للجانب، شبهه بمن قرّبه بعض العظماء للمناجاة؛ حيث كلمه بغير واسطة ملك، وعن أبي العالية:

---

(١) إنـي أتـتـنـي لـسـان لا أسـر بـه ... من علـو لا كـذب فـيـه ولا سـخـر
فـجـاشـت الـنـفـس لـمـا جـاء فـلـهـم ... وراكـب جـاء مـن تـثـلـيـث مـعـتـمـر
للأعشى الباهلي، لما جاء الناعي بقتل المنتشر أخيه، عبر باللسان عن الكلام مجازاً؛ لأنه آلته. وأنث الفعل لتأويل الفاعل بالكلمة أو الرسالة، وذكر فيما بعد نظراً للظاهر، من علو بالبناء على الفتح، أي: من أعلى نجد. والسخر: مصدر سخر كتعب. وجاشت القدر: غلت وارتفع ما فيها. والتجوز بالجيشان عن حرارة القلب مشهور والفل: الفئة. وتثليث: اسم موضع ممنوع من الصرف. وراكب: عطف على «فلهم»، و«معتمر» نعته، وجاء الثاني بدل.
ينظر إصلاح المنطق ص ٢٦، والأصمعيات ص ٨٨، وأمالي المرتضى ٢/ ٢٠، وجمهرة اللغة ص ٩٥٠، ١٣٠٩، وخزانة الأدب ٦/ ٥١١، وسمط اللآلي ص ٧٥، وشرح المفصل لابن يعيش ٤/ ٩٠، ولسان العرب (سخر)، (لسن)، والمؤتلف والمختلف ص ١٤، وبلا نسبة في خزانة الأدب ١/ ١٩١، ٤/ ١٥٦، ولسان العرب (علا).

قرّبه حتى سمع صريف القلم الذي كتبت به التوراة.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾

﴿مِن رَّحْمَتِنَا﴾: من أجل رحمتنا له، وترأفنا عليه: وهبنا له هارون، أو بعض رحمتنا، كما في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ [مريم: ٥٣]. و﴿أَخَاهُ﴾: على هذا الوجه بدل، و﴿هَٰرُونَ﴾: عطف بيان[1]: كقولك: رأيت رجلاً أخاك زيداً، وكان هارون أكبر من موسى، فوقعت الهبة على معاضدته ومؤازرته كذا عن ابن عباس، رضي الله عنه.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾

ذكر إسماعيل ـ عليه السلام ـ بصدق الوعد وإن كان ذلك موجوداً في غيره من الأنبياء؛ تشريفاً له وإكراماً، كالتلقيب بنحو: الحليم، والأوّاه، والصدّيق؛ ولأنه المشهور المتواصف من خصاله، عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: أنه وعد صاحباً له أن ينتظره في مكان، فانتظره سنة، وناهيك أنه وعد في نفسه الصبر على الذبح فوفى؛ حيث قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الكهف: ٩٩]، كان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن وراءهم،؛ ولأنهم أولى من سائر الناس، ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ﴾ [طه: ١٣٢]، ﴿قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]؛ ألا ترى أنهم أحق بالتصدّق عليهم، فالإحسان الديني أولى، وقيل: ﴿أَهْلِهِۦ﴾: أمته كلهم من القرابة وغيرهم؛ لأنّ أمم النبيين في عداد أهاليهم، وفيه أنّ من حق الصالح ألاّ يألو نصحاً للأجانب فضلاً عن الأقارب ٢/ ٥ب والمتصلين به، وأن يحظيهم بالفوائد الدينية ولا يفرط في شيء من ذلك.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾

قيل: سمي إدريس؛ لكثرة دراسته كتاب الله ـ عزّ وجل ـ وكان اسمه أخنوخ، وهو غير صحيح؛ لأنه لو كان أفعيلاً من الدرس لم يكن فيه إلا سبب واحد وهو العلمية، فكان منصرفاً، فامتناعه من الصرف دليل العجمة؛ وكذلك إبليس أعجمي، وليس من الإبلاس كما يزعمون، ولا يعقوب من العقب، ولا إسرائيل بإسرال كما زعم ابن السكيت، ومن

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: الظاهر أن «أخاه» مفعول «وهبنا» ولا ترادف «من» بعضاً، فتبدل «أخاه» منها. انتهى. الدر المصون.

لم يحقق ولم يتدرّب بالصناعة، كثرت منه أمثال هذه الهنات، ويجوز أن يكون معني ﴿إِدْرِيسَ﴾: في تلك اللغة قريباً من ذلك، فحسبه الراوي مشتقاً من الدرس، المكان العلي: شرف النبوّة والزلفى عند الله، وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، وهو أول من خط بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب، وأوّل من خاط الثياب ولبسها، وكانوا يلبسون الجلود، وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ يرفعه إنه رفع إلى السماء الرابعة (٩٢٥)، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إلى السماء السادسة (٩٢٦)، وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: إلى الجنة لا شيء أعلى من الجنة، وعن النابغة الجعدي: أنه لما أنشد عند رسول الله ﷺ الشعر الذي آخره [من الطويل]:

بَلَغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَسَنَاؤُنَا ... وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذٰلِكَ مَظْهَرَا[1]

---

٩٢٥ ـ أخرجه الترمذي (٥/٣١٦) كتاب التفسير: باب ومن سورة مريم حديث (٣١٥٧) من طريق شيبان عن قتادة عن أنس.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وقد رواه سعيد بن أبي عروبة وهمام، وغير واحد عن قتادة عن أنس بن مالك بن صعصعة عن النبي ـ ﷺ ـ حديث المعراج بطوله، وهذا عندنا مختصر من ذاك.
والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٤٩٤)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن مردويه.
تنبيه: وقع في «تخريج الكشاف» للزيلعي (٢/٣٢٨)، و«الدر المنثور» أن الترمذي صحح هذا الحديث، وفي نسختنا وقع تحسينه فقط.
قال الحافظ: أخرجه الترمذي من رواية شيبان عن قتادة عن أنس بهذا. وقال: هو عندي مختصر من حديث الإسراء الذي رواه سعيد، وهمام عن قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة. انتهى.
٩٢٦ ـ ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٤٩٤)، وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه، وأخرجه الطبري في «تفسيره» من طريق عطية العوفي عن ابن عباس.
وينظر تخريج الكشاف للزيلعي (٢/٣٢٨).
قال الحافظ: أخرجه الطبري وابن مردويه من رواية عطية عنه. انتهى.

---

(١) ولا خير في حلم إذا لم يكن له ... بوادر تحمي صفوه أن يكدرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا
بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

للنابغة الجعدي، أنشده أمام رسول الله ﷺ فقال: إلى أين يا أبا ليلى؟ قال: إلى الجنة بك يا رسول الله، فقال: لا يفضض الله فاك. فعمر فوق مائتي عام، وكان إذا سقطت له سن نبت بدلها. والحلم: الأناة والعقل. والبادرة: الكلمة تصدر حال الغضب. وشبه الحلم بالماء على طريق المكنية. والصفاء والتكدير: تخييل، والمراد بالجهل: عجلة الإقدام على عظائم الأمور. والإيراد جعل الشيء وارداً. والاصدار: جعله صادراً. والمراد تسبب في وجوده وإعظامه وفي تحقيره وإعدامه. ويحتمل أنه شبه الأمر المعضل بحيوان يورده صاحبه إلى الماء تارة ويرجعه أخرى، على طريق المكنية، والإيراد والإصدار. تخييل. ويجوز أن فاعل أورد ضمير الجهل، وفاعل أصدر ضمير الحليم، أي: إذا تسبب الجهل والشجاعة في أمر خطأ أرجعه الحليم وأبطله، فلا بد من =

قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إِلَى أَيْنَ يَا أَبَا لَيْلَى!» قال: إلى الجنة (٩٢٧).

---

٩٢٧ ـ أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٢٥١)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (ص ٣٤٤)، وفي «أخبار أصبهان» (١/ ٧٤) من طريق يعلى بن الأشدق عن النابغة فذكره.

ومن هذا الوجه ذكره الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (٦/ ٣١١ ـ بتحقيقنا)، وعزاه للبزار والحسن بن سفيان في مسنديهما، وأبي نعيم في أخبار أصبهان والشيرازي في الألقاب، كلهم من طريق يعلى بن الأشدق وقال: وهو ساقط الحديث.

وقال الحافظ في الإصابة (٦/ ٣١١ ـ ٣١٢).

قال أبو نُعَيْم: رواه عن يعلى جماعةٌ منهم هاشم بن القاسم الحرّاني، وأبو بكر الباهليّ، وعروة العِرقيّ، لكنّه تُوبع؛ فقد وقعت لنا قصةٌ في غريب الحديث للخطابيّ؛ وفي كتاب العلم للمرهبيّ وغيرهما، من طريق مهاجر بن سليم، عن عبد الله بن جراد: سمعت نابغة بني جعدة يقول: أنشدت النبيّ ﷺ قولي: عَلَونا السماء... البيت؛ فغضب وقال: «أَيْنَ المَظْهَرُ يَا أَبَا لَيْلَى»؟ قلت: الجنة. قال: «أَجَلْ إن شَاءَ الله». ثم قال: أَنْشِدني من قولك. فأنشدته البيتين: ولا خَيْر في حلم، فقال لي: «أَجَدْتَ، لا يَفْضُض الله فَاكَ». فرأيتُ أسنانه كالبرد المنهل، ما انفصمت له سنٌ ولا انفلتت.

ورويناه في المؤتلف والمختلف لِلْدارقُطْنِيّ، وفي الصحابة لابن السكن، وفي غيرهما من طريق الرَّحال ابن المنذر: حدثني أبي، عن أبيه كرز بن أسامة، وكانت له وفادة مع النابغة الجعديّ، فذكرها بنحوه، ورويناها في الأربعين البلدانية للسلفي، من طريق أبي عمرو بن العلاء، عن نصر بن عاصم الليثيّ، عن أبيه: سمعتُ النابغة يقول: أتيتُ رسول الله ﷺ فأنشدته قولي: أتيت رسول الله... البيت، وبعده: بلغنا السماء... البيت؛ فقال: «إِلَى أَيْنَ يَا أَبَا لَيْلَى»؟ قال: إلى الجنة. فقال رسول الله ﷺ: «إنْ شَاءَ الله»... فلما أنشدته ولا خَيْرَ في جهل... البيت: ولا خير في حلم... البيت ـ فقال لي: «صَدَقْتَ لاَ يَفْضُض الله فَاكَ» فبقي عمره أحسن الناس ثغراً كلما سقطت سنٌ عادت أخرى؛ وكان معمّراً.

ورويناه في مسند الحارث بن أبي أسامة، من طريق الحسن بن عبيد الله العنبريّ، قال: حدّثني مَنْ سمع النابغة الجعدي يقول: أتيتُ رسولَ الله ﷺ فأنشدته [من الطويل]:

وَإِنَّا لَقَومٌ مَا نُعَوِّدُ خَيْلَنَا	إِذَا مَا التَقَيْنَا أَنْ تَحِيدَ وَتَنْفِرَا
وَنُنْكِرُ يَوْمَ الرَّوْعِ أَلْوَانَ خَيْلِنَا	مِنَ الطَّعْنِ حَتَّى نَحْسَبَ الجَوْنَ أَشْقَرَا
وَلَيْسَ بِمَعْرُوفٍ لَنَا أَنْ نَرُدَّهَا	صِحَاحاً وَلاَ مُسْتَنْكَرًا أَنْ تُعَقَّرَا

=

= اجتماع الحلم والجراءة معاً حتى يكمل الرجل. ومجدنا وسناؤنا بالرفع بدلاً من فاعل بلغنا. وقيل: هما مفعولان فهما بالنصب. وانظر ما وجهه، ولعله أنهما ظرفان اعتباريان، أي: بلغنا السماء في المجد والسناء. أو بدلان من السماء، بأن شبههما بها، ثم أطلقها عليهما وأبدلهما منها، وهو أوجه من الظرفية. ولو قيل على النصب: أنهما تمييزان. كان وجيها، لكنه على رأي الكوفيين القائلين بجوازه معرفة، ولما ادعى بلوغ السماء بنى عليه ما يبني على المحسوس فقال: وإنا لنرجو مظهرا فوق ذلك.

ينظر: خزانة الأدب (٣/ ١٦٩)، (٧/ ٤١٩)، وشرح التصريح (٢/ ١٦١)، ولسان العرب (٤/ ٥٢٣ ـ ٥٢٩)، والمقاصد النحوية (٤/ ١٩٣)، وأوضح المسالك (٣/ ٤٠٦)، وشرح الأشموني (٢/ ٤٣٩).

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨)﴾

﴿أُولَٰئِكَ﴾: إشارة إلى المذكورين في السورة من لدن زكريا إلى إدريس ـ عليه السلام ـ و«من» في ﴿مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾: للبيان مثلها في قوله تعالى في آخر سورة الفتح: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً﴾ [الفتح: ٢٩]؛ لأن جميع الأنبياء منعم عليهم، ومن الثانية للتبعيض، وكان إدريس من ذرية آدم لقربه منه؛ لأنه جد أبي نوح، وإبراهيم ـ عليه السلام ـ: من ذرية من حمل مع نوح؛ لأنه من ذرية سام بن نوح، وإسماعيل: من ذرية إبراهيم، وموسى، وهارون، وزكريا، ويحيى: من ذرية إسرائيل؛ وكذلك عيسى؛ لأنّ مريم من ذريته، ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾: يحتمل العطف على من الأولى والثانية، إن جعلت الذين خبراً لأولئك كان ﴿إِذَا تُتْلَىٰ﴾: كلاماً مستأنفاً، وإن جعلته صفة له كان خبراً، قرأ شبل بن عباد المكي: «يتلى»: بالتذكير؛ لأن التأنيث غير حقيقي مع وجود الفاصل، البكي: جمع باك، كالسجود والقعود في جمع ساجد وقاعد، وعن رسول الله ﷺ: «اتْلُوا القُرْآنَ وَابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا» (٩٢٨)، وعن صالح المري ـ رضي الله عنه ـ: قرأت القرآن

= بَلَغْنَا السَّمَاءَ.......... .... البيت.

وبقية القصيدة نحوه.

ورويناها مسلسلة بالشعراء مِنْ رواية دعبل بن علي الشاعر، عن أبي نواس، عن والبة بن الحباب، عن الفرزدق، عن الطرماح، عن النابغة؛ وهي في كتاب الشعراء لأبي زُرعة الرازي المتأخر.

قال الحافظ: أخرجه البزار، وأبو نعيم، والبيهقي في الدلائل لها من طريق يعلى بن الأشرف عنه، وله طريق أخرى عند البيهقي وذكر القصيدة. انتهى.

٩٢٨ ـ أخرجه ابن ماجه (١/ ٤٢٤) كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها: باب في حسن الصوت بالقرآن حديث (١٣٣٧)، وأبو يعلى (٢/ ٤٩ ـ ٥٠) رقم (٦٨٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢٣١)، كلهم من طريق الوليد بن مسلم ثنا أبو رافع عن ابن أبي مليكة عن عبد الرحمن بن السائب عن سعد بن أبي وقاص به.

قال البوصيري في الزوائد: في إسناده أبو رافع اسمه إسماعيل بن رافع ضعيف متروك. وللحديث طريق آخر.

أخرجه إسحاق بن راهويه والبزار كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (٢/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠) من طريق عبد الرحمن بن أبي بكر عن ابن أبي مليكة عن عبد الله بن السائب عن سعد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «اقرءوا القرآن وابكوا؛ فإن لم تبكوا فتباكوا». وقال البزار: لا نعلمه عن سعد إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد، وعبد الرحمن بن أبي بكر هذا لين الحديث.

قال الحافظ: أخرجه إسحاق والبزار من طريق عبد الرحمن بن أبي مليكة عن ابن أبي مليكة عن عبد الرحمن بن السائب عن سعيد بلفظ: «إن القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا ـ الحديث» ومن هذا الوجه أخرجه أبو يعلى والحارث. والبيهقي في الشعب، وإسماعيل أيضاً لين. انتهى.

على رسول الله ﷺ في المنام، فقال لي: «هٰذِهِ القِرَاءَةُ يَا صَالِحُ، فَأَيْنَ البُكَاءُ؟»، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إذا قرأتم سجدة سبحان، فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه، وعن رسول الله ﷺ «إِنَّ القُرْآنَ أُنْزِلَ بِحُزْنٍ، فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَتَحَازَنُوا» (٩٢٩)، وقالوا: يدعو في سجدة التلاوة بما يليق بآيتها؛ فإن قرأ آية تنزيل السجدة، قال: اللهم: اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك، وأعوذ بك من أن أكون من المستكبرين عن أمرك، وإن قرأ سجدة سبحان، قال: اللهم، اجعلني من الباكين إليك الخاشعين لك، وإن قرأ هذه، قال: اللهم، اجعلني من عبادك المنعم عليهم المهتدين، الساجدين لك، الباكين عند تلاوة آياتك.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾

خلفه: إذا عقبه، ثم قيل في عقب الخير: «خلف»: بالفتح، وفي عقب السوء: خلف: بالسكون، كما قالوا: «وعد» في ضمان الخير، و«وعيد»: في ضمان الشر، عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: هم اليهود؛ تركوا الصلاة المفروضة، وشربوا الخمر، واستحلوا نكاح الأخت من الأب، وعن إبراهيم ومجاهد ـ رضي الله عنهما ـ: أضاعوها

---

٩٢٩ ـ أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ١٩٦) من طريق إسماعيل بن سيف ثنا عوين بن عمرو أخو رياح القيسي ثنا الجريري عن ابن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرءوا القرآن بحزن فإنه نزل بالحزن».

واستغربه أبو نعيم.

وأخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣/ ٤٢٧) رقم (٢٩٢٣) من طريق إسماعيل بن سيف به وقال: لم يرو هذا الحديث عن سعيد إلا عوين تفرد به إسماعيل.

والحديث ذكره الحافظ الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٧٣)، وقال: رواه الطبراني وفيه إسماعيل بن سيف وهو ضعيف.

تنبيه: عزا هذا الحديث الحافظ الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢/ ٣٣٠) إلى أبي يعلى ولم أجده في مسند أبي يعلى المطبوع، ثم وجدت الحافظ ابن حجر ذكر هذا الحديث في «المطالب العالية» (٣٤٩٨)، وعزاه لأبي يعلى أيضاً فلعل الحديث في مسنده الكبير.

وللحديث شاهد من حديث ابن عباس.

أخرجه ابن مردويه في «تفسيره» كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (٢/ ٣٣٠) حدثنا عبد الباقي بن قانع ثنا محمد بن يونس ثنا أبو زيد سعيد بن أوس ثنا قيس بن الربيع عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن القرآن نزل بحزن فاقرءوه بحزن».

ومحمد بن يونس هو الكديمي ضعيف.

قال الحافظ: أخرجه ابن مردويه من حديث ابن عباس بلفظ: «فاقرءوه بحزن» وإسناده ضعيف. ورواه أبو يعلى والعقيلي. وأبو نعيم في ترجمة رباح بن عمرو، والعبسي من حديث أبي بريدة عن أبيه بلفظ: «اقرءوا القرآن بحزن فإنه نزل بحزن». انتهى.

بالتأخير، وينصر الأول قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ يعني: الكفار، وعن علي ـ رضي الله عنه ـ في قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾: من بنى الشديد، وركب المنظور، ولبس المشهور، وعن قتادة ـ رضي الله عنه ـ: هو في هذه الأمة، وقرأ ابن مسعود والحسن والضحاك ـ رضي الله عنهم ـ: الصلوات: بالجمع.

كل شر عند العرب: غيّ، وكل خير: رشاد؛ قال المرقش [من الطويل]:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْراً تَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ ... وَمَنْ يَغْوَ لاَ يَعْدَمْ عَلَى الْغَيِّ لاَئِمَا[1]

وعن الزجاج: جزاء غيّ؛ كقوله تعالى: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨] أي: مجازاة أثام، أو غيًا عن طريق الجنة، وقيل: «غيّ»: واد في جهنم تستعيذ منه أوديتها، وقرأ الأخفش: (يلقون).

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾

قرئ: «يدخلون»، و«يدخلون»، أي: لا ينقصون شيئاً من جزاء أعمالهم ولا يمنعونه، بل يضاعف لهم؛ بياناً لأن تقدّم الكفر لا يضرهم إذا تابوا من ذلك، من قولك: ما ظلمك أن تفعل كذا، بمعنى: ما منعك، أو لا يظلمون ألبتة، أي؛ شيئاً من الظلم.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾

لما كانت الجنة مشتملة على جنات عدن أبدلت منها؛ كقولك: أبصرت دارك القاعة والعلالي، و«عدن»: معرفة علم، بمعنى: العدن، وهو الإقامة، كما جعلوا: فينة،

---

(١) أمن حلم أصبحت تنكت واجمًا؟ ... وقد تعتري الأحلام من كان نائما
فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ... ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

للمرقش الأصغر صاحب فاطمة بنت المنذر، والأكبر عم الأصغر وعم طرفة، وهو صاحب أسماء، والاستفهام للتوبيخ، والحلم ـ بضمتين ـ: ما يراه النائم. والنكت: التخطيط والنقر في الأرض بأصبع، أو عود، كما يفعل المهموم المتفكر. والواجم: الحزين، والواو للحال، أي: والحال أن أضغاث الأحلام قد تعتري النائم، فكان مجردة عن المعنى، فمن يلق: أي يصادف خيراً في أفعاله، يحمد الناس فعله، أو شأنه. وإيقاع الحمد عليه لأنه سببه، ومن يفعل غيا لا يعدم لائماً يلومه على غيه. وقيل: أراد بالخير الغنى، وبالغي: الفقر، ويبعده مقام اللوم وعدم مناسبته لما قبله، وغوى يغوي: من باب ضرب: انهمك في الجهل، وعدم يعدم ـ من باب علم ـ: فقده.
للمرقش الأصغر في ديوانه ص ٥٦٥، ولسان العرب (غوى)، وشرح اختيارات المفضل ص ١١٠٤، وتاج العروس (غوي)، وبلا نسبة في كتاب العين ٢/ ٢٣٨، ومقاييس اللغة ٤/ ١٩٢، ٣٩٩، والمخصّص ٦/ ١٧٠، ١٣/ ٧٦.

وسحر، وأمس ـ فيمن لم يصرفه ـ: أعلاماً لمعاني ٢/٦١أ: الفينة[1]، والسحر، والأمس، فجرى مجرى العدن لذلك، أو هو علم لأرض الجنة؛ لكونها مكان إقامة، ولولا ذلك لما ساغ الإبدال؛ لأن النكرة لا تبدل من المعرفة إلا موصوفة، ولما ساغ وصفها بالتي، وقرئ: «جنات عدن»، و«جنة عدن»: بالرفع على الابتداء، أي: وعدها وهي غائبة عنهم غير حاضرة، أو هم غائبون عنها لا يشاهدونها، أو بتصديق الغيب والإيمان به، قيل في ﴿مَأْتِيًّا﴾: مفعول، بمعنى: فاعل، والوجه أنّ الوعد هو الجنة وهم يأتونها، أو هو من قولك: أتى إليه إحساناً، أي: كان وعده مفعولاً منجزاً.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾

اللغو: فضول الكلام وما لا طائل تحته، وفيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو واتقائه؛ حيث نزه الله عنه الدار التي لا تكليف فيها، وما أحسن قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٥٥]، نعوذ بالله من اللغو والجهل والخوض فيما لا يعنينا، أي: إن كان تسليم بعضهم على بعض أو تسليم الملائكة عليهم لغواً، فلا يسمعون لغواً إلا ذلك، فهو من وادي قوله [من الطويل]:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ[2]

أو لا يسمعون فيها إلا قولاً يسلمون فيه من العيب والنقيصة، على الاستثناء المنقطع[3]؛ أو لأن معنى: السلام هو: الدعاء بالسلامة[4]، ودار السلام: هي دار السلامة، وأهلها عن الدعاء بالسلامة أغنياء، فكان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث،

---

(١) قوله «لمعاني الفينة» في الصحاح «لقيته الفينة بعد الفينة» أي الحين بعد الحين. وإن شئت حذفت الألف واللام فقلت: لقيته فينة، كما قالوا: لقيته الندري، وفي ندري. (ع).

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد عند تفسير آية ١٢٧ من سورة الأعراف من الجزء الثاني فراجعه إن شئت اهـ.

(٣) قال محمود: «يجوز أن يكون من قوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

وأن يكون استثناء منقطعاً» قال أحمد: والفرق بين الوجهين أنه جعل الفلول عيباً على سبيل التجوز، بتاً لنفي العيب بالكلية، كأنه يقول: إن كان فلول السيوف من القراع عيباً فإنهم ذوو عيب، معناه: وإن لم يكن عيباً فليس فيهم عيب ألبتة؛ لأنه لا شيء سوى هذا، فهو بعد هذا التجوز والفرض استثناء متصل.

(٤) عاد كلامه. قال: «ويجوز أن يكون متصلاً على أن يكون السلام هو الدعاء بالسلامة... إلخ» قال أحمد: وهذا يجعله من المتصل على أصل الحقيقة، لا كالأول الناشئ عن المجاز. وفي هذا الباب بعد؛ لأنه يقتضي البت بأن الجنة يسمع فيها لغو وفضول، وحاش لله، فلا غول فيها ولا لغو.

لولا ما فيه من فائدة الإكرام.

من الناس من يأكل الوجبة[1]، ومنهم من يأكل متى وجد ـ وهي عادة المنهومين، ومنهم من يتغدى ويتعشى ـ وهي العادة الوسطى المحمودة، ولا يكون ثم ليل ولا نهار، ولكن على التقدير؛ ولأن المتنعم عند العرب من وجد غداء وعشاء، وقيل: أراد دوام الرزق ودروره، كما تقول: أنا عند فلان صباحاً ومساء وبكرة وعشيًّا، يريد: الديمومة، ولا تقصد الوقتين المعلومين.

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾

﴿نُورِثُ﴾، وقرئ: «نورّث»، استعارة، أي: نبقي عليه الجنة كما نبقي على الوارث مال المورّث، ولأن الأتقياء يلقون ربهم يوم القيامة قد انقضت أعمالهم وثمرتها باقية وهي الجنة، فإذا أدخلهم الجنة فقد أورثهم من تقواهم كما يورّث الوارث المال من المتوفى، وقيل: أورثوا من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار لو أطاعوا.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾: حكاية قول جبريل ـ صلوات الله عليه ـ حين استبطأه رسول الله ﷺ روي أنه احتبس أربعين يوماً، وقيل: خمسة عشر يوماً؛ وذلك حين سئل عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فلم يدر كيف يجيب ورجا أن يوحى إليه فيه، فشق ذلك عليه مشقة شديدة، وقال المشركون: ودّعه ربه وقلاه، فلما نزل جبريل ـ عليه السلام ـ قال له النبي ﷺ : «أَبْطَأْتَ حَتَّىٰ سَاءَ ظَنِّي وَٱشْتَقْتُ إِلَيْكَ». قال: إني كنت أشوق ولكني عبد مأمور، إذا بعثت نزلت، وإذا حبست احتبست، وأنزل الله ـ سبحانه ـ هذه الآية وسورة الضحى (٩٣٠)، والتنزل على معنيين: معنى النزول على مهل، ومعنى النزول على

---

٩٣٠ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف: رواه ابن إسحاق في سيرته بنقص يسير. اهـ.
وأخرجه ابن هشام في سيرته (١/٣٧٨: ٣٨١) رقم (٢٨٦ ـ ٢٨٧)، والبيهقي في «دلائل النبوة»: (٢/٢٦٩ ـ ٢٧١) بسنده عن ابن إسحاق، وقال: «حدثني رجل من أهل مكة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به»، ومن طريق ابن إسحاق، رواه أبو نعيم في دلائل النبوة، كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/٣٣١)، ورواه أيضاً من طريق الكلبي: عن أبي صالح، عن ابن عباس فذكر نحوه، =

---

(١) قوله «من الناس من يأكل الوجبة» أي يأكل كل يوم وليلة مرة. وقد وجب نفسه ترجيباً إذا عودها ذلك؛ كذا في الصحاح. (ع)

الإطلاق؛ كقوله [من الطويل]:

فَلَسْتَ لإِنْسِيٍّ وَلَكِنْ لِمَلأَكٍ تَنَزَّلَ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ[1]

= وفيه قال: «فأبطأ جبريل عن النبي ـ ﷺ ـ خمسة عشر يوماً لا يأتيه لتركه الاستثناء... الحديث.

كما أخرجه الواحدي في تفسيره (٣/١٨٩)، وعزاه الزيلعي إلى الثعلبي في تفسيره، وإلى الواحدي في أسباب النزول.

قال الحافظ: ذكره الثعلبي عن عكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل والكلبي. فقالوا: احتبس، فذكره سواء، وكأنه ملفق عندهم، فقد ذكره ابن إسحاق في السيرة، قال: حدثني شيخ من أهل مصر عن عكرمة عن ابن عباس «أن قريشاً جاءوا فقالوا: يا محمد. أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ـ فذكر القصة ـ وفيها فمكث فيما يذكرون خمسة عشر ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك، وصار لا يأتيه جبريل. فذكره بتغير وزيادة ونقص. ورواه أبو نعيم في الدلائل من طريقه، ومن طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس نحوه، وقال أبطأ عنه خمسة عشر يوماً لتركه الاستثناء. انتهى.

---

(١) تعاليت أن تعزى إلى الإنس جلة وللإنس من يعزوك فهو كذوب
فلست بإنسي ولكن ملأكا تنزل من جو السماء يصوب

لرجل من عبد القيس، يمدح النعمان بن المنذر. وقيل: لأبي وجزة يمدح عبد الله بن الزبير. وتعزى: أي تنسب، والجلة ـ بالضم ـ: وعاء التمر، وبالكسر: الجماعة العظيمة، جمع جليل، وبالفتح: البعرة، وهو تمييز محول من نائب عن الفاعل، أي: تعاليت عن أن ينسب وعاؤك أي: أصلك إلى الإنس. وقوله: وللإنس من يعزوك، فيه تقديم معمول الصلة على الموصول. والمشهور منعه؛ لأنهم يتوسعون في الظروف، وزيدت الفاء في خبر الموصول لأنه يشبه الشرط، ولو جعل شرطاً لكان فيه إثبات حرف العلة بعد الجازم للضرورة. والملأك معفل، بتقديم العين من الألوكة بالفتح وهي الرسالة، وقال أبو عبيدة: هو مفعل على اسم المكان، من لأك إذا أرسل، ولعله جاء على مفعل لتصوير أن الرسول مكان الرسالة. وقال ابن كيسان: هو فعأل من الملك، فالهمزة زائدة، وعلى كل يخفف بالنقل فيقال فيه تلك. والصوب: القصد أو الميل عند النزول، ونصب ملأكا لأنه اسم لكن، وما بعده صفته، أي: ولكن ملأكا نازلاً من السماء أنت. وفيه: أن المحدث عنه الممدوح لا الملك، ويمكن أنه قلب للمبالغة كما قالوه في التشبيه المقلوب. ويحتمل أن تقديره: ولكنك كنت ملأكا، وفيه بعد. والأوجه رواية الصحاح:

فلست لإنسي ولكن لملأك

أي: فلست منسوباً لإنسي ولكن لملك، وبالغ في ذلك حتى جعله نازلاً من جهة السماء، يصوب: أي يقصد إلى جهة.

في صلة ديوانه ص ١١٨، ولمتمم بن نويرة في ديوانه ص ٨٧، وشرح أشعار الهذليين ١/٢٢٢، ولرجل من عبد القيس، أو لأبي وجزة، أو لعلقمة في المقاصد النحوية ٤/٥٣٢، ولرجل من عبد القيس يقال: إنه النعمان، أو لأبي وجزة في لسان العرب (ملك)، وبلا نسبة في الأزهية ص ٢٥٢، والأشباه والنظائر ٨/٦٩، والاشتقاق ص ٢٦، وإصلاح المنطق ص ٧١، وأمالي ابن الحاجب ص ٨٤٣، وجمهرة اللغة ص ٩٨٢، وشرح شافية ابن الحاجب ٢/٣٤٦، وشرح شواهد الشافية ص ٢٨٧، والكتاب ٤/٣٨٠، ولسان العرب (صوب)، (ألك) (لأك)، (ملك)، والمنصف ٢/١٠٢.

لأنه مطاوع نزل، ونزل يكون بمعنى: أنزل، وبمعنى: التدريج، واللائق بهذا الموضع هو: النزول على مهل، والمراد: أن نزولنا في الأحايين وَقْتًا غِبٌّ وقت ليس إلا بأمر الله، وعلى ما يراه صواباً وحكمة، وله ما قدامنا، ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾: من الجهات والأماكن، ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: وما نحن فيها فلا نتمالك أن ننتقل من جهة إلى جهة ومكان إلى مكان إلا بأمر المليك: ومشيئته، وهو الحافظ العالم بكل حركة وسكون، وما يحدث ويتجدد من الأحوال، لا يجوز عليه الغفلة والنسيان، فأنى لنا أن نتقلب في ملوكته إلا إذا رأى ذلك مصلحة وحكمة، وأطلق لنا الإذن فيه، وقيل: ما سلف من أمر الدنيا وما يستقبل من أمر الآخرة، وما بين ذلك: ما بين النفختين وهو أربعون سنة، وقيل: ما مضى من أعمارنا وما غبر منها، والحال التي نحن فيها، وقيل: ما قبل وجودنا وما بعد فنائنا، وقيل: الأرض التي بين أيدينا إذا نزلنا، والسماء التي وراءنا، وما بين السماء والأرض، والمعنى: أنه المحيط بكل شيء، لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة، فكيف نقدم على فعل نحدثه إلا صادراً عما توجبه حكمته ويأمرنا به ويأذن لنا فيه، وقيل: معنى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾: وما كان تاركاً لك؛ كقوله تعالى: ﴿ وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الضحى: ٣]، أي: ما كان امتناع النزول إلا لامتناع الأمر به، ٢/٦ب وأما احتباس الوحي فلم يكن عن ترك الله لك وتوديعه إياك، ولكن لتوقفه على المصلحة، وقيل: هي حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة، أي: وما ننزل الجنة إلا بأن من الله علينا بثواب أعمالنا وأمرنا بدخولها، وهو المالك لرقاب الأمور كلها السالفة والمترقبة والحاضرة، اللاطف في أعمال الخير والموفق لها والمجازي عليها، ثم قال الله تعالى ـ تقريراً لقولهم ـ: وما كان ربك نسيًّا لأعمال العاملين، غافلاً عما يجب أن يثابوا به، وكيف يجوز النسيان والغفلة على ذي ملكوت السماء والأرض وما بينهما؟ ثم قال لرسوله ـ ﷺ ـ: فحين عرفته على هذه الصفة، فأقبل على العمل واعبده: يثبك كما أثاب غيرك من المتقين، وقرأ الأعرج ـ رضي الله عنه ـ: «وما يتنزل»: بالياء على الحكاية عن جبريل ـ عليه السلام ـ والضمير: للوحي، وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: إلا بقول ربك: يجب أن يكون الخلاف في النسي مثله في البغي.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: بدل من ربك، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أي: هو رب السموات والأرض، ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾؛ كقوله [من الطويل]:

وَقَائِلَةٍ خَوْلَانُ فَانْكِحْ فَتَاتَهُمْ . . . .[1]

---

(١) وقائلة خولان فانكح فتاتهم ... وأكرومة الحيين خلو كما هيا =

وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾: من كلام المتقين، وما بعده من كلام رب العزة.

فإن قلت: هلا عدى: ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾: بعلى التي هي صلته؛ كقوله تعالى: ﴿... عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

قلت: لأن العبادة جعلت بمنزلة القرن في قولك للمحارب: اصطبر لقرنك: أي اثبت له فيما يورد عليك من شداته أريد أن العبادة تورد عليك شدائد ومشاق، فاثبت لها ولا تهن، ولا يضق صدرك عن إلقاء عداتك من أهل الكتاب إليك الأغاليط، وعن احتباس الوحي عليك مدة وشماتة المشركين بك، أي: لم يسم شيء بالله قط، وكانوا يقولون لأصنامهم: آلهة، والعزى: إله، وأما الذي عوض فيه الألف واللام من الهمزة، فمخصوص به المعبود الحق غير مشارك فيه، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لا يُسَمَّىٰ أحد الرحمن غيره (٩٣١)، ووجه آخر: هل تعلم من سمي باسمه على الحق دون

---

٩٣١ ـ أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٧٥) كتاب التفسير وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».
وذكره الواحدي في تفسيره (٣/ ١٨٩)، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٠٣).

= شاعره مجهول. أي: ورب قائلة. وخولان بالفتح اسم قبيلة باليمن، وهو مبتدأ خبره ما بعده، والفاء زائدة فيه على رأي الأخفش والفراء، ومنع سيبويه زيادتها هنا: لأن المبتدأ لم يشبه الشرط، فخبره محذوف، أي: خولان كرام فانكح أي تزوج فتاتهم، أو هو خبر لمحذوف، أي: هؤلاء خولان المعروفون بالكرم، تتزوج بفتاتهم. وبني «أكرومة» من الكرم للدلالة على كثرة الكرم، كما أن أعجوبة من التعجب للدلالة على كثرته، والجملة حالية، فيحتمل أنها مانعة من نكاح الفتاة، أي: قالت لي ذلك، والحال أن أكرومة الحيين أي كريمة حي أبي وحي أمي؛ خلو بالضم: خالية من الأرواح كما كانت، فهي أولى من الفتاة بالزواج لقرابتها مني. ويحتمل أنها داعية إليه، فالمعنى: قالت لي ذلك والحال أن الفتاة التي هي أكرومة الحيين، أي حي أبيها وحي أمها من خولان، على ما هي عليه من البكارة، أو من الخلو من الأزواج لم تتزوج أحداً قبلي، فهي حقيقة بأن أتزوجها لكرم طرفيها، فعلم أن الكاف بمعنى على. ويجوز أن يشبه حالها الآن بحالها فيما مضى. فالكاف على أصلها. ويحتمل أن الواو للعطف، أي: قالت ذلك، وقالت: إنها خالية لم يطمثها أحد قبلك، فهي حقيقة بالزواج لذلك، لكنه بعيد.
ينظر الأزهية ص ٢٤٣، أوضح المسالك ٢/ ١٦٣، الجنى الداني ص ٧١، خزانة الأدب ١/ ٣١٥، ٤٥٥، ٤/ ٣٦٩، ٨/ ١٩، ١١/ ٣٦٧ الدرر ٢/ ٣٦، الرد على النحاة ص١٠٤، رصف المباني ص ٣٨٦، شرح أبيات سيبويه ١/ ٤١٣، شرح الأشموني ١/ ١٨٩، شرح التصريح ١/ ٢٩٩، شرح شواهد الإيضاح ص ٨٦، شرح شواهد المغني ١/ ٤٦٨، ٢/ ٨٧٣، شرح المفصل لابن يعيش ١/ ١٠٠، ٨/ ٩٥، الكتاب ١/ ١٣٩، ١٤٣، لسان العرب (غلا)، المقاصد النحوية ٢/ ٥٢٩، همع الهوامع ١/ ١١٠ العين ٢/ ٥٢٩، الدرر ١/ ٧٩، الدر المصون ٢/ ٥٢٢.

الباطل؛ لأن التسمية على الباطل في كونها غير معتدّ بها كلا تسمية، وقيل: مثلاً وشبيهاً، أي: إذا صح أن لا معبود يوجه إليه العباد العبادة إلا هو وحده، لم يكن بد من عبادته والاصطبار على مشاقها وتكاليفها.

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾

يحتمل أن يراد بالإنسان الجنس بأسره، وأن يراد بعض الجنس وهم الكفرة.

فإن قلت: لم جازت إرادة الأناسي كلهم، وكلهم غير قائلين ذلك؟

قلت: لما كانت هذه المقالة موجودة فيمن هو من جنسهم، صح إسناده إلى جميعهم، كما يقولون: بنو فلان قتلوا فلانا؛ وإنما القاتل رجل منهم؛ قال الفرزدق [من الطويل]:

فَسَيْفُ بَنِي عَبْسٍ وَقَدْ ضَرَبُوا بِهِ ... نَبَا بِيَدَيْ وَرْقَاءَ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ[1]

فقد أسند الضرب إلى بني عبس مع قوله: «نبا بيدي ورقاء»، وهو ورقاء بن زهير بن جذيمة العبسي.

فإن قلت: بم انتصب: ﴿إِذَا مَا مِتُّ﴾، وانتصابه بأخرج ممتنع لأجل اللام، لا تقول: اليوم لزيد قائم؟

قلت: بفعل مضمر يدل عليه المذكور.

فإن قلت: لام الابتداء الداخلة على المضارع تعطي معنى: الحال، فكيف جامعت حرف الاستقبال[2]؟

= وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان.

---

(١) للفرزدق وهذا لقبه، واسمه همام أو هميم، يريد: ورقاء بن زهير بن جذيمة العبسي. أمره سليمان بن عبد الملك بضرب أعناق بعض أسرى الروم، وأعطاه سيفاً لا يقطع فقال: بل أضربهم بسيف أبي رغوان مجاشع، يعني نفسه، فضرب عنق خالد فانحرف السيف وارتفع عن المضرب، فضحكوا منه. ونسب السيف والضرب إلى بني عبس مع أنهما لواحد منهم، تعظيماً لهما وتفخيماً. وجعله في اليدين إشارة إلى أنه كان مجمعاً أمره وحازماً عزمه غير متهاون... والمعنى: أن الحذر لا ينفع من القدر كما وقع لورقاء، مع أنه في غاية الحرص، لا سيما أمام الملك. ويجوز أنه يريد ذم بني عبس.

(٢) قال محمود: «إن قلت كيف اجتمعت اللام وهي للحال مع حرف الاستقبال... الخ» قال أحمد: =

قلت: لم تجامعها إلا مخلصة للتوكيد، كما أخلصت الهمزة في: يا ألله: للتعويض، واضمحل عنها معنى التعريف[1]، و«ما» في ﴿إِذَا مَا﴾: للتوكيد ـ أيضاً ـ فكأنهم قالوا: أحقاً أنا سنخرج أحياء حين يتمكن فينا الموت والهلاك؟ على وجه الاستنكار والاستبعاد، والمراد: الخروج من الأرض، أو من حال الفناء، أو هو من قولهم: خرج فلان عالماً، وخرج شجاعاً: إذا كان نادراً في ذلك، يريد: سأخرج حيًّا نادراً على سبيل التهزؤ، وقرأ الحسن وأبو حيوة: لسوف أخرج، وعن طلحة بن مصرف ـ رضي الله عنه ـ: لسأخرج؛ كقراءة ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: ولسيعطيك، وتقديم الظرف وإيلاؤه حرف الإنكار من قبل أن ما بعد الموت هو وقت كون الحياة منكرة، ومنه جاء إنكارهم، فهو كقولك: للمسيء إلى المحسن: أحين تمت عليك نعمة فلان أسأت إليه: الواو عطفت ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾ على ﴿وَيَقُولُ﴾، ووسطت همزة الإنكار بين المعطوف عليه وحرف العطف، يعني: أيقول ذلك ولا يتذكر حال النشأة الأولى حتى لا ينكر الأخرى[2]؛ فإن تلك أعجب

= ولاعتقاد تناقض الحرفين: منع الكوفيين اجتماعهما. وإنما جردت اللام من معناها لتلائم «سوف» دون أن تجرد سوف لتلائم اللام؛ لأنه لو عكس هذا للغت سوف، إذ لا معنى لها سوى الاستقبال. وأما اللام إذا جردت من الحال بقي لها التوكيد، فلم تلغ، فتعين، والله أعلم.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وما ذكر من أنَّ اللام تعطي الحال مخالف فيه»، فعلى مذهب مَنْ لا يرى ذلك يسقط السؤال، وأما قوله: «كما أخلصت الهمزة» فليس ذلك إلاّ على مذهب من يزعم أن أصله: إلَه، وأما مَنْ يزعم أنَّ أصله لاَهِ، فلا تكون الهمزة فيه للتعويض إذ لم يحذف منه شيء، ولو قلنا إنَّ أصله: إلَه وحذفت فاء الكلمة لم يتعين أنَّ الهمزة فيه في النداء للتعويض؛ إذ لو كانت عوضاً عن المحذوف لثبت دائماً في النداء وغيره، ولما جاز حذفها في النداء، قالوا: «يا للَّهُ بحذفها وقد نصُّوا على أنَّ قطع همزة الوصل في النداء شاذ» انتهى. الدر المصون.

(٢) قال محمود: «ذكر الله الإنسان النشأة الأولى ليعترف بالأخرى... إلخ» قال أحمد: مذهب أهل السنة أن إعادة المعدوم جائزة عقلاً، ثم واقعة نقلاً. والمعتزلة وإن وافقت على ذلك، إلا أنها تزعم أن المعدوم له ذات ثابتة في العدم، يقضي عليها بأنها شيء فليس عندهم عدم صرف ونفي محض قبل الوجود ولا بعده، فكأنهم لولا ذلك لقالوا بقول الفلاسفة الذين هم مختصرهم، ولأنكروا إعادة المعدوم كما أنكره القدماء. وعقيدة أهل السنة هي المطابقة للآية؛ لأن النشأة الأولى لم يتقدمها وجود، ولأن المنشأ ابتداء لم يكن شيئاً قبل ذلك. وأما النشأة الثانية فقد تقدمها وجود، وكان المنشأ قبلها شيئاً في زمان وجوده، ثم عدم وبطلت شيئيته، فظهر فرق ما بين النشأتين كما نطق به القرآن. وأما المعتزلة فإن قالوا: إن الأجسام يعدمها الله ثم يوجدها، فقد قالوا الحق، لكن لا يتم على أصلهم فرق بين النشأتين؛ لأن المعدوم فيهما كان شيئاً قبل النشأة، فإن قالوا: لا تنعدم الأجسام، وإنما تتفرق ثم تجمع كما صرح به الزمخشري: لأنه تفطن لأن القول بأن الأجسام تنعدم ثم يوجدها الله تعالى مع القول بأن المعدوم شيء ـ يبطل الفرق بين النشأتين ولم يطق ذلك، وقد نطق به القرآن فالتزم أن الأجسام لا تنعدم ليتم له الفرق بين النشأة الثانية ـ وإنما هي على هذا التقرير جمع وتأليف لموجود ـ وبين النشأة الأولى التي هي إيجاد معدوم، فتنبه لبعد غوره، ولكن هرب من القطر فوقع تحت الميزاب، فهو والحالة هذه كالمستغيث من الرمضاء بالنار، والله ولي =

وأغرب وأدل على قدرة الخالق؛ حيث أخرج الجواهر والأعراض من العدم إلى الوجود، ثم أوقع التأليف مشحوناً بضروب الحكم التي تحار الفطن فيها، من غير حذو على مثال واقتداء بمؤلف، ولكن اختراعاً وإبداعاً من عند قادر جلت قدرته ودقت حكمته، وأما الثانية: فقد تقدمت نظيرتها وعادت لها كالمثال المحتذى عليه، وليس فيها إلا تأليف الأجزاء الموجودة الباقية وتركيبها، وردها إلى ما كانت عليه مجموعة بعد التفكيك والتفريق، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾: دليل على هذا المعنى؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ ٢/ ٧أ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، على أن رب العزة سواء عليه النشأتان، لا يتفاوت في قدرته الصعب والسهل، ولا يحتاج إلى احتذاء على مثال: ولا استعانة بحكيم، ولا نظر في مقياس، ولكن يواجه جاحد البعث بذلك دفعا في بحر معاندته، وكشفاً عن صفحة جهله، القراء كلهم على: (لا يذكر): بالتشديد إلا نافعاً وابن عامر وعاصما ـ رضي الله عنهم ـ فقد خففوا، وفي حرف أبيّ: يتذكر، ﴿مِن قَبْلُ﴾: من قبل الحالة التي هو فيها وهي حالة بقائه.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠)﴾

في إقسام الله ـ تعالى ـ باسمه ـ تقدست أسماؤه ـ مضافاً إلى رسول الله ﷺ: تفخيم لشأن رسول الله ورفع منه، كما رفع من شأن السماء والأرض في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣] والواو في: ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾: يجوز أن تكون للعطف، وبمعنى: مع، وهي بمعنى: «مع» أوقع، والمعنى: أنهم يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم، يقرن كل كافر مع شيطان في سلسلة.

فإن قلت: هذا إذا أريد بالإنسان الكفرة خاصة، فإن أريد الأناسي على العموم[١]

= التوفيق. ومعنى تفريق الله تعالى بين النشأتين: أن الجاحد متهافت لأنه اعترف بالأولى وهي أصعب بالنسبة إلى قياس العقل، وأنكر الثانية وهي أسهل وأهون؛ لأن ذلك راجع إلى قدرته تعالى؛ فإن الكل لدى قدرة الله تعالى هين على سواء.

(١) عاد كلامه. قال: «والإنسان يحتمل أن يراد به العموم... الخ» قال أحمد: التبست عليه إرادة العموم بتناول العموم وبينهما بَوْنٌ، ومن ثم خلت عبارته هذه عن التحرز والصون، فصرح بأن الله تعالى أراد بالإنسان العموم، ومعنى إرادة العموم: أن يريد الله تعالى نسبة كلمة الشك والكفر إلى كل فرد من أفراد الإنسان، ومعاذ الله. وقد صرح الزمخشري بأن الناطق بكلمة الشك بعض الجنس، ففي العبارة خلل كما ترى. والعبارة الصحيحة أن يقال: يحتمل أن يكون التعريف جنسيا، فيكون عهديا، فيكون اللفظ من أول وهلة خاصا، والله أعلم.

فكيف يستقيم حشرهم مع الشياطين؟

قلت: إذا حشر جميع الناس حشراً واحداً وفيهمو الكفرة مقرونين بالشياطين، فقد حشروا مع الشياطين كما حشروا مع الكفرة.

فإن قلت: هلا عزل السعداء عن الأشقياء في الحشر كما عزلوا عنهم في الجزاء؟

قلت: لم يفرّق بينهم وبينهم في المحشر، وأحضروا؛ حيث تجاثوا حول جهنم، وأوردوا معهم النار؛ ليشاهد السعداء الأحوال التي نجاهم الله منها وخلصهم، فيزدادوا لذلك غبطة إلى غبطة وسروراً إلى سرور، ويشمتوا بأعداء الله وأعدائهم، فتزداد مساءتهم وحسرتهم وما يغيظهم من سعادة أولياء الله وشماتتهم بهم.

فإن قلت: ما معنى: إحضارهم جثيا؟

قلت: أما إذا فسر الإنسان بالخصوص، فالمعنى: أنهم يقبلون من المحشر إلى شاطئ جهنم عتلاً[1] على حالهم التي كانوا عليها في الموقف، جثاة على ركبهم، غير مشاة على أقدامهم؛ وذلك أن أهل الموقف وصفوا بالجثو، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨]، على العادة المعهودة في مواقف المقاولات والمناقلات، من تجاثي أهلها على الركب؛ لما في ذلك من الاستيفاز والقلق وإطلاق الحبا وخلاف الطمأنينة، أو لما يدهمهم من شدّة الأمر التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم، فيحبون على ركبهم حبواً، وإن فسر بالعموم، فالمعنى: أنهم يتجاثون عند موافاة شاطئ جهنم، على أن جثيًا: حال مقدرة، كما كانوا في الموقف متجاثين؛ لأنه من توابع التواقف للحساب قبل التوصل إلى الثواب والعقاب، والمراد بالشيعة ـ وهي: «فعلة» كفرقة وفتية ـ الطائفة التي شاعت[2]، أي: تبعت غاوياً من الغواة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩]، يريد: نمتاز من كل طائفة من طوائف الغيّ والفساد أعصاهم فأعصاهم، وأعتاهم فأعتاهم، فإذا اجتمعوا، طرحناهم في النار على الترتيب، نقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم، أو أراد بالذين هم أولى به صليًا: المنتزعين كما هم، كأنه قال: ثم لنحن أعلم بتصلية هؤلاء، وهم أولى بالصلي من بين سائر الصالين، ودركاتهم أسفل، وعذابهم أشدّ، ويجوز أن يريد بأشدّهم عتيًا: رؤساء الشيع وأئمتهم؛ لتضاعف جرمهم بكونهم ضلالاً ومضلين، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ۝٨٨﴾ [النحل: ٨٨]، ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]،

---

(١) قوله «عتلاً» العتل: الجذب العنيف. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «شاعت» في الصحاح: شاعه شياعا: تبعه. (ع)

واختلف في إعراب: ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾، فعن الخليل أنه مرتفع على الحكاية، تقديره: لننزعنّ الذين يقال فيهم أيهم أشد، وسيبويه على أنه مبني على الضم، لسقوط صدر الجملة التي هي صلته، حتى لو جيء به لأعرب، وقيل: أيهم هو أشد، ويجوز أن يكون النزع واقعاً على: ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾؛ كقوله سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ [مريم: ٢٥]، أي: لننزعن بعض كل شيعة، فكأنّ قائلاً قال: من هم؟ فقيل: أيهم أشد عتيًا[١]، وأيهم أشد: بالنصب عن طلحة بن مصرف، وعن معاذ بن مسلم الهراء أستاذ الفراء.

فإن قلت: بم يتعلق على والباء؛ فإنّ تعلقهما بالمصدرين لا سبيل إليه؟

قلت: هما للبيان لا الصلة، أو يتعلقان بأفعل، أي: عتوّهم أشد على الرحمن، وصليهم أولى بالنار؛ كقولهم: هو أشد على خصمه، وهو أولى بكذا.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢)﴾

﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾: التفات إلى الإنسان، يعضده قراءة ابن عباس وعكرمة ـ رضي الله عنهما ـ: «وإن منهم»، أو خطاب للناس[٢] من غير التفات إلى المذكور، فإن أريد الجنس كله فمعنى الورود: دخولهم فيها وهي جامدة، فيعبرها المؤمنون وتنهار بغيرهم، عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: يردونها كأنها إهالة، وروى دواية[٣]، وعن جابر بن عبد الله؛ أنه سأل رسول الله ـ ﷺ ـ عن ذلك؟ فقال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الجَنَّةَ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا تكلف ما لا حاجة إليه، وادعاء إضمار غير محتاج إليه، وجعل ما ظاهره أنه جملة واحدة جملتين». وحكى أبو البقاء عن الأخفش، والكسائي أنه مفعول «لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ»، و«مِنْ» مزيدة، قال: «وهما يجيزان زيادة «مِنْ» و«أَيُّ» استفهام»، أي: لننزعن كل شيعة، وهذا يخالف في المعنى تخريج الجمهور، فَإِنَّ تخريجهم يؤدي إلى التبعيض، وهذا يؤدي إلى العموم، إلاَّ أَنْ تجعل «مِنْ» لابتداء الغاية، لا للتبعيض، فيتفق التخريجان. وذهب الكسائي إلى أَنَّ معنى «لَنَنْزِعَنَّ» لننادين فعومل معاملته، فلم يعمل في «أَيُّ». انتهى. الدر المصون.

(٢) قال محمود: «يحتمل أن يكون استئنافاً خطاباً للناس، ويحتمل أن يكون التفاتاً». قال أحمد: احتمال الالتفات مفرع على إرادة العموم من الأول، فيكون المخاطبون أولا هم المخاطبين ثانياً؛ إلا أن الخطاب الأول بلفظ الغيبة، والثاني بلفظ الحضور، وأما إذا بنينا على أن الأول إنما أريد منه خصوص على التقديرين جميعاً، فالثاني ليس التفاتاً، وإنما هو عدول إلى خطاب العامة عن خطاب خاص لقوم معينين، والله أعلم.

(٣) قوله «كأنها إهالة وروي دواية» في الصحاح «الإهالة» الودك. وفيه أيضاً «الدواية» الجليدة التي يوضع فيها اللبن والمرق. (ع)

أَلَيْسَ قَدْ وَعَدَنَا ٢/٧ب رَبُّنَا أَنْ نَرِدَ النَّارَ؟ فَيُقَالُ لَهُمْ: قَدْ وَرَدْتُمُوهَا وَهِيَ جَامِدَةٌ» (٩٣٢)، وعنه ـ رضي الله عنه ـ أنه سئل عن هذه الآية؟ فقال: سمعتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ ﷺ ـ يقول: «الْوُرُودُ: الدُّخُولُ، لاَ يَبْقَىٰ بَرٌّ وَلاَ فَاجِرٌ إِلاَّ دَخَلَهَا، فَتَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بَرْداً وَسَلاَماً؛ كَمَا كَانَتْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، حَتَّىٰ إِنَّ لِلنَّارِ ضَجِيجاً مِنْ بَرْدِهَا» (٩٣٣)، وأما قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، فالمراد: عن عذابها، وعن ابن مسعود والحسن وقتادة: هو الجواز على الصراط؛ لأنّ الصراط ممدود عليها، وعن ابن عباس: قد يرد الشيء الشيء ولا يدخله؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣]، ووردت القافلة البلد، وإن لم تدخله ولكن قربت منه، وعن مجاهد: ورود المؤمن النار هو مس الحمى جسده في الدنيا، لقوله ـ عليه السلام ـ: «الْحُمَّىٰ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ» (٩٣٤)، وفي الحديث: «الْحُمَّىٰ

---

٩٣٢ ـ قال الزيلعي (٢/ ٣٣٢) في تخريج أحاديث الكشاف (٢/ ٣٣٢): «غريب لم أجده إلا من قول خالد بن معدان».
وعزاه الزيلعي لإسحاق بن راهويه في مسنده ومن طريقه أبو نعيم في الحلية، ولأبي عبيد القاسم بن سلام في غريبه، والبيهقي في شعب الإيمان، وابن المبارك في الزهد.
وذكره الواحدي في التفسير (٣/ ١٩١ ـ ١٩٢)؛ كلهم من حديثي خالد بن معدان. قال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣٢٩): «رواه الطبراني في الكبير وفيه يحيى بن يونس، ولم أجد من ذكره، وبقية رجاله ثقات، ورجاله رجال الصحيح» اهـ.
قال الحافظ: روي عن جابر هكذا. قلت المحفوظ عن جابر ما سيأتي بعد. وروى ابن إسحاق وأبو عبيد في الغريب وابن المبارك في الزهد من طريق ومعه خالد بن معدان. قال: «إذا جاز المؤمنون الصراط نادى بعضهم بعضاً: «ألم يعدنا ربنا» ولم يذكره الواحدي والبغوي إلا من هذا الوجه. انتهى.

٩٣٣ ـ أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٨)، والحاكم في المستدرك كتاب الأهوال (٤/ ٥٨٧)، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٢٦٣) في الأصل السادس عشر، والبيهقي في الشعب (١/ ٣٣٦) رقم (٣٧٠).
قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٥٨): «رواه أحمد ورجاله ثقات»، وذكره الواحدي في التفسير (٣/ ١٩١)، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٠٥)، وعزاه أيضا لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث. وعزاه الزيلعي أيضاً للنسائي في الكنى، وأبي يعلى، وابن أبي شيبة في مسنديهما.
قال الحافظ: رواه أحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد. قالوا: حدثنا سليمان بن حرب، وأخرجه أبو يعلى، والنسائي في الكنى، والبيهقي في الشعب في باب النار، والحكيم في النوادر. السادس عشر، كلهم من طريق سليمان. قال: حدثنا أبو صالح غالب بن سليمان عن كثير بن زياد عن أبي سمية قال: «اختلفنا في الورود»، فسألنا جابراً فذكر الحديث أتم منه، وخالفهم كلهم الحاكم فرواه من طريق سليمان بهذا الإسناد فقال: عن سمية الأزدية عن عبد الرحمن بن شيبة بدل أبي سمية عن جابر. انتهى.

٩٣٤ ـ أخرجه البخاري (٦/ ٣٣٠) كتاب بدء الخلق، باب صفة النار حديث (٣٢٦٣)، ومسلم (٤/ ١٧٣٢) كتاب السلام: باب: لكل داء دواء حديث (٢٢١٠) من حديث عائشة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: =

حَظُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ مِنَ النَّارِ» (٩٣٥)، ويجوز أن يراد بالورود: جثوّهم حولها، وإن أريد الكفار خاصة، فالمعنى بين.

= «الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء».

وورد من حديث ابن عمر وابن عباس.
أما حديث ابن عمر: فأخرجه البخاري (١١/ ٣٢٦) كتاب الطب، باب الحمى من فيح جهنم حديث (٥٧٢٣)، ومسلم (٧/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠ ـ نووي) كتاب السلام، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي حديث (٢٢٠٩).
وابن ماجه (٢/ ١١٥٠) كتاب الطب، باب الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء حديث (٣٤٧٢).
ومالك في الموطأ (٢/ ٩٤٥) في العين، باب الغسل بالماء من الحمى، وابن حبان في صحيحه (١٣/ ٤٣١) رقم (٦٠٦٦ ـ ٦٠٦٧)، وأحمد (٢/ ٢١ ـ ٨٥)، والبيهقي (١/ ٢٢٥). والطبراني (١٢/ ٣٦٠) رقم (٣٣٣٤٢).
وأما حديث ابن عباس: قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن الحمى من فيح جهنم فأبردوها بماء زمزم».
رواه البخاري (٦/ ٤٨٠) كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة حديث (٣٢٦١).
وأحمد (١/ ٢٩١)، وابن حبان (١٣/ ٤٣١) رقم (٦٠٦٨)، والحاكم (٤/ ٢٠٠).
وأبو يعلى في مسنده (٥/ ١١٨ ـ ١١٩) رقم (٢٧٣٢)، والطبراني (١٢/ ٢٢٩) رقم (١٢٩٦٧).
قال الحافظ: متفق عليه من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ انتهى.

٩٣٥ ـ روي من حديث أبي هريرة، وأنس، وعائشة، وأبي ريحانة، وأبي أمامة، وعثمان بن عفان، وابن مسعود، وسعد بن معاذ.
أما حديث أبي هريرة: فرواه ابن ماجه (٢/ ١١٤٩) كتاب الطب، باب الحمى حديث (٣٤٧٠)، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا أبو أسامة عن عبد الرحمن بن يزيد عن إسماعيل بن عبيد الله عن أبي صالح الأشعري عن أبي هريرة عن النبي ـ ﷺ ـ أنه عاد مريضاً ومعه أبو هريرة من وعك كان به فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أبشر فإن الله يقول: هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن في الدنيا، لتكون حظه من النار في الآخرة».
وهو عند الترمذي (٤/ ٤١٢) كتاب الطب، باب ٣٥ (٢٠٨٨) والحاكم (١/ ٣٤٥)، والبيهقي في الشعب (٧/ ١٦١) رقم (٩٨٤٤)، وأبي نعيم في الحلية (٦/ ٨٦).
وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» اهـ.
وأما حديث أنس: فرواه الطبراني في الأوسط (٨/ ٢٦٦) (٧٥٣٦) حدثنا محمد بن إبراهيم العسال قال: حدثنا سليمان بن داود الشاذكوني قال: حدثنا عبيس بن ميمون قال: حدثني قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الحمى حظ المؤمن من النار».
ثم قال: لم يرو هذا الحديث عن قتادة إلا عبيس بن ميمون تفرد به الشاذكوني.
وأما حديث عائشة: فأخرجه البزار (١/ ٣٦٤) رقم (٧٦٥ ـ كشف) حدثنا محمد بن موسى الواسطي ثنا عثمان بن مخلد ثنا هشيم عن المغيرة عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «الحمى حظ كل مؤمن من النار».
ثم قال البزار: «لا تعلم أسنده عن هشيم إلا عثمان».
قال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣٠٩): «رواه البزار وإسناده حسن» اهـ. =

الحتم: مصدر حتم الأمر إذا أوجبه، فسمى به الموجب؛ كقولهم: خلق الله، وضرب الأمير، أي: كان ورودهم واجباً على الله، أوجبه على نفسه وقضى به، وعزم على ألاّ

= وأما حديث أبي ريحانة: قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الحمى من فيح جهنم وهي نصيب المؤمن من النار».

أخرجه البيهقي في الشعب (٧/ ١٦١ ـ ١٦٢) رقم (٩٨٤٦)، قال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣٠٩): «رواه الطبراني في الكبير، وفيه شهر بن حوشب وفيه كلام ووثقه جماعة» اهـ.

وأما حديث أبي أمامة: فرواه أحمد في المسند (٥/ ٢٥٢) حدثنا يزيد هو ابن هارون أنا محمد بن مطرف عن أبي الحصين عن أبي صالح الأشعري عن أبي أمامة عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «الحمى من كيد جهنم، فما أصاب المؤمن منها كان حظه من النار».

ورواه أيضاً في المسند (٥/ ٢٦٤). والطبراني في الكبير (٨/ ١١٠) رقم (٧٤٦٨). قال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣٠٨): «رواه أحمد والطبراني في الكبير وفيه أبو حصين الفلسطيني، ولم أر له راوياً غير محمد بن مطرف» اهـ.

وأما حديث عثمان: فرواه العقيلي في الضعفاء (٢/ ٢٨٧) ترجمة (٨٥٧) عبد الله بن عمران القرشي، قال: حدثناه الحسين بن إسحاق التستري قال: حدثنا علي بن بحر القطان قال: حدثنا فضل بن حماد الواسطي قال: حدثنا عبد الله بن عمران القرشي قال: حدثنا مالك بن دينار عن معبد الجهني عن عثمان بن عفان قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الحمى حظ كل مؤمن في الدنيا من النار».

وقال: إسناده غير محفوظ والمتن معروف بغير هذا الإسناد وقد روي في هذا أحاديث مختلفة في الألفاظ بأسانيد صالحة» اهـ.

وأما حديث عبد الله بن مسعود: فرواه القضاعي في مسند الشهاب رقم (٦٢)، أخبرنا محمد بن الحسين الموصلي ثنا أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن شاذان ثنا صالح بن أحمد الهروي ثنا أحمد بن راشد الهلالي ثنا حمد بن عبد الرحمن الرواسي عن الحسن بن صالح عن الحسن بن عمرو عن إبراهيم عن الأسود عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الحمى حظ كل مؤمن من النار، وحمى ليلة يكفر خطايا سنةٍ مُجَرَّمَةٍ».

وأما حديث سعد بن معاذ: فرواه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٣٢٢) في ترجمة سعد بن معاذ قال: أخبرنا الفضل بن دكين قال: أخبرنا إسماعيل بن مسلم العبدي قال: أخبرنا أبو المتوكل؛ أن نبي الله ـ ﷺ ـ ذكر الحمى فقال: «من كانت به فهي حظه من النار، فسألها سعد بن معاذ ربه فلزمته، فلم تفارقه حتى فارق الدنيا» اهـ.

قال الحافظ: أخرجه البزار عن عائشة بهذا. وقال: تفرد برفعه عثمان بن مخلد عن هشيم بن مغيرة عن إبراهيم عن الأسود عنها. وقال الدارقطني: عثمان لا بأس به، لكن خولف في رفع هذا الحديث، فرواه بيدل عن هشيم موقوفاً. قلت: وقد روي مرفوعاً من وجه آخر. أخرجه القضاعي في مسند الشهاب من طريق أحمد بن رشد الهلالي عن حميد بن عبد الرحمن الروالي عن الحسن بن صالح عن الحسن بن عمرو عن إبراهيم به. وزاد «وحمى ليلة تكفر خطايا سنة»، في الباب عن أبي هريرة عن ابن ماجه والحاكم، وعن أبي ريحانة عند الطبراني، وعن أبي أمامة عند أحمد. وعن عثمان عند العقيلي، وعن سعد بن معاذ عند ابن سعد في الطبقات، وعن أنس عند الطبراني بالأوسط، وكلها ضعيفة وهي بمعناه لا بلفظه. انتهى.

يكون غيره، قرئ: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُمْ﴾، و«ننجي»، و«ينجي وينجى»: على ما لم يسم فاعله، إن أريد الجنس بأسره فهو ظاهر، وإن أريد الكفرة وحدهم فمعنى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾: أنّ المتقين يساقون إلى الجنة عقيب ورود الكفار، لا أنهم يواردونهم ثم يتخلصون، وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس والجحدري وابن أبي ليلى: «ثَم ننجي»: بفتح الثاء، أي: هناك، وقوله: ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾: دليل على أنّ المراد بالورود والجثوّ حواليها، وأن المؤمنين يفارقون الكفرة إلى الجنة بعد تجاثيهم، وتبقى الكفرة في مكانهم جاثين.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣)﴾

﴿بَيِّنَاتٍ﴾: مرتلات الألفاظ، ملخصات المعاني، مبينات المقاصد: إما محكمات أو متشابهات، قد تبعها البيان بالمحكمات، أو بتبيين الرسول قولاً أو فعلاً، أو ظاهرات الإعجاز تحدّى بها فلم يقدر على معارضتها، أو حججاً وبراهين، والوجه أن تكون حالاً مؤكدة، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: ٩١]؛ لأن آيات الله لا تكون إلا واضحة وحججاً ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾: يحتمل أنهم يناطقون المؤمنين بذلك ويواجهونهم به، وأنهم يفوهون به لأجلهم وفي معناهم، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، قرأ ابن كثير: (مُقاما): بالضم، وهو موضع الإقامة والمنزل، والباقون: بالفتح وهو موضع القيام، والمراد: المكان والموضع، والنديّ: المجلس ومجتمع القوم، وحيث ينتدون[١]، والمعنى: أنهم إذا سمعوا الآيات وهم جهلة لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا؛ وذلك مبلغهم من العلم، قالوا: أيّ الفريقين من المؤمنين بالآيات والجاحدين لها أوفر حظًا من الدنيا حتى يجعل ذلك عياراً على الفضل والنقص، والرفعة والضعة، ويروى أنهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنون ويتطيبون ويتزينون بالزين الفاخرة، ثم يدعون مفتخرين على فقراء المسلمين أنهم أكرم على الله منهم.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (٧٤)﴾

﴿وَكَمْ﴾: مفعول ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و﴿مِنْ﴾: تبيين لإبهامها، أي: كثيراً من القرون أهلكنا، وكان أهل عصر قرن لمن بعدهم؛ لأنهم يتقدمونهم، و﴿هُمْ أَحْسَنُ﴾: في محل النصب

---

(١) قوله «حيث ينتدون» في الصحاح «ندوت» أي حضرت الندي. وانتديت: مثله. (ع)

صفة لكم؛ ألا ترى أنك لو تركت: (هم): لم يكن لك بدّ من نصب (أحسن): على الوصفية.

الأثاث: متاع البيت، وقيل: هو ماجد من الفرش، والخرثي: ما ليس منها؛ وأنشد الحسن بن علي الطوسي [من البسيط]:

تَقَادَمَ الْعَهْدُ مِنْ أُمِّ الْوَلِيدِ بِنَا ... دَهْراً وَصَارَ أَثَاثُ الْبَيْتِ خُرْثِيّا[1]

قرئ على خمسة أوجه ﴿وَرِءْيًا﴾ وهو المنظر والهيئة فعل بمعنى مفعول، من رأيت. و(ريئا)، على القلب؛ كقولهم: راء في رأى، و(ريا)؛ على قلب الهمزة ياء والإدغام، أو من الريّ الذي هو النعمة والترفه، من قولهم: ريان من النعيم، و«ريا»: على حذف الهمزة رأساً، ووجهه أن يخفف المقلوب وهو «ريئا» بحذف همزته وإلقاء حركته على الياء الساكنة قبلها، و(زيا)، واشتقاقه من الزيّ وهو الجمع؛ لأن الزيّ محاسن مجموعة، والمعنى: أحسن من هؤلاء.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾

أي: مدّ له الرحمن، يعني: أمهله وأملى له في العمر، فأخرج على لفظ الأمر إيذاناً بوجوب ذلك، وأنه مفعول لا محالة، كالمأمور به الممتثل، لتقطع معاذير الضال، ويقال له يوم القيامة: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧]، أو كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، أو ﴿مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥]، في معنى: الدعاء، بأن يمهله الله وينفس في مدّة حياته، في هذه الآية وجهان:

أحدهما: أن تكون متصلة بالآية التي هي رابعتها، والآيتان ١/٨أ اعتراض بينهما، أي قالوا: أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: لا يبرحون يقولون هذا القول ويتولعون به لا يتكافون عنه إلى أن يشاهدوا الموعود رأي عين، ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾: في الدنيا وهو غلبة المسلمين عليهم وتعذيبهم إياهم قتلاً وأسراً وإظهار الله دينه على الدين كله على أيديهم، وإما يوم القيامة وما ينالهم من الخزي والنكال، فحينئذٍ يعلمون عند المعاينة أن الأمر على عكس ما قدروه، وأنهم شر مكاناً وأضعف جنداً، لا خير مقاماً

---

(١) أثاث البيت: أمتعته ولوازمه: والخرثي كالكرسي: العتيق من ذلك، يقول: تقادم وتطاول بنا اللقاء من أم الوليد، أي: تباعد زمنه. فدهرا: تمييز. ويجوز أنه ظرف، أي: تباعد عهد اللقاء من محبوبتي زمناً طويلاً وصار متاع البيت عتيقاً قديماً. وفيه تحسر على عدم اللقاء.

وأحسن نديًا، وأن المؤمنين على خلاف صفتهم.

والثاني: أن تتصل بما يليها، والمعنى: أن الذين في الضلالة ممدود لهم في ضلالتهم، والخذلان لاصق بهم لعلم الله بهم، وبأن الألطاف لا تنفع فيهم وليسوا من أهلها، والمراد بالضلالة: ما دعاهم من جهلهم وغلوهم في كفرهم إلى القول الذي قالوه، ولا ينفكون عن ضلالتهم إلى أن يعاينوا نصرة الله المؤمنين أو يشاهدوا الساعة ومقدماتها.

فإن قلت: حتى هذه ما هي؟

قلت: هي التي تحكي بعدها الجمل؛ ألا ترى الجملة الشرطية واقعة بعدها وهي قوله: ﴿إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾: في مقابلة ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾؛ لأن مقامهم هو مكانهم ومسكنهم، والنديّ: المجلس الجامع لوجوه قومهم وأعوانهم وأنصارهم، والجند: هم الأنصار والأعوان.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

﴿وَيَزِيدُ﴾: معطوف على موضع فليمدد؛ لأنه واقع موقع الخبر، تقديره: من كان في الضلالة مدّ أو يمدّ له الرحمن[1]، ويزيد: أي يزيد في ضلال الضال بخذلانه، ويزيد المهتدين هداية بتوفيقه، ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: أعمال الآخرة كلها، وقيل: الصلوات، وقيل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أي هي ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا﴾: من مفاخرات الكفار، ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أي: مرجعاً وعاقبة، أو منفعة، من قولهم: ليس لهذا الأمر مردّ:

وَهَلْ يَرُدُّ بُكايَ زَنْدَا[2]

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: ولا يصح أن يكون «وَيَزِيدُ» معطوفاً على «فَلْيَمْدُدْ» سواء كان دعاء أم خبراً بصورة الأمر؛ لأنه في موضع الخبر إنْ كانت «مَنْ» موصولة، أو في موضع الجواب إنْ كانت «مَنْ» شرطية. وعلى كِلاَ التقديرين فالجملة من قوله: «وَيَزِيدُ الله الَّذِينَ اهْتَدُوا هُدًى» عارية من ضمير يعود على من يربط جملة الخبر بالمبتدأ، أو جملة الشرط بالجزاء الذي هو «فَلْيَمْدُدْ»، و«ما» عطف عليه؛ لأنّ المعطوف على الخبر خبر، والمعطوف على جملة الجزاء جزاء، وإذا كانت أداة الشرط اسماً لا ظرفاً تعين أن يكون في جملة الجزاء ضميره، أو ما يقوم مقامه، وكذا في الجملة المعطوفة عليها». قلت: وقد ذكر أبو البقاء أيضاً كما ذكر الزمخشري. وقد يُجَابُ عَمَّا قَالاَه: بأنا نختار على هذا التقدير أن تكون «مَنْ» شرطية، قوله: «لا بد من ضمير يعود اسم الشرط غير الظرف» ممنوع؛ لأنّ فيه خلافاً قدمت تحقيقه، وما يستدل؛ عليه في سورة البقرة، فقد يكون الزمخشري وأبو البقاء من القائلين: بأنه لا يشترط. انتهى. الدر المصون.

(٢) تقدم.

فإن قلت: كيف قيل خير ثواباً كأنّ لمفاخراتهم ثواباً، حتى يجعل ثواب الصالحات خيراً منه؟ قلت: كأنه قيل: ثوابهم النار؛ على طريقة قوله [من الطويل]:

فَأعْتَبُوا بِالصَّيْلَمِ[1]

وقوله [من الكامل]:

شَجْعَاء جِرَّتُهَا الذَّمِيلُ تَلُوكُهُ ... أُصُلاً إِذَا رَاحَ الْمَطِيُّ غِرَاثَا[2]

وقوله [من الوافر]:

. . . . تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ[3]

ثم بنى عليه خير ثواباً، وفيه ضرب من التهكم الذي هو أغيظ للمتهدد من أن يقال له: عقابك النار.

فإن قلت: فما وجه التفضيل في الخير كأنّ لمفاخرهم شركاً فيه؟

قلت: هذا من وجيز كلامهم، يقولون: الصيف أحرّ من الشتاء، أي: أبلغ من الشتاء في برده.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾

لما كانت مشاهدة الأشياء ورؤيتها طريقاً إلى الإحاطة بها علماً وصحة الخبر عنها، استعملوا «أرأيت» في معنى: «أخبر»، والفاء جاءت لإفادة معناها الذي هو التعقيب، كأنه قال: أخبر ـ أيضاً ـ بقصة هذا الكافر، واذكر حديثه عقيب حديث أولئك، ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ من قولهم: أطلع الجبل: إذا ارتقى إلى أعلاه وطلع[4] الثنية، قال جرير [من الكامل]:

---

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول فراجعه إن شئت اهـ.

(٢) الشجع: سرعة نقل القوائم. والشجعاء: السريعة السير. والجرة ـ بالكسر ـ: ما يجتره البعير من كرشه يمضغه. والذميل: نوع من السير. واللوك: المضغ. والأصل: جمع أصيل، وهو من العصر للغروب، والرواح: من الظهر إليه. والغراث: الجياع يصف ناقته بسرعة السير، وشبه السير عندها بجرتها، بجامع سرعة الحركة وانطباع الناقة واستلذاذها لكل. وجعلها تبرزه شيئاً فشيئاً كالجرة للمبالغة. وفيه دلالة على خلو بطنها من العلف إذا لاح، أي: إذا كان غيرها لا يجد قوة على السير، فالغرث: استعارة. ويجوز أن المعنى أنها سريعة في السير ولو كانت جائعة كغيرها من المطايا، فالغرث حقيقته.

(٣) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول عند تفسير آية ١٠ من سورة البقرة فراجعه إن شئت اهـ.

(٤) قوله «وطلع الثنية» في الصحاح «طلع الجبل» بالكسر: علوته. (ع)

ويقولون: مرّ مطلعاً لذلك الأمر، أي: عالياً له مالكاً له، ولاختيار هذه الكلمة شأن، يقول: أو قد بلغ من عظمة شأنه أن ارتقى إلى علم الغيب الذي توحد به الواحد القهار، والمعنى: أن ما ادعى أن يؤتاه وتألى عليه لا يتوصل إليه إلا بأحد هذين الطريقين: إما علم الغيب، وإما عهد من عالم الغيب، فبأيهما توصل إلى ذلك؟ قرأ حمزة والكسائي: «ولدا»، وهو جمع ولد، كأسد في أسد، أو بمعنى: الولد كالعرب في العرب، وعن يحيى بن يعمر: «ولدا»: بالكسر، وقيل في العهد: كلمة الشهادة، وعن قتادة: هل له عمل صالح قدّمه فهو يرجو بذلك ما يقول؟ وعن الكلبي: هل عهد الله إليه أنه يؤتيه ذلك؟ عن الحسن ـ رحمه الله ـ: نزلت في الوليد بن المغيرة، والمشهور أنها في العاصي بن وائل، قال خباب بن الأرت: كان لي عليه دين فاقتضيته، فقال: لا والله حتى تكفر بمحمد، قلت: لا والله لا أكفر بمحمد حيًا ولا ميتاً ولا حين تبعث، قال: فإني إذا مت بعثت؟ قلت: نعم، قال: إذا بعثت جئتني وسيكون لي ثم مال وولد فأعطيك (٩٣٦)، وقيل: صاغ له خباب حليًا فاقتضاه الأجر، فقال: إنكم تزعمون أنكم تبعثون، وأن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً، فأنا أقضيك ثم؛ فإني أوتى مالاً وولداً حينئذٍ، و﴿كَلَّآ﴾:

---

٩٣٦ ـ أخرجه البخاري (٥/ ٢١٣) كتاب الإجارة، باب هل يؤاجر الرجل نفسه من مشرك في أرض الحرب؟ حديث (٢٢٧٥) ومسلم (٩/ ١٥١ ـ نووي) كتاب صفات المنافقين، باب سؤال اليهود النبي ـ ﷺ ـ عن الروح حديث (٢٧٩٥)، والترمذي (٥/ ٣١٨) كتاب تفسير القرآن، باب من سورة مريم حديث (٣١٦٢).
والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٩٥) كتاب التفسير حديث (١١٣٢٢)، والطبري في التفسير (٨/ ٣٧٥) رقم (٢٣٨٩٩)، والبغوي في تفسيره (٣/ ٢٠٧).
قال الحافظ: متفق عليه من طريق مسروق عن خباب أتم منه.

---

(١) إنـي إذا مـضـر عـلـيّ تـحـدثـت لاقـيـت مـطـلـع الـجـبـال وعـورا

لجرير. ومضر: اسم قبيلة صرف للضرورة، ومطلع ـ بتشديد الطاء ـ: اسم مكان على صورة المفعول، من اطلع المشدد، وأصله: اطتلع، بتاء الافتعال، قلبت طاء وأدغمت فيها ما قبلها، وهو نصب على الظرفية. والوعور: جمع وعر، أي: صعب مفعول لاقيت، أو المفعول هو مطلع. ووعوراً: حال، لا سيما على رواية فتح واوه على أنه صيغة مبالغة، يقول: إذا تقولت على مضر ما لا أرتضيه. أو تكلمت في قتلي، وجدت في مطالع الجبال أشياء صعابا فأعجز عن الهرب. أو المعنى: أنه يقتحم الصعاب ولا يبالي بها ويهرب منهم. وعلى الحالية: لاقيت مطلع الجبال حال كونه أماكن صعبة، والمطلع متعدد لإضافته لمتعدد، وعلى فتح الواو فظاهر.
ينظر: ديوانه ص (٢٢٩)، ولسان العرب (طلع)، وتهذيب اللغة (٢/ ١٧١، ٤/ ٤٣٠)، وأساس البلاغة (طلع)، وتاج العروس (طلع).

ردع وتنبيه على الخطأ، أي: هو مخطئ فيما يصوره لنفسه ويتمناه فليرتدع عنه.

فإن قلت: كيف قيل: ﴿سَنَكْتُبُ﴾: بسين التسويف، وهو كما قاله كتب من غير تأخير، قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾؟

قلت: فيه وجهان:

أحدهما: سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله؛ على طريقة قوله [من الطويل]:

إِذَا مَا انْتَسَبْنَا لَمْ تَلِدْنِي لَئِيمَةٌ . . . . (١)

أي: تبين وعلم بالانتساب أني لست بابن لئيمة.

والثاني: أن المتوعد يقول للجاني: سوف أنتقم منك، يعني: أنه لا يخل بالانتصار وإن تطاول به الزمان واستأخر، فجرّد ههنا لمعنى الوعيد، ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ ٢/٨ب أي: نطوّل له من العذاب ما يستأهله ونعذبه بالنوع الذي يعذب به الكفار المستهزئون، أو نزيده من العذاب ونضاعف له من المدد، يقال: مده وأمده بمعنى؛ وتدل عليه قراءة عليّ بن أبي طالب: «ونمد له»: بالضم، وأكد ذلك بالمصدر؛ وذلك من فرط غضب الله، نعوذ به من التعرّض لما نستوجب به غضبه، ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي: نزوي عنه ما زعم أنه يناله في الآخرة ونعطيه من يستحقه، والمعنى مسمى ما يقول، ومعنى: ﴿مَا يَقُولُ﴾، وهو المال والولد، يقول الرجل: أنا أملك كذا، فتقول له: ولي فوق ما تقول، ويحتمل أنه قد تمنى وطمع أن يؤتيه الله في الدنيا مالاً وولداً، وبلغت به أشعبيته[٢] أن تألى على ذلك في قوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾؛ لأنه جواب قسم مضمر، ومن يتأل على الله يكذبه، فيقول الله ـ عز

---

(١) رمتني عن قوس العدو وباعدت ... عبيدة زاد الله ما بيننا بعدا
إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة ... ولم تجدي من أن تقري بها بدا

لزائد بن صعصعة النقعسي، كانت له امرأة اسمها عبيدة فطمحت عليه وكانت أمها سرية، فعرض لها بذلك، يقول: رمتني بأمر قبيح كأنه نبلة صادرة عن قوس العدو، أو أبعدتني عنها بعد النبلة عن القوس: أي تسببت في ذلك وبالغت في بعد الرمي، و«زاد الله» جملة دعائية، ثم قال: إذا أظهرنا نسبنا يتبين أني لم تلدني لئيمة بخلافك، ولم تجدي مفراً ولا غنى من إقرارك بتلك القضية. ويجوز أن المعنى: أنه لا بد من إقرارك بأمك اللئيمة، وعلم مرجع الضمير من ذكر المقابلة وهو أمه، وهذا أدق في التبكيت. ويروى: به، أي: بذلك النسب. وفي الالتفات من الغيبة إلى الخطاب نوع من التشنيع والتوبيخ، كأنه عجب الناس أولا من حالها، ثم التفت يبكتها بلؤم أمها وأنها رقيقة.
ينظر: حاشية الأمير على المغني (١/ ٢٥)، وجواهر الأدب ص (٢٠٥) وشرح شذور الذهب ص (٤٤٠)، وشرح شواهد المغني ص (٨٩)، ومغني اللبيب ص (٢٦).

(٢) قوله «أشعبيته» في الصحاح «أشعب» اسم رجل كان طماعا. وفي المثل: أطمع من أشعب اهـ. ومنه: أخذت الأشعبية، بمعنى: خصلة أشعب، وهي الطمع. (ع)

وجل ـ: هب أنا أعطيناه ما اشتهاه، إما نرثه منه في العاقبة ويأتينا فرداً غداً بلا مال ولا ولد؛ كقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ . . .﴾ الآية [الأنعام: ٩٤]، فما يجدي عليه تمنيه وتأليه، ويحتمل أن هذا القول؛ إنما يقوله ما دام حيًا، فإذا قبضناه حلنا بينه وبين أن يقوله، ويأتينا رافضاً له منفرداً عنه غير قائل له، أو لا ننسى قوله هذا ولا نلغيه، بل نثبته في صحيفة لنضرب به وجهه في الموقف ونعيره به، ﴿وَيَأْتِينَا﴾: على فقره ومسكنته، ﴿فَرْدًا﴾: من المال والولد، لم نوله سؤله ولم نؤته متمناه، فيجتمع عليه الخطبان: تبعة قوله ووباله، وفقد المطموع فيه، فرداً على الوجه الأول: حال مقدرة؛ نحو: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]؛ لأنه وغيره سواء في إتيانه فرداً حين يأتي، ثم يتفاوتون بعد ذلك.

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾

أي: ليتعززوا بآلهتهم؛ حيث يكونون لهم عند الله شفعاء وأنصاراً ينقذونهم من العذاب، و﴿كَلَّا﴾: ردع لهم وإنكار لتعززهم بالآلهة، وقرأ ابن نهيك: (كلا)، ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: سيجحدون كلا سيكفرون بعبادتهم؛ كقولك: زيداً مررت بغلامه، وفي محتسب ابن جني: «كلا» بفتح الكاف والتنوين، وزعم أن معناه كل هذا الرأي والاعتقاد كلا، ولقائل أن يقول: إن صحت هذه الرواية، فهي كلا التي هي للردع، قلب الواقف عليها ألفها نوناً كما في قواريراً، والضمير في (سيكفرون): للآلهة، أي: سيجحدون عبادتهم وينكرونها ويقولون: والله ما عبدتمونا وأنتم كاذبون؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النحل: ٨٦]، أو للمشركين: أي: ينكرون لسوء العاقبة أن يكونوا قد عبدوها، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٣]، ﴿عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾: في مقابلة: ﴿لَهُمْ عِزًّا﴾، والمراد: ضدّ العز وهو الذل والهوان، أي: يكونون عليهم ضداً لما قصدوه وأرادوه، كأنه قيل: ويكونون عليهم ذلاً، لا لهم عزًا أو يكونون عليهم عوناً، والضدّ: العون، يقال: من أضدادكم، أي: أعوانكم وكأن العون سمي ضدًا؛ لأنه يضاد عدوك وينافيه بإعانته لك عليه.

فإن قلت: لم وحد؟

قلت: وحد توحيده قوله ـ عليه السلام ـ: «وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ» (٩٣٧)، لاتفاق

---

٩٣٧ ـ تقدم. قال الحافظ: هذا طرف من حديث لعلي ـ رضي الله عنه، أخرجه أبو داود والنسائي وأحمد =

كلمتهم وأنهم كشيء واحد؛ لفرط تضامنهم وتوافقهم، ومعنى كون الآلهة عوناً عليهم: أنهم وقود النار وحصب جهنم؛ ولأنهم عذبوا بسبب عبادتها وإن رجعت الواو في سيكفرون ويكونون إلى المشركين؛ فإن المعنى: ويكونون عليهم ـ أي أعداءهم ـ ضدًا، أي: كفرة بهم، بعد أن كانوا يعبدونها.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾

الأز، والهزّ، والاستفزاز: أخوات، ومعناها: التهييج وشدة الإزعاج، أي: تغريهم على المعاصي وتهيجهم لها بالوساوس والتسويلات، والمعنى: خلينا بينهم وبينهم[1] ولم نمنعهم ولو شاء لمنعهم قسراً، والمراد تعجيب رسول الله ـ ﷺ ـ بعد الآيات التي ذكر فيها العتاة والمردة من الكفار، وأقاويلهم، وملاحتهم، ومعاندتهم للرسل، واستهزاؤهم بالدين: من تماديهم في الغيّ وإفراطهم في العناد، وتصميمهم على الكفر، واجتماعهم على دفع الحق بعد وضوحه وانتفاء الشكّ عنه، وانهماكهم لذلك في اتباع الشياطين وما تسوّل لهم.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾

عجلت عليه بكذا: إذا استعجلته منه، أي: لا تعجل عليهم بأن يهلكوا ويبيدوا، حتى تستريح أنت والمسلمون من شرورهم، وتطهر الأرض بقطع دابرهم، فليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم إلا إيام محصورة وأنفاس معدودة، كأنها في سرعة تقضيها الساعة التي تعد فيها لو عدت؛ ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ **[الأحقاف: ٣٥]**، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ **[الأحقاف: ٣٥]**، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: أنه كان إذا قرأها بكى، وقال: آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد: فراق أهلك، آخر العدد: دخول قبرك، وعن ابن السماك أنه كان عند المأمون فقرأها، فقال: إذا كانت

= وإسحاق والحاكم من طريق قيس بن عباد عن علي ـ رضي الله عنه ـ «أنه أخرج من قراب سيفه كتاباً عهد إليه رسول الله ـ ﷺ ـ فإذا فيه. وذكره. وفيه هذا»، وروى ابن ماجه من حديث ابن عباس رفعه قال: «المسلمون تتكافأ دماؤهم. وهم يد على من سواهم ـ الحديث»، وفي الباب عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أخرجه أبو داود وابن ماجه وأحمد والبزار، والطبراني من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده نحوه، وعن عبد الله بن عمر، أخرجه ابن حبان. وعن معقل ابن يسار أخرجه ابن ماجه. انتهى.

---

(١) قوله: «والمعنى خلينا بينهم وبينهم» هذا هو الموافق لمذهب المعتزلة. من أنه تعالى لا يفعل الشر. أما على مذهب أهل السنة من أنه تعالى يفعل الشر كالخير، فالمناسب: سلطناهم عليهم. (ع)

الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد، فما أسرع ما تنفد.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾

نصب ﴿يَوْمَ﴾: بمضمر، أي: يوم ﴿نَحْشُرُ﴾، ونسوق: نفعل بالفريقين ما لا يحيط به الوصف، أو اذكر يوم نحشر، ويجوز أن ينتصب بلا يملكون، ذكر المتقون بلفظ التبجيل، وهو أنهم يجمعون إلى ربهم الذي غمرهم برحمته وخصهم برضوانه ٩/٢أ وكرامته، كما يفد الوفاد على الملوك منتظرين للكرامة عندهم، وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: ما يحشرون والله على أرجلهم، ولكنهم على نوق رحالها ذهب، وعلى نجائب سروجها ياقوت (٩٣٨).

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾

وذكر الكافرون بأنهم يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء. والورود: العطاش لأنّ من يرد الماء لا يرده إلا لعطش وحقيقة الورد: المسير إلى الماء، قال [من الرجز]:

رِدِي رِدِي وِرْدَ قَطَاةٍ صَمَّا ... كُدْرِيَّةٍ أَعْجَبَهَا بَرْدُ الْمَا[1]

---

٩٣٨ ـ أخرجه الحاكم (٢/٣٧٧) في التفسير، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/٣٧) رقم (٣٤٠١٤)، وابن جرير في التفسير (٨/ ٣٨٠) رقم (٢٣٩٢٩)، والواحدي في الوسيط (٣/١٩٦)، وذكره البغوي (٣/٢٠٩)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/٥٠٨)، وعزاه لعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث.
وقال الهيثمي في المجمع (٧/٥٨) تفسير سورة مريم: «رواه أحمد وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي وهو ضعيف» .اهـ.
قال الحافظ: أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الله بن أحمد في زيادات المسند، والطبري، وابن أبي حاتم من رواية عبد الرحمن بن إسحاق بن النعمان بن سعد بن علي نحوه، وأخرجه ابن أبي داود في كتاب البعث من هذا الوجه مرفوعاً. ورواه ابن عدي من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً أيضا. انتهى.

---

(١) يخاطب ناقته. وردي: أمر من الورود، وتكريره للتوكيد. والورد: اسم مصدر منه أيضاً، أو اسم للماء المورود، أي: ردي الماء كورود قطاة صماء لا تسمع صوت القانص فلا تنفر عن الماء: والكدر ـ بالضم ـ نوع من القطا رمادي اللون. والكدرية: نسبة إليه، من نسبة الجزئي إلى كليه، وهذه الياء هي الفارقة بين اسم الجنس وواحده، كروم ورومي. وفيه تشبيه ناقته ضمنا بالقطاة في الخفة والسرعة. وصما والما: بالقصر، فإن رويا بالمد والسكون على أن الشعر من مشطور المنسرح الموقوف، فمحله حرف الألف.
ينظر: شواهد البحر (٦/٢١٧)، وروح المعاني (١٦/١٣٦)، الدر المصون (٤/٥٢٦).

فسمي به الواردون. وقرأ الحسن: يحشر المتقون، ويساق المجرمون.

﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

الواو في: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ﴾ إن جعل ضميراً[1] فهو للعباد، ودل عليه ذكر المتقين والمجرمين؛ لأنهم على هذه القسمة، ويجوز أن تكون علامة للجمع، كالتي في: «أكلوني البراغيث»، والفاعل: ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ﴾؛ لأنه في معنى الجمع[2]، ومحل: (من اتخذ): رفع على البدل، أو على الفاعلية، ويجوز أن ينتصب على تقدير حذف المضاف، أي: إلا شفاعة من اتخذ، والمراد: لا يملكون أن يشفع لهم، واتخاذ العهد: الاستظهار بالإيمان والعمل، وعن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال لأصحابه ذات يوم: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَتَّخِذَ كُلَّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً» ح قَالُوا: وَكَيْفَ ذٰلِكَ؟ قَالَ: «يَقُولُ كُلَّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، إِنِّي أَعْهَدُ إِلَيْكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ أَنْتَ، وَحْدَكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، وَأَنَّكَ إِنْ تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي تُقَرِّبْنِي مِنَ الشَّرِّ وَتُبَاعِدْنِي مِنَ الْخَيْرِ، وَأَنِّي لاَ أَثِقُ إِلاَّ بِرَحْمَتِكَ، فَاجْعَلْ لِي عِنْدَكَ عَهْداً تُوَفِّينِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ المِيعَاد» فَإِذَا قَالَ ذٰلِكَ طُبِعَ عَلَيْهِ بِطَابَعٍ، وَوُضِعَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ: أَيْنَ الَّذِينَ لَهُمْ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْدٌ، فَيَدْخُلُونَ

---

(١) قال محمود: «يحتمل أن تكون الواو في لا يملكون ضميراً... إلخ» قال أحمد: وفي هذا الوجه تعسف من حيث أنه إذا جعله علامة لمن فقد كشف معناها وأفصح بأنها متناولة جمعا، ثم أعاد على لفظها بالإفراد ضمير اتخذ، ففيه الإعادة على لفظها بعد الإعادة على معناها بما يخالف ذلك، وهو مستنكر عندهم لأنه إجمال بعد إيضاح. وذلك تعكيس في طريق البلاغة، وإنما محجتها الواضحة الإيضاح بعد الإجمال. والواو على إعرابه، وإن لم تكن عائدة على من إلا أنها كاشفة لمعناها كشف الضمير العائد له، فتنبه لهذا العقد؛ فإنه أروج من النقد [من الطويل]:

.... وفي عنق الحسناء يستحسن العقد

(٢) قال السمين الحلبي: وفيه بعد، وكأنه قيل: لا يملك الشفاعة إلاّ المتخذون عهداً. قال الشيخ: ولا ينبغي حَمْلُ القرآن على هذه اللغة القليلة مع وضوح جعل الواو ضميراً، وقد قال الأستاذ أبو الحسن بن عصفور: إنها لغة ضعيفة». قُلْتُ: قد قالوا ذلك في قوله تعالى: ﴿عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ فلهذا الموضع بهما أسوة. ثم قال الشيخ: وأيضاً فالألف والواو والنون التي تكون علامات لا ضمائر لا يحفظ ما يجيء بعدها فاعلاً إلاّ بصريح الجمع، وصريح التثنية أو العطف أما أن يأتي بلفظ مفرد، ويطلق على جمع أو مثنى، فيحتاج في إثبات مثل ذلك إلى نقل، وأما عود الضمائر مثناة أو مجموعة على مفرد في اللفظ يراد به المثنى والمجموع فمسموع معروف في لسان العرب، على أنه يمكن قياس هذه العَلاَمات على تلك الضمائر، ولكن الأحوط ألاّ يقال إلاّ بسماع. انتهى. الدر المصون.

الْجَنَّةَ، (٩٣٩) وقيل: كلمة الشهادة، أو يكون من: «عهد الأمير إلى فلان بكذا»: إذا أمره به، أي: لا يشفع إلا المأمور بالشفاعة المأذون له فيها؛ وتعضده مواضع في التنزيل: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦]، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه: ١٠٩].

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾

قرئ: (إدّا): بالكسر والفتح، قال ابن خالويه: الإدّ والأدّ: العجب، وقيل: العظيم المنكر، والإدّة: الشدّة، وأدنى الأمر وآدني: أثقلني وعظم عليّ إدّا، ﴿يكاد﴾: قراءة الكسائي ونافع بالياء، وقرئ: ﴿ينفطرن﴾[1]: الانفطار من فطره إذا شقه، والتفطر: من فطره إذا شققه وكرر الفعل فيه، وقرأ ابن مسعود: «ينصدعن»، أي: تهد هدّا، أو مهدودة، أو مفعول له، أي: لأنها تدّ.

فإن قلت: ما معنى انفطار السموات وانشقاق الأرض وخرور الجبال؟ ومن أين تؤثر هذه الكلمة في الجمادات؟

قلت: فيه وجهان:

---

٩٣٩ ـ قال الزيلعي (٢/ ٣٣٩): «غريب مرفوعاً، ولم أجده إلا موقوفاً» اهـ.
والموقوف رواه الحاكم (٢/ ٣٧٧) في التفسير، والطبراني في الكبير (٩/ ٢٠٩) رقم (٨٩١٨)، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥١٠)، وعزاه لابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وابن مردويه. وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف لأبي عبد الله الترمذي في نوادر الأصول.
قال الحافظ: أخرجه الثعلبي قال: روى أبو وائل عن عبد الله بن مسعود ـ فذكره بتمامه، وروى ابن مردويه في تفسير الأحزاب من طريق عوف بن عبد الله عن رجل من بني حليم عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «العهد أن تقول: اللهم فاطر السموات والأرض ـ الحديث أصغر مما ذكر» ورواه الحاكم من وجه آخر عن عون عن ابن ماجه، عن الأسود، عن ابن مسعود أنه قرأ هذه الآية: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قال: قال: الله تعالى يقول يوم القيامة: من كان له عندي عهد فليقم، قال: فقلنا: فعلمنا يا أبا عبد الرحمن قال: فاقرؤوا: اللهم فاطر السموات والأرض ـ فذكره مختصرا، وفي الباب عن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر في السادس والسبعين بعد المائة. انتهى.

---

(١) قوله: «وقرئ ينفطرن» يفيد أن القراءة المشهورة يتفطرن» بالتاء. (ع)

أحدهما: أن الله سبحانه يقول: كدت أفعل هذا بالسموات والأرض[1] والجبال عند وجود هذه الكلمة غضباً مني على من تفوّه بها، لولا حلمي ووقاري، وأني لا أعجل بالعقوبة كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١)﴾ [فاطر: ٤١].

والثاني: أن يكون استعظاماً للكلمة، وتهويلاً من فظاعتها، وتصويراً لأثرها في الدين وهدمها لأركانه وقواعده، وأن مثال ذلك الأثر في المحسوسات: أن يصيب هذه الأجرام العظيمة التي هي قوام العالم ما تنفطر منه وتنشق وتخرّ، وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمْ﴾، وما فيه من المخاطبة بعد الغيبة، وهو الذي يسمى الالتفات في علم البلاغة زيادة تسجيل عليهم بالجرأة على الله، والتعرّض لسخطه، وتنبيه على عظم ما قالوا، في ﴿أَن دَعَوْا﴾: ثلاثة أوجه: أن يكون مجروراً بدلاً من الهاء في منه، كقوله [من الطويل]:

عَلَىٰ حَالَةٍ لَوْ أَنَّ فِي الْقَوْمِ حَاتِماً عَلَىٰ جُودِهِ لَضَنَّ بِالْمَاءِ حَاتِمُ[2]

ومنصوباً بتقدير سقوط اللام وإفضاء الفعل، أي: هذا لأن دعوا، علل الخرور بالهدّ، والهدّ بدعاء الولد للرحمن، ومرفوعاً بأنه فاعل هدًّا، أي: هدها دعاء الولد للرحمن، وفي اختصاص الرحمن وتكريره مرات من الفائدة أنه هو الرحمن وحده، لا يستحق هذا الاسم غيره، من قبل أنّ أصول النعم وفروعها منه: خلق العالمين، وخلق لهم جميع ما معهم؛ كما قال بعضهم: فلينكشف عن بصرك غطاؤه، فأنت وجميع ما عندك عطاؤه، فمن أضاف إليه ولداً، فقد جعله كبعض خلقه وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن، هو من دعا بمعنى: سمى المتعدي إلى مفعولين، فاقتصر على أحدهما الذي هو الثاني؛ طلباً للعموم والإحاطة بكل ما دعي له ولداً، أو من دعا بمعنى: نسب، الذي مطاوعه ما في قوله

---

(١) قال محمود: «معناه: كدت أهدّ السموات وأفطر الأرض... إلخ» قال أحمد: ويظهر لي وراءها معنى آخر والله أعلم؛ وذلك أن الله تعالى قد استعار لدلالتها على وجوده عز وجل موصوفاً بصفات الكمال الواجبة له، أن جعلها تسبح بحمده. قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] ومما دلت عليه السموات والأرض والجبال بل وكل ذرة من ذراتها: أن الله تعالى مقدس عن نسبة الولد إليه [من المتقارب]:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فالمعتقد نسبة الولد إلى الله تعالى قد عطل دلالة هذه الموجودات على تنزيه الله وتقديسه، فاستعير لإبطال ما فيها من روح الدلالة التي خلقت لأجلها، إبطال صورها بالهد والانفطار والانشقاق «فسبحان من قسم عباده، فجعل العباد، تستلذ فتسبح بتسبيح داود، يكاد ينهد لمقاله من هو عن باب التوفيق مطرود مردود».

(٢) تقدم.

ـ عليه السلام ـ: «مَنِ ٱدَّعىٰ إلىٰ غَيْرِ ٢/ ٩ ب مَوَالِيهِ» (٩٤٠)؛ وقول الشاعر [من البسيط]:

إِنَّـا بَـنِـي نَـهْـشَـلٍ لاَ نَـدَّعِـي لأَبٍ . . . . [(١)]

أي: لا ننتسب إليه.

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾

انبغي: مطاوع، «بغي»: إذا طلب، أي: ما يتأتى له اتخاذ الولد وما ينطلب لو طلب مثلاً؛ لأنه محال غير داخل تحت الصحة، أما الولادة المعروفة: فلا مقال في استحالتها، وأما التبني: فلا يكون إلا فيما هو من جنس المتبني، وليس للقديم سبحانه جنس، تعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيراً.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾﴾

﴿مَن﴾ موصوفة لأنها وقعت بعد كل نكرة، وقوعها بعد رب في قوله [من الرمل]:

رُبَّ مَـنْ أَنْـضَـجْـتُ غَـيْـظـاً صَـدْرَهُ . . . . [(٢)]

---

٩٤٠ ـ تقدم في البقرة من حديث علي وهو غريب بهذا اللفظ؛ كما قال الزيلعي.
قال الحافظ: لم أره بلفظ «من ادعى» وإنما هو عند مسلم بلفظ «انتمى» أخرجه من حديث علي بن أبي طالب رفعه «من ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه ـ الحديث». انتهى.

---

(١) إنـا بـنـي نـهـشـل لا نـدعـى لأب ... عـنـه ولا هـو بـالأبـنـاء يـشـريـنـا
يـكـفـيـه إن نـحـن مـتـنـا أن يـسـر بـنـا ... وهـو إذا ذكـر الآبـاء يـكـفـيـنـا

لبشامة بن حزن النهشلي، ويقال: ادعى فلان في بني هاشم ولهم وإليهم، أي: انتسب إليهم وادعى عنهم إذا انتسب لغيرهم. وعدل عنهم يقول: إنا لا ننتسب لأب غير نهشل، وبني نهشل: نصب على الاختصاص يفيد المدح ولا هو يشرينا، أي يبيعنا ويستبدلنا بأبناء غيرنا، ثم قال: يكفيه منا سروره بنا إن متنا ولحقناه، حيث أوجبنا له ولنا الثناء الجميل من شجاعتنا وحسن خصالنا. و«إن» بمعنى «إذا» لأن الموت لا شك فيه. ويروى «أن يسب» بباء، ولعل معناه: لا مسبة له غير موتنا في القتال، يعني: إن كان ذلك مسبة وليس كذلك، ويمكن أن تعبيره بالكفاية ليفيد أنه مستغن عن المدح من جهة أبنائه عند التفاخر. وعند عد مآثر الآباء لا نحتاج لغيره، فننتسب له لنتشرف بشرفه.
ينظر الشذور ٦٧٤، والحماسة ١/ ١٠٢، والمؤتلف ٦٦، والكامل ٦٥، وابن يعيش ٦/ ١٠١ ورغبة الآمال ٢/ ٦٦، والدر المصون ٢/ ٤٣.

(٢) رب مـن أنـضـجـت غـيـظـاً قـلـبـه ... قـد تـمـنـى لـي مـوتـًا لـم يـطـع
ويـرانـي كـالـشـجـا فـي حـلـقـه ... عـسـرًا مـخـرجـه مـا يـنـتـزع
لـم يـضـرنـي غـيـر أن يـحـسـدنـي ... فـهـو يـزقـو مـثـل مـا يـزقـو الـضـوع
=

وقرأ ابن مسعود وأبو حيوة: (آتِ الرحمنَ): على أصله قبل الإضافة، الإحصاء: الحصر والضبط، يعني: حصرهم بعلمه وأحاط بهم، ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾: الذين اعتقدوا في الملائكة وعيسى وعزير أنهم أولاد الله، كانوا بين كفرين، أحدهما: القول بأن الرحمن يصح أن يكون والداً، والثاني: إشراك الذين زعموهم لله أولاداً في عبادته، كما يخدم الناس أبناء الملوك خدمتهم لآبائهم، فهدم الله الكفر الأول فيما تقدم من الآيات، ثم عقبه بهدم الكفر الآخر، والمعنى: ما من معبود لهم في السماوات والأرض من الملائكة ومن الناس إلا وهو يأتي الرحمن، أي: يأوي إليه ويلتجئ إلى ربوبيته عبداً منقاداً مطيعاً خاشعاً خاشياً راجياً، كما يفعل العبيد وكما يجب عليهم، لا يدعي لنفسه ما يدعيه له هؤلاء الضلال؛ ونحوه قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وكلهم متقلبون في ملوكته مقهورون بقهره وهو مهيمن عليهم محيط بهم ويحمل أمورهم وتفاصيلها وكيفيتهم وكميتهم، لا يفوته شيء من أحوالهم، وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفرداً ليس معه من هؤلاء المشركين أحد وهم براء منهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾﴾

قرأ جناح بن حبيش: ﴿وُدًّا﴾: بالكسر، والمعنى: سيحدث لهم في القلوب مودّة ويزرعها لهم فيها من غير تودّد منهم ولا تعرّض للأسباب التي توجب الود ويكتسب بها

= ويحييني إذا لاقيته ... وإذا يخلو له لحمي رتع

لسويد بن أبي كاهل اليشكري، ويتعين أن «من» نكرة موصوفة، لأن رب لا تجر إلا النكرة، ونضج اللحم والعنب ونحوهما نضجا فهو نضيج وناضج: أدرك وبلغ أوانه واستوى، أي: رب شخص طبخت قلبه من حر غيظه منى ولم يطع، أي لا يستطاع تحمل سببه. والشجا: ما نشب في الحلق من عظم ونحوه، وعسراً إلخ: حال منه. ومخرجه أي خروجه مرفوع بالوصف، لم يضرني شيئاً من الضرر غير الحسد، من ضاره يضيره ضيراً إذا ضره، فهو يزقو أي: يصيح مثل صياح الضوع: وهو ذكر البوم، وكثر تشبيه العرض المطعون فيه باللحم المأكول على طريق التصريحية، ثم شبهه الشاعر بالمرعى المخصب ترتع فيه البهائم. أو شبه المغتاب ببهيمة في المرعى على طريق المكنية والرتع تخييل. ويحتمل استعارته للأكل الملائم للحم، ثم للطعن الملائم للعرض على طريق التصريح، أي: إذا يخلو له عرضي اغتاب كما يريد.

ينظر: خزانة الأدب ٦/ ٢٣/ ٢٥٢، والدرر ١/ ٣٠٢، والأغاني ١٣/ ٢٩٨ وشرح اختيارات المفضل ص ٩٠١، وشرح شواهد المغني ٢/ ٧٤٠، والشعر والشعراء ١/ ٤٢٨، شرح الأشموني ٢/ ٧٠، وشرح شذور الذهب ص ١٧٠، وشرح المفصل ٤/ ١١، ومغني اللبيب ١/ ٣٢٨، الأمالي الشجرية ٢/ ١٦٩، معاني القرآن للأخفش ١/ ١٩٠، مجاز القرآن ٢/ ٤١، المفضليات ١٩٨، الهمع ١/ ٩٢، ٢/ ٢٦، الدر ١/ ١١٠.

الناس مودات القلوب، من قرابة أو صداقة أو اصطناع بمبرة أو غير ذلك؛ وإنما هو اختراع منه ابتداء اختصاصاً منه لأوليائه بكرامة خاصة، كما قذف في قلوب أعدائهم الرعب والهيبة؛ إعظاماً لهم وإجلالاً لمكانهم، والسين: إما لأن السورة مكية، وكان المؤمنون حينئذٍ ممقوتين بين الكفرة فوعدهم الله ـ تعالى ـ ذلك إذا دجا الإسلام، وإما: أن يكون ذلك يوم القيامة يحببهم إلى خلقه بما يعرض من حسناتهم وينشر من ديوان أعمالهم، وروي أنّ النبي ـ ﷺ ـ قال لعلي ـ رضي الله عنه ـ: «يَا عَلِيُّ، قُلِ: اللَّهُمَّ، ٱجْعَلْ لِي عِنْدَكَ عَهْداً، وَٱجْعَلْ لِي فِي صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ مَوَدَّةً» (٩٤١)؛ فأنزل الله هذه الآية، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني: يحبهم الله ويحببهم إلى خلقه، وعن رسول الله ـ ﷺ ـ: «يَقُولُ اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: يَا جِبْرِيلُ، قَدْ أَحْبَبْتُ فُلاَناً فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلاَناً فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يَضَعُ لَهُ المَحَبَّةَ فِي أَهْلِ الأَرْضِ» (٩٤٢)، وعن قتادة: ما أقبل العبد إلى الله إلا أقبل الله بقلوب العباد إليه.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾

هذه خاتمة السورة ومقطعها، فكأنه قال: بلغ هذا المنزل أو بشر به وأنذر؛ فإنما

---

٩٤١ ـ قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢/ ٣٤١).
رواه الثعلبي: أخبرنا عبد الخالق أنا أبو علي محمد بن أحمد بن الحسن الصراف ببغداد ثنا أبو جعفر الحسن بن علي الفارسي ثنا إسحاق بن بشر الكوفي ثنا خالد بن يزيد عن حمزة الزيات عن أبي إسحاق السبيعي عن البراء بن عازب. قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ لعلي بن أبي طالب: «يا علي، قل: اللهم اجعل لي عندك عهدا، واجعل لي في صدور المؤمنين مودة» فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾.
وعزاه أيضاً لابن مردويه والطبراني في جزء جمعه من أحاديث حمزة الزيات، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥١٢)، وعزاه لابن مردويه والديلمي.
قال الحافظ: أخرجه الثعلبي والطبراني في مسند حمزة الزيات، وابن مردويه من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنهما ـ وفيه إسحاق بن بشر عن خالد بن زيد، وهما متروكان. انتهى.
٩٤٢ ـ أخرجه البخاري (٦/ ٤٤٧) كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة عليهم السلام حديث (٣٢٠٩) وأطرافه في (٦٠٤٠، ٧٤٨٥)، ومسلم (٨/ ٤٣٣ ـ نووي) كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبداً حببه إلى عباده حديث (٢٦٣٧)، والترمذي (٥/ ٣١٨) التفسير من سورة مريم حديث (٣١٦١)، وعبد الرزاق (١٠/ ٤٥٠) رقم (١٩٦٧٣)، وأحمد (٢/ ٤١٣، ٥١٤)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٨٥ ـ ٨٦) رقم (٣٦٤ ـ ٣٦٥)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ١٤١).
قال الحافظ: متفق عليه من حديث أبي هريرة بمعناه. انتهى.

أنزلناه ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أي: بلغتك وهو اللسان العربي المبين، وسهلناه وفصلناه، ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ﴾: وتنذر، واللدّ: الشداد الخصومة بالباطل، الآخذون في كل لديد؛ أي: في كل شق من المراء والجدال لفرط لجاجهم، يريد أهل مكة.

وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾: تخويف لهم وإنذار، وقرئ: ﴿تُحِسُّ﴾: من حسه إذا شعر به، ومنه: الحواس والمحسوسات، وقرأ حنظلة: ﴿تَسْمَعُ﴾: مضارع: أسمعت، والركز: الصوت الخفي، ومنه: ركز الرمح إذا غيب طرفه في الأرض، والركاز: المال المدفون.

عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ مَرْيَمَ، أُعْطِيَ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، بِعَدَدِ مَنْ كَذَّبَ زَكَرِيَّا وَصَدَّقَ بِهِ، وَيَحْيَىٰ، وَمَرْيَمَ، وَعِيسَىٰ، وَإِبْرَاهِيمَ، وَإِسْحَاقَ، وَيَعْقُوبَ، وَمُوسَىٰ، وَهَارُونَ، وَإِسْمَاعِيلَ، وَإِدْرِيسَ، وَعَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَد مَنْ دَعَا اللَّهَ فِي الدُّنْيَا وَبِعَدَدِ مَنْ لَمْ يَدْعُ اللَّهَ» (٩٤٣).

---

٩٤٣ ـ تقدم تخريجه وهو حديث فضائل القرآن سورة سورة وينظر حديث (٣٤٦).
قال الحافظ: أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي. انتهى.

سُورَةُ طه

مَكِّيَّةٌ [إلاَّ آيَتَي ١٣٠ و١٣١ فَمَدَنِيَّتَانِ]
وَهِيَ ١٣٥ آيَةً [نَزَلَتْ بَعْدَ مَرْيَمَ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾﴾

﴿طه ﴿١﴾﴾: أبو عمرو؛ فخم الطاء لاستعلائها، وأمال الهاء وفخمها ابن كثير وابن عامر على الأصل، والباقون أمالوهما، وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: «طه»، وفسر بأنه أمر بالوطء، وأن النبي ـ ﷺ ـ كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه، فأمر بأن يطأ الأرض بقدميه معاً (٩٤٤). وأن الأصل طأ، فقلبت همزته هاء، أو قلبت ألفاً في يطأ فيمن قال

---

٩٤٤ ـ أخرجه البزار رقم (٢٢٣٢ ـ كشف) حدثنا محمد بن إسحاق البغدادي ثنا عبيد الله بن موسى ثنا كيسان أبو عمر عن يزيد بن بلال عن علي قال: كان النبي ـ ﷺ ـ يراوح بين قدميه يقدم على كل رجل حتى نزلت: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾﴾.
ذكره السيوطي في الدر (٤/٥١٦) وحسن إسناده قال الهيثمي (٧/٥٩) في المجمع، «رواه البزار وفيه يزيد بن بلال قال البخاري: فيه نظر، وكيسان أبو عمرو وثقه ابن حبان وضعفه ابن معين، وبقية رجاله رجال الصحيح».
وأخرجه البيهقي في الشعب (٢/١٨٦) رقم (١٤٩٧) أخبرنا أبو علي الروذباري أنا الحسين بن الحسن بن أيوب الطوسي ثنا أبو يحيى عن أبي مسرة ثنا خلاد بن يحيى ثنا محمد بن زياد السكري ثنا ميمون بن مهران عن ابن عباس أن النبي ـ ﷺ ـ أول ما أنزل عليه الوحي كان يقوم على صدر قدميه فأنزل الله عز وجل: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾﴾.
ذكره السيوطي في الدر (٤/٥١٦)، وعزاه لابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان.
قال الحافظ: أخرجه عبد بن حميد في تفسيره قال: حدثنا هاشم بن القاسم بن أبي جعفر، عن الربيع بن أنس قال: كان النبي ـ ﷺ ـ قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله: «طه» يعني طأ الأرض» وروى ابن مردويه من طريق قيس بن الربيع، عن قطر بن خليفة، عن منذر الثوري عن محمد بن الحنفية، عن علي: «لما نزل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾ قام الليل كله حتى ورمت قدماه، فجعل يرفع رجلاً ويضع الأخرى، فهبط عليه جبريل، قال: «طه طأ الأرض بقدميك يا محمد» وأخرجه البزار من وجه آخر عن علي: «كان النبي ـ ﷺ ـ يراوح بين قدميه يقوم على كل رجل =

[من الكامل]: :

. . . . لاَ هَنَاكَ الْمَرْتَعُ[1]

ثم بنى عليه الأمر، والهاء للسكت ٢/ ١٠أ، ويجوز أن يكتفي بشطري الاسمين، وهما: الدالان بلفظهما على المسميين، والله أعلم بصحة ما يقال: إن «طاها»: في لغة علك[2] في معنى: يا رجل، ولعل عكا تصرفوا في: «يا هذا» كأنهم في لغتهم قالبون الياء طاء، فقالوا في «يا»: «طا»، واختصروا هذا فاقتصروا على ها، وأثر الصنعة ظاهر لا يخفى في البيت المستشهد به [من البسيط]:

إِنَّ السَّفَاهَةَ طَاهَا فِي خَلاَئِقِكُمْ لاَ قَدَّسَ اللّٰهُ أَخْلاَقَ الْمَلاَعِينِ[3]

حتى نزلت ﴿طه مَآ أَنزَلْنَا . . . الآية﴾ ومن طريق نهشل، عن الضحاك، عن ابن عباس في قوله تعالى: (طه) قال: «إن رسول الله ـ ﷺ ـ ربما قرأ القرآن إذا صلى، فقام على رجل واحدة، فأنزل الله طأها برجليك» وأخرجه البيهقي في الشعب الرابع عشر من وجه آخر عن ميمون بن مهران عن ابن عباس «أن النبي ـ ﷺ ـ أول ما أنزل عليه الوحي كان يقوم على صدور قدميه إذا صلى. فأنزل الله (طه). انتهى.

---

(١) نزع ابن بشر وابن عمرو قبله وأخو هراة لمثلها يتوقع
راحت بمسلمة البغال عشية فارعى فزارة لاهناك المرتع

للفرزدق، يهجو عمرو بن زهرة الفزاري، وقد ولي العراق بعد عبد الملك بن بشر بن مروان، وكان على البصرة ومحمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة، وكان على الكوفة. يقول: ذهب ابن بشر وابن عمرو، وأخو هراة أي صاحبها وواليها. وهراة من بلاد العراق أيضاً. يتوقع: أي يترقب وينتظر مثل حاله من قبله. راحت، وروي: مضت، أي ذهبت البغال بمسلمة بن عبد الملك كما يفيد شرح المراح، وكان يمنع بني فزارة من الرعي في أرض العراق، ففر إلى الشام وترك الملك، فارعى يا فزارة ما شئت يخاطب القبيلة بذلك، وإشارة إلى أنه كان محرماً عليهم، فأبيح بعد مسلمة. وارعى: بفتح العين وسكون الياء؛ لأن مضارعه مفتوح العين. ولا هناك المرتع: دعا عليهم. يقال: هناك الطعام ومراك، بتخفيف الهمز: انهضم في بطنك وأراحك ونفعك، فإذا انفرد الثاني قلت: أمراك الطعام، وتخفيف الهمزة بقلبها ألفاً: صرفه كما هنا شاذ، وقياس تخفيفها في مثل هذا جعلها بين بين لعدم سكون ما قبلها.

(٢) قوله «في لغة عك» في الصحاح عك بن عدنان أخو معد وهو اليوم في اليمن. (ع)

(٣) السفاهة: الجهل والحمق والخفة. و«طه» في لغة عك، معناه يا هذا، فكأنهم قلبوا الياء طاء وحذفوا ذا. قال الزمخشري: ولا يخفى التصنع في البيت. والخلائق: الطبائع، ودعا عليهم بأن الله لا يطهر أرواحهم. ووضع المظهر موضع المضمر لزيادة الذم والتشنيع. وقيل: للدلالة على سبب الدعاء، أي: فإنهم ملعونون، ولعل معناه: فإنهم مستحقين للعن وفاعلون سببه.
ينظر: حاشية الشهاب (٦/ ١٧٨)، والطبري (١٦/ ١٣٦)، ومجمع البيان (٤/ ٢)، والفخر الرازي (٢٢/ ٣)، والبحر (٦/ ٢٤٤)، والدر المصون (٥/ ٣).

والأقوال الثلاثة في الفواتح، أعني: التي قدمتها في أول الكاشف عن حقائق التنزيل، هي التي يعوّل عليها الألِبّاء المتقنون، ﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾: إن جعلت ﴿طه ①﴾: تعديداً لأسماء الحروف على الوجه السابق ذكره فهو ابتداء كلام، وإن جعلتها اسماً للسورة احتملت أن تكون خبراً عنها، وهي في موضع المبتدأ، و﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾: ظاهر أوقع موقع الضمير؛ لأنها قرآن، وأن يكون جواباً لها وهي قسم، وقرئ: «ما نزل عليك القرآن» ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾: لتتعب، بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم، وتحسرك على أن يؤمنوا؛ كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الشعراء: ٣]، والشقاء يجيء في معنى: التعب، ومنه المثل: أشقى من رائض مهر، أي: ما عليك إلا أن تبلغ وتذكر، ولم يكتب عليك أن يؤمنوا لا محالة، بعد أن لم تفرط في أداء الرسالة والموعظة الحسنة، وقيل: إن أبا جهل والنضر بن الحارث، قالا له: إنك شقي؛ لأنك تركت دين آبائك، فأريد ردّ ذلك بأن دين الإسلام وهذا القرآن هو السلم إلى نيل كل فوز، والسبب في درك كل سعادة، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها، وروي أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ صلى بالليل حتى اسمغدت[1] قدماه، فقال له جبريل ـ عليه السلام ـ: أبق على نفسك؛ فإن لها عليك حقاً (٩٤٥)، أي: ما أنزلناه لتنهك نفسك

---

٩٤٥ ـ قال الحافظ: لم أره هكذا، وفي الدعوات الكبير للبيهقي عن عائشة قالت: لما كانت ليلة النصف من شعبان ـ فذكر حديثاً طويلاً ـ وفيه: فما زال يصلي قائماً وقاعدا حتى أصبح وحتى اسمغدت قدماه، فقمت أغمزها ـ الحديث وليس فيه كلام جبريل.

وذكره الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/ ٣٤٨) فقال:

«روى البيهقي في كتاب الدعوات الكبير: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرني أبو صالح خلف بن محمد ثنى صالح بن محمد الحافظ ثنا محمد بن عباد حدثني حاتم بن إسماعيل المدني عن نصر بن كثير عن يحيى بن سعيد عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: لما كانت ليلة النصف من شعبان انسل رسول الله ـ ﷺ ـ من مرطي ثم قالت: والله، ما كان مرطنا من خزّ ولا قز، ولا كرسف، ولا كتان، ولا صوف قلنا: سبحان الله! فمن أي شيء؟ قالت: إن كان سداه لشعراً وإن كانت لحمته لمن وبر الإبل قالت: فخشيت أن يكون أتى بعض نسائه فقمت ألتمسه في البيت فتقع قدمه على قدمي وهو ساجد فحفظت من قوله: «سجد لك سوادي وآمن لك فؤادي أبوء لك بالنعم، واعترف لك بالذنوب، ظلمت نفسي فاغفر لي ذنوبي؛ إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» قالت: فما زال رسول الله ـ ﷺ ـ يصلي قائماً وقاعداً حتى أصبح وحتى اسمغدت قدماه، فقمت اغمزها وأقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أتعبت نفسك أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: يا عائشة، «أفلا أكون عبداً شكوراً».

قال الحافظ: لم أره هكذا. وفي الدعوات الكبير للبيهقي عن عائشة، قالت: «لما كانت ليلة النصف من شعبان، فذكر حديثاً طويلاً ـ وفيه: فما زال يصلي قائماً وقاعداً حتى أصبح وحتى اسمغدت قدماه. فقمت أغمزها ـ الحديث. انتهى.

---

(١) قوله «حتى اسمغدت» بالغين المعجمة، أي: تورمت. أفاده الصحاح. (ع)

بالعبادة وتذيقها المشقة الفادحة، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة، وكل واحد من (لتشقى)، و(تذكرة): علة للفعل، إلا أن الأول وجب مجيئه مع اللام؛ لأنه ليس لفاعل الفعل المعلل ففاتته شريطة الانتصاب على المفعولية، والثاني: جاز قطع اللام عنه، ونصبه؛ لاستجماعه الشرائط.

فإن قلت: أما يجوز أن تقول: ما أنزلنا عليك القرآن أن تشقى؛ كقوله تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾؟ [الحجرات: ٢] قلت: بلى، ولكنها نصبة طارئة، كالنصبة في: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾، وأما النصبة في تذكرة، فهي كالتي في: ضربت زيداً؛ لأنه أحد المفاعيل الخمسة التي هي أصول وقوانين لغيرها.

فإن قلت: هل يجوز أن يكون (تذكرة): بدلاً من محل: (لتشقى)؟

قلت: لا؛ لاختلاف الجنسين، ولكنها نصب على الاستثناء المنقطع الذي «إلا» فيه بمعنى: «لكن»[1]، ويحتمل أن يكون المعنى: إنا أنزلنا عليك القرآن لتحتمل[2] متاعب التبليغ، ومقاولة العتاة من أعداء الإسلام ومقاتلتهم وغير ذلك من أنواع المشاق وتكاليف النبوّة، وما أنزلنا عليك هذا المتعب الشاق إلا ليكون تذكرة، وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون تذكرة حالاً ومفعولاً له، ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾: لمن يؤول أمره إلى الخشية، ولمن يعلم الله منه أنه يبدل بالكفر إيماناً وبالقسوة خشية، في نصب: ﴿تَنزِيلًا﴾ وجوه: أن يكون بدلاً من تذكرة إذا جعل حالاً، لا إذا كان مفعولاً له؛ لأن الشيء لا يعلل بنفسه، وأن ينصب بنزل مضمراً، وأن ينصب بأنزلنا؛ لأن معنى: ما أنزلناه إلا تذكرة: أنزلناه تذكرة، وأن ينصب على المدح والاختصاص، وأن ينصب بيخشى مفعولاً به، أي: أنزله الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله، وهو معنى حسن وإعراب بين، وقرئ: «تنزيل»: بالرفع على خبر مبتدأ محذوف، ما بعد (تنزيلا) إلى قوله: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾؛ تعظيم وتفخيم لشأن المنزل، لنسبته إلى من هذه أفعاله وصفاته، ولا يخلو من أن يكون متعلقه إما: (تنزيلاً) نفسه فيقع

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: يعني باختلاف الجنسين أن نصب التذكرة نصبة صحيحة ليست بعارضة والنصبة التي تكون في «لتشقى» بعد نزع الخافض نصبة عارضة والذي يقول: إنه ليس له محل ألبتة فيتوهم البدل منه. قلت: مراد الزمخشري باختلاف الجنسين إلا ما ذكرته عن الفارسي رداً على الزجاج وأي أثر لاختلاف النصبتين في ذلك؟. انتهى. الدر المصون.

(٢) قال محمود: «ويحتمل أن يكون المعنى إنا أنزلنا عليك القرآن لتحتمل... إلخ» قال أحمد: وفي هذا الوجه الثاني بعد؛ فإن فيه إثبات كون الشقاء سبباً في نزوله عكس الأول وإن لم تكن اللام سببية فكانت للصيرورة مثلاً ولم يكن فيه ما جرت عادة الله تعالى به مع نبيه ﷺ من نهيه عن الشقاء والحزن عليهم وضيق الصدر بهم، وكان مضمون هذه الآية متبايناً عن قوله تعالى ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾، ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ وأمثاله كثيرة فالظاهر والله أعلم هو التأويل الأول.

صلة له، وإما محذوفا فيقع صفة له.

فإن قلت: ما فائدة النقلة من لفظ المتكلم إلى لفظ الغائب؟

قلت: غير واحدة منها عادة الافتنان في الكلام وما يعطيه من الحسن والروعة، ومنها أنّ هذه الصفات إنما تسردت مع لفظ الغيبة، ومنها أنه قال أولاً: (أنزلنا)، ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع، ثم ثنى بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد فضوعفت الفخامة من طريقين، ويجوز أن يكون: (أنزلنا): حكاية لكلام جبريل والملائكة النازلين معه، ووصف السموات بالعلا: دلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها في علوها وبعد مرتقاها.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾

قرئ: (الرحمن): مجروراً صفة لمن خلق والرفع أحسن؛ لأنه إما أن يكون رفعاً على المدح على تقدير: هو الرحمن، وإما: أن يكون مبتدأ مشاراً بلامه إلى من خلق.

فإن قلت: الجملة التي هي ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾: ما محلها ـ إذا جررت الرحمن أو رفعته على المدح؟

قلت: إذا جررت فهي خبر مبتدأ محذوف لا غير، وإن رفعت جاز أن تكون كذلك، وأن تكون مع الرحمن خبرين للمبتدأ؛ لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك، جعلوه كناية عن الملك فقالوا: استوى فلان على العرش، يريدون: ملك وإن لم يقعد على السرير ألبتة، وقالوه ـ أيضاً ـ لشهرته في ذلك المعنى ومساواته ٢/ ١٠ب ملك في مؤدّاه وإن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر؛ ونحوه قولك: يد فلان مبسوطة، ويد فلان مغلولة، بمعنى: أنه جواد أو بخيل، لا فرق بين العبارتين إلا فيما قلت، حتى أنّ من لم يبسط يده قط: بالنوال أو لم تكن له يد رأساً قيل فيه: يده مبسوطة لمساواته عندهم قولهم: هو جواد؛ ومنه قول الله ـ عز وجل ـ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، أي: هو بخيل، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أي: هو جواد، من غير تصوّر يد ولا غل ولا بسط، والتفسير بالنعمة والتمحل للتثنية من ضيق العطن والمسافرة عن علم البيان مسيرة أعوام، ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾: ما تحت سبع الأرضين، عن محمد بن كعب (٩٤٦) وعن السدي: هو الصخرة التي تحت الأرض السابعة (٩٤٧).

---

٩٤٦ ـ أخرجه ابن جرير (٨/ ٣٩٢) رقم (٢٤٠٠٤) وذكر السيوطي هذا القول عن محمد بن كعب في الدر (٤/ ٥١٨) وعزاه لابن أبي حاتم.

٩٤٧ ـ ذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥١٨) وعزاه لابن أبي حاتم.

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾

أي: يعلم ما أسررته إلى غيرك وأخفى من ذلك، وهو ما أخطرته ببالك، أو ما أسررته في نفسك، ﴿وَأَخْفَى﴾: منه وهو ما ستسره فيها، وعن بعضهم: أن أخفى فعل[1]، يعني: أنه يعلم أسرار العباد وأخفى عنهم ما يعلمه؛ هو كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾، وليس بذاك.

فإن قلت: كيف طابق الجزاء الشرط؟

قلت: معناه: وإن تجهر بذكر الله من دعاء أو غيره، فاعلم أنه غني عن جهرك، فإما أن يكون نهياً عن الجهر؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وإما تعليماً للعباد أنّ الجهر ليس لإسماع الله؛ وإنما هو لغرض آخر، ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: تأنيث الأحسن، وصفت بها الأسماء؛ لأنّ حكمها حكم المؤنث؛ كقولك: الجماعة الحسنى، ومثلها: ﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨]، و﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه: ٢٣]، والذي فضلت به أسماؤه في الحسن سائر الأسماء: دلالتها على معاني التقديس والتمجيد والتعظيم والربوبية، والأفعال التي هي النهاية في الحسن.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾

قفاه بقصة موسى ـ عليه السلام ـ ليتأسى به في تحمل أعباء النبوّة وتكاليف الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد؛ حتى ينال عند الله الفوز والمقام المحمود، يجوز أن ينتصب: ﴿إِذْ﴾: ظرفاً للحديث؛ لأنه حدث، أو لمضمر، أي: حين ﴿رَءَا نَارًا﴾: كان كيت وكيت، أو مفعولاً لا ذكر استأذن موسى شعيباً ـ عليهما السلام ـ في الخروج إلى أمه

(١) قال محمود: «هو أفعل التفضيل، ومنهم من قال إن أخفى فعل ماض... إلخ» قال أحمد: لا يخفى أن جعله فعلاً قاصر لفظاً ومعنى: أما لفظاً فإنه يلزم منه عطف الجملة الفعلية على الإسمية إن كان المعطوف عليه الجملة الكبرى، أو عطف الماضي على المضارع إن كان المعطوف عليه الصغرى، وكلاهما دون الأحسن. وأما معنى: إن المقصود الحض على ترك الجهر بإسقاط فائدته من حيث أن الله تعالى يعلم السر وما هو أخفى منه، فكيف يبقى للجهر فائدة وكلاهما على هذا التأويل مناسب لترك الجهر. وأما إذا جعل فعلا فيخرج عن مقصود السياق وإن اشتمل على فائدة أخرى، وليس هذا كقوله تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ لأن بين السياقين اختلافاً، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وخرج بأهله، فولد له في الطريق ابن في ليلة شاتية مظلمة مثلجة، وقد ضلّ الطريق وتفرّقت ماشيته ولا ماء عنده، وقدح فصلد زنده[1]، فرأى النار عند ذلك، قيل: كانت ليلة جمعة، ﴿ٱمْكُثُوٓا۟﴾: أقيموا في مكانكم، الإيناس: الإبصار البين الذي لا شبهة فيه، ومنه إنسان العين؛ لأنه يتبين به الشيء، والإنس: لظهورهم، كما قيل: الجنّ لاستتارهم، وقيل: هو إبصار ما يؤنس به؛ لما وجد منه الإيناس فكان مقطوعاً متيقناً، حققه لهم بكلمة: «إنّ»؛ ليوطن أنفسهم، ولما كان الإتيان بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين، بنى الأمر فيهما على الرجاء والطمع وقال ﴿لَّعَلِّىٓ﴾ ولم يقطع فيقول: إني ﴿ءَاتِيكُم﴾ لئلا يعد ما ليس بمستيقن الوفاء به، القبس: النار المقتبسة في رأس عود أو فتيلة أو غيرهما، ومنه قيل: المقبسة، لما يقتبس فيه من سعفة أو نحوها، ﴿هُدًى﴾ أي: قوماً يهدونني الطريق أو ينفعونني بهداهم في أبواب الدين، عن مجاهد وقتادة؛ وذلك لأنّ أفكار الأبرار مغمورة بالهمة الدينية في جميع أحوالهم لا يشغلهم عنها شاغل، والمعنى: ذوي هدى، أو إذا وجد الهداة فقد وجد الهدى، ومعنى الاستعلاء في: ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾: أنّ أهل النار يستعلون المكان القريب منها، كما قال سيبويه في مررت بزيد: أنه لصوق بمكان يقرب من زيد، أو لأنّ المصطلين بها والمستمتعين بها إذا تكنفوها قياماً وقعوداً كانوا مشرفين عليها؛ ومنه قول الأعشى [من الطويل]:

. . . . وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَىٰ وَالْمُحَلَّقُ[2]

---

(1) قوله «فصلد زنده» في الصحاح «صلد الزند» إذا صوت ولم يخرج نارا. (ع)

(2)
لعمري لقد لاحت عيون كثيرة ... إلى ضوء نار في يفاع بخرق
تشب لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار الندى والمحلق
رضيعي لبان ثدي أم تقاسما ... بأسحم داج عوض لا نتفرق

للأعشى يمدح المحلق ـ بكسر اللام ـ سمي بذلك لأن بعيره عضه في وجهه فبقي أثر العضة مثل الحلقة، وهو من بني عكاظ، كان فقيراً وله عشر بنات لا يرغب فيهن أحد لفقرهن، فانعزل بهن إلى بعض المهامه فنزل به الأعشى فنحر له ناقته ولم يكن عنده غيرها وأحسن قراه، فعظم عند الأعشى، فلما أصبح واستوى على راحلته قال له: ألك حاجة؟ قال: نعم، أن تسير بذكري في بني عكاظ، لعل أحداً يرغب في بناتي فقد مسهن العنس. فمدحه في عكاظ فلم يلبث حتى خطبت بناته، ولاحت: لمحت وتشوفت. واليفاع: المشرف من الأرض. يخرق: أي يخترق ذلك الضوء وينتشر في الأرض. ويروى: تحرق، بالحاء المهملة. والضمير للنار. وتشب: مبني للمجهول. ، يقال: شببت النار أشبها شباً وشبوباً: أوقدتها. والمقروران: اللذان أصابهما القر،أي: البرد، وأراد بهما الندى والمحلق، يعني أنه هو وكرمه ملازمان لنار القرى ملازمة المقرور لنار التدفؤ، وبين ذلك بقوله: وبات على النار الندى والمحلق. ويجوز أن الأعشى أراد نفسه والمحلق، لكن الأول أوقع في المدح، ومعنى كونهما عليها: أنهما على جانبيها ولأن المتدفئ يكون أعلى منها بحيث يمد يده فوقها. وعطف المحلق على الندى دلالة على أنهما متلازمان متقارنان. وبين ذلك بقوله: =

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ۝١٤﴾

قرأ أبو عمرو وابن كثير (أني): بالفتح، أي: نودي بأني، ﴿أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، وكسر الباقون، أي: نودي، فقيل: يا موسى، أو لأنّ النداء ضرب من القول فعومل معاملته، تكرير الضمير في: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾؛ لتوكيد الدلالة، وتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة، روي أنه لما نودي: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾، قال: من المتكلم؟ فقال له الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، وأن إبليس وسوس إليه قال: لعلك تسمع كلام شيطان، فقال: أنا عرفت أنه كلام الله بأني أسمعه من جميع جهاتي الست، وأسمعه بجميع أعضائي، وروي أنه حين انتهى رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها كأنها نار بيضاء تتقد[1]، وسمع تسبيح الملائكة، ورأى نوراً عظيماً، فخاف وبهت، فألقيت عليه السكينة ثم نودي، وكانت الشجرة عوسجة، وروي: كلما دنا أو بعد لم يختلف ما كان يسمع من الصوت، وعن ابن إسحاق: لما دنا استأخرت عنه، فلما رأى ذلك، رجع وأوجس في نفسه خيفة، فلما أراد الرجعة دنت منه، ثم كلم، قيل: أمر بخلع النعلين؛ لأنهما كانتا من جلد حمار ميت غير مدبوغ عن السدي وقتادة (٩٤٨)، وقيل: ليباشر الوادي بقدميه متبركاً به، وقيل: لأن

---

٩٤٨ ـ أخرجه ابن جرير عن قتادة (٨/٣٩٧) رقم (٢٤٠٣٢ ـ ٢٤٠٣٣) وعزاه السيوطي في الدر (٤/٥٢٢) لابن أبي حاتم عن الزهري.
وروى الحاكم (٢/٣٧٩) كتاب التفسير أخبرنا الشيخ أبو بكر أحمد بن إسحاق أنبأ محمد بن غالب ثنا عمر بن حفص بن غياث. ثنا أبي وخلف بن خليفة عن حميد بن قيس عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يوم كلم الله موسى كانت =

= رضيعي لبان، وهو حال منهما، شبههما بالتوأمين دلالة على غاية التلازم حتى في الرحم بل وقبله. واللبان: لبن المرأة خاصة، وهو مضاف إلى ثدي أم، وتنوينها للإفراد وإضافته له؛ لأنه منه. ويجوز تنوينه. فثدي: بدل منه. والأسحم: الأسود الداجي المظلم. أي تحالفا كما هو رواية أيضاً في ليل مظلم. أو في الرحم المظلم. وعوض: ظرف مستقبل، نصب بما بعده. لا نتفرق: جواب التحالف، وكنى بذلك كله عن شدة التلازم بينه وبين الكرم.

ينظر: ديوانه (١٢١)، والمغني (١٠١)، واللسان (حلق)، والبحر (٨/٤٥١)، والدر المصون (٦/٥٠٣).

(١) قوله: «كأنها نار بيضاء تتقد... إلخ» عبارة الخازن «أطافت بها نار... إلخ» وعبارة النسفي بدل قوله: «رأى شجرة... إلخ»: «وجد ناراً بيضاء تتوقد في شجرة خضراء من أعلاها إلى أسفلها وكانت شجرة العناب أو العوسج». (ع)

الحفوة تواضع لله، ومن ثم طاف السلف ٢/ ١١أ بالكعبة حافين، ومنهم من استعظم دخول المسجد بنعليه، وكان إذا ندر منه الدخول متنعلاً تصدق، والقرآن يدل على أن ذلك احترام للبقعة، وتعظيم لها، وتشريف لقدسها، وروي أنه خلع نعليه وألقاهما من وراء الوادي، ﴿طُوًى﴾: بالضم والكسر منصرف وغير منصرف بتأويل المكان والبقعة، وقيل: مرتين؛ نحو: ثنى[1]، أي: نودي نداءين أو قدس الوادي كرة بعد كرة، ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾: اصطفيتك للنبوة، وقرأ حمزة: «وإنا اخترناك»، ﴿لِمَا يُوحَىٰٓ﴾: للذي يوحى، أو للوحي، تعلق اللام باستمع، أو باخترتك[2]، ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾: لتذكرني؛ فإن ذكري أن أعبد ويصلى لي، أو لتذكرني فيها لاشتمال الصلاة على الأذكار عن مجاهد، أو: لأني ذكرتها في الكتب وأمرت بها، أو لأن أذكرك بالمدح والثناء وأجعل لك لسان صدق، أو لذكري خاصة لا تشوبه بذكر غيري أو لإخلاص ذكري وطلب وجهي لا ترائي بها ولا تقصد بها غرضاً آخر، أو لتكون لي ذاكراً غير ناس فعل المخلصين في جعلهم ذكر ربهم على بال منهم وتوكيل هممهم وأفكارهم به، كما قال: ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]، أو لأوقات ذكري وهي مواقيت الصلاة؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣]،. واللام مثلها في قولك: جئتك لوقت كذا، وكان ذلك لست ليال خلون، وقوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]، وقد حمل على ذكر الصلاة بعد

= عليه جبة صوف وكساء صوف، وسراويل صوف وكمه صوف، ونعلاه من جلد حمار غير ذكي».

وقال: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

وتعقبه الذهبي بقوله: بل ليس على شرط البخاري، وإنما غره أن في الإسناد حميد بن قيس كذا وهو خطأ إنما هو حميد الأعرج الكوفي ابن علي أو ابن عمار أحد المتروكين فظنه المكي الصادق» اهـ.

قال الحافظ: لم أره هكذا، وفي الترمذي والحاكم عن عبد الله بن مسعود رفعه: «يوم كلم الله موسى، كان عليه جبة صوف ونعلاه من جلد حمار ميت، غير ذكي». انتهى.

---

(١) قوله «وقيل مرتين نحو ثنى» في الصحاح: وقال يعني بعضهم في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ طوى مرتين، أي قدس. وفيه أيضاً «الثنى» مقصور: الأمر يعاد مرتين اهـ. فلعل أصل عبارته أيضاً: وقيل طوى مرتين يعني قدس وطهر مرتين. وظاهر العبارة أن طوى مثل ثنى بمعنى مرتين، أي: نودي موسى مرتين، أو قدس الوادي مرتين فهو منصوب بنودي أو بالمقدس. (ع)

(٢) قال السمين الحلبي: وقد رد الشيخ هذا، بأن قال: ولا يجوز التعليق باخترتك؛ لأنه من باب الإعمال فكان يجب أن يختار إعادة الضمير مع الثاني فكان يكون فاستمع له لما يوحي فدل على أنه من باب إعمال الثاني، قال السمين: الزمخشري عني التعليق المعنوي، من حيث الصلاحية، وأما تقدير الصناعة فلم يَعْنه، و«مَا» يجوز أن تكون مصدرية وبمعنى «الذي» أي فاستمع للوحي أو للذي يوحى». انتهى. الدر المصون.

نسيانها من قوله ـ عليه السلام ـ: «مَنْ نَامَ عَنْ صَلاَةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا» (٩٤٩)، وكان حق العبارة أن يقال: لذكرها، كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إِذَا ذَكَرَهَا» ح، ومن يتمحل له يقول: إذا ذكر الصلاة فقد ذكر الله، أو بتقدير حذف المضاف، أي: لذكر صلاتي، أو لأن الذكر والنسيان من الله ـ عز وجل ـ في الحقيقة، وقرأ رسول الله ـ ﷺ ـ: «للذكرى».

---

٩٤٩ ـ أخرجه البخاري (٢/ ٧٠) كتاب المواقيت: باب من نسي صلاة. . . (٥٩٧)، ومسلم (١/ ٤٧٧) كتاب المساجد: باب قضاء الصلاة الفائتة (٣١٤/ ٦٨٤)، وأبو داود (١/ ١٧٤) كتاب الصلاة: باب من نام عن صلاة أو نسيها (٤٤٢)، والترمذي (١/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦) كتاب الصلاة: باب ما جاء في الرجل ينسى الصلاة (١٧٨)، والنسائي (١/ ٢٩٣) كتاب المواقيت: باب فيمن نسي الصلاة (٦١٣)، وابن ماجه (١/ ٢٢٧) كتاب الصلاة: باب من نام عن الصلاة أو نسيها (٦٩٥ ـ ٦٩٦)، والدارمي (١/ ٢٨٠) كتاب الصلاة: باب من نام عن صلاة أو نسيها، وأبو عوانة (٢/ ٢٦٠ ـ ٢٦١)، وابن أبي شيبة (١/ ١٨٩)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢/ ٢٣٠)، وأحمد (٣/ ٢١٦ ـ ٢٤٣ ـ ٢٦٧ ـ ٢٨٢)، والبيهقي (٢/ ٢١٨)، وابن خزيمة (٢/ ٩٧) رقم (٩٩٣). من طرق عن قتادة عن أنس مرفوعاً.

ولفظ مسلم: «من نسي صلاة أو نام عنها، فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها» ولفظ البخاري: «من نسي صلاة فليصل إذا ذكر لا كفارة لها إلا ذلك» وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة.

أخرجه مسلم (١/ ٤٧١) كتاب المساجد: باب قضاء الصلاة الفائتة (٣٠٩/ ٦٨٠)، وأبو داود (١/ ١٧٢) كتاب الصلاة: باب من نام عن صلاة أو نسيها (٤٣٥)، والنسائي (١/ ٢٩٦)، كتاب المواقيت) باب إعادة من نام عن الصلاة لوقتها من الغد، وابن ماجه (١/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨) كتاب الصلاة: باب من نام عن الصلاة أو نسيها (٦٩٧)، وأبو عوانة (٢/ ٢٥٣)، والبيهقي (٢/ ٢١٧) من طرق عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من نسي الصلاة فليصلها إذا ذكرها فإن الله تعالى قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ وللحديث شاهد آخر من حديث سمرة.

أخرجه أحمد (٥/ ٢٢) من طريق بشر بن حرب عن سمرة قال: بشر أحسبه مرفوعاً: «من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها»، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٣٢٦) وقال: وبشر بن حرب ضعفه ابن المديني وجماعة ووثقه ابن عدي وقال لم أر له حديثاً منكراً ا.هـ وقال الحافظ في «التقريب» (١/ ٩٨): بشر بن حرب الأزدي أبو عمرو الندبي: صدوق فيه لين.

وفي الباب أيضاً عن أبي بكرة.

أخرجه البزار (١/ ١٩٩ ـ كشف) رقم (٣٩٤) من طريق إسماعيل بن علية عن عيينة عن أبيه عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من نسي صلاة أو نام عنها فليصلها إذا ذكرها».

قال البزار: لا نعلمه عن أبي بكرة إلا من هذا الوجه ولم يحدث به عن ابن علية إلا أحمد بن المقدام.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٣٢٧) وقال: رواه البزار ورجاله موثقون.

قال الحافظ: متفق عليه من حديث أبي هريرة في قصة النوم عن الصلاة. وفي آخره: من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها؛ فإن الله تعالى قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾، وفي رواية: (للذكرى) وهو أيضاً متفق عليه من حديث أنس مرفوعاً بلفظ: «من نسي صلاة أو نام عنها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها» زاد البخاري في رواية: «أقم الصلاة لذكري». انتهى.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾

أي: أكاد أخفيها فلا أقول هي آتية[1]؛ لفرط إرادتي إخفاءها، ولولا ما في الإخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من اللطف لما أخبرت به، وقيل: معناه: أكاد أخفيها من نفسي، ولا دليل في الكلام على هذا المحذوف، ومحذوف لا دليل عليه مطرح، والذي غرهم منه أن في مصحف أبي: «أكاد أخفيها من نفسي»، وفي بعض المصاحف: «أكاد أخفيها من نفسي فكيف أظهركم عليها»، وعن أبي الدرداء وسعيد بن جبير: «أخفيها»: بالفتح: من خفاه إذا أظهره، أي: قرب إظهارها؛ كقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، وقد جاء في بعض اللغات: «أخفاه»: بمعنى خفاه؛ وبه فسر بيت امرئ القيس [من المتقارب]:

فَإِنْ تَدْفِنُوا الدَّاءَ لاَ نُخْفِهِ ... وَإِنْ تَبْعَثُوا الْحَرْبَ لاَ نَقْعُدِ[2]

فأكاد أخفيها محتمل للمعنيين، ﴿لِتُجْزَىٰ﴾: متعلق بآتية، ﴿بِمَا تَسْعَىٰ﴾: بسعيها.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾

أي: لا يصدنك عن تصديقها، والضمير: للقيامة، ويجوز أن يكون للصلاة.

فإن قلت: العبارة لنهي من لا يؤمن عن صدّ موسى، والمقصود نهي موسى عن التكذيب بالبعث أو أمره بالتصديق، فكيف صلحت هذه العبارة لأداء هذا المقصود؟

قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب، فذكر السبب ليدل على المسبب.

والثاني: أن صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل في الدين ولين شكيمته، فذكر

---

(١) قال محمود: «معناه قاربت ألاّ أقول: هي آتية... إلخ» قال أحمد: ولا يقنع في رد هذا التأويل بالهوينا، فإنه بين الفساد، وذلك أن خفاءها عن الله تعالى محال عقلاً، فكيف يوصف المحال العقلي بقرب الوقوع. وأحسن ما في محامل الآية ما ذكره الأستاذ أبو علي حيث قال: المراد أكاد أزيل خفاءها، أي: أظهرها، إذ الخفاء الغطاء، وهو أيضاً ما تجعله المرأة فوق ثيابها يسترها، ثم تقول العرب: أخفيته. إذا أزلت خفاءه، كما تقول أشكيته وأعتبته، إذا أزلت شكايته وعتبه، وحينئذٍ يلتئم القراءتان: أعني فتح الهمزة وضمها، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(٢) يقال: خفاه، إذا كتمه. وخفاه أيضاً: أظهره، وما هنا منه. والمعنى: إن تكتموا الضغائن التي بيننا نكتمها نحن أيضاً ولا نظهرها. شبه الضغينة والعداوة بالداء بجامع نشأة الضرر عن كل على طريق التصريحية. وشبه الحرب بحيوان على طريق المكنية، والبعث تخييل. أو استعمل البعث في التسبب مجازاً مرسلاً أو استعارة تصريحية. والمعنى: وإن تظهروا البغضاء وتوقدوا الهيجاء نغلبكم كما تعلمون منا.
ينظر: ديوانه ص (١٨٦)، ولسان العرب (خفا)، وتاج العروس (خفي)، وتهذيب اللغة (٧/ ٥٩٥).

المسبب ليدل على السبب؛ كقولهم: لا أرينك ههنا، المراد: نهيه عن مشاهدته والكون بحضرته؛ وذلك سبب رؤيته إياه، فكان ذكر المسبب دليلاً على السبب، كأنه قيل: فكن شديد الشكيمة صليب المعجم[1]، حتى لا يتلوح منك لمن يكفر بالبعث أنه يطمع في صدك عما أنت عليه، يعني: أن من لا يؤمن بالآخرة هم الجم الغفير؛ إذ لا شيء أطم على الكفرة، ولا هم أشد له نكيراً من البعث، فلا يهولنك وفور دهمائهم ولا عظم سوادهم، ولا تجعل الكثرة مزلة قدمك، واعلم أنهم وإن كثروا تلك الكثرة، فقدوتهم فيما هم فيه هو الهوى واتباعه، لا البرهان وتدبره، وفي هذا حث عظيم على العمل بالدليل، وزجر بليغ عن التقليد، وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهله.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾؛ كقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢]، في انتصاب الحال، بمعنى: الإشارة، ويجوز أن تكون: ﴿تِلْكَ﴾: اسماً موصولاً صلته ﴿بِيَمِينِكَ﴾؛ إنما سأله ليريه عظم ما يخترعه ـ عز وعلا ـ في الخشبة اليابسة من قلبها حية نضناضة[2]، وليقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه، وينبهه على قدرته الباهرة؛ ونظيره أن يريك الزرّاد زبرة من حديد ويقول لك: ما هي؟ فتقول: زبرة حديد، ثم يريك بعد أيام لبوساً مسرداً فيقول لك: هي تلك الزبرة صيرتها إلى ما ترى من عجيب الصنعة وأنيق السرد، قرأ ابن أبي إسحاق: «عصيّ»: على لغة هذيل؛ ومثله: ﴿يَٰبُشْرَىٰ﴾ [يوسف: ١٩]، أرادوا كسر ما قبل ياء المتكلم فلم يقدروا عليه، فقلبوا الألف إلى أخت الكسرة، وقرأ الحسن: عصاي: بكسر الياء؛ لالتقاء الساكنين، وهو مثل قراءة حمزة: ﴿بِمُصْرِخِيِّ﴾ [إبراهيم: ٢٢] وعن ابن أبي إسحاق: سكون الياء، ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾: أعتمد عليها إذا أعييت أو وقفت على رأس القطيع وعند الطفرة[3]، هش الورق: خبطه، أي: أخبطه على رءوس غنمي تأكله، وعن لقمان بن عاد ٢/١١ب: أكلت حقًّا وابن لبون وجذع، وهشة نخب وسيلاً دفع، والحمد لله من غير شبع، سمعته من غير واحد من العرب، ونخب: واد قريب من الطائف كثير السدر، وفي قراءة النخعي: «أهش»، وكلاهما من هش الخبز يهش: إذا كان ينكسر لهشاشته، وعن عكرمة: أهس بالسين، أي:

---

(١) قوله «صليب المعجم» في الصحاح عجمت العود: إذا عضضته لتعلم صلابته من خوره. ورجل صلب المعجم: إذا كان عزيز النفس. (ع)

(٢) قوله «حية نضناضة» أي تحرك لسانها في فمها. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله «الطفرة» أي الوثبة. (ع)

أنحى عليها زاجراً لها، والهس: زجر الغنم، ذكر على التفصيل والإجمال المنافع المتعلقة بالعصا، كأنه أحس بما يعقب هذا السؤال من أمر عظيم يحدثه الله تعالى فقال: ما هي إلا عصا لا تنفع إلا منافع بنات جنسها وكما تنفع العيدان؛ ليكون جوابه مطابقاً للغرض الذي فهمه من فحوى كلام ربه، ويجوز أن يريد ـ عزّ وجل ـ أن يعدّد المرافق الكثيرة التي علقها بالعصا ويستكثرها ويستعظمها، ثم يريه على عقب ذلك الآية العظيمة، كأنه يقول له: أين أنت عن هذه المنفعة العظمى، والمأربة الكبرى، المنسية عندها كل منفعة ومأربة كنت تعتدّ بها وتحتفل بشأنها، وقالوا: إنما سأله ليبسط منه ويقلل هيبته، وقالوا: إنما أجمل موسى ليسأله عن تلك المآرب فيزيد في إكرامه، وقالوا: انقطع لسانه بالهيبة فأجمل، وقالوا: اسم العصا نبعة، وقيل في المآرب: كانت ذات شعبتين ومحجن، فإذا طال الغصن حناه بالمحجن، وإذا طلب كسره لواه بالشعبتين، وإذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والحلاب وغيرها، وإذا كان في البرية ركزها وعرض الزندين[1] على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظلّ، وإذا قصر رشاؤه وصله بها، وكان يقاتل بها السباع عن غنمه، وقيل: كان فيها من المعجزات أنه كان يستقي بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلواً، وتكونان شمعتين بالليل، وإذا ظهر عدوّ حاربت عنه، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت، وكان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه، ويركزها فينبع الماء، فإذا رفعها نضب، وكانت تقيه الهوام.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾

السعي: المشي بسرعة وخفة حركة.

فإن قلت: كيف ذكرت بألفاظ مختلفة: بالحية، والجان، والثعبان؟

قلت: أمّا الحية: فاسم جنس، يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير، وأمّا الثعبان والجان: فبينهما تناف؛ لأن الثعبان العظيم من الحيات، والجان الدقيق، وفي ذلك وجهان:

أحدهما: أنها كانت وقت انقلابها حية تنقلب حية صفراء دقيقة، ثم تتورّم ويتزايد جرمها حتى تصير ثعباناً، فأريد بالجان أوّل حالها، وبالثعبان مآلها.

الثاني: أنها كانت في شخص الثعبان وسرعة حركة الجان؛ والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل: ١٠]، وقيل: كان لها عرف كعرف الفرس، وقيل: كان بين لحييها أربعون ذراعاً.

---

(١) قوله: «عرض الزندين» في الصحاح «الزند» العود الذي يقدح به النار وهو الأعلى والزند السفلى فيها ثقب وهي الأنثى فإذا اجتمعا قيل: زندان ولم يقل زندتان، والجمع زناد وأزند وأزناد. (ع)

لما رأى ذلك الأمر العجيب الهائل، ملكه من الفزع والنفاز ما يملك البشر عند الأهوال والمخاوف، وعن ابن عباس: انقلبت ثعباناً ذكراً يبتلع الصخر والشجر، فلما رآه يبتلع كل شيء خاف ونفر، وعن بعضهم: إنما خافها؛ لأنه عرف ما لقي آدم منها، وقيل: لما قال له ربه: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾: بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه أن أدخل يده في فمها وأخذ بلحيها، السيرة من السير: كالركبة من الركوب، يقال: سار فلان سيرة حسنة، ثم اتسع فيها فنقلت إلى معنى المذهب والطريقة، وقيل: سير الأوّلين، فيجوز أن ينتصب على الظرف، أي: سنعيدها في طريقتها الأولى، أي: في حال ما كانت عصا، وأن يكون «أعاد»: منقولاً من «عاده»، بمعنى: عاد إليه، ومنه بيت زهير [من الوافر]:

. . . . وَعَـــادَكَ أَنْ تُـــلاَقِـــيَـــهَـــا عِـــدَاءُ[1]

فيتعدى إلى مفعولين، ووجه ثالث حسن: وهو أن يكون: ﴿سَنُعِيدُهَا﴾: مستقلا بنفسه غير متعلق بسيرتها، بمعنى: أنها أنشئت أوّل ما أنشئت عصا، ثم ذهبت وبطلت بالقلب حية، فسنعيدها بعد ذهابها كما أنشأناها أوّلاً، ونصب سيرتها بفعل مضمر، أي: تسير سيرتها الأولى، يعني: سنعيدها سائرة سيرتها الأولى؛ حيث كنت تتوكأ عليها ولك فيها المآرب التي عرفتها.

---

(١) فـصـرم حـبـلـهـا إذ صـرمـتـه وعـادك أن تـلاقـيـهـا عـداء

لزهير. أي: اقطع مودتها حيث قطعت مودتك، شبه المودة بالحبل على طريق الاستعارة التصريحية، والتصريم ترشيح وتقوية للتشبيه. وعادك: يحتمل أنه من عاد إذا رجع، فالمعنى: رجعك وردك، يحتمل أنه مقلوب من عداه إذا صرفه، كما في «ناء» مقلوب «نأى» فالمعنى صرفك. قال أبو عمير: وعادك بمعنى شغلك. وقال الأصمعي: بمعنى عاد إليك، وبمعنى صرفك. ومن المعلوم أن الفعل إذا كان لازماً تعدى بالهمزة إلى المفعول قياساً، وإذا تعدى بنفسه إلى مفعول واحد تعدى بدخول الهمزة عليه إلى مفعولين. واختلف هل هو قياس أو سماعي؟ وأعاد منه، فيجري فيه ما ذكر، وأما تعديته إلى أن تلاقيها أيضاً فهو بإسقاط الخافض توسعا. والعداء: الشغل أو البعد، ويطلق على الجور. من عدا عليه. قال الجوهري: العداء ـ بالفتح ـ الظلم، ويجوز كسره بمعنى المانع، لأن العداء هو ما يعدى به أي يصرف به. كاللواذ لما يلاذ به. والرباط لما يربط به. والمعنى: اقطع مودتها حيث قطعت مودتك. وصرفك عن ملاقاتها صارف عظيم، ونسبة الصرف إليه مجاز عقلي من قبيل الإسناد إلى السبب أو الآلة. ويحتمل أن أصله «عدا» بالكسر والقصر جمع عدو. فمد للضرورة، أي: منعك الأعداء عن لقائها فالإسناد حقيقي.

في ديوانه ص ٦٢، ولسان العرب (عدا)، وكتاب العين ٨/ ٢٥١، والمخصص ١٦/ ٢٢، وكتاب الجيم ٢/ ٣٣٧، وتهذيب اللغة ٣/ ١١٣، ومقاييس اللغة ٤/ ٢٥٠.

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾

قيل لكل ناحيتين: جناحان، كجناحي العسكر لمجنبتيه، وجناحا الإنسان: جنباه، والأصل المستعار منه جناحا الطائر، سميا جناحين، لأنه يجنحهما عند الطيران، والمراد: إلى جنبك تحت العضد؛ دل على ذلك قوله: ﴿تَخْرُجْ﴾، السوء: الرداءة والقبح في كل شيء، فكنى به عن البرص كما كنى عن العورة بالسوأة، وكان جذيمة صاحب الزباء[1] أبرص فكنوا عنه بالأبرش[2]، والبرص: أبغض شيء إلى العرب، وبهم عنه نفرة عظيمة، وأسماعهم لاسمه مجاجة، فكان جديراً بأن يكنى عنه، ولا نرى أحسن ولا ألطف ولا أحز للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه، يروى أنه كان آدم أخرج يده من مدرعته بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس يعشى البصر، ﴿بَيْضَآءَ﴾، و﴿ءَايَةً﴾: حالان معاً، و﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾: «من» صلة لبيضاء، كما تقول: ابيضت من غير سوء، وفي نصب: (آية): وجه آخر، وهو: أن يكون بإضمار نحو: خذ، ودونك، وما أشبه ذلك؛ حذف لدلالة الكلام، وقد تعلق بهذا المحذوف، ﴿لِنُرِيَكَ﴾ ١٢/٢ أي: خذ هذه الآية ـ أيضاً ـ بعد قلب العصا حية لنريك بهاتين الآيتين بعض آياتنا الكبرى، أو لنريك بهما الكبرى من آياتنا، أو لنريك من آياتنا الكبرى فعلنا ذلك.

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

لما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغي ـ لعنه الله ـ عرف أنه كلف أمراً عظيماً، وخطباً جسيماً يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلا ذو جأش[3] رابط وصدر فسيح، فاستوهب ربه أن يشرح صدره ويفسح قلبه، ويجعله حليماً حمولاً، يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد التي يذهب معها صبر الصابر بجميل الصبر وحسن الثبات، وأن يسهل عليه في

(١) قوله: «وكان جذيمة صاحب الزباء، جذيمة ملك الحيرة والزباء ملكة الجزيرة كذا في الصحاح. (ع)
(٢) قوله: «فكنوا عنه بالأبرش» في الصحاح البرش في الفرس فقط صغار تخالف سائر لونه والفرس أبرش. (ع)
(٣) قوله: «ذو جأش» في الصحاح يقال: فلان رابط الجأش أي يربط نفسه عن الفرار لشجاعته. (ع)

الجملة أمره الذي هو خلافة الله في أرضه وما يصحبها من مزاولة معاظم الشئون ومقاساة جلائل الخطوب.

فإن قلت: (لي) في قوله: ﴿ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾، ما جدواه[1] والكلام بدونه مستتب[2]؟

قلت: قد أبهم الكلام أولاً، فقيل: اشرح لي ويسر لي، فعلم أن ثم مشروحاً وميسراً، ثم بين ورفع الإبهام بذكرهما، فكان آكد لطلب الشرح والتيسير لصدره وأمره، من أن يقول: اشرح صدري، ويسر أمرى على الإيضاح الساذج؛ لأنه تكرير للمعنى الواحد من طريقي الإجمال والتفصيل، عن ابن عباس: كان في لسانه رتة[3] لما روى من حديث الجمرة (٩٥٠)، ويروى أن يده احترقت، وأن فرعون اجتهد في علاجها فلم تبرأ،

---

٩٥٠ ـ قال الزيلعي (٢/ ٣٥١): غريب عن ابن عباس.
وقال الحافظ: لم أره هكذا وإنما وقع في حديث الفتون الطويل الذي أخرجه النسائي وغيره».
وحديث الفتون هذا أخرجه النسائي في التفسير (٢/ ٤١) (٣٤٦) وفيه: «قالت: أجعل بيني وبينك أمراً يعرف فيه الحق، ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقربهن إليه، فإن بطش باللؤلؤ واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين، وهو يعقل، فقرب ذلك إليه فتناول الجمرتين فنزعوهما منه مخافة أن يحرق يديه... الحديث بطوله».
وأخرجه أبو يعلى في مسنده (٥/ ١٠ ـ ٢٩) رقم (٢٦١٨) وابن جرير (٨/ ٤١٥ ـ ٤١٧) رقم (٢٤١٣١). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٣٠)، وعزاه لابن أبي عمر العدني في مسنده، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.
وروى الحاكم (٢/ ٥٧٥) في التاريخ قصة موسى وفرعون عن وهب بن منبه وفيه: «إن شئت اجعل في هذا الطشت جمرة وذهباً، فانظر على أيهما يقبض، فأمر فرعون بذلك، فلما مد موسى يده ليقبض على الذهب قبض الملك الموكل به على يده فردها إلى الجمرة، فقبض عليها موسى فألقاها =

---

(١) قال محمود: «إن قلت: ما فائدة لي والكلام مستتب بدونها... إلخ» قال أحمد: ويحتمل عندي والله أعلم أن تكون فائدتها الاعتراف بأن منفعة شرح الصدر راجعة إليه وعائدة عليه؛ فإن الله عز وجل لا ينتفع بإرساله ولا يستعين بشرح صدره، تعالى وتقدس، على خلاف رسول الملك إذا طلب منه أن يريح عليه فإنما يطلب منه ما يعود نفعه على مرسله، ويحصل له غرضه من رسالته، والله أعلم.
(٢) قوله: «مستتب» في الصحاح: استتب الأمر تهيأ واستقام. (ع)
(٣) قوله: «كان في لسانه رتة» في الصحاح «الرتة» بالضم: العجمة في الكلام. وحديث الجمرة: أن موسى كان يلعب بين يدي فرعون وبيده قضيب، فضرب به رأسه، فغضب وهمّ بقتله، فقالت له امرأته. إنه صبي لا يعقل وجربه إن شئت، فجاءت بطشتين في أحدهما جمر وفي الآخر جوهر، فمد موسى يده إلى الجوهر، فحولها جبريل إلى الجمر فوضع جمرة في فمه فاحترق لسانه. (ع)

ولما دعاه قال: إلى أي رب تدعوني؟ قال: إلى الذي أبرأ يدي وقد عجزت عنها، وعن بعضهم: إنما لم تبرأ يده؛ لئلا يدخلها مع فرعون في قصعة واحدة فتنعقد بينهما حرمة المواكلة، واختلف في زوال العقدة بكمالها، فقيل: ذهب بعضها وبقي بعضها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]، وكان في لسان الحسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ رتة، فقال رسول الله ﷺ: ورثها من عمه موسى (٩٥١)، وقيل: زالت بكمالها؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]، وفي تنكير العقدة ـ وإن لم يقل عقدة لساني ـ: أنه طلب حل بعضها؛ إرادة أن يفهم عنه فهما جيداً، ولم يطلب الفصاحة الكاملة، و﴿مِّن لِّسَانِي﴾: صفة للعقدة، كأنه قيل: عقدة من عقد لساني.

الوزير: من الوزر؛ لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه، أو من الوزر[1]؛ لأن الملك يعتصم برأيه ويلجىء إليه أموره، أو من المؤازره وهي المعاونة، عن الأصمعي قال: وكان القياس أزيرا، فقلبت الهمزة إلى الواو، ووجه قلبها أنّ فعيلاً جاء في معنى: مفاعل مجيئاً صالحاً؛ كقولهم: عشير، وجليس، وقعيد، وخليل، وصديق، ونديم، فلما قلبت في أخيه قلبت فيه، وحمل الشيء على نظيره ليس بعزيز، ونظراً إلى يوازر وأخواته، وإلى الموازرة، ﴿وَزِيرًا﴾، و﴿هَٰرُونَ﴾: مفعولا قوله: ﴿وَٱجْعَل﴾، قدم ثانيهما على أولهما؛ عناية بأمر الوزارة، أو ﴿لِّي وَزِيرًا﴾: مفعولاه، وهارون عطف بيان للوزير، و﴿أَخِي﴾: في الوجهين بدل من هارون، وإن جعل عطف بيان آخر جاز وحسن[2]، قرءوا جميعاً:

= في فيه ثم قذفها حين وجد حرارتها، فقالت آسية لفرعون: ألم أقل لك إنه لا يعقل شيئاً ولا يعلمه، وكف عنه فرعون وصدقها وكان أمر بقتله».

قال الحافظ: لم أره هكذا، وإنما وقع في حديث القنوت الطويل الذي أخرجه النسائي وغيره من طريق القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير: «سألت ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ ـ فذكره بطوله في أربع ورقات ـ فذكر فيه قصة آسية وفرعون. وقولها: قرب إليه جمرتين ولؤلؤتين، وأنه أخذ الجمرتين فانتزعتهما منه مخافة أن يحرقا يده، وهذا يدل على أنه لم يرفعهما إلى فيه. وهو أصح ما ورد في ذلك. وروى الحاكم من طريق وهب بن منبه فذكر قصة وفيها قالت: جربه. إن شئت اجعل في هذا جمرة وذهباً فانظر أيهما يقبض. قال: فأخذ الجمرة وألقاها في فيه ثم قذفها حين وجد حرارتها» ويقال: إن العقدة التي كانت في لسان موسى من أثر تلك الجمرة التي التقمها. انتهى.

٩٥١ ـ قال الحافظ: لم أجده. انتهى.
وقال الزيلعي (١/ ٣٥٢): «غريب جداً».

---

(١) قوله «الوزير من الوزر» أي الثقل. وقوله «أو من الوزر» أي الملجأ. أفاده الصحاح. (ع)
(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: ويبعد فيه عطف البيان؛ لأن عطف البيان الأكثر فيه أن يكون =

﴿أَشْدُدْ﴾، ﴿وَأَشْرِكْهُ﴾: على الدعاء، وابن عامر وحده: «اشْدُد»، و«أُشرِكه»: على الجواب، وفي مصحف ابن مسعود: «أخي واشدد»، وعن أبي بن كعب: «أشركه في أمري»، «واشدد به أزري»، ويجوز فيمن قرأ على لفظ الأمر: أن يجعل: (أخي) مرفوعاً على الابتداء، و(اشدد به): خبره، ويوقف على: (هارون)، الأزر: القوة، وأزره: قواه، أي: اجعله شريكي في الرسالة حتى نتعاون على عبادتك وذكرك، فإن التعاون ـ لأنه مهيج الرغبات ـ يتزايد به الخير ويتكاثر، ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥﴾ أي: عالماً بأحوالنا وبأن التعاضد مما يصلحنا، وأن هارون نعم المعين والشادّ لعضدي، بأنه أكبر مني سنًا وأفصح لساناً.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦﴾

السؤل: الطلبة، فعل بمعنى: مفعول؛ كقولك: خبز، بمعنى: مخبوز، وأكل، بمعنى: مأكول.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ۝٣٩﴾

الوحي إلى أم موسى: إما أن يكون على لسان نبيّ في وقتها؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة: ١١١]، أو يبعث إليها ملكاً لا على وجه النبوة، كما بعث إلى مريم، أو يريها ذلك في المنام فتتنبه عليه، أو يلهمها؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، أي: أوحينا إليها أمراً لا سبيل إلى التوصل إليه ولا إلى العلم به إلا بالوحي، وفيه مصلحة دينية فوجب أن يوحى ولا يخل به، أي: هو مما يوحى لا محالة وهو أمر عظيم، مثله يحق بأن يوحى (أن): هي المفسرة؛ لأن الوحي بمعنى: القول، القذف

= الأول دونه في الشهرة وهذا بالعكس، قلت: لم يرد الزمخشري أن أخي عطف بيان لهارون حتى يقول الشيخ إن الأول وهو هارون أشهر من الثاني وهو أخي إنما عنى الزمخشري أنه عطف بيان أيضاً لـ ﴿وَزِيرًا﴾ ولذلك قال أخي ولا بد من الإتيان بلفظه ليُعرف أنه لم يرد إلا ما ذكرته قال: وزيراً هارون مفعولاً قوله: «اجعل» أو: لي وزيراً مفعولاً، وهارون عطف بيان لوزير، وأخي في الوجهين بدل من هارون، وإن جعل عطف بيان آخر جاز وحسن، فقوله آخر تعيّن أن يكون عطف بيان لما جعل عنه عطف بيان قبل ذلك وجوّز الزمخشري في أخي أن يرتفع بالابتداء، ويكون خبره الجملة من قوله: «اشدد به» وذلك على قراءة الجمهور له بصفة الدعاء، وعلى هذا فالوقف على هارون وقرأ ابن عامر اشْدُدْ» بفتح الهمزة للمضارعة وجزم الفعل جواباً للأمر و«أُشرِكه» بضم الهمزة للمضارعة وجزم الفعل نسقاً على ما قبله. انتهى. الدر المصون.

مستعمل في معنى الإلقاء والوضع؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الحشر: ٢]، وكذلك الرمي؛ قال [من الطويل]:

غُـلاَمٌ رَمَـاهُ الـلَّـهُ بِـالْـحُـسْـنِ يَـافِـعـاً . . . .(١)

أي: حصل فيه الحسن ووضعه فيه، والضمائر كلها راجعة إلى موسى، ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت: فيه هجنة؛ ٢/١٢ب لما يؤدي إليه من تنافر النظم.

فإن قلت: المقذوف في البحر هو التابوت، وكذلك الملقى إلى الساحل.

قلت: ما ضرك لو قلت: المقذوف والملقى هو موسى في جوف التابوت؛ حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذي هو أم إعجاز القرآن، والقانون الذي وقع عليه التحدّي، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر؛ لما كانت مشيئة الله تعالى وإرادته ألاَّ تخطئ جرية ماء اليم الوصول به إلى الساحل وألقاه إليه، سلك في ذلك سبيل المجاز، وجعل اليم كأنه ذو تمييز، أمر بذلك ليطيع الأمر يمتثل رسمه، فقيل: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ

---

(١)
رآني على ما بي عميلة فاشتكى ... إلى ماله حالي فواسى وما هجر
ولما رأى المجد استعيرت ثيابه ... تردى رداء سابغ الذيل واتزر
غلام رماه الله بالحسن يافعاً ... له سيمياء لا تشق على البصر
كأن الثريا علقت فوق نحره ... وفي أنفه الشعرا وفي خده القمر

لأسيد بن عنقاء الفزاري، كان من أكبر أهل زمانه وأعلمهم بالأدب، فطال به عمره ونكبه دهره، فلقيه عميلة الفزاري فسلم عليه وقال: ما أصارك يا عم إلى ما أرى؟ فقال: بخل مثلك بماله، وصون وجهي عن مسألة الناس. فقال: لئن بقيت إلى غد لأغيرن ما بك، فلما كان وقت السحر سمع رغاء الإبل وصهيل الخيل تحت الأموال. فقال: ما هذا؟ قالوا: عميلة شطر ماله بينك وبينه، فأنشأ يقول ذلك. وشبه ماله بعاقر على طريق المكنية. والشكوى إليه تخييل. وضمير واسى، بمعنى: أعطى لعميلة. ويجوز أنه للمال، بناء على التشبيه السابق. وثياب المجد مجاز عن المكارم والإحسان على طريق التصريح، واستعارتها ترشيح. ومعناه أخذها من أربابها وذهابها من أصحابها، وذلك كله كناية عن بخل ذوي الأموال. وسابغ الذيل: طويله. واتزر: لبس الإزار. ويقرأ بتشديد التاء. ويجوز فتحها مع همزة ساكنة قبلها على الأصل والمجاز كما تقدم. وذلك كناية عن كثرة جوده، ويجوز أن المعنى لما رأى الناس تفتخر بمفاخر غيرهم فقط صنع هو المكارم بنفسه لنفسه، ورماه الله بالحسن: وضعه فيه بكثرة، كأنه قذفه فيه بغير حساب. واليافع: الشاب وهو حال. والسيمياء: العلامة لا تشق على البصر كناية عن ظهورها فلا تحتاج إلى تأمل، كظهور الكواكب. والنحر: أعلى الصدر وأسفل العنق. والشعرا: نجم كثير الضوء. والبيت الثاني بيان للأول. وروي «حباه الله» وروي «علقت في جبينه» وروي: «وفي جيده القمر» وحباه: أعطاه. والجيد: العنق، وهذه الرواية أقعد.

ينظر البيت في لسان العرب (سوم) وتاج العروس (سوم)، وبلا نسبة في لسان العرب (سوم)، وتهذيب اللغة ١٣/١١٢، والمخصص ١٦/١٦.

﴿بِٱلسَّاحِلِ﴾، روي أنها جعلت في التابوت قطناً محلوجاً، فوضعته فيه وجصصته وقيرته، ثم ألقته في اليم، وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر كبير، فبينا هو جالس على رأس بركة مع آسية إذا بالتابوت، فأمر به فأخرج ففتح، فإذا صبي أصبح الناس وجهاً، فأحبه عدوّ الله حبًّا شديداً لا يتمالك أن يصبر عنه، وظاهر اللفظ أنّ البحر ألقاه بساحله وهو شاطئه؛ لأنّ الماء يسحله، أي: يقشره، وقذف به ثمة فالتقط من الساحل، إلا أن يكون قد ألقاه اليم بموضع من الساحل فيه فوهة نهر فرعون، ثم أداه النهر إلى حيث البركة، ﴿لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾: لا يخلو إما أن يتعلق بألقيت، فيكون المعنى على: أني أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب، وإما أن يتعلق بمحذوف هو صفة لمحبة، أي: محبة حاصلة أو واقعة مني، قد ركزتها أنا في القلوب وزرعتها فيها؛ فلذلك أحبك فرعونه وكل من أبصرك، روي أنه كانت على وجهه مسحة جمال، وفي عينيه ملاحة، لا يكاد يصبر عنه من رآه، ﴿عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾: لتربي ويحسن إليك وأنا مراعيك وراقبك، كما يراعي الرجل الشيء بعينيه إذا اعتنى به، وتقول للصانع: اصنع هذا على عيني أنظر إليك لئلا تخالف به عن مرادي وبغيتي، ولتصنع: معطوف على علة مضمرة، مثل: ليتعطف عليك وترأم[1]، ونحوه، أو حذف معلله، أي: ولتصنع فعلت ذلك، وقرئ: «ولِتصنَعْ»، و«ولْتصنع» بكسر اللام وسكونها، والجزم على أنه أمر، وقرئ: «ولتَصنع»: بفتح التاء والنصب، أي: وليكون عملك وتصرفك على عين مني.

﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ (٤٠) وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي (٤١)﴾

العامل في ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ﴾[2]، (ألقيت)، أو (تصنع)، ويجوز أن يكون بدلاً من: (إذ أوحينا).

فإن قلت: كيف يصح البدل والوقتان مختلفان متباعدان؟

قلت: كما يصح ـ وإن اتسع الوقت وتباعد طرفاه ـ أن يقول لك الرجل: لقيت فلانا سنة كذا، فتقول: وأنا لقيته إذ ذاك، وربما لقيه هو في أولها وأنت في آخرها، يروى أن

---

(١) قوله «وترأم» أي تحب وتؤلف. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «العامل في (إذ تمشي) ألقيت أو تصنع... إلخ» قال أحمد: والمعنى يوجب عمل (ولتصنع) فيه لأن معنى صنيعه على عين الله عز وجل: تربيته مكلوءاً بكلاءته مصوناً بحفظه، وزمان تربيته على هذه الحالة: هو زمان رده إلى أمه المشفقة الحنانة. وأما إلقاء المحبة عليه، فقيل: ذلك أول ما أخذه فرعون وأحبه. والله سبحانه وتعالى أعلم.

أخته واسمها مريم جاءت متعرفة خبره، فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها؛ وذلك أنه كان لا يقبل ثدي امرأة فقالت: هل أدلكم؟ فجاءت بالأمّ، فقبل ثديها، ويروى أن آسية استوهبته من فرعون وتبنته، وهي التي أشفقت عليه وطلبت له المراضع.

هي نفس القبطي الذي استغاثه عليه الإسرائيلي، قتله وهو ابن اثنتي عشرة سنة: اغتم بسبب القتل؛ خوفاً من عقاب الله ومن اقتصاص فرعون، فغفر الله له باستغفاره حين قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦]، ونجاه من فرعون أن ينشب فيه أظفاره حين هاجر به إلى مدين، ﴿فُتُونًا﴾: يجوز أن يكون مصدراً على فعول في المتعدّي، كالثبور والشكور والكفور، وجمع فتن أو فتنة، على ترك الاعتداد بتاء التأنيث، كحجوز وبدور، في حجزة وبدرة، أي: فتناك ضروباً من الفتن، سأل سعيد بن جبير ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ فقال: خلصناك من محنة بعد محنة: ولد في عام كان يقتل فيه الولدان، فهذه فتنة يا ابن جبير، وألقته أمّه في البحر، وهمّ فرعون بقتله، وقتل قبطيًا، وأجر نفسه عشر سنين، وضلّ الطريق، وتفرّقت غنمه في ليلة مظلمة، وكان يقول عند كل واحدة: فهذه فتنة يا ابن جبير، والفتنة: المحنة، وكل ما يشق على الإنسان، وكل ما يبتلي الله به عباده: فتنة؛ قال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ﴿خَمِدِينَ﴾: على ثماني مراحل من مصر، وعن وهب: أنه لبث عند شعيب ثمانياً وعشرين سنة، منها مهر ابنته، وقضى أوفى الأجلين، أي: سبق في قضائي وقدري أن أكلمك وأستنبئك، وفي وقت بعينه قد وقته لذلك، فما جئت إلا على ذلك القدر غير مستقدم ولا مستأخر، وقيل: على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء، وهو رأس أربعين سنة، هذا تمثيل لما خوّله من منزلة التقريب والتكريم والتكليم، مثل حاله بحال من يراه بعض الملوك لجوامع خصال فيه وخصائص؛ أهلا لئلا يكون أحد أقرب منزلة منه إليه، ولا ألطف محلاً، فيصطنعه بالكرامة والأثرة، ويستخلصه لنفسه، ولا يبصر ولا يسمع إلا بعينه وأذنه، ولا يأتمن على مكنون سره إلا سواء ضميره[1] ٢/١٣أ.

﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾

الونى: الفتور والتقصير، وقرئ: «تنيا»: بكسر حرف المضارعة للاتباع، أي: لا تنسياني ولا أزال منكما على ذكر حيثما تقلبتما، واتخذا ذكري جناحاً تصيران به مستمدين بذلك العون والتأييد مني، معتقدين أن أمراً من الأمور لا يتمشى لأحد إلا بذكري، ويجوز

---

(١) قوله «سواء ضميره» في الصحاح «سواء الشيء»: وسطه. (ع)

أن يريد بالذكر: تبليغ الرسالة؛ فَإِنَّ الذكر يقع على سائر العبادات، وتبليغ الرسالة من أجلها وأعظمها، فكان جديراً بأن يطلق عليه اسم الذكر، روي أن الله ـ تعالى ـ أوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى، وقيل: سمع بمقبله، وقيل: ألهم ذلك، قرئ: (لينا): بالتخفيف والقول اللين؛ نحو قوله تعالى: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ١٨ ـ ١٩]، لأنّ ظاهره الاستفهام والمشورة، وعرض ما فيه من الفوز العظيم، وقيل: عداه شباباً لا يهرم بعده، وملكاً لا ينزع منه إلا بالموت، وأن تبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته، وقيل: لا تجبهاه بما يكره، وألطفا له في القول[1]؛ لما له من حق تربية موسى، ولما ثبت له من مثل حق الأبوّة، وقيل: كنياه وهو من ذوي الكنى الثلاث: أبو العباس، وأبو الوليد، وأبو مرّة، والترجي لهما، أي: اذهبا على رجائكما وطمعكما، وباشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه، فهو يجتهد بطوقه، ويحتشد[2] بأقصى وسعه، وجدوى إرسالهما إليه مع العلم بأنه لن يؤمن إلزام الحجة وقطع المعذرة، ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ [القصص: ٤٧]، أي: يتذكر ويتأمّل فيبذل النصفة من نفسه والإذعان للحق، ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾: أن يكون الأمر كما تصفان، فيجرّه إنكاره إلى الهلكة.

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾

فرط: سبق وتقدّم، ومنه الفارط: الذي يتقدّم الواردة، وفرس فرط: يسبق الخيل، أي: نخاف أن يعجل علينا بالعقوبة ويبادرنا بها، وقرئ ﴿يَفْرُطَ﴾: من أفرطه غيره إذا حمله على العجلة، خافا أن يحمله حامل على المعاجلة بالعقاب[3] من شيطان، أو من جبروته واستكباره وادّعائه الربوبية، أو من حبه الرياسة، أو من قومه القبط المتمرّدين الذين حكى عنهم ربّ العزة: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، وقرئ: «يفرط»؛ من الإفراط في الأذية، أي: نخاف أن يحول بيننا وبين تبليغ الرسالة بالمعاجلة، أو يجاوز الحدّ في معاقبتنا إن لم يعاجل؛ بناء على ما عرفا وجرّبا من شرارته وعتوّه، ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾: بالتخطي إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي؛ لجرأته عليك

(١) قوله: «وقيل: لاتجبهاه بما يكره» في الصحاح «جبهته بالمكروه» إذا استقبلته به، وفيه «اللطف في العمل» الرفق به. (ع)

(٢) قوله: «ويحتشد بأقصى وسعه» أي يستعد ويتأهب. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قال محمود: «معنى يفرط علينا يعجل بعقوبتنا... إلخ» قال أحمد: وإذا روعي في الأدب إطلاق هذه اللفظة عن مجرور بها، فلا يبعد أن يراعى في الأدب بالاعتراف بتقلد منة الله عز وجلّ زيادة المجرور في قوله ﴿ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ كما قدمته آنفاً والله أعلم.

وقسوة قبله، وفي المجيء به هكذا على الإطلاق وعلى سبيل الرمز: باب من حسن الأدب وتحاش عن التفوّه بالعظيمة.

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾

﴿مَعَكُمَا﴾ أي: حافظكما وناصركما، ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾: ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل، فأفعل ما يوجبه حفظي ونصرتي لكما، فجائز أن يقدّر أقوالكم وأفعالكم، وجائز ألاّ يقدّر شيء، وكأنه قيل: أنا حافظ لكما وناصر سامع مبصر، وإذا كان الحافظ والناصر كذلك، تمّ الحفظ وصحت النصرة، وذهبت المبالاة بالعدوّ، كانت بنو إسرائيل في ملكة فرعون والقبط، يعذبونهم بتكليف الأعمال الصعبة: من الحفر والبناء ونقل الحجارة، والسخرة في كل شيء، مع قتل الولدان، واستخدام النساء، ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾: جملة جارية من الجملة الأولى، وهي: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]، مجرى البيان والتفسير؛ لأنّ دعوى الرسالة لا تثبت إلا ببينتها التي هي المجيء بالآية؛ إنما وحد قوله: (بآية)، ولم يثن ومعه آيتان؛ لأنّ المراد في هذا الموضع: تثبيت الدعوى ببرهانها، فكأنه قال: قد جئناك بمعجزة وبرهان وحجة على ما ادعيناه من الرسالة؛ وكذلك ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]، ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٣٠]، يريد: وسلام الملائكة الذين هم خزنة الجنة على المهتدين، وتوبيخ خزنة النار والعذاب على المكذبين.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾

خاطب الاثنين، ووجه النداء إلى أحدهما وهو موسى، لأنه الأصل في النبوة، وهارون وزيره وتابعه، ويحتمل أن يحمله خبثه ودعارته[1] على استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه؛ لما عرف من فصاحة هارون والرتة في لسان موسى؛ ويدل عليه قوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف: ٥٢]، ﴿خَلْقَهُ﴾: أول مفعولي أعطى، أي: أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به، أو ثانيهما، أي: أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به، كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع؛ وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان: كل

---

(١) قوله «يحمله خبثه ودعارته» أي فساده وفسقه. (ع)

واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة، غير ناب عنه، أو أعطى كل حيوان نظيره في الخلق والصورة، حيث جعل الحصان والحجر[1] زوجين، والبعير والناقة، والرجل والمرأة، فلم يزاوج منها شيئاً غير جنسه وما هو على خلاف خلقه، وقرئ: «خلقه»: صفة للمضاف أو للمضاف إليه، أي: كل شيء خلقه الله لم يخله من عطائه وإنعامه، ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي: عرّف كيف يرتفق بما أعطى، وكيف يتوصل ٢/١٣ب إليه، ولله درّ هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه، وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف وكان طالباً للحق.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾

سأله عن حال من تقدم وخلا من القرون، وعن شقاء من شقي منهم وسعادة من سعد، فأجابه بأنّ هذا سؤال عن الغيب، وقد استأثر الله به لا يعلمه إلا هو، وما أنا إلا عبد مثلك لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علام الغيوب، وعلم أحوال القرون مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ، لا يجوز على الله أن يخطئ شيئاً أو ينساه، يقال: ضللت الشيء: إذا أخطأته في مكانه فلم تهتد له؛ كقولك: ضللت الطريق والمنزل، وقرئ: «يضل»: من أضله إذا ضيعه، وعن ابن عباس: لا يترك من كفر به حتى ينتقم منه، ولا يترك من وحده حتى يجازيه، ويجوز أن يكون فرعون قد نازعه في إحاطة الله بكل شيء وتبينه لكل معلوم، فتعنت وقال: ما تقول في سوالف القرون، وتمادي كثرتهم، وتباعد أطراف عددهم، كيف أحاط بهم وبأجزائهم وجواهرهم؟ فأجاب: بأنّ كل كائن محبط به علمه، وهو مثبت عنده في كتاب، ولا يجوز عليه الخطأ والنسيان، كما يجوزان عليك أيها العبد الذليل والبشر الضئيل، أي: لا يضل كما تضل أنت، ولا ينسى كما تنسى يا مدعي الربوبية بالجهل والوقاحة، ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾: مرفوع صفة لربي، أو خبر مبتدأ محذوف أو منصوب على المدح؛ وهذا من مظانه ومجازه، ﴿مَهْدًا﴾: قراءة أهل الكوفة، أي: مهدها مهداً، أو يتمهدونها فهي لهم كالمهد وهو ما يمهد للصبي، ﴿وَسَلَكَ﴾: من قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ [المدثر: ٤٢]، ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾ [الشعراء: ٢٠٠]، ﴿نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ١٢]، أي: حصل لكم فيها سبلاً ووسطها بين الجبال والأودية والبراري، ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾: انتقل فيه من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع، لما ذكرت من

(١) قوله «والحجر» بكسر الحاء وسكون الجيم: الأنثى من الخيل. اهـ مصححه.

الافتنان[1]، والإيذان بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره، وتذعن الأجناس المتفاوتة لمشيئته، لا يمتنع شيء على إرادته؛ ومثله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧]، ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠]، وفيه تخصيص ـ أيضاً ـ بأنا نحن نقدر على مثل هذا، ولا يدخل تحت قدرة أحد، ﴿أَزْوَٰجًا﴾: أصنافاً؛ سميت بذلك لأنها مزدوجة ومقترنة بعضها مع بعض، ﴿شَتَّىٰ﴾: صفة للأزواج، جمع شتيت، كمريض ومرضي، ويجوز أن يكون صفة للنبات، والنبات مصدر سمي به النابت كما سمي بالنبت، فاستوى فيه الواحد والجمع، يعني: أنها شتى مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل، بعضها يصلح للناس وبعضها للبهائم، قالوا: من نعمته ـ عز وعلا ـ أن أرزاق العباد إنما تحصل بعمل الأنعام، وقد جعل الله علفها مما يفضل عن حاجتهم ولا يقدرون على أكله، أي: قائلين ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟﴾: حال من الضمير في: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾، المعنى: أخرجنا أصناف النبات آذنين في الانتفاع بها، مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها.

﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

أراد بخلقهم من الأرض خلق أصلهم هو آدم ـ عليه السلام ـ منها، وقيل: إن الملك لينطلق فيأخذ من تربة المكان الذي يدفن فيه فيبذّها على النطفة فيخلق من التراب والنطفة معاً، وأراد بإخراجهم منها أنه يؤلف أجزاءهم المتفرقة المختلطة بالتراب، ويردّهم كما كانوا أحياء، ويخرجهم إلى المحشر ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣]، عدّد الله

---

(١) قال محمود «هذا من باب الالتفات. . . . إلخ» قال أحمد: الالتفات إنما يكون في كلام المتكلم الواحد، يصرف كلامه على وجوه شتى، وما نحن فيه ليس من ذلك؛ فإن الله تعالى حكى عن موسى ـ عليه السلام ـ قوله لفرعون: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ ثم قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ إلى قوله ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ إما أن يجعل من قول موسى فيكون من باب قول خواص الملك: أمرنا وعمرنا، وإنما يريدون الملك، وليس هذا بالتفات. وإما أن يكون كلام موسى قد انتهى عند قوله: ﴿وَلَا يَنسَى﴾ ثم ابتدأ الله تعالى وصف ذاته بصفات إنعامه على خلقه، فليس التفاتاً أيضاً، وإنما هو انتقال من حكاية إلى إنشاء خطاب، وعلى هذا التأويل ينبغي للقارئ أن يقف وقيفة عند قوله: ﴿وَلَا يَنسَى﴾ ليستقر بانتهاء الحكاية. ويحتمل وجهاً آخر: وهو أن موسى وصف الله تعالى بهذه الصفات على لفظ الغيبة فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ ﴿وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجاً من نبات شتى﴾ فلما حكاه الله تعالى عنه أسند الضمير إلى ذاته؛ لأن الحاكي هو المحكي في كلام موسى، فمرجع الضميرين واحد، وهذا الوجه وجه حسن دقيق الحاشية، وهذا أقرب الوجوه إلى الالتفات، لكن الزمخشري لم يعنه، والله أعلم.

عليهم ما علق بالأرض من مرافقهم؛ حيث جعلها لهم فراشاً ومهاداً يتقلبون عليها، وسوّى لهم فيها مسالك يتردّدون فيها كيف شاءوا، وأنبت فيها أصناف النبات التي منها أقواتهم وعلوفات بهائمهم، وهي أصلهم الذي منه تفرعوا، وأمهم التي منها ولدوا، ثم هي كفاتهم إذا ماتوا[1]، ومن ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «تَمَسَّحُوا بِالأَرْضِ، فَإِنَّهَا بِكُمْ بَرَّةٌ» (٩٥٢).

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦﴾

﴿أَرَيْنَٰهُ﴾: بصرناه أو عرفناه صحتها ويقناه بها؛ وإنما كذب لظلمه؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وفي قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ وجهان:

أحدهما: أن يحذى بهذا التعريف الإضافي حذو التعريف باللام لو قيل الآيات كلها[2]، أعني: أنها كانت لا تعطي إلا تعريف العهد، والإشارة إلى الآيات المعلومة التي هي تسع الآيات المختصة بموسى ـ عليه السلام ـ: العصا، واليد، وفلق البحر، والحجر، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ونتق الجبل.

والثاني: أن يكون موسى قد أراه آياته وعدّد عليه ما أوتيه غيره من الأنبياء من آياتهم

---

٩٥٢ ـ أخرجه الطبراني في الصغير (١/١٤٨) حدثنا حملة بن محمد الغزي بمدينة غزة حدثنا عبد الله بن محمد بن عمرو الغزي حدثنا محمد بن يوسف الفريابي حدثنا سفيان عن عوف عن أبي عثمان النهدي عن سلمان الفارسي عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «تمسحوا بالأرض؛ فإنها بكم برة».
وقال لم يروه عن سفيان إلا الفريابي، ومن طريقه رواه القضاعي في مسند الشهاب (٧٠٤)، وأخرج القضاعي في مسند الشهاب وابن أبي شيبة في المصنف (١/١٤٩) كتاب الطهارات، باب ما يجزىء الرجل في تيممه حديث (١٧٠٧) عن أبي عثمان النهدي عن النبي ـ ﷺ ـ قال: بلغني أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «تمسحوا بها؛ فإنها بكم برة ـ يعني الأرض» هكذا مرسلاً.
قال الحافظ: أخرجه ابن أبي شيبة عن علية عن عوف عن ابن عثمان به مرسلاً. وأخرجه الطبراني في الصغير من رواية الفريابي عن الثوري عن عوف. وصله بذكر سلمان قال ابن طاهر: المرسل أولى بالصواب. انتهى.

---

(١) قوله «ثم هي كفاتهم إذا ماتوا» أي موضعهم الذي يضمون فيه. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وفيه بعد لأن الإخبار بالشيء لا يسمى رؤية له الإعجاز بعيد وقيل: بل الرؤية هنا رؤية قلبية وأيد ذلك بأنه لم يكن أراه إلا اليد والعصا فقط ومن جوّز استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه أو إعمال المشترك في معنييه يجيز أن يراد المعنيان جميعاً وتأكيد الآيات بكلها يدل على إرادة العموم لأنهم قالوا: فائدة التوكيد بكل وأخواتها رفع توهم وضع الأخص موضع الأعم فلا يدعي أنه أراد بالآيات آيات مخصوصة وهذا يتمشى على أن الرؤية قلبية ويراد بالآيات ما يدل على وحدانية الله وصدق المبلغ. انتهى. الدر المصون.

ومعجزاتهم، وهو نبيّ صادق، لا فرق بين ما يخبر عنه وبين ما يشاهد به، فكذبها جميعاً، ﴿وَأَبَىٰ﴾: أن يقبل شيئاً منها، وقيل: فكذب الآيات وأبى قبول الحق.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾

يلوح من جيب قوله: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ﴾: أن فرائصه كانت ترعد خوفاً مما ٢/ ١٤٤أ جاء به موسى ـ عليه السلام ـ لعلمه وإيقانه أنه على الحق، وأن المحق لو أراد قود الجبال لانقادت وأن مثله لا يخذل ولا يقل ناصره، وأنه غالبه على ملكه لا محالة، وقوله: (بسحرك): تعلل وتحير، وإلا فكيف يخفى عليه أن ساحراً لا يقدر أن يخرج ملكاً مثله من أرضه ويغلبه على ملكه بالسحر.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾

لا يخلو الموعد في قوله: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ من أن يجعل زماناً أو مكاناً أو مصدراً، فإن جعلته زماناً نظراً في أن قوله تعالى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾: مطابق له، لزمك شيئان: أن تجعل الزمان مخلفاً، وأن يعضل عليك ناصب مكاناً: وإن جعلته مكاناً؛ لقوله تعالى: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ [طه: ٥٨]، لزمك[1] ـ أيضاً ـ أن توقع الإخلاف على المكان، وألاّ

(١) قال محمود «إن جعلت موعداً الأول اسم مكان ليطابق قوله مكاناً سوى لزمك. . . إلخ» قال أحمد: وفي إعماله وقد وصف بقوله ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ بعد، إلا أن تجعل: الجملة معترضة، فهو مع ذلك لا يخلو من بعد، من حيث أن وقوع الجملة عقيب النكرة بحيزها، الشأن أن تكون صفة، والله أعلم. ويحتمل عندي وجه آخر أخصر وأسلم: وهو أن يجعل موعداً اسم مكان فيطابق مكاناً، ويكون بدلاً منه، ويطابق الجواب بالزمان بالتقرير الذي ذكره ويبقى عود الضمير، فتقول: هو والحال هذه عائد على المصدر المفهوم من اسم المكان: لأن حروفه فيه. والموعد إذا كان اسم مكان فحاصله مكان وعد، كما إذا كان اسم زمان فحاصله زمان وعد. وإذا جاز رجوع الضمير إلى ما دلت قوة الكلام عليه وإن لم يكن منطوقاً به بوجه، فرجوعه إلى ما هو كالمنطوق به أولى. ومما يحقق ذلك أنهم قالوا: من صدق كان خيراً له. يعنون: كان الصدق خيراً له، فأعادوا الضمير على المصدر وقدروه منطوقاً به للنطق بالفعل الذي هو مشتق منه. وإذا أوضح ذلك فاسم المكان مشتق من المصدر اشتقاق الفعل منه، فالنطق به كاف في إعادة الضمير على مصدره والله أعلم. وعلى هذين التأويلين يكون جواب موسى ـ عليه السلام ـ من جوامع كلم الأنبياء؛ لأنه سئل أن يواعدهم مكاناً فعلم أنهم لا بد أن يسألوه مواعدة على زمان أيضاً، فأسلف الجواب عنه وضمنها جواباً مفرداً، ولقائل أن يقول: إن كان المسئول منه المواعدة على المكان فلم أجاب بالزمان الذي لم يسئل عنه صريحاً، وجعل جواب ما سئل عنه مضمناً. وجوابه ـ والله أعلم ـ أن يقال: اكتفى بقرينة =

يطابق قوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ [طه: ٥٩]، وقراءة الحسن غير مطابقة له مكاناً وزماناً جميعاً؛ لأنه قرأ: (يوم الزينة): بالنصب، فبقي أن يجعل مصدراً، بمعنى: الوعد، ويقدر: مضاف محذوف، أي: مكان موعد، ويجعل الضمير في (نخلفه): للموعد، و(مكانا): بدل من المكان المحذوف.

فإن قلت: فكيف طابقه قوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾، ولا بد من أن تجعله زماناً، والسؤال واقع عن المكان لا عن الزمان؟

قلت: هو مطابق معنى، وإن لم يطابق لفظاً؛ لأنهم لا بدّ لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة في مكان بعينه، مشتهر باجتماعهم فيه في ذلك اليوم، فبذكر الزمان علم المكان، وأما قراءة الحسن: فالموعد فيها مصدر لا غير، والمعنى: إنجاز وعدكم يوم الزينة، وطباق هذا ـ أيضاً ـ من طريق المعنى، ويجوز ألاّ يقدر مضاف محذوف، ويكون المعنى: اجعل بيننا وبينك وعداً لا نخلفه.

فإن قلت: فبم ينتصب مكاناً؟

قلت: بالمصدر، أو بفعل يدل عليه المصدر.

فإن قلت: فكيف يطابقه الجواب؟

قلت: أما على قراءة الحسن فظاهر، وأما على قراءة العامة فعلى تقدير: وعدكم وعد يوم الزينة، ويجوز على قراءة الحسن أن يكون: (موعدكم): مبتدأ، بمعنى: الوقت، و(ضحى): خبره، على نية التعريف فيه؛ لأنه ضحى ذلك اليوم بعينه، وقيل: في يوم الزينة: يوم عاشوراء، ويوم النيروذ[1]، ويوم عيد كان لهم في كل عام، ويوم كانوا يتخذون فيه سوقاً ويتزينون ذلك اليوم، قرئ: ﴿نُخْلِفُهُ﴾: بالرفع على الوصف للموعد، وبالجزم على جواب الأمر، وقرئ: ﴿سُوًى﴾، وسوى: بالكسر والضم، ومنوناً وغير منون، ومعناه: منصفاً بيننا[2]، وبينك عن مجاهد، وهو من الاستواء؛ لأنّ المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية لا تفاوت فيها، ومن لم ينون فوجهه أن يجري الوصل مجرى الوقف، قرئ: ﴿وإن تحشر الناس﴾: بالتاء والياء، يريد: وأن تحشر يا فرعون، وأن يحشر اليوم، ويجوز أن يكون فيه ضمير فرعون ذكره بلفظ الغيبة إما على العادة التي يخاطب بها الملوك، أو خاطب القوم بقوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ﴾، وجعل: ﴿يُحْشَرَ﴾: لفرعون، ومحل: ﴿وَأَن

= السؤال عن صريح الجواب. وأما ما لم يسئل عنه فلو ضمنه لم يفهم قصده إليه؛ إذ لا قرينة تدل عليه والله أعلم.

(١) قوله «ويوم النيروذ» لعله النيروز بالزاي كعبارة غيره. (ع)

(٢) قوله «منصفاً بيننا» أي وسطا، كما في الصحاح. (ع)

﴿يُحْشَرَ﴾: الرفع أو الجرّ، عطفاً على اليوم أو الزينة؛ وإنما واعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله وظهور دينه وكبت الكافر[1] وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد وفي المجمع الغاص، لتقوى رغبة من رغب في اتباع الحق، ويكل حدّ المبطلين وأشياعهم، ويكثر المحدث بذلك الأمر العلم في كل بدو وحضر، ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾

﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا تدعوا آياته ومعجزاته سحراً، قرئ: ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾، والسحت: لغة أهل الحجاز، والإسحات: لغة أهل نجد وبني تميم؛ ومنه قول الفرزدق [من الطويل]:

. . . . إلاَّ مُسْحَتاً أَوْ مُجَلَّفُ

في بيت لا تزال الركب تصطك في تسوية إعرابه[2].

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾

عن ابن عباس: إن نجواهم: إن غلبنا موسى اتبعناه، وعن قتادة: إن كان ساحراً فسنغلبه، وإن كان من السماء فله أمر، وعن وهب لما قال: ﴿وَيْلَكُمْ﴾... الآية، قالوا: ما هذا بقول ساحر، والظاهر أنهم تشاوروا في السر، وتجاذبوا أهداب القول، ثم قالوا: إن هذان لساحران، فكانت نجواهم في تلفيق هذا الكلام وتزويره؛ خوفاً من غلبتهما، وتثبيطاً للناس عن اتباعهما، قرأ أبو عمرو: (إن هذين لساحران): على الجهة الظاهرة المكشوفة، وابن كثير وحفص: إن هذان لساحران، على قولك: إن زيد لمنطلق، واللام

---

(١) قوله «وكبت الكافر» أي إذلاله. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «في بيت لا تزال الركب تصطك في تسوية إعرابه» هو قوله:

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع ... من المال إلا مسحتًا أو مجلفُ

والمسحت: المهلك. والمجلف: الذي أخذ من جوانبه، كما في الصحاح. (ع)

ينظر البيت في جمهرة اللغة ص ٣٨٦، ١٢٥٩، وخزانة الأدب ١/ ٢٣٧، ٨/ ٥٤٣، والخصائص ١/ ٩٩، ولسان العرب (سحت)، (جلف) (ودع)، وبلا نسبة في الإنصاف ١/ ١٨٨، وجمهرة اللغة ص ٤٨٧، وشرح شواهد الإيضاح ص ٢٧٩، وشرح المفصل ١/ ٣١، ١٠/ ١٠٣، والمحتسب ١/ ١٨٠، ٢/ ٣٦٥.

هي الفارقة بين إن النافية والمخففة من الثقيلة، وقرأ أبيّ: «إن ذان إلا ساحران»، وقرأ ابن مسعود: «أن هذان ساحران»: بفتح أن وبغير لام، بدل من النجوى[1]، وقيل في القراءة المشهورة: (إن هذان لساحران) هي لغة بلحارث بن كعب، جعلوا الاسم المثنى نحو الأسماء التي آخرها ألف، كعصا وسعدى، فلم يقلبوها ياء في الجر والنصب، وقال بعضهم: (أن) بمعنى: نعم، و(ساحران): خبر مبتدأ محذوف، واللام داخلة على الجملة تقديره: لهما ساحران، وقد أعجب به أبو إسحاق سموا مذهبهم الطريقة: ﴿ٱلْمُثْلَىٰ﴾، والسنة: الفضلى، وكل حزب بما لديهم فرحون، وقيل: أرادوا أهل طريقتهم المثلى، وهم: بنو إسرائيل؛ لقول موسى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [طه: ٤٧]، وقيل: «الطريقة»: اسم لوجوه الناس وأشرافهم الذين هم قدوة لغيرهم، يقال: هم ٢/ ١٤ب طريقة قومهم، ويقال للواحد ـ أيضاً ـ: هو طريقة قومه، ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾، يعضده قوله: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ [طه: ٦٠] وقرئ: (فأجمعوا كيدكم) أي: أزمعوه واجعلوه مجمعاً عليه، حتى لا تختلفوا ولا يخلف عنه واحد منكم، كالمسألة المجمع عليها، أمروا بأن يأتوا صفًّا؛ لأنه أهيب في صدور الرائين، وروي أنهم كانوا سبعين ألفاً مع كل واحد منهم حبل وعصا، وقد أقبلوا إقبالة واحدة، وعن أبي عبيدة أنه فسر الصف بالمصلى؛ لأن الناس يجتمعون فيه لعيدهم وصلاتهم مصطفين، ووجه صحته أن يقع علماً لمصلى بعينه، فأمروا بأن يأتوه، أو يراد: ائتوا مصلى من المصليات، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾: اعتراض، يعني: وقد فاز من غلب[2].

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾

﴿أَن﴾: مع ما بعده إما منصوب بفعل مضمر، أو مرفوع بأنه خبر مبتدأ محذوف، معناه: اختر أحد الأمرين، أو الأمر إلقاؤك أو إلقاؤنا، وهذا التخيير منهم استعمال أدب حسن معه، وتواضع له وخفض جناح، وتنبيه على إعطائهم النصفة من أنفسهم[3]،

---

(١) قال السمين الحلبي: وفيه نظر لأن الاعتراض بالجملة القولية بين البدل والمبدل منه لا يصح، وأيضاً فإن الجملة القولية مفسرة للنجوى في قراءة العامة وكذا قاله الزمخشري أولاً فكيف يصح أن يجعل أن هذان ساحران بدلاً من النجوى؟ انتهى. الدر المصون.

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ وهذا تفسير معنى لا تفسر إعراب، وتفسير الإعراب إما أن تختار الإلقاء. انتهى الدر المصون.

(٣) قال محمود: «لقد ألهمهم الله حسن الأدب مع موسى عليه السلام في تخييره وإعطاء النصفة من أنفسهم» قال أحمد: وقبل ذلك تأدبوا معه بقولهم ﴿فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه﴾ ففوضوا ضرب الموعد إليه، وكما ألهم الله عز وجل موسى ههنا أن يجعلهم مبتدلين بما معهم ليكون إلقاؤه =

وكأن الله ـ عز وعلا ـ ألهمهم ذلك، وعلم موسى ـ صلوات الله عليه ـ اختيار إلقائهم أولاً، مع ما فيه من مقابلة أدب بأدب، حتى يبرزوا ما معهم من مكايد السحر، ويستنفدوا أقصى طوقهم ومجهودهم، فإذا فعلوا، أظهر الله سلطانه وقذف بالحق على الباطل فدمغه، وسلط المعجزة على السحر فمحقته، وكانت آية نيرة للناظرين، وعبرة بينة للمعتبرين، يقال: في (إذا) هذه: إذا المفاجأة، والتحقيق فيها أنها إذا الكائنة بمعنى: الوقت، الطالبة ناصباً لها وجملة تضاف إليها، خصت في بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلاً مخصوصاً، وهو فعل المفاجأة والجملة ابتدائية لا غير، فتقدير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾: ففاجأ موسى وقت تخييل سعى حبالهم وعصيهم، وهذا تمثيل، والمعنى: على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة إليه السعي[1]، وقرئ: (عصيهم): بالضم وهو الأصل، والكسر اتباع؛ ونحوه: دُليّ ودِليّ، وقُسيّ وقِسيّ، وقرئ: (تخيل): على إسناده

= العصا بعد قذفا بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق. كذلك ألهمه من الأول أن يجعل موعدهم يوم زينتهم وعيدهم، ليكون الحق أبلج على رءوس الأشهاد، فيكون أفصح لكيدهم وأهتك لستر حرمهم، والله أعلم.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ قوله إنّها زمانية قَوْلٌ مَرْجُوحٌ وهو مذهب الرياشي وقوله الطالبة ناصباً صحيح، وقوله وجملة تضاف إليها ليس صحيحاً عِنْدَ بَعْضِ أَصْحَابِنا، لأنّها إمّا أنْ تَكُونَ هي خبر المبتدأ وإما أن تكون معمولة لخبر المبتدأ وإذا كان كذلك استحال أنْ تُضَافَ إلى الجملةِ، لأنّها إما إنْ تكون بعض الجملة أوْ مَعْمُولَةً لِبَعْضِها فلا يُمْكِنُ الإضَافَة، وقوله خُصَّتْ في بعض المواضع إلخ قد بيّنا الناصب لها وقوله والجملة بعدها ابتدائية لا غير، هذا الحصر ليس بصحيح بل جَوَّزَ الأخفشُ على أنّ الجملة الفعلية المقترنَة بِقَدْ تَقَعُ بَعْدَهَا، نحو خَرَجْتُ فَإذَا قَدْ ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْراً وهي على ذلك مسألة الاشتغال نحو خَرَجْتُ فَإذَا زَيْدٌ قَدْ ضَرَبَه عَمْرُو فَرَفِعَ زَيْدٌ ونَصْبِهِ على الاشتغال، وقوله والمعنى على مفاجأته حِبَالُهم وعِصِيُّهُمْ مخيلة إليه السعي، فهذا عكس ما قدر بل المعنى على مفاجأة حبالهم وعصيهم إياه فإذا قلت خَرَجْتُ فإذَا السَّبُعُ فالمعنى أنّه فَاجأَنِي السبُعُ وهَجَمَ ظهُوره، انتهى مَا رَدَّ به قوله.

وما رد به عليه غير لازم له، لأنه رَدَّ عليه بقول بعض النحاة وهو لا يلتزم ذلك القول حتى يرد به عليه لا سيما إذا كانَ المشهورُ غَيْرَهُ ومقصوره تفسير المعنى، قال أبو البقاء الفاء جواب ما حذف وتقديره فَأَلْقَوْا فإذَا، «فَإذَا» في هذا ظرف مكان العامل فيه «فَأَلْقَوْا» وفي هذا نظر لأنّ أَلْقَوْا هذا لمقدر لا يطلب جواباً حتى يقول إلغاء جوابه، بل كان ينبغي أن يقول الفاء عاطفة هذه الجملة الفجائية على جملة أخرى مقدرة، وقوله ظرف مكان هذا مذهب المبرد وظاهر قول سيبويه أيضاً وإن كَانَ المشهورُ بقاءَهَا على الزمان وقوله إنَّ العامل فيها فَأَلْقَوْا لا يجوز لأن الفاء تمنع من ذلك، هذا كلام الشيخ ثم قال بعده ولأنَّ إذَا هذه إنّما هي معمولة لخبر المبتدأ الذي هو حبالهم وعصيهم إنْ لم يجعلها هي في مواضع الخبر، لأنه يجوز أن يكون الخبر يخيل ويجوز أن يكون إذا «وَيُخَيَّلُ» في موضع الحال وهذا نظير خرجت فَإذَا الأسدُ رَابضٌ وَرَابضاً، فإذا رَفَعْتَ رَابضاً كانت إذَا مَعْمُولة له والتقدير فبالحضرة الأسدُ رَابِض أو في المكان وإذا نصبت كانت إذا جرًا ولذلك يكتفي بها وبالمرفوع بعدها كلاماً، نحو خَرَجتُ فإذا الأسدُ. انتهى. الدر المصون.

إلى ضمير الحبال والعصي، وإبدال قوله: ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾: من الضمير بدل الاشتمال؛ كقولك: أعجبني زيد كرمه، وتخيل على كون الحبال والعصيّ مخيلة سعيها، وتخيل بمعنى: تتخيل، وطريقه طريق تخيل، ونخيل: على أنّ الله ـ تعالى ـ هو المخيل للمحنة والابتلاء، يروى أنهم لطخوها بالزئبق، فلما ضربت عليها الشمس، اضطربت واهتزت، فخيلت ذلك.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾

إيجاس الخوف: إضمار شيء منه، وكذلك توجس الصوت: تسمع نبأة يسيرة[(١)] منه؛ وكان ذلك لطبع الجبلة البشرية، وأنه لا يكاد يمكن الخلو من مثله، وقيل: خاف أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: فيه تقرير لغلبته وقهره، وتوكيد بالاستئناف، وبكلمة التشديد، وبتكرير الضمير، وبلام التعريف، وبلفظ العلوّ، وهو الغلبة الظاهرة وبالتفضيل، وقوله: ﴿مَا فِي يَمِينِكَ﴾، ولم يقل: عصاك[(٢)]: جائز أن يكون تصغيراً لها، أي: لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم، وألق العويد الفرد الصغير الجرم الذي في يمينك؛ فإنه بقدرة الله يتلقفها على وحدته وكثرتها، وصغره وعظمها، وجائز أن يكون تعظيماً لها[(٣)]، أي: لا تحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة؛ فإن في يمينك شيئاً أعظم منها

---

(١) قوله «نبأة يسيرة» في الصحاح «النبأة»: الصوت الخفي. (ع)

(٢) قال محمود: «وقال ما في يمينك ولم يقل عصاك... إلخ» قال أحمد: وإنما المقصود بتحقيرها في جنب القدرة تحقير كيد السحرة بطريق الأولى؛ لأنها إذا كانت أعظم منه وهي حقيرة في جانب قدرة الله تعالى، فما الظن بكيدهم وقد تلقفته هذه الحقيرة الضئيلة؟ ولأصحاب البلاغة طريق في علو المدح بتعظيم جيش عدو الممدوح، ليلزم من ذلك تعظيم جيش الممدوح وقد قهره واستولى عليه، فصغر الله أمر العصا ليلزم منه تصغير كيد السحرة الداحض بها في طرفة عين.

(٣) عاد كلامه. قال محمود: «ويجوز أن يكون تعظيماً لأمرها إذ فيه تثبيت لقلب موسى على النصر» قال أحمد: وههنا لطيفة: وهو أنه تلقى من هذا النظم أولاً قصد التحقير، وثانياً قصد التعظيم، فلا بد من نكتة تناسب الأمرين وتلك ـ والله أعلم ـ هي إرادة المذكور مبهماً، لأن ما في يمينك أبهم من عصاك، وللعرب مذهب في التنكير والإبهام والإجمال، تسلكه مرة لتحقير شأن ما أبهمته وأنه عند الناطق به أهون من أن يخصه ويوضحه، ومرة لتعظيم شأنه وليؤذن أنه من عناية المتكلم والسامع بمكان يعني فيه الرمز والإشارة، فهذا هو الوجه في إسعاده بهما جميعاً. وعندي في الآية وجه سوى قصد التعظيم والتحقير والله أعلم، وهو أن موسى عليه السلام أول ما علم أن العصا آية من الله تعالى عند ما سأله عنها بقوله تعالى ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ ثم أظهر له تعالى آيتها، فلما دخل وقت الحاجة إلى ظهور الآية منها قال تعالى ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ ليتيقظ بهذه الصيغة للوقت الذي قال الله تعالى له ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ وقد أظهر له آيتها، فيكون ذلك تنبيهاً له وتأنيساً =

كلها، وهذه على كثرتها أقل شيء وأنزره عنده، فألقه يتلقفها بإذن الله ويمحقها، وقرئ: (تلقف): بالرفع على الاستئناف، أو على الحال، أي ألقها متلقفة، وقرئ: «تلقف»: بالتخفيف[1]، ﴿صَنَعُوٓاْ﴾: ههنا بمعنى: زوّروا وافتعلوا؛ كقوله تعالى: ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧]، قرئ: (كيد ساحر): بالرفع والنصب، فمن رفع فعلى أنّ (ما): موصولة، ومن نصب فعلى أنها كافة، وقرئ: «كيد سحر»: بمعنى: ذي سحر، أو ذوي سحر، أو هم لتوغلهم في سحرهم كأنهم السحر بعينه وبذاته، أو بين الكيد[2]؛ لأنه يكون سحراً وغير سحر، كما تبين المائة بدرهم؛ ونحوه: علم فقه، وعلم نحو.

فإن قلت: لم وحد ساحر ولم يجمع؟

قلت: لأنّ القصد في هذا الكلام إلى معنى الجنسية، لا إلى معنى العدد، فلو جمع، لخيل أنّ المقصود هو العدد؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾ أي: هذا الجنس.

فإن قلت: فلم نكر أوّلاً وعرف ثانياً؟

قلت: إنما نكر من أجل تنكير المضاف، لا من أجل تنكيره في نفسه؛ كقول العجاج [من الرجز]:

فِي سَعْيِ دُنْيَا طَالَمَا قَدْ مُدَّتِ[3]

= حيث خوطب بما عهد أن يخاطب به وقت ظهور آيتها، وذلك مقام يناسب التأنيس والتثبيت، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) قوله «وقرىء تلقف بالتخفيف» عبارة النسفي: تلقف بسكون اللام والفاء وتخفيف القاف: حفص، وتلقف: ابن ذكوان. الباقون: تلقف، فليحرر. (ع)

(٢) قوله «أو بين الكيد» لعله بعده سقطاً تقديره «بالسحر». (ع)

(٣) الحمد لله الذي استقلت بإذنه السماء*واطمأنت بإذنه الأرض وما تعنت*أوحى لها القرار فاستقرت وشدها بالراسيات الثبت والجاعل الغيث غياث الأمت *والجامع الناس ليوم البعث بعد الممات وهو محيي الموت يوم ترى النفوس ما أعدت

من نزل إذا الأمور غبت … في سعي دنيا طالما تعنت

استقلت: ارتفعت. واطمأنت: انخفضت. وفي الشعر التضمين. والتعنت: الإتعاب أو التأخر والتثاقل، من العنا وهو التعب. وأوحى لها: ألهمها. والثبت: جمع ثابت، والوقف على هاء التأنيث، كالأمت بالتاء قليل. والموت: جمع مائت. والنزل: ما يعد للضيف، استعارة لما يقدمه الإنسان من الأعمال. وغبت: بلغت غبها رغايتها. وفي سعي: متعلق به. أو بتعنت بعده، أي: تعبت أو أتعبت. وضمن على المعنى الأول للنفوس، وعلى الثاني للدنيا، ونكرها لتنكير السعي دلالة على التقليل. أي في سعي دنيوي قليل.

للعجاج في ديوانه ١/ ٤١٠، وخزانة الأدب ٨/ ٢٩٦، ٢٩٨، ٢٩٩، وشرح شواهد الإيضاح ص ٣٥٠، وشرح المفصل ٦/ ١٠٠، وبلا نسبة في خزانة الأدب ٨/ ٣١٦، والمخصص ١٥/ ١٩٣.

وفي حديث عمر ـ رضي الله عنه ـ: «لاَ فِي أَمْرِ دُنْيَا وَلاَ فِي أَمْرِ آخِرَةٍ» (٩٥٣)، المراد تنكير الأمر، كأنه قيل: إن ما صنعوا كيد سحري، وفي سعي دنيوي، وأمر دنيوي وآخري؛ ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾؛ كقولهم: حيث سير، وأية سلك، وأينما كان.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾

سبحان الله، ما أعجب أمرهم! قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود؛ ثم ألقوا رءوسهم بعد ساعة للشكر والسجود، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين[1] وروي أنهم لم يرفعوا رءوسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها، وعن عكرمة: لما خروا سجداً أراهم الله في سجودهم منازلهم التي يصيرون إليها في الجنة.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ ٢/ ١٥أ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾

﴿لَكَبِيرُكُمُ﴾: لعظيمكم، يريد: أنه أسحرهم وأعلاهم درجة في صناعتهم، أو لمعلمكم؛ من قول أهل مكة للمعلم: أمرني كبيري، وقال لي كبيري: كذا، يريدون: معلمهم وأستاذهم في القرآن وفي كل شيء، قرئ: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾: و«لأصلبنّ»: بالتخفيف، والقطع من خلاف: أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى؛ لأنّ كل واحد من العضوين خالف الآخر، بأن هذا يد وذاك رجل، وهذا يمين وذاك شمال، و«من»: لابتداء الغاية؛ لأن القطع مبتدأ وناشىء من مخالفة العضو العضو، لا من وفاقه إياه، ومحل الجار

---

٩٥٣ ـ قال الحافظ: «ذكره صاحب النهاية بغير إسناد وفي الباب عن ابن مسعود» اهـ.
قلت وهو في النهاية (٢/ ٣٤٠) بلفظ: «لا يجيئن أحدكم يوم القيامة سبهللاً».
أما أثر ابن مسعود فرواه الطبراني في الكبير (٩/ ١٠٦) رقم (٨٥٣٨) موقوفاً بلفظ: «إني لأكره أن أرى الرجل فارغاً لا من عمل دنيا ولا آخرة».
وفي رواية رقم (٨٥٣٩) «إني لأمقت.....» وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢/ ٣٥٣) لأبي نعيم في الحلية وابن المبارك في الزهد.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٦٦): «رواه الطبراني في الكبير، وفيه راو لم يسم وبقية رجاله ثقات».

---

(١) قال محمود: «سبحان من فرق بين الإلقاءين إلقاءهم حبالهم وعصيهم... إلخ» قال أحمد: وفي تكرير لفظ الإلقاء والعدول عن مثل: فسجد السحرة، إيقاظ السامع لألطاف الله تعالى في نقله عباده من غاية الكفر والعناد إلى نهاية الإيمان والسداد، وهذا الإيقاظ لا يحصل على الوجه إلى هذا القصد إلا بتكرير لفظ واحد على معنيين متناقضين، وهو يناسب ما قدمته آنفاً في إيجاز الخطاب في قوله ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ﴾ ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ فتأمله فإن الحق حسن متناسب، والله الموفق.

والمجرور النصب على الحال، أي: لأقطعنها مختلفات؛ لأنها إذا خالف بعضها بعضاً فقد اتصفت بالاختلاف، شبه تمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشيء الموعى في وعائه؛ فلذلك قيل: ﴿فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾، ﴿أَيُّنَآ﴾: يريد: نفسه لعنه الله وموسى - صلوات الله عليه - بدليل قوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾، واللام مع الإيمان في كتاب الله لغير الله تعالى؛ كقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١] وفيه نفاجة[١] باقتداره وقهره، وما ألفه وضري به: من تعذيب الناس بأنواع العذاب، وتوضيع لموسى - عليه السلام - واستضعاف له مع الهزء به؛ لأن موسى لم يكن قط من التعذيب في شيء.

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾

﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾: عطف على ما جاءنا أو قسم، قرئ: ﴿تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾، ووجهها أن الحياة في القراءة المشهورة منتصبة على الظرف، فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به؛ كقولك في «صمت يوم الجمعة»: «صيم يوم الجمعة»، وروي أن السحرة - يعني رءوسهم - كانوا اثنين وسبعين: الاثنان من القبط، والسائر من بني إسرائيل، وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر، وروي أنهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائماً ففعل، فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر الساحر؛ لأن الساحر إذا نام بطل سحره، فأبى إلا أن يعارضوه، ﴿تَزَكَّىٰ﴾: تطهر من أدناس الذنوب، وعن ابن عباس: قال: لا إله إلا الله، قيل: في هذه الآيات الثلاث: هي حكاية قولهم، وقيل: خبر من الله، لا على وجه الحكاية.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾

﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا﴾: فاجعل لهم؛ من قولهم: ضرب له في ماله سهماً، وضرب

---

(١) قوله «وفيه نفاجة» في الصحاح «رجل نفاج» إذا كان صاحب فخر وكبر. (ع)

اللبن: عمله، اليبس: مصدر وصف به، يقال: يبس يبساً ويبساً[1]؛ ونحوهما: العدم والعدم، ومن ثم وصف به المؤنث، فقيل؛ شاتنا يبس، وناقتنا يبس: إذا جف لبنها، وقرئ: «يبسا»، و«يابسا»، ولا يخلو اليبس من أن يكون مخففاً عن اليبس، أو صفة على فعل، أو جمع يابس، كصاحب وصحب، وصف به الواحد تأكيداً؛ كقوله [من الوافر]:

. . . . وَمِـعًـى جِـيَـاعَـا[2]

جعله لفرط جوعه كجماعة جياع ﴿لَا تَخَفُ﴾: حال من الضمير في ﴿فَاضْرِبْ﴾ وقرئ: «لا تخف»: على الجواب، وقرأ أبو حيوة: ﴿دَرْكًا﴾: بالسكون، والدرك والدرك: اسمان من الإدراك، أي: لا يدركك فرعون وجنوده لا يلحقونك، في ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾: إذا قرئ: «لا تخف»: ثلاثة أوجه: أن يستأنف، كأنه قيل: وأنت لا تخشى، أي: ومن شأنك أنك آمن لا تخشى، وألاّ تكون الألف المنقلبة عن الياء التي هي لام الفعل، ولكن: زائدة للإطلاق من أجل الفاصلة؛ كقوله: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧]، ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠]، وأن يكون مثله قوله [من الطويل]:

. . . . كَأَنْ لَمْ تَرَىٰ قَبْلِي أَسِيراً يَمَانِيَا[3]

---

(١) قال محمود: «قرىء بسكون الباء وبفتحها. . . إلخ» قال أحمد: ووجه آخر وهو أن قدر كل جزء من أجزاء الطريق طريقاً، وقد كانت بهذه المثابة لأنها كانت اثني عشر طريقاً لكل سبط طريق، والله أعلم.

(٢)
كأن قتود رحلي حين ضمت ... حوالب غرزًا ومعًى جياعا
على وحشية خذلت خلوج ... وكان لها طلا طفل فضاعا
فكرّت تبتغيه فصادفته ... على دمه ومصرعه السباعا

للقطامي في مدح زفر بن الحارث الكلابي. والقتود: عيدان الرحل: جمع أقتاد: جمع قتد، والحالبان عرقان يكتنفان السرة. والغرز: جمع غارز ـ بتقديم الراء ـ قليلات اللبن، ضد الغزر بتقديم الزاي. والمعي: مجرى الطعام في البطن من الحوايا. وصفه بصورة الجمع ـ وهو جياعا ـ مبالغة. والمعنى: جائعاً. وهذا كناية عن هزال الناقة من شدة السير. وفيه إيماء لفقره وفاقته. و«على وحشية» خبر كان. والوحشية: الظبية. وخذلت: صفتها، أي: تركها سرب الظباء. وخلوج: صفة أخرى. وخلج واختلج: اضطرب وذهب. وخلجه واختلجه: انتزعه واجتذبه. والخلوج: التي اختلج ولدها من الظباء أو الإبل. أو التي اختلج قلبها لعدم رؤيته. والطلاء: ولد الظبية ونحوها من ذوات الظلف، طفل: أي صغير، فكرت: رجعت بسرعة تطلبه. والسباع: بدل إضرابي انتقالي من ضمير صادفته. أو نصب بمضمر دل عليه صادفته، أي: صادفت السباع واقفة على دمه ومصرعه، أي: محل طرحه على الأرض، شبه الناقة بها في تلك الحال لسرعتها ويقظتها. ينظر البيت في ديوانه ص ٤١، والأشباه والنظائر ١٩٨/٤، وشرح شواهد الإيضاح ص ٢٢٩، ولسان العرب (غرز)، ٢٨٧/١٥ (معي)، وتاج العروس (غرز)، (معا).

(٣)
وتضحك مني شيخة عبشمية ... كأن لم ترى قبلي أسيراً يمانيا
وظل نساء الحي حولي ركدًا ... يراودن مني ما تريد نسائيا

لعبد يغوث بن وقاص الحارثي: أسر يوم الكلاب في بني تميم، فقال قصيدة يذكر فيها حاله منها =

﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾: من باب الاختصار، ومن جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة، أي: غشيهم ما لا يعلم كنهه إلا الله، وقرئ: فغشاهم من اليم ما غشاهم، والتغشية: التغطية، وفاعل غشاهم: إما الله سبحانه، أو ما غشاهم، أو فرعون؛ لأنه الذي ورّط جنوده وتسبب لهلاكهم، وقوله: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾: تهكم به[1]، في قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: خطاب لهم بعد إنجائهم من البحر، وإهلاك آل فرعون، وقيل: هو للذين كانوا منهم في عهد رسول الله ـ ﷺ ـ منّ الله عليهم بما فعل بآبائهم والوجه هو الأوّل، أي: قلنا: يا بني إسرائيل، وحذف القول كثير في القرآن، وقرئ: ﴿أنجيتكم﴾

= ذلك. والشيخة: العجوز. والعبشمية: المنسوبة لعبد شمس. وهو باب من النحت. وأثبت الألف في «ترى» مع أنه مجزوم لضرورة الوزن، أو للاتساع. وقيل إنها عين الفعل. وأصله ترأى حذفت لامه للجزم. ونقلت حركة الهمزة للراء، وأبدلت الفاء. وحكى إعمال «لم» للنصب. وحكى أيضاً إهمالها. وقياس النسبة إلى «يمن»: «يمنى» لكنهم حذفوا إحدى ياءي النسب، وعوضوا عنها الألف، وكان الذي يقوده صبيا، فسألته: من أنت؟ فقال: سيد القوم، فضحكت منه. والركد ـ كركع ـ: جمع راكدة، أي مقيمة لا تذهب من عنده. والمراودة: مفاعلة من راد يرود إذا تعرف حال المكان متطلبا للخصب، وهو قريب من معنى أراد يريد، أي: يتطلبن مني بلطف واختبار: هل أرضى أو لا؟ الشيء الذي تريده نسائي مني، وهو الجماع.

ينظر البيت في الأغاني ١٦/٢٥٨، وخزانة الأدب ٢/١٩٦، ٢٠٢، وسرّ صناعة الإعراب ١/٧٦، وشرح اختيارات المفضّل ص ٧٦٨، وشرح شواهد الإيضاح ص ٤١٤، وشرح شواهد المغني ٢/٦٧٥، ولسان العرب (هذذ)، (قدر)، (شمس)، ومغني اللبيب ١/٢٧٧، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر ٢/١٥، وشرح الأشموني ١/٤٦، وشرح المفصل ٥/٩٧، ١٠/١٠٧، والمحتسب ١/٦٩.

(١) قال محمود: «إنما قيل وما هدى تهكماً به» قال أحمد: فإن قلت: التهكم أن يأتي بعبارة والمقصود عكس مقتضاها، كقولهم: إنك لأنت الحليم الرشيد، وغرضهم وصفه بضد هذين الوصفين. وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ فمضمونه هو الواقع، فهو حينئذٍ مجرد إخبار عن عدم هدايته لقومه. قلت: هو كذلك، ولكن العرف مثل ما هدى زيد عمراً ثبوت كون زيد عالماً بطريق الهداية، مهتدياً في نفسه، ولكنه لم يهد عمرا. وفرعون أضل الضالين في نفسه، فكيف يتوهم أنه يهدي غيره. وتحقيق ذلك: أن قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ كاف في الإخبار بعدم هدايته لهم مع مزيد إضلاله إياهم، فإن من لا يهدي قد لا يضل، فيكون كفافا. وإذا تحقق غناء الأول في الإخبار، تعين كون الثاني لمعنى سواه، وهو التهكم. والله أعلم.

إلى ﴿رزقتكم﴾، وعلى لفظ الوعد والمواعدة، وقرئ: ﴿ٱلْأَيْمَنَ﴾: بالجر على الجوار؛ نحو: «جحر ضب خرب»، ذكرهم النعمة في نجاتهم وهلاك عدوهم، وفيما واعد موسى - صلوات الله عليه - من المناجاة بجانب الطور، وكتب التوراة في الألواح؛ وإنما عدى المواعدة إليهم لأنها لابستهم واتصلت بهم؛ حيث كانت لنبيهم ونقبائهم، وإليهم ٢/ ١٥ب رجعت منافعها التي قام بها دينهم وشرعهم، وفيما أفاض عليهم من سائر نعمه وأرزاقه، طغيانهم في النعمة: أن يتعدّوا حدود الله فيها بأن يكفروها ويشغلهم اللهو والتنعم عن القيام بشكرها، وأن ينفقوها في المعاصي، وأن يزووا حقوق الفقراء فيها، وأن يسرفوا في إنفاقها، وأن يبطروا فيها ويأشروا ويتكبروا، قرئ: ﴿فَيَحِلَّ﴾، وعن عبد الله: «لا يحلن»[1]، ﴿وَمَن يَحْلِلْ﴾: المكسور في معنى: الوجوب، من حل الدين يحل: إذا وجب أداؤه، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ [البقرة: ١٩٦]، والمضموم في معنى النزول، وغضب الله عقوباته[2]؛ ولذلك وصف بالنزول، ﴿هَوَىٰ﴾: هلك، وأصله: أن يسقط من جبل فيهلك.

قالت: [من مجزوء الوافر]

هَوَىٰ مِنْ رَأْسِ مَرْقَبَةٍ ... فَفُتِّتَ تَحْتَهَا كَبِدُهْ[3]

---

(١) قوله «قرئ فيحل وعن عبد الله... إلخ» يفيد أن القراءة المشهورة: فيحل. ومن يحلل - بالكسر. ولتحرر قراءة (لا يحلن) هل هي بالكسر أو بالضم. (ع)

(٢) قال محمود: «الغضب عقوبة الله تعالى لهم... إلخ» قال أحمد: لا يسعه أن يحمل الغضب إلا على العقوبة لأنه ينفي صفة الإرادة في جملة ما ينفونه من صفات الكمال، وأما على قاعدة السنة فيجوز أن يكون المراد من الغضب إرادة العقوبة، فيكون من أوصاف الذات. ويحتمل أن يراد به معاملتهم بما يعامل به من غضب عليه شاهداً، فيكون من صفات الأفعال. وأما وصفه بالحلول فلا يتأتى حمله على الإرادة، ويكون بمنزلة قوله عليه الصلاة والسلام (ينزل ربنا إلى سماء الدنيا) على التأويل المعروف. أو عبر عن حلول أثر الإرادة بحلولها تعبيراً عن الأثر بالمؤثر، كما يقول الناظر إلى عجيب من مخلوقات الله تعالى: انظر إلى قدرة الله يعني أثر القدرة لا نفسها، والله أعلم.

(٣)
هوى ابني من على شرف ... يهول عقابه صعده
هوى من رأس مرقبة ... ففتت تحتها كبده
ألام على تبكيه ... وألمسه فلا أجده
وكيف يلام محزون ... كبير فاته ولده ؟!

لأعرابي، يقول: سقط ابني من فوق جبل عال. فعلى بمعنى فوق، ولو قرئ: على، بالضم - جمع علية - لجاز، أي: سقط عن ذرى جبل عال، فالشرف: مصدر مستعمل في الوصف مجاز. يهول: أي يخيف، عقابه: ارتفاعه. وصعد - بالكسر - صعدا - بفتحتين وضمتين - صعوداً: ارتفع، والضمير للعقاب أو للشرف، فهو من إضافة المصدر لفاعله، ويجوز أنه من إضافته لمفعوله، أي: صعوده عليه. وخص العقاب، لأنه أشد الطير صعوداً، لا سيما عقاب ذلك الجبل العارف به. =

ويقولون: هوت أمّه، أو سقط سقوطاً لا نهوض بعده.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾

الاهتداء: هو الاستقامة والثبات على الهدى المذكور وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح، ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠]، وكلمة التراخي دلت على تباين المنزلتين دلالتها على تباين الوقتين في «جاءني زيد ثم عمرو» أعني: أنّ منزلة الاستقامة على الخير مباينة لمنزلة الخير نفسه؛ لأنها أعلى منها وأفضل.

﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ﴾ أي شيء عجل بك عنهم على سبيل الإنكار، وكان قد مضى مع النقباء إلى الطور على الموعد المضروب، ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه وتنجز ما وعد به؛ بناء على اجتهاده وظنه أن ذلك أقرب إلى رضا الله تعالى، وزل عنه أنه ـ عز وجل ـ ما وقت أفعاله إلا نظراً إلى دواعي الحكمة، وعلماً بالمصالح المتعلقة بكل وقت، فالمراد بالقوم: النقباء، وليس لقول من جوز أن يراد جميع قومه، وأن يكون قد فارقهم قبل الميعاد وجه صحيح، يأباه قوله: ﴿هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾، وعن أبي عمرو ويعقوب: «إثري»: بالكسر، وعن عيسى بن عمر: «أثري»: بالضم، وعنه ـ أيضاً ـ: «أولى بالقصر»، والإثر: أفصح من الأثر، وأما الأثر فمسموع في فرند السيف[1] مدوّن في الأصول، يقال: إثر السيف وأثره، وهو بمعنى: الأثر غريب.

فإن قلت: (ما أعجلك) سؤال عن سبب العجلة[2]، فكان الذي ينطبق عليه من

= وكرر «هوى» لإظهار التحزن، أي: سقط من رأس ثنية عالية يرقب فيها الرقيب، فمزقت كبده تحتها، أي: بجانبها، فكيف ببقية جسمه. ويروى: ففزت بتشديد الزاي بمعنى فزعت. وروي «ففرت» بتشديد الراء، وأصله: فريت. وهذه لغة طيء. يقولون: المرأة دعت في دعيت. والدار بنت في بنيت، ثم قال: يلومني الناس على البكاء مع أنني ألمسه، من باب قتل وضرب، أي: أريد لمسه فلا أجده، وكيف يلام حزين هرم يئس من رجوع ولده إليه، أو من أوان التوالد. وقيل: إن القائل أم القتيل، لكن يروى بعد البيت الأول:

فلا أم فتبكيه ... ولا أخت فتفتقده
هوى عن صخرة صلد ... ففرت تحتها كبده

إلى آخره...

(١) قوله «فرند السيف» أي ربده ووشيه، كذا في الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «إن قلت: سئل عن سبب العجلة... إلخ» قال أحمد: وإنما أراد الله تعالى بسؤاله عن سبب العجلة وهو أعلم: أن يعلم موسى أدب السفر، وهو أنه ينبغي تأخير رئيس القوم عنهم =

الجواب أن يقال: طلب زيادة رضاك أو الشوق إلى كلامك وتنجز موعدك، وقوله: ﴿ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى ﴾ كما ترى غير منطبق عليه.

قلت: قد تضمن ما واجهه به رب العزة شيئين، أحدهما: إنكار العجلة في نفسها، والثاني: السؤال عن سبب المستنكر والحامل عليه، فكان أهمّ الأمرين إلى موسى بسط العذر وتمهيد العلة في نفس ما أنكر عليه، فاعتل بأنه لم يوجد مني إلا تقدّم يسير، مثله لا يعتدّ به في العادة ولا يحتفل به، وليس بيني وبين من سبقته إلا مسافة قريبة يتقدّم بمثلها الوفد رأسهم ومقدمهم، ثم عقبه بجواب السؤال عن السبب فقال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾، ولقائل أن يقول: حار لما ورد عليه من التهيب لعتاب الله، فأذهله ذلك عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾

أراد بالقوم المفتونين: الذين خلفهم مع هارون، وكانوا ستمائة ألف، ما نجا من عبادة العجل منهم إلا اثنا عشر ألفا.

فإن قلت: في القصة أنهم أقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة، وحسبوها أربعين مع أيامها، وقالوا: قد أكملنا العدة، ثم كان أمر العجل بعد ذلك، فكيف التوفيق بين هذا وبين قوله تعالى لموسى عند مقدمه: ﴿إِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾؟

قلت: قد أخبر الله ـ تعالى ـ عن الفتنة المترقبة، بلفظ الموجودة الكائنة على عادته، أو افترص السامري غيبته، فعزم على إضلالهم غب انطلاقه، وأخذ في تدبير ذلك، فكان بدء الفتنة موجوداً، قرئ: ﴿وَأَضَلُّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾، أي: وهو أشدهم ضلالاً؛ لأنه ضال مضل، وهو منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها: السامرة، وقيل: السامرة قوم من اليهود يخالفونهم في بعض دينهم، وقيل: كان من أهل باجرما، وقيل: كان علجاً من كرمان، واسمه: موسى بن ظفر، وكان منافقاً قد أظهر الإسلام، وكان من قوم يعبدون البقر.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ

= في المسير ليكون نظره محيطاً بطائفته ونافذاً فيهم ومهيمنا عليهم. وهذا المعنى لا يحصل في تقدمه عليهم، ألا ترى الله عز وجل كيف علم هذا الأدب لوطا فقال: ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ فأمره أن يكون أخيرهم. على أن موسى عليه السلام إنما أغفل هذا الأمر مبادرة إلى رضا الله عز وجل، ومسارعة إلى الميعاد، وذلك شأن الموعود بما يسره، يود لو ركب إليه أجنحة الطير، ولا أسر من مواعدة الله تعالى له ﷺ.

عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾

الأسف: الشديد الغضب، ومنه قوله ـ عليه السلام ـ في موت الفجأة: «رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِ وَأَخْذَةُ أَسَفٍ لِلْكَافِرِ» (٩٥٤)، وقيل: الحزين.

فإن قلت: متى رجع إلى قومه؟

قلت: بعد ما استوفى الأربعين: ذا القعدة، وعشر ذي الحجة، وعدهم الله ـ سبحانه ـ أن يعطيهم التوراة التي فيها هدى ونور، ولا وعد أحسن من ذاك وأجمل، حكى لنا أنها كانت ألف سورة كل سورة ألف آية، يحمل أسفارها سبعون جملاً، ﴿ٱلْعَهْدُ﴾: الزمان، يريد: مدة مفارقته لهم، يقال: طال عهدي بك، أي: طال زماني بسبب مفارقتك، وعدوه أن يقيموا على أمره وما تركهم عليه من الإيمان، فأخلفوا موعده بعبادتهم العجل، ﴿بِمَلْكِنَا﴾ ١٦/٢أ: قرئ بالحركات الثلاث، أي: ما أخلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا، أي: لو ملكنا أمرنا وخلينا وراءنا لما أخلفناه، ولكنا غلبنا من جهة السامري وكيده، أي: حملنا

---

٩٥٤ ـ أخرجه أحمد في المسند (١٣٦/٦) ثنا وكيع ثنا عبيد الله بن الوليد، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن عائشة قالت: «سألت رسول الله ـ ﷺ ـ عن موت الفجأة فقال: راحة للمؤمن وأخذة أسف للفاجر».

ورواه عبد الرزاق في مصنفه (٥٩٨/٣) رقم (٦٧٨١)، وقال الهيثمي في المجمع (٣٢١/٢): «رواه أحمد والطبراني في الأوسط وفيه قصة، وفيه عبيد الله بن الوليد الرصافي وهو متروك».

ورواه عبد الرزاق (٥٩٦/٣) رقم (٦٧٧٦) وابن أبي شيبة في المصنف (٤٨/٣) رقم (١٢٠٠٥) عن ابن مسعود موقوفاً. ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (٤٨/٣) رقم (١٢٠٠٧) عن عبد الله بن مسعود وعائشة موقوفا.

وأخرجه أبو داود (٢٠٥/٢) كتاب الجنائز، باب في موت الفجأة حديث (٣١١٠) مرفوعاً وموقوفاً بلفظ «موت الفجأة أخذة أسف».

وأخرجه ابن أبي شيبة (٤٨/٣) رقم (١٢٠١٠) حدثنا غندر، عن شعبة، عن منصور، عن تميم بن سلمة، عن عبيد بن خالد، عن رجل من أصحاب محمد ـ ﷺ ـ في موت الفجأة قال: أخذه أسف.

قال الحافظ: أخرجه أحمد من طريق عبد الله بن عبيد بن عمير عن عائشة: «سألت رسول الله ـ ﷺ ـ عن موت الفجأة ـ فذكره ـ وله طريق أخرى عند عبد الرزاق مرفوعة، وفيها يحيى بن العلاء الرازي وهو ضعيف. ورواه هو وابن أبي شيبة والطبراني من حديثهما موقوفاً، وعن ابن مسعود أيضاً موقوفاً. وفي الباب عن أنس في الجنائز لابن شاهين وعن عبيد بن خالد عند أبي داود بلفظ «موت الفجأة أخذة أسف». انتهى.

أحمالاً من حليّ القبط التي استعرناها منهم، أو أرادوا بالأوزار: أنها آثام وتبعات؛ لأنهم كانوا معهم في حكم المستأمنين في دار الحرب، وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي، على أن الغنائم لم تكن تحل حينئذٍ، ﴿فَقَذَفْنَهَا﴾: في نار السامري، التي أوقدها في الحفرة وأمرنا أن نطرح فيها الحليّ، وقرئ: حملنا، ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾: أراهم أنه يلقى حليًا في يده مثل ما ألقوا؛ وإنما ألقى التربة التي أخذها من موطىء حيزوم فرس جبريل، أوحى إليه وليه الشيطان أنها إذا خالطت مواتا صار حيوانا، ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ﴾: السامري من الحفرة عجلاً خلقه الله من الحليّ التي سبكتها النار يخور كما تخور العجاجيل.

فإن قلت: كيف أثرت تلك التربة في إحياء الموات؟

قلت: أما يصحّ أن يؤثر الله ـ سبحانه ـ روح القدس بهذه الكرامة الخاصة كما آثره بغيرها من الكرامات، وهي: أن يباشر فرسه بحافره تربة إذا لاقت تلك التربة جماداً أنشأه الله إن شاء عند مباشرته حيواناً؛ ألا ترى كيف أنشأ المسيح من غير أب عند نفخه في الدرع.

فإن قلت: فلم خلق الله العجل من الحليّ حتى صار فتنة لبني إسرائيل[1] وضلالاً؟

قلت: ليس بأوّل محنة محن الله بها عباده ليثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين، ومن عجب من خلق العجل، فليكن من خلق إبليس أعجب، والمراد بقوله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾: هو خلق العجل للامتحان، أي: امتحناهم بخلق العجل، وحملهم السامري على الضلال، وأوقعهم فيه حين قال لهم: ﴿هَذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾: أي: فنسي موسى أن يطلبه ههنا، وذهب يطلبه عند الطور، أو فنسي السامري: أي ترك ما كان عليه من الإيمان الظاهر.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾

﴿يَرْجِعُ﴾: من رفعه فعلى أنّ أن مخففة من الثقيلة، ومن نصب فعلى أنها الناصبة

---

(١) قال محمود: «إن قلت لم خلق الله العجل فتنة لهم» قال أحمد: هذا السؤال وجوابه تقدما له في أول سورة الأعراف. وقد أوضحنا أن الله تعالى إنما تعبدنا بالبحث عن علل أحكامه لا علل أفعاله. وجواب هذا السؤال في قوله تعالى: ﴿لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون﴾ فهذا الأمر جائز. وقد أخبر الله تعالى بوقوعه فلا نبتغي وراء ذلك سبيلا، لكن الزمخشري تقتضي قاعدته في وجوب رعاية المصالح على الله تعالى وتحتم هداية الخلق عليه: أن يؤول ذلك ويحرفه. فذرهم وما يفترون.

للأفعال، ﴿مِن قَبْلُ﴾: من قبل أن يقول لهم السامري ما قال، كأنهم أوّل ما وقعت عليه أبصارهم حين طلع من الحفرة افتتنوا به واستحسنوه، فقبل أن ينطق السامري بادرهم هارون ـ عليه السلام ـ بقوله: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾

لا مزيدة، والمعنى: ما منعك أن تتبعني في الغضب لله وشدة الزجر عن الكفر والمعاصي؟ وهلا قاتلت من كفر بمن آمن؟ ومالك لم تباشر الأمر كما كنت أباشره أنا لو كنت شاهدا؟ أو مالك لم تلحقني.

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾

قرئ: ﴿بِلَحْيَتِي﴾: بفتح اللام[1]، وهي لغة أهل الحجاز، كان موسى ـ صلوات الله عليه ـ رجلاً حديداً مجبولاً على الحدة والخشونة والتصلب في كل شيء، شديد الغضب لله ولدينه، فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلاً من دون الله بعد ما رأوا من الآيات العظام، أن ألقى ألواح التوراة لما غلب ذهنه من الدهشة العظيمة؛ غضباً لله واستنكافاً وحمية، وعنف بأخيه وخليفته على قومه، فأقبل عليه إقبال العدوّ المكاشف قابضاً على شعر رأسه ـ وكان أفرع[2] ـ وعلى شعر وجهه يجرّه إليه، أي: لو قاتلت بعضهم ببعض لتفرقوا وتفانوا، فاستأنيتك أن تكون أنت المتدارك بنفسك، المتلافي برأيك، وخشيت عتابك على إطراح ما وصيتني به من ضم النشر وحفظ الدهماء[3]، ولم يكن لي بد من رقبة وصيتك والعمل على موجبها.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾﴾

الخطب: مصدر خطب الأمر إذا طلبه، فإذا قيل لمن يفعل شيئاً: ما خطبك؟ فمعناه: ما طلبك له؟ قرئ: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾: بالكسر[4]، والمعنى: علمت ما لم تعلموه، وفطنت ما لم تفطنوا له، قرأ الحسن: (قبضة): بضم القاف، وهي اسم

---

(١) قوله «قرىء بلحيتي بفتح اللام» والقراءة المشهورة: بالكسر. (ع)
(٢) قوله «وكان أفرع» أي تام الشعر. أفاده الصحاح. (ع)
(٣) قوله «وحفظ الدهماء» أي الجماعة. أفاده الصحاح. (ع)
(٤) قوله «وقرىء بصرت بما لم يبصروا به بالكسر» والقراءة المشهورة بالضم. وقرىء: تبصروا به. =

المقبوض، كالغرفة والمضغة، وأما القبضة فالمرة من القبض، وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر، كضرب الأمير، وقرأ ـ أيضاً ـ: فقبصت قبصة، بالصاد المهملة، الضاد: بجميع الكف، والصاد: بأطراف الأصابع؛ ونحوهما: الخضم، والقضم: الخاء بجميع الفم، والقاف بمقدمه، قرأ ابن مسعود: من أثر فرس الرسول.

فإن قلت: لم سماه الرسول دون جبريل وروح القدس؟

قلت: حين حل ميعاد الذهاب إلى الطور، أرسل الله إلى موسى جبريل راكب حيزوم فرس الحياة؛ ليذهب به، فأبصره السامري فقال: إنّ لهذا شأناً، فقبض قبضة من تربة موطئه، فلما سأله موسى عن قصته قال: قبضت من أثر فرس المرسل إليك يوم حلول الميعاد، ولعله لم يعرف أنه جبريل.

﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ ٢/ ١٦ب لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾

عوقب في الدنيا بعقوبة لا شيء أطم منها وأوحش؛ وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعاً كليًا، وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضاً، وإذا اتفق أن يماس أحداً رجلاً أو امرأة، حم الماس والممسوس، فتحامى الناس وتحاموه، وكان يصيح: لا مساس، وعاد في الناس أوحش من القاتل اللاجىء إلى الحرم، ومن الوحشي النافر في البرية، ويقال: إن قومه باق فيهم ذلك إلى اليوم، وقرئ: ﴿لَا مِسَاسَ﴾: بوزن فجار؛ ونحوه قولهم في الظباء، إذا وردت الماء: فلا عباب، وإن فقدته: فلا أباب، وهي أعلام للمسة والعبة والأبة، وهي المرة من الأب وهو الطلب، ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ أي: لن يخلفك الله موعده الذي وعدك على الشرك والفساد في الأرض، ينجزه لك في الآخرة بعد ما عاقبك بذلك في الدنيا، فأنت ممن خسر الدنيا والآخرة؛ ذلك هو الخسران المبين، وقرئ: «لن تخلفه»، وهذا من أخلفت الموعد إذا وجدته خلفاً؛ قال الأعشى: [من الكامل]

أَثْــوَىٰ وَأَقْــصَــرَ لَــيْــلَــهُ لِــيُــزَوَّدَا ... فَـمَـضَـىٰ وَأَخْـلَـفَ مِنْ قُـتَيـلَةَ مَـوْعِـدَا[1]

= بالتاء: وعبارة النسفي: وبالتاء حمزة وعلي، ولعلها سقطت هنا سهواً من الناسخ، فليحرر. (ع)

(١) أثوى وأقصر ليله ليزودا ... فمضت وأخلف من قتيلة موعداً
ومضى لحاجته وأصبح حبله ... خلقاً وكان بحالة لن ينكدا

للأعشى. وأقصر عن الشيء: أقلع عنه وامتنع منه. وأقصره: وجده قصيراً. وروي «قصر» بالتشديد. وروي «ليله» بالإضافة إلى الضمير، لكن الذي في ديوان الأعشى «ليلة» بالتاء. وثوى =

وعن ابن مسعود: «نخلفه»: بالنون، أي: لن يخلفه الله، كأنه حكى قوله عز وجل كما مر في ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ [مريم: ١٩]، ﴿ظَلْتَ﴾ وظلت، وظللت والأصل: ظللت، فحذفوا اللام الأولى، ونقلوا حركتها إلى الظاء، ومنهم من لم ينقل: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾، ولنحرقنه ولنحرقنه، وفي حرف ابن مسعود: «لنذبحنه»، و«لنحرقنه»، و«لنحرقنه»: القراءتان من الإحراق، وذكر أبو على الفارسي في لنحرقنه أنه يجوز أن يكون حرّق مبالغة في حرق إذا برد بالمبرد، وعليه القراءة الثالثة، وهي قراءة علي بن أبي طالب، رضي الله عنه (لننسفنه): بكسر السين وضمها، وهذه عقوبة ثالثة، وهي: إبطال ما افتتن به وفتن، وإهدار سعيه، وهدم مكره: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: ٥٤].

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾

قرأ طلحة: الله الذي لا إله إلا هو الرحمن رب العرش، ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾، وعن مجاهد وقتادة: «وسع»، ووجهه: أن وسع متعدّ إلى مفعول واحد، وهو كل شيء، وأمّا: (علما): فانتصابه على التمييز، وهو في المعنى فاعل، فلما ثقل نقل إلى التعدية إلى مفعولين، فنصبهما معاً على المفعولية؛ لأنّ المميز فاعل في المعنى، كما تقول في «خاف زيد عمراً»: خوفت زيداً عمراً، فترد بالنقل ما كان فاعلاً مفعولاً.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾

الكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾: منصوب المحل؛ وهذا موعد من الله ـ عزّ وجل ـ لرسوله ـ ﷺ ـ أي: مثل ذلك الاقتصاص ونحو ما اقتصصنا عليك قصة موسى وفرعون، نقصّ عليك من سائر أخبار الأمم وقصصهم وأحوالهم، تكثيراً لبيناتك؛ وزيادة في معجزاتك، وليعتبر السامع ويزداد المستبصر في دينه بصيرة، وتتأكد الحجة على من عاند

= بالمكان: أقام به، وأثوى به: لغة فيه، ويستعمل متعدياً أيضاً. يقول: إنه قطع السفر، وأقام بربع قتيلة، ووجد ليله قصيراً لتزوره بالوصال، أو امتنع من السفر لذلك، فمضى الليل على الأول، أو مضت الليلة على الثاني. وجزالة المعنى تشهد له. وأخلف الموعد من قتيلة، أي: وجده خلفاً، فسافر كما كان إلى حاجته، واستعار الحبل للوداد أو للطمع فيه على طريق التصريحية والخلق ترشيح، أي: يئس من مودته، وكان الحبل أو العاشق بحالة حسنة، هي أنه لن ينكدا، أي لن يتنغص، ولن يتكدر، ولن يتعسر شأنه، وزوال النعمة بعد نوالها يشق على النفس، وخلق ـ بالضم ـ فهو خلق، كحسن، وهو في الأصل مصدر. وينكد كيتعب.

ينظر ديوانه ص ٢٧٧، ولسان العرب: ٩/٧٤، ١٤/١٢٦، ومقاييس اللغة: ١/٣٩٣، ومجمل اللغة: ٢/٢١٣، وديوان الأدب: ٤/١٠٩، وتهذيب اللغة: ١٥/١٦٧، وتاج العروس. (خلف)، (سوى).

وكابر، وأن هذا الذكر الذي آتيناك، يعني: القرآن، مشتملاً على هذه الأقاصيص والأخبار الحقيقة بالتفكر والاعتبار؛ لذكر عظيم وقرآن كريم، فيه النجاة والسعادة لمن أقبل عليه، ومن أعرض عنه فقد هلك وشقي، يريد بالوزر: العقوبة الثقيلة الباهظة؛ سماها وزراً تشبيهاً في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الذي يفدح[1] الحامل، وينقض ظهره، ويلقى عليه بهره[2]، أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم، وقرئ: «يُحمَّل» وجمع، ﴿خَٰلِدِينَ﴾ على المعنى؛ لأنّ «من» معلق متناول لغير معرض واحد، وتوحيد الضمير في أعرض وما بعده للحمل على اللفظ؛ ونحوه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [الجن: ٢٣]، ﴿فِيهِ﴾ أي: في ذلك الوزر، أو في احتماله، ﴿سَآءَ﴾: في حكم بئس، والضمير الذي فيه يجب أن يكون مبهماً يفسره؛ ﴿حِمْلًا﴾: والمخصوص بالذم محذوف؛ لدلالة الوزر السابق عليه، تقديره: ساء حملاً وزرهم، كما حذف في قوله تعالى: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠]: أيوب هو المخصوص بالمدح، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: وساءت مصيرا جهنم.

فإن قلت: اللام في: (لهم) ما هي؟ وبم تتعلق؟

قلت: هي للبيان، كما في (هيت لك).

فإن قلت: ما أنكرت[3] أن يكون في ساء ضمير الوزر؟

قلت: لا يصح أن يكون في ساء وحكمه حكم بئس ضمير شيء بعينه غير مبهم.

فإن قلت: فلا يكن ساء الذي حكمه حكم بئس، وليكن ساء الذي منه قوله تعالى: ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. بمعنى: أهم وأحزن؟

قلت: كفاك صادًا عنه أن يؤول كلام الله إلى قولك: وأحزن الوزر لهم يوم القيامة حملاً؛ وذلك بعد أن تخرج عن عهدة هذا اللام وعهدة هذا المنصوب.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾

أسند النفخ إلى الآمر به فيمن قرأ: «ننفخ»: بالنون، أو لأن الملائكة المقرّبين وإسرافيل منهم بالمنزلة التي هم بها من رب العزة، فصح لكرامتهم عليه وقربهم منه أن يسند ما يتولونه إلى ذاته تعالى، وقرئ: «ينفخ»: بلفظ ما لم يسم فاعله، و«ينفخ»،

---

(١) قوله «يفدح الحامل» أي يثقله. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «بهره» أي غلبته. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله «ما أنكرت» لعله «لم أنكرت». (ع)

و«يحشر»: بالياء المفتوحة على الغيبة والضمير لله ـ عز وجل ـ أو لإسرافيل ـ عليه السلام ـ وأما يحشر المجرمون فلم يقرأ به إلا الحسن، وقرئ: (في الصور): بفتح الواو جمع صورة، وفي الصور: قولان، أحدهما: أنه بمعنى: الصور، وهذه القراءة. تدل عليه، والثاني: أنه القرن، قيل: في الزرق قولان.

أحدهما: أن الزرقة أبغض شيء من ألوان العيون إلى العرب؛ لأنّ الروم أعداؤهم وهم ٢/١٧أ زرق العيون؛ ولذلك قالوا في صفة العدوّ: أسود الكبد، أصهب السبال، أزرق العين.

والثاني: أنّ المراد: العمي؛ لأنّ حدقة من يذهب نور بصره تزراق، تخافتهم لما يملأ صدورهم من الرعب والهول، يستقصرون مدّة لبثهم في الدنيا: إما لما يعاينون من الشدائد التي تذكرهم أيام النعمة والسرور فيتأسفون عليها ويصفونها بالقصر؛ لأنّ أيام السرور قصار، وإما لأنها ذهبت عنهم وتقضت، والذاهب وإن طالت مدّته قصير بالانتهاء، ومنه توقيع عبد الله بن المعتز تحت: «أطال الله بقاءك»: «كفى بالانتهاء قصرا» وإما لاستطالتهم الآخرة، وأنها أبد سرمد يستقصر إليها عمر الدنيا، ويتقال لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم في الآخرة، وقد استرجح الله قول من يكون أشدّ تقاولاً منهم في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾؛ ونحوه قوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣)﴾ [المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٣]، وقيل: المراد لبثهم في القبور، ويعضده قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥)﴾ [الروم: ٥٥]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦].

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧)﴾

﴿يَنسِفُهَا﴾: يجعلها كالرمل، ثم يرسل عليها الرياح فتفرّقها كما يذرى الطعام، ﴿فَيَذَرُهَا﴾[1]، أي: فيذر مقارّها ومراكزها، أو يجعل الضمير للأرض، وإن لم يجر لها ذكر؛ كقوله تعالى: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

فإن قلت: قد فرّقوا بين العوج والعوج، فقالوا: العوج بالكسر: في المعاني، والعوج بالفتح: في الأعيان، والأرض عين، فكيف صح فيها المكسور العين؟

---

(١) قوله تعالى ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦)﴾ في الصحاح: أن كلا من القاع والصفصف بمعنى المستوى من الأرض، فكأن الصفصف تأكيد. (ع)

قلت: اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة، ونفي الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون؛ وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسوّيتها وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة، واتفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط، ثم استطلعت رأي المهندس فيها وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية؛ لعثر فيها على عوج في غير موضع، لا يدرك ذلك بحاسة البصر ولكن بالقياس الهندسي، فنفى الله ـ عزّ وعلا ـ ذلك العوج الذي دقّ ولطف عن الإدراك، اللهمّ إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة؛ وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني، فقيل فيه: عوج بالكسر، الأمت: النتوّ اليسير، يقال: مدّ حبله حتى ما فيه أمت.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾

أضاف اليوم إلى وقت نسف الجبال في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ نسفت، ويجوز أن يكون بدلاً بعد بدل من يوم القيامة[1]، والمراد: الداعي إلى المحشر، قالوا: هو إسرافيل قائماً على صخرة بيت المقدس يدعو الناس، فيقبلون من كل أوب إلى صوبه لا يعدلون، ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي: لا يعوجّ له مدعوّ، بل يستوون إليه من غير انحراف متبعين لصوته، أي: خفضت الأصوات من شدة الفزع وخفتت[2]، ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾: وهو الركز الخفي، ومنه الحروف المهموسة، وقيل: هو من همس الإبل وهو صوت أخفافها إذا مشت، أي: لا تسمع إلا خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر، ﴿مَنْ﴾: يصلح أن يكون مرفوعاً ومنصوباً، فالرفع على البدل من الشفاعة بتقدير حذف المضاف، أي: لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من، ﴿أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، والنصب على المفعولية، ومعنى أذن له: ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ﴾: لأجله، أي: أذن للشافع ورضي قوله لأجله، ونحو هذه اللام اللام في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾

أي يعلم ما تقدّمهم من الأحوال وما يستقبلونه، ولا يحيطون بمعلوماته علما.

---

(١) قال السمين الحلبي: وفيه نظر للفصل الكبير وأيضاً فإنه يبقى يتبعون غير مرتبط بما قبله، وبه يفوت المعنى والتقدير يوم إذا نسفت الجبال. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله «وخفتت» في الصحاح «خفت الصوت» سكن. (ع)

﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾

المراد بالوجوه: وجوه العصاة، وأنهم إذا عاينوا ـ يوم القيامة ـ الخيبة والشقوة وسوء الحساب، صارت وجوههم عانية، أي: ذليلة خاشعة، مثل وجوه العناة وهم الأسارى؛ ونحوه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الملك: ٢٧]، ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القيامة: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ [طه: ١١١]، وما بعده اعتراض؛ كقولك: خابوا وخسروا، وكلّ من ظلم فهو خائب خاسر.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾

الظلم: أن يأخذ من صاحبه فوق حقه، والهضم: أن يكسر من حق أخيه فلا يوفيه له، كصفة المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ويسترجحون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، أي: فلا يخاف جزاء ظلم ولا هضم؛ لأنه لم يظلم ولم يهضم، وقرئ: «فلا يخف»: على النهي.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: عطف على (كذلك نقص)، أي: ومثل ذلك الإنزال، وكما أنزلنا عليك هؤلاء الآيات المضمنة للوعيد[١] أنزلنا القرآن كله على هذه الوتيرة، مكرّرين فيه آيات الوعيد، ليكونوا بحيث يراد منهم ترك المعاصي أو فعل الخير والطاعة، والذكر ـ كما ذكرنا ـ: يطلق على الطاعة والعبادة، وقرئ ٢/١٧ب: نحدث وتحدث، بالنون والتاء، أي: تحدث أنت، وسكن بعضهم الثاء للتخفيف؛ كما في: [من السريع]

فَالْيَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ ... إِثْمًا مِنَ اللَّهِ وَلَا وَاغِلِ[٢]

---

(١) قال محمود: «معناه وكما أنزلنا عليك هذه الآيات المضمنة للوعيد... إلخ» قال أحمد: الصواب في تفسيرها: ليكونوا على رجاء التقوى والتذكر، وإلا فلو أراد الله من جميعهم التقوى لوقعت. وقد تقدمت أمثالها. والعجب أنه نقل عن سيبويه في تفسير لعل أول هذه السورة عند قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أن معناه: كونا على رجائكما، ثم رجع عن ذلك ههنا: لأن المعتقد الفاسد يحذوه إلى هذا التأويل الباطل، والله الموفق.

(٢) حلت لي الخمر وكنت امرءًا ... عن شربها في شغل شاغل
اليوم أشربْ غير مستحقب ... إثمًا من الله ولا واغل

لامرىء القيس، كان حلف لا يشرب الخمر حتى يقتل بني أسد الذين قتلوا أباه حجرا، فلما قتل جماعة منهم قال: حلت لي الخمر بعد أن كانت حراما علي وكنت في شغل شاغل لي عن شربها، فاليوم حين أخذت الثأر أشرب، وكان حقه الرفع لعدم الجازم، فسكن تخفيفاً للوزن. والمستحقب =

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾: استعظام له ولما يصرف عليه عباده من أوامره ونواهيه، ووعده ووعيده، والإدارة بين ثوابه وعقابه على حسب أعمالهم، وغير ذلك مما يجري عليه أمر ملكوته، ولما ذكر القرآن وإنزاله قال على سبيل الاستطراد: وإذا لقنك جبريل ما يوحى إليك من القرآن، فتأنّ عليك ريثما يسمعك ويفهمك، ثم أقبل عليه بالتحفظ بعد ذلك، ولا تكن قراءتك مساوقة لقراءته؛ ونحوه قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾﴾ [القيامة: ١٦]، وقيل: معناه: لا تبلغ ما كان منه مجملاً حتى يأتيك البيان، وقرئ: حتى تقضي إليك وحيه، وقوله تعالى: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾: متضمن للتواضع لله ـ تعالى ـ والشكر له عندما علم من ترتيب التعلم، أي: علمتني يا رب لطيفة في باب التعلم وأدباً جميلاً ما كان عندي، فزدني علماً إلى علم؛ فإنّ لك في كل شيء حكمة وعلماً، وقيل: ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾

يقال في أوامر الملوك ووصاياهم: تقدّم الملك إلى فلان وأوعز إليه، وعزم عليه، وعهد إليه، عطف الله ـ سبحانه ـ قصة آدم على قوله: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [طه: ١١٣]، والمعنى: أقسم قسماً: لقد أمرنا أباهم آدم ووصيناه ألاّ يقرب الشجرة، وتوعدناه بالدخول في جملة الظالمين إن قربها؛ وذلك من قبل وجودهم ومن قبل أن نتوعدهم، فخالف إلى ما نهي عنه، وتوعد في ارتكابه مخالفتهم، ولم يلتفت إلى الوعيد كما لا يلتفتون، كأنه يقول: إنّ أساس أمر بني آدم على ذلك، وعرقهم راسخ فيه.

فإن قلت: ما المراد بالنسيان؟

= للشيء: الحامل له على ظهره... ومنه الحقيبة، فشبه الإثم بالشيء المحمول لمشقته على النفس، والاستحقاب تخييل. والواغل: الداخل على الشاربين من غير أن يدعوه، أي: فاليوم أشرب ما شئت حال كوني غير متحمل ذنباً من الله. حيث بررت في قسمي، ولا متطفل على الشاربين.
ينظر: ديوانه ١٢٢، وإصلاح المنطق ٢٤٥، والأصمعيات ١٣٠، جمهرة اللغة ٩٦٢، وحماسة البحتري ٣٦، خزانة الأدب ٤/ ١٠٦ و٨/ ٣٥٠ و٣٥٤ و٣٥٥، والدرر ١/ ١٧٥، ورصف المباني ٣٢٧، شرح التصريح ١/ ٨٨، شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٦١٢ و١١٧٦، شرح شذور الذهب ٢٧٦، شرح شواهد الإيضاح ٢٥٦، شرح المفصل ١/ ٤٨، الشعر والشعراء ١/ ١٢٢، والكتاب ٤/ ٢٠٤، ولسان العرب [حقب]، [دلك]، المحتسب ١/ ١٥، ١١٠، الأشباه والنظائر ١/ ٦٦، والاشتقاق ٣٣٧، والخصائص ١/ ٧٤ و٢/ ٣١٧، والمقرب ٢/ ٢٠٥، همع الهوامع ١/ ٥٤. الدر المصون ١/ ٢٢٧ فتح القدير ٢/ ٥٠٧.

قلت: يجوز أن يراد النسيان الذي هو نقيض الذكر، وأنه لم يعن بالوصية العناية الصادقة، ولم يستوثق منها بعقد القلب عليها وضبط النفس، حتى تولد من ذلك النسيان، وأن يراد الترك وأنه ترك ما وصي به من الاحتراس عن الشجرة وأكل ثمرتها، وقرئ: «فنسي»، أي: نساه الشيطان، العزم: التصميم والمضيّ على ترك الأكل، وأن يتصلب في ذلك تصلباً يؤيس الشيطان من التسويل له، والوجود: يجوز أن يكون بمعنى: العلم، ومفعولاه: (له عزما)، وأن يكون نقيض العدم كأنه قال: وعدمنا له عزماً.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾

﴿إذ﴾: منصوب بمضمر، أي: واذكر وقت ما جرى عليه من معاداة إبليس ووسوسته إليه وتزيينه له الأكل من الشجرة، وطاعته له بعد ما تقدّمت معه النصيحة والموعظة البليغة والتحذير من كيده، حتى يتبين لك أنه لم يكن من أولي العزم والثبات.

فإن قلت: إبليس كان جنياً بدليل قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]، فمن أين تناوله الأمر وهو للملائكة خاصة؟

قلت: كان في صحبتهم، وكان يعبد الله ـ تعالى ـ عبادتهم، فلما أمروا بالسجود لآدم والتواضع له؛ كرامة له، كان الجني الذي معهم أجدر بأن يتواضع، كما لو قام لمقبل على المجلس علية أهله وسراتهم، كان القيام على واحد بينهم هو دونهم في المنزلة أوجب، حتى إن لم يقم عنف، وقيل له: قد قام فلان وفلان، فمن أنت حتى تترفع عن القيام؟

فإن قلت: فكيف صحّ استثناؤه، وهو جني عن الملائكة؟

قلت: عمل على حكم التغليب في إطلاق اسم الملائكة عليهم وعليه، فأخرج الاستثناء على ذلك؛ كقولك: خرجوا إلا فلانة، لامرأة بين الرجال، ﴿وَأَبَىٰ﴾: جملة مستأنفة، كأنه جواب قائل قال: لم لم يسجد؟ والوجه ألاّ يقدّر له مفعول، وهو السجود المدلول عليه بقوله: ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ وأن يكون معناه أظهر الإباء وتوقف وتثبط.

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾

﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾: فلا يكونن سبباً لإخراجكما؛ وإنما أسند إلى آدم وحده فعل الشقاء دون حواء بعد إشراكهما في الخروج؛ لأنّ في ضمن شقاء الرجل، وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم، كما أنّ في ضمن سعادته سعادتهم، فاختصر الكلام بإسناده إليه دونها، مع المحافظة على الفاصلة، أو أريد بالشقاء: التعب في طلب القوت؛ وذلك معصوب برأس الرجل وهو راجع إليه، وروي أنه أهبط إلى آدم ثور أحمر، فكان يحرث عليه ويمسح العرق من جبينه.

﴿فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾

قرئ: (وإنك): بالكسر والفتح، ووجه الفتح العطف على (أن لا تجوع).

فإن قلت: إنّ لا تدخل على أن، فلا يقال: إنّ أن زيداً منطلق، والواو نائبة عن إنّ وقائمة مقامها فلم أدخلت عليها؟

قلت: الواو لم توضع لتكون أبداً نائبة عن إنّ؛ إنما هي نائبة عن كل عامل، فلما لم تكن حرفاً موضوعاً للتحقيق خاصة ـ كإن ـ لم يمتنع اجتماعهما كما امتنع اجتماع إنّ وأن.

الشبع والريّ والكسوة والكنّ: هي الأقطاب التي يدور عليها كفاف الإنسان[(١)]، فذكره استجماعها له في الجنة، وأنه مكفي لا يحتاج إلى كفاية كاف ولا إلى كسب كاسب كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا، وذكرها بلفظ النفي لنقائضها التي هي الجوع والعري والظمأ والضحو[(٢)]؛ ليطرق سمعه بأسامي أصناف الشقوة التي حذره منها، حتى يتحامى السبب الموقع فيها كراهة لها.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾

---

(١) قال محمود: «ذكر تعالى الأصناف التي بها قوام الإنسان... إلخ» قال أحمد: تنبيه حسن، وفي الآية سر بديع من البلاغة يسمى قطع النظير عن النظير، وذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع والضحو عن الكسوة، مع ما بينهما من التناسب. والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها، ولو قرن كلا بشكله لتوهم المعدودات نعمة واحدة، وقد رمق أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديماً وحديثاً فقال الكندي الأول [من الطويل]:

كأني لم أركب جواداً للذة ... ولم أتبطن كاعبًا ذات خلخال

ولم أرشف الرزق الروي ولم أقل ... لخيلي كري كرة بعد إجفال

فقطع ركوب الجواد عن قوله «لخيلي كري كرة» وقطع تبطن الكاعب عن ترشف الكأس مع التناسب، وغرضه أن يعدد ملاذه ومفاخره ويكثرها، وتبعه الكندي الآخر فقال [من الطويل]:

وقفت وما في الموت شكٌ لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم

فاعترضه سيف الدولة بأنه ليس فيه قطع الشيء عن نظيره، ولكنه على فطنته قصر فهمه عما طالت إليه يد أبي الطيب من هذا المعنى الطائل البديع، على أن في هذه الآية سراً لذلك زائداً على ما ذكر، وهو أن قصد تناسب الفواصل، ولو قرن الظمأ بالجوع فقيل: إن لك أن لا تجوع فيها ولا تظمأ، لانتثر سلك رءوس الآي، وأحسن به منتظماً، والله أعلم.

(٢) قوله «والضحو» الذي في الصحاح: ضحيت للشمس ضحا ـ ممدود ـ إذا برزت الشمس لها، وضحيت ـ بالفتح ـ مثله. (ع)

فإن قلت: كيف ١٨/٢أ عدى وسوس تارة باللام في قوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، وأخرى بإلى؟

قلت: وسوسة الشيطان كولولة الثكلى[١]، ووعوعة الذئب، ووقوقة الدجاجة، في أنها حكايات للأصوات وحكمها حكم صوت وأجرس، ومنه: وسوس المبرسم، وهو موسوس بالكسر، والفتح: لحن؛ وأنشد ابن الأعرابي: [من الرجز]

وَسْوَسَ يَدعُو مُخْلِصاً رَبَّ الفَلَقْ[٢]

فإذا قلت: وسوس له، فمعناه لأجله؛ كقوله: [من الرجز]

أَجرِسْ لَهَا يَا ابْنَ أَبِي كِبَاشِ[٣]

ومعنى «وسوس إليه»: أنهى إليه الوسوسة؛ كقولك: حدّث إليه، وأسرّ إليه، أضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود؛ لأن من أكل منها خلد بزعمه، كما قيل لحيزوم: فرس

---

(١) قوله «كولولة الثكلى» أي الحزينة. (ع)

(٢) وسوس يدعو مخلصا رب الفلق ... سرًا وقد أوّن تأوين العقق
في الزرب لو يمضغ شربًا ما بصق
لرؤبة، يصف قانصا. وسوس: تكلم في نفسه، يدعو الله مخلصاً أنه يظفره بالصيد، وقوله «سرا» ساقه مساق الظرف للتوكيد، أي تعلق بوسوس، وللتأسيس إن تعلق بيدعو، وتكون الجملة حالية مبينة للوسوسة. وقد أونَ أي: الحمير الوحشية، والجملة أيضاً حالية، والتأوين: امتلاء الجنين من الأون، وهو جانب الخرج الممتلىء. والأونان الجانبان الممتلئان. والعقق: الحوامل، واحده عقوق كعروس، وقيل: هو العقوق، أي امتلأت بطونهن ماء لكثرة شربهن كامتلاء بطون الحوامل في الزرب، حال من ضمير القانص. والزرب والزربة: قترته التي يكمن فيها وانزرب القانص: دخل الزرب. وقوله «لو يمضغ» في معنى الحال أيضاً، أي: ساكناً بحيث لو يمضغ شربا، أي: لو يلوك بفمه مقداراً من مائه وهو الريق، لم يبصق لئلا يسمع الصيد صوته، وأصل الشرب: النصيب من الماء، استعاره لما يجتمع بفمه من الريق، وبين الزرب والشرب الجناس المضارع.
ينظر البيت في ديوانه ص ١٠٨، ولسان العرب (وسس) (لسق)، (أون)، (مأن)، وتهذيب اللغة ١/ ٦٠، ١٣/ ١٣٦، ١٥/ ٥٤٥، وتاج العروس (وطس)، (عقق)، (فلق)، (أون)، وديوان الأدب ٤/ ٢٢٩، وبلا نسبة في لسان العرب (عقق)، (وجه)، وكتاب العين ٨/ ٤٠٣، ومقاييس اللغة ٣/ ٣٨٥، ٤/ ٧، ومجمل اللغة ٣/ ٣٠١، والمخصص ١١/ ٩٣، وتاج العروس (وجه).

(٣) أجرس لها يا ابن أبي كباش ... فما لها الليلة من أنفاش
غير السرى وسائق نجاش
«أجرس» بقطع الهمزة وبالسين المهملة، أي: صوت واحد للإبل في السير. فمالها في هذه الليلة أنفاش، أي: أطلاق في المرعى. والسري: سير الليل. ونجشت الإبل: جمعتها بعد تفرق. ونجاش: صيغة مبالغة، أي: ليس لها رعي، بل سير شديد. وروي «اجرش» بوصل الهمزة والشين المشالة، وهو بمعناه هنا. والجرس ـ بالمهملة ـ: الصوت الخفي، وبالمشالة: صوت المشط في الشعر. وما شابه ذلك. =

الحياة؛ لأنّ من باشر أثره حيي، ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾: دليل على قراءة الحسن بن علي وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ: (إلا أن تكونا ملكين): بالكسر.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾

«طفق يفعل كذا» مثل: جعل يفعل، وأخذ، وأنشأ، وحكمها حكم كاد في وقوع الخبر فعلاً مضارعاً، وبينها وبينه مسافة قصيرة، هي: للشروع في أوّل الأمر، وكاد لمشارفته والدنوّ منه، قرئ: ﴿يَخَصِّفَانِ﴾: للتكثير والتكرير، من خصف النعل وهو أن يخرز عليها الخصاف، أي: يلزقان الورق بسوآتهما للتستر وهو ورق التين، وقيل: كان مدوراً، فصار على هذا الشكل من تحت أصابعهما، وقيل: كان لباسهما الظفر، فلما أصابا الخطيئة، نزع عنهما وتركت هذه البقايا في أطراف الأصابع، عن ابن عباس: لا شبهة في أنّ آدم لم يمتثل ما رسم الله له، وتخطى فيه ساحة الطاعة، وذلك هو العصيان، ولما عصى خرج فعله من أن يكون رشداً وخيراً، فكان غيًّا لا محالة؛ لأنّ الغي خلاف الرشد، ولكن قوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾: بهذا الإطلاق وبهذا التصريح، وحيث لم يقل: وزل آدم وأخطأ وما أشبه ذلك، مما يعبر به عن الزلات والفرطات: فيه لطف بالمكلفين ومزجرة بليغة وموعظة كافة، وكأنه قيل لهم: انظروا واعتبروا كيف نعيت على النبي المعصوم حبيب الله الذي لا يجوز عليه إلا اقتراف الصغيرة غير المنفرة زلته بهذه الغلطة وبهذا اللفظ الشنيع، فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من السيئات والصغائر، فضلاً أن تجسروا على التورّط في الكبائر، وعن بعضهم: (فغوى): فبشم[1] من كثرة الأكل، وهذا ـ وإن صح على لغة من يقلب الياء المكسورة ما قبلها ألفاً فيقول في «فني، وبقي»: «فنا، وبقا»، وهم بنو طيّ؛ تفسير خبيث[2].

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾

فإن قلت: ما معنى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾؟

قلت: ثم قبله بعد التوبة وقرّبه إليه، من جبى إليّ كذا فاجتبيته؛ ونظيره: جليت عليّ

= ينظر: لسان العرب (جرس)، (نجش)، (نفش)، وتهذيب اللغة ١٠/٥٤٢، ١١/٣٧٧، وتاج العروس (جرس)، ١٧/٤٢١.

(١) قوله «فبشم من كثرة الأكل» في الصحاح «البشم» التخمة. (ع)

(٢) قال السمين الحلبي: قلت كأنه لم يطلع على أنه قرئ بكسر الواو ولو اطلع عليها لردها وقد فسر القائل بهذه المقالة من نسبة آدم عليه السلام إلى المغني. انتهى. الدر المصون.

العروس فاجتليتها، ومنه قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، أي: هلا جبيت إليك فاجتبيتها، وأصل الكلمة: الجمع، ويقولون: اجتبت الفرس نفسها إذا اجتمعت نفسها راجعة بعد النفار، و﴿هَدَىٰ﴾ أي: وفقه لحفظ التوبة وغيره من أسباب العصمة والتقوى.

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾

لما كان آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ أصلي البشر، والسببين اللذين منهما نشئوا وتفرعوا: جعلا كأنهما البشر في أنفسهما، فخوطبا مخاطبتهم، فقيل: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾: على لفظ الجماعة؛ ونظيره إسنادهم الفعل إلى السبب، وهو في الحقيقة للمسبب، ﴿هُدًى﴾: كتاب وشريعة، وعن ابن عباس: ضمن الله لمن اتبع القرآن ألاّ يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم تلا قوله: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾، والمعنى: أنّ الشقاء في الآخرة هو عقاب من ضلّ في الدنيا عن طريق الدين فمن اتبع كتاب الله وامتثل أوامره وانتهى عن نواهيه نجا من الضلال ومن عقابه.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾

الضنك: مصدر يستوي في الوصف به المذكر والمؤنث، وقرئ: ﴿ضنكى﴾: على فعلى، ومعنى ذلك: أن مع الدين التسليم والقناعة والتوكل على الله وعلى قسمته، فصاحبه ينفق ما رزقه بسماح وسهولة، فيعيش عيشاً رافعاً؛ كما قال عز وجل: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، والمعرض عن الدين، مستول عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا، مسلط عليه الشح الذي يقبض يده عن الإنفاق، فعيشه ضنك وحاله مظلمة، كما قال بعض المتصوّفة: لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته وتشوّش عليه رزقه، ومن الكفرة من ضرب الله عليه الذلة والمسكنة؛ لكفره، قال الله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] وقال: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ [نوح: ١١]، وقال: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ٢/ ١٨ب ﴿١٦﴾﴾ [الجن: ١٦]، وعن

الحسن: هو الضريع والزقوم في النار، وعن أبي سعيد الخدري عذاب القبر، وقرئ: (ونحشره): بالجزم، عطفاً على محل: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾؛ لأنه جواب الشرط، وقرئ: «ونحشرهْ»: بسكون الهاء على لفظ الوقف، وهذا مثل قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وكما فسر الرزق بالعمى، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك فعلت أنت، ثم فسر بأن آياتنا أتتك واضحة مستنيرة، فلم تنظر إليها بعين المعتبر ولم تتبصر، وتركتها وعميت عنها، فكذلك اليوم نتركك على عماك ولا نزيل غطاءه عن عينيك.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾

لما توعد المعرض عن ذكره بعقوبتين: المعيشة الضنك في الدنيا، وحشره أعمى في الآخرة ـ ختم آيات الوعيد بقوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧]، كأنه قال: وللحشر على العمى الذي لا يزول أبداً أشدّ من ضيق العيش المنقضي، أو أراد: ولتركنا إياه في العمى أشدّ وأبقى من تركه لآياتنا.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾

فاعل ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ﴾: الجملة بعده يريد: ألم يهد لهم هذا بمعناه ومضمونه؛ ونظيره قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الصافات: ٧٨ ـ ٧٩]، أي: تركنا عليه هذا الكلام[1]، ويجوز أن يكون فيه ضمير الله أو الرسول؛ ويدل عليه القراءة بالنون، وقرئ: ﴿يَمْشُونَ﴾ يريد: أنّ قريشاً يتقلبون في بلاد عاد وثمود ويمشون، ﴿فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾: ويعاينون آثار هلاكهم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾

الكلمة السابقة: هي العدة بتأخير جزائهم إلى الآخرة، يقول: لولا هذه العدة لكان مثل إهلاكنا عاداً وثموداً لازماً لهؤلاء الكفرة، واللزام: إما مصدر لازم وصف به، وإما فعال بمعنى: مفعل، أي: ملزم، كأنه آلة اللزوم لفرط لزومه، كما قالوا: لزاز خصم، ﴿وَأَجَلٌ

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: فكون الجملة فاعل يهد هو مذهب كوفي، وأما تشبيهه وتنظيره بقوله: «وتركنا عليه في الآخرين» «سلام على نوح في العالمين» فإن تركنا معناه معنى القول فحكيت به الجملة كأنه قيل وقلنا عليه وأطلقنا عليه هذا اللفظ والجملة تحكي بمعنى القول كما تحكي بالقول. انتهى. الدر المصون.

﴿مُّسَمًّى﴾: لا يخلو من أن يكون معطوفا على ﴿كَلِمَةٌ﴾، أو على الضمير في: ﴿كان﴾، أي: لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كما كانا لازمين لعاد وثمود، ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾

﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: في موضع الحال، أي: وأنت حامد لربك على أن وفقك للتسبيح وأعانك عليه، والمراد بالتسبيح: الصلاة، أو على ظاهره قدم الفعل على الأوقات أوّلاً، والأوقات على الفعل آخراً، فكأنه قال: صل لله قبل طلوع الشمس، يعني: الفجر، وقبل غروبها، يعني: الظهر والعصر؛ لأنهما واقعتان في النصف الأخير من النهار بين زوال الشمس وغروبها، وتعمد آناء الليل وأطراف النهار مختصًا لهما بصلاتك؛ وذلك أن أفضل الذكر ما كان بالليل، لاجتماع القلب وهدو الرجل والخلو بالرب، وقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾ [المزمل: ٦]، وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ [الزمر: ٩]، ولأنّ الليل وقت السكوت والراحة، فإذا صرف إلى العبادة، كانت على النفس أشد وأشق، وللبدن أتعب وأنصب، فكانت أدخل في معنى التكليف وأفضل عند الله، وقد تناول التسبيح في آناء الليل صلاة العتمة، وفي أطراف النهار صلاة المغرب وصلاة الفجر على التكرار؛ إرادة الاختصاص، كما اختصت في قوله: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى» عن بعض المفسرين.

فإن قلت: ما وجه قوله: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ على الجمع؛ وإنما هما طرفان كما قال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾؟

قلت: الوجه أمن الإلباس، وفي التثنية: زيادة بيان، ونظير مجيء الأمرين في الآيتين: مجيئهما في قوله [من السريع أو الرجز]

ظَهْرَاهُمَا مِثْلُ ظُهُورِ التُّرْسَيْن[1]

وقرئ: وأطراف النهار، عطفاً على آناء الليل، ولعل للمخاطب، أي: اذكر الله في هذه الأوقات؛ طمعاً ورجاء أن تنال عند الله ما به ترضى نفسك ويسر قلبك، وقرئ: «ترضى»، أي: يرضيك ربك.

---

(١) ومهمهين قذفين مرتين ... ظهراهما مثل ظهور الترسين
جبتهما بالنعت لا بالنعتين
لخطام المجاشعي. وقيل: لهميان بن قحافة. والمهمه: المفازة. والقذف ـ بالتحريك ـ: الذي =

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: نظر عينيك، ومدّ النظر: تطويله، وألاّ يكاد يرده؛ استحساناً للمنظور إليه وإعجاباً به، وتمنياً أن يكون له، كما فعل نظارة قارون حين قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩]، حتى واجههم أولو العلم والإيمان بـ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [القصص: ٨٠]، وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه؛ وذلك مثل نظر من باده الشيء بالنظر ثم غض الطرف، ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركوز في الطباع، وأنّ من أبصر منها شيئاً أحب أن يمدّ إليه نظره ويملأ منه عينيه، قيل: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: لا تفعل ما أنت معتاد له وضار به، ولقد شدّد العلماء من أهل التقوى في وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة وعدد الفسقة في اللباس والمراكب وغير ذلك؛ لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة، فالناظر إليها محصل لغرضهم، وكالمغري لهم على اتخاذها، ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾: أصنافاً من الكفرة، ويجوز أن ينتصب حالاً من هاء الضمير، والفعل واقع على: (منهم): كأنه قال: إلى الذي متعنا به وهو أصناف بعضهم وناساً ١٩/٢أ منهم.

فإن قلت: علام انتصب ﴿زَهْرَةَ﴾؟

قلت: على أحد أربعة أوجه: على الذم، وهو النصب على الاختصاص، وعلى

= يقذف سالكه فلا يمكث فيه أحد. وقيل: البعيد. والمرت ـ بالسكون ـ: القفر لا ماء فيه ولا نبات. والترس: حيوان ناتىء الظهر. وثنى ظهراهما على الأصل، وجمع فيما بعد لأمن اللبس، ولأنه ربما كره اجتماع تثنيتين، لا سيما عند تتابع التثنية كما هنا. وقال النحاة: كل مثنى في المعنى مضاف إلى متضمنه، يختار في لفظه الجمع لتعدد معناه وكراهة اجتماع تثنيتين في اللفظ. ويجوز مجيئه على الأصل كما هنا. ويجوز إفراده كقوله [من الطويل]:

حمامة بطن الواديين ترنمي ....

والجواب: القطع. والنعت: الوصف، ويروى: «بالسمت لا بالسمتين» والسمت: الهيئة والقصد والجهة والطريق والمراد أنهما وصفا، أو ذكرت هيأتهما له مرة واحدة. يقول: رب موضعين قفرين لا أنيس فيهما، لهما ظهران مرتفعان، كظهري الترسين، قطعتهما بالسير بنعت واحد، لا بوصفهما لي مرتين أو ثلاثة كغيري. ويجوز أن المعنى بذكر نعت واحد من نعوتها، لا بذكر نعتين، فالنعت بمعنى الصفة القائمة بالشيء. وفي الكلام دلالة على شجاعته وحذقه.

ينظر: خزانة الأدب ٢/ ٣١٤، والدرر ١/ ١١٦، ١١٨، ١٦٦، وشرح المفصل ٤/ ١٥٦، والكتاب ٢/ ٤٨، ولسان العرب (مرت)، وله أو لهميان في الكتاب ٣/ ٦٢٢، والتنبيه والإيضاح ١/ ١٧٣، وبلا نسبة في خزانة الأدب ٤/ ٣٠٢، ٧/ ٥٣٩، ٥٧٢، وشرح الأشموني ٣/ ٤٠٤، وشرح شافية ابن الحاجب ١/ ١٩٤، وهمع الهوامع ١/ ٤٠، ٥١، والمخصص ٩/ ٧.

تضمين: (متعنا) معنى: أعطينا وخوّلنا، وكونه مفعولاً ثانياً له، وعلى إبداله من محل الجار والمجرور، وعلى إبداله من أزواجاً، على تقدير ذوي زهرة.

فإن قلت: ما معنى الزهرة فيمن حرّك[١].

قلت: معنى الزهرة بعينه وهو الزينة والبهجة، كما جاء في الجهرة الجهرة، وقرئ: «أرنا الله جهرة»، أن تكون جمع زاهر، وصفاً لهم بأنهم زاهرو هذه الدنيا، لصفاء ألوانهم مما يلهون ويتنعمون، وتهلل وجوههم[٢]، وبهاء زيهم وشارتهم[٣]، بخلاف ما عليه المؤمنون والصلحاء: من شحوب الألوان والتقشف في الثياب، ﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾: لنبلوهم حتى يستوجبوا العذاب؛ لوجود الكفران منهم، أو لنعذبهم في الآخرة بسببه، ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾: هو ما ادّخر له من ثواب الآخرة الذي هو خير منه في نفسه وأدوم، أو ما رزقه من نعمة الإسلام والنبوّة، أو لأن أموالهم الغالب عليها الغصب والسرقة والحرمة[٤] من بعض الوجوه، والحلال ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾؛ لأن الله لا ينسب إلى نفسه إلا ما حل وطاب دون ما حرم وخبث، والحرام لا يسمى رزقاً أصلاً[٥]، وعن عبد الله بن قسيط عن رافع: قال: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ إِلَى يَهُودِيٍّ، وَقَالَ: «قُلْ لَهُ: يَقُولُ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ أَقْرِضْنِي إِلَى رَجَبٍ» فَقَالَ: وَاللَّهِ، لاَ أَقْرَضْتُهُ إِلاَّ بِرَهْنٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «إِنِّي لأَمِينٌ فِي السَّمَاءِ، وَإِنِّي لأَمِينٌ فِي الأَرْضِ، آحْمِلْ إِلَيْهِ دِرْعِي الْحَدِيدَ»؛ فنزلت: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ (٩٥٥).

---

٩٥٥ ـ رواه الطبراني (١/ ٣٣١) رقم (٩٨٩) حدثنا الحسين بن إسحاق التستري ثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا عبد الله بن نمير ثنا موسى بن عبيدة عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي رافع قال: أضاف رسول الله ـ ﷺ ـ ضيفاً فلم يلق عند النبي ـ ﷺ ـ ما يصلحه، فأرسل إلى رجل من اليهود: يقول لك محمد ـ ﷺ ـ فأخبرته فقال: «أم والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض ولو أسلفني أو باعني لأديت إليه، فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا =

---

(١) قوله «حرك» أي حرك الهاء بالفتح. (ع)

(٢) قوله «وتهلل وجوههم» الذي في الصحاح: تهلل وجه الرجل من فرحه، وهلهل النساج الثوب. أرق نسجه وخففه. (ع)

(٣) قوله «وبهاء زيهم وشارتهم» في الصحاح: الزي والشارة: اللباس والهيئة. (ع)

(٤) قال محمود: «معناه أن رزق هؤلاء المتمتعين في الدنيا أكثره مكتسب من الحرام... إلخ» قال أحمد: لولا أن غرض القدرية من هذا إثبات رازق غير الله تعالى كما أثبتوا خالقاً سوى الله تعالى لكان البحث لفظياً. فالحق والسنة أن كل ما تقوم به البنية رزق من الله تعالى، سواء كان حلالاً أو غيره، لا يلزم من كون الله تعالى رزقه أن يكون حلالاً، فكما يخلق الله تعالى على يدي العبد ما نهاه عنه، كذلك يرزقه ما أباح له تناوله وما لا ﴿لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون﴾ والله الموفق للصواب.

(٥) قوله «والحرام لا يسمى رزقاً أصلاً» هذا عند المعتزلة، ويسمى رزقاً عند أهل السنة. (ع)

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: وأقبل أنت مع أهلك على عبادة الله والصلاة، واستعينوا بها على خصاصتكم، ولاتهتم بأمر الرزق والمعيشة، فإنّ رزقك مكفيّ من عندنا، ونحن رازقوك ولا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك ففرّغ بالك لأمر الآخرة، وفي معناه قول الناس: من دان في عمل الله كان الله في[1] عمله، وعن عروة بن الزبير أنه كان إذا رأى ما عند السلاطين قرأ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [طه: ١٣١]. . . الآية ثم ينادي الصلاة الصلاة رحمكم الله، وعن بكر بن عبد الله المزني كان إذا أصابت أهله خصاصة، قال: قوموا فصلوا؛ بهذا أمر الله رسوله، ثم يتلو هذه الآية.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾

اقترحوا على عادتهم في التعنت آية على النبوّة، فقيل لهم: أو لم تأتكم آية هي أمّ الآيات وأعظمها في باب الإعجاز يعني القرآن، من قبل أنّ القرآن برهان ما في سائر الكتب المنزلة ودليل صحته؛ لأنه معجزة، وتلك ليست بمعجزات، فهي مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها، افتقار المحتج عليه إلى شهادة الحجة، وقرئ: «الصحف»: بالتخفيف، ذكر الضمير الراجع إلى البينة؛ لأنها في معنى البرهان والدليل.

= مِّنْهُمْ﴾ إلى آخر الآية لأنه يعزيه عن الدنيا.

ورواه ابن جرير في التفسير (٨/٤٧٩) رقم (٢٤٤٥٦) قال الهيثمي في المجمع (٤/١٢٩): «رواه الطبراني في الكبير والبزار وفيه موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف» اهـ.

وذكره السيوطي في الدر (٤/٥٦٠) وعزاه لابن أبي شيبة وابن راهويه وابن المنذر، وابن أبي حاتم وابن مردويه، والخرائطي في مكارم الأخلاق، وأبو نعيم في المعرفة، وذكره البغوي في معالم التنزيل (٣/٢٣٦)، والواحدي في الوسيط (٣/٢٢٧).

قال الحافظ: قلت وقع فيه تحريف في الروايتين، وإنما هو عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي رافع، ولعل ذلك من النساخ. والحديث أخرجه إسحاق، وابن أبي شيبة، وأبو يعلى، والبزار، والطبري، والطبراني من هذا الوجه مطولاً، وفيه موسى بن عبيدة الزبيري وهو متروك. واستدل على بطلان ما رواه أنه وقع فيه: أن قوله تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ الآية نزلت في هذه القصة، وسورة طه مكية ـ وهذه القصة إنما كانت في المدينة كما في الصحيح. وهذا يمكن الجواب عنه؛ إذ لا مانع أن تكون الآية وحدها مدنية. وبقية السورة مكية. وأما حمله على تعدد القصة فلم يصب. انتهى.

---

(١) قوله «من دان في عمل الله كان الله في عمله» دان: ذل. ودانه: أذله، كذا في الصحاح. (ع)

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾

قرئ: ﴿نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾: على لفظ ما لم يسم فاعله.

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

﴿كُلٌّ﴾ أي: كل واحد منا ومنكم، ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾: للعاقبة، ولما يؤول إليه أمرنا وأمركم، وقرئ: «السواء»: بمعنى: الوسط والجيد، أو المستوي والسوء والسوأي والسوي تصغير السوء[1]، وقرئ: فتمتعوا فسوف تعلمون، قال أبو رافع: حفظته من رسول الله ﷺ.

عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ طَهَ أُعْطِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوَابَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ» (٩٥٦)، وقال: «لاَ يَقْرَأُ أَهْلُ الْجَنَّةِ مِنَ الْقُرآنِ إِلاَّ طَهَ وَيَس» (٩٥٧).

---

٩٥٦ ـ تقدم برقم (٣٤٦).
قال الحافظ: أخرجه الثعلبي من رواية زياد عن الحسن مرسلاً. انتهى.

٩٥٧ ـ تقدم برقم (٣٤٦).
قال الحافظ: أخرجه ابن مردويه من حديث أبي بن كعب. انتهى.

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وليس بجيد إذ لو كان كذلك لثبتت همزة سوء والأجود أن يكون تصغير سواء كقولهم غطى في غطا قلت وقد جعله أبو البقاء أيضاً تصغير السوء بفتح الهمزة ويرد عليه ما تقدم إيراده على الزمخشري وإبدال مثل هذه الهمزة جائز فلا إيراد. انتهى. الدر المصون.

سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ

مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ١١٢ [نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾

هذه اللام: لا تخلو من أن تكون صلة لاقترب، أو تأكيداً لإضافة الحساب إليهم؛ كقولك: «أزف للحيّ رحيلهم» الأصل: أزف رحيل الحيّ، ثم أزف للحيّ الرحيل، ثم أزف للحيّ رحيلهم؛ ونحوه: ما أورده سيبويه في «باب ما يثنى فيه المستقرّ توكيداً» عليك زيد حريص عليك، وفيك زيد راغب فيك، ومنه قولهم: لا أبا لك؛ لأنّ اللام مؤكدة لمعنى الإضافة، وهذا الوجه أغرب من الأوّل[1]، والمراد: اقتراب الساعة، وإذا اقتربت الساعة فقد اقترب ما يكون فيها من الحساب والثواب والعقاب وغير ذلك؛ ونحوه: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

فإن قلت: كيف وصف بالاقتراب، وقد عدّت دون هذا القول أكثر من خمسمائة عام؟

قلت: هو مقترب عند الله والدليل عليه قوله ـ عزّ وجل ـ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج: ٤٧]، ولأنّ كل آت ـ وإن

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: يعني بقوله صلة لاقترب، أي متعلقة به، وأما جعله اللام تأكيداً لإضافة الحساب إليهم مع تقدم اللام ودخولها على الاسم الظاهر فلا نعلم أحداً يقول ذلك، وأيضاً سنحتاج إلى ما تتعلق به، ولا يمكن تعلقه بحسابهم لأنه مصدر موصول ولأنه قدم معموله عليه، وأيضاً فإن التوكيد يكون متأخراً عن المؤكد وأيضاً فلو أخر في هذا التركيب لم يصح، وأما تشبيهه بما أورده سيبويه فالفرق واضح، فإن عليك لحريص وعليك المتأخرة تأكيد، وكذلك فيك زيد راغب فيك فتعلق فيك براغب وفيك الثانية توكيد، وإنّما غره في ذلك صحة توكيد حساب الناس وكذلك أزف رحيل الحي، فاعتقد إذا تقدم الظاهر مجروراً باللام، وأضيف المصدر لضميره أنه من باب فيك زيد راغب فيك، وليس مثله، وأما لا أباً لك فهي مسألة مشكلة وفيها خلاف، ويمكن أن يقال فيها ذلك لأن اللام فيها جاوزت الإضافة ولا يقاس عليها لشذوذها وخروجها عن الأقيسة، قلت مسألة الزمخشري أشبه شيء بمسألة لا أباً لك، والمعنى الذي أورده صحيح، وأما كونها مشكلة فهو إنما بناها على قول الجمهور، والمشكل مقرر في بابه فلا يضرنا القياس عليه لتقرره في مكانه. انتهى. الدر المصون.

طالت أوقات استقباله وترقبه ـ قريب؛ إنما البعيد هو الذي وجد وانقرض، ولأنّ ما بقي في الدنيا أقصر وأقل مما ١٩/٢ب سلف منها؛ بدليل انبعاث خاتم النبيين الموعود مبعثه في آخر الزمان، وقال عليه السلام: «بُعِثْتُ فِي نَسْمِ السَّاعَةِ»[1] (٩٥٨)، وفي خطبة بعض المتقدّمين: ولت الدنيا حذاء، ولم تبق إلا صبابة كصبابة الإناء (٩٥٩)، وإذا كانت بقية الشيء وإن كثرت في نفسها قليلة بالإضافة إلى معظمه، كانت خليقة بأن توصف بالقلة وقصر الذرع، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنّ المراد بالناس: المشركون، وهذا من إطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم، وهو ما يتلوه من صفات المشركين، وصفهم بالغفلة مع الإعراض، على معنى: أنهم غافلون عن حسابهم ساهون، لا يتفكرون في عاقبتهم، ولا يتفطنون لما ترجع إليه خاتمة أمرهم، مع اقتضاء عقولهم إنه لا بدّ من جزاء للمحسن والمسيء، وإذا قرعت لهم العصا ونبهوا عن سنة الغفلة وفطنوا لذلك بما يتلى عليهم من الآيات والنذر، أعرضوا وسدوا أسماعهم ونفروا.

---

٩٥٨ ـ أخرجه البزار رقم (٣٢١٥ ـ كشف) حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد ثنا ابن أبي الوزير محمد بن عمر ثنا سفيان، عن إسماعيل، عن قيس، عن أبي جبيرة بن الضحاك قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بعثت في نسم الساعة».

وأبو نعيم في الحلية (١٦١/٤)، وروى الترمذي (٤٩٦/٤) كتاب الفتن، باب ما جاء في قول النبي ـ ﷺ ـ: «بعثت أنا والساعة كهاتين يعني السبابة والوسطى» حديث (٢٢١٣).

حدثنا محمد بن عمر بن هياج الأسدي الكوفي حدثنا يحيى بن عبد الرحمن الأرحبي حدثنا عبيدة بن الأسود عن مجالد عن قيس بن أبي حازم عن المستورد بن شداد الفهري روى عن النبي ﷺ قال: «بعثت في نفس الساعة فسبقتها كما سبقت هذه هذه» لأصبعيه السبابة والوسطى.

قال أبو عيسى: هذا حديث غريب من حديث المستورد بن شداد لا نعرفه إلا من هذا الوجه .اهـ.

قال الحافظ: أخرجه البزار بإسناد حسن، من حديث أبي جبير بن الضحاك الأنصاري وأخرجه الحسن بن سفيان، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية. وفي الباب عن المستورد بن شداد رفعه: «بعثت في نفس الساعة ـ الحديث» أخرجه الترمذي، وقوله: وفي خطب بعض المتقدمين: «ولت الدنيا حذاء لم يبق إلا صبابة كصبابة الإناء» هو عبد الله بن غزوان. أخرجه مسلم من حديثه مطولاً. انتهى.

٩٥٩ ـ أخرجه مسلم (٣٢٥/٩) كتاب الزهد والرقائق حديث (٢٩٦٧)، والترمذي (٧٠٢/٤) كتاب صفة جهنم، باب ما جاء في صفة قعر جهنم حديث (٢٥٧٥)، وابن ماجه (١٣٩٢/٢) كتاب الزهد، باب معيشة أصحاب النبي ـ ﷺ ـ حديث (٤١٥٦) مختصراً.

---

(١) قوله «بعثت في نسم الساعة» في الصحاح «نسم الريح» أولها حين تقبل بلين قبل أن تشتد. ومنه الحديث «بعثت في نسم الساعة» أي حين ابتدأت وأقبلت أوائلها. والنسيم أيضاً: جمع نسمة وهي النفس. (ع)

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝﴾

قرّر إعراضهم عن تنبيه المنبه وإيقاظ الموقظ: بأنّ الله يجدّد لهم الذكر وقتاً فوقتاً، ويحدث لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة؛ ليكرّر على أسماعهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون، فما يزيدهم استماع الآي والسور وما فيها من فنون المواعظ والبصائر ـ التي هي أحق الحق وأجدّ الجدّ ـ إلا لعباً وتلهياً واستسخاراً، والذكر: هو الطائفة النازلة من القرآن، وقرأ ابن أبي عبلة: (محدث): بالرفع صفة على المحل، قوله: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾: حالان مترادفتان أو متداخلتان، ومن قرأ: (لاهية): بالرفع فالحال واحدة؛ لأنّ (لاهية قلوبهم): خبر بعد خبر؛ لقوله: (وهم)، واللاهية: من لها عنه إذا ذهل وغفل، يعني: أنهم وإن فطنوا فهم في قلة جدوى فطنتهم كأنهم لم يفطنوا أصلاً، وثبتوا على رأس غفلتهم وذهولهم عن التأمّل والتبصر بقلوبهم.

فإن قلت: النجوى وهي اسم من التناجي لا تكون إلا خفية، فما معنى قوله: (وأسرّوا)؟

قلت: معناه: وبالغوا في إخفائها، أو جعلوها بحيث لا يفطن أحد لتناجيهم ولا يعلم أنهم متناجون، أبدل: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: من واو وأسرّوا، إشعاراً بأنهم الموسومون بالظلم الفاحش فيما أسرّوا به، أو جاء على لغة من قال: أكلوني البراغيث، أو هو منصوب المحل على الذم، أو هو مبتدأ خبره: (وأسرّوا النجوى)، قدم عليه، والمعنى: وهؤلاء أسروا النجوى، فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلاً على فعلهم بأنه ظلم، ﴿هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ هذا الكلام كله في محل النصب بدلاً من النجوى، أي: وأسروا هذا الحديث، ويجوز أن يتعلق بقالوا مضمراً: اعتقدوا أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ لا يكون إلا ملكاً، وأن كل من ادّعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة هو ساحر ومعجزته سحر؛ فلذلك قالوا على سبيل الإنكار: أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر.

فإن قلت: لم أسروا هذا الحديث وبالغوا في إخفائه؟

قلت: كان ذلك شبه التشاور فيما بينهم، والتحاور في طلب الطريق إلى هدم أمره، وعمل المنصوبة في التثبيط عنه[1]، وعادة المتشاورين في خطب ألاّ يشركوا أعداءهم في

---

(١) قوله «وعمل المنصوبة في التثبيط عنه» كأن فيه سقطاً. وفي الصحاح: نصبت لفلان نصباً: إذا عاديته. (ع)

شوارهم، ويتجاهدوا في طيّ سرّهم عنهم ما أمكن واستطيع، ومنه قول الناس: «استعينوا على حوائجكم بالكتمان»، ويرفع إلى رسول الله ـ ﷺ ـ (٩٦٠)، ويجوز أن يسرّوا نجواهم

---

٩٦٠ ـ أخرجه السهمي في «تاريخ جرجان» (ص ـ ٢٢٣) من طريق الهيثم بن أيوب العطار حدثنا سهل بن عبد الرحمن عن محمد بن مطرف، عن محمد بن المنكدر، عن عروة، عن أبي هريرة مرفوعاً.
وللحديث شواهد من حديث معاذ بن جبل وابن عباس وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب.
حديث معاذ بن جبل:
أخرجه العقيلي (٢/ ١٠٩)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٩٤) رقم (١٨٣)، وفي «الصغير» (٢/ ١٤٩)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٢٤٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢١٥، ٦/ ٩٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٦٥٥)، وابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ١٦٥ ـ بتحقيقنا)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٧٠٧) كلهم من طريق سعيد بن سلام العطار ثنا ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن معاذ بن جبل مرفوعاً.
وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح، المتهم به سعيد بن سلام؛ قال العقيلي: لا يعرف إلا به، ولا يتابع عليه، وقال محمد بن عبد الله بن نمير وأحمد بن حنبل: هو كذاب، وقال البخاري: يذكر بوضع الحديث، وقال ابن حبان: يتفرد عن الأثبات بما لا أصل له، وقال الدارقطني: متروك.
وقال ابن الجوزي: المتهم به حسين بن علوان، قال ابن عدي، وابن حبان: كان يضع الحديث.
وقال السيوطي في «اللآلىء» (٢/ ٨١): حسين يضع.
حديث ابن عباس:
أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/ ٥٦ ـ ٥٧)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ١٦٥) من طريق الحسين بن عبد الله الأبزازي حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري حدثني المأمون حدثني الرشيد عن المهدي أنه أسر إليه شيء وقال: لا تطلعن عليه أحداً؛ فإن أمير المؤمنين ـ يعني المنصور ـ حدثني عن أبيه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «استعينوا على نجاح الحوائج بكتمانها».
قال ابن الجوزي: أما حديث ابن عباس فإنه من عمل الأبزاري قال أحمد بن كامل: كان الأبزازي ماجناً كذاباً، قال مُهَنى: سألت أحمد بن حنبل ويحيى بن معين عن قولهم: «استعينوا على طلب الحوائج بالكتمان» فقالا: هو موضوع وليس له أصل.
حديث عمر بن الخطاب:
أخرجه الخرائطي في «اعتلال القلوب» كما في «اللآلىء» (٢/ ٨٢) عن عمر مرفوعاً.
وورد عنه أيضاً موقوفاً أخرجه الشيرازي في «الألقاب» كما في «تنزيه الشريعة» (٢/ ١٣٤).
حديث علي بن أبي طالب:
أخرجه الخلعي في فوائده كما في «اللآلىء» المصنوعة (٢/ ٨٢).
قال الحافظ: روي موقوفاً. قال: ويرفع إلى النبي ـ ﷺ ـ أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب الثالث والأربعين وابن عدي من رواية سعيد بن سلام العطار، عن ثور بن زيد، عن خالد بن معدان، عن معاذ بن جبل. وسعيد. قال البخاري: يذكر بالوضع، وتابعه حسين بن علوان عن ثور. وكان أيضاً يضع الحديث. قاله ابن عدي وابن حبان وقال ههنا عن أحمد وابن معين: هو =

بذلك ثم يقولوا لرسول الله ـ ﷺ ـ والمؤمنين: إن كان ما تدعونه حقًا فأخبرونا بما أسررنا.

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٤﴾

فإن قلت: هلا قيل: يعلم السر؛ لقوله: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾[1]؟

قلت: القول عام يشمل السرّ والجهر، فكان في العلم به العلم بالسرّ وزيادة، فكان آكد في بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول: يعلم السرّ، كما أنّ قوله: يعلم السرّ، آكد من أن يقول: يعلم سرهم، ثم بين ذلك بأنه السميع العليم لذاته فكيف تخفى عليه خافية.

فإن قلت: فلم ترك هذا الآكد في سورة الفرقان في قوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦]؟

= حديث موضوع. وقال ابن أبي حاتم عن أبيه: منكر لا يعرف له أصل. وفي الباب عن أبي هريرة أخرجه حمزة السهمي في تاريخ جرجان. وفيه شميل بن عبد الرحمن الجرجاني رواه محمد بن مطرف وعند الهيثم بن أيوب الطالقاني، وعن ابن عباس أخرجه ابن حبان في الضعفاء. وفيه طاهر بن الفضل الحلبي. وهو متهم بالوضع. وله طريق أخرى من رواية الخلفاء للحسن بن علي صاحب السلعة عن إبراهيم بن علي بن مالونة البلخي عن الطالبي عن إبراهيم بن معقل بسنده. وليس فيه غير الطالبي. انتهى.

---

(١) قال محمود: «إن قلت لم عدل عن قوله يعلم السر مع أن المتقدم وأسروا النجوى... إلخ» قال أحمد: وهذا من اتباع القرآن للرأي، نعوذ بالله من ذلك لاسيما رأي ينفي صفات الكمال عن الله تعالى وما الذي دل عليه (السميع العليم) من نفي صفتي السمع والعلم في تفسيرهما بذلك، مع أنه لا يفهم في اللغة سميع إلا بسمع، ولا عليم إلا بعلم، فإنها صفات مشتقات من مصادر لا بد من فهمها وثبوتها أو لا، ثم ثبوت ما اشتقت منه. ومن أنكر السمع والعلم فقد سارع إلى إنكار السميع العليم وهو لا يشعر. وليس غرضنا في هذا المصنف سوى الإيقاظ لما انطوى عليه الكشاف من غوائل البدع ليتجنبها الناظر. وأما الأدلة الكلامية فمن فنها تتلقى. وحاله فيما يورده من أمثال هذه النزعات مختلف: فمرة يوردها عند كلام يتخيل في ظاهره إشعاراً بغرضه، فوظيفتنا معه حينئذٍ أن ننازع في الظهور، ثم قد نترقى إلى بيان ظهوره في عكس مراده أو نصوصيته، حتى لا يحتمل ما يدعيه بوجه ما، وقد يلجئنا الإنصاف إلى تسليم الظهور له؛ فنذكر وجه التأويل الذي يرشد إليه دليل العقل. ومرة يورد نبذاً من هذا الرأي عند كلام لا يحتمله ولا يشعر به بوجه، وغرضه التعسف حتى لا يخلي شيئاً من كلامه من تعصب وإصرار على باطل، فننبه على ذلك أيضاً. وما ذكره عند هذه الآية من قبيل ما يدل النص على عكس مراده فيه، وقد أوضحناه.

قلت: ليس بواجب أن يجيء بالآكد في كل موضع، ولكن يجيء بالوكيد تارة وبالآكد أخرى، كما يجيء بالحسن في موضع وبالأحسن في غيره ليفتنّ الكلام افتنانا، وتجمع الغاية وما دونها، على أن أسلوب تلك الآية خلاف أسلوب هذه، من قبل أنه قدم ههنا أنهم أسروا النجوى، فكأنه أراد أن يقول: إن ربي يعلم ما أسروه، فوضع القول موضع ذلك للمبالغة، وثم قصد وصف ذاته بأن أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض، فهو كقوله علام الغيوب: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ: ٣]، وقرئ: ﴿قَالَ رَبِّي﴾: حكاية لقول رسول الله ـ ﷺ ـ لهم.

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥﴾

أضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام، ثم إلى أنه كلام مفترى من عنده، ثم إلى أنه قول شاعر، وهكذا الباطل لجلج[1]، والمبطل متحير رجاع غير ثابت على قول واحد، ويجوز أن يكون تنزيلاً من الله ـ تعالى ـ لأقوالهم في درج الفساد، وأن قولهم الثاني أفسد من الأول، والثالث أفسد من الثاني؛ وكذلك الرابع من الثالث، ٢/ ٢٠أ صحة التشبيه في قوله: ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾: من حيث أنه في معنى: كما أتى الأولون بالآيات؛ لأنّ إرسال الرسل متضمن للإتيان بالآيات؛ ألا ترى أنه لا فرق بين أن تقول: أرسل محمد ـ ﷺ ؛ وبين قولك: أتى محمد بالمعجزة.

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾: فيه أنهم أعتى من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات وعاهدوا أنهم يؤمنون عندها، فلما جاءتهم نكثوا أو خالفوا، فأهلكهم الله، فلو أعطيناهم ما يقترحون لكانوا أنكث وأنكث.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾

أمرهم أن يستعلموا أهل الذكر وهم أهل الكتاب، حتى يعلموهم أن رسل الله الموحى

---

(١) قوله «الباطل لجلج» في الصحاح: الحق أبلج والباطل لجلج، أي: يردد من غير أن ينفذ. (ع)

إليهم كانوا بشراً ولم يكونوا ملائكة كما اعتقدوا؛ وإنما أحالهم على أولئك لأنهم كانوا يشايعون المشركين في معاداة رسول الله ـ ﷺ ـ، قال الله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦]، فلا يكاذبونهم فيما هم فيه ردء لرسول الله، ﷺ.

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾﴾

﴿لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾: صفة لجسداً، والمعنى: وما جعلنا الأنبياء ـ عليهم السلام ـ قبله ذوي جسد غير طاعمين، ووحد الجسد لإرادة الجنس، كأنه قال: ذوي ضرب من الأجساد، وهذا ردّ لقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧].

فإن قلت: نعم قد ردّ إنكارهم أن يكون الرسول بشراً يأكل ويشرب بما ذكرت، فماذا ردّ من قولهم بقوله: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾؟

قلت: يحتمل أن يقولوا: إنه بشر مثلنا يعيش كما نعيش، ويموت كما نموت، أو يقولوا: هلا كان ملكاً لا يطعم ويخلد: إما معتقدين أن الملائكة لا يموتون، أو مسمين حياتهم المتطاولة وبقاءهم الممتدّ خلوداً.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾

﴿صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾: مثل واختار موسى قومه، والأصل في الوعد: ومن قومه، ومنه: صدقوهم القتال، وصدقني سنّ بكره، ﴿وَمَن نَّشَاءُ﴾: هم المؤمنون ومن في بقائه مصلحة.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿ذِكْرُكُمْ﴾: شرفكم وصيتكم؛ كما قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، أو موعظتكم، أو فيه مكارم الأخلاق التي كنتم تطلبون بها الثناء أو حسن الذكر[1]، كحسن الجوار، والوفاء بالعهد، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، والسخاء، وما أشبه ذلك.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

---

(١) قوله «تطلبون بها الثناء أو حسن الذكر» لعله «وحسن الذكر» بالواو فقط. (ع)
فائدة «حضور» بفتح المهملة وضم المعجمة: قرية بصنعاء قريبة من قرية عبد الرزاق.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾: واردة عن غضب شديد ومنادية على سخط عظيم؛ لأنَّ القصم أفظع الكسر، وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء، بخلاف الفصم، وأراد بالقرية: أهلها؛ ولذلك وصفها بالظلم، وقال: ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾؛ لأن المعنى: أهلكنا قوماً وأنشأنا قوماً آخرين، وعن ابن عباس: أنها «حضور»، وهي و«سحول»: قريتان باليمن، تنسب إليهما الثياب، وفي الحديث: «كفن رسول الله ـ ﷺ ـ في ثوبين سحوليين» (٩٦١)، وروي: «حضوريين» (٩٦٢)؛ بعث الله إليهم نبيًّا فقتلوه، فسلط الله عليهم بختنصر كما سلطه على أهل بيت المقدس فاستأصلهم، وروي: أنهم لما أخذتهم السيوف ونادى مناد من السماء: يا لثارات الأنبياء، ندموا واعترفوا بالخطأ؛ وذلك حين لم ينفعهم الندم، وظاهر الآية على الكثرة، ولعل ابن عباس ذكر «حضور» بأنها إحدى القرى التي أرادها الله بهذه الآية، فلما علموا شدّة عذابنا وبطشتنا علم حسّ ومشاهدة، لم يشكوا فيها، ركضوا من ديارهم، والركض: ضرب الدابة بالرجل؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص: ٤٢]،

---

٩٦١ ـ أخرجه البخاري (٣/ ١٣٥): كتاب الجنائز: باب الثياب البيض للكفن، الحديث (١٢٦٤)، ومسلم (٢/ ٦٤٩): كتاب الجنائز: باب في كفن الميت، الحديث (٤٥/ ٩٤١)، وأبو داود (٣/ ٥٠٦): كتاب الجنائز: باب في الكفن، الحديث (٣١٥١)، والترمذي (٢/ ٢٣٣): كتاب الجنائز: باب في كم كفن النبي الحديث (١٠٠١)، والنسائي (٣٥٤): كتاب الجنائز: باب كفن النبي ﷺ، وابن ماجه (١/ ٤٧٢): كتاب الجنائز: باب في كفن النبي ﷺ الحديث (١٤٦٩)، ومالك (١/ ٢٢٣): كتاب الجنائز: باب في كفن الميت، الحديث (٥)، والشافعي في «الأم» (١/ ٢٦٦)، وأحمد (٦/ ٤٠ ـ ٩٣ ـ ١١٨ ـ ١٢٣ ـ ١٣٢ ـ ١٦٥ ـ ١٩٢)، والبيهقي (٣/ ٣٩٩)، والطيالسي (١٤٥٣)، وعبد الرزاق (٣/ ٤٢١ ـ ٤٢٢)، رقم (١/ ٦١١)، وأبو يعلى (٧/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨) رقم (٤٤٠٢)، وابن حبان (٣٠٣٢ ـ الإحسان)، والبغوي في «شرح السنة» (٣/ ٢٢٥ ـ بتحقيقنا) وابن حزم في «المحلى» (٥/ ١١٨) من حديث عائشة.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

قال الحافظ: متفق عليه عن عائشة بلفظ «كفن رسول الله ـ ﷺ ـ في ثلاثة أثواب سحولية». انتهى.

٩٦٢ ـ عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢/ ٣٦٣) رواه الدارقطني في كتاب العلل من حديث محمد بن إسحاق الصاغاني ثنا أبو الجواب ثنا سفيان الثوري، عن عاصم بن عبيد الله، عن سالم، عن ابن عمر قال: كفن رسول الله ـ ﷺ ـ في ثلاثة أثواب: ثوبين حضوريين وثوب حبرة. انتهى.

وقال: تفرد به الصاغاني عن أبي الجواب. انتهى كلام الزيلعي.

قال الحافظ: أخرجه الدارقطني في العلل من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ بلفظ «ثلاثة أثواب: ثوبين حضوريين وثوب حبرة» وقال: تفرد به محمد بن إسحاق الصاغاني عن أبي الحواب عن الثوري عن عاصم بن عبد الله عن سالم عن أبيه بهذا. انتهى.

فيجوز أن يركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب، ويجوز أن يشبهوا في سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم، فقيل لهم: ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾، والقول محذوف.

فإن قلت: من القائل؟

قلت: يحتمل أن يكون بعض الملائكة أو من ثم من المؤمنين أو يجعلوا خلفاء بأن يقال لهم ذلك وإن لم يقل، أو يقوله رب العزة ويسمعه ملائكته لينفعهم في دينهم، أو يلهمهم ذلك فيحدثوا به نفوسهم، ﴿وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾: من العيش الرافه والحال الناعمة، والإتراف: إبطار النعمة وهي الترفة، ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾: تهكم بهم وتوبيخ، أي: ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسألون غداً عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة، أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم في مجالسكم، وترتبوا في مراتبكم حتى يسألكم عبيدكم وحشمكم ومن تملكون أمره وينفذ فيه أمركم ونهيكم ويقول لكم: بم تأمرون؟ وبماذا ترسمون؟ وكيف نأتي ونذر كعادة المنعمين المخدَّمين؟ أو يسألكم الناس في أنديتكم المعاون في نوازل الخطوب، ويستشيرونكم في المهمات والعوارض ويستشفون بتدابيركم، ويستضيئون بآرائكم، أو يسألكم الوافدون عليكم والطماع ويستمطرون سحائب أكفكم، ويمترون أخلاف[1] معروفكم وأياديكم: إما لأنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رئاء الناس وطلب الثناء، أو كانوا بخلاء؛ فقيل لهم ذلك تهكماً إلى تهكم، وتوبيخاً إلى توبيخ، ﴿تِلْكَ﴾: إشارة إلى يا ويلنا؛ لأنها دعوى، كأنه قيل: فما زالت تلك الدعوى، ﴿دَعْوَاهُمْ﴾: والدعوى بمعنى: الدعوة؛ قال تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٢/ ٢٠ب [يونس: ١٠].

فإن قلت: لم سميت دعوى؟

قلت: لأن المولول كأنه يدعو الويل، فيقول تعالى: يا ويل فهذا وقتك، و(تلك): مرفوع أو منصوب اسماً أو خبراً وكذلك دعواهم، الحصيد: الزرع المحصود، أي: جعلناهم مثل الحصيد، شبههم به في استئصالهم واصطلامهم[2]، كما تقول: جعلناهم رماداً، أي: مثل الرماد، والضمير المنصوب هو الذي كان مبتدأ والمنصوبان بعده كانا خبرين له، فلما دخل عليه جعل نصبها جميعاً على المفعولية.

فإن قلت: كيف ينصب «جعل»: ثلاثة مفاعيل؟

---

(١) قوله «ويمترون أخلاف معروفكم» في الصحاح: الريح تمري السحاب وتمتريه، أي تستدره. وفيه أيضاً: الخلف ـ بالكسر ـ حلمة ضرع الناقة. (ع)

(٢) قوله «واصطلامهم» في الصحاح «الاصطلام» الاستئصال. (ع)

قلت: حكم الاثنين الآخرين حكم الواحد؛ لأن معنى قولك «جعلته حلواً حامضاً»: جعلته جامعاً للطعمين، وكذلك معنى ذلك: جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

أي: وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق مشحونة بضروب البدائع والعجائب، كما تسوّى الجبابرة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم، للهو واللعب؛ وإنما سويناها للفوائد الدينية والحكم الربانية؛ لتكون مطارح افتكار واعتبار واستدلال ونظر لعبادنا، مع ما يتعلق لهم بها من المنافع التي لا تعدّ والمرافق التي لا تحصى، ثم بين أنّ السبب في ترك اتخاذ اللهو واللعب وانتفائه عن أفعالي: هو أن الحكمة صارفة عنه، وإلا فأنا قادر على اتخاذه إن كنت فاعلاً؛ لأني على كل شيء قدير، وقوله: ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾؛ كقوله: ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: من جهة قدرتنا، وقيل: اللهو: الولد بلغة اليمن، وقيل: المرأة، وقيل: من لدنا، أي: من الملائكة لا من الإنس، ردًا لولادة المسيح وعزير.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿بَلْ﴾: إضراب عن اتخاذ اللهو واللعب، وتنزيه منه لذاته، كأنه قال: سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب[1]، بل من عادتنا وموجب حكمتنا واستغنائنا عن القبيح أن نغلب

---

(١) قال محمود: «معناه سبحاننا أن نتخذ لهواً ولعباً... إلخ» قال أحمد: وله تحت قوله واستغنائنا عن القبيح دفين من البدعة والضلالة، ولكنه من الكنوز التي يحمى عليها في نار جهنم، وذلك أن القدرية يوجبون على الله تعالى رعاية المصالح وفعل ما يتوهمونه حسناً بعقولهم، ويظنون أن الحكمة تقتضي ذلك، فلا يستغني الحكيم على زعمهم عن خلق الحسن على وفق الحكمة بخلاف القبيح، فإن الحكمة تقتضي الاستغناء عنه، فإلى ذلك يلوح الزمخشري وما هي إلا نزعة سبق إليها ضلال الفلاسفة. ومن ثم يقولون: ليس في الإمكان أكمل من هذا العالم؛ لأنه لو كان في القدرة أكمل منه وأحسن، ثم لم يخلقه الله تعالى: لكان بخلا ينافي الجود، أو عجزا ينافي القدرة، حتى اتبعهم في ذلك من لا نسميه من أهل الملة ـ عفا الله عنه ـ إن كان هذا مما يدخل تحت ذيل العفو. فالحق أن الله تعالى مستغن عن جميع الأفعال حسنة كانت أو غيرها، مصلحة كانت أو مفسدة. وأن له أن لا يخلق ما يتوهمه القدرية حسناً، وله أن يفعل ما يتوهمونه في الشاهد قبيحاً، وأن كل موجود من فاعل وفعل على الإطلاق فبقدرته وجد، فليس في الوجود إلا الله وصفاته وأفعاله، وهو مستغن عن العالم بأسره، وحسنه وقبحه، فلو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم على أتقى قلب رجل منكم لم يزد ذلك في ملكه شيئاً، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم على أفجر قلب رجل منكم لم ينقص ذلك من ملكه شيئاً، اللهم ألهمنا الحق واستعملنا به.

اللعب بالجد، وندحض الباطل بالحق، واستعار لذلك القذف[1] والدمغ؛ تصويراً لإبطاله وإهداره ومحقه، فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلاً، قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه[2]، ثم قال: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ به مما لا يجوز عليه وعلى حكمته، وقرئ: «فيدمغه»: بالنصب، وهو في ضعف قوله: [من الوافر]

سَأَتْرُكُ مَنْزِلِي لِبَنِي تَمِيمٍ ... وَأَلْحَقُ بِالْحِجَازِ فَأَسْتَرِيحَا[3]

وقرئ فيدمغه.

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾: هم الملائكة، والمراد: أنهم مكرمون، منزلون ـ لكرامتهم عليه ـ منزلة المقرّبين عند الملوك على طريق التمثيل والبيان؛ لشرفهم وفضلهم على جميع خلقه[4].

فإن قلت: الاستحسار مبالغة في الحسور[5]، فكان الأبلغ في وصفهم أن ينفي عنهم أدنى الحسور.

قلت: في الاستحسار بيان أنّ ما هم فيه يوجب غاية الحسور[6] وأقصاه، وأنهم أحقاء لتلك العبادات الباهظة بأن يستحسروا فيما يفعلون، أي: تسبيحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم، لا يتخلله فترة بفراغ أو شغل آخر.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

هذه أم المنقطعة الكائنة بمعنى: بل والهمزة، قد آذنت بالإضراب عما قبلها والإنكار

---

(١) عاد كلامه. قال: «وفي قوله تعالى: «بل نقذف بالحق على الباطل» استعارة حسنة: استعار القذف... إلخ» قال أحمد: ومثل هذا التنبيه من حسناته، ولولا أن السيئة التي قبلها تتعلق بالعقيدة لتلوت: إن الحسنات يذهبن السيئات، والله أعلم.

(٢) قوله «فدمغه» في الصحاح: أي شجه حتى بلغت الشجة الدماغ. (ع)

(٣) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٥٥٧ فراجعه إن شئت اهـ مصححه.

(٤) قوله «لشرفهم وفضلهم على جميع خلقه» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فبعض البشر أفضل. (ع)

(٥) قال محمود: «إن قلت لم استعمل الاستحسار ههنا في النفي... إلخ» قال أحمد: وبمثله أجيب عن قوله تعالى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فانظره.

(٦) قوله «يوجب غاية الحسور» أي الكلال. أفاده الصحاح. (ع)

لما بعدها، والمنكر: هو اتخاذهم، ﴿ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾: الموتى[1]، ولعمري، أن من أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات.

فإن قلت: كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر[2] وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم؟ وكيف وهم أبعد شيء عن هذه الدعوى وذلك أنهم كانوا ـ مع إقرارهم لله ـ عزّ وجل ـ بأنه خالق السموات والأرض: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وبأنه القادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولى ـ منكرين البعث ويقولون: من يحيي العظام وهي رميم، وكان عندهم من قبيل المحال الخارج عن قدرة القادر كثاني القديم، فكيف يدعونه للجماد الذي لا يوصف بالقدرة رأساً؟

قلت: الأمر كما ذكرت، ولكنهم بادّعائهم لها الإلهية، يلزمهم أن يدعوا لها الإنشار؛ لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور، والإنشار من جملة المقدورات، وفيه باب من التهكم بهم والتوبيخ والتجهيل، وإشعار بأنّ ما استبعدوه من الله لا يصح استبعاده؛ لأنّ الإلهية لما صحت صحّ معها الاقتدار على الإبداء والإعادة؛ ونحو قوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، قولك: فلان من مكة أو من المدينة، تريد: مكي أو مدني، ومعنى نسبتها إلى الأرض: الإيذان بأنها الأصنام التي تعبد في الأرض؛ لأنّ الآلهة على ضربين: أرضية، وسماوية؛ ومن ذلك حديث الأمة التي قال لها رسول الله ـ ﷺ ـ: «أَيْنَ رَبُّكِ؟» فأشارت إلى السماء، فقال: «إِنَّهَا مُؤمِنَةٌ» (٩٦٣)؛ لأنه فهم منها أنّ مرادها نفي الآلهة الأرضية التي هي الأصنام، لا إثبات السماء مكاناً لله ـ عزّ وجل ـ ويجوز أن يراد آلهة من جنس الأرض؛ لأنها إمّا أن تنحت من بعض الحجارة، أو تعمل من بعض جواهر الأرض.

---

٩٦٣ ـ أخرجه مسلم (٣/ ٢٣ ـ نووي) كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة حديث (٥٣٧)، وأبو داود (١/ ٣٠٧) كتاب الصلاة، باب تشميت العاطس في الصلاة حديث (٩٣٠) وفي (٢/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠) كتاب الأيمان والنذور، باب في الرقبة المؤمنة حديث (٣٢٨٢)، والنسائي (٣/ ١٤ ـ ١٨) كتاب السهو، باب الكلام في الصلاة، وأحمد في المسند (٥/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨)، والدارمي (١/ ٣٥٣ ـ ٣٥٤) كتاب الصلاة، باب النهي عن الكلام في الصلاة، وابن حبان في صحيحه (١/ ٣٨٣) رقم (١٦٥)، وابن الجارود في المنتقى (٢١٢)، والبيهقي في السنن (١٠/ ٥٧) كتاب الأيمان، باب ما يجوز في عتق الكفارات، والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٩٨) رقم (٩٣٧) و(٩٣٨) كلهم من حديث معاوية بن الحكم.
قال الحافظ: أخرجه مسلم وأبو داود وغيرهما من حديث معاوية بن الحكم السلمي. انتهى.

---

(١) قوله «هم ينشرون الموتى» الإنشار: الإحياء بعد الموت. أفاده الصحاح. (ع)
(٢) قال محمود: «إن قلت كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة... إلخ» قال أحمد: فيكون المنكر عليهم صريح الدعوى ولازمها وهو أبلغ في الإنكار، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فإن قلت: لا بدّ من نكتة في قوله: ﴿هُمْ﴾[1].

قلت: النكتة فيه: إفادة معنى الخصوصية، كأنه قيل: أم اتخذوا آلهة لا يقدر ٢/ ٢١أ على الإنشار إلا هم وحدهم، وقرأ الحسن: ﴿يُنشِرُونَ﴾، وهما لغتان: أنشر الله الموتى، ونشرها، وصفت آلهة بإلا كما توصف بغير، لو قيل: آلهة غير الله.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾

فإن قلت: ما منعك من الرفع على البدل؟

قلت: لأنّ «لو» بمنزلة: «إن» في أنّ الكلام معه موجب، والبدل لا يسوّغ إلا في الكلام غير الموجب؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ [هود: ٨١]؛ وذلك لأنّ أعمّ العامّ يصح نفيه ولا يصح إيجابه، والمعنى: لو كان يتولاهما ويدبر أمرهما آلهة شتى غير الواحد الذي هو فاطرهما، لفسدتا، وفيه دلالة على أمرين:

أحدهما: وجوب ألاّ يكون مدبرهما إلا واحداً.

---

(١) عاد كلامه. قال محمود: «إن قلت لا بد لقولهم (هم) من فائدة. وإلا فالكلام مستقل بدونها... إلخ» قال أحمد: وفي هذه النكتة نظر؛ لأن آلات الحصر مفقودة. وليس ذلك من قبيل: صديقي زيد، فإن المبتدأ في الآية أخص شيء لأنه ضمير. وأيضاً فلا ينبني على ذلك إلزامهم حصر الألوهية فيهم، وتخصيص الانشار بهم، ونفيه عن الله تعالى، إذ هذا لا يناسب السياق، فإنه قال عقبها: لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا. ومعناه: لو كان فيهماإله غير الله شريكا لله لفسدتا، وكان مقتضى ما قال الزمخشري أن يقال: لو لم يكن فيهما آلهة إلا الأصنام لفسدتا. وأما والمتلوّ على خلاف ذلك، فلا وجه لما قال الزمخشري. وعندي أنه يحتمل والله أعلم أن تكون فائدة قولهم (هم) الإيذان بأنهم لم يدعوا لها الإنشار. وأن قوله (وهم ينشرون) استئناف إلزام لهم، وكأنه قال: اتخذوا آلهة مع الله عز وجل فهم إذن يحيون الموتى ضرورة كونهم آلهة، ثم لما انتظم من دعواهم الألوهية للأصنام وإلزامهم على ذلك أن يصفوهم بالقدرة الكاملة على إحياء الموتى، نظم في إبطال هذه الدعوى وما ألزمهم عليها دليل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ وأزيد هذا التقرير وضوحاً فأقول: إن دليل التمانع المغترف من بحر هذه الآية، المقتبس من نورها، يورده المتكلمون على صورة التقسيم، فيقولون: لو وجد مع الله إله آخر، وربما قالوا: لو فرضنا وجود إلهين، فإما أن يكونا جميعاً موصوفين بصفات الكمال اللاتي يندرج فيها القدرة على إحياء الموتى وإنشارهم وغير ذلك من الممكنات، أو لا يتصف بها واحد منهما أو أحدهما دون الآخر، ثم يحيلون جميع الأقسام وهو المسمى برهان الخلف. وأدق الأقسام إبطالاً قسم اتصافهما جميعاً بصفات الكمال، وما عداه فيبادىء الرأي يبطل. فانظر كيف اختار له تعالى إبطال هذا القسم الخفي البطلان، فأوضح فساده في أخصر أسلوب وأوجزه، وأبلغ بديع الكلام ومعجزه. وإنما ينتظم هذا على أن يكون المقصد من قوله (هم ينشرون) إلزامهم ادعاء صفات الألوهية لآلهتهم، حتى يتحرى أنهم اختاروا القسم الذي أبطله الله تعالى، ووكل إبطال ما عداه من الأقسام إلى ما ركبه في عباده من العقول، وكل خطب بعد بطلان هذا القسم جلل، والله الموفق. فتأمل هذا الفصل بعين الإنصاف، تجده أنفس الإنصاف، والله المستعان.

والثاني: ألاّ يكون ذلك الواحد إلا إياه وحده؛ لقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

فإن قلت: لم وجب الأمران؟

قلت: لعلمنا أنّ الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب والتناكر والاختلاف، وعن عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو بن سعيد الأشدق: كان ـ والله أعزّ ـ عليّ من دم ناظري، ولكن لا يجتمع فحلان في شول[1]، وهذا ظاهر، وأما طريقة التمانع فلمتكلمين فيها تجاول وطراد، ولأنّ هذه الأفعال محتاجة إلى تلك الذات المتميزة، بتلك الصفات حتى تثبت وتستقرّ.

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

إذا كانت عادة الملوك والجبابرة ألاّ يسألهم من في مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم؛ تهيباً وإجلالاً، مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم ـ كان ملك الملوك وربّ الأرباب خالقهم ورازقهم أولى بألاّ يسأل عن أفعاله، مع ما علم واستقرّ في العقول من أن ما يفعله كل مفعول بدواعي الحكمة، ولا يجوز عليه الخطأ[2]، ولا فعل القبائح[3]، ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ أي: هم مملوكون مستعبدون خطاؤن، فما خلقهم بأن يقال لهم: لم فعلتم؟ في كل شيء فعلوه.

---

(١) قوله «لا يجتمع فحلان في شول» في الصحاح «الشول» النوق التي خف لبنها وارتفع ضرعها. (ع)

(٢) قال محمود: «لما بين تعالى أنه رب الأرباب وخالقهم ومالكهم، ناسب هذا التنبيه على ما يجب له تعالى على خلقه من الإجلال والإعظام، فإن آحاد الملوك تمنع مهابته أن يسئل عن فعل فعله، فما ظنك بخالق الملوك وربهم. ثم إن آحاد الملوك يجوز عليهم الخطأ والزلل وقد استقر في العقول أن أفعال الله تعالى كلها مفعول بدواعي الحكمة، ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح، قال أحمد: سحقاً لها من لفظة ما أسوأ أدبها مع الله تعالى، أعني قوله: دواعي الحكمة؛ فإن الدواعي والصوارف إنما تستعمل في حق المحدثين، كقولك: هو مما توفر دواعي الناس إليه أو صوارفهم عنه. وقوله: «لا يجوز عليه فعل القبائح» قلت: وهذا من الطراز الأول، ولو أنه في الذيل:

فقد نسيت وما بالعهد من قدم. وبعد ما انقضى دليل التوحيد وإبطال الشرك من سمعك أيها الزمخشري، وقلمك رطب بتقريره، فلم نكصت وانتكست؟ أتقول إن أحداً شريك لله في ملكه يفعل ما يشاء من الأفعال التي تسميها قبائح فتنفيها عن قدرة الله تعالى وإرادته. وما الفرق بين من يشرك لله ملكاً من الملائكة، وبين من يشرك نفسه بربه حتى يقول: إنه يفعل ويخلق لنفسه شاء الله أو لم يشأ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. والقدرية ارتضوا لأنفسهم شر شرك؛ لأن غيرهم أشرك بالملائكة، وهم أشركوا بنفوسهم وبالشياطين والجن وجميع الحيوانات، نعوذ بمالك الملك من مسالك الهلك.

(٣) قوله «ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فهو الفاعل للخير والشر، كما بين في علم التوحيد. (ع)

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾

كرّر: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ﴾؛ استفظاعاً لشأنهم، واستعظاماً لكفرهم، أي: وصفتم الله تعالى بأنّ له شريكاً، فهاتوا برهانكم على ذلك: إمّا من جهة العقل، وإمّا من جهة الوحي، فإنكم لا تجدون كتاباً من كتب الأوّلين إلا وتوحيد الله وتنزيهه عن الأنداد مدعوٌّ إليه، والإشراك به منهي عنه متوعد عليه، أي: ﴿هَٰذَا﴾: الوحي الوارد في معنى توحيد الله ونفي الشركاء عنه، كما ورد عليّ فقد ورد على جميع الأنبياء، فهو ذكر، أي: عظة للذين معي، يعني: أمّته، وذكر للذين من قبلي: يريد أمم الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وقرئ: (ذكرٌ من معي وذكرٌ من قبلي): بالتنوين، ومن مفعول منصوب بالذكر؛ كقوله: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا﴾ [البلد: ١٤ ـ ١٥]، وهو الأصل والإضافة من إضافة المصدر إلى المفعول؛ كقوله: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾﴾ [الروم: ٢ ـ ٣]، وقرئ: (من معي)، و(من قبلي): على من الإضافية في هذه القراءة، وإدخال الجار على «مع»: غريب، والعذر فيه: أنه اسم هو ظرف؛ نحو: قبل، وبعد، وعند، ولدن، وما أشبه ذلك، فدخل عليه: «من» كما يدخل على أخواته، وقرئ: «ذكر معي وذكر قبلي»، كأنه قيل: بل عندهم ما هو أصل الشرّ والفساد كله وهو: الجهل وفقد العلم، وعدم التمييز بين الحق والباطل؛ فمن ثم جاء هذا الإعراض، ومن هناك ورد هذا الإنكار، وقرئ: (الحق): بالرفع، على توسيط التوكيد بين السبب والمسبب، والمعنى: أن إعراضهم بسبب الجهل هو الحق لا الباطل، ويجوز أن يكون المنصوب ـ أيضاً ـ على هذا المعنى، كما تقول: هذا عبد الله الحق لا الباطل.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾

﴿يُوحَىٓ﴾، ونوحي: مشهورتان، وهذه الآية مقرّرة لما سبقها من آي التوحيد.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

نزلت في خزاعة، حيث قالوا: الملائكة بنات الله، نزه ذاته عن ذلك، ثم أخبر عنهم

بأنهم عباد والعبودية تنافي الولادة، إلا أنهم: ﴿مُكْرَمُونَ﴾: مقرّبون عندي مفضلون[1] على سائر العباد[2] لما هم عليه من أحوال وصفات ليست لغيرهم، فذلك هو الذي غرّ منهم من زعم أنهم أولادي ـ تعاليت عن ذلك علواً كبيراً ـ وقرئ: «مكرّمون»، و(لا يسبقونه): بالضم، من: سابقته فسبقته أسبقه، والمعنى: أنهم يتبعون قوله ولا يقولون شيئاً حتى يقوله، فلا يسبق قولهم قوله، والمراد بقولهم، فأنيب اللام مناب الإضافة، أي: لا يتقدّمون قوله بقولهم، كما تقول: سبقت بفرسي فرسه، وكما أنّ قولهم تابع لقوله، فعملهم ـ أيضاً ـ كذلك مبني على أمره: لا يعملون عملاً ما لم يؤمروا به، وجميع ما يأتون ويذرون مما قدّموا وأخروا بعين الله، وهو مجازيهم عليه فلإحاطتهم بذلك يضبطون أنفسهم، ويراعون أحوالهم، ويعمرون أوقاتهم، ومن تحفظهم أنهم لا يجسرون أن يشفعوا إلا لمن ارتضاه الله وأهله للشفاعة في ازدياد الثواب والتعظيم، ثم أنهم مع هذا كله من خشية الله، ﴿مُشْفِقُونَ﴾ أي: متوقعون من أمارة ضعيفة، كائنون على حذر ورقبة[3] لا يأمنون مكر الله، وعن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه رأى جبريل ـ عليه السلام ـ ٢/ ٢١ب ليلة المعراج ساقطاً كالحلس[4] من خشية الله (٩٦٤)، وبعد أن وصف كرامتهم عليه، وقرب

---

٩٦٤ ـ أخرجه البزار في مسنده (١/ ٤٧) (٥٨/ كشف)، والبيهقي في الشعب (١/ ١٧٥) ـ ١٧٦) رقم (١٥٥)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣١٦).
من حديث أنس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بينا أنا قاعد إذ جاء جبريل ﷺ فوكز بين كتفي، فقمت إلى شجرة فيها كوكري الطير فقصد في أحدهما وقعدت في الآخر فسمت وارتفعت حتى سدت الخافقين وأنا أقلب طرفي ولو شئت أن أمس السماء لمسست فالتفت إلى جبريل، كأنه حلس لاطىء عرفت فضل علمه بالله علي، وفتح باب من أبواب السماء ورأيت النور الأعظم، وإذا دون الحجاب رفرفة الدر والياقوت فأوحى إليّ ما شاء أن يوحى.
قال الهيثمي في المجمع (١/ ٨٠): «رواه البزار، والطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح».
قال الحافظ: أخرجه ابن خزيمة من رواية مرة عن ابن مسعود «أن النبي ـ ﷺ ـ ذكر سدرة المنتهى ـ الحديث» قال فوقع جبريل فصار كالحلس الملقى» إسناده قوي. وغلط ابن الجوزي في تضعيفه لمحمد بن ميمون شيخ ابن خزيمة، فإنه ثقة ـ وفي الطبراني الأوسط وتفسير ابن مردويه من رواية =

---

(١) قال محمود: «معناه مكرمون مفضلون على سائر عباد الله» قال أحمد: وهذا التفسير من جعل القرآن تبعاً للرأي، فإنه لما كان يعتقد تفضيل الملائكة على الرسل نزل الآية على معتقده، وليس غرضنا إلا بيان أنه حمل الآية ما لا تحتمله، وتناول منها ما لا تعطيه؛ لأنه ادعى أنهم مكرمون على سائر الخلق لا على بعضهم، فدعواه شاملة ودليله مطلق، والله الموفق.
(٢) قوله «مفضلون على سائر العباد» هذا عند المعتزلة، وبعض البشر أفضل منهم عند أهل السنة. (ع)
(٣) قوله «ورقبة» بالكسر، أي: انتظار. أفاده الصحاح. (ع)
(٤) قوله «كالحلس» بكسر فسكون. أو بفتحتين: كساء رقيق يكون تحت البرذعة أو تحت الرحل. أفاده الصحاح. (ع)

منزلتهم عنده، وأثنى عليهم، وأضاف إليهم تلك الأفعال السنية والأعمال المرضية.

فاجأ بالوعيد الشديد، وأنذر بعذاب جهنم من أشرك منهم إن كان[1] ذلك على سبيل الفرض والتمثيل، مع إحاطة علمه بأنه لا يكون؛ كما قال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، قصد بذلك تفظيع أمر الشرك، وتعظيم شأن التوحيد.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قرئ: (ألم ير): بغير واو، و(رتقا): بفتح التاء، وكلاهما في معنى المفعول، كالخلق والنقض، أي: كانتا مرتوقتين.

فإن قلت: الرتق صالح أن يقع موقع مرتوقتين؛ لأنه مصدر، فما بال الرتق؟

قلت: هو على تقرير موصوف، أي: كانتا شيئاً رتقاً، ومعنى ذلك: أن السماء كانت لاصقة بالأرض لا فضاء بينهما، أو كانت السموات متلاصقات، وكذلك الأرضون لا فرج بينها ففتقها الله وفرّج بينها، وقيل: ففتقناهما بالمطر والنبات بعد ما كانت مصمتة؛ وإنما قيل: كانتا دون كنّ؛ لأن المراد جماعة السموات وجماعة الأرض؛ ونحوه قولهم: لقاحان سوداوان، أي: جماعتان، فعل في المضمر نحو ما فعل في المظهر.

فإن قلت: متى رأوهما رتقاً حتى جاء تقريرهم بذلك؟

قلت: فيه وجهان:

= عبد الكريم الجزري عن عطاء عن جابر رفعه: «مررت في السماء الرابعة بجبريل، وهو كالحلس البالي من خشية الله» إسناده قوي. وروى ابن خزيمة في التوحيد وابن سعد وسعيد بن منصور والبزار والبيهقي في الشعب والدلائل والطبراني في الأوسط، كلهم من رواية أبي قلابة الحارث بن أبي عمران الحوفي عن أنس رفعه «بينما أنا قاعد إذ جاء جبريل. فوكز بين كتفي فقمت إلى شجرة فيها كوكري الطائر فقعد في أحدهما وقعدت في الآخر. فسمت بنا فارتفعت حتى سدت الخافقين وأنا أقلب طرفي. ولو شئت أن أمس لمسست، فالتفت إلى جبريل كأنه حلس لاطىء. عرفت فضل علمه بالله عليّ، وفتح لي باب من أبواب السماء فرأيت النور الأعظم ـ الحديث» قال البزار: لا نعلم رواه عن أبي عمران إلا الحرث بن عبيد وقال غيره: خالفه حماد بن سلمة عن أبي عمران إلا الحرث بن عبيد وقال غيره: خالفه حماد بن سلمة عن أبي عمران إلا الحرث بن عبيد وقال غيره: خالفه حماد بن سلمة عن أبي عمران. فقال: عن محمد بن عمير بن عطاء مرسلاً كذلك أخرجه ابن المبارك في الزهد عن حماد، وفي رواية «فعرفت فضل خشيته على خشيتي وزاد فيه فأوحى الله إليه أنبياً عبداً أم نبياً ملكاً. فأوما إلى جبريل عليه السلام: بل نبياً عبداً». انتهى.

---

(١) قوله «إن كان» لعله: إذ كان. (ع)

أحدهما: أنه وارد في القرآن الذي هو معجزة في نفسه، فقام مقام المرئيّ المشاهد.

والثاني: أن تلاصق الأرض والسماء وتباينهما كلاهما جائز في العقل، فلا بدّ للتباين دون التلاصق من مخصص وهو القديم سبحانه، ﴿وَجَعَلْنَا﴾: لا يخلو أن يتعدى إلى واحد أو اثنين، فإن تعدّى إلى واحد، فالمعنى: خلقنا من الماء كل حيوان؛ كقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥]، أو كأنما خلقناه من الماء؛ لفرط احتياجه إليه وحبه له وقلة صبره عنه؛ كقوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وإن تعدى إلى اثنين فالمعنى: صيرنا كل شيء حيّ؛ بسبب من الماء لا بدّ له منه، و«من» هذا[1]؛ نحو: «من» قوله ـ عليه السلام ـ: «مَا أَنَا مِنْ دِدٌ وَلاَ الدَّدُ مِنِّي»[2] (٩٦٥)، وقرئ: «حيا»، وهو المفعول الثاني، والظرف لغو.

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾

أي كراهة: ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾، وتضطرب، أو لئلا تميد بهم، فحذف «لا»، واللام؛ وإنما جاز حذف: «لا»؛ لعدم الالتباس[3]، كما تزاد لذلك في نحو قوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾

---

٩٦٥ ـ أخرجه الطبراني في الكبير (١٩/٣٤٣ ـ ٣٤٤) رقم (٧٩٤) حدثنا محمد بن أحمد بن نصر أبو جعفر الترمذي ثنا محمد بن عبد الوهاب الأزهري ثنا محمد بن إسماعيل الجعفري ثنا عبد العزيز بن محمد الدراوردي عن عمرو بن أبي عمرو عن المطلب عن معاوية عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لست من دد ولا دد مني».
ورواه البخاري في الأدب رقم (٧٨٥)، والبيهقي في السنن(١٠/٢١٧) كتاب الشهادات، باب من كره كلما لعب الناس به من الحزة وابن عدي في الكامل (٧/٢٦٩٨)، والبزار في مسنده رقم (٢٤٠٢)، وابن أبي حاتم في العلل (٢/٢٦٦) رقم (٢٢٩٥). وقال: سألت أبي وأبا زرعة عن حديث فذكره... وقالا: هكذا رواه أبو زكريا، ورواه الدراوردي عن عمرو عن المطلب بن عبد الله عن معاوية بن أبي سفيان عن النبي ـ ﷺ ـ قلت لأبي زرعة: أيهما عندك أشبه؟ قال: الله أعلم ثم تفكر ساعة، فقال: حديث الدراوردي أشبه، وسألت أبي فقال: حديث معاوية أشبه» اهـ.
قال الحافظ: أخرجه البخاري في الأدب المفرد، والبزار، والطبراني من رواية يحيى بن محمد بن قيس عن عمرو بن أبي عمرو عن أنس. زاد البزار قال يحيى: يقول: «لست من الباطل ولا الباطل مني» قال: لا نعلمه إلا عن أنس من هذا الوجه. واستنكره ابن عدي ليحيى بن محمد بن قيس.
وقال ابن أبي حاتم: رواه الدراوردي عن عمرو عن المطلب عن معاوية نحوه مرفوعاً ونقل عن أبيه وأبي زرعة أن رواية الدراوردي أشبه بالصواب. انتهى.

---

(١) قوله «ومن هذا» لعله: «ومن هنا». (ع)
(٢) قوله عليه السلام: «ماأنا من دد» في الصحاح: الدد: اللهو واللعب. (ع)
(٣) قال محمود: «معناه كراهة أن تميد بهم، أو تكون لا محذوفة لأمن الإلباس» قال أحمد: وأولى من =

[الحديد: ٢٩]، وهذا مذهب الكوفيين الفج: الطريق الواسع.

فإن قلت: في الفجاج معنى: الوصف، فما لها قدمت على السبل ولم تؤخر؛ كما في قوله تعالى: ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾؟ [نوح: ٢٠].

قلت: لم تقدّم وهي صفة، ولكن جعلت حالاً؛ كقوله: [من الوافر]

لِـعَـزَّةَ مُـوحِـشـاً طَـلَـلٌ قَـدِيـمٌ(١) . . . .

فإن قلت: ما الفرق بينهما من جهة المعنى؟

قلت: أحدهما: الإعلام بأنه جعل فيها طرقا واسعة، والثاني: بأنه حين خلقها خلقها على تلك الصفة، هو بيان لما أبهم ثمة، محفوظاً حفظه بالإمساك بقدرته من أن يقع على

= هذين الوجهين أن يكون من قولهم: أعددت هذه الخشبة أن تميل الحائط فأدعمه. قال سيبويه: ومعناه أن أدعم الحائط إذا مال. وإنما قدم ذكر الميل اهتماماً بشأنه. ولأنه أيضاً هو السبب في الإدعام. والإدعام سبب في إعداد الخشبة، فعامل سبب السبب معاملة السبب. وعليه حمل قوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ كذلك ما نحن فيه يكون الأصل: وجعلنا في الأرض رواسي لأجل أن تثبتها إذا مادت بهم «فجعل الميد هو السبب، كما جعل الميل في المثل المذكور سبباً، وصار الكلام: وجعلنا في الأرض رواسي تميد فنثبتها، ثم حذف قوله «فنثبتها» لأمن الإلباس إيجازاً واختصاراً، وهذا التقرير أقرب إلى الواقع مما أول الزمخشري الآية عليه، فإن مقتضى تأويله أن لا تميد الأرض بأهلها؛ لأن الله كره ذلك، ومكروه الله تعالى محال أن يقع، كما أن مراده واجب أن يقع، والمشاهد خلاف ذلك، فكم من زلزلة مادت لها الأرض وكادت تقلب عاليها سافلها. وأما على تقريرنا فالمراد أن الله تعالى يثبت الأرض بالجبال إذا مادت، وهذا لا يأبى وقوع الميد، كما أن قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ لا يأبى وقوع الضلال والنسيان من إحداهما، لكنه ميد يستعقبه التثبيت، وكذلك الواقع من الزلازل إنما هو كاللمحة ثم يثبتها الله تعالى.

(١) لـعـزة مـوحـشـا طـلـل قـديـم عـفـاه كـل أسـحـم مـسـتـديـم

لكثير. والطلل: ما شخص من آثار الدار، والصفة إذا تقدمت على موصوفها كانت حالاً منه كما هنا؛ لأنه مذهب الكوفيين والأخفش أن «طلل» فاعل الظرف قبله وإن لم يعتمد. و«موحشاً» حال منه مقدمة عليه. ويجوز أنه مبتدأ. وموحشاً حال من الضمير المستتر في الظرف. وأجاز سيبويه أنه حال من المبتدأ المؤخر. وعاملها الاستقرار المحذوف، ولا يمتنع عنده اختلاف عامل الحال وعامل صاحبها، خلافاً للجمهور. والموحش: الموقع في الوحشة، ضد المؤنس: الموقع في الأنس. ويجوز أن معناه كثير الوحوش. وعفاه: أهلكه. والأسحم: صفة السحاب، أي: كل أسود دائم الأمطار. ويروى هكذا: [من مجزوء الوافر]

لـمـيـة مـوحـشـا طـلـل يـلـوح كـأنـه خـلـل

وهي بالكسر: جمع خلة، وهي بطانة مخططة تغشى بها جفان السيوف، وسيور تلبس ظهور القسي. ينظر: البيت في ملحق ديوانه ص ٥٣٦، وشرح التصريح ١/ ٣٧٥، وشرح المفصل ٢/ ٦٢، ٦٤، وله أو لذي الرمة في خزانة الأدب ٣/ ٢٠٩، وبلا نسبة في أمالي ابن الحاجب ١/ ٣٠٠.

الأرض ويتزلزل[1]، أو بالشهب عن تسمع الشياطين على سكانه من الملائكة، ﴿عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾ أي: عما وضع الله فيها من الأدلة والعبر بالشمس[2] والقمر وسائر النيرات، ومسايرها وطلوعها وغروبها، على الحساب القويم والترتيب العجيب، الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة، وأيّ جهل أعظم من جهل من أعرض عنها ولم يذهب به وهمه إلى تدبرها، والاعتبار بها، والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها عن عدم، ودبرها ونصبها هذه النصبة، وأودعها ما أودعها مما لا يعرف كنهه إلا هو عزت قدرته ولطف علمه، وقرئ: «عن آيتها»: على التوحيد: اكتفاء بالواحدة في الدلالة على الجنس، أي: هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية، كالاستضاءة بقمريها، والاهتداء بكواكبها، وحياة الأرض والحيوان بأمطارها، وهم عن كونها آية بينة على الخالق: ﴿مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿كُلٌّ﴾: التنوين فيه: عوض من المضاف إليه، أي: كلهم، ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾: والضمير للشمس والقمر، والمراد بهما: جنس الطوالع كل يوم وليلة؛ جعلوها متكاثرة لتكاثر مطالعها، وهو السبب في جمعهما بالشموس والأقمار، وإلا فالشمس واحدة والقمر واحد؛ وإنما جعل الضمير واو العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة.

فإن قلت: الجملة ما محلها؟

قلت: محلها: النصب على الحال من الشمس والقمر.

فإن قلت: كيف استبدّ بهما دون الليل والنهار بنصب الحال عنهما؟

قلت: كما تقول: رأيت زيداً وهنداً متبرجة ونحو ذلك، إذا جئت بصفة يختص بها بعض ما تعلق به العامل، ومنه قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]، أو لا محل لها لاستئنافها.

فإن قلت: لكل واحد من القمرين فلك على حدة، فكيف قيل: جميعهم يسبحون في فلك؟

قلت: هذا كقولهم: «كساهم الأمير حلة وقلدهم سيفاً»، أي: كل واحد منهم، أو كساهم وقلدهم هذين الجنسين، فاكتفى بما يدل على الجنس اختصاراً؛ ولأنّ الغرض الدلالة على الجنس.

---

(١) قوله «ويتزلزل» لعله: أو يتزلزل. (ع)

(٢) قوله «والعبر بالشمس» لعله «كالشمس... إلخ» كعبارة النسفي. (ع)

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ ٢/ ٢٢أ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾

كانوا يقدّرون أنه سيموت فيشمتون بموته، فنفى الله ـ تعالى ـ عنه الشماتة بهذا، أي: قضى الله ألاَّ يخلد في الدنيا بشراً، فلا أنت ولا هم إلا عرضة للموت، فإذا كان الأمر كذلك فإن مت أنت أيبقى هؤلاء؟ وفي معناه قول القائل [من الوافر]:

فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا: أَفِيقُوا سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا[1]

أي: نختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا، وبما يجب فيه الشكر من النعم، وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر؛ وإنما سمى ذلك ابتلاء وهو عالم بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم؛ لأنه في صورة الاختبار، و﴿فِتْنَةً﴾: مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

الذكر يكون بخير وبخلافه، فإذا دلت الحال على أحدهما، أطلق ولم يقيد؛ كقولك للرجل: سمعت فلاناً يذكرك، فإن كان الذاكر صديقاً فهو ثناء، وإن كان عدوّاً فذمّ[2]؛

---

(١) وما أن طِبُّنا جبن ولكن منايانا ودولة آخرينا
فقل للشامتين بنا: أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

لذي الأصبع العدواني. وقيل: لفروة بن مسيك المرادي. وقيل للفرزدق، والطب ـ بالكسر ـ: العادة والعاهة. وأن زائدة، ويمكن أنها لتوكيد النفي، أي: ليست عادتنا أو علتنا الجبن، ولكن تلك المصيبات منايانا المقدرة لنا أو لكن علتنا منايانا. والدولة: النوبة من النصر، لأنه يتداول بين الجيشين. والشامت: المتشفي من غيظه بما أصاب عدوه. وشبههم بالسكارى على سبيل المكنية لعدم تيقظهم للعواقب، وأمرهم بالإفاقة تخييل، وبين ذلك بقوله: سيلقون من الهزيمة مثل ما لقينا، وتكون الدولة لنا عليهم فليفيقوا من سكرتهم.

(٢) قال محمود: «الذكر يكون بخير وبخلافه فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد بقيد القرينة، فإن كان الذاكر صديقاً فهم منه الخير، وإن كان عدواً فهم منه الذم» قال أحمد: وكذلك القول، ومنه قول موسى عليه السلام: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾ معناه أتعيبون الحق لما جاءكم، ثم ابتدأ فقال ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ وإنما لم يجعله معمولاً للقول ومحكياً به، لأنهم قفوا القول بأنه سحر فقالوا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ولم يشككوا أنفسهم، ولا استفهموا، وقد مضى فيه غير هذا، وإنما أطلقوا في قولهم ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ ولم يقولوا: هذا الذي يذكر آلهتكم بكل سوء، لأنهم استفظعوا حكاية ما يقوله النبي من القدح في آلهتهم، رمياً بأنهم لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر، وحاشوها من نقل ذمها مفصلا، فأومئوا إليه بالإشارة المذكورة، كما يتحاشى المؤمن من =

ومنه قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٠]، وقوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ والمعنى: أنهم عاكفون على ذكر آلهتهم بهممهم وما يجب ألاَّ تذكر به، من كونهم شفعاء وشهداء، ويسوءهم أن يذكرها ذاكر بخلاف ذلك، وأما ذكر الله وما يجب أن يذكر به من الوحدانية؛ فهم به كافرون، لا يصدّقون به أصلاً فهم أحق بأن يتخذوا هزؤا منك، فإنك محق وهم مبطلون، وقيل: معنى: (بذكر الرحمن) قولهم: ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة، وقولهم: (وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا)، وقيل: (بذكر الرحمن): بما أنزل عليك من القرآن، والجملة في موضع الحال، أي: يتخذونك هزؤا، وهم على حال هي أصل الهزء والسخرية، وهي الكفر بالله.

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾

كانوا يستعجلون عذاب الله وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾: فأراد نهيهم عن الاستعجال وزجرهم، فقدم أولاً ذم الإنسان على إفراط العجلة، وأنه مطبوع عليها، ثم نهاهم وزجرهم، كأنه قال: ليس ببدع منكم أن تستعجلوا؛ فإنكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: أنه أراد بالإنسان آدم ـ عليه السلام ـ وأنه حين بلغ الروح صدره ولم يتبالغ فيه أراد أن يقوم، وروي أنه لما دخل الروح في عينه نظر إلى ثمار الجنة، ولما دخل جوفه اشتهى الطعام، وقيل: خلقه الله ـ تعالى ـ في آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس، فأسرع في خلقه قبل مغيبها، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أنه النضر بن الحارث، والظاهر: أن المراد الجنس، وقيل: «العجل»: الطين، بلغة حمير؛ وقال شاعرهم: [من البسيط]

. . . . وَالنَّخْلُ يَنْبُتُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْعَجَلِ[1]

والله أعلم بصحته.

= حكاية كلمة الكفر، فيومئ إليها بلفظ يفهم المقصود بطريق التعريض، فسبحان من أضلهم حتى تأدبوا مع الأوثان، وأساؤا الأدب على الرحمن.

(١) النبع في الصخرة الصماء منبته ... والنخل ينبت بين الماء والعجل

يقول: النبع وهو شجر تتخذ منه القسي. في الصخرة الصماء الصلبة لا في غيرها. منبتة أي نباته، والنخل ينبت في الأرض اللينة الريانة، فهو بين الماء والعجل، أي: الطين. وهذه لغة حمير كما قيل. والظاهر أن الشطر الأول تمثيل للصعب البخيل. والثاني للسهل الجواد. ويجوز أن الأول للشجاع. والثاني للجبان: لشدة الأول ورخاوة الثاني.

ينظر: لسان العرب (عجل)، وتهذيب اللغة (١/ ٣٦٩)، وتاج العروس (عجل).

فإن قلت: لم نهاهم عن الاستعجال مع قوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾، أليس هذا من تكليف ما لا يطاق؟

قلت: هذا كما ركب فيه الشهوة وأمره أن يغلبها؛ لأنه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة، وقرئ: «خلق الإنسان».

﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾

جواب ﴿لَوْ﴾: محذوف، و﴿حِينَ﴾: مفعول به ليعلم، أي: لو يعلمون الوقت الذي يستعلمون عنه بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [الملك: ٢٥]، وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من وراء وقدّام، فلا يقدرون على دفعها ومنعها من أنفسهم، ولا يجدون ناصراً ينصرهم؛ لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال، ولكن جهلهم به هو الذي هوّنه عندهم، ويجوز أن يكون ﴿يَعْلَمُ﴾: متروكاً بلا تعدية، بمعنى: لو كان معهم علم ولم يكونوا جاهلين لما كانوا مستعجلين، وحين: منصوب بمضمر، أي: حين ﴿لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾: يعلمون أنهم كانوا على الباطل وينتفي عنهم هذا الجهل العظيم، أي: لا يكفونها، بل تفجؤهم فتغلبهم، يقال: للمغلوب في المحاجة: مبهوت؛ ومنه: «فبهت الذي كفر»، أي: غلب إبراهيم ـ عليه السلام ـ الكافر، وقرأ الأعمش: «يأتيهم»، «فيبهتهم»: على التذكير، والضمير للوعد أو للحين.

فإن قلت: فإلام يرجع الضمير المؤنث في هذه القراءة؟

قلت: إلى النار أو إلى الوعد؛ لأنه في معنى النار وهي التي وعدوها أو على تأويل العدة أو الموعدة، أو إلى الحين؛ لأنه في معنى: الساعة، أو إلى البغتة، وقيل في القراءة الأولى: الضمير للساعة، وقرأ الأعمش: «بغتة»: بفتح الغين، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾: تذكير بإنظاره إياهم وإمهاله، وتفسيح وقت التذكر عليهم، أي: لا يمهلون بعد طول الإمهال.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾

سلى رسول الله ـ ﷺ ـ عن استهزائهم به بأن له في الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أسوة وأن ما يفعلونه به يحيق بهم، كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء ـ عليهم السلام ـ ما فعلوا.

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: من بأسه وعذابه، ﴿بَلْ هُمْ﴾: معرضون عن ذكره لا يخطرونه ببالهم؛ فضلاً أن يخافوا بأسه، حتى إذا رزقوا الكلاءة منه عرفوا من الكالىء وصلحوا

للسؤال عنه، والمراد أنه أمر رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بسؤالهم عن الكالىء، ثم بين أنهم لا يصلحون لذلك؛ لإعراضهم عن ذكر من يكلؤهم.

﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم ٢/ ٢٢ب مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾

ثم أضرب عن ذلك بما في «أم» من معنى: «بل»، وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم﴾: من العذاب تتجاوز منعنا وحفظنا، ثم استأنف فبين أنّ ما ليس بقادر على نصر نفسه ومنعها ولا بمصحوب من الله بالنصر والتأييد، كيف يمنع غيره وينصره؟

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾

ثم قال: بل ما هم فيه من الحفظ والكلاءة إنما هو منا، لا من مانع يمنعهم من إهلاكنا، وما كلأناهم وآباءهم الماضين إلا تمتيعاً لهم بالحياة الدنيا وإمهالاً، كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم، ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ﴾: الأمد، وامتدت بهم أيام الروح والطمأنينة، فحسبوا ألاّ يزالوا على ذلك لا يغلبون ولا ينزع عنهم ثوب أمنهم واستمتاعهم؛ وذلك طمع فارغ وأمد كاذب، ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا﴾: ننقص أرض الكفر ودار الحرب، ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها وردّها دار إسلام.

فإن قلت: أي فائدة في قوله: ﴿نَأْتِي الْأَرْضَ﴾؟

قلت: فيه تصوير ما كان الله يجريه على أيدي المسلمين، وأن عساكرهم وسراياهم كانت تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبة عليها، ناقصة من أطرافها.

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

قرئ: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ﴾، «ولا تسمع الصم»: بالتاء والياء، أي: لا تسمع أنت الصم، ولا يسمع رسول الله ـ ﷺ ـ ولا: يسمع الصم، من أسمع.

فإن قلت: الصم لا يسمعون دعاء المبشر كما لا يسمعون دعاء المنذر، فكيف قيل: ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾؟

قلت: اللام في الصم إشارة إلى هؤلاء المنذرين، كائنة للعهد لا للجنس، والأصل: ولا يسمعون إذا ما ينذرون، فوضع الظاهر موضع المضمر؛ للدلالة على تصامهم وسدّهم

أسماعهم إذا أنذروا، أي: هم على هذه الصفة من الجراءة والجسارة على التصامّ من آيات الإنذار، ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ﴾: من هذا الذي ينذرون به أدنى شيء، لأذعنوا وذلوا، وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم حين تصاموا وأعرضوا، وفي المس والنفحة ثلاث مبالغات؛ لأنّ النفح في معنى القلة والنزارة، يقال: نفحته الدابة وهو رمح يسير[1]، ونفحه بعطية: رضخه، ولبناء المرة.

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾

وصفت ﴿ٱلْمَوَٰزِينَ﴾: بالقسط، وهو العدل؛ مبالغة، كأنها في أنفسها قسط، أو على حذف المضاف، أي: ذوات القسط، واللام في ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: مثلها في قولك: جئته لخمس ليال خلون من الشهر؛ ومنه بيت النابغة [من الطويل]:

تَـوَسَّـمْـتُ آيَـاتٍ لَـهَـا فَـعَـرَفْـتُـهَـا ... لِـسِـتَّـةِ أَعْـوَامٍ وَذَا الْـعَـامُ سَـابِـعُ[2]

وقيل: لأهل يوم القيامة، أي: لأجلهم.

فإن قلت: ما المراد بوضع الموازين؟

قلت: فيه قولان:

أحدهما: إرصاد الحساب السويّ، والجزاء على حسب الأعمال بالعدل والنصفة، من غير أن يظلم عباده مثقال ذرّة، فمثل ذلك بوضع الموازين لتوزن بها الموزونات.

---

(١) قوله «وهو رمح يسير» في الصحاح: رمحه الفرس والبغل والحمار: إذا ضربه برجله. (ع)

(٢) عفا قسم من فرتنا فالفوارع ... فجنبا أريك بالتلاع الدواقع

توسمت آيات لها فعرفتها ... لستة أعوام وذا العام سابع

للنابغة. وعفا: بلي وخلا. وفرتنا اسم محبوبته. وقسم، والفوارع، وأريك: أسماء مواضع. والتلاع: المواضع المرتفعة. والدواقع ـ بالقاف ـ: المقفرة كثيرة التراب. ودقع الرجل دقعًا، كتعب، إذا التصق بالدقعاء وهي الأرض الكثيرة التراب من شدة فقره. وأما بالفاء فهي التي يدفع فيها السيل بكثرة. وتوسمت بالواو تتبعت سماتها وعلاماتها فعرفتها بها. ويروى بالراء، أي: تتبعت رسومها وآثارها فعرفتها، أي: تلك المواضع السابقة. وقوله «لستة أعوام أي مستقبلاً تمام ستة أعوام مضت من عهدها. وهذا العام الحاضر الذي نحن فيه هو السابع. ولو قال: لسبعة أعوام، لأفاد أن السبعة كلها مضت وليس مراداً. فقول بعضهم: إنه كان يكفيه أن يقول: لسبعة أعوام، فعجز عن إتمامه، وكمله بما لا معنى له، لا وجه له إلا عدم التبصر.

ينظر: ديوانه ص ٣١، وخزانة الأدب، ٢/ ٤٥٣، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٤٤٧، والصاحبي في فقه اللغة ص ١١٣، والكتاب ٢/ ٨٦، ولسان العرب (عشر)، والمقاصد النحوية ٣/ ٤٠٦، ٤/ ٤٨٢، أوضح المسالك ٤/ ٢٢٦١ وشرح التصريح ٢/ ٢٧٦، وشرح شواهد الشافية ص ١٠٨، والمقتضب ٤/ ٣٢٢، والمقرب ١/ ١٤٧، الدر المصون ١/ ٢٠١.

والثاني: أنه يضع الموازين الحقيقية ويزن بها الأعمال، عن الحسن: هو ميزان له كفتان ولسان، ويروى: أن داود ـ عليه السلام ـ سأل ربه أن يريه الميزان، فلما رآه غشي عليه، ثم أفاق فقال: يا إلهي، من الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات، فقال: يا داود، إني إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة.

فإن قلت: كيف توزن الأعمال وإنما هي أعراض؟

قلت: فيه قولان:

أحدهما: توزن صحائف الأعمال.

والثاني: تجعل في كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة، وفي كفة السيئات جواهر سود مظلمة، وقرئ: ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ على «كان» التامة؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، وقرأ ابن عباس ومجاهد: ﴿آتَيْنَا بِهَا﴾، وهي مفاعلة من الإتيان، بمعنى: المجازاة والمكافأة؛ لأنهم أتوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء، وقرأ حميد: «أثبنا بها»: من الثواب، وفي حرف أبيّ: «جئنا بها»، وأنث ضمير المثقال؛ لإضافته إلى الحبة؛ كقولهم: ذهبت بعض أصابعه، أي: آتيناهما.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾: وهو التوراة، ﴿وَ﴾ أتينا به، ﴿ضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾، والمعنى: أنه في نفسه ضياء وذكر، أو وآتيناهما بما فيه من الشرائع والمواعظ ضياء وذكراً، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الفرقان: الفتح؛ كقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]، وعن الضحاك: فلق البحر، وعن محمد بن كعب: المخرج من الشبهات، وقرأ ابن عباس: «ضياء»: بغير واو: وهو حال عن الفرقان، والذكر: الموعظة، أو ذكر ما يحتاجون إليه في دينهم ومصالحهم، أو الشرف.

﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

محل ﴿ٱلَّذِينَ﴾: جرّ على الوصفية، أو نصب على المدح، أو رفع عليه.

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾: هو القرآن، وبركته: كثرة منافعه، وغزارة ٢/٢٣أ خيره.

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾

الرشد: الاهتداء لوجوه الصلاح؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦]، وقرئ: «رشده»، والرشد والرشد، كالعدم والعدم، ومعنى إضافته إليه: أنه رشد مثله، وأنه رشد له شأن، ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ ومعنى علمه به: أنه علم منه أحوالاً بديعة وأسراراً عجيبة وصفات قد رضيها وأحمدها، حتى أهله لمخالته ومخالصته؛ وهذا كقولك في خير من الناس: أنا عالم بفلان، فكلامك هذا من الاحتواء على محاسن الأوصاف بمنزل، ﴿إِذْ﴾: إما أن يتعلق بآتينا، أو برشده. أو بمحذوف، أي: اذكر من أوقات رشده هذا الوقت، قوله: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾: تجاهل لهم وتغاب، ليحقر آلهتهم ويصغر شأنها، مع علمه بتعظيمهم وإجلالهم لها، لم ينو للعاكفين مفعولاً، وأجراه مجرى ما لا يتعدى؛ كقولك: فاعلون العكوف لها، أو واقفون لها.

فإن قلت: هلا قيل: عليها عاكفون، كقوله تعالى: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٨]؟

قلت: لو قصد التعدية لعدّاه بصلته التي هي «على».

ما أقبح التقليد والقول المتقبل بغير برهان، وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حين استدرجهم إلى أن قلدوا آباءهم في عبادة التماثيل وعفروا لها جباههم، وهم معتقدون أنهم على شيء، وجادّون في نصرة مذهبهم، ومجادلون لأهل الحق عن باطلهم، وكفى أهل التقليد سبة أنّ عبدة الأصنام منهم، ﴿أَنتُمْ﴾: من التأكيد الذي لا يصح الكلام مع الإخلال به؛ لأنّ العطف على ضمير هو في حكم بعض الفعل ممتنع؛ ونحوه: اسكن أنت وزوجك الجنة، أراد أن المقلدين والمقلدين جميعاً، منخرطون في سلك ضلال لا يخفى على من به أدنى مسكة؛ لاستناد الفريقين إلى غير دليل، بل إلى هوى متبع وشيطان مطاع، لاستبعادهم أن يكون ما هم عليه ضلالاً.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾

بقوا متعجبين من تضليله إياهم، وحسبوا أن ما قاله إنما قاله على وجه المزاح والمداعبة، لا على طريق الجدّ، فقالوا له: هذا الذي جئتنا به، أهو جدّ وحق، أم لعب وهزل؟

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

الضمير في ﴿فَطَرَهُنَّ﴾: للسماوات والأرض، أو للتماثيل، وكونه للتماثيل أدخل في تضليلهم، وأثبت للاحتجاج عليهم، وشهادته على ذلك: إدلاؤه بالحجة عليه، وتصحيحه

بها؛ كما تصحح الدعوى بالشهادة، كأنه قال: وأنا أبين ذلك وأبرهن عليه كما تبين الدعاوى بالبينات؛ لأني لست مثلكم، فأقول ما لا أقدر على إثباته بالحجة، كما لم تقدروا على الاحتجاج لمذهبكم، ولم تزيدوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم.

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

قرأ معاذ بن جبل: «بالله»، وقرئ: «تولوا»: بمعنى: تتولوا، ويقويها قوله: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الصافات: ٩٠].

فإن قلت: ما الفرق بين الباء والتاء؟

قلت: ان الباء هي الأصل، والتاء: بدل من الواو المبدلة، منها، وأن التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب، كأنه تعجب من تسهل الكيد على يده وتأتيه؛ لأن ذلك كان أمراً مقنوطاً منه لصعوبته وتعذره، ولعمري، إن مثله صعب متعذر في كل زمان، خصوصاً في زمن نمروذ مع عتوّه واستكباره وقوة سلطانه وتهالكه على نصرة دينه.

ولكن: [من الطويل]

. . . . إِذَا اللَّهُ سَنَّى عِقْدَ شَيْءٍ تَيَسَّرَا[1]

روي أن آزر خرج به في يوم عيد لهم، فبدءوا ببيت الأصنام فدخلوه وسجدوا لها، ووضعوا بينها طعاماً خرجوا به معهم، وقالوا: إلى أن نرجع بركت الآلهة على طعامنا، فذهبوا وبقي إبراهيم، فنظر إلى الأصنام، وكانت سبعين صنماً مصطفة، وثم صنم عظيم مستقبل الباب، وكان من ذهب في عينيه جوهرتان تضيئان بالليل، فكسرها كلها بفأس في يده، حتى إذا لم يبق إلا الكبير علق الفأس في عنقه، عن قتادة: قال ذلك سرًّا من قومه، وروي: سمعه رجل واحد، ﴿جُذَاذًا﴾: قطاعاً، من الجذ وهو القطع، وقرئ بالكسر والفتح، وقرئ: «جذذا»: جمع جذيذ، وجذذاً: جمع جذة، وإنما استبقى الكبير؛ لأنه غلب في ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه، لما تسامعوه من إنكاره لدينهم وسبه لآلهتهم، فيبكتهم بما أجاب به من قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وعن الكلبي: ﴿إِلَيْهِ﴾: إلى كبيرهم، ومعنى هذا: لعلهم يرجعون إليه كما يرجع إلى العالم في حل المشكلات، فيقولون له: ما لهؤلاء مكسورة ومالك صحيحاً والفأس على عاتقك؟

---

(١) وأعلم علمًا ليس بالظن أنه ... إذا الله سنّى عقد شيء تيسرا

ذكر المصدر توكيداً دافعاً للتجوز في الفعل، ثم بين المراد بقوله «ليس بالظن» ويجوز أنه ذكره توطئة لوصفه بأنه غير ظن. وسنيت الشيء: فككته وسهلته. والعقد: مستعار للصعوبة تصريحاً، أي: إذا سهل الله صعوبة شيء وأزالها، سهل تحصيله أو دفعه إن كان محبوباً أو مكروهاً.

قال: هذا بناء على ظنه بهم، لما جرب وذاق من مكابرتهم لعقولهم واعتقادهم في آلهتهم وتعظيمهم لها، أو قاله مع علمه أنهم لا يرجعون إليه؛ استهزاء بهم واستجهالاً، وأن قياس حال من يسجد له ويؤهله للعبادة أن يرجع إليه ي حل كل مشكل.

فإن قلت: فإذا رجعوا إلى الصنم بمكابرتهم لعقولهم ورسوخ الإشراك في أعراقهم، فأي فائدة دينية في رجوعهم إليه حتى يجعله إبراهيم ـ صلوات الله عليه ـ غرضاً؟

قلت: إذا رجعوا إليه تبين أنه عاجز لا ينفع ولا يضر، وظهر أنهم في عبادته على جهل عظيم.

﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾

أي أن من فعل هذا الكسر والحطم لشديد الظلم، معدود في الظلمة: إمّا لجرأته على الآلهة الحقيقة ٢/٢٣ب عندهم بالتوقير والإعظام، وإمّا لأنهم رأوا إفراطاً في حطمها وتمادياً في الاستهانة بها.

﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

فإن قلت: ما حكم الفعلين بعد ﴿سَمِعْنَا فَتًى﴾، وأي فرق بينهما؟

قلت: هما صفتان لفتى، إلا أن الأوّل وهو: ﴿يَذْكُرُهُمْ﴾: لا بد منه لسمع؛ لأنك لا تقول: سمعت زيداً وتسكت، حتى تذكر شيئاً مما يسمع، وأمّا الثاني: فليس كذلك.

فإن قلت: ﴿إِبْرَٰهِيمُ﴾، ما هو؟

قلت: قيل: هو خبر مبتدأ محذوف، أو منادى، والصحيح: أنه فاعل يقال؛ لأن المراد الاسم لا المسمى، ﴿عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾: في محل الحال، بمعنى: معايناً مشاهداً، أي: بمرأى منهم ومنظر.

فإن قلت: فما معنى: الاستعلاء في على؟

قلت: هو وارد على طريق المثل، أي: يثبت إتيانه في الأعين ويتمكن فيها ثبات الراكب على المركوب وتمكنه منه، ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾: عليه بما سمع منه، وبما فعله أو يحضرون عقوبتنا له؛ روي أنّ الخبر بلغ نمروذ وأشراف قومه، فأمروا بإحضاره.

﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

هذا من معاريض الكلام، ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من

علماء المعاني، والقول فيه أنّ قصد إبراهيم ـ صلوات الله عليه ـ لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الضم؛ وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم، وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتاباً بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط: أأنت كتبت هذا؟ وصاحبك أمّيّ لا يحسن الخطّ ولا يقدر إلا على خرمشة[1] فاسدة، فقلت له: بل كتبته أنت، كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به، لا نفيه عنك وإثباته للأميّ أو المخرمش؛ لأنّ إثباته ـ والأمر دائر بينكما للعاجز منكما ـ استهزاء به وإثبات للقادر، ولقائل أن يقول: غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مرتبة، وكان غيظ كبيرها أكبر وأشدّ لما رأى من زيادة تعظيمهم له، فأسند الفعل إليه؛ لأنه هو الذي تسبب لاستهانته بها وحطمه لها، والفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى الحامل عليه، ويجوز أن يكون حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبهم، كأنه قال لهم: ما تنكرون أن يفعله كبيرهم، فإنّ من حق من يعبد ويدعى إلهاً أن يقدر على هذا وأشدّ منه، ويحكى أنه قال: فعله كبيرهم هذا غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها، وقرأ محمد بن السميفع: فعله كبيرهم، يعني: فلعله، أي: فلعل الفاعل كبيرهم.

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

فلما ألقمهم الحجر وأخذ بمخانقهم، رجعوا إلى أنفسهم، فقالوا: أنتم الظالمون على الحقيقة، لا من ظلمتموه حين قلتم: من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين.

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾

نكسته: قلبته فجعلت أسفله أعلاه، وانتكس: انقلب، أي: استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاءوا بالفكرة الصالحة، ثم انتكسوا وتقلبوا عن تلك الحالة، فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة، وأنّ هؤلاء ـ مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق ـ آلهة معبودة، مضارّة منهم، أو انتكسوا عن كونهم مجادلين لإبراهيم ـ عليه السلام ـ مجادلين عنه، حين نفوا عنها القدرة على النطق، أو قلبوا على رءوسهم حقيقة؛ لفرط إطراقهم خجلاً وانكساراً وانخزالاً مما بهتهم به إبراهيم ـ عليه السلام ـ فما أحاروا جواباً إلا ما هو حجة عليهم، وقرئ: «نكّسوا»: بالتشديد، و«نكسوا»: على لفظ ما سمي فاعله، أي: نكسوا أنفسهم على رءوسهم: قرأ به رضوان بن عبد المعبود.

---

(١) قوله «خرمشة فاسدة» الموجود في الصحاح: الخرش: مثل الخدش. والخراش: سمته. والمخرشة: خشبة يخط بها الخراز. ولم يوجد فيه «خرمشة» بزيادة الميم. (ع)

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿أُفٍّ﴾: صوت إذا صوّت به علم أنّ صاحبه متضجر، أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل، فتأفف بهم، واللام: لبيان المتأفف به، أي: لكم ولآلهتكم هذا التأفف.

﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

أجمعوا رأيهم ـ لما غلبوا ـ بإهلاكه؛ وهكذا المبطل إذا قرعت شبهته بالحجة وافتضح، لم يكن أحد أبغض إليه من المحق، ولم يبق له مفزع إلا مناصبته، كما فعلت قريش برسول الله ـ ﷺ ـ حين عجزوا عن المعارضة، والذي أشار بإحراقه نمروذ، وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: رجل من أعراب العجم، يريد: الأكراد، وروي أنهم حين هموا بإحراقه، حبسوه ثم بنوا بيتاً كالحظيرة بكوثي، وجمعوا شهراً أصناف الخشب الصلاب، حتى إن كانت المرأة لتمرض فتقول: إن عافاني الله لأجمعنّ حطباً لإبراهيم ـ عليه السلام ـ ثم أشعلوا ناراً عظيمة كادت الطير تحترق في الجوّ من وهجها، ثم وضعوه في المنجنيق مقيداً مغلولاً، فرموا به فيها، فناداها جبريل ـ عليه السلام ـ: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾، ويحكى: ما أحرقت منه إلا وثاقه، وقال له جبريل ـ عليه السلام ـ حين رمى به: هل لك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، قال: فسل ربك، قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: إنما نجا بقوله: حسبي الله ونعم الوكيل، وأطل عليه نمروذ من الصرح، فإذا هو في روضة ومعه جليس له من الملائكة، فقال: إني مقرّب إلى إلٰهك، فذبح أربعة آلاف بقرة ٢/ ٢٤أ وكفّ عن إبراهيم، وكان إبراهيم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إذ ذاك ابن ست عشرة سنة، واختاروا المعاقبة بالنار؛ لأنها أهول ما يعاقب به وأفظعه؛ ولذلك جاء: «لاَ يُعَذِّبُ بالنَّارِ إلاَّ خَالِقُهَا» (٩٦٦)؛ ومن ثم

---

٩٦٦ ـ أخرجه البخاري (٦/ ٢٥٨) كتاب الجهاد والسير، باب لا يعذب بعذاب الله حديث (٣٠١٦).
حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا الليث عن بكير عن سليمان بن يسار عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: بعثنا رسول الله ـ ﷺ ـ في بعث فقال: «إن وجدتم فلاناً وفلاناً فأحرقوهما بالنار»، ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ حين أردنا الخروج: «إني أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً، وإن النار لا يعذب بها إلا الله، فإن وجدتموهما فاقتلوهما».
وأبو داود (٢/ ٦١) كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار حديث (٢٦٧٤)، والترمذي (٤/ ١٣٧) كتاب السير، حديث (١٥٧١)، والنسائي في السير كما في (التحفة) (١٠/ ١٠٦)، وابن =

قالوا) ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي: إن كنتم ناصرين آلهتكم نصراً مؤزراً، فاختاروا له أهول المعاقبات، وهي الإحراق بالنار، وإلا فرّطتم في نصرتها؛ ولهذا عظموا النار وتكلفوا في تشهير أمرها وتفخيم شأنها، ولم يألوا جهداً في ذلك، جعلت النار لمطاوعتها فعل الله وإرادته كمأمور أمر بشيء فامتثله، والمعنى: ذات برد وسلام، فبولغ في ذلك، كأن ذاتها برد وسلام، والمراد: ابردي فيسلم منك إبراهيم، أو ابردي برداً غير ضارّ، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: لو لم يقل ذلك، لأهلكته ببردها (٩٦٧).

فإن قلت: كيف بردت النار وهي نار؟

قلت: نزع الله عنها طبعها الذي طبعها عليه من الحرّ والإحراق، وأبقاها على الإضاءة والاشتعال كما كانت، والله على كل شيء قدير، ويجوز أن يدفع بقدرته عن جسم إبراهيم ـ عليه السلام ـ أذى حرّها ويذيقه فيها عكس ذلك، كما يفعل بخزنة جهنم؛ ويدل عليه قوله: ﴿عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾، وأرادوا أن يكيدوه ويمكروا به، فما كانوا إلا مغلوبين مقهورين غالبوه بالجدال فغلبه الله ولقنه بالمبكت، وفزعوا إلى القوّة والجبروت، فنصره وقوّاه.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾

نجيا من العراق إلى الشام، وبركاته الواصلة إلى العالمين: أن أكثر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بعثوا فيه، فانتشرت في العالمين شرائعهم وآثارهم الدينية، وهي البركات الحقيقية، وقيل: بارك الله فيه بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب وطيب عيش الغنيّ والفقير، وعن سفيان أنه خرج إلى الشام فقيل له: إلى أين؟ فقال: إلى بلد يملأ فيه الجراب بدرهم، وقيل: ما من ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التي ببيت المقدس[1]، وروي أنه نزل بفلسطين، ولوط بالمؤتفكة وبينهما مسيرة يوم وليلة.

= حبان في صحيحه (١٢/ ٤٢٥) رقم (٥٦١١)، وأحمد (٢/ ٣٠٧ ـ ٣٣٨ ـ ٤٥٣)، وابن الجارود في المنتقى رقم (١٠٥٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٧١) كتاب السير، باب المنع من إحراق المشركين بالنار بعد الأسر.

قال الحافظ: وفي أبي داود: «إلا رب النار». انتهى.

٩٦٧ ـ ذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٨١)، وعزاه للفريابي وابن أبي حاتم.

---

(١) قلت) جاء مرفوعاً عن أبي بن كعب. أخرجه الطبري عن الحسين عن الحسين عن الفضيل بن موسى عن الحسين بن واقد عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قوله «ونجيناه ولوطًا ـ الآية» قال: الشام، وما من ماء عذب إلا يخرج من تلك الصخرة التي ببيت المقدس وأخرجه ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين بن الجنيد عن أبي عمار أخرجه أيضاً من رواية محمد بن سعد بن سابق عن أبي جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية مقطوعاً لم يذكر أبي بن كعب، بلفظ «هي =

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾

النافلة: ولد الولد، وقيل: سأل إسحاق فأعطيه، وأعطى يعقوب نافلة، أي: زيادة وفضلاً من غير سؤال.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾: فيه أن من صلح ليكون قدوة في دين الله فالهداية محتومة عليه مأمور هو بها من جهة الله، ليس له أن يخل بها ويتثاقل عنها، وأول ذلك أن يهتدي بنفسه؛ لأن الانتفاع بهداه أعم، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدي أميل، ﴿فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أصله: أن تفعل الخيرات، ثم فعلا الخيرات، ثم فعل الخيرات، وكذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿حُكْمًا﴾: حكمة وهو ما يجب فعله، أو فصلاً بين الخصوم، وقيل: هو النبوّة، والقرية سذوم، أي: في أهل رحمتنا، أو في الجنة؛ ومنه الحديث: «هٰذِهِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِهَا مَنْ أَشَاءُ» (٩٦٨).

---

٩٦٨ ـ أخرجه البخاري (٩/ ٥٧٢) كتاب التفسير، باب قوله: «وتقول هل من مزيد» حديث (٤٨٥٠)، ومسلم (٩/ ١٩٨ ـ نووي) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون حديث (٢٨٤٦)، والترمذي (٤/ ٦٩٤) كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في احتجاج الجنة والنار حديث (٢٥٦١)، والنسائي في الكبرى كما في «التحفة» (١٠/ ٣٣٩)، وأحمد (٢/ ٢٧٦ ـ ٣١٤ ـ ٤٥٠)، وابن حبان (١٦/ ٤٨٢) رقم (٧٤٤٧)، والبغوي في شرح السنة (٧/ ٥٦٧) رقم (٤٣١٨ =

= الأرض المقدسة بارك الله فيها للعالمين» ولم يذكر الصخرة. وأخرجه عبد بن حميد عن أبي النضر عن أبي جعفر كذلك. وزاد «لأن كل ماء عذب في الأرض منها يخرج من أصل صخرة بيت المقدس، يهبط من السماء إلى الصخرة ثم يتفرق في الأرض» وأخرجه أبو سعيد النقاش في فوائده من وجه آخر عن الربيع عن أبي العالية. وأخرجه أبو سعيد عبد بن حميد عن أبي النضر نحوه بتمامه وأخرجه الخطيب أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد المقدسي المعروف بابن الواسطي في كتاب فضل بيت المقدس من طريق آدم ابن أبي إياس عن أبي جعفر الرازي، بلفظ في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ قال: من بركتها أن كل ماء عذب يخرج من أصل صخرة بيت المقدس. وأخرج الخطيب المذكور من طريق غالب بن عبد الله عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رفعه «الأنهار كلها والسحاب والبحار والرياح من تحت صخرة بيت المقدس» وغالب متروك.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿مِن قَبْلُ﴾: من قبل هؤلاء المذكورين.

هو «نصر»: الذي مطاوعه «انتصر»، وسمعت هذلياً يدعو على سارق: اللهم، انصرهم منه، أي: اجعلهم منتصرين منه، والكرب: الطوفان وما كان فيه من تكذيب قومه.

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

أي: واذكرهما، وإذ: بدل منهما، والنفش: الانتشار بالليل، وجمع الضمير؛ لأنه أرادهما والمتحاكمين إليهما، وقرئ: «الحكمهما»، والضمير في ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾: للحكومة أو الفتوى، وقرئ: «فأفهمناها»: حكم داود بالغنم لصاحب الحرث، فقال سليمان ـ عليه السلام ـ وهو ابن إحدى عشرة سنة: غير هذا أرفق بالفريقين، فعزم عليه ليحكمنّ، فقال: أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها، والحرث إلى أرباب الشاه يقومون عليه حتى يعود كهيئته يوم أفسد، ثم يترادّان، فقال: القضاء ما قضيت، وأمضى الحكم بذلك.

فإن قلت: أحكما بوحي أم باجتهاد؟

قلت: حكما جميعاً بالوحي، إلا أن حكومة داود نسخت بحكومة سليمان، وقيل: اجتهدا جميعاً، فجاء اجتهاد سليمان ـ عليه السلام ـ أشبه بالصواب.

فإن قلت: ما وجه كل واحدة من الحكومتين؟

قلت: أمّا وجه حكومة داود ـ عليه السلام ـ فلأن الضرر لما وقع بالغنم، سلمت بجنايتها إلى المجني عليه، كما قال أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ في العبد إذا جنى على

= ـ بتحقيقنا).

قال الحافظ: متفق عليه من حديث أبي هريرة رفعه: «تحاجت النار والجنة ـ الحديث» وفيه: قال للجنة: أنت رحمتي أرحم بها من أشاء من عبادي»، ولمسلم من حديث أبي سعيد نحوه.

النفس: يدفعه المولى بذلك أو يفديه، وعند الشافعي ـ رضي الله عنه ـ: يبيعه في ذلك أو يفديه، ولعل قيمة الغنم كانت على قدر النقصان في الحرث، ووجه حكومة سليمان ـ عليه السلام ـ: أنه جعل الانتفاع بالغنم بإزاء ما فات من الانتفاع بالحرث، من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم، وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحرث حتى يزول الضرر والنقصان؛ مثاله ما قال أصحاب الشافعي فيمن غصب عبداً فأبق من يده: ٢/ ٢٤ب أنه يضمن القيمة فينتفع بها المغصوب منه بإزاء ما فوّته الغاصب من منافع العبد، فإذا ظهر ترادًا.

فإن قلت: فلو وقعت هذه الواقعة في شريعتنا، ما حكمها؟

قلت: أبو حنيفة وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ لا يرون فيه ضمانا بالليل أو بالنهار؛ إلا أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد، والشافعي ـ رضي الله عنه ـ يوجب الضمان بالليل، وفي قوله: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾: دليل على أنّ الأصوب كان مع سليمان ـ عليه السلام ـ وفي قوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾: دليل على أنهما جميعاً كانا على الصواب، ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾: حال بمعنى: مسبحات، أو استئناف، كأن قائلاً قال: كيف سخرهنّ؟ فقال: يسبحن، ﴿وَٱلطَّيۡرَۚ﴾: إمّا معطوف على الجبال، أو مفعول معه.

فإن قلت: لم قدمت الجبال على الطير؟

قلت: لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدلّ على القدرة وأدخل في الإعجاز؛ لأنها جماد والطير حيوان، إلا أنه غير ناطق، روي أنه كان يمرّ بالجبال مسبحاً وهي تجاوبه، وقيل: كانت تسير معه حيث سار.

فإن قلت: كيف تنطق الجبال وتسبح؟

قلت: بأن يخلق الله فيها الكلام كما خلقه في الشجرة حين كلم موسى[١]، وجواب آخر: وهو أن يسبح من رآها تسير بتسيير الله، فلما حملت على التسبيح وصفت به، ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي: قادرين على أن نفعل هذا وإن كان عجباً عندكم، وقيل: وكنا نفعل بالأنبياء مثل ذلك.

اللبوس: اللباس، قال [من الرجز]:

---

(١) قوله «كما خلقه في الشجرة حين كلم موسى» هذا عند المعتزلة، بناء على أن كلام الله حادث فلا يقوم بذاته تعالى: أما عند أهل السنة فكلامه تعالى قديم قائم بذاته، ويسمعه موسى عليه السلام بكشف الحجاب عنه. (ع)

والمراد: الدرع؛ قال قتادة: كانت صفائح فأوّل من سردها وحلقها داود، فجمعت الخفة والتحصين، ﴿لِنُحْصِنَكُم﴾: قرئ بالنون والياء والتاء، وتخفيف الصاد وتشديدها؛ فالنون: لله ـ عزّ وجل ـ والتاء: للصنعة أو للبوس على تأويل الدرع، والياء: لداود أو للبوس.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ (٨١) وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ (٨٢)﴾

قرئ: الريح، والرياح، بالرفع والنصب فيهما، فالرفع: على الابتداء، والنصب: على العطف على الجبال.

فإن قلت: وصفت هذه الرياح بالعصف تارة وبالرخاوة أخرى، فما التوفيق بينهما[2]؟

قلت: كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم، فإذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة؛ على ما قال: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢]، فكان جمعها بين الأمرين أن تكون رخاء في نفسها وعاصفة في عملها، مع طاعتها لسليمان وهبوبها على حسب ما يريد ويحتكم: آية إلى آية، ومعجزة إلى معجزة، وقيل: كانت في وقت رخاء، وفي وقت

---

(١) البس لكل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بوسها
لبيهس الملقب بنعامة: قتل له سبعة إخوة، فجعل يلبس القميص مكان السراويل وعكسه. وإذا سئل عن ذلك قال: هذا البيت، حتى إذا أخذت دماء السبعة. واللبوس ـ بالفتح ـ: اللباس. وقسمه في الإبدال منه إلى النعيم والبؤس لعلاقة السببية. ويجوز أنه على حذف المضاف، أي: لبوس نعيمها أو لبوس بؤسها. ووسط إما للتنويع، ولكن القصة تدل على أن ذات اللباس لم تتغير، فيجوز أن اللبوس اسم مصدر وإن كان استعمال فعول بالفتح في المصدر قليلاً، ويجوز أن يروى بالضم، فيكون بمعنى المصدر على الكثير، أي: البس لكل حالة ما يناسبها من اللبس. إما اللبس المستقيم أو المنعكس، والمأمور باللبس ليس معنا، والبؤس بالهمز: الشدة. قلبت همزته هنا واواً لتناسب القافية. وبين لبوس وبوس: الجناس الناقص.

(٢) قال محمود: «إن قلت قد وصفت هذه الريح بأنها رخاء وبأنها عاصف فما وجه ذلك؟ قلت: ما هي إلا جمعتهما وكانت في نفسها رخاء طيبة وفي سرعة حركتها كالعاصف» قال أحمد: وهذا كما ورد وصف عصا موسى تارة بأنها جان وتارة بأنها ثعبان، والجان الرقيق من الحيات والثعبان العظيم الجافي منها. ووجه ذلك أنها جمعت الوصفين؛ فكانت في خفتها وفي سرعة حركتها كالجان، وكانت في عظم خلقها كالثعبان، ففي كل واحد من الريح والعصا على هذا التقرير معجزتان والله سبحانه وتعالى أعلم.

عاصفاً؛ لهبوبها على حكم إرادته، وقد أحاط علمنا بكل شيء فنجري الأشياء كلها على ما يقتضيه علمنا وحكمتنا.

أي: يغوصون له في البحار فيستخرجون الجواهر، ويتجاوزون ذلك إلى الأعمال، والمهن، وبناء المدائن، والقصور، واختراع الصنائع العجيبة؛ كما قال: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ [سبأ: ١٣]، والله حافظهم أن يزيغوا عن أمره، أو يبدلوا أو يغيروا، أو يوجد منهم فساد في الجملة فيما هم مسخرون فيه.

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾

أي: ناداه بأني مسني الضر، وقرئ: «إني» بالكسر، على إضمار القول أو لتضمن النداء معناه، و«الضر» ـ بالفتح ـ: الضرر في كل شيء، وبالضم: الضرر في النفس من مرض وهزال، فرق بين البناءين لافتراق المعنيين، ألطف في السؤال؛ حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب، ويحكى أنّ عجوزاً تعرضت لسليمان بن عبد الملك، فقالت: يا أمير المؤمنين، مشت جرذان[1] بيتي على العصيّ! فقال لها: ألطفت في السؤال، لا جرم لأردنها تثب وثب الفهود وملأ بيتها حبًا، كان أيوب ـ عليه السلام ـ روميًا من ولد إسحاق بن يعقوب ـ عليهم السلام ـ وقد استنبأه الله وبسط عليه الدنيا وكثر أهله وماله: كان له سبعة بنين وسبع بنات، وله أصناف البهائم، وخمسمائة فدان[2] يتبعها خمسمائة عبد، لكل عبد امرأة وولد ونخيل، فابتلاه الله بذهاب ولده ـ انهدم عليهم البيت فهلكوا ـ وبذهاب ماله، وبالمرض في بدنه ثماني عشرة سنة، وعن قتادة: ثلاث عشرة سنة، وعن مقاتل: سبعاً وسبعة أشهر وسبع ساعات، وقالت له امرأته يوماً: لو دعوت الله، فقال لها: كم كانت مدة الرخاء؟ فقالت: ثمانين سنة، فقال: أنا أستحي من الله أن أدعوه، وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي فلما كشف الله عنه أحيا ولده ورزقه مثلهم ونوافل منهم، وروي أن امرأته ولدت بعدُ ستة وعشرين ابناً، أي: لرحمتنا العابدين وأنا نذكرهم بالإحسان لا ننساهم أو رحمة منا لأيوب وتذكرة لغيره من العابدين، ليصبروا كما صبر حتى يثابوا كما أثيب في الدنيا والآخرة.

---

(١) قوله «جرذان بيتي» في الصحاح «الجرذ» ضرب من الفأر. والجمع جرذان. (ع)

(٢) قوله «وخمسمائة فدان» ففي الصحاح «الفدن» القصر. والفدان: آلة الثورين للحرث. (ع)

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾

قيل في ذي الكفل: هو إلياس، وقيل: زكريا، وقيل: يوشع بن نون؛ وكأنه سمي بذلك لأنه ذو الحظ من الله والمجدود[1] على الحقيقة، وقيل: كان له ضعف عمل الأنبياء في زمانه وضعف ثوابهم، وقيل: خمسة من الأنبياء ذوو اسمين: إسرائيل ويعقوب، إلياس وذو الكفل، عيسى والمسيح، يونس وذو النون، محمد وأحمد: صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ ٢/ ١٢٥أ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿ٱلنُّونِ﴾: الحوت، فأضيف إليه، برم[2] بقومه؛ لطول ما ذكرهم فلم يذكروا وأقاموا على كفرهم، فراغمهم وظنّ أنّ ذلك يسوغ؛ حيث لم يفعله إلا غضباً لله وأنفة لدينه وبغضاً للكفر وأهله، وكان عليه أن يصابر وينتظر الإذن من الله في المهاجرة عنهم، فابتلي ببطن الحوت، ومعنى مغاضبته لقومه: أنه أغضبهم بمفارقته، لخوفهم حلول العقاب عليهم عندها، وقرأ أبو شرف: «مغضباً»، قرئ: «نقدر»، و«نقدّر»: مخففاً ومثقلاً، «ويقدر»: بالياء بالتخفيف، و«يُقْدَرَ»، و«يُقَدَّرَ»: على البناء للمفعول مخففاً ومثقلاً، وفسرت بالتضييق عليه، وبتقدير الله عليه عقوبة، وعن ابن عباس: أنه دخل على معاوية فقال: لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها، فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك، قال: وما هي يا معاوية، فقرأ هذه الآية، وقال: أويظن نبيّ الله ألاّ يقدر عليه؟ قال: هذا من القدر لا من القدرة، والمخفف يصح أن يفسر بالقدرة، على معنى: أن لن نعمل فيه قدرتنا، وأن يكون من باب التمثيل، بمعنى: فكانت حاله ممثلة بحال من ظنّ أن لن نقدر عليه في مراغمته قومه، من غير انتظار لأمر الله، ويجوز أن يسبق ذلك إلى وهمه بوسوسة الشيطان، ثم يردعه ويرده بالبرهان، كما يفعل المؤمن المحقق بنزغات الشيطان وما يوسوس إليه في كل وقت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠]، والخطاب للمؤمنين ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، أي: في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت؛ كقوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ [البقرة: ١٧]، وقوله: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾

---

(١) قوله «والمجدود» في الصحاح «الجد» الحظ والبخت. تقول: جددت يا فلان، أي: صرت ذا جد، فأنت جديد حظيظ، ومجدود محظوظ. (ع)

(٢) قوله «برم بقومه» سئمهم وتبرم بهم، أفاده الصحاح. (ع)

[البقرة: ٢٥٧]وقيل: ظلمات بطن الحوت والبحر والليل، وقيل: ابتلع حوته حوتٌ أكبر منه، فحصل في ظلمتي بطني الحوتين وظلمة البحر، أي: بأنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، أو بمعنى: «أي»، عن النبي ـ ﷺ ـ: «مَا مِنْ مَكْرُوبٍ يَدْعُو بِهٰذَا الدُّعَاءِ إِلاَّ اسْتُجِيبَ لَهُ» (٩٦٩)، وعن الحسن: ما نجاه والله إلا إقراره على نفسه بالظلم.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿نُـۨجِى﴾، وننجي، ونجى، والنون لا تدغم في الجيم، ومن تمحل لصحته فجعله فعل وقال نجي النجاء المؤمنين، فأرسل الياء وأسنده إلى مصدره ونصب المؤمنين بالنجاء ـ فمتعسف بادر التعسف.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾

سأل ربه أن يرزقه ولداً يرثه ولا يدعه وحيداً بلا وارث، ثم ردّ أمره إلى الله مستسلماً، فقال: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي: إن لم ترزقني من يرثني فلا أبالي؛ فإنك خير وارث، إصلاح زوجه: أن جعلها صالحة للولادة بعد عقرها، وقيل: تحسين خلقها، وكانت سيئة

---

٩٦٩ ـ أخرجه الترمذي (٥/٥٢٩) كتاب التفسير حديث (٣٥٠٥) حدثنا محمد بن يحيى حدثنا محمد بن يوسف حدثنا يونس بن إسحاق عن إبراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه عن سعد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له».

والنسائي في السنن الكبرى (٦/١٦٨) عمل اليوم والليلة، باب ذكر دعوة ذي النون حديث (١٠٤٩٢) وأحمد في المسند (١/ ١٧٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٠٥)، والبيهقي في الشعب (١/ ٤٣٢) رقم (٦٢٠).

قال الحافظ: أخرجه الترمذي، والحاكم، والبيهقي في الشعب في السبعين من رواية إبراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه عن جده سعد بن أبي وقاص رفعه: دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له، قال الترمذي: رواه بعضهم عن إبراهيم عن جده، لم يقل عن أبيه اهـ، وله متابع أخرجه الحاكم من رواية كثير بن زيد عن المطلب بن حنطب عن مصعب بن سعد عن أبيه، بلفظ: «ألا أخبركم بشيء إذا نزل بأحدكم كرب، أو بلاء فدعا به إلا فرج عنه. قالوا: بلى يا رسول الله. قال: دعوة ذي النون: (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)، وأخرجه الحاكم أيضاً من رواية معمر بن سليمان عن معمر عن الزهري عن أبي أمامة بن سهيل بن حنيف عن سعد. انتهى.

الخلق، الضمير للمذكورين من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ يريد: أنهم ما استحقوا الإجابة إلى طلباتهم إلا لمبادرتهم أبواب الخير، ومسارعتهم في تحصيلها، كما يفعل الراغبون في الأمور الجادون، وقرئ: (رغبا ورهبا): بالإسكان؛ وهو كقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩] ﴿خَٰشِعِينَ﴾: قال الحسن: ذللا لأمر الله، وعن مجاهد: الخشوع: الخوف الدائم في القلب، وقيل: متواضعين، وسئل الأعمش، فقال: أما إني سألت إبراهيم فقال: ألا تدري؟ قلت: أفدني، قال: بينه وبين الله إذا أرخى ستره وأغلق بابه، فلير الله منه خيراً، لعلك ترى أنه أن يأكل خشناً ويلبس خشناً ويطأطيء رأسه.

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾

﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾: إحصاناً كليًا من الحلال والحرام جميعاً؛ كما قالت: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠].

فإن قلت: نفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [مريم: ٧٢]، أي: أحييته، وإذا ثبت ذلك كان قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾: ظاهر الإشكال؛ لأنه يدل على إحياء مريم.

قلت: معناه نفخنا الروح في عيسى فيها[1]، أي: أحييناه في جوفها[2]؛ ونحو ذلك أن يقول الزمار: نفخت في بيت فلان، أي: نفخت في المزمار في بيته، ويجوز أن يراد: وفعلنا النفخ في مريم من جهة روحنا وهو جبريل ـ عليه السلام ـ لأنه نفخ في جيب درعها

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ مؤاخذاً له ما استعمل «نَفَخَ» متعدياً والمحفوظ أنه لا يتعدى فيحتاج في تعديه إلى سماع وغير متعد ستعمله هو في قوله أي نَفَخْتُ في المزمار انتهى ما واخذه به، قلت وسمع نفخ متعدياً ويدل على ذلك ما قرىء في الشاذ «فأنفخها فيكون طائراً» وقد حكاها هو قراءة فكيف ينكرها فعليك بالالتفات إلى ذلك. انتهى. الدر المصون.

(٢) قال محمود: «إن قلت نفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه وحينئذٍ يكون معناه فأحيينا مريم ويشكل إذ ذاك. قلت: معناه فنفخنا الروح في عيسى في مريم أي أحييناه في جوفها انتهى كلامه» قال أحمد: وقد اختار الزمخشري في قوله عز وجل ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ أن تكون الضمائر كلها راجعة إلى موسى. أما الأول فلا إشكال فيه، وأما التابوت إذا قذف في اليم وموسى فيه، فقد قذف موسى في اليم. وكذلك الثالث. واختار غيره عود الضميرين الأخيرين إلى التابوت؛ لأنه فهم من قوله: ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أن المراد التابوت. وأما موسى فلم يقذف في اليم. والزمخشري نزل قذف التابوت في اليم وموسى فيه منزلة قذفه في اليم. وفي هذه الآية مصداق لما اختاره، فإن الله تعالى نزل نفخ الروح في عيسى لكونه في جوف مريم منزلة نفخ الروح في مريم، فعبر بما يفهم ظاهر هذا.

فوصل النفخ إلى جوفها.

فإن قلت: هلا قيل: آيتين كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ [الإسراء: ١٢].

قلت: لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة؛ وهي ولادتها إياه من غير فحل.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾

الأمّة: الملة، و﴿هَٰذِهِۦٓ﴾: إشارة إلى ملة الإسلام، أي: إن ملة الإسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها، يشار إليها ملة واحدة غير مختلفة، ﴿وَأَنَا۠﴾: إلهكم إله واحد، ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾: ونصب الحسن أمّتكم على البدل من هذه، ورفع أمّة خبراً، وعنه رفعهما جميعاً خبرين لهذه، أو نوى للثاني مبتدأ، والخطاب للناس كافة.

﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾

والأصل: وتقطعتم، إلا أن الكلام حرف على الغيبة على طريقة الالتفات، كأنه ينعي عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم، ويقول لهم: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله، والمعنى: جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً، كما يتوزع الجماعة الشيء ويتقسمونه، فيطير لهذا نصيب ولذاك نصيب، تمثيلاً لاختلافهم فيه، وصيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتى، ثم توعدهم بأنّ هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون، فهو محاسبهم ومجازيهم.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾

الكفران: مثل في حرمان الثواب، كما أن الشكر مثل في إعطائه إذا قيل لله: شكور، وقد نفي نفي الجنس؛ ليكون ٢/ ٢٥ب أبلغ من أن يقول: فلا نكفر سعيه، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ أي: نحن كاتبو ذلك السعي ومثبتوه في صحيفة عمله، وما نحن مثبتوه فهو غير ضائع ومثاب عليه صاحبه.

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

استعير الحرام للممتنع وجوده، ومنه قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]، أي: منعهما منهم، وأبى أن يكونا لهم، وقرئ: «حرم، وحرم»: بالفتح والكسر، و«حرّم وحرّم»، ومعنى: ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾: عزمنا على إهلاكها، أو قدرنا إهلاكها،

ومعنى الرجوع: الرجوع من الكفر إلى الإسلام والإنابة، ومجاز الآية: أن قوماً عزم الله على إهلاكهم غير متصوّر أن يرجعوا وينيبوا، إلى أن تقوم القيامة فحينئذٍ يرجعون ويقولون: ﴿يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ يعني: أنهم مطبوع على قلوبهم فلا يزالون على كفرهم ويموتون عليه حتى يروا العذاب، وقرئ: «إنهم»: بالكسر، وحق هذا أن يتم الكلام قبله، فلا بدّ من تقدير محذوف، كأنه قيل: وحرام على قرية أهلكناها ذاك، وهو المذكور في الآية المتقدمة من العمل الصالح والسعي المشكور غير المكفور، ثم علل، فقيل: إنهم لا يرجعون عن الكفر، فكيف لا يمتنع ذلك، والقراءة بالفتح يصح حملها على هذا؟ أي: لأنهم لا يرجعون ولا صلة على الوجه الأوّل.

فإن قلت: بم تعلقت ﴿حَتَّىٰٓ﴾: واقعة غاية له، وأية الثلاث هي؟

قلت: هي متعلقة بحرام، وهي غاية له؛ لأنّ امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم القيامة، وهي (حتى): التي يحكى بعدها الكلام، والكلام المحكيّ: الجملة من الشرط والجزاء، أعني: «إذا»، وما في حيزها، حذف المضاف إلى: ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾، وهو سدّهما، كما حذف المضاف إلى القرية وهو أهلها، وقيل: فتحت؛ كما قيل: (أهلكناها)، وقرئ: «آجوج»، وهما قبيلتان من جنس الإنس، يقال: الناس عشرة أجزاء: تسعة منها يأجوج ومأجوج، ﴿وَهُم﴾: راجع إلى الناس المسوقين إلى المحشر، وقيل: هم يأجوج ومأجوج، يخرجون حين يفتح السدّ، الحدب: النشر[1] من الأرض، وقرأ ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «من كل جدث»، وهو القبر، الثاء: حجازية، والفاء: تميمية، وقرئ: (ينسلون): بضم السين، ونسل وعسل: أسرع.

﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

و﴿إِذَا﴾: هي إذا المفاجأة، وهي تقع في المجازاة سادّة مسدّ الفاء؛ كقوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦]، فإذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد، ولو قيل: إذا هي شاخصة، أو فهي شاخصة، كان سديداً، ﴿هِيَ﴾ضمير مبهم[2]، توضحه الأبصار وتفسره، كما فسر الذين ظلموا وأسروا، ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾: متعلق بمحذوف تقديره: يقولون: يا ويلنا، ويقولون: في موضع الحال من الذين كفروا.

---

(١) قوله «النشر من الأرض» في الصحاح «النشر» المكان المرتفع. (ع)
(٢) قوله «هي ضمير مبهم... إلخ» لعله ضمير (وأسروا) أو لعله واو (وأسرّوا). (ع)

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: يحتمل الأصنام وإبليس وأعوانه؛ لأنهم بطاعتهم لهم واتباعهم خطواتهم في حكم عبدتهم؛ ويصدّقه ما روي: أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، فجلس إليهم، فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله ـ ﷺ ـ حتى أفحمه، ثم تلا عليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾... الآية، فأقبل عبد الله بن الزبعري، فرآهم يتهامسون، فقال: ففيم خوضكم؟ فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله ـ ﷺ ـ فقال عبد الله: أما والله، لو وجدته لخصمته، فدعوه، فقال ابن الزبعري: أأنت قلت ذلك؟ قال: نعم، قال: قد خصمتك ورب الكعبة، أليس اليهود عبدوا عزيراً، والنصارى عبدوا المسيح، وبنو مليح عبدوا الملائكة؟ فقال ـ ﷺ ـ: «بَلْ هُمْ عَبَدُوا الشَّيَاطِينَ الَّتِي أَمَرَتْهُمْ بِذٰلِكَ» (٩٧٠)، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾... الآية [الأنبياء: ١٠١]، يعني: عزيراً، والمسيح، والملائكة، عليهم السلام.

---

٩٧٠ ـ أخرجه ابن جرير في تفسيره (٩/ ٩١) رقم (٢٤٨٣٦) حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق قال: جلس رسول الله ـ ﷺ ـ فيما بلغني يوماً مع الوليد بن المغيرة، فجاء النضر بن الحارث، وكلمه رسول الله ـ ﷺ ـ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم... الآية».
فذكر الحديث طويلاً نحو ما ذكره المصنف، وذكره ابن إسحاق في السيرة (١/ ٤٥١) رقم (٣٤٩)، وعزاه الزيلعي (٢/ ٣٦٩) للواحدي في أسباب النزول ولابن مردويه في تفسيره من حديث ابن عباس.
قال الحافظ: هكذا ذكره الثعلبي ثم البغوي بغير إسناد. لم أجده هكذا إلا ملفقا، فأما صدره ففي الطبراني الصغير في أواخره من حديث ابن عباس قال: دخل رسول الله ـ ﷺ ـ مكة يوم الفتح، وعلى الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً قد شدت أقدامها برصاص ـ الحديث، وأما قوله: «وكانت صناديد قريش فقضية أخرى ذكرها ابن إسحاق في المغازي والطبري من طريقه قال: «جلس رسول الله ـ ﷺ ـ يوماً في المسجد مع رجال من قريش، فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله ـ ﷺ ـ حتى أفحمه ـ فذكر نحو المذكور هنا إلى آخره، وفيه: «إن كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين، وروى ابن مردويه والواحدي من طريق أبي رزين عن أبي يحيى عن ابن عباس قال: «لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾... الآية شق ذلك على قريش، وقالوا: يشتم آلهتنا. فجاء ابن الزبعري، وقال: يا محمد هذا شتم لآلهتنا خاصة، أم لكل من عبد من دون الله، قال: لكل من عبد من دون الله. قال: =

فإن قلت: لم قرنوا بآلهتهم؟

قلت: لأنهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غمّ وحسرة؛ حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم، والنظر إلى وجه العدوّ باب من العذاب، ولأنهم قدّروا، أنهم يستشفعون بهم في الآخرة ويستنفعون بشفاعتهم، فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا، لم يكن شيء أبغض إليهم منهم.

فإن قلت: إذا عنيت بما تعبدون الأصنام، فما معنى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾؟

قلت: إذا كانوا هم وأصنامهم في قرن[1] واحد، جاز أن يقال: لهم زفير، وإن لم يكن الزافرين إلا هم دون الأصنام للتغليب ولعدم الإلباس، والحصب: المحصوب، أي: يحصب بهم في النار، والحصب: الرمي، وقرئ بسكون الصاد؛ وصفاً بالمصدر، وقرئ: «حطب»، و«حضب»: بالضاد متحركاً وساكناً، وعن ابن مسعود: يجعلون في توابيت من نار فلا يسمعون، ويجوز أن يصمهم الله كما يعميهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾: الخصلة المفضلة في الحسن تأنيث الأحسن: إمّا السعادة، وإما البشرى بالثواب، وإما التوفيق للطاعة؛ يروى أنّ عليًا ـ رضي الله عنه ـ قرأ هذه الآية، ثم قال: أنا منهم، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن

= خصمتك ورب الكعبة ـ فذكر نحوه.

تنبيهان:

أحدهما: اشتهر في السنة كثير من علماء العجم وفي كتبهم: أن النبي ـ ﷺ ـ قال في هذه القصة لابن الزبعري: «وما أجهلك بلغة قومك. فإني قلت: وما تعبدون. وهي لما لا يعقل. ولم أقل: ومن تعبدون» اهـ. وهو شيء لا أصل له. ولا يوجد لا مسنداً ولا غير مسند.

الثاني: قال السهيلي اعتراض ابن الزبعري غير لازم، لأن الخطاب مخصوص بقريش وما يعبدون من الأصنام؛ ولذلك أتى بما الواقعة على ما لا يعقل اهـ. وحديث ابن عباس الذي تقدم ينقض عليه هذا التأويل. فإنه صرح بأن المراد كل ما يعبد من دون الله. انتهى.

---

(١) قوله «في قرن» هو حبل يقرن به البعيران. أفاده الصحاح. (ع)

عوف، ثم أقيمت الصلاة، فقام يجرّ رداءه، وهو يقول: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ (٩٧١)، والحسيس: الصوت يحس، والشهوة: طلب النفس اللذة، وقرئ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ﴾: من أحزن، و﴿الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾: قيل: النفخة الأخيرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ ٢/٢٦أ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧]، وعن الحسن: الانصراف إلى النار، وعن الضحاك: حين يطلق على النار، وقيل: حين يذبح الموت على صورة كبش أملح، أي تستقبلهم ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾: مهنئين على أبواب الجنة، ويقولون: هذا وقت ثوابكم الذي وعدكم ربكم قد حلّ.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

العامل في ﴿يَوْمَ نَطْوِي﴾: لا يحزنهم، أو الفزع، أو تتلقاهم، وقرئ: «تطوى السماء»: على البناء للمفعول، ﴿السِّجِلِّ﴾: بوزن العتلّ[1]، والسجل بلفظ الدلو، وروي فيه الكسر: وهو الصحيفة، أي: كما يطوى الطومار للكتابة، أي: ليكتب فيه، أو: لما يكتب فيه؛ لأن الكتاب أصله المصدر كالبناء، ثم يوقع على المكتوب، ومن جمع فمعناه: للمكتوبات، أي: لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة، وقيل: (السجل): ملك يطوى كتب بني آدم إذا رفعت إليه، وقيل: كاتب كان لرسول الله ـ ﷺ ـ والكتاب ـ على هذا ـ اسم الصحيفة المكتوب فيها، ﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾: مفعول نعيد الذي يفسره: ﴿نُّعِيدُهُ﴾، والكاف: مكفوفة بما، والمعنى: نعيد أوّل الخلق كما بدأناه، تشبيهاً للإعادة بالإبداء في تناول القدرة لهما على السواء.

فإن قلت: وما أوّل الخلق حتى يعيده كما بدأه؟

قلت: أوّله إيجاده عن العدم، فكما أوجده أولاً عن عدم، يعيده ثانياً عن عدم[2].

---

٩٧١ ـ عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٦٠٩/٢) «لابن أبي حاتم والثعلبي وابن مردويه في تفاسيرهم». وذكره السيوطي في الدر (٦٠٩/٤).
قال الحافظ: أخرجه ابن أبي حاتم وابن عدي وابن مردويه والثعلبي من رواية ليث بن أبي سليم عن ابن عم النعمان بن بشير وكان من سمار علي قال: تلا علي هذه الآية ـ فذكره. انتهى.

---

(١) قوله «بوزن العتل» العتل: الغليظ الجافي. وقال تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ والعتل أيضاً: الرمح الغليظ ورجل عتل ـ بالكسر ـ: بين العتل، كذا في الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «إن قلت ماأول الخلق حتى يعيده كما بدأه؟ قلت: أول الخلق إيجاده عن العدم، فكما أوجده أولاً عن عدم يعيده ثانياً عن عدم» قلت: هذا الذي ذكره ههنا في المعاد قد عاد به إلى =

فإن قلت: ما بال: (خلق) منكراً؟

قلت: هو كقولك: هو أوّل رجل جاءني، تريد: أوّل الرجال، ولكنك وحدته ونكرته إرادة تفصيلهم رجلا رجلاً، فكذلك معنى: (أوّل خلق): أوّل الخلق، بمعنى: أوّل الخلائق؛ لأن الخلق مصدر لا يجمع، ووجه آخر، وهو: أن ينتصب الكاف بفعل مضمر يفسره: (نعيده)[1]، وما موصولة، أي: نعيد مثل الذي بدأناه نعيده، وأول خلق: ظرف لبدأناه، أي: أوّل ما خلق، أو حال من ضمير الموصول الساقط من اللفظ، الثابت في المعنى، ﴿ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾: مصدر مؤكد؛ لأن قوله: (نعيده): عدة للإعادة، ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي: قادرين على أن نفعل ذلك.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

عن الشعبي ـ رحمة الله عليه ـ: زبور داود ـ عليه السلام ـ والذكر: التوراة، وقيل: اسم لجنس ما أنزل على الأنبياء من الكتب، والذكر: أم الكتاب، يعني: اللوح، أي: يرثها المؤمنون بعد إجلاء الكفار؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف]، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: هي أرض الجنة، وقيل: الأرض المقدّسة، ترثها أمّة محمد، ﷺ.

﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

الإشارة إلى المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعود والوعيد والمواعظ البالغة، والبلاغ: الكفاية وما تبلغ به البغية.

= الحق ورجع عما قاله في سورة مريم، حيث فسر الإعادة بجمع المتفرق خاصة، إلا أنه كدر صفو اعترافه بالحق بتفسيره قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ بالقدرة على الفعل، ولا يلزم على هذا من القدرة على الفعل حصوله، تحويما على أن الموعود به ليس إعادة الأجسام عن عدم وإن كانت القدرة صالحة لذلك، ولكن إعادة الأجزاء على صورها مجتمعة مؤتلفة على ما تقدم له في سورة مريم؛ إلا أن يكون الباعث له على تفسير الفعل بالقدرة: أن الله ذكر ماضياً والإعادة وقوعها مستقبل، فتعين عنده من ثم حمل الفعل على القدرة فقد قارب، ومع ذلك فالحق بقاء الفعل على ظاهره؛ لأن الأفعال المستقبلة التي علم الله وقوعها، كالماضية في التحقق، فمن ثم عبر عن المستقبل بالماضي في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز. والعرض الإيذان بتحقيق وقوعه، والله أعلم.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وفي تقديره تهيئة بدأنا لأن تنصب أول خلق على المفعولية وقطعه عنه من غير ضرورة تدعو إلى ذلك وارتكاب إضمار يعيد مفسراً بـ «نعيده» وهذه عجمة في كتاب الله. انتهى. الدر المصون.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

أرسل ـ ﷺ ـ: ﴿رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾؛ لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه، ومن خالف ولم يتبع؛ فإنما أتى من عند نفسه حيث ضيع نصيبه منها، ومثاله: أن يفجر الله عيناً غديقة، فيسقي ناس زروعهم ومواشيهم بمائها فيفلحوا، ويبقى ناس مفرطون عن السقي فيضيعوا، فالعين المفجرة في نفسها، نعمة من الله ورحمة للفريقين، ولكن الكسلان محنة على نفسه؛ حيث حرمها ما ينفعها، وقيل: كونه رحمة للفجار؛ من حيث أنّ عقوبتهم أخرت بسببه وأمنوا به عذاب الاستئصال.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

إنما: لقصر الحكم على شيء، أو لقصر الشيء على حكم؛ كقولك: إنما زيد قائم؛ وإنما يقوم زيد، وقد اجتمع المثالان في هذه الآية؛ لأن ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ مع فاعله، بمنزلة: إنما يقوم زيد، و﴿أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ بمنزلة: إنما زيد قائم، وفائدة اجتماعهما: الدلالة على أن الوحي إلى رسول الله ـ ﷺ ـ مقصور على استئثار الله بالواحدنية، وفي قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾: أن الوحي الوارد على هذا السنن موجب أن تخلصوا التوحيد لله، وأن تخلعوا الأنداد، وفيه أن صفة الوحدانية يصح أن تكون طريقها السمع، ويجوز أن يكون المعنى: أن الذي يوحى إلي، فتكون «ما» موصولة.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾

آذن: منقول من أذن إذا علم؛ ولكنه كثر استعماله في الجري مجرى الإنذار؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، وقول ابن حلزة [من الخفيف]:

آذنتنا ببينها أسماء[1] . . . .

والمعنى: أنى بعد توليكم وإعراضكم عن قبول ما عرض عليكم من وجوب

---

(١) آذنتنا ببينها أسماء رب ثاوٍ يمل منه الثواء
للحارث بن حلزة مطلع معلقته. وأذن الشيء: علمه بحاسة الأذن، وتوسع فيه حتى صار بمعنى مطلق العلم. وآذنه ـ بالمد ـ: أعلمه. والبين: مصدر بمعنى البعد والفراق. وتقدم أن «أسماء» من الوسامة أي الحسن. والثاوي: المقيم. والملل: السآمة. والثواء: الإقامة. يقول: أعلمتنا لفراقها. ورب سقيم يسأم الناس من إقامته، وهي ليست كذلك. وحذف هذا العلم به من المقام.

توحيد الله وتنزيهه عن الأنداد والشركاء، كرجل بينه وبين أعدائه هدنة فأحس منهم بغدرة، فنبذ إليهم العهد، وشهر النبذ وأشاعه وآذنهم جميعاً بذلك، ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: مستوين في الإعلام به، لم يطوه عن أحد منهم وكاشف كلهم، وقشر العصا عن لحائها[1]، و﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ـه من غلبة المسلمين عليكم كائن لا محالة، ولا بد من أن يلحقكم بذلك الذلة والصغار، وإن كنت لا أدري متى يكون ذلك؛ لأن الله لم يعلمني علمه ولم يطلعني عليه، والله عالم لا يخفى عليه ما تجاهرون به من كلام الطعانين في الإسلام، و﴿تَكْتُمُونَ﴾ـه في صدوركم من الإحن والأحقاد للمسلمين، وهو يجازيكم عليه، وما أدري لعلّ تأخير هذا الموعد امتحان لكم لينظر كيف تعملون، أو تمتيع لكم ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾: ليكون ٢/٢٦ب ذلك حجة عليكم، وليقع الموعد في وقت هو فيه حكمة.

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

قرئ: ﴿قُلْ﴾، و«قال»؛ على حكاية قول رسول الله ـ ﷺ ـ و﴿رَبِّ ٱحْكُم﴾: على الاكتفاء بالكسرة، و«رب احكم»، على الضم و«ربي أحكم». على أفعل التفضيل، وربي أحكم: من الإحكام، أمر باستعجال العذاب لقومه فعذبوا ببدر، ومعنى ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: لاتحابهم وشدد عليهم كما هو حقهم، كما قال: «اشدد وطأتك على مضر» (٩٧٢)، قرئ: (تصفون): بالتاء والياء، كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه، وكانوا

---

٩٧٢ ـ أخرجه البخاري (٢/٥٧٢) كتاب الاستسقاء: باب «دعاء النبي ـ ﷺ ـ واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» رقم (١٠٠٦)، (٦/٤٨١) كتاب أحاديث الأنبياء: باب «قول الله ـ تعالى ـ: ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾ رقم (٣٣٨٦)، (١٠/٥٩٦) كتاب الأدب: باب «تسمية الوليد» رقم (٦٢٠٠)، (١١/١٩٧) كتاب الدعوات: باب «تكرير الدعاء» رقم (٦٣٩٣)، ومسلم (٣/١٩٠ ـ ١٩١) كتاب المساجد ومواضع الصلاة: باب «استحباب القنوت في جميع الصلاة، إذا نزلت بالمسلمين نازلة» رقم (٢٩٤ ـ ٦٧٥/٢٩٤) (٦٧٥/٢٩٥)، وابن حبان (٥/٣٠١) كتاب الصلاة باب «صفة الصلاة» رقم (١٩٦٩ ـ ١٩٧٢)، باب: «فضل في القنوت» رقم (١٩٨٦)، وأبو داود (١/٤٥٧) كتاب الصلاة: باب «القنوت في الصلاة» رقم (١٤٤٢)، وأحمد (٢/٢٣٩ ـ ٢٥٥ ـ ٢٧١ ـ ٣٩٦ ـ ٤٠٧ ـ ٤١٨ ـ ٥٠٢ ـ ٥٢١)، وابن ماجه (١/٣٩٤) كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها: باب «ما جاء في القنوت في صلاة الفجر» رقم (١٢٤٤)، والبيهقي (٢/١٩٧ ـ ١٩٨ ـ ٢٠٠) كتاب الصلاة: باب «القنوت في الصلاة عند النازلة»، (٢/٢٠٧) كتاب الصلاة: باب «الدليل على أنه يقنت بعد الركوع»، (٢/٢٤٤) كتاب الصلاة: باب «ما يجوز من الدعاء في الصلاة»، (٩/١٤) كتاب السير: باب «ما جاء في عذر المستضعفين»، والدارقطني (٢/٣٨) كتاب الوتر وأنه ليس بفرض ـ والوتر على البعير: باب «صفة القنوت وبيان موضعه» رقم (٧)، والحميدي (٢/٤١٩) =

---

(١) قوله «لحائها» في الصحاح: اللحاء ـ ممدود ـ قشر الشجر. (ع)

يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة، فكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم، ونصر رسول الله ـ ﷺ ـ والمؤمنين، وخذلهم.

عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَنْ قَرَأَ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ، حَاسَبَهُ اللَّهُ حِسَاباً يَسِيراً، وَصَافَحَهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ كُلُّ نَبِيٍّ ذُكِرَ ٱسْمُهُ فِي ٱلْقُرْآنِ» (٩٧٣).

= رقم (٩٣٩)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١٧٦/٤).

قال الحافظ: متفق عليه من حديث أبي هريرة في قصة القنوت في الصبح. انتهى.

٩٧٣ ـ تقدم برقم (٣٤٦).

قال الحافظ: أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب. انتهى.

سُورَةُ الحَجِّ

مَكِّيَّةٌ، غَيرَ سِتِّ آيَاتٍ، وَهِيَ:

هَذَانِ خَصْمَانِ... إِلَىٰ قَوْلِهِ... إِلَىٰ صِرَاطِ الحَمِيدِ

وَهِيَ ثَمَانٍ وَسَبْعُونَ آيَةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾

الزلزلة: شدّة التحريك والإزعاج، وأن يضاعف زليل الأشياء[1] عن مقارّها ومراكزها ولا تخلو ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ من أن تكون على تقدير الفاعلة لها، كأنها هي التي تزلزل الأشياء على المجاز الحكمي، فتكون الزلزلة مصدراً مضافاً إلى فاعله، أو على تقدير المفعول فيها على طريقة الاتساع في الظرف وإجرائه مجرى المفعول به؛ كقوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣]، وهي الزلزلة المذكورة في قوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾ [الزلزلة: ١]، واختلف في وقتها؛ فعن الحسن: أنها تكون يوم القيامة، وعن علقمة والشعبي: عند طلوع الشمس من مغربها، أمر بني آدم بالتقوى، ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة، ووصفها بأهول صفة؛ لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم ويتصوّروها بعقولهم، حتى يبقوا على أنفسهم ويرحموها من شدائد ذلك اليوم، بامتثال ما أمرهم به ربهم من التردى بلباس التقوى، الذي لا يؤمنهم من تلك الأفزاع إلا أن يترددوا به، وروي أنّ هاتين الآيتين نزلتا ليلاً في غزوة بني المصطلق، فقرأهما رسول الله ـ ﷺ ـ فلم ير أكثر باكياً من تلك الليلة، فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب، ولم يضربوا الخيام وقت النزول، ولم يطبخوا قدراً، وكانوا من بين حزين وباك ومفكر (٩٧٤)

---

٩٧٤ ـ ذكره البغوي (٣/ ٢٧٤) قال: «روي عن عمران بن حصين وأبي سعيد الخدري وغيرهما أن هاتين الآيتين نزلتا في غزوة بني المصطلق ليلاً، فنادى منادى رسول الله ـ ﷺ ـ فقرأها عليهم فلم ير أكثر

---

(١) قوله «وأن يضاعف زليل الأشياء» أي يكرر انحراف الأشياء وتزحزحها عن مواضعها. وفي الصحاح: تقول زللت يا فلان ـ بالفتح ـ تزل زليلاً: إذا زل في طين أو منطق. (ع)

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾: منصوب بتذهل، والضمير للزلزلة، وقرئ: تذهل كل مرضعة، على البناء للمفعول: وتذهل كل مرضعة، أي: تذهلها الزلزلة، والذهول: الذهاب عن الأمر مع دهشة.

فإن قلت: لم قيل: ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ دون مرضع؟

قلت: المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصَّبيّ، والمرضع: التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به[1]، فقيل: مرضعة؛ ليدل على

= باكياً من تلك الليلة... فذكر حديثاً طويلاً.

قال الزيلعي (٢/ ٣٧٧): غريب بهذا اللفظ اهـ.
وأخرج الترمذي (٥/ ٣٢٣) كتاب التفسير باب ومن سورة الحج حديث (٣١٦٩) من حديث الحسن عن عمران بن حصين قال: كنا مع النبي ـ ﷺ ـ في سفر فتفاوت بين أصحابه في السير، فرفع رسول الله ـ ﷺ ـ صوته بهاتين الآيتين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾، فلما سمع ذلك أصحابه حثوا المطي، وعرفوا أنه عند قول يقوله...». فذكر حديثاً طويلاً.
ورواه أيضاً النسائي في التفسير (٢/ ٨٢) رقم (٣٦٠)، وأحمد في المسند (٤/ ٤٣٢)، (٤/ ٤٣٥)، والحاكم في المستدرك (١/ ٢٨)، (٢/ ٢٣٣ ـ ٣٨٥)، (٤/ ٥٦٧).
قال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأكثر أئمة البصرة على أن الحسن قد سمع من عمران، غير أن الشيخين لم يخرجاه» اهـ. ووافقه الذهبي.
قال الحافظ: هكذا ذكره الثعلبي والبغوي. قالا: روي عن عمران بن حصين وأبي سعيد الخدري وغيرهما أن هاتين الآيتين نزلتا ليلاً في غزوة بني المصطلق إلى آخره، قلت: وهو ملفق من حديثيه المذكورين. وثالثهما ابن عباس فيما رواه ابن إسحاق عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: «بينما رسول الله ـ ﷺ ـ في مسيره في غزوة بني المصطلق إذ نزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ﴾ ـ إلى ـ ﴿شَدِيدٌ﴾، فوقف على ناقته، ورفع صوته ـ الحديث، ورواه الترمذي والنسائي والحاكم من طريق الحسن عن عمران بن حصين: «أن رسول الله ـ ﷺ ـ وهو في بعض أسفاره وقد تقارب من أصحابه السير ورفع بهاتين صوته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ﴾ ـ إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾، فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطيّ، وعرفوا أنه عنده قول يقول: فلما التفوا حوله قال: أتدرون أي يوم ذلك؟ يوم ينادي آدم ـ الحديث. وفيه: فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة. فلما رأى ذلك قال: اعلموا وأبشروا ـ الحديث. وأما آخره فلم أره. انتهى.

---

(١) قال محمود: «يقال مرضع على النسب ومرضعة على أصل اسم الفاعل» قال أحمد: والفرق بينهما أن وروده على النسب لا يلاحظ فيه حدوث الصفة المشتق منها، ولكن مقتضاه أنه موصوف بها، =

أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها، نزعته عن فيه، لما يلحقها من الدهشة، ﴿عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾: عن إرضاعها، أو عن الذي أرضعته وهو الطفل، وعن الحسن: تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام، وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام، قرئ: ﴿وَتَرَى﴾: بالضم من أريتك قائماً، أو رؤيتك قائماً[1]، و﴿ٱلنَّاسُ﴾: منصوب ومرفوع، والنصب ظاهر، ومن رفع جعل الناس اسم ترى، وأنثه على تأويل الجماعة، وقرئ: «سكرى»، و«بسكرى»، وهو نظير: جوعي وعطشى، في جوعان وعطشان، وسكارى وبسكارى؛ نحو: كسالى وعجالى، وعن الأعمش: «سكرى»، و«بسكرى»: بالضم، وهو غريب، والمعنى: وتراهم سكارى على التشبيه، وما هم بسكارى على التحقيق[2]؛ ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم، وطير تمييزهم، وردهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه، وقيل وتراهم سكارى من الخوف، وما هم بسكارى من الشراب.

فإن قلت: لم قيل أولاً: ترون، ثم قيل: ترى، على الإفراد؟

قلت: لأنّ الرؤية أوّلاً علقت بالزلزلة، فجعل الناس جميعاً رائين لها، وهي معلقة أخيراً بكون الناس على حال السكر، لا بد أن يجعل كل واحد منهم رائيا لسائرهم.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾

قيل: نزلت في النضر بن الحارث، وكان جدلاً يقول: الملائكة بنات الله والقرآن:

= وعلى غير النسب يلاحظ حدوث الفعل وخروج الصفة عليه، وكذلك هو في الآية لقوله ﴿عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ فأخرج الصفة على الفعل، وألحقه التاء.

(١) قوله «أو رؤيتك قائما» لعله: أو رؤيت قائما. (ع)

(٢) قال محمود: «وقوله وترى الناس سكارى وما هم بسكارى: أثبت لهم أولا السكر المجازي، ثم نفى عنهم السكر الحقيقي» قال أحمد: والعلماء يقولون: إن من أدلة المجاز صدق نقيضه، كقولك: زيد حمار، إذا وصفته بالبلادة، ثم يصدق أن تقول: وما هو بحمار، فتنفي عنه الحقيقة، فكذلك الآية بعد أن أثبت السكر المجازى نفى الحقيقة أبلغ نفي مؤكد بالباء. والسر في تأكيده: التنبيه على أن هذا السكر الذي هو بهم في تلك الحالة ليس من المعهود في شيء، وإنما هو أمر لم يعهدوا قبله مثله، والاستدراك بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ راجع إلى قوله: ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ وكأنه تعليل لإثبات السكر المجازي، كأنه قيل: إذا لم يكونوا سكارى من الخمر وهو السكر المعهود، فما هذا السكر الغريب وما سببه؟ فقال: سببه شدة عذاب الله تعالى، ونقل عن جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه أنه قال: هو الوقت الذي يقول كل من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيه «نفسي نفسي».

أساطير الأولين، والله غير قادر على إحياء من بلى وصار تراباً، وهي عامة في كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله وما لا يجوز من الصفات والأفعال، ولا يرجع إلى علم ولا يعضّ فيه بضرس قاطع، وليس فيه اتباع للبرهان ولا نزول على النصفة، فهو يخبط خبط عشواء، غير فارق بين الحق والباطل، ﴿وَيَتَّبِعُ﴾: في ذلك خطوات ﴿كُلَّ شَيْطَٰنٍ﴾: عات، علم من حاله وظهر وتبين أنه من جعله وليًا له لم تثمر له ولايته إلا الإضلال عن طريق الجنة والهداية إلى النار ٢/١٢٧أ، وما أرى رؤساء أهل الأهواء[١] والبدع والحشوية المتلقبين بالإمامة في دين الله إلا داخلين تحت كل هذا دخولاً أوليًا، بل هم أشدّ الشياطين إضلالاً وأقطعهم لطريق الحق؛ حيث دوّنوا الضلال تدويناً، ولقنوه أشياعهم تلقيناً، وكأنهم ساطوه بلحومهم[٢] ودمائهم؛ وإياهم عنى من قال [من الطويل]:

وَيَـارُبَّ مَـقْـفُـوِّ الْـخُـطَـا بَـيْـنَ قَـوْمِـهِ ... طَـرِيـقُ نَـجَـاةٍ عِـنْـدَهُـمْ مُـسْـتَـوٍ نَـهْـجُ

وَلَـوْ قَـرَءُوا فِـي الـلَّـوْحِ مَـا خُـطَّ فِـيـهِ مِـنْ ... بَـيَـانِ اَعْـوِجَـاجٍ فِـي طَـرِيـقَـتِـهِ عَـجُّـوا[٣]

اللهم ثبتنا على المعتقد الصحيح الذي رضيته لملائكتك في سمواتك، وأنبيائك في أرضك، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، والكتبة عليه مثل، أي: كأنما كتب إضلال من يتولاه عليه ورقم به لظهور ذلك في حاله، وقرئ: «أنه»، «فأنه»: بالفتح والكسر، فمن فتح فلأن الأول: فاعل كتب، والثاني: عطف عليه[٤]، ومن كسر فعلى حكاية المكتوب كما هو؛ كأنما[٥] كتب عليه هذا الكلام، كما تقول: كتبت: إنّ الله هو الغني الحميد، أو على تقدير: قيل، أو على أن كتب فيه معنى القول.

---

(١) قوله «رؤساء أهل الأهواء» إن كان مراده أهل السنة كما هو عادته في الكتابة من التشنيع عليهم، فينبغي مطالبته بالفرق بينهم وبين المعتزلة، حتى استحقوا التشنيع دونهم. (ع)

(٢) قوله «وكأنهم ساطوه بلحومهم» أي خلطوه. (ع)

(٣) يا: للتنبيه أو للنداء. والمنادى محذوف. والمقفو: المتبوع. والخطا: جمع خطوة، مستعارة للأفعال بجامع التبعية في كل، وكذلك الطريق مستعار للقفو من حيث اتباعه فيها ودوامه عليها. مستو: مستقيم. والنهج والمنهج والمنهاج: الطريق الواضح. والاعوجاج مستعار للبس وللكذب. وعجوا: ضجوا وصاحوا.

(٤) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وهذا لا يجوز لأنك إذا جعلت فأنه عطفاً على أنه بقيت أنه بلا استيفاء خبر لأنّ مَنْ تولاه مَنْ فيه مبتدأه فإنْ قدرتها موصولة فلا خبر لها حتى يستقل خبراً، لأنه وإنْ جعلتها شرطية فلا جواب لها إذ جعلت فإنّه عطفاً على أنّه، قلت: وقد ذهب ابن عطية إلى مثل قول الزمخشري فإنّه قال: وأنّه في موضع رفع على المفعول الذي لم يسم فاعله، وأما الثانية عطف على الأولى مؤكد ومثلها وهذا رد واضح. انتهى. الدر المصون.

(٥) قوله «هو كأنما» لعله: أي كأنما. (ع)

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾

قرأ الحسن: (من البعث): بالتحريك، ونظيره: الجلب والطرد، في الجلب والطرد؛ كأنه قيل: إن ارتبتم في البعث فمزيل ريبكم أن تنظروا في بدء خلقكم، والعلقة: قطعة الدم الجامدة، والمضغة: اللحمة الصغيرة قدر ما يمضغ، والمخلقة: المسواة الملساء من النقصان والعيب، يقال: خلق السواك والعود: إذا سواه وملسه، من قولهم: صخرة خلقاء، وإذا كانت ملساة؛ كأن الله ـ تعالى ـ يخلق المضغ متفاوتة: منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب، ومنها ما هو على عكس ذلك، فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم، وصورهم وطولهم وقصرهم، وتمامهم ونقصانهم؛ وإنما نقلناكم من حال إلى حال ومن خلقة إلى خلقة: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾: بهذا التدريج قدرتنا وحكمتنا، وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً، ثم من نطفة ثانياً ولا تناسب بين الماء والتراب، وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر، ثم يجعل العلقة مضغة، والمضغة عظاما: قدر على إعادة ما أبدأه، بل هذا أدخل في القدرة من تلك، وأهون في القياس، وورود الفعل غير معدي إلى المبين: إعلام بأن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وعلمه ما لا يكتنهه الذكر ولا يحيط به الوصف، وقرأ ابن أبي عبلة: «ليبين لكم»، و«يقرّ»: بالياء، وقرئ: «ونقرّ»، و«نخرجكم»: بالنون والنصب، ، و«يقرّ»، و«يخرجكم»، و«يقرّ»، و«يخرجكم»: بالنصب والرفع، وعن يعقوب: «نقرّ»: بالنون وضم القاف، من قرّ الماء إذا صبه، فالقراءة بالرفع إخبار بأنه يقرّ، ﴿فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾: أن يقرّه من ذلك، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: وهو وقت الوضع آخر ستة أشهر، أو تسعة، أو سنتين، أو أربع، أو كما شاء وقدّر، وما لم يشأ إقراره مجته الأرحام أو أسقطته، والقراءة بالنصب: تعليل معطوف على تعليل، ومعناه: خلقناكم مدرجين هذا التدريج لغرضين، أحدهما: أن نبين قدرتنا، والثاني: أن نقر في الأرحام من نقرّ، حتى يولدوا وينشئوا ويبلغوا حد التكليف فأكلفهم؛ ويعضد هذه القراءة قوله: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ [الحج: ٥]، وحده؛ لأن الغرض الدلالة على الجنس، ويحتمل: نخرج كل واحد منكم طفلاً، الأشد: كمال القوة والعقل والتمييز، وهو من ألفاظ الجموع التي لم

يستعمل لها واحد كالأسدّة[1] والقتود والأباطيل وغير ذلك، وكأنها شدّة في غير شيء واحد، فبينت لذلك على لفظ الجمع، وقرئ: «ومنكم من يتوفى»، أي: يتوفاه الله، ﴿أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾: الهرم والخرف، حتى يعود كهيئته الأولى في أوان طفولته: ضعيف البنية، سخيف العقل، قليل الفهم، بين أنه كما قدر على أن يرقيه في درجات الزيادة حتى يبلغه حد التمام، فهو قادر على أن يحطه حتى ينتهي به إلى الحالة السفلى، ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾، أي: ليصير نساء، بحيث إذا كسب علماً في شيء لم ينشب أن ينساه ويزل عنه علمه حتى يسأل عنه من ساعته، يقول لك: من هذا؟ فتقول: فلان، فما يلبث لحظة إلا سألك عنه، وقرأ أبو عمرو: «العمْر»: بسكون الميم، الهامدة: الميتة اليابسة؛ وهذه دلالة ثانية على البعث، ولظهورها وكونها مشاهدة معاينة، كررها الله في كتابه، ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾: تحرّكت بالنبات وانتفخت، وقرئ: «ربأت»، أي: ارتفعت، البهيج: الحسن السارّ للناظر إليه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾

أي: ذلك الذي ذكرنا من خلق بني آدم وإحياء الأرض، مع ما في تضاعيف ذلك من أصناف الحكم واللطائف، حاصل بهذا وهو السبب في حصوله، ولولاه لم يتصور كونه، وهو: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الثابت الموجود، وأنه قادر على إحياء ٢/٢٧ب الموتى وعلى كل مقدور، وأنه حكيم لا يخلف ميعاده، وقد وعد الساعة والبعث، فلا بدّ أن يفي بما وعد.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾

عن ابن عباس: أنه أبو جهل بن هشام، وقيل: كرر كما كررت سائر الأقاصيص، وقيل: الأوّل في المقلدين، وهذا في المقلدين، والمراد بالعلم: العلم الضروري،

---

(١) قوله «من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد كالأسدة والقتود والأباطيل» الذي في الصحاح «السدّ» بالفتح: واحد الأسدة وهي العيوب اهـ وهي مثل العمى والصمم والبكم على غير قياس، وكان قياسه: سدود. والقتد: خشب الرحل، وجمعه: قتود وأقتاد. والباطل: ضد الحق، والجمع أباطيل على غير قياس كأنهم جمعوا إبطيلا. وفيه أيضاً قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي قوته وهو واحد جاء على بناء الجمع، مثل «آنك» وهو الأسربُ، ولا نظير لهما، ويقال له: جمع لا واحد له من لفظه، مثل: أبابيل، وعباديد، ومذاكير. (ع)

وبالهدى: الاستدلال والنظر؛ لأنه يهدي إلى المعرفة، وبالكتاب المنير: الوحي، أي: يجادل بظن وتخمين، لا بأحد هذه الثلاثة، وثنى العطف: عبارة عن الكبر والخيلاء، كتصعير الخدّ وليّ الجيد، وقيل: عن الإعراض عن الذكر، وعن الحسن: «ثاني عطفه»، بفتح العين، أي: مانع تعطفه ﴿لِيُضِلَّ﴾: تعليل للمجادلة، قرئ بضم الياء وفتحها.

فإن قلت: ما كان غرضه من جداله الضلال: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فكيف علل به؟ وما كان ـ أيضا ـ مهتدياً حتى إذا جادل خرج بالجدال من الهدى إلى الضلال؟

قلت: لما أدّى جداله إلى الضلال، جعل كأنه غرضه، ولما كان الهدى معرضا له فتركه وأعرض عنه وأقبل على الجدال بالباطل، جعل كالخارج من الهدى إلى الضلال، وخزيه: ما أصابه يوم بدر من الصغار والقتل، والسبب فيما مني به من خزي الدنيا وعذاب الآخرة: هو ما قدمت يداه، وعدل الله في معاقبته الفجار وإثابته الصالحين.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾

﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه، وهذا مثل؛ لكونهم على قلق واضطراب في دينهم، لا على سكون وطمأنينة، كالذي يكون على طرف من العسكر، فإن أحسّ بظفر وغنيمه قرّ واطمأن، وإلا فرّ وطار على وجهه، قالوا: نزلت في أعاريب قدموا المدينة، وكان أحدهم إذا صح بدنه ونتجت فرسه مهراً سرياً، وولدت امرأته غلاماً سويًا، وكثر ماله وماشيته، قال: ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً، واطمأن، وإن كان الأمر بخلافه، قال: ما أصبت إلا شرًا، وانقلب، وعن أبي سعيد الخدري أن رجلاً من اليهود أسلم فأصابته مصائب، فتشاءم بالإسلام، فأتى النبي ـ ﷺ ـ فقال: أقلني، فقال: «إِنَّ الإِسْلاَمَ لاَ يُقَالُ» (٩٧٥)؛ فنزلت، المصاب بالمحنة بترك التسليم لقضاء الله والخروج

---

٩٧٥ ـ عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢/ ٣٧٩) لابن مردويه في تفسيره، والواحدي في أسباب النزول، والحديث رواه العقيلي في الضعفاء (٣/ ٣٦٨)، من حديث عنبسة أخو أبي ربيع السمان عن أبي الزبير عن جابر أن رسول الله ـ ﷺ ـ أتاه يهودي فقال: يا رسول الله، اعرض عليّ الإسلام، فعرض عليه فأسلم فرجع إلى منزله، فأصيب في عينيه، وأصيب في بعض ولده، فرجع إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: أقلني فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الإسلام لا يقال إنك إن رجعت عن الإسلام ضربت عنقك مرتين، إن الإسلام يسبك الرجال يخرج خبثهم كما يخرج الكور ـ أو =

إلى ما يسخط الله: جامع على نفسه محنتين، إحداهما: ذهاب ما أصيب به، والثانية: ذهاب ثواب الصابرين، فهو خسران الدارين، وقرئ: «خاسر الدنيا والآخرة»: بالنصب والرفع، فالنصب: على الحال، والرفع: على الفاعلية، ووضع الظاهر موضع الضمير، وهو وجه حسن، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، استعير ﴿ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾: من ضلال من أبعد في التيه ضالاً، فطالت وبعدت مسافة ضلالته.

فإن قلت: الضرر والنفع منفيان عن الأصنام مثبتان لها في الآيتين، وهذا تناقض.

قلت: إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم؛ وذلك أن الله ـ تعالى ـ سفه الكافر بأنه يعبد جمادًا لا يملك ضرًّا ولا نفعاً، وهو يعتقد فيه بجهله وضلاله أنه يستنفع به حين يستشفع به، ثم قال: يوم القيامة يقول هذا الكافر بدعاء وصراخ، حين يرى استضراره بالأصنام ودخوله النار بعبادتها، ولا يرى أثر الشفاعة التي ادعاها لها، ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾: أو كرّر يدعو، كأنه قال: يدعو يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه، ثم قال: لمن ضره بكونه معبوداً أقرب من نفعه بكونه شفيعاً لبئس المولى، وفي حرف عبد الله: «من ضره»: بغير لام، المولى: الناصر، والعشير: الصاحب؛ كقوله: ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾

هذا كلام قد دخله اختصار، والمعنى: إن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة، فمن كان يظنّ من حاسديه وأعاديه أن الله يفعل خلاف ذلك ويطمع فيه، ويغيظه أنه يظفر بمطلوبه، فليستقص وسعه وليستفرغ مجهوده في إزالة ما يغيظه، بأن يفعل ما يفعل من بلغ

= قال الكير ـ خبث الذهب والفضة والحديد إذا ألقي فيه».

قال: وهذا يروى بغير هذا الإسناد، وخلاف هذا اللفظ بإسناد أصلح من هذا.
قال الحافظ: هكذا ذكره الواحدي في الأسباب، لكن بغير إسناد فقال: روى عطية عن أبي سعيد، فذكره سواه وأخرجه ابن مردويه من رواية عطية عن أبي سعيد قال: «أسلم رجل من اليهود فذهب ماله وولده، وتشاءم بالإسلام ـ الحديث نحوه» وإسناده ضعيف وأخرج العقيلي من رواية عنبسة بن سعيد عن أبي الزبير عن جابر قال: «أتى النبي ـ ﷺ ـ يهودي فأسلم على يديه، ثم رجع إلى منزله فأصيب في عينه وفي ولده، فرجع إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: أقلني ـ الحديث» ولم يذكر فيه نزول الآية. وعنبسة ضعيف جدًا. انتهى.

منه الغيظ كل مبلغ حتى مدّ حبلاً إلى سماء بيته فاختنق، فلينظر وليصوّر في نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه؟ وسمي الاختناق قطعاً؛ لأنّ المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه، ومنه قيل للبهر: القطع[1]، وسمى فعله كيداً؛ لأنه وضعه موضع الكيد؛ حيث لم يقدر على غيره، أو على سبيل الاستهزاء؛ لأنه لم يكد به محسوده إنما كاد به نفسه، والمراد: ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظه، وقيل: فليمدد بحبل إلى السماء المظلة، وليصعد عليه فليقطع الوحي أو ينزل عليه، وقيل: كان قوم من المسلمين لشدّة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطؤن ما وعد الله رسوله من النصر، وآخرون من المشركين يريدون اتباعه ويخشون ألاّ يثبت أمره؛ فنزلت، ٢/٢٨أ وقد فسر النصر: بالرزق، وقيل: معناه: أن الأرزاق بيد الله، لا تنال إلا بمشيئته ولا بد للعبد من الرضا بقسمته، فمن ظنّ أن الله غير رازقه وليس به صبر واستسلام، فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق؛ فإن ذلك لا يقلب القسمة ولا يردّه مرزوقاً.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

أي: ومثل ذلك الإنزال أنزلنا القرآن كله، ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى﴾: به الذين يعلم أنهم يؤمنون، أو يثبت الذين آمنوا ويزيدهم هدى، أنزله كذلك مبينا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

الفصل مطلق يحتمل الفصل بينهم في الأحوال والأماكن جميعاً، فلا يجازيهم جزاء واحداً بغير تفاوت، ولا يجمعهم في موطن واحد، وقيل: الأديان خمسة: أربعة للشيطان وواحد للرحمن، جعل الصابئون مع النصارى؛ لأنهم نوع منهم، وقيل: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾: يقضي بينهم، أي: بين المؤمنين والكافرين، وأدخلت: ﴿إِنَّ﴾ على كل واحد من جزأي الجملة؛ لزيادة التوكيد؛ ونحوه قول جرير [من البسيط]:

إِنَّ الْخَلِيفَةَ إِنَّ اللَّهَ سَرْبَلَهُ سِرْبَالَ مُلْكٍ بِهِ تُزْجَى الْخَوَاتِيمُ[2]

---

(١) قوله «ومنه قيل للبهر القطع» أي تتابع النفس. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) لجرير. وقوله: «إن الله سربله» خبر «إن» الأولى، وكررها لتوكيد التوكيد، وسربله: كساه بالملك الشبيه بالسربال. ويروى: سربال ملك به، أي: بذلك اللباس أو الملك، تزجى: أي تساق الخواتيم: جمع خاتم ـ بالفتح والكسر ـ والأصل: خواتم، فزيدت الياء. والمراد بها: عواقب الأمور الحميدة. وقال أبو حيان: يحتمل أن خبر إن قوله (به تزجى) وجملة «إن الله سربله» اعتراضية: ويروى: «به ترجى» بالراء، وليحرر. =

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨)﴾

سميت مطاوعتها له فيما يحدث فيها من أفعاله ويجريها عليه من تدبيره وتسخيره لها: سجوداً له؛ تشبيهاً لمطاوعتها بإدخال أفعال المكلف في باب الطاعة والانقياد، وهو السجود الذي كل خضوع دونه.

فإن قلت: فما تصنع بقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، وبما فيه من الاعتراضين: أحدهما: أنّ السجود على المعنى الذي فسرته به، لا يسجده بعض الناس دون بعض، والثاني: أنّ السجود قد أسند على سبيل العموم إلى من في الأرض من الإنس والجن أولاً، فإسناده إلى كثير منهم آخراً مناقضة؟

قلت: لا أنظم كثيراً في المفردات المتناسقة الداخلة تحت حكم الفعل؛ وإنما أرفعه بفعل مضمر يدل عليه قوله: ﴿يَسْجُدُ﴾ أي: ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة، ولم أقل: أفسر يسجد الذي هو ظاهر بمعنى: الطاعة والعبادة في حق هؤلاء؛ لأن اللفظ الواحد لا يصحّ استعماله في حالة واحدة على معنيين مختلفين، أو أرفعه على الابتداء والخبر محذوف وهو مثاب؛ لأنّ خبر مقابله يدل عليه، وهو قوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾، ويجوز أن يجعل ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: خبراً له، أي: من الناس الذين هم الناس على الحقيقة وهم الصالحون والمتقون، ويجوز أن يبالغ في تكثير المحقوقين بالعذاب، فيعطف كثير على كثير، ثم يخبر عنهم بحقّ عليهم العذاب، كأنه قيل: وكثير وكثير من الناس حق عليهم العذاب[١]، وقرئ: «حق»: بالضم، وقرئ: «حقًّا»، أي: حق عليهم العذاب حقًّا، ومن أهانه الله ـ بأن كتب عليه الشقاوة لما سبق في علمه من كفره أو فسقه ـ فقد بقي مهاناً[٢]، لن تجد له مكرماً، وقرئ: «مكرَم»، بفتح الراء، بمعنى: الإكرام، إنه

= ينظر: ديوانه ص (٦٧٢)، وخزانة الأدب (١٠/ ٣٦٤ ـ ٣٦٨)، وأمالي الزجاجي ص (٦٢)، وتذكرة النحاة ص (١٣٠) ولسان العرب (ختم).

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ بعد أنّ حكى عن الزمخشري الوجهين الأخيرين قال: وهذان التخريجان ضعيفان ولم يُبَيِّن وَجهَ ضَعفِهما قلت أما أولهما فلا شك في ضعفه إذ لا فائدة طائلة في الإخبار بذلك، وأما الثاني فقد يظهر وذلك أنّ التكرير يفيد التكثير وهو قريب من قولهم عندي ألفٌ وألفٌ. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله «من كفره أو فسقه قد بقي مهاناً» مبني على أن الفاسق واسطة بين المؤمن والكافر. وأنه يخلد في النار كالكافر، وهو مذهب المعتزلة، والحق عند أهل السنة أنه مؤمن، وإن دخل النار يخرج منها بالشفاعة أو بمجرد فضله تعالى. (ع)

﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾: من الإكرام والإهانة؛ ولا يشاء من ذلك إلا ما يقتضيه عمل العاملين واعتقاد المعتقدين.

﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾

الخصم: صفة وصف بها الفوج أو الفريق، فكأنه قيل: هذان فوجان أو فريقان مختصمان، وقوله: (هذان): للفظ، و(اختصموا): للمعنى؛ كقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟﴾ [محمد: ١٦]، ولو قيل: هؤلاء خصمان، أو اختصما: جاز، يراد المؤمنون والكافرون، قال ابن عباس: رجع إلى أهل الأديان الستة، ﴿فِى رَبِّهِمْ﴾ أي: في دينه وصفاته، وروي أن أهل الكتاب قالوا للمؤمنين: نحن أحق بالله، وأقدم منكم كتاباً، ونبينا قبل نبيكم، وقال المؤمنون: نحن أحق بالله، آمنا بمحمد، وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسداً، فهذه خصومتهم في ربهم، ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: هو فصل الخصومة المعني بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وفي رواية عن الكسائي: «خصمان»: بالكسر، وقرئ: «قطعت»: بالتخفيف، كأنّ الله تعالى يقدّر لهم نيراناً على مقادير جثثهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة، ويجوز أن تظاهر على كل واحد منهم تلك النيران كالثياب المظاهرة على اللابس بعضها فوق بعض؛ ونحوه: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠]. ﴿ٱلْحَمِيمُ﴾: الماء الحار، عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابتها، ﴿يُصْهَرُ﴾: يذاب، وعن الحسن بتشديد الهاء للمبالغة، أي: إذا صبّ الحميم على رءوسهم كان تأثيره في الباطن نحو تأثيره في الظاهر، فيذيب أحشاءهم وأمعاءهم كما يذيب جلودهم، وهو أبلغ من قوله: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، والمقامع: السياط، في الحديث: «لَوْ وُضِعَتْ مُقْمَعَةٌ مِنْهَا فِي الأَرْضِ فَٱجْتَمَعَ عَلَيْهَا الثَّقَلَانِ مَا أَقَلُّوهَا»[1] (٩٧٦)،

---

٩٧٦ ـ أخرجه الحاكم (٤/ ٦٠٠) حدثنا والعباس محمد بن يعقوب ثنا بحر بن نصر الخولاني ثنا عبد الله بن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال: لو أن مقمعاً من حديد وضع في الأرض فاجتمع له الثقلان ما اقلوه من الأرض». =

---

(١) وهو عند أحمد وأبي يعلى من رواية ابن لهيعة عن دراج. لفظه في قوله: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾: لو وضع مقمع منها في الأرض... الحديث.

وقرأ الأعمش: «ردوا فيها»، والإعادة والرد لا يكون إلا بعد الخروج، فالمعنى: كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم فخرجوا أعيدوا فيها، ومعنى الخروج: ما يروى عن الحسن أنّ النار تضربهم ٢٨/٢ب بلهبها فترفعهم، حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً، (و) قيل لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، والحريق: الغليظ من النار المنتشر العظيم الإهلاك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿يُحَلَّوْنَ﴾عن ابن عباس: من حليت المرأة فهي حال[1]، ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾: بالنصب على: «ويؤتون لؤلؤاً»؛ كقوله: «وحورا عيناً»، و«لؤلواً»: بقلب الهمزة الثانية واواً، ولولياً؛ بقلبهما واوين، ثم بقلب الثانية ياء كأدل، ولول كأدل فيمن جرّ، ولؤلؤ، وليليا، بقلبهما ياءين، عن ابن عباس: وهداهم الله وألهمهم أن يقولوا: الحمد لله الذي صدقنا وعده، وهداهم إلى طريق الجنة، يقال: فلان يحسن إلى الفقراء وينعش المضطهدين، لا يراد حال ولا استقبال؛ وإنما يراد استمرار وجود الإحسان منه والنعشة في جميع أزمنته وأوقاته؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: الصدود منهم مستمرّ دائم، ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي: الذين يقع عليهم اسم الناس من غير فرق بين حاضر وباد وتانىء[2] وطارىء ومكي وآفاقي، وقد استشهد به أصحاب أبي حنيفة قائلين: إنّ المراد بالمسجد الحرام: مكة، على امتناع جواز بيع دور مكة وإجارتها، وعند الشافعي: لا يمتنع ذلك،

= ورواه أحمد في المسند (٢٩/٣)، وأبو يعلى في مسنده (٥٢٦/٢) رقم (١٣٨٨)، قال الهيثمي في المجمع (٤٥/١٠): «رواه أحمد وأبو يعلى وفيه ضعفاء وقد وثقوا» اهـ.
قال الحافظ: وهو عند أحمد وأبي يعلى من رواية ابن لهيعة عن دراج. لفظه في قوله: (ولهم مقامع من حديد): لو وضع مقمع منها في الأرض... الحديث. انتهى.

---

(١) قوله «من حليت المرأة فهي حال» الذي في الصحاح: حليت المرأة، أي: صارت ذات حلي، هي حلية وحالية. (ع)

(٢) قوله «وتانىء» في الصحاح: تنأت بالبلد تنوءاً: قطنته. والناتىء من ذلك. (ع)
(تنبيه) ما في نسخ الكشاف «ابن عمر» تصحيف، وإنما هو «ابن عمرو».

وقد حاور إسحاق بن راهويه؛ فاحتج بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ [الحج: ٤٠]، وقال: أنسب الديار إلى مالكيها، أو غير مالكيها، واشترى عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ دار السجن من مالكيه أو غير مالكيه، ﴿سَوَآءً﴾ بالنصب: قراءة حفص، والباقون على الرفع، ووجه النصب أنه ثاني مفعولي جعلناه، أي: جعلناه مستوياً، ﴿ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾: وفي القراءة بالرفع، الجملة مفعول ثان، الإلحاد: العدول عن القصد، وأصله: إلحاد الحافر، وقوله: ﴿بِإِلۡحَادِۢ بِظُلۡمٖ﴾: حالان مترادفتان، ومفعول (يرد): متروك ليتناول كل متناول، كأنه قال: ومن يرد فيه مراداً ما عادلاً عن القصد ظالماً، ﴿نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ يعني: أنّ الواجب على من كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهمّ به ويقصده، وقيل: الإلحاد في الحرم: منع الناس عن عمارته، وعن سعيد بن جبير: الاحتكار، وعن عطاء: قول الرجل في المبايعة: «لا والله، وبلى والله»، وعن عبد الله بن عمر أنه كان له فسطاطان، أحدهما: في الحل، والآخر: في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل، فقيل له، فقال: كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل: «لا والله، وبلى والله» ٩٧٧، وقرئ: «يرد»: بفتح الياء من الورود، ومعناه: من أتى فيه بإلحاد ظالماً، وعن الحسن: ومن يرد إلحاده بظلم، أراد: إلحاداً فيه، فأضافه على الاتساع في الظرف، كمكر الليل، ومعناه: من يرد أن يلحد فيه ظالماً، وخبر إن: محذوف؛ لدلالة جواب الشرط عليه، تقديره: إن الذين كفروا ويصدون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم[1]، وكل من ارتكب فيه ذنباً فهو كذلك، عن ابن مسعود: الهمة في الحرم تكتب ذنباً.

---

٩٧٧ ـ أخرجه الطبري (٩/ ١٣٢) رقم (٢٥٠٢٨) من طريق مجاهد عن ابن عمرو قال: كان فسطاطان... فذكره. وعزاه ابن حجر، والزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف لأبي الوليد الأزرقي في تاريخ مكة. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٣٤)، وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن منيع =

---

(١) قال السمين الحلبي: الشيخ قال في تقدير الزمخشري بعد المسجد الحرام لا يصح قال، لأنّ الذي صفة للمسجد الحرام فموضع التقدير هو بعد والباد يعني أنه يلزم من تقديره الفصل بين الصفة والموصوف بأجنبي وهو خبر إنَّ فيصير التركيب هكذا، إنَّ الذينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله والمَسْجد الحرام نُذِيقهُم مِنْ عَذَابٍ أليم الذي جَعَلْنَاهُ للنَّاس، وللزمخشري أن ينفصل عن هذا الاعتراض بأنَّ الذي جعلناه لا نسلم أنه نعت للمسجد حتى يلزم ما ذكر بل يجعله مقطوعاً عنه نصباً أو رفعاً ثم قال الشيخ لكن مقدر الزمخشري أحسن من مقدر ابن عطية لأنه يدل عليه الجملة الشرطية بعد من جهة لحظ وابن عطية لحفظ من جهة المعنى لأنَّ من أُذِيقَ العذاب خَسِرَ وَهَلِكَ. انتهى. الدر المصون.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾

واذكر حين جعلنا ﴿لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾: مباءة، أي: مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة، رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان، وكان من ياقوتة حمراء، فأعلم الله إبراهيم مكانه بريح أرسلها يقال لها الخجوج، كنست ما حوله، فبناه على أسه القديم، وأن هي المفسرة.

فإن قلت: كيف يكون النهي عن الشرك والأمر بتطهير البيت تفسيراً للتبوئة؟

قلت: كانت التبوئة مقصودة من أجل العبادة، فكأنه قيل: تعبدنا إبراهيم قلنا له: ﴿لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾: من الأصنام والأوثان[1] والأقذار أن تطرح حوله، وقرئ: «يشرك»: بالياء على الغيبة.

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ﴾: ناد فيهم، وقرأ ابن محيصن: «وآذن»، والنداء بالحج: أن يقول: حجوا، أو عليكم بالحج، وروي أنه صعد أبا قبيس فقال: «يا أيها الناس، حجوا بيت ربكم» (٩٧٨)، وعن الحسن أنه خطاب لرسول الله ـ ﷺ ـ أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع (٩٧٩)، ﴿رِجَالًا﴾: مشاة جمع: راجل، كقائم وقيام، وقرئ: «رُجالاً»: بضم الراء مخفف الجيم ومثقلة، و«رجالى» كعجالى؛ عن ابن عباس، ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾: حال معطوفة على حال، كأنه قال: رجالاً وركبانا، ﴿يَأْتِينَ﴾: صفة لكل ضامر؛ لأنه في

= وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

قال الحافظ: أخرجه الطبري والأزرقي في تاريخ مكة من رواية شعبة عن منصور عن مجاهد قال: «كان لعبد الله بن عمرو بن العاص... فذكره». انتهى.

٩٧٨ ـ عزاه الحافظ والزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف للثعلبي عن الحسن.

قال الحافظ: أخرجه الثعلبي عن الحسن فذكره. وسنده إليه في أول الكتاب. انتهى.

٩٧٩ ـ ذكره السيوطي في الدر (٤/٦٣٧)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما أمر الله إبراهيم أن ينادي في الناس بالحج صعد أبا قبيس فوضع أصبعيه في أذنيه: «إن الله كتب عليكم الحج فأجيبوا ربكم».

قال الحافظ: أخرجه الطبري عن ابن عباس، بلفظ: «قام عند الحجر».، وفي رواية: «عند مقامه. وقال: يا أيها الناس، حجوا بيت ربكم، فأجابوه: لبيك اللهم لبيك». انتهى.

---

(١) قوله «والأوثان» في الصحاح «الوثن»: الصنم. (ع)

معنى الجمع، وقرئ: «يأتون»: صفة للرجال والركبان، والعميق: البعيد، وقرأ ابن مسعود: «معيق»، يقال: بئر بعيدة العمق والمعق[1].

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨)﴾

نكر المنافع؛ لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات، وعن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ: أنه كان يفاضل بين العبادات قبل أن يحج، فلما حج فضل الحج على العبادات كلها؛ لما شاهد من تلك الخصائص، وكنى عن النحر والذبح بذكر اسم الله؛ لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا أو ذبحوا، وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي فيما يتقرّب به إلى الله أن يذكر اسمه، وقد حسن الكلام تحسيناً بيناً: أن جمع بين قوله: ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُم﴾، ولو قيل: لينحروا في أيام معلومات بهيمة الأنعام ٢/٢٩أ، لم تر شيئاً من ذلك الحسن والروعة، الأيام المعلومات: أيام العشر عند أبي حنيفة؛ وهو قول الحسن وقتادة، وعند صاحبيه: أيام النحر، البهيمة: مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر، فبينت بالأنعام: وهي الإبل، والبقر، والضأن، والمعز، الأمر بالأكل منها أمر إباحة؛ لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من نسائكهم، ويجوز أن يكون ندباً؛ لما فيه من مساواة الفقراء ومواساتهم ومن استعمال التواضع، ومن ثمة استحب الفقهاء أن يأكل الموسع من أضحيته مقدار الثلث، وعن ابن مسعود أنه بعث بهدي، وقال فيه: إذا نحرته فكل وتصدّق وابعث منه إلى عتبة، يعني: ابنه ٩٨٠، وفي الحديث: «كُلُوا وَادَّخِرُوا وَأْتَجِرُوا»[2] (٩٨١).

---

٩٨٠ ـ أخرجه الطبراني في الكبير (٩/٣٩٩) رقم (٩٧٠٢): حدثنا علي بن عبد العزيز ثنا أبو نعيم ثنا سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن إبراهيم عن علقمة، أن عبد الله بعث معه بهدي فقال: كل أنت وأصحابك ثلثاً، وتصدق بثلثه، وابعث إلى آل أخي عتبة بثلث قيل لسفيان تطوع قال: نعم.
ورواه في (٩/٢٧٦) رقم (٩١٨١)، قال الهيثمي في المجمع (٣/٢٣١): «رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح» اهـ.
قال الحافظ: أخرجه الطبري من رواية حبيب بن أبي ثابت عن إبراهيم عن علقمة ـ أن عبد الله بعث معه بهدي. فقال: كل أنت وأصحابك ثلثاً، وتصدق بثلث، وابعث إلى أخي عتبة بثلث.
تنبيه: وقع في نسخ الكشاف يعني ابنه وهو تحريف، وإنما هو أخوه. انتهى.
٩٨١ ـ أخرجه مالك (٢/٤٨٤) كتاب الضحايا: باب ادخار لحوم الأضاحي حديث (٧) ومن طريقه مسلم =

---

(١) قوله «بعيدة العمق والمعق» في الصحاح «المعق»: قلب العمق، والأمعاق: مثل الأعماق، وهو ما بعد من أطراف المفاوز. (ع)

(٢) قوله «وائتجروا» الظاهر أن المراد: اطلبوا الأجر بالصدقة. (ع)

﴿ٱلْبَآئِسَ﴾: الذي أصابه بؤس، أي: شدة، و﴿ٱلْفَقِيرَ﴾: الذي أضعفه الإعسار.

= (١٥٦١/٣) كتاب الأضاحي: باب بيان ما كان من النهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث في أول الإسلام وبيان نسخه وإباحته إلى متى شاء حديث (١٩٧١/٢٨) وأبو داود (١٠٨/٢ ـ ١٠٩) كتاب الأضاحي: باب في حبس لحوم الأضاحي رقم (٢٨١٢) والنسائي (٢٣٥/٧) كتاب الأضاحي: باب الادخار من الأضاحي (٤٤٣١) وأحمد (٥١/٦) والبيهقي (٢٩٣/٩) عن عبد الله بن أبي بكر عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة قالت: «دفَّ أهل أبيات من أهل البادية حضره الأضحى زمان رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «ادخروا ثلاثاً ثم تصدقوا بما بقي»، فلما كان بعد ذلك قالوا: يا رسول الله، إن الناس يتخذون الأسقية من ضحاياهم ويحملون منها الودك. فقال: «وما ذاك» قالوا: نهيت أن تؤكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث. فقال: «إنما نهيتكم من أجل الدافة، فكلوا وادخروا وتصدقوا».

وأخرجه الدارمي (٧٩/٢) كتاب الأضاحي: باب في لحوم الأضاحي من طريق محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن عمرة عن عائشة بنحوه وأخرجه البخاري (٢٦/١٠) كتاب الأضاحي: باب ما يؤكل من لحوم الأضاحي وما يتزود منها حديث (٥٥٧٠) والبيهقي (٢٩٣/٩) من طريق يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة قالت: الضحية كنا نملح منه فنقدم به إلى النبي ـ ﷺ ـ بالمدينة فقال: «لا تأكلوا إلا ثلاثة أيام»، وليست بعزيمة، ولكنه أراد أن نطعم منه.

وأخرجه البخاري (٩) كتاب الأطعمة: باب ما كان السلف يدخرون في بيوتهم (٥٤٢٣)، وأحمد (١٢٧/٦ ـ ١٢٨)، والنسائي (٢٣٥/٧ ـ ٢٣٦)، كتاب الأضاحي: باب الادخار من الأضاحي (٤٤٣٣)، والبيهقي (٢٩٢/٩) من طريق عبد الرحمن بن عابس عن أبيه قال: قلت لعائشة: أنهى النبي ـ ﷺ ـ أن تؤكل لحوم الأضاحي فوق ثلاث قالت: ما فعله إلا في عام جاع الناس فيه، فأراد أن يطعم الغني الفقير، وإن كنا لنرفع الكراع فنأكله بعد خمسة عشر قيل: ما اضطركم إليه: فضحكت قالت: «ما شبع آل محمد ـ ﷺ ـ من خبز بر مأدوم ثلاثة أيام حتى لحق بالله».

وأخرجه الترمذي (٧٩/٤) كتاب الأضاحي: باب في الرخصة في أكلها بعد ثلاث (١٥١١) عن عابس بن ربيعة قال: قلت لأم المؤمنين: أكان رسول الله ـ ﷺ ـ ينهى عن لحوم الأضاحي قالت: «لا ولكن قلَّ من كان يضحي من الناس فأحب أن يطعم من لم يكن يضحي، فلقد كنا نرفع الكراع فنأكله بعد عشرة أيام».

وقال الترمذي: هذا حديث صحيح وأم المؤمنين هي عائشة زوج النبي ـ ﷺ ـ وقد روي عنها هذا الحديث من غير وجه. وفي الباب عن جماعة من الصحابة وهم أبو سعيد الخدري وسلمة بن الأكوع وجابر وثوبان وبريدة.

حديث أبي سعيد الخدري:

أخرجه البخاري (٢٦/١٠) كتاب الأضاحي: باب ما يؤكل من لحوم الأضاحي وما يتزود منها حديث (٥٥٦٨) والنسائي (٢٣٣/٧) كتاب الأضاحي: باب (٢٦) من طريق يحيى بن سعيد عن القاسم بن محمد عن ابن خباب أن أبا سعيد الخدري قدم من سفر فقدم إليه أهله لحماً من لحوم الأضاحي فقال: ما أنا بآكله حتى أسأل فانطلق إلى أخيه لأمه قتادة بن النعمان وكان بدرياً، فسأله عن ذلك فقال: إنه قد حدث بعدك أمر نقضاً لما كانوا نهوا عنه من أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاثة أيام.

وأخرجه مسلم (١٥٦٢/٣) كتاب الأضاحي: باب بيان ما كان من النهي عن أكل لحوم الأضاحي =

= بعد ثلاث وبيان نسخه (٣٣/ ١٩٧٣)، وأحمد (٣/ ٨٥)، وأبو يعلى (٢/ ٤١١) رقم (١١٩٦)، من طريق أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يا أهل المدينة لا تأكلوا لحوم الأضاحي فوق ثلاث»، فشكوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أن لهم عيالاً وحشماً وخدماً، فقال: «كلوا وأطعموا وادخروا».

ـ وللحديث طريق آخر عن أبي سعيد:
أخرجه أحمد (٣/ ٢٣)، والنسائي (٧/ ٢٣٤) كتاب الأضاحي: باب (٢٦)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١٨٦/٤ ـ ١٨٧)، وأبو يعلى (٢/ ٢٨١) رقم (٩٩٧) من طريق سعد بن إسحاق قال: حدثتني زينب بنت كعب عن أبي سعيد، أن رسول الله ـ ﷺ ـ «نهى عن لحوم الأضاحي فوق ثلاثة أيام ثم رخص أن نأكل وندخر» قال: فقدم قتادة بن النعمان أخو أبي سعيد فقدموا إليه قديد الأضحى، فقال: كأن هذا من قديد الأضحى قالوا: نعم. قال: أليس قد نهى عنه رسول الله ـ ﷺ ـ قال أبو سعيد: بلى إنه قد حدث فيه أمر كان نهانا عنه أن نحبسه فوق ثلاثة أيام، ورخص لنا أن نأكل وندخر.
حديث سلمة بن الأكوع:
أخرجه البخاري (١٠/ ٢٦) كتاب الأضاحي: باب ما يؤكل من لحوم الأضاحي وما يتزود منها حديث (٥٥٦٩)، ومسلم (٣/ ١٥٦٣) كتاب الأضاحي: باب بيان النهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث وبيان نسخه حديث (٣٤/ ١٩٧٤) عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: من ضحى منكم فلا يصبحن في بيته بعد ثالثة شيئا فلما كان في العام المقبل قالوا: يا رسول الله نفعل كما فعلنا عام أول فقال: «لا إن ذاك عام كان الناس فيه بجهد، فأردت أن يفشوا فيهم».
حديث جابر:
أخرجه البخاري (١٠/ ٢٦) كتاب الأضاحي: باب ما يؤكل من لحوم الأضاحي وما يتزود منها حديث (٥٥٦٧) ومسلم (٣/ ١٥٦٢) كتاب الأضاحي: باب بيان النهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث وبيان نسخه حديث (٣٠ ـ ٣١/ ١٩٧٢)، وأحمد (٣/ ٣١٧ ـ ٣٧٨)، والدارمي (٢/ ٨٠) كتاب الضحايا: باب في لحوم الأضاحي، والبيهقي (٩/ ٢٩١)، من طريق عطاء عن جابر قال: كنا لا نأكل من لحوم بدننا فوق ثلاث منى، فأرخص لنا رسول الله ـ ﷺ ـ أن نتزود منها ونأكل منها.
وفي رواية من هذا الوجه: كنا نتزود لحوم الهدي على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المدينة.
وأخرجه مالك (٢/ ٤٨٤) كتاب الضحايا: باب ادخار لحوم الأضاحي حديث(٦) ومن طريقه مسلم (٣/ ١٥٦٢) كتاب الأضاحي، باب: بيان النهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث وبيان نسخه (٢٩/ ١٩٧٢)، والنسائي (٧/ ٢٣٣) كتاب الأضاحي باب (٢٦)، وأحمد (٣/ ٣٨٨)، والبيهقي (٩/ ٢٩١) عن أبي الزبير عن جابر عن النبي ـ ﷺ ـ أنه: «نهى عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث»، ثم قال بعد: «كلوا وتزودوا وادخروا».
حديث ثوبان:
أخرجه مسلم (٣/ ١٥٦٣) كتاب الأضاحي: باب بيان النهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث وبيان نسخه حديث (٣٥/ ١٩٧٥)، وأحمد (٥/ ١٧٧)، وأبو داود (٢/) رقم (٢٨١٤) والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٥٨)، والبيهقي (٩/ ٢٩١) من طريق معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية عن جبير بن نفير عن ثوبان قال: ذبح رسول الله ـ ﷺ ـ ضحيته، ثم قال: يا ثوبان أصلح لحم هذه فلم =

قضاء التفث: قص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد، والتفث: الوسخ، فالمراد: قضاء إزالة التفث، وقرئ: «وليوفوا»: بتشديد الفاء، ﴿نُذُورَهُمْ﴾: مواجب حجهم، أو ما عسى ينذرونه من أعمال البر في حجهم، ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾: طواف الإفاضة، وهو طواف الزيارة الذي هو من أركان الحج، ويقع به تمام التحلل، وقيل: طواف الصدر، وهو طواف الوداع، ﴿الْعَتِيقِ﴾: القديم؛ لأنه أول بيت وضع للناس عن الحسن، وعن قتادة: أعتق من الجبابرة، كم من جبار سار إليه ليهدمه فمنعه الله، وعن مجاهد: لم يملك قط، وعنه: أعتق من الغرق، وقيل: بيت كريم، من قولهم: عتاق الخيل والطير.

فإن قلت: قد تسلط عليه الحجاج فلم يمنع. قلت: ما قصد التسلط على البيت؛ وإنما تحصن به ابن الزبير، فاحتال لإخراجه ثم بناه، ولما قصد التسلط عليه أبرهة، فعل به ما فعل.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ

= أزل أطعمه منها حتى قدم المدينة.

وأخرجه مسلم (١٩٧٥/٣٦)، والدارمي (٧٩/٢) كتاب الأضاحي: باب في لحوم الأضاحي من طريق عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه عن ثوبان مولى رسول الله ـ ﷺ ـ قال: قال لي رسول الله ـ ﷺ ـ في حجة الوداع: «أصلح هذا اللحم» فلم يزل يأكل منه حتى بلغ المدينة.

حديث بريدة:

أخرجه مسلم (١٥٦٣/٣ ـ ١٥٦٤) كتاب الأضاحي: باب بيان النهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث وبيان نسخه (١٩٧٧/٣٧)، والنسائي (٢٣٤/٧ ـ ٢٣٥) كتاب الأضاحي: باب (٢٦)، والترمذي (٧٩/٤)، كتاب الأضاحي: باب ما جاء في الرخصة في أكلها بعد ثلاث حديث (١٥١٠) من طريق ابن بريدة عن أبيه، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «كنت نهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث ليتسع ذوو الطول على من لا طول له، فكلوا ما بدا لكم وأطعموا وادخروا».

وقال الترمذي: حسن صحيح.

قال الحافظ: أخرجه مسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وأحمد، وإسحاق من رواية خالد الحذاء عن أبي المليح عن عتبة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنا كنا نهيناكم عن لحوم الأضاحي ألا تأكلوها فوق ثلاث لكي يسعكم، وقد جاء الله بالسعة فكلوا وادخروا واتجروا: لفظ أبي داود. وليس عند مسلم والنسائي وابن ماجه: «واتجروا»، والنسائي في رواية: «وتصدقوا»، وله شاهد عن أبي سعيد الخدري عن أحمد.

فائدة: قال في النهاية: اتجروا، أي تصدقوا طالبين للأجر، وليس هو اتجر بالإدغام من التجارة وأجاز الهروي الإدغام، واستدل عليه بقوله: «من يتجر مع هذا فيصلي معه، ولا دلالة فيه، لأنه يحتمل أن يكون من التجارة. انتهى.

﴿لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾: خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر والشأن ذلك، كما يقدّم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني، ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال: هذا وقد كان كذا، والحرمة: ما لا يحل هتكه، وجميع ما كلفه الله ـ تعالى ـ بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها، فيحتمل أن يكون عامًا في جميع تكاليفه، ويحتمل أن يكون خاصًا فيما يتعلق بالحج، وعن زيد بن أسلم: الحرمات خمس الكعبة الحرام، والمسجد الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام، والمحرم حتى يحل، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾: أي: فالتعظيم خير له، ومعنى التعظيم: العلم بأنها واجبة المراعاة والحفظ والقيام بمراعاتها، المتلوّ لا يستثنى من الأنعام، ولكن المعنى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾: آية تحريمه؛ وذلك قوله في سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾، والمعنى: أنّ الله قد أحل لكم الأنعام كلها إلا ما استثناه في كتابه، فحافظوا على حدوده، وإياكم أن تحرموا ما أحل شيئاً، كتحريم عبدة الأوثان البحيرة والسائبة وغير ذلك، وأن تحلوا مما حرم الله، كإحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغير ذلك.

لما حث على تعظيم حرماته وأحمد من يعظمها[1]، أتبعه الأمر باجتناب الأوثان وقول الزور؛ لأن توحيد الله ونفي الشركاء عنه وصدق القول، أعظم الحرمات وأسبقها خطوا، وجمع الشرك وقول الزور في قران واحد، وذلك أنّ الشرك من باب الزور؛ لأن المشرك زاعم أنّ الوثن تحق له العبادة، فكأنه قال: فاجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزور، واجتنبوا قول الزور كله لا تقربوا شيئاً منه؛ لتماديه في القبح والسماجة، وما ظنك بشيء من قبيله عبادة الأوثان، وسمى الأوثان رجساً، وكذلك الخمر والميسر والأزلام، على طريق التشبيه، يعني: أنكم كما تنفرون بطباعكم عن الرجس وتجتنبونه، فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء مثل تلك النفرة، ونبه على هذا المعنى بقوله: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]، جعل العلة في اجتنابه أنه رجس، والرجس مجتنب، ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾: بيان للرجس وتمييز له؛ كقولك: عندي عشرون من الدراهم؛ لأنّ الرجس مبهم يتناول غير شيء، كأنه قيل: فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، والزور من الزور والازورار وهو الانحراف، كما أنّ الإفك من أفكه: إذا صرفه، وقيل: (قول الزور): قولهم: هذا حلال وهذا حرام، وما أشبه ذلك من افترائهم، وقيل: شهادة الزور، عن

(١) قوله «وأحمد من يعظمها» في الصحاح «أحمدته»: وجدته محموداً موافقاً مرضيا. (ع)

النبي ـ ﷺ ـ أنه صلى الصبح، فلما سلم قام قائماً واستقبل الناس بوجهه، وقال: «عَدَلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ الإِشْرَاكَ بِاللَّهِ، عَدَلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ الإِشْرَاكَ بِاللَّهِ، عَدَلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ الإِشْرَاكَ بِاللَّهِ» ٩٨٢ح، وتلا هذه الآية، وقيل: الكذب والبهتان، وقيل: قول أهل الجاهلية في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق، فإن كان تشبيهاً مركباً فكأنه قال: من أشرك بالله، فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية، بأن صور حاله بصورة حال من خرّ من السماء فاختطفته الطير، فتفرق مزعاً[1] في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح[2] البعيدة، وإن كان مفرقاً فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء، والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة، والشيطان الذي يطوّح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة[3]، وقرئ: «فتخطفه»: بكسر الخاء والطاء، وبكسر التاء مع كسرهما؛

---

٩٨٢ ـ روي من حديث خريم بن فاتك. رواه أبو داود (٢/ ٣٢٩) كتاب الأقضية، باب في شهادة الزور حديث (٣٥٩٩) حدثنا يحيى بن موسى البلخي ثنا محمد بن عبيد حدثني سفيان ـ يعني العصفري ـ عن أبيه عن حبيب بن النعمان الأسدي عن خريم بن فاتك قال: صلى رسول الله ـ ﷺ ـ صلاة الصبح، فلما انصرف قام قائماً فقال: «عدلت شهادة الزول بالإشراك بالله» ثلاث مرار، ثم قرأ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾.

ورواه الترمذي (٤/ ٥٤٧) كتاب الشهادات، باب ما جاء في شهادة الزور حديث (٢٣٠٠)، وابن ماجه (٢/ ٧٩٤) كتاب الأحكام، باب شهادة الزور (٢٣٧٢)، وأحمد في المسند (٤/ ٣٢١ ـ ٣٢٢)، والطبراني في الكبير (٤/ ٢٠٩) رقم (٤١٦٢)، والبيهقي في الشعب (٤/ ٢٢٣) رقم (٤٨٦١)، والطبري في التفسير (٩/ ١٤٤) رقم (٢٥١٣٦)، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢/ ٣٨٣) لابن أبي شيبة وإسحاق بن راهويه في مسنديهما.

ثم قال: «وعزاه المنذري في مختصره للترمذي ولم أجده ولا عزاه ابن عساكر في الأطراف إليه، بل عزاه لأبي داود وابن ماجه فقط» اهـ.

قلت: لم تفرد الحافظ في التلخيص للترمذي أيضاً، بل عزاه لأبي داود وابن ماجه وأحمد فقط، ومع ذلك فالحديث رواه الترمذي كما سبق رقم (٢٣٠٠) كتاب الشهادات، باب شهادة الزور قال: حدثنا عبد بن حميد حدثنا محمد بن عبيد حدثنا سفيان وهو ابن زياد العصفري عن أبيه عن حبيب بن النعمان الأسدي عن خريم بن فاتك الأسدي به مرفوعاً. =

---

(١) قوله «مزعا» مفرده «مزعة» بالضم. أي: قطعة لحم كما في الصحاح. (ع)

(٢) قوله «والمطاوح» أي المقاذف. وطاح يطوح ويطيح: هلك وسقط. وطوحته الطوائح: قذفته القواذف، كذا في الصحاح أيضاً. (ع)

(٣) قال محمود: «ويجوز في هذا التشبيه أن يكون مركباً ومفرقاً، فإن كان مركباً فكأنه قال: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية، بأن صور حاله بصورة من خر من السماء فاختطفته =

وهي قراءة الحسن، وأصلها ٢/ ٢٩ب تختطفه، وقرئ: «الرياح».

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى

= والحديث رواه الترمذي (٤/ ٥٤٧)، كتاب الشهادات، باب شهادة الزور حديث (٢٢٩٩).
وابن جرير الطبري (٩/ ١٤٤ ـ ١٤٥) رقم (٢٥١٣٧) عن أيمن بن خريم أن النبي ـ ﷺ ـ قام خطيباً... فذكر الحديث.
قال الترمذي: «وهذا حديث غريب إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد، واختلفوا في رواية الحديث عن سفيان بن زياد ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبي ـ ﷺ ـ وقد اختلفوا في رواية هذا الحديث عن سفيان بن زياد».
قال الحافظ: أخرجه أبو داود، وأحمد، وإسحاق، وابن أبي شيبة من رواية سفيان بن زياد العصفري عن أبيه عن حبيب بن النعمان عن خريم بن فاتك. وأخرجه الترمذي من رواية العصفري عن فاتك بن فضالة عن أنس بن خريم كذا قال. انتهى.

= الطير فصيرته مزعا في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة، وإن كان مفرقاً فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء «والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء، وشبه الأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة، والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة بالريح تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة» قال أحمد: أما على تقدير أن يكون مفرقاً، فيحتاج تأويل تشبيه المشرك بالهاوي من السماء إلى التنبيه على أحد أمرين: إما أن يكون الإشراك المراد ردته، فإنه حينئذٍ كمن علا إلى السماء بإيمانه ثم هبط بارتداده. وإما أن يكون الإشراك أصلياً، فيكون قد عد تمكن المشرك من الإيمان ومن العلو به ثم عدوله عنه اختياراً، بمنزلة من علا إلى السماء ثم هبط كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ فعدهم مخرجين من النور وما دخلوه قط، ولكن كانوا متمكنين منه. وقد مضى تقرير هذا المعنى بأبسط من هذا. وفي تقريره تشبيه الأفكار المتوزعة للكافر بالطير المختطفة، وفي تشبيه تطويح الشيطان بالهوى مع الريح في مكان سحيق: نظر؛ لأن الأمرين ذكرا في سياق تقسيم حال الكافر إلى قسمين، فإذا جعل الأول مثلاً لاختلاف الأهواء والأفكار. والثاني مثلا لنزغ الشيطان: فقد جعلهما شيئاً واحداً، لأن توزع الأفكار واختلاف الأهواء، مضاف إلى نزغ الشيطان، فلا يتحقق التقسيم المقصود. والذي يظهر في تقرير التشبيهين غير ذلك، فنقول: لما انقسمت حال الكافر إلى قسمين لا مزيد عليهما، الأول منهما: المتذبذب والمتمادي على الشك وعدم التصميم على ضلالة واحدة، فهذا القسم من المشركين مشبه من اختطفته الطير وتوزعته فلا يستولي طائر على مزعة منه إلا انتهبها منه آخر، وذلك حال المذبذب لا يلوح له خيال إلا اتبعه ونزل عما كان عليه. والثاني مشرك مصمم على معتقد باطل، لو نشر بالمناشير لم يكع ولم يرجع لا سبيل إلى تشكيكه ولا مطمع في نقله عما هو عليه، فهو فرح مبتهج لضلالته، فهذا مشبه في إقراره على كفره باستقرار من هوت به الريح إلى واد سافر فاستقر فيه. ونظير تشبيهه بالاستقرار في الوادي السحيق الذي هو أبعد الأخباء عن السماء: وصف ضلاله بالبعد في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ «وَضَلُّوا ضَلالاً بَعِيدًا» أي صمموا على ضلالهم فبعد رجوعهم إلى الحق، فهذا تحقيق القسمين، والله أعلم.

تعظيم الشعائر ـ وهي الهدايا؛ لأنها من معالم الحج ـ: أن يختارها عظام الأجرام حساناً سماناً غالية الأثمان، ويترك المكاس في شرائها، فقد كانوا يغالون في ثلاث ـ ويكرهون المكاس فيهنّ ـ: الهدي، والأضحية، والرقبة، وروى ابن عمر عن أبيه ـ رضي الله عنهما ـ أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار، فسأل رسول الله ـ ﷺ ـ أن يبيعها ويشتري بثمنها بدناً، فنهاه عن ذلك، وقال: «بَلْ أَهْدِهَا» (٩٨٣)، وأهدى رسول الله ـ ﷺ ـ مائة بدنة، فيها جمل لأبي جهل في أنفه برّة من ذهب (٩٨٤)، وكان ابن عمر يسوق البدن مجللة بالقباطي[1]، فيتصدّق بلحومها وبجلالها (٩٨٥)، ويعتقد أن طاعة الله في التقرّب بها وإهدائها إلى بيته المعظم أمر عظيم لا بدّ أن يقام به ويسارع فيه، ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ أي: فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب، فحذفت هذه

---

٩٨٣ ـ قال الحافظ: تقدم الكلام عليه في أثناء سورة البقرة. انتهى.

٩٨٤ ـ أخرجه البخاري (٣/٥٥٧)، كتاب الحج: باب يتصدق بجلال البدن، حديث (١٧١٨)، من حديث علي قال: «أهدى النبي ـ ﷺ ـ مائة بدنة فأمرني بلحومها فقسمتها ثم أمرني بجلالها فقسمتها ثم بجلودها فقسمتها».
وهو في صحيح مسلم (٢/ ٩٥٤): كتاب الحج، باب في الصدقة بلحومها الهدي وجلودها وجلالها، حديث (١٣٦٧/٣٤٨)، دون ذكر العدد.
وأخرجه أيضاً أبو داود (١٧٦٩)، وابن ماجه (٣٠٩٩)، والدارمي (١/ ٣٩٩)، وابن الجارود (٤٨٢)، وابن خزيمة (٤/ ٢٩٥)، والبيهقي (٩/ ٢٩٤)، من طريق مجاهد، عن ابن أبي ليلى، عن علي به.
قال الحافظ: أخرجه إسحاق والبزار من حديث علي، وفي الباب عن جابر قال: كان جميع ما جاء به مائة بدنة فيها جمل في أنفه برة من فضة أخرجه الحاكم والطبراني من رواية زيد بن الحباب عن الثوري عن جعفر بن محمد عن أبيه عنه قال البخاري: هذا خطأ من زيد. وإنما هو عن الثوري عن أبي إسحاق عن مجاهد مرسلاً. وقد جاء عن مجاهد عن ابن عباس قال: «أهدى رسول الله ـ ﷺ ـ في هداياه جملا كان لأبي جهل في رأسه برة من ذهب، ليغيظ به المشركين» أخرجه أبو داود والحاكم وأبو يعلى والطبراني. انتهى.

٩٨٥ ـ أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٣٧٩) كتاب الحج، باب العمل في الهدي حين يساق حديث (١٤٦).
وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢/ ٣٨٦)، لابن أبي شيبة في المصنف، وأبي الوليد الأزرقي في تاريخ مكة.
قال الحافظ: أخرجه مالك في الموطأ عن نافع عنه بهذا وأتم منه ـ ورواه ابن أبي شيبة من طريق فليح عن نافع نحوه. انتهى.

---

(١) قوله «مجللة بالقباطي» في الصحاح: القبط أهل مصر. والقبطية: ثياب بيض رقاق من كتان تتخذ بمصر والجمع قباطي. (ع)

المضافات، ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها؛ لانه لا بد من راجع من الجزاء إلى: (من)؛ ليرتبط به؛ وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت، ظهر أثرها في سائر الأعضاء، ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: إلى أن تنحر ويتصدق بلحومها ويؤكل منها، و﴿ثُمَّ﴾: للتراخي في الوقت، فاستعيرت للتراخي في الأحوال، والمعنى: أن لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم ودينكم؛ وإنما يعتدّ الله بالمنافع الدينية؛ قال سبحانه: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧]، وأعظم هذه المنافع وأبعدها شوطاً في النفع: ﴿مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ﴾، أي: وجوب نحرها، أو وقت وجوب نحرها في الحرم منتهية إلى البيت؛ كقوله: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، والمراد: نحرها في الحرم الذي هو في حكم البيت؛ لأن الحرم هو حريم البيت؛ ومثل هذا في الاتساع قولك: بلغنا البلد، وإنما شارفتموه واتصل مسيركم بحدوده، وقيل: المراد بالشعائر: المناسك كلها، و(محلها إلى البيت العتيق): يأباه.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥)﴾

شرع الله لكل أمة أن ينسكوا له، أي: يذبحوا لوجهه على وجه التقرب، وجعل العلة في ذلك أن يذكر اسمه تقدست أسماؤه على النسائك، وقرئ: (منسكا): بفتح السين وكسرها، وهو مصدر بمعنى: النسك، والمكسور يكون بمعنى: الموضع، ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أي: أخلصوا له الذكر خاصة، واجعلوه لوجهه سالما، أي: خالصاً لا تشوبوه بإشراك.

المخبتون: المتواضعون الخاشعون، من الخبت وهو المطمئن من الأرض، وقيل: هم الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا، وقرأ الحسن: (والمقيمي الصلاة): بالنصب على تقدير النون، وقرأ ابن مسعود: «والمقيمين الصلاة»: على الأصل.

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦)﴾

﴿وَالْبُدْنَ﴾: جمع بدنة؛ سميت لعظم بدنها وهي الإبل خاصة، ولأن رسول الله ـ ﷺ ـ ألحق البقر بالإبل حين قال: «الْبَدَنَةُ عَنْ سَبْعَةٍ، وَالْبَقَرَةُ عَنْ سَبْعَةٍ» (٩٨٦)، فجعل البقر في حكم الإبل، صارت البدنة في الشرعية متناولة للجنسين

---

٩٨٦ ـ أخرجه مالك (٢/٤٨٦) كتاب الضحايا ـ باب الشركة في الضحايا حديث (٩)، وأحمد (٣/٣٥٣) =

عند أبي حنيفة وأصحابه، وإلا فالبدن هي الإبل وعليه تدل الآية، وقرأ الحسن: «والبُدُن»:

= ـ ٣٦٣) ومسلم (٢/ ٩٥٥) كتاب الحج ـ باب الإشراك في الهدي ـ حديث (١٣١٨/٣٥٠). وأبو داود (٣/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠) كتاب الضحايا ـ باب في البقر والجزور عن كم تجزىء حديث (٢٨٠٩)، والترمذي (٤/ ٨٩) كتاب الأضاحي باب ما جاء في الاشتراك في الأضحية حديث (١٥٠٢)، وابن ماجه (٢/ ١٠٤٧) كتاب الأضاحي ـ باب عن كم تجزىء البدنة والبقرة حديث (٣١٣٢)، والبيهقي (٩/ ٢٩٤) كتاب الضحايا ـ باب الاشتراك في الهدي والأضحية.

من طريق أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال: نحرنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ عام الحديبية البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة.

وأخرجه مسلم (٢/ ٩٥٥) كتاب الحج: باب الاشتراك في الهدي... حديث (١٣١٨/٣٥٣) وأحمد (٣/ ٣٧٨) وابن الجارود (٤٧٩) وابن خزيمة (٤/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨) رقم (٢٩٠٠) والبيهقي (٩/ ٢٩٥) كتاب الضحايا: باب الاشتراك في الهدي والأضحية من طريق ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر قال: «اشتركنا مع النبي ـ ﷺ ـ في الحج والعمرة، كل سبعة في بدنة، فقال رجل لجابر: يشترك في البدنة ما يشترك في الجزور قال: ما هي إلا من البدن».

وأخرجه ابن خزيمة (٤/ ٢٨٨) رقم (٢٩٠١) من طريق عمرو بن الحارث ومالك بن أنس عن أبي الزبير عن جابر به.

وأخرجه مسلم (٢/ ٩٥٥) كتاب الحج: باب الاشتراك في الهدي ـ حديث (١٣١٨/٣٥٢) من طريق عزرة بن ثابت عن أبي الزبير عن جابر وأخرجه أيضاً (١٣١٨/٣٥١) من طريق زهير بن معاوية عن أبي الزبير عن جابر ورواه من هذا الطريق أيضاً أحمد (٣/ ٢٩٢) والبيهقي (٥/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦)، وقد توبع أبو الزبير على هذا الحديث تابعه عطاء بن أبي رباح وأبو سفيان والشعبي وسليمان بن قيس.

متابعة عطاء:

أخرجها مسلم (٢/ ٩٥٦) كتاب الحج: باب الاشتراك في الهدي، حديث (١٣١٨/٣٥٥)، وأبو داود (٢/ ١٠٨) كتاب الضحايا: باب في البقر والجزور حديث (٢٨٠٧)، والنسائي (٧/ ٢٢٢) كتاب الضحايا: باب ما تجزىء عنه البقرة في الضحايا، وأحمد (٣/ ٢٦٣)، والدارقطني (٢/ ٤٧) العيدين، وابن خزيمة (٤/ ٢٨٨) رقم (٢٩٠٢). وأبو يعلى (٤/ ٣١) رقم (٢٠٣٤)، والبيهقي (٩/ ٢٩٥) من طريق هشيم عن عبد الملك عن عطاء عن جابر قال: «كنا نتمتع مع رسول الله ـ ﷺ ـ بالعمرة فنذبح البقرة عن سبعة نشترك فيها».

متابعة أبي سفيان:

أخرجها أحمد (٣/ ٣١٦) من طريق الأعمش عن أبي سفيان عن جابر به.

متابعة عامر الشعبي:

أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٥) والدارقطني (٢/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤) من طريق مجالد بن سعيد عن الشعبي عن جابر به. ومجالد بن سعيد فيه ضعف.

متابعة سليمان بن قيس:

أخرجها أحمد (٣/ ٣٥٣ ـ ٣٦٤) والطيالسي (١/ ٢٢٩ ـ منحة) رقم (١١٠٣) من طريق أبي عوانة حدثنا أبو بشر عن سليمان بن قيس عن جابر به.

قال الحافظ: لم أره مرفوعاً من لفظه. نعم أخرجه أبو داود بلفظ: «الجزور عن سبعة»، وأخرجه مسلم وأصحاب السنن من رواية مالك عن أبي الزبير عن جابر قال: «نحرنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة» وفي الباب عن ابن مسعود عند الطبراني. انتهى.

بضمتين، كثمر في جمع ثمرة، وابن أبي إسحاق بالضمتين وتشديد النون على لفظ الوقف، وقرئ بالنصب والرفع؛ كقوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ﴾ [يس: ٣٩]، ﴿مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي: من أعلام الشريعة التي شرعها الله، وإضافتها إلى اسمه؛ تعظيم لها، ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾؛ كقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ [الحج: ٣٣]، ومن شأن الحاج أن يحرص على شيء فيه خير ومنافع بشهادة الله، عن بعض السلف أنه لم يملك إلا تسعة دنانير، فاشترى بها بدنة، فقيل له في ذلك، فقال: سمعت ربي يقول: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحج: ٣٦]، وعن ابن عباس: دنيا وآخرة، وعن إبراهيم: من احتاج إلى ظهرها ركب، ومن احتاج إلى لبنها شرب، وذكر اسم الله: أن يقول عند النحر: الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، اللهم، منك وإليك، ﴿صَوَآفَّ﴾: قائمات، قد صففن أيديهنّ وأرجلهنّ، وقرئ: «صوافن»: من صفون الفرس، وهو: أن يقوم على ثلاث وينصب الرابعة على طرف سنبكه؛ لأن البدنة تعقل إحدى يديها تقوم على ثلاث، وقرئ: «صوافي»، أي: خوالص لوجه الله، وعن عمرو بن عبيد: «صوافناً»: بالتنوين عوضاً من حرف الإطلاق عند الوقف، وعن بعضهم: صواف[1]؛ نحو مثل العرب، أعط القوس باريها، بسكون الياء.

وجوب الجنوب: وقوعها على الأرض، من وجب الحائط وجبة إذا سقط، ووجبت الشمس جبة: غربت، والمعنى: فإذا وجبت جنوبها وسكنت نسائسها[2] حل لكم الأكل منها والإطعام، ﴿ٱلْقَانِعَ﴾: السائل، من قنعت إليه وكنعت: إذا خضعت له وسألته قنوعاً ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾: المعترض بغير سؤال، أو القانع الراضي بما عنده وبما يعطى من غير سؤال، من قنعت قنعاً وقناعة، والمعتر: المعترض بسؤال، وقرأ الحسن: والمعتري، وعرّه وعراه واعتراه واعتره: بمعنى، وقرأ أبو رجاء: «القنع»، وهو الراضي لا غير، يقال: قنع فهو قنع وقانع.

مَنَّ الله على عباده واستحمد إليهم بأن سخر لهم البدن مثل التسخير الذي رأوا وعلموا، يأخذونها منقادة للأخذ طيعة فيعقلونها ويحبسونها صافة قوائمها، ثم يطعنون في لبانها، ولولا تسخير الله لم تطق، ولم نكن بأعجز من بعض الوحوش التي هي أصغر منها جرماً وأقل ٢/ ٣٠أ قوّة، وكفى بما يتأبد من الإبل شاهداً وعبرة.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟

---

(١) قوله «صواف» لعله: صوافي، بالسكون. (ع)

(٢) قوله «وسكنت نسائسها» في الصحاح «النسيسة، والنسيس» الإيكال بين الناس، والنسائس: النمائم. والنسيس: بقية الروح. وفيه أيضاً «الإيكال بين الناس» السعي بينهم. (ع)

أي: لن يصيب رضا الله اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المهراقة بالنحر، والمراد أصحاب اللحوم والدماء، والمعنى: لن يرضي المضحون والمقربون ربهم إلا بمراعاة النية والإخلاص والاحتفاظ بشروط التقوى في حل ما قرب به، وغير ذلك من المحافظات الشرعية وأوامر الورع، فإذا لم يراعوا ذلك، لم تغن عنهم التضحية والتقريب وإن كثر ذلك منهم، وقرئ: «لن تنال الله»، ولكن تناله: بالتاء والياء، وقيل: كان أهل الجاهلية إذا نحروا البدن نضحوا الدماء حول البيت ولطخوه بالدم، فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك؛ فنزلت.

كرّر تذكير النعمة بالتسخير ثم قال: لتشكروا الله على هدايته إياكم لأعلام دينه ومناسك حجه، بأن تكبروا وتهللوا، فاختصر الكلام بأن ضمن التكبير معنى الشكر، وعدى تعديته.



خص المؤمنين بدفعه عنهم ونصرته لهم؛ كما قال: ﴿ ... ﴾ [غافر: ٥١]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الصافات: ١٧٢]، وقال: ﴿ ... وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الجمعة: ١٣]، وجعل العلة في ذلك أنه لا يحب أضدادهم: وهم الخونة الكفرة الذين يخونون الله والرسول ويخونون أماناتهم ويكفرون نعم الله ويغمطونها[1]، ومن قرأ: (يدافع)، فمعناه: يبالغ في الدفع عنهم، كما يبالغ من يغالب فيه؛ لأن فعل المغالب يجيء أقوى وأبلغ.



﴿وَأُذِنَ﴾، و﴿يُقَاتَلُونَ﴾: قرئا على لفظ المبني للفاعل والمفعول جميعاً، والمعنى:

---

(١) قوله «ويغمطونها» أي: يحقرونها. (ع)

إذن لهم في القتال، فحذف المأذون فيه؛ لدلالة يقاتلون عليه، ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ أي: بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ: كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديداً، وكانوا يأتون رسول الله ـ ﷺ ـ: من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه، فيقول لهم: «اَصْبِرُوا؛ فَإِنِّي لَمْ أُومَرْ بِالْقِتَالِ» ح حَتَّى هاجر؛ فأنزلت هذه الآية (٩٨٧)، وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية، وقيل: نزلت في قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركو مكة فأذن لهم في مقاتلتهم، والأخبار بكونه قادرا على نصرهم عدة منه بالنصر واردة على سنن كلام الجبابرة، وما مرّ من دفعه عن الذين آمنوا مؤذن بمثل هذه العدة، أيضاً، ﴿أَن يَقُولُوا۟﴾: في محل الجرّ على الإبدال من (حق) أي: بغير موجب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب الإقرار والتمكين لا موجب الإخراج والتسيير، ومثله: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٩].

دفع الله بعض الناس ببعض: إظهاره وتسليطه المسلمين منهم على الكافرين بالمجاهدة، ولولا ذلك لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم، وعلى متعبداتهم فهدموها، ولم يتركوا للنصارى بيعاً، ولا لرهبانهم صوامع، ولا لليهود صلوات، ولا للمسلمين مساجد، أو لغلب المشركون من أمّة محمد ـ ﷺ ـ على المسلمين وعلى أهل الكتاب الذين في ذمتهم وهدموا متعبدات الفريقين، وقرئ: «دفاع»، و«لهدمت»: بالتخفيف، وسميت الكنيسة «صلاة»، لأنه يصلى فيها، وقيل: هي كلمة معرّبة، أصلها بالعبرانية: صلوثا، ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: ينصر دينه وأولياءه: هو إخبار من الله ـ عز وجل ـ بظهر الغيب عما ستكون عليه سيرة المهاجرين ـ رضي الله عنهم ـ إن مكنهم

---

٩٨٧ ـ قال الحافظ لم أجده هكذا. وقال الزيلعي (١/٣٨٨): «غريب جداً، وعزاه الواحدي في الوسيط للمفسرين».
قال الواحدي (٣/٢٧٣): «قال المفسرون كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب النبي ـ ﷺ ـ فلا يزالون يجيئون من بين مضروب ومشجوب، ويشكون ذلك فيقول لهم النبي ـ ﷺ ـ «اصبروا فإني لم أومر بالقتال حتى هاجروا» فأنزل الله هذه الآية اهـ.
قال الحافظ: لم أجده هكذا. وعزاه الواحدي في الوسيط للمفسرين. قلت: هو منتزع من أحاديث: أقربها ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾، وذلك أن مشركي أهل مكة كانوا يؤذون المسلمين بمكة، فاستأذنوا النبي ـ ﷺ ـ في قتالهم بمكة. فنهاهم النبي ـ ﷺ ـ عن ذلك فلما خرج النبي ـ ﷺ ـ إلى المدينة أنزل الله عليه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾، وذكر الطبري أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ استأذنوا رسول الله ـ ﷺ ـ في قتال الكفار إذا رأوهم وسطوا عليهم بمكة قبل الهجرة غيلة وعسرا: فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾، فلما هاجروهم أحلوهم مالهم وقتالهم فقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ الآية. انتهى.

في الأرض وبسط لهم في الدنيا، وكيف يقومون بأمر الدين، وعن عثمان ـ رضي الله عنه ـ: هذا والله ثناء قبل بلاء، يريد: أنّ الله قد أثنى عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا، وقالوا: فيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين؛ لأنّ الله لم يعط التمكين ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة غيرهم من المهاجرين، لاحظ في ذلك للأنصار والطلقاء، وعن الحسن: هم أمة محمد ـ ﷺ ـ وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ﴾: منصوب بدل من قول من ينصره، والظاهر أنه مجرور، تابع للذين أخرجوا، ﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: مرجعها إلى حكمه وتقديره، وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه وإعلاء كلمتهم.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾

يقول لرسوله ـ ﷺ ـ تسلية له: لست بأوحدى في التكذيب؛ فقد كذب الرسل قبلك أقوامهم، وكفاك بهم أسوة.

فإن قلت: لم قيل: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾، ولم يقل: وقوم موسى؟

قلت: لأنّ موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل؛ وإنما كذبه غير قومه وهم القبط، وفيه شيء آخر، كأنه قيل بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم، وكذب موسى ـ أيضاً ـ مع وضوح آياته[1]، وعظم معجزاته، فما ظنك بغيره؟

النكير: بمعنى الإنكار والتغيير، حيث أبدلهم بالنعمة محنة، وبالحياة هلاكاً، وبالعمارة خراباً.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾

كل مرتفع أظلك من سقف بيت أو خيمة أو ظلة أو كرم، فهو «عرش»، والخاوي:

---

(١) قال محمود: فإن قلت: لم قيل وكذب موسى ولم يقل وقوم موسى بدون تكرير التكذيب؟ قلت: لأن قوم موسى هم بنو إسرائيل ولم يكذبوه، وإنما كذبه القبط. أو لأن آيات موسى كانت باهرة ظاهرة فكأنه قال: وكذب موسى أيضاً على ظهور آياته، قال أحمد: ويحتمل عندي ـ والله أعلم ـ أنه لما صدر الكلام بحكاية تكذيبهم ثم عدد أصناف المكذبين وطوائفهم ولم ينته إلى موسى إلا بعد طول الكلام، حسن تكريره ليلي قوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ فيتصل المسبب بالسبب، كما قال في آية ق بعد تعديدهم ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ فربط العقاب والوعيد ووصلهما بالتكذيب، بعد أن جدد ذكره، والله أعلم.

الساقط، ٢/ ٣٠ب من خوى النجم إذا سقط، أو الخالي: من خوى المنزل: إذا خلا من أهله، وخوى بطن الحامل، وقوله: ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: لا يخلو من أن يتعلق بخاوية، فيكون المعنى أنها ساقطة على سقوفها، أي: خرّت سقوفها على الأرض، ثم تهدّمت حيطانها فسقطت فوق السقوف، أو أنها ساقطة أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها، وإما أن يكون خبراً بعد خبر، كأنه قيل: هي خالية، وهي على عروشها، أي: قائمة مطلة على عروشها، على معنى: أنّ السقوف سقطت إلى الأرض فصارت في قرار الحيطان وبقيت الحيطان مائلة فهي مشرفة على السقوف الساقطة.

فإن قلت: ما محل الجملتين من الإعراب، أعني: (وهي ظالمة، فهي خاوية)؟

قلت: الأولى: في محل النصب على الحال، والثانية: لا محلّ لها، لأنها معطوفة على أهلكناها، وهذا الفعل ليس له محل، قرأ الحسن: «معطلة»: من أعطله، بمعنى: عطله، ومعنى المعطلة: أنها عامرة فيها الماء، ومعها آلات الاستقاء؛ إلا أنها عطلت، أي: تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها، والمشيد: المجصص أو المرفوع البنيان، والمعنى: كم قرية أهلكنا؟ وكم بئر عطلنا عن سقاتها؟ وقصر مشيد أخليناه عن ساكنيه؟ فترك ذلك؛ لدلالة معطلة عليه، وفي هذا دليل على أنّ (على عروشها) بمعنى: «مع» أوجه، روي أنّ هذه بئر نزل عليها صالح ـ عليه السلام ـ مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به، ونجاهم الله من العذاب، وهي بحضرموت؛ وإنما سميت بذلك لأنّ صالحاً حين حضرها مات، وثمة بلدة عند البئر اسمها: «حاضوراء» بناها قوم صالح، وأمّروا عليهم جلهس بن جلاس، وأقاموا بها زماناً ثم كفروا وعبدوا صنماً، وأرسل الله إليهم حنظلة بن صفوان نبيًا فقتلوه، فأهلكهم الله، وعطل بئرهم، وخرّب قصورهم.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾

يحتمل أنهم لم يسافروا فحثوا على السفر؛ ليروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم، ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا، وأن يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا، فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا، وقرئ: ﴿فيكون لهم قلوب﴾: بالياء، أي: يعقلون ما يجب أن يعقل من التوحيد، ويسمعون ما يجب سماعه من الوحي، ﴿فَإِنَّهَا﴾، الضمير: ضمير الشأن والقصة، يجيء مذكراً ومؤنثاً، وفي قراءة ابن مسعود: «فإنه»، ويجوز أن يكون ضميراً مبهما يفسره: ﴿ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾، وفي تعمى ضمير راجع إليه، والمعنى: أنّ أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها؛ وإنما العمى بقلوبهم، أولا يعتدّ بعمى الأبصار، فكأنه ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب.

فإن قلت: أي فائدة في ذكر الصدور؟

قلت: الذي قد تعورف واعتقد أنّ العمى على الحقيقة مكانه البصر، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها، واستعماله في القلب استعارة ومثل، فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار، احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف؛ ليتقرّر أنّ مكان العمى هو القلوب لا الأبصار، كما تقول: ليس المضاء للسيف، ولكنه للسانك الذي بين فكيك، فقولك: «الذي بين فكيك»: تقرير لما ادّعيته للسانه وتثبيت؛ لأنّ محلّ المضاء هو هو لا غير، وكأنك قلت: ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك فلتة ولا سهواً مني، ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمدا.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾

أنكر استعجالهم بالمتوعد به من العذاب العاجل أو الآجل، كأنه قال: ولم يستعجلون به؟ كأنهم يجوّزون الفوت؛ وإنما يجوز ذلك على ميعاد من يجوز عليه الخلف، والله ـ عز وعلا ـ لا يخلف الميعاد وما وعده ليصيبنهم ولو بعد حين، وهو سبحانه حليم لا يعجل، ومن حلمه ووقاره واستقصاره المدد الطوال أنّ يوماً واحداً عنده كألف سنة[1] عندكم، وقيل: معناه كيف يستعجلون بعذاب مَن يومٌ واحد من أيام عذابه في طول ألف سنة من سنيكم؛ لأنّ أيام الشدائد مستطالة، أو كأن ذلك اليوم الواحد لشدّة عذابه كألف سنة من سني العذاب، وقيل: ولن يخلف الله وعده في النظرة والإمهال، وقرئ: «تعدون»: بالتاء والياء، ثم قال: وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أنظرتهم حيناً ثم أخذتهم بالعذاب والمرجع إليّ وإلى حكمي.

فإن قلت: لم كانت الأولى معطوفة بالفاء، وهذه بالواو؟

قلت: الأولى وقعت بدلاً من قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، وأمّا هذه فحكمها حكم ما تقدّمها من الجملتين المعطوفتين بالواو، أعني قوله: ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾.

---

(١) قال محمود: «فيه إيذان بحلم الله تعالى ووقاره واستقصاره الأمد الطويل حتى إن يوماً واحداً عنده كألف سنة» قال أحمد: الوقار المقرون بالحلم يفهم لغة: السكون وطمأنينة الأعضاء عند المزعجات والأناة والتؤدة، ونحو ذلك مما لا يطلق على الله تعالى إلا بتوقيف. وأما الوقار في قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ فقد فسر بالعظمة فليس من هذا، وعلى الجملة فهو موقوف على ثبت في النقل.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾

يقال: سعيت في أمر فلان: إذا أصلحه أو أفسده بسعيه، وعاجزه: سابقه؛ لأنّ كل واحد منهما في طلب إعجاز الآخر عن اللحاق به، فإذا سبقه قيل: أعجزه وعجزه، والمعنى: سعوا في معناها بالفساد من الطعن فيها؛ حيث سموها: سحراً، وشعراً، وأساطير، ومن تثبيط الناس عنها سابقين أو مسابقين في زعمهم، وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم.

فإن قلت: كأن القياس أن يقال: إنما أنا لكم بشير ونذير، لذكر الفريقين بعده.

قلت: الحديث مسوق إلى المشركين، ويا أيها الناس ٣١/٢أ نداء لهم، وهم الذين قيل فيهم: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [غافر: ٨٢]، ووصفوا بالاستعجال؛ وإنما أقحم المؤمنون وثوابهم ليغاظوا.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾

﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ﴾: دليل بين على تغاير الرسول والنبي، وعن النبي ـ ﷺ ـ أنه سئل عن الأنبياء، فقال: «مَائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفاً» ح، قيل: فكم الرسل منهم: قال: «ثَلاثُمَائِةٍ وَثَلاثَةُ عَشَرَ جُمًّا غَفِيراً» (٩٨٨)، والفرق بينهما: أن الرسول من الأنبياء: من

---

٩٨٨ ـ أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧٦/٢) من طريق إبراهيم بن هشام الغساني عن أنس عن جده عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر، وذكر حديثاً طويلاً جداً. وفيه: قال: قلت: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: «مئة ألف وعشرون ألفاً» قلت: يا رسول الله كم الرسل من ذلك؟ قال: «ثلاث مئة وثلاثة عشر جماً غفيراً... إلى آخر الحديث» وبهذا الإسناد رواه الطبراني في الكبير (١٥٧/٢) رقم (١٦٥١) وأبو نعيم في الحلية (١٦٦/١ ـ ١٦٩).
والطبراني أيضاً في مكارم الأخلاق رقم (١) مختصراً وروى جزءاً من هذا الحديث الطويل ابن ماجه في سننه (١٤١٠/٢) كتاب الزهد، باب الورع والتقوى حديث (٤٢١٨) قال الهيثمي في المجمع (٢١٩/٤): «فيه إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني وثقه ابن حبان وضعفه أبو حاتم وأبو زرعة» اهـ.
ورواه الحاكم في المستدرك (٥٩٧/٢) قال: حدثناه أبو الحسن علي بن الفضل بن إدريس السامري ببغداد ثنا الحسن بن عرفة بن يزيد العبدي حدثني يحيى بن سعيد السعدي البصري ثنا عبد الملك بن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير الليثي عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ فرواه ساكتا عليه. =

جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه، والنبيّ غير الرسول: من لم ينزل عليه كتاب؛ وإنما أمر أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله، والسبب في نزول هذه الآية أنّ رسول الله - ﷺ - لما أعرض عنه قومه وشاقوه، وخالفه عشيرته، ولم يشايعوه على ما جاء به - تمنى لفرط ضجره من إعراضهم ولحرصه وتهالكه على إسلامهم ألاَّ ينزل عليه ما ينفرهم، لعله يتخذ ذلك طريقاً إلى استمالتهم واستنزالهم عن غيهم وعنادهم، فاستمرّ به ما تمناه حتى نزلت عليه سورة: (والنجم)، وهو في نادي قومه؛ وذلك التمني في نفسه، فأخذ يقرؤها، فلما بلغ قوله: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾: التي تمناها، أي: وسوس إليه بما شيعها به، فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط إلى أن قال: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهنّ لترتجى (٩٨٩)، وروي: الغرانقة، ولم يفطن له

= وتعقبه الذهبي بقوله: قلت السعدي ليس بثقة .اهـ.
وله طريق آخر: رواه أحمد (٥/ ٢٦٥ - ٢٦٦)، والطبراني في الكبير (٨/ ٢٥٨) رقم (٧٨٧١) من طريق أبي المغيرة ثنا معان بن رفاعة ثنا علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة قال: كان رسول الله - ﷺ - جالساً وكانوا يظنون الوحي ينزل عليه فأقصروا عنه حتى جاء أبو ذر فاقتحم فأتاه فجلس إليه فذكر حديثاً طويلاً فيه ذكر الأنبياء.
قال الهيثمي في المجمع (٣/ ١١٨): «رواه أحمد في حديث طويل والطبراني، وفيه علي بن يزيد وفيه كلام» اهـ.
قال مرة أخرى (١/ ١٦٤) ومداره علي بن زيد وهو ضعيف اهـ.
قال الحافظ: أخرجه أحمد وإسحاق من رواية معاذ بن رفاعة عن علي بن زيد عن القاسم عن أبي أمامة: «أن أبا ذر سأل رسول الله - ﷺ -: كم الأنبياء؟ فقال: مثله، وعلي ضعيف. ورواه ابن حبان من طريق إبراهيم بن هشام الغساني حدثنا أبي عن حذيفة. يعني يحيى الغساني عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر - فذكره في حديث طويل جداً. وأفرط ابن الجوزي، فذكره في الموضوعات، واتهم به إبراهيم بن هشام المذكور. ولم يصب في ذلك: فإنها طريقاً أخرجها الحاكم وغيره من رواية يحيى بن سعيد السعيدي عن ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن أبي ذر بطوله. ويحيى السعيدي ضعيف. ولكن لا يأتي الحكم بالوضع مع هذه المتابعة. انتهى.

٩٨٩ - رواه البزار في مسنده (٢٢٦٣ - كشف) حدثنا يوسف بن حماد ثنا أمية بن خالد ثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسب أن النبي - ﷺ - كان بمكة فقرأ سورة النجم حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾، فجرى على لسانه: تلك الغرانيق العلى الشفاعة منها ترتجي، قال: فسمع ذلك مشركو مكة فسروا بذلك فاشتد على رسول الله - ﷺ - فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾. انتهى.
ثم قال: هذا حديث لا نعلمه يروى عن النبي - ﷺ - بإسناد متصل يجوز ذكره إلا بهذا الإسناد، ولا نعلم أحداً أسند هذا الحديث عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد عن ابن عباس إلا أمية، ولم نسمعه نحن إلا من يوسف بن حماد، وكان ثقة وغير أمية يحدث به عن أبي بشر عن سعيد بن جبير مرسلاً، وإنما يعرف هذا الحديث عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وأمية ثقة مشهور» اهـ. =

حتى أدركته العصمة فتنبه عليه، وقيل: نبهه جبريل ـ عليه السلام ـ أو تكلم الشيطان بذلك

= والحديث رواه الطبراني أيضاً (١٢/ ٥٣) رقم (١٢٤٥٠) من طريق البزار.
ورواه ابن جرير في التفسير نحوه (١٧٦/٩) رقم (٢٥٣٣٣)، وذكره السيوطي في الدر (٦٦١/٤)، وعزاه للضياء في المختارة ولابن مردويه في التفسير.
قال الهيثمي في المجمع (١١٨/٧): «رواه البزار والطبراني... ورجالهما رجال الصحيح...»، وأخرج ابن جرير (١٧٦/٩) رقم (٢٥٣٣١)، عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ قرأها رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى، فسجد رسول الله ـ ﷺ ـ فقال المشركون: إنه لم يذكر آلهتكم قبل اليوم بخير، فسجد المشركون معه فأنزل الله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾. وذكره السيوطي في الدر (٦٦١/٤) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه، وصحح إسناده، وحديث ابن عباس ذكره البغوي في التفسير (٣/ ٢٩٢)، والواحدي في التفسير أيضاً (٣/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧).
قال الحافظ: أخرجه البزار، والطبري، والطبراني، وابن مردويه من طريق أمية بن خالد عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال: لا أعلمه إلا عن ابن عباس «أن النبي ـ ﷺ ـ كان بمكة فقرأ سورة النجم، حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ فجرى على لسانه: تلك الغرانيق العلا، الشفاعة منها ترتجى، قال: فسمع بذلك مشركو مكة، فسروا بذلك. فاشتبه على رسول الله ـ ﷺ ـ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ ـ الآية، «زاد في رواية ابن مردويه: فلما بلغ آخرها سجد وسجد معه المسلمون والمشركون» ورواه الطبري من طريق سعيد بن جبير مرسلاً. وأخرجه ابن مردويه من طريق أبي عاصم النبيل عن عثمان بن الأسود عن سعيد بن جبير عن ابن عباس نحوه. ولم يشك في وصله، وهذا أصح طرق هذا الحديث. قال البزار: تفرد بوصله أمية بن خالد عن شعبة، وغيره يرويه عنه مرسلاً. وأخرجه الطبري وابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس. وهو من طريق العوفي عن جده عطية عنه، وأخرجه الطبري من طريق محمد بن كعب القرظي، ومن طريق قتادة، ومن طريق أبي العالية. فهذه مراسيل يقوي بعضها بعضاً. وأصل القصة في الصحيح بلفظ: «أن النبي ـ ﷺ ـ وهو بمكة ـ فسجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس» قال البزار: المعروف في هذه رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وأخرجها ابن مردويه من طريقه، وأخرجه الواقدي من طريق أخرى. قلت: وفي مجموع ذلك رد على عياض حيث قال: إن من ذكر من المفسرين وغيرهم لم يسندها أحد منهم، ولا رفعها إلى صاحب إلا رواية البزار. وقد بين البزار أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى ما ذكره وفيه ما فيه مع وقوع الشك. قلت: أما ضعفه فلا ضعف فيه أصلاً. فإن الجميع ثقات وأما الشك فيه فقد يجيء تأثيره ولو فرداً غريباً لكن غايته أنه يصير مرسلاً، إنما هو حجة عند عياض وغيره ممن يقبل مرسل الثقة، أما هو حجة إذا اعتضد عند من يرد المرسل إنما يعتضد بكثرة المتابعات. تبع ثقة رجالها. وأما طعنه فيه باختلاف الألفاظ فلا تأثير للروايات الضعيفة الواهية في الرواية القوية. فيعتمد من القصة على الرواية الصحيحة أي يعتمد على الرواية المتابعة وليس فيها ولا فيما تابعها اضطراب والاضطراب في غيرها. فيكفي، لأنه ضعيف برواية الكلبي، ويكفي ما عداها، وأما طعنه فيه من جهة المعنى فله أسوة كثيرة من الأحاديث الصحاح التي لا يؤخذ بظاهرها، بل يرد بالتأويل المعتمد إلى ما يليق بقواعد الدين. انتهى.

فأسمعه الناس، فلما سجد في آخرها سجد معه جميع من في النادي وطابت نفوسهم، وكان تمكين الشيطان من ذلك محنة من الله وابتلاء، زاد المنافقون به شكًا وظلمة، والمؤمنون نوراً وإيقاناً، والمعنى: أن الرسل والأنبياء من قبلك كانت هجيراهم كذلك إذا تمنوا مثل ما تمنيت، مكن الله الشيطان ليلقي في أمانيهم مثل ما ألقى في أمنيتك، إرادة امتحان من حولهم، والله سبحانه له أن يمتحن عباده بما شاء من صنوف المحن وأنواع الفتن؛ ليضاعف ثواب الثابتين ويزيد في عقاب المذبذبين، وقيل: (تمنى): قرأ، وأنشد [من الطويل]:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ ... تَمَنِّيَ دَاوُدَ الزَّبُورَ عَلَى رِسْلِ[1]

وأمنيته: قراءته، وقيل: تلك الغرانيق: إشارة إلى الملائكة، أي: هم الشفعاء لا الأصنام، ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: يذهب به ويبطله، ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يثبتها.

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

والذين ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: المنافقون والشاكون، ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: المشركون المكذبون، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يريد: وإن هؤلاء المنافقين والمشركين، وأصله: وإنهم، فوضع الظاهر موضع الضمير قضاء عليهم بالظلم، ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: ليعلموا أن تمكين الشيطان من الإلقاء: هو الحق من ربك والحكمة، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ﴾: أن يتأوّلوا ما يتشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة، ويطلبوا لما أشكل منه المحمل الذي تقتضيه الأصول المحكمة والقوانين الممهدة؛ حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة ولا تزل أقدامهم، وقرئ: «لهادٍ الذين آمنوا»: بالتنوين.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾

الضمير في ﴿مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾: للقرآن أو الرسول ـ ﷺ ـ اليوم العقيم: يوم بدر؛ وإنما وصف يوم الحرب بالعقيم؛ لأنّ أولاد النساء يقتلون فيه، فيصرن كأنهن عقم لم يلدن، أو

---

(١) تقدم.

لأن المقاتلين يقال لهم: أبناء الحرب، فإذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز، وقيل: هو الذي لا خير فيه، يقال: ريح عقيم: إذا لم تنشىء مطراً ولم تلقح شجراً، وقيل: لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة ـ عليهم السلام ـ فيه، وعن الضحاك: أنه يوم القيامة، وأن المراد بالساعة: مقدّماته، ويجوز أن يراد بالساعة وبيوم عقيم: يوم القيامة، وكأنه قيل: حتى تأتيهم الساعة أو يأتيهم عذابها، فوضع (يوم عقيم) موضع الضمير.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾

فإن قلت: التنوين في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ عن أي جملة ينوب؟

قلت: تقديره: الملك يوم يؤمنون، أو يوم تزول مريتهم؛ لقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الحج: ٥٥].

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

لما جمعتهم المهاجرة في سبيل الله سوّى بينهم في الموعد، وأن يعطي من مات منهم مثل ما يعطي من قتل تفضلاً منه وإحساناً، والله عليم بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم، ﴿حَلِيمٌ﴾: عن تفريط المفرط منهم بفضله وكرمه؛ روي أن طوائف من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ ورضي عنهم ـ قالوا: يا نبي الله، هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير، ونحن نجاهد معك كما جاهدوا، فما لنا إن متنا معك؟ فأنزل الله هاتين الآيتين.

﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾

تسمية الابتداء بالجزاء؛ لملابسته له من حيث أنه سبب وذاك مسبب عنه كما يحملون النظير على النظير والنقيض على النقيض للملابسة.

فإن قلت: كيف طابق ذكر العفوّ الغفور هذا الموضع؟ قلت ٢/٣١ب: المعاقب مبعوث من جهة الله ـ عزّ وجلّ ـ على الإخلال بالعقاب، والعفو عن الجاني ـ على طريق

التنزيه لا التحريم ـ ومندوب إليه، ومستوجب عند الله المدح إن آثر ما ندب إليه وسلك سبيل التنزيه، فحين لم يؤثر ذلك وانتصر وعاقب، ولم ينظر في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾: فإن الله لعفو غفور، أي: لا يلومه على ترك ما بعثه عليه، وهو ضامن لنصره في كرته الثانية من إخلاله بالعفو وانتقامه من الباغي عليه، ويجوز أن يضمن له النصر على الباغي، ويعرّض مع ذلك بما كان أولى به من العفو، ويلوّح به بذكر هاتين الصفتين، أو دلّ بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة؛ لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضدّه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك النصر بسبب أنه قادر، ومن آيات قدرته البالغة أنه ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾، أو بسبب: أنه خالق الليل والنهار ومصرفهما فلا يخفى عليه ما يجري فيهما على أيدي عباده من الخير والشر والبغي والإنصاف، وأنه ﴿سَمِيعٌ﴾: لما يقولون، ﴿بَصِيرٌ﴾: بما يفعلون.

فإن قلت: ما معنى: إيلاج أحد الملوين في الآخر؟

قلت: تحصيل ظلمة هذا في مكان ضياء ذاك بغيبوبة الشمس، وضياء ذاك في مكان ظلمة هذا بطلوعها، كما يضيء السرب[1] بالسراج ويظلم بفقده، وقيل: هو زيادته في أحدهما ما ينقص من الآخر من الساعات.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾

وقرئ (تدعون): بالتاء والياء، وقرأ اليماني: و«أن ما يدعون»، بلفظ المبني للمفعول، والواو راجعة إلى «ما»؛ لأنه في معنى الآلهة، أي: ذلك الوصف بخلق الليل والنهار والإحاطة بما يجري فيهما وإدراك كل قول وفعل، بسبب أنه الله الحق الثابت إلهيته، وأن كل ما يدعى إلهاً دونه باطل الدعوة، وأنه لا شيء أعلى منه شأناً وأكبر سلطاناً.

---

(١) قوله «كما يضيء السرب» السرب ـ بالفتح ـ: والسرب ـ بالتحريك ـ: بيت في الأرض. أفاده الصحاح. (ع)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾

قرئ: ﴿مُخْضَرَّةً﴾ أي: ذات خضر، على مفعلة، كمقبلة ومسبعة.

فإن قلت: هلا قيل: فأصبحت؟ ولم صرف إلى لفظ المضارع؟

قلت: لنكتة فيه، وهي: إفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، كما تقول: أنعم عليّ فلان عام كذا، فأروح وأغدو شاكراً له، ولو قلت: فرحت وغدوت، لم يقع ذلك الموقع.

فإن قلت: فما له رفع ولم ينصب جوابا للاستفهام؟

قلت: لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض؛ لأنّ معناه إثبات الاخضرار، فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار، مثاله أن تقول لصاحبك: أم تر أني أنعمت عليك فتشكر: إن نصبته فأنت ناف لشكره شاك تفريطه فيه، وإن رفعته فأنت مثبت للشكر، وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم في علم الإعراب وتوقير أهله، ﴿لَطِيفٌ﴾: واصل علمه أو فضله إلى كل شيء، ﴿خَبِيرٌ﴾: بمصالح الخلق ومنافعهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: من البهائم مذللة للركوب في البر، ومن المراكب جارية في البحر، وغير ذلك من سائر المسخرات، وقرئ: (والفلك): بالرفع على الابتداء، ﴿أَن تَقَعَ﴾: كراهة أن تقع ﴿إِلَّا﴾: بمشيئته ﴿أَحْيَاكُمْ﴾: بعد أن كنتم جماداً تراباً، ونطفة، وعلقة، ومضغة، ﴿لَكَفُورٌ﴾: لجحود؛ لما أفاض عليه من ضروب النعم.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾

هو نهي لرسول الله ـ ﷺ ـ أي: لا تلتفت إلى قولهم ولا تمكنهم من أن ينازعوك، أو هو زجر لهم عن التعرض لرسول الله ـ ﷺ ـ بالمنازعة في الدين وهم جهال لا علم عندهم وهم كفار خزاعة، روي أن بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان الخزاعيين وغيرهما قالوا

للمسلمين: ما لكم تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتله الله! يعنون: الميتة، وقال الزجاج: هو نهي له - ﷺ - عن منازعتهم، كما تقول: لا يضاربنك فلان، أي: لا تضاربه، وهذا جائز في الفعل الذي لا يكون إلا بين اثنين ﴿فِي ٱلْأَمْرِ﴾: في أمر الدين، وقيل: في أمر النسائك، وقرئ: فلا ينزعنك، أي: اثبت في دينك ثباتاً لا يطمعون أن يجذبوك ليزيلوك عنه، والمراد: زيادة التثبيت للنبي - ﷺ - بما يهيج حميته ويلهب غضبه لله ولدينه؛ ومنه قوله: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٨٧]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]، وهيهات أن ترتع همة رسول الله - ﷺ - حول ذلك الحمى؛ ولكنه وارد على ما قلت لك من إرادة التهييج والإلهاب، وقال الزجاج: هو من نازعته فنزعته أنزعه، أي: غلبته، أي: لا يغلبنك في المنازعة.

فإن قلت: لم جاءت نظيرة هذه الآية[١] معطوفة بالواو، وقد نزعت عن هذه؟

قلت: لأنّ تلك وقعت مع ما يدانيها ويناسبها من الآي الواردة في أمر النسائك، فعطفت على أخواتها، وأما هذه فواقعة مع أباعد عن معناها فلم تجد معطفاً.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾

أي: وإن أبوا للجاجهم إلا المجادلة بعد اجتهادك ألاّ يكون بينك وبينهم تنازع، فادفعهم بأن الله أعلم بأعمالكم وبقبحها وبما تستحقون عليها من الجزاء فهو مجازيكم به، وهذا وعيد وإنذار، ولكن برفق ولين.

﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ ٢/ ٣٢أ: خطاب من الله للمؤمنين والكافرين، أي: يفصل بينكم بالثواب والعقاب ومسلاة للنبي - ﷺ - مما كان يلقى منهم، وكيف يخفى عليه ما يعملون، ومعلوم عند العلماء بالله أنه يعلم كل ما يحدث في السموات والأرض، وقد كتبه في اللوح قبل حدوثه، والإحاطة بذلك وإثباته وحفظه عليه، ﴿يَسِيرٌ﴾؛ لأن العالم الذات لا يتعذر عليه ولا يمتنع تعلق بمعلوم[٢].

---

(١) قوله «نظيرة هذه الآية» هي قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ إلخ. (ع)

(٢) قال محمود: «معناه أن الله عالم بالذات لا يتعذر عليه تعلق بمعلوم» قال أحمد: وقد تقدم مثله وأنكرنا عليه تحميله القرآن ما لا يحتمله، فإن الأعلم في اللغة: ذو العلم الزائد المفضل على علم =

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾

﴿وَيَعْبُدُونَ﴾: ما لم يتمسكوا في صحة عبادته ببرهان سماوي من جهة الوحي والسمع، ولا ألجأهم إليها علم ضروري، ولا حملهم عليها دليل عقلي، ﴿وَمَا﴾: للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم من أحد ينصرهم ويصوّب مذهبهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

﴿الْمُنكَرَ﴾: الفظيع من التجهم والبسور[1]، أو الإنكار، كالمكرم بمعنى: الإكرام، وقرئ: «يعرف»، والمنكر، والسطو: الوثب والبطش، قرئ: (النار): بالرفع، على أنه خبر مبتدأ محذوف، كأنّ قائلاً قال: ما هو؟ فقيل: النار، أي: هو النار، وبالنصب على الاختصاص، وبالجرّ على البدل من: ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾: من غيظكم على التالين وسطوكم عليهم، أو مما أصابكم من الكراهة والضجر بسبب ما تلي عليكم، ﴿وَعَدَهَا اللَّهُ﴾: استئناف كلام، ويحتمل أن تكون (النار): مبتدأ، و(وعدها): خبراً، وأن يكون حالاً عنها إذا نصبتها أو جررتها بإضمار «قد».

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾

فإن قلت: الذي جاء به ليس بمثل، فكيف سماه مثلاً؟

قلت: قد سميت الصفة أو القصة الرائعة الملتقاة بالاستحسان والاستغراب: مثلاً؛ تشبيهاً لها ببعض الأمثال المسيرة؛ لكونها مستحسنة مستغربة عندهم، قرئ: (تدعون): بالتاء والياء، ويدعون: مبنيًا للمفعول، ﴿لَن﴾: أخت «لا» في نفي المستقبل، إلا أن «لن»

= غيره، فكيف يفسر بما ينفي صفة العلم البتة؟ هب أن الأدلة العقلية لا وجود لها، والله الموفق للصواب.

(١) قوله «التجهم والبسور» كل منهما: كلوح الوجه. أفاده الصحاح. (ع)

تنفيه نفياً مؤكداً، وتأكيده ههنا الدلالة[1] على أن خلق الذباب منهم مستحيل مناف لأحوالهم، كأنه قال: محال أن يخلقوا.

فإن قلت: ما محل: ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾؟

قلت: النصب على الحال، كأنه قال: مستحيل أن يخلقوا الذباب مشروطاً عليهم اجتماعهم جميعاً لخلقه وتعاونهم عليه، وهذا من أبلغ ما أنزله الله في تجهيل قريش واستركاك عقولهم، والشهادة على أن الشيطان قد خزمهم بخزائمه[2]؛ حيث وصفوا بالإلهية ـ التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها ـ صوراً وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه وأذله وأصغره وأحقره، ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا، وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء قدرتهم: أن هذا الخلق الأقل الأذل لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا، وقوله: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾: كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف، ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف؛ لأن الذباب حيوان، وهو جماد، وهو غالب وذاك مغلوب، وعن ابن عباس: أنهم كانوا يطلونها بالزعفران، ورءوسها بالعسل، ويغلقون عليها الأبواب، فيدخل الذباب من الكوى فيأكله.

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي: ما عرفوه حق معرفته، حتى لا يسموا باسمه من هو منسلخ عن صفاته بأسرها، ولا يؤهلوه للعبادة، ولا يتخذوه شريكاً له: إن الله قادر غالب، فكيف يتخذ العاجز المغلوب شبيهاً به؟

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾

هذا ردّ لما أنكروه من أن يكون الرسول من البشر، وبيان أن رسل الله على ضربين: ملائكة وبشر، ثم ذكر أنه ـ تعالى ـ درّاك للمدركات، عالم بأحوال المكلفين ما مضى منها وما غبر، لا تخفى عليه منهم خافية، وإليه مرجع الأمور كلها، والذي هو بهذه الصفات، لا يسأل عما يفعل، وليس لأحد أن يعترض عليه في حكمه وتدابيره واختيار رسله.

---

(١) قوله «الدلالة» لعله «للدلالة» كعبارة النسفي. (ع)

(٢) قوله «إن الشيطان قد خزمهم بخزائمه» في الصحاح، خزمت البعير بالخزامة، وهي حلقة من شعر تجعل في وترة أنفه، يشد فيها الزمام. (ع)

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾

للذكر شأن ليس لغيره من الطاعات، وفي هذه السورة دلالات على ذلك، فمن ثمة دعا المؤمنين أولاً إلى الصلاة التي هي ذكر خالص، ثم إلى العبادة بغير الصلاة كالصوم والحج والغزو، ثم عمّ بالحث على سائر الخيرات، وقيل: كان الناس أوّل ما أسلموا يسجدون بلا ركوع ويركعون بلا سجود، فأمروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود، وقيل: معنى ﴿وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾: اقصدوا بركوعكم وسجودكم وجه الله، وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾: صلة الأرحام ومكارم الأخلاق، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: افعلوا هذا كله وأنتم راجون للفلاح طامعون فيه، غير مستيقنين ولا تتكلوا على أعمالكم، وعن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي سُورَةِ الْحَجِّ سَجْدَتَانِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنْ لَمْ تَسْجُدْهُمَا، فَلاَ تَقْرَأْهُمَا» (٩٩٠)، وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ فضّلت سورة الحج بسجدتين (٩٩١)، وبذلك احتج الشافعي ـ رضي الله عنه ـ فرأى سجدتين في سورة الحج، وأبو حنيفة وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ لا يرون فيها إلا سجدة واحدة؛ لأنهم يقولون: قرن السجود بالركوع؛ ٢/ ٣٢ب فدل ذلك على أنها سجدة صلاة لا سجدة تلاوة.

﴿وَجَـٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

---

٩٩٠ ـ أخرجه أبو داود (١/ ٤٤٦) كتاب الصلاة، باب تفريع أبواب السجود وكم سجدة في القرآن حديث (١٤٠٢)، والترمذي (٢/ ٤٧٠ ـ ٤٧١) أبواب الصلاة، باب ما جاء في السجدة في الحج حديث (٥٧٨)، وأحمد في المسند (٤/ ١٥١ ـ ١٥٥)، والدارقطني (١/ ٤٠٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٣١٧)، وفي المعرفة (٢/ ١٥٣) رقم (١١٠٦)، والحاكم في المستدرك (١/ ٢٢١)، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف للطبراني في الكبير.
قال الحافظ: لم أره بصيغة المواجهة، وإنما أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد والدارقطني والطبراني والحاكم؛ كلهم من رواية ابن لهيعة عن فرج بن ماهان عن عقبة بلفظ: «ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما» قال الترمذي: إسناده ليس بالقوي. انتهى.

٩٩١ ـ ذكره الشافعي في الأم (١/ ١٣٨) عن عمر ورواه البيهقي في المعرفة ١/ ١٥٢ رقم (١١٠٣).

﴿وَجَـٰهِدُواْ﴾: أمر بالغزو وبمجاهدة النفس والهوى وهو الجهاد الأكبر، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه رجع من بعض غزواته فقال: «رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الأَكْبَرِ» (٩٩٢) ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ أي: في ذات الله ومن أجله، يقال: هو حق عالم، وجدّ عالم، أي: عالم حقًّا وجدًّا، ومنه: ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾.

فإن قلت: ما وجه هذه الإضافة، وكان القياس: حق الجهاد فيه أو حق جهادكم فيه، كما قال: ﴿وَجَـٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ﴾؟

قلت: الإضافة: تكون بأدنى ملابسة واختصاص، فلما كان الجهاد مختصاً بالله من حيث أنه مفعول لوجهه ومن أجله، صحت إضافته إليه، ويجوز أن يتسع في الظرف؛ كقوله [من الطويل]:

وَيَـوْمـا شَـهِـدْنَـاهُ سُـلَـيْـمـاً وَعَـامِـراً(١) . . . .

﴿ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾: اختاركم لدينه ولنصرته، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾: فتح باب التوبة للمجرمين، وفسح بأنواع الرخص والكفارات والديات والأروش؛ ونحوه قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وأمّة محمد ـ ﷺ ـ هي الأمة المرحومة الموسومة بذلك في الكتب المتقدمة.

نصب الملة بمضمون ما تقدّمها، كأنه قيل: وسع دينكم توسعة ملة أبيكم، ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، أو على الاختصاص، أي: أعني بالدين ملة أبيكم؛ كقولك: الحمد لله الحميد.

فإن قلت: لم يكن ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ أبا للأمّة كلها.

---

٩٩٢ ـ وقال الزيلعي (٢/ ٣٩٥): غريب جداً وذكره الثعلبي هكذا من غير سند» وعزاه أيضاً للنسائي في كتاب الكنى وقد روى البيهقي في الزهد الكبير رقم (٣٧٣) أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان أنبأنا أحمد بن عبيد ثنا تمتام ثنا عيسى بن إبراهيم ثنا يحيى بن يعلى عن ليث عن عطاء عن جابر قال: «قدم على رسول الله ـ ﷺ ـ قوم غزاة فقال ـ ﷺ ـ: قدمتم خير مقدم من جهاد الأصغر إلى جهاد الأكبر قيل وما جهاد الأكبر؟ قال مجاهدة العبد هواه» ثم قال وهذا إسناد فيه ضعف.
قال الحافظ: هكذا ذكره الثعلبي بغير سند، وأخرجه البيهقي في الزهد من حديث جابر، قال «قدم على رسول الله ـ ﷺ ـ قوم غزاة. فقال: قدمتم بخير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. قيل: وما الجهاد الأكبر؟ قال: مجاهدة العبد هواه» قال: فيه ضعف، قلت: هو من رواية عيسى بن إبراهيم عن يحيى بن يعلى عن ليث بن أبي سليم، والثلاثة ضعفاء، وأورده النسائي في الكنى من قول إبراهيم بن أبي عبلة، أحد التابعين من أهل الشام. انتهى.

---

(١) تقدم.

قلت: هو أبو رسول الله ـ ﷺ ـ فكان أبًا لأمته؛ لأنّ أمة الرسول في حكم أولاده، ﴿هُوَ﴾: يرجع إلى الله تعالى، وقيل: إلى إبراهيم؛ ويشهد للقول الأوّل قراءة أبيّ بن كعب: الله سماكم، ﴿مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ أي: من قبل القرآن في سائر الكتب وفي القرآن، أي: فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم، ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾: أنه قد بلغكم، ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: بأنّ الرسل قد بلغتهم، وإذ خصكم بهذه الكرامة والأثرة، فاعبدوه وثقوا به ولا تطلبوا النصرة والولاية إلا منه؛ فهو خير مولى وناصر.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحَجِّ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ كَحَجَّةٍ حَجَّهَا، وعُمرةٍ اعْتَمَرَهَا بِعَدَدِ مَنْ حَجَّ وَاعْتَمَرَ فِيمَا مَضَىٰ وَفِيمَا بَقِيَ» (٩٩٣).

---

٩٩٣ ـ تقدم برقم (٣٤٦).
قال الحافظ: أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب بالإسناد المذكور في سورة آل عمران. انتهى.

سُورَةُ المُؤْمِنُونَ

مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مَائَةٌ وَتِسْعُ عَشْرَةَ آيَةً، وَثَمَانِي عَشْرَةَ عِنْدَ الكُوفِيِّينَ

[نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الأَنْبِيَاءِ]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾

﴿قَدْ﴾: نقيضة «لما» هي تثبت المتوقع و«لما» تنفيه، ولا شك أن المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة، وهي الإخبار بثبات الفلاح لهم، فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه، والفلاح: الظفر بالمراد، وقيل: البقاء في الخير، و﴿أَفْلَحَ﴾: دخل في الفلاح، كأبشر: دخل في البشارة، ويقال: أفلحه: أصاره إلى الفلاح، وعليه قراءة طلحة بن مصرف: «أُفلح»، على البناء للمفعول، وعنه: «أفلحوا»، على: أكلوني البراغيث، أو على الإبهام والتفسير، وعنه: «أفلحُ»؛ بضمة بغير واو؛ اجتزاء بها عنها؛ كقوله: [الوافر]

فَــلَــوْ أَنَّ الأَطِــبَّــا كَــانُ حَــوْلِــي . . . .[1]

فإن قلت: ما المؤمن؟

قلت: هو في اللغة المصدق، وأما في الشريعة فقد اختلف فيه على قولين:

أحدهما: أنّ كل من نطق بالشهادتين مواطئاً قلبه لسانه فهو مؤمن.

والآخر: أنه صفة مدح، لا يستحقها إلا البرّ التقيّ دون الفاسق الشقي[2].

---

(١) فــلــو أن الأطــبــا كــانُ حــولــي وكــان مــع الأطــبــاء الأســاة
الأصل: كانوا حولي، فقصره وقصر «الأطباء» لضرورة الوزن وهم علماء الطب. والأساة: جمع آس، كالسعاة: جمع ساع، وهم المباشرون للعلاج من الأطباء، من الأسى كالفتى، بمعنى المداواة، والإساء ـ بالكسر ـ: الدواء، ولعله أصل الرواية، كما روي الشفاء، فحقه حرف الألف.

(٢) قال محمود: «اختلف في الإيمان على قولين، أحدهما: أن كل من نطق بالشهادتين مواطئاً قلبه لسانه فقد اتصف بالإيمان. والآخر: أنه صفة مدح لا يستحقها إلا للبر التقي دون الفاسق الشقي
قال أحمد: والأول مذهب الأشعرية، والثاني مذهب المعتزلة، والموحد الفاسق عندهم لا مؤمن =

الخشوع في الصلاة: خشية القلب وإلباد البصر ـ عن قتادة: وهو إلزامه موضع السجود، وعن النبي ـ ﷺ ـ: أنه كان يصلي رافعاً بصره إلى السماء، فلما نزلت هذه الآية، رمى ببصره نحو مسجده (٩٩٤)، وكان الرجل من العلماء إذا قام إلى الصلاة، هاب الرحمن أن يشدّ بصره إلى شيء، أو يحدّث نفسه بشأن من شأن الدنيا، وقيل: هو جمع الهمة لها، والإعراض عما سواها، ومن الخشوع: أن يستعمل الآداب، فيتوقى كفّ الثوب، والعبث بجسده وثيابه، والالتفات، والتمطي، والتثاؤب، والتغميض، وتغطية الفم، والسدل، والفرقعة، والتشبيك، والاختصار، وتقليب الحصا، روي عن النبي ـ ﷺ ـ أنه أبصر رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: «لَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ خَشَعَتْ جَوَارِحُهُ» (٩٩٥)، ونظر الحسن إلى رجل يعبث بالحصا وهو يقول: اللهمَّ، زوجني الحور العين، فقال: بئس الخاطب أنت! تخطب وأنت تعبث.

---

٩٩٤ ـ أخرجه الحاكم (٢/٣٩٣) من حديث أيوب عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ فطأطأ رأسه.

ثم قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، لولا خلاف فيه على محمد فقد قيل عنه مرسلاً ولم يخرجاه اهـ.

والمرسل رواه أبو داود في المراسيل رقم (٤٥) والبيهقي في السنن (٢/٢٨٣) كتاب الصلاة، باب لا يجاوز بصره موضع سجوده، والطبري في تفسيره (٩/١٩٧) رقم (٢٥٤١٤)، وذكره السيوطي في الدر (٥/٤) وعزاه لسعيد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، وعزاه الزيلعي للواحدي في أسباب النزول.

قال الحافظ: أخرجه الحاكم من رواية ابن سيرين عن أبي هريرة، لكن قال: «فطأطأ رأسه» وقال: صحيح إلا أنه روي مرسلاً اهـ. والمرسل أخرجه أبو داود والطبري عن ابن سيرين عن النبي ـ ﷺ ـ وقال: فيه نظر هكذا، وأخرجه الواحدي في الأسباب من طريق ابن علية، عن أيوب. عن ابن سيرين موصولاً. انتهى.

٩٩٥ ـ عزاه الحافظ والزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف وكذا السيوطي في الدر (٥/٥) والسيوطي في =

= ولا كافر. ولو لم يبن المعتزلة على هذا المعتقد تحريم الجنة على الموحد الفاسق بناء على أنه لا يندرج في وعد المؤمنين، لكان البحث معهم لفظياً؛ ولكن رتبوا على ذلك أمراً عظيماً من أصول الدين وقواعده. وقد نقل القاضي عنهم في رسالة الإيمان خبطاً طويلاً، فنقل عن قدمائهم كعمرو بن عبيد وطبقته أن الإيمان هو التصديق بالقلب وجميع فرائض الدين فعلاً وتركاً. ونقل عن أبي الهذيل العلاف أن الإيمان هو جميع فرائض الدين ونوافله. ومختصر دليل القاضي لأهل السنة أن الإيمان لغة هو مجرد التصديق اتفاقاً، فوجب أن يكون كذلك شرعاً، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ مع سلامته عن معارضة النقل، فإنه لو كان لنبيه عليه الصلاة والسلام ولو بينه لنقل لأنه مما يبتني عليه قاعدة الوعد والوعيد، ولم ينقل؛ لأن النقل إما آحاد أو تواتر إلى آخر مادته.

فإن قلت: لم أضيفت الصلاة إليهم؟

قلت: لأنّ الصلاة دائرة بين المصلي والمصلى له، فالمصلي هو المنتفع بها وحده وهي عدّته وذخيرته فهي صلاته: وأمّا المصلى له، فغنيّ متعال عن الحاجة إليها والانتفاع بها.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾

اللغو: ما لا يعنيك من قول أو فعل، كاللعب والهزل وما توجب المروءة إلغاءه وإطراحه، يعني: أنّ بهم من الجدّ ما يشغلهم عن الهزل.

لما وصفهم بالخشوع في الصلاة، أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو؛ ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾

الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى، فالعين: القدر الذي يخرجه المزكي من النصاب إلى الفقير، والمعني: فعل المزكي الذي هو التزكية، وهو الذي أراده الله، فجعل المزكين ٢/ ٣٣أ فاعلين له ولا يسوغ فيه غيره؛ لأنه ما من مصدر إلا يعبر عن معناه بالفعل ويقال لمحدثه: فاعل، تقول للضارب: فاعل الضرب، وللقاتل: فاعل القتل، وللمزكي: فاعل التزكية، وعلى هذا الكلام كله والتحقيق فيه أنك تقول في جميع الحوادث: من فاعل هذا؟ فيقال لك: فاعله الله أو بعض الخلق[1]، ولم يمتنع الزكاة الدالة على العين أن يتعلق

= الجامع الصغير رقم (٧٤٤٧ ـ منحة) كلهم للحكيم الترمذي في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة وهو موضوع.

قال الحافظ: أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر في السادس والأربعين بعد المائة من حديث أبي هريرة وفيه سليمان بن عمرو وهو أبو داود والنخعي أحد من اتهم بوضع الحديث، وفي شرح البخاري لزين الدين ابن المنير: عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال لعائشة: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه». انتهى.

---

(١) قال محمود: «الزكاة تطلق ويراد بها العين المخرجة، وتطلق ويراد بها فعل المزكي الذي هو التزكية ويتعين ههنا أن يكون المراد التزكية لقوله (فاعلون) إذ العين المخرجة لم يفعلها المزكي، ثم ضبط المصدر على الإطلاق بأنه الذي يصدق عليه أنه فعل الفاعل؛ فعلى هذا تكون العين المخرجة مصدراً بالنسبة إلى الله تعالى، وكذلك السموات والأرض وكل مخلوق من جوهر وعرض، قال: فجميع الحوادث إذا قيل من فاعلها؟ فيقال: الله أو بعض الخلق» قال أحمد: ويقول السني: فاعل جميعها هو الله وحده لا شريك له، ولكن إذا سئل بصيغة مشتقة من الفعل على طريقة اسم الفاعل، مثل أن يقال له: من القائم؟ من القاعد؟ أجاب بمن خلق الله الفعل على يديه، وجعله محلاً له، =

بها فاعلون، لخروجها من صحة أن يتناولها الفاعل؛ ولكن لأنّ الخلق ليسوا بفاعليها؛ وقد أنشد لأمية بن أبي الصلت: [من المنسرح]

الْمُطْعِمُونَ الطَّعَامَ فِي السَّنَةِ ... الأَزْمَةِ الْفَاعِلُونَ لِلزَّكَوَاتِ[1]

ويجوز أن يراد بالزكاة: العين، ويقدّر مضاف محذوف وهو الأداء، وحمل البيت على هذا أصحّ؛ لأنها فيه مجموعة.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧﴾

﴿عَلَى أَزْوَاجِهِمْ﴾: في موضع الحال، أي: الأوّالين على أزواجهم، أو قوّامين عليهنّ، من قولك: كان فلان على فلانة فمات عنها فخلف عليها فلان؛ ونظيره: كان زياد على البصرة، أي: والياً عليها؛ ومنه قولهم: فلانة تحت فلان؛ ومن ثمة سميت المرأة فراشاً، والمعنى: أنهم لفروجهم حافظون في كافة الأحوال، إلا في حال تزوّجهم أو تسريهم، أو تعلق (على) بمحذوف يدل عليه: (غير ملومين)؛ كأنه قيل: يلامون إلا على أزواجهم، أي: يلامون على كل مباشر إلا على ما أطلق لهم؛ فإنهم غير ملومين عليه، أو تجعله صلة لحافظين، من قولك: احفظ عليّ عنان فرسي، على تضمينه معنى النفي، كما ضمن قولهم: نشدتك بالله إلا فعلت معنى: ما طلبت منك إلا فعلك[2].

فإن قلت: هلا قيل: من ملكت؟

قلت: لأنه أريد من جنس العقلاء ما يجري مجرى غير العقلاء وهم الإناث[3] جعل

= كزيد وعمرو.

(١) لأمية بن أبي الصلت. والأزم: الجدب، والأزمة: الشديدة المجدبة. والزكوات: جمع زكاة، تطلق على القدر المخرج من المال وعلى الإخراج، فالمعنى على الأول: المؤدون للزكوات. وعلى الثاني: الفاعلون لذلك الإخراج، والأول أوجه؛ لأن المصدر لا يجمع إلا بتأويل الأنواع أو المرات.
ينظر: البحر (٦/٣٩٦)، الدر المصون (٥/١٧٣).

(٢) قال السمين الحلبي: هذه وجوه متكلفة ظاهر فيها العجمة، قلت وأي عجمة في ذلك، على أن الشيخ جعلها متعلقة بـ «حافظون» على ما ذكره من التضمين وهذالا يصح له، إلا بأن يرتكب وجهاً منها، وهو التأويل بالنفي كنشدتك الله لأنه استثناء مفرغ ولا يكون إلا بعد نفي أو ما في معناه. انتهى. الدر المصون.

(٣) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وقوله وهم الإناث ليس بجيد، لأن هم مختص بالذكور، فكان ينبغي أن يقول وهو على لفظ «ما» أو وهن على معنى ما قلت والجواب عنه أن الضمير عائد على =

المستثنى حدًا أوجب الوقوف عنده، ثم قال: فمن أحدث ابتغاء وراء هذا الحدّ مع فسحته واتساعه، وهو إباحة أربع من الحرائر، ومن الإماء ما شئت، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ﴾: الكاملون في العدوان المتناهون فيه.

فإن قلت: هل فيه دليل على تحريم المتعة؟

قلت: لا؛ لأنّ المنكوحة نكاح المتعة من جملة الأزواج إذا صحّ النكاح.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨﴾

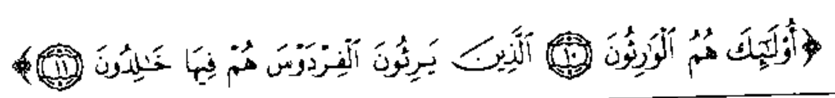
وقرئ: لأمانتهم، سمى الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهداً؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، وقال: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ [الأنفال: ٢٧]؛ وإنما تؤدّى العيون لا المعاني، ويخان المؤتمن عليه، لا الأمانة في نفسها، والراعي: القائم على الشيء بحفظ وإصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية، ويقال: من راعي هذا الشيء؟ أي: متوليه وصاحبه، ويحتمل العموم في كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله - تعالى - ومن جهة الخلق، والخصوص فيما حملوه من أمانات الناس وعهودهم.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾

وقرئ: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ﴾.

فإن قلت: كيف كرّر ذكر الصلاة أوّلاً وآخراً؟

قلت: هما ذكران مختلفان فليس بتكرير، وصفوا أوّلاً بالخشوع في صلاتهم، وآخراً بالمحافظة عليها؛ وذلك ألاّ يسهوا عنها، ويؤدّوها في أوقاتها، ويقيموا أركانها، ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها، وبما ينبغي أن تتم به أوصافها، وأيضاً فقد وحدت أوّلاً؛ ليفاد الخشوع في جنس الصلاة أيّ صلاة كانت، وجمعت آخراً؛ لتفاد المحافظة على أعدادها، وهي: الصلوات الخمس، والوتر، والسنن المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة، والعيدين والجنازة، والاستسقاء، والكسوف والخسوف، وصلاة الضحى، والتهجد، وصلاة التسبيح، وصلاة الحاجة، وغيرها من النوافل.


﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾

= العقلاء فقوله وهم أي العقلاء والإناث، انتهى. الدر المصون.

أي: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ﴾: الجامعون لهذه الأوصاف، ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾: الأحقاء بأن يسموا وراثاً دون من عداهم، ثم ترجم الوارثين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾: فجاء بفخامة وجزالة لإرثهم لا تخفى على الناظر، ومعنى الإرث: ما مرّ في سورة مريم، أنث الفردوس على تأويل الجنة، وهو: البستان الواسع الجامع لأصناف الثمر، روي أنّ الله ـ عز وجلّ ـ بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وجعل خلالها المسك الأذفر، وفي رواية: ولبنة من مسك مذرّى وغرس فيها من جيد الفاكهة وجيد الريحان.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾

السلالة: الخلاصة؛ لأنها تسلّ من بين الكدر، و«فعالة»: بناء للقلة كالقلامة والقمامة، وعن الحسن: ماء بين ظهراني الطين.

فإن قلت: ما الفرق بين من ومن؟

قلت: الأوّل: للابتداء، والثاني: للبيان؛ كقوله: ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾.

فإن قلت: ما معنى: ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾: الإنسان نطفة؟

قلت: معناه: أنه خلق جوهر الإنسان أوّلاً طيناً، ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة، القرار: المستقرّ، والمراد: الرحم، وصفت بالمكانة التي هي صفة المستقرّ فيها؛ كقولك: طريق سائر، أو بمكانتها في نفسها؛ لأنها مكنت بحيث هي وأحرزت، قرئ: «عظماً فكسونا العظم»، و«عظاماً فكسونا العظام»، و«عظماً فكسونا العظام»، و«عظاماً فكسونا العظم»: وضع الواحد مكان الجمع لزوال اللبس؛ لأنّ الإنسان ذو عظام كثيرة، ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ أي: خلقاً مباينا للخلق الأوّل مباينة ما أبعدها؛ حيث جعله حيواناً وكان جماداً، وناطقاً وكان أبكم، وسميعاً وكان أصم، وبصيراً وكان أكمه، وأودع باطنه وظاهره ـ بل كل ٣٣/٢ب عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه ـ عجائب فطرة وغرائب حكمة، لا تدرك بوصف الواصف ولا تبلغ بشرح الشارح، وقد احتج به أبو حنيفة فيمن غصب بيضة فأفرخت عنده، قال: يضمن البيضة ولا يرد الفرخ؛ لأنه خلق آخر سوى البيضة، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾: فتعالى أمره في قدرته وعلمه، ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ أي: أحسن المقدّرين تقديراً، فترك ذكر المميز؛ لدلالة الخالقين عليه؛ ونحوه: طرح المأذون فيه في قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ

يقتتلون﴾ [الحج: ٣٩]، لدلالة الصلة، وروي عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ لما بلغ قوله خلقاً آخر، قال: فتبارك الله أحسن الخالقين (٩٩٦)، وروي أنّ عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب للنبي ـ ﷺ ـ فنطق بذلك قبل إملائه، فقال له النبي ـ ﷺ ـ: «اكتب هكذا نزلت» ح، فقال عبد الله: إن كان محمد نبيًّا يوحى إليه، فأنا نبيّ يوحى إليّ، فلحق بمكة كافراً، ثم أسلم يوم الفتح (٩٩٧).

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)﴾

قرأ ابن أبي عبلة وابن محيصن: «المائتون»، والفرق بين الميت والمائت: أنّ الميت كالحي صفة ثابتة، وأمّا المائت، فيدل على الحدوث، تقول: زيد مائت الآن، ومائت غداً؛ كقولك: يموت؛ ونحوهما: ضيق وضائق، في قوله تعالى: ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢]، جعل الإماتة التي هي إعدام الحياة، والبعث الذي هو إعادة ما يفنيه ويعدمه: دليلين ـ أيضاً ـ على اقتدار عظيم بعد الإنشاء والاختراع.

فإن قلت: فإذاً لا حياة إلا حياة الإنشاء وحياة البعث.

قلت: ليس في ذكر الحياتين نفي الثالثة وهي حياة القبر، كما لو ذكرت ثلثي ما عندك وطويت ذكر ثلثه لم يكن دليلاً على أن الثلث ليس عندك ـ وأيضاً ـ فالغرض ذكر هذه الأجناس الثلاثة: الإنشاء، والإماتة، والإعادة، والمطوي ذكرها من جنس الإعادة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧)﴾

الطرائق: السموات؛ لأنه طورق بعضها فوق بعض كمطارقة النعل، وكل شيء فوقه مثله فهو طريقة، أو لأنها طرق الملائكة ومتقلباتهم، وقيل: الأفلاك؛ لأنها طرائق الكواكب في مسيرها: أراد بالخلق السموات، كأنه قال: خلقناها فوقهم، ﴿وَمَا كُنَّا﴾: عنها، ﴿غَافِلِينَ﴾: وعن حفظها وإمساكها أن تقع فوقهم بقدرتنا، أو أراد به الناس وأنه إنما خلقها فوقهم ليفتح عليهم الأرزاق والبركات منها، وينفعهم بأنواع منافعها، وما كان غافلاً

---

٩٩٦ ـ حديث أنس قال: قال عمر: وافقت ربي في أربع فذكر الحديث.
تقدم في البقرة في قوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.
قال الحافظ: وفي الباب عن أنس قال: قال عمر: وافقت ربي في أربع فذكر الحديث ـ وفيه: فنزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢)﴾، إلى قوله: ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾. فقلت: تبارك الله أحسن الخالقين فنزلت. انتهى.

٩٩٧ ـ قال الزيلعي (٢/ ٤٠١): «غريب». وعزاه للثعلبي والواحدي في أسباب النزول عن ابن عباس.
قال الحافظ: كذا ذكره الثعلبي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وعزاه الواحدي إلى الكلبي. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. انتهى.

عنهم وما يصلحهم.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿بِقَدَرٍ﴾: بتقدير يسلمون معه من المضرة، ويصلون إلى المنفعة، أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم ومصالحهم، ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ كقوله: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]، وقيل: جعلناه ثابتاً في الأرض، وقيل: إنها خمسة أنهار: سيحون نهر الهند، وجيحون: نهر بلخ، ودجلة والفرات: نهرا العراق، والنيل: نهر مصر، أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة، فاستودعها الجبال، وأجراها في الأرض، وجعل فيها منافع للناس في أصناف معايشهم، وكما قدر على إنزاله فهو قادر على رفعه وإزالته، وقوله: ﴿عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ﴾: من أوقع النكرات وأحزها للمفصل، والمعنى: على وجه من وجوه الذهاب به وطريق من طرقه، وفيه إيذان باقتدار المذهب، وأنه لا يتعايى عليه شيء إذا أراده، وهو أبلغ في الإيعاد؛ من قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك: ٣٠]، فعلى العباد أن يستعظموا النعمة في الماء ويقيدوها بالشكر الدائم، ويخافوا نفارها إذا لم تشكر.

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾

خصّ هذه الأنواع الثلاثة؛ لأنها أكرم الشجر وأفضلها وأجمعها للمنافع، ووصف النخل والعنب بأنّ ثمرهما جامع بين أمرين: بأنه فاكهة يتفكه بها، وطعام يؤكل رطباً ويابساً، رطباً وعنباً، وتمراً وزبيباً، والزيتون بأنّ دهنه صالح للاستصباح والاصطباغ جميعاً، ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ من قولهم: يأكل فلان من حرفة يحترفها، ومن ضيعة يغتلها، ومن تجارة يتربح بها: يعنون أنها طعمته وجهته التي منها يحصل رزقه، كأنه قال: وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعايشكم، منها ترتزقون وتتعيشون، ﴿وَشَجَرَةً﴾: عطف على جنات، وقرئت مرفوعة على الابتداء، أي: ومما أنشىء لكم شجرة، ﴿طُورِ سَيْنَاءَ﴾: وطور سينين، لا يخلو: إما أن يضاف فيه الطور إلى بقعة اسمها سيناء وسينون، وإمّا: أن يكون اسماً للجبل مركباً من مضاف ومضاف إليه، كامرىء القيس، وكبعلبك، فيمن أضاف، فمن كسر سين سيناء، فقد منع الصرف؛ للتعريف والعجمة، أو التأنيث؛ لأنها بقعة، وفعلاء لا يكون ألفه للتأنيث كعلباء وحرباء، ومن فتح فلم يصرف؛ لأنّ الألف للتأنيث كصحراء، وقيل: هو جبل فلسطين، وقيل: بين مصر وأيلة، ومنه نودي موسى ـ عليه السلام ـ وقرأ الأعمش: سينا على القصر، ﴿بِالدُّهْنِ﴾:

في موضع الحال، أي: تنبت وفيها الدهن، وقرئ: تنبت. وفيه وجهان.

أحدهما: أن أنبت بمعنى نبت؛ وأنشد لزهير [من الطويل]:

رَأَيْتُ ذَوِي الْحَاجَاتِ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ قَطِيناً لَهُمْ حَتَّى إِذَا أَنْبَتَ الْبَقْلُ[1]

والثاني: أنّ مفعوله محذوف، أي: تنبت زيتونها وفيه الزيت، وقرئ: «تنبت»: بضم التاء وفتح الباء، وحكمه حكم ٢/ ٣٤أ تنبت، وقرأ ابن مسعود: تخرج الدهن وصبغ الآكلين، وغيره: تخرج بالدهن، وفي حرف أبيّ: «تثمر بالدهن»، وعن بعضهم: «تنبت بالدهان»، وقرأ الأعمش: «وصبغاً»، وقرئ: «وصباغ»، ونحوهما: دبغ ودباغ، والصبغ: الغمس للائتدام، وقيل: هي أوّل شجرة نبتت بعد الطوفان، ووصفها الله ـ تعالى ـ بالبركة في قوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [النور: ٣٥].

---

(١) إذا السنة الشهباء بالناس أجحفت ونال كرام الناس في الجحرة الأكل
رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم قطيناً بها حتى إذا أنبت البقل
هنالك إن يستخولوا المال يخولوا وإن سئلوا يعطوا وإن يسروا يغلوا
وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل

لزهير بن أبي سلمى يمدح سنان بن أبي حارثة، والشهباء: الفرس يخالط سوادها بياض، شبه بها السنة المجدبة لكثرة بياض أرضها وخلوها عن سواد النبات والأمطار. أو لاختلاط نور الغنى فيها بظلمة الفقر. أجحفت بالناس: أي ذهبت بهم ومحقت عنهم آثار الغنى، والإسناد مجاز عقلي. والجحرة ـ بتقديم الجيم المفتوحة ـ: السنة المجدبة وروي: في الجحرة. وأصلها بالتحريك، فسكونها لغة أو ضرورة وهي شدة الشقاء. ويجوز أن تقرأ بالضم بمعنى البيت، أي: ونال الأكل كرام الناس. ووصلهم داخل بيوتهم لبخلهم تلك السنة. ويروى: كرام المال. والمعنى أن كرائم الأموال نالها التأكل والتنقص في تلك السنة لجدبها. ورأيت: جواب إذا. وذوي الحاجات: كناية عن الفقراء، حول بيوتهم: أي سنان وقومه. قطيناً: أي مقيمين، فهو يطلق على الواحد والمتعدد. وقيل إنه جمع، ويروى قطيناً لهم: أي مساكنين لهم عند البيوت، وذلك كناية عن كرمهم، حتى إذا أنبت البقل: أي نبت النبات الرطب وظهر الخصب، فهنالك: أي في ذلك الزمان إن يسألهم أحد أن يخولوه مالاً كثيراً يخولوه: أي يولوه عليه. وإن سئلوا مالاً قليلاً يعطوا السائل. ويروى: إن يستخبلوا المال يخبلوا. بالموحدة، يستعر: أي منهم أحد إبلهم للانتفاع بألبانها وأوبارها زمن الجدب ثم يردها: أعاروه، وإن سألهم الإعطاء من غير رد أعطوه فلا يردون سائلاً. وأن يسروا: أي لعبوا الميسر، يغلوا: أي يجعلوا الخطر غالياً كثيراً لعدم خوفهم على الفقراء لأن المال كثير بخلاف زمن الجدب، ويجوز أن يقرأ: وإن يسروا أي أعطوا بلا سؤال، يفلوا بالفاء. أي يتفقدوا الفقراء ويعطوهم، يقال: يسر كوعد: لعب الميسر، ويسر كترب وتعب: لأن ورق ورمق. وروي: يسألوا وييسروا بالمضارع. والمقامات: المجامع من الناس. وروي: وجوهها. وعلى كل فالضمير للمقامات. والأندية ـ جمع الندي ـ بمعنى الكرم، على غير قياس، ينتابها: أي يجري عليها نوبة بعد نوبة قولهم وفعلهم. أو يتداولها قول الناس وفعلهم. ويحتمل أنها جمع ناد بمعنى متحدث القوم. أو ندى على فعيل كذلك. ينتابها: أي يجيئها نوبة بعد نوبة القول والفعل، أي: الصالحات.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قرئ: «تسقيكم»: بتاء مفتوحة، أي: تسقيكم الأنعام، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: تتعلق بها منافع من الركوب والحمل وغير ذلك، كما تتعلق بما لا يؤكل لحمه من الخيل والبغال والحمير، وفيها منفعة زائدة، وهي الأكل الذي هو انتفاع بذواتها، والقصد بالأنعام إلى الإبل؛ لأنها هي المحمول عليها في العادة، وقرنها بالفلك ـ التي هي السفائن ـ لأنها سفائن البرّ؛ قال ذو الرُّمَّة [من الطويل]:

. . . . سَفِينَةُ بَرٍّ تَحْتَ خَدِّي زِمَامُهَا[1]

يريد صيدحه[2].

---

(١) ألا خيلت مي وقد نام صحبتي ... فما نفر التهويم إلا سلامها
طروقاً وجلب الرحل مشدودة به ... سفينة بر تحت خدي زمامها
أنيخت فألقت بلدة فوق بلدة ... قليلاً بها الأصوات إلا بغامها

لذي الرمة، يقول: خيلت مي، أي: بعثت خيالها وأرتني إياه، وسلمت علي في منامي. والحال أنه قد نام أصحابي، والصحبة كالعصبة والرفقة، ونسب النوم إليهم دونه: لأن نومه تهويم أي فتور وغفلة أول النوم فقط. والتهويم أيضاً: تمايل الرأس من النعاس، أو لأنه يتذكرها فكأنه لم ينم.
ويروى: ذو الكرى بدل صحبتي، فما نفر التهويم وطرده عني إلا سلامها علي. ويروى:

ألا طرقتنا مية بنت منذر ... فما أرق النيام إلا سلامها

وأرق: أسهر. والنيام: جمع نائم، وقياسه نوام، فقلب ياء شذوذاً. والطروق: الإتيان ليلاً، وهو نصب على المصدر من خيلت، لتلاقيهما معنى. وقيل: الطروق ـ بالفتح ـ: الناقة التي بلغت أن يطرقها الفحل، وهو مفعول خيلت. والأوجه أنه حال من فاعله هذا، ولعله على التشبيه. وجلب الرحل ـ بالضم، وبالكسر ـ: عيدانه، أي: والحال أن عيدان الرحل مشدودة بها ناقة عظيمة كالسفينة. فاستعارها لها على طريق التصريح، وإضافتها للبر قرينة للاستعارة. وفيه أنها في البر تقوم مقام السفينة في البحر. وأنها تقابلها، والزمام تجريد، أي: زمامها تحت خدي وأنا نائم. والبلدة من الناقة: ما لاقى الأرض عند الإناخة، وتطلق على الصدر. والبلدة الأرض الصلبة. والبغام: صوت الظبي، أي: أنختها فألقت عظاماً صلبة كالأرض، فاستعارها لها على طريق التصريح، فوق أرض صلبة حال كون تلك الأرض قليلاً فيها الأصوات إلا بغام الناقة، أي: صوتها الشبيه بصوت الظبي، لأنه كان حنيناً. ومجيء الحال من النكرة بلا تأخير ولا نفي ولا تخصيص شاذ. ويروى: قليل ـ بالجر ـ على الصفة. وعلى كل فالأصوات فاعل له، ورفع المستثنى على الاتباع؛ لأن قليلاً في معنى النفي، أي: ليس فيها صوت إلا البغام. وقيل: «إلا» هنا بمعنى غير، فهي صفة للأصوات لأنه يشبه النكرة، ولما تعذر ظهور الإعراب عليها ظهر على ما بعدها.
ينظر: ديوانه ص (١٠٠٤)، وأساس البلاغة (سفن).

(٢) قوله «يريد صيدحه» أي: ناقته المسماة بصيدح. (ع)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿غَيْرُهُۥٓ﴾: بالرفع على المحل، وبالجر على اللفظ، والجملة استئناف تجري مجرى التعليل للأمر بالعبادة، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: أفلا تخافون أن ترفضوا عبادة الله الذي هو ربكم وخالقكم ورازقكم، وشكر نعمته التي لا تحصونها واجب عليكم، ثم تذهبوا فتعبدوا غيره مما ليس من استحقاق العبادة: في شيء، ﴿أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾: أن يطلب الفضل عليكم ويرأسكم؛ كقوله تعالى: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٧٨]، ﴿بِهَـٰذَا﴾: إشارة إلى نوح ـ عليه السلام ـ أو إلى ما كلمهم به من الحث على عبادة الله، أي: ما سمعنا بمثل هذا الكلام، أو بمثل هذا الذي يدعى وهو بشر أنه رسول الله، وما أعجب شأن الضلال لم يرضوا للنبوّة ببشر وقد رضوا للإلهية بحجر، وقولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا﴾: يدل على أنهم وآباؤهم كانوا في فترة متطاولة، أو تكذبوا في ذلك؛ لانهماكهم في الغي، وتشمرهم لأن يدفعوا الحق بما أمكنهم وبما عنّ لهم، من غير تمييز منهم بين صدق وكذب؛ ألا تراهم: كيف جننوه وقد علموا أنه أرجح الناس عقلاً وأوزنهم قولاً، والجنة: الجنون أو الجنّ، أي: به جنّ يخبلونه، ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: احتملوه واصبروا عليه إلى زمان، حتى ينجلي أمره عن عاقبة، فإن أفاق من جنونه وإلا قتلتموه.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

في نصرته إهلاكهم، فكأنه قال: أهلكهم بسبب تكذيبهم إياي، أو انصرني بدل ما كذبوني، كما تقول: هذا بذاك، أي: بدل ذاك ومكانه، والمعنى: أبدلني من غمّ تكذيبهم، سلوة النصرة عليهم، أو انصرني بإنجاز ما وعدتهم من العذاب، وهو ما كذبوه فيه حين قال لهم: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء: ١٣٥]، ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾: بحفظنا وكلاءتنا، كأن معه من الله حفاظاً يكلؤونه بعيونهم؛ لئلا يتعرض له ولا يفسد عليه

مفسد عمله، ومنه قولهم: عليه من الله عين كالئة، ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي: نأمرك كيف تصنع ونعلمك، روي أنه أوحى إليه أن يصنعها على مثال جؤجؤ الطائر، روي أنه قيل لنوح ـ عليه السلام ـ: إذا رأيت الماء يفور من التنور، فاركب أنت ومن معك في السفينة، فلما نبع الماء من التنور، أخبرته امرأته فركب، وقيل: كان تنور آدم ـ عليه السلام ـ وكان من حجارة، فصار إلى نوح، واختلف في مكانه؛ فعن الشعبي: في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كندة، وكان نوح عمل السفينة وسط المسجد، وقيل: بالشام بموضع يقال له: عين وردة، وقيل: بالهند، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: التنور وجه الأرض، وعن قتادة: أشرف موضع في الأرض، أي: أعلاه، وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: فار التنور: طلع الفجر، وقيل: معناه: أن فوران التنور كان عند تنوير الفجر، وقيل: هو مثل؛ كقولهم: حمي الوطيس، والقول: هو الأوّل، يقال: سلك فيه: دخله، وسلك غيره، وأسلكه؛ قال [من البسيط]:

حَتَّىٰ إِذَا أَسْلَكُوهُمْ فِي قُتَائِدِهِ[1] . . . .

﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾: من كل أمّتي زوجين، وهما أمة الذكر وأمّة الأنثى، كالجمال والنوق، والحصن والرماك، ﴿اثْنَيْنِ﴾: واحدين مزدوجين، كالجمل والناقة، والحصان والرمكة، روي أنه لم يحمل إلا ما يلد ويبيض، وقرئ: «من كل»: بالتنوين، أي: من كل أمّة زوجين، واثنين: تأكيد وزيادة بيان.

جيء بعلى مع سبق الضارّ، كما جيء باللام مع سبق النافع؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [الصافات: ١٧١]، ونحوه قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقول عمر ـ رضي الله عنه ـ: ليتها كانت كفافاً، لا عليّ ولا لي.

فإن قلت: لم نهاه عن الدعاء لهم بالنجاة؟

---

(١) حتى إذا أسلكوهم في قتائده شلا كما تطرد الجمالة الشرد
لعبد مناف بن ربع الهذلي، يصف قوماً أغير عليهم فدفعوا العدو حتى أدخلوه في قتائده، وهي ثنية بعينها، أو عقبه بعينها، أي: في طرائقها. وسلكه في كذا وأسلكه أيضاً كما هنا: أدخله فيه. وروي: سلكوهم أيضاً. وشلا: أي طرداً نصب بسلوكهم، لأن فيه معنى طردوهم: وإذا: حرف زائد لا جواب له، لأن البيت آخر القصيد كما في الصحاح. وقيل «شلا» هو جوابه، فهو نصب بمحذوف، أي: حبسوا بها حبساً، لكن لا يلائم التشبيه في قوله «كما تطرد» إلا أن يرجع لسلوكهم. والجمالة: جمع جمال وهو صاحب الجمل. والشرد ـ بفتحتين ـ: الإبل المنتشرة، أو بضمتين: جمع شرود كعروس.

قلت: لما تضمنته الآية من كونهم ظالمين، وإيجاب الحكمة أن يغرقوا لا محالة؛ لما عرف من المصلحة في إغراقهم، والمفسدة في استبقائهم، وبعد أن أملى لهم الدهر المتطاول فلم يزيدوا إلا ضلالاً، ولزمتهم الحجة البالغة لم يبق إلا أن يجعلوه عبرة للمعتبرين، ولقد بالغ في ذلك حيث أتبع النهي عنه، الأمر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم؛ كقوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٢/ ٣٤ب وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ / [الأنعام: ٤٥]، ثم أمره أن يدعوه بدعاء هو أهم وأنفع له، وهو طلب أن ينزله في السفينة أو في الأرض عند خروجه منها، منزلاً يبارك له فيه ويعطيه الزيادة في خير الدارين، وأن يشفع الدعاء بالثناء عليه المطابق لمسألته؛ وهو قوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

فإن قلت: هلا قيل: فقولوا؛ لقوله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ﴾؛ لأنه في معنى: فإذا استويتم؟

قلت: لأنه نبيهم وإمامهم، فكان قوله قولهم، مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوّة وإظهار كبرياء الربوبية، وأن رتبة تلك المخاطبة لا يترقى إليها إلا ملك أو نبيّ، وقرئ: «منزلا»: بمعنى: إنزالاً، أو موضع إنزال؛ كقوله: ليدخلنهم مدخلاً يرضونه، ﴿إِن﴾: هي المخففة من الثقيلة، واللام: هي الفارقة بين النافية وبينها في المعنى، وإن الشأن والقصة، ﴿كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي: مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد، أو مختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من يعتبر ويذكر؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر: ١٥].

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾: هم عاد قوم هود: عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وتشهد له حكاية الله ـ تعالى ـ قول هود: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، ومجيء قصة هود على أثر قصة نوح في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء.

فإن قلت: حق أرسل أن يعدى بإلى، كأخواته التي هي: وجه، وأنفذ، وبعث، فما باله عدّى في القرآن بإلى تارة، وبفي أخرى؛ كقوله ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ﴾ [الرعد: ٣٠]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: ٣٤]، ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا﴾ أي: في عاد، وفي وموضع آخر: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥]؟

قلت: لم يعدّ بفي كما عدّى بإلى، ولم يجعل صلة مثله، ولكن الأمّة أو القرية جعلت موضعاً للإرسال؛ كما قال رؤبة [من السريع أو الرجز]:

أَرْسَلْتُ فِيهَا مُصْعَباً ذَا إِقْحَامْ[١] . . . .

وقد جاء «بعث» على ذلك في قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١﴾ [الفرقان: ٥١]، ﴿أَنِ﴾ مفسرة لأرسلنا، أي: قلنا لهم على لسان الرسول: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝٣٣ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٣٤﴾

فإن قلت: ذكر مقال قوم هود في جوابه في سورة الأعراف وسورة هود بغير واو: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦]، ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣]، وههنا مع الواو، فأي فرق بينهما؟

قلت: الذي بغير واو على تقدير سؤال سائل قال: فما قال قومه؟ فقيل له: قالوا كيت وكيت، وأما الذي مع الواو، فعطف لما قالوه على ما قاله، ومعناه: أنه اجتمع في الحصول هذا الحق وهذا الباطل، وشتان ما هما، ﴿بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ﴾: بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب؛ كقولك: يا حبذا جوار مكة، أي: جوار الله في مكة.

حذف الضمير، والمعنى: من مشروبكم، أو حذف منه؛ لدلالة ما قبله عليه، ﴿إِذًا﴾: واقع في جزاء الشرط، وجواب للذين قاولوهم من قومهم[٢]، أي: تخسرون عقولكم وتغبنون في آرائكم.

---

(١) أرسلت فيها مصعباً ذا إقحام ۞ طبًّا فقيها بذوات الإبلام

لعطاء السندي. ويقال: أصعب الجمل فهو مصعب، إذا صار صعباً لا يركب. والإقحام: الدخول في الشيء بلا تمهل ولا روية. ويروى: أرسلت فيها مقرما ذا تشمام. وأقرمته: شوقته إلى الضراب. ونحوه: ذا تشمام، أي: يتشمم رائحة الناقة التائقة للضراب فيعرفها. والطب ـ مثلث ـ: الطبيب الحاذق. وأبلمت الناقة إبلاماً: إذا ورم فرجها من شدة الشهوة إلى الضراب. والبلم ـ كسبب ـ: اسم منه. ويجوز أن ما هنا أبلام كأسباب، فالمعنى: أنه أرسل في الإبل فحلاً كريماً يقدم عليها من غير تلبث. أو يتشممها ويتعرفها حاذقاً عارفاً بالنوق التائقة إليه. ويجوز أن المعنى: أرسلت في تلك القضية رجلاً كالجمل الشديد، ذا إقدام على الأمر بجراءة، فقيهاً عارفاً بمعالجة الأشياء الصعبة ذوات الأعضال، وبحل مشكلاتها، فهو في غاية المعرفة والتجربة.

ينظر: أساس البلاغة (فقه).

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ وليس واقعاً في جزاء الشرط بل واقعاً بين إنكم والخبر، وإنكم والخبر ليس جزاء للشرط بل ذلك جواب للقسم المحذوف، قيل إن الشرعية ولو كان التركيب الخبر جواباً لزمت الفاء في إنكم، بل لو كان بالفاء في تركيب غير القرآن لم يكن ذلك التركيب =

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾

ثنى ﴿أَنَّكُمْ﴾: للتوكيد، وحسن ذلك؛ لفصل ما بين الأول والثاني بالظرف، ومخرجون: خبر عن الأول، أو جعل: ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾: مبتدأ، و﴿إِذَا مِتُّمْ﴾: خبراً، على معنى: إخراجكم إذا متم، ثم أخبر بالجملة عن إنكم، أو رفع ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ بفعل هو جزاء للشرط؛ كأنه قيل: إذا متم وقع إخراجكم، ثم أوقعت الجملة الشرطية خبراً عن إنكم، وفي قراءة ابن مسعود: «أيعدكم إذا متم».

قرئ: (هيهات): بالفتح والكسر والضم، كلها بتنوين وبلا تنوين، وبالسكون على لفظ الوقف.

فإن قلت: ما توعدون هو المستبعد، ومن حقه أن يرتفع بهيهات؛ كما ارتفع في قوله [من الطويل]:

فَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ الْعَقِيقُ وَأَهْلُهُ[1] . . . .

فما هذه اللام.

= جائزاً إلا عند الفراء، والبصريون لا يجيزونه وهو عندهم خطأ، قلت يعني أنه إذا توالى شرط وقسم أجيب سابقهما، والقسم هنا متقدم فينبغي أن يُجاب ولا يُجَابُ الشرطُ ولو أُجيبَ الشرطُ لاختلت القاعدة إلا عند بعض الكوفيين فإنه يجيب الشرط وإن تأخر وهو موجودٌ في الشعر. انتهى. الدر المصون.

(١) ويروي البيت:

فهيهات هيهات العقيق ومن به ... وهيهات خل بالعقيق نواصله

لجرير، يتحسر على بعد خليله. وهيهات: اسم فعل بمعنى «بعد» وفتح تائه: لغة الحجاز. وكسرها: لغة تميم. وضمها: لغة بعضهم. وكرره للتوكيد وزيادة التحزن. والعقيق: الوادي الذي شقه السيل، وهو هنا واد بظاهر المدينة المشرفة. مرفوع على الفاعلية بالأول، والثاني لا فاعل له. وأجاز أبو علي الفارسي أنه من باب التنازع، فهو مرفوع بأحدهما، وضميره مستتر في الآخر، فهو توكيد مفرد على الأول، وجملة على الثاني. وأجاز ابن مالك أنه فاعل لهما لاتحادهما لفظاً ومعنى. وانظر كيف ذكر أولاً مكان الأحبة، ثم ذكر من فيه على العموم، ثم ذكر خله على الخصوص، وتدرج في ذلك حتى توصل إلى ذكر الوصال، وهو مقصوده الذاتي، فلله در العرب ما ألطفها صنيعاً، وأدقها عبارة، والخل ـ بالكسر ـ: الخليل، كالحب بمعنى الحبيب. ويروى: العقيق وأهله.

ينظر: ديوانه (٤٧٩)، والهمع (١١١)، وابن يعيش (٤/ ٣٥)، والخصائص (٣/ ٤٢)، والطبري (١٨/ ١٦)، البحر (٦/ ٤٠٥)، والدر المصون (٥/ ١٨٣).

قلت: قال الزجاج في تفسيره: البعدُ لما توعدون، أو بعدٌ لما توعدون فيمن نوّن، فنزله منزلة المصدر[1]، وفيه وجه آخر: وهو أن يكون اللام: لبيان المستبعد ما هو بعد التصويت بكلمة الاستبعاد، كما جاءت اللام في: (هيت لك): لبيان المهيت به.

هذا ضمير لا يعلم ما يعني به إلا بما يتلوه من بيانه، وأصله إن الحياة: ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾، ثم وضع (هي): موضع الحياة؛ لأنّ الخبر يدل عليها ويبينها، ومنه: هي النفس تتحمل ما حملت، وهي العرب تقول ما شاءت، والمعنى: لا حياة إلا هذه الحياة؛ لأن «أن»: النافية دخلت على «هي»: التي في معنى: الحياة، الدالة على الجنس فنفتها، فوازنت «لا»: التي نفت ما بعدها نفي الجنس، ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: يموت بعض ويولد بعض، ينقرض قرن ويأتي قرن آخر، ثم قالوا: ما هود إلا مفتر على الله فيما يدعيه من استنبائه له، وفيما يعدنا من البعث، وما نحن بمصدّقين.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١)﴾

﴿قَلِيلٍ﴾: صفة للزمان، كقديم وحديث، في قولك: ما رأيته قديماً ولا حديثاً، وفي معناه: عن قريب، و(ما): توكيد قلة المدّة وقصرها، ﴿الصَّيْحَةُ﴾: صيحة جبريل ـ عليه السلام ـ: صاح عليهم فدمّرهم، ﴿بِالْحَقِّ﴾: بالوجوب؛ لأنهم قد استوجبوا الهلاك، أو بالعدل من الله، من قولك: فلان يقضي بالحق إذا كان عادلاً في قضاياه: شبههم في دمارهم بالغثاء ٢/ ٣٥أ، وهو: حميل السيل مما بلي واسودّ من العيدان والورق؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ (٥)﴾ [الأعلى: ٥]، وقد جاء مشدّداً في قول امرىء القيس [من الطويل]:

. . . . مِنَ السَّيْلِ وَالْغُثَّاءِ فَلْكَةُ مِغْزَلِ[2]

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ وقول الزمخشري فمن نونه نَزّلَه منزلة المصدر ليس بواضح، لأنهم قد نوّنوا أسماء الأفعال ولا تقول أنها إذا نوّنت تنزلت منزلة المصادر، قلت: الزمخشري لم يقل كذا إنما قال فمن نونه نزّلَه منزلة المصدر المصدر لأجل قوله أو بُعْدٌ، فالتنوين علة لتقديره إياه نكرة لا لكونه منزلاً منزلة المصدر، فإنّ أسماء الأفعال ما نوّن منها نكرة، وما لم ينوّن معرفة، نحو صَهْ وصهٍ فقدر الأول بالسكون، والثاني بسكوتٍ ما وقال ابن عطية طوراً يلي الفعل دون لام تقول هيهات مجيء زيد أي بَعُدَ، وأحياناً يكون الفاعل محذوفاً عند اللام كهذه الآية، لتقدير بَعُدَ الوجود لما تُوعَدُونَ ولم يَسْتَجوده الشيخ من حيث قوله حذف الفاعل والفاعل لا يحذف ومن حيث إن فيه حذف المصدر وهو الوجود وإبقاء معموله وهو لِمَا تُوعَدُونَ وهيهات الثاني تأكيدٌ للأول تأكيداً لفظياً، وقد جاء غير مؤكد. انتهى. الدر المصون.

(٢) كأن ذرى رأس المخيم غدوة ... من السيل والغثاء فلكة مغزل =

بعداً، وسحقاً، ودفراً[1]، ونحوها؛ مصادر موضوعة مواضع أفعالها، وهي من جملة المصادر التي قال سيبويه: نصبت بأفعال لا يستعمل إظهارها، ومعنى (بعداً): بعدوا، أي: هلكوا، يقال: بعد بعداً وبعداً؛ نحو: رشد رشداً ورشداً، و﴿لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: بيان لمن دعى عليه بالبعد؛ نحو: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]، و﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿قُرُونًا﴾: قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: بني إسرائيل، ﴿أَجَلَهَا﴾: الوقت الذي حدّ لهلاكها وكتب.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿تَتْرَا﴾ فعلى: الألف للتأنيث؛ لأنّ الرسل جماعة، وقرئ: «تترى»: بالتنوين، والتاء: بدل من الواو، كما في: تولج، وتيقور[2]، أي: متواترين واحداً بعد واحد، من الوتر وهو الفرد: أضاف الرسل إليه تعالى وإلى أممهم: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [المائدة: ٣٢]، ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الأعراف: ١٠١]، لأنّ الإضافة تكون بالملابسة، والرسول ملابس المرسل والمرسل إليه جميعاً، ﴿فَأَتْبَعْنَا﴾: الأمم: أو القرون ﴿بَعْضَهُم بَعْضًا﴾: في الإهلاك، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾: أخباراً يسمر بها ويتعجب منها، الأحاديث: تكون اسم جمع للحديث، ومنه: أحاديث رسول الله ـ ﷺ ـ وتكون جمعاً للأحدوثة: التي هي مثل الأضحوكة والألعوبة والأعجوبة، وهي: مما يتحدّث به الناس تلهياً وتعجباً، وهو المراد ههنا.

= لامرىء القيس من معلقته. وذرى الجبل: أعاليه. والمخيم: أكمة بعينها. ويروى: المخيمر. والغثاء ـ بالضم مشدداً ومخففاً ـ: حميل السيل مما بلي واسود من العيدان والورق. والفلكة: بالفتح. والمغزل: مثلث. يقول: كأن أعالي تلك الأكمة من إحاطة السيل بها واجتماع الغثاء حولها: فلكة مغزل في الاستدارة والارتفاع.

البيت. ينظر في جمهرة أشعار العرب: ٤٧، وديوان الشاعر ٢٥، والبحر ٣٩٣، والدر المصون: ٥/١٨٧.

(١) قوله «دفرا» في الصحاح «دفراً له» أي: نتنا. (ع)

(٢) قوله «كما في تولج وتيقور» التولج: كناس الوحش الذي يلج فيه. قال سيبويه: التاء مبدلة من الواو، وهو فوعل، كذا في الصحاح. وفيه أيضاً: التيقور، والوقار. وأصله: ويقور، قلبت الواو تاءاً اهـ، فوزنه «فيعول». (ع)

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾

فإن قلت: ما المراد بالسلطان المبين؟

قلت: يجوز أن تراد العصا؛ لأنها كانت أمّ آيات موسى وأُولاها، وقد تعلقت بها معجزات شتى: من انقلابها حية، وتلقفها ما أفكته السحرة، وانفلاق البحر، وانفجار العيون من الحجر بضربهما بها، وكونها حارساً، وشمعة، وشجرة خضراء مثمرة، ودلواً ورشاء، جعلت كأنها ليست بعضها لما استبدت به من الفضل؛ فلذلك عطفت عليها؛ كقوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة ٩٨:]، ويجوز أن تراد الآيات أنفسها، أي: هي آيات وحجة بينة، ﴿عَالِينَ﴾: متكبرين؛ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤]، ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٨٣]، أو متطاولين على الناس قاهرين بالبغي والظلم.

﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾

البشر يكون واحداً وجمعاً: ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، ﴿لِبَشَرَيْنِ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ﴾ [مريم: ٢٦]، و«مثل»، و«غير» يوصف بهما: الاثنان، والجمع، والمذكر، والمؤنث: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، ويقال ـ أيضاً ـ: هما مثلاه؛ وهم أمثاله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يعني: بني إسرائيل، كأنهم يعبدوننا خضوعاً وتذللاً، أو لأنه كان يدعي الإلهية فادعى للناس العبادة، وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: قوم موسى التوراة، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: يعملون بشرائعها ومواعظها، كما قال: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ [يونس: ٨٣]، يريد: آل فرعون، وكما يقولون: هاشم، وثقيف، وتميم، ويراد: قومهم، ولا يجوز أن يرجع الضمير في (لعلهم) إلى فرعون وملئه؛ لأنّ التوراة إنما أوتيها بنو إسرائيل بعد إغراق فرعون وملئه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣].

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾

فإن قلت: لو قيل آيتين هل كان يكون له وجه؟

قلت: نعم؛ لأنّ مريم ولدت من غير مسيس، وعيسى روح من الله ألقي إليها، وقد

تكلم في المهد وكان يحيي الموتى مع معجزات أخر، فكان آية من غير وجه، واللفظ محتمل للتثنية على تقدير: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾: آية، ﴿وَأُمَّهُۥٓ﴾: آية، ثم حذفت الأولى؛ لدلالة الثانية عليها، الربوة والرباوة في رائهما الحركات، وقرئ: «ربوة رباوة»: بالضم، ورباوة بالكسر وهي الأرض المرتفعة، قيل: هي إيليا: أرض بيت المقدس، وأنها كبد الأرض وأقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً: عن كعب، وقيل: دمشق وغوطتها، وعن الحسن: فلسطين والرملة، وعن أبي هريرة: الزموا هذه الرملة رملة فلسطين؛ فإنها الربوة التي ذكرها الله، وقيل: مصر، والقرار: المستقرّ من أرض مستوية منبسطة، وعن قتادة: ذات ثمار وماء، يعني: أنه لأجل الثمار: يستقرّ فيها ساكنوها، والمعين: الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض، وقد اختلف في زيادة ميمه وأصالته، فوجه من جعله مفعولاً أنه مدركٌ بالعين لظهوره، من عانه: إذا أدركه بعينه؛ نحو: ركبه: إذا ضربه بركبته، ووجه من جعله فعيلاً: أنه نفاع بظهوره وجريه، من الماعون: وهو المنفعة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما، وكيف الرسل؛ إنما أرسلوا متفرّقين في أزمنة مختلفة، وإنما المعنى: الإعلام بأنّ كلّ رسول في زمانه نودي لذلك[1] ووصى به؛ ليعتقد السامع أنّ أمراً نودي له جميع الرسل ووصوا به، حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه، والمراد بالطيبات: ما حل وطاب، وقيل: طيبات الرزق حلال وصاف وقوام، فالحلال ٢/ ٣٥ب: الذي لا يعصى الله فيه، والصافي: الذي لا ينسى الله فيه، والقوام: ما يمسك النفس ويحفظ العقل، أو أريد ما يستطاب ويستلذ من المآكل والفواكه؛ ويشهد له مجيئه على عقب قوله: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [مريم: ٥٠]؛ ويجوز أن يقع هذا الإعلام عند إيواء عيسى ومريم إلى الربوة، فذكر على سبيل الحكاية، أي: آويناهما وقلنا لهما هذا، أي: أعلمناهما أنّ الرسل كلهم خوطبوا بهذا، فكلا مما رزقناكما واعملا صالحاً؛ اقتداء بالرسل.

---

(١) قال محمود: «هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما وكيف والرسل إنما أرسلوا متفرقين في أزمنة مختلفة وإنما المعنى الإعلام بأن كل رسول في زمانه نودي بذلك» قال أحمد: هذه نفحة اعتزالية، فإن مذهب أهل السنة أن الله تعالى متكلم آمر ناه أزلاً، ولا يشترط في تحقق الأمر وجود المخاطب، فعلى هذا قوله: ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ على ظاهره وحقيقته عند أهل الحق، وهو ثابت أزلاً على تقدير وجود المخاطبين فيما لا يزال، متفرقين كما في هذا الخطاب، أو مجتمعين كما في زعمه، والمعتزلة لما أبت اعتقاد قدم الكلام زلت بهم القدم، حتى حملوا هذه الآية وأمثالها على المجاز وخلاف الظاهر. وما بال الزمخشري خص هذه الآية بأنها على خلاف الظاهر ومعتقده يوجب حمل مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وجميع الأوامر العامة في الأمة على خلاف الظاهر.

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾

قرئ: «وإنّ»: بالكسر على الاستئناف، وأنّ بمعنى: ولأنّ، وأن مخففة من الثقيلة، و﴿أُمَّتُكُمْ﴾: مرفوعة معها.

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾

وقرئ: ﴿زُبُرًا﴾: جمع زبور، أي: كتباً مختلفة، يعني: جعلوا دينهم أدياناً، وزبراً قطعاً: استعيرت من زبر الفضة والحديد، و«زبراً»: مخففة الباء، كرسل في رسل، أي: كلّ فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطعين دينهم، فرح بباطله، مطمئن النفس، معتقد أنه على الحق.

﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾

الغمرة: الماء الذي يغمر القامة؛ فضربت مثلاً لما هم مغمورون فيه من جهلهم وعمايتهم، أو شبهوا باللاعبين في غمرة الماء لما هم عليه من الباطل؛ قال [من البسيط]:

. . . . كَأَنَّنِي ضَارِبٌ فِي غَمْرَةٍ لَعِبُ[1]

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: في غمراتهم، ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾: إلى أن يقتلوا أو يموتوا.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

سلى رسول الله ـ ﷺ ـ بذلك، ونهى عن الاستعجال بعذابهم والجزع من تأخيره، وقرئ: «يمدّهم»، و«يسارع»، و«يسرع»: بالياء، والفاعل: الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويجوز في: يسارع، ويسرع: أن يتضمن ضمير الممدّ به، ويسارع، مبنياً للمفعول، والمعنى: أنّ هذا الإمداد ليس إلا استدراجاً لهم إلى المعاصي، واستجراراً إلى زيادة الإثم، وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات، وفيما لهم فيه نفع وإكرام، ومعاجلة بالثواب قبل

---

(١) لياليَ اللهو يطبيني فأتبعه ... كأنني ضارب في غمرة لعب

لذي الرمة. وليالي: منصوب على الظرفية، واللهو: مبتدأ. وطباه يطبوه ويطبيه: إذا دعاه وجذبه. وطبي الناقة ثديها لجذبه عند الحلب. أي اللهو يدعوني في ليال كثيرة فأتبعه، كأني سابح في لجة من الماء تغمر القامة، لعب فيها فهو خبر ثان. ويروى: لغب، بالمعجمة من اللغوب وهو المشقة. وقيل: «الليالي» مضاف للجملة بعده، فهو ظرف لما قبله. وروي: اللهو بالجر. وتطبيني بالتاء، فالفاعل ضمير الليالي.

ينظر: ديوانه ص ٣٨، ولسان العرب (ضرب)، (غمر)، (طبي)، وتهذيب اللغة ٨/ ١٢٩، ١٢/ ٢٠، وكتاب العين ٧/ ٣٣، وتاج العروس (ضرب)، (طبي)، وجمهرة أشعار العرب ص ٩٤٦.

وقته، ويجوز أن يراد في جزاء الخيرات كما يفعل بأهل الخير من المسلمين، و﴿بَل﴾: استدراك؛ لقوله: (أيحسبون)، يعني: بل هم أشباه البهائم لا فطنة بهم ولا شعور، حتى يتأملوا ويتفكروا في ذلك: أهو استدراج، أم مسارعة في الخير؟

فإن قلت: أين الراجع من خبر أنّ إلى اسمها إذا لم يستكنّ فيه ضميره؟

قلت: هو محذوف تقديره: نسارع به، ويسارع به، ويسارع الله به؛ كقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، أي: إن ذلك منه؛ وذلك لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾: يعطون ما أعطوا، وفي قراءة رسول الله - ﷺ - وعائشة: «يأتون ما أتوا» (٩٩٨)، أي: يفعلون ما فعلوا، وعنها أنها قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ الَّذِي يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرَبِ الْخَمْرَ وَهُوَ عَلَىٰ ذٰلِكَ يَخَافُ اللَّهَ؟ قَالَ: لا يَا ٱبْنَةَ الصِّدِّيقِ، وَلٰكِنْ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّق، وهو على ذلك يخاف الله ألا يقبل منه (٩٩٩)، ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾: يحتمل معنيين:

---

٩٩٨ - أخرجه الحاكم (٢/٢٤٦) من حديث عبد الله بن عبيد بن عمير الليثي عن أبيه قال: قلت لعائشة - رضي الله عنها -: يا أم المؤمنين، كيف كان رسول الله - ﷺ - يقرأ هذا الحرف: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ قالت: أشهد لسمعت رسول الله - ﷺ - يقرأها: «يؤتون».
ثم قال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

٩٩٩ - رواه الترمذي (٥/٣٢٧) كتاب التفسير، باب «ومن سورة المؤمنون» حديث (٣١٧٥). وابن ماجه (٢/١٤٠٤) كتاب الزهد، باب التوقي على العمل حديث (٤١٩٨) والحاكم في المستدرك (٢/٣٩٣ - ٣٩٤) ثم قال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» اهـ.
وأحمد في المسند (٦/١٥٩ - ٢٠٥)، والبيهقي في الشعب (١/٤٧٧) رقم (٧٦٢)، والطبري في التفسير (٩/٢٢٥ - ٢٢٦)، رقم (٢٥٥٥٩ - ٢٥٥٦٢)، والبغوي في تفسيره (٣/٣١٢)، وذكره السيوطي في الدر (٥/٢١) وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في نعت الخائفين وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.
قال الحافظ: أخرجه الترمذي، وابن ماجه، وأحمد، وإسحاق، وابن أبي شيبة، والحاكم، والبيهقي في الشعب من رواية عبد الرحمن بن سعيد بن وهب الهمذاني عن عائشة قالت: سألت فذكره. قال الترمذي: وقد روي عن عبد الرحمن بن سعيد عن أبي حازم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - اهـ وهذه الطريق أخرجها الطبري بهذا الإسناد أن عائشة قالت: فذكره، وله عنده طريق أخرى عن =

أحدهما: أن يراد يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها.

والثاني: أنهم يتعجلون في الدنيا المنافع ووجوه الإكرام؛ كما قال: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]؛ لأنهم إذا سورع بها لهم، فقد سارعوا في نيلها وتعجلوها، وهذا الوجه أحسن طباقاً للآية المتقدمة؛ لأن فيه إثبات ما نفي عن الكفار للمؤمنين، وقرئ: «يسرعون في الخيرات» ﴿لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أي: فاعلون السبق لأجلها أو سابقون الناس لأجلها، أو إياها سابقون، أي: ينالونها قبل الآخرة؛ حيث عجلت لهم في الدنيا[١]، ويجوز أن يكون: (لها سابقون): خبراً بعد خبر، ومعنى (وهم لها): كمعنى قوله [من الرجز]:

. . . . أَنْتَ لَهَا أَحْمَدُ مِنْ بَيْنِ الْبَشَرْ[٢]

= عائشة فيها ليث بن أبي سليم وهو ضعيف. وقوله وهو في قراءة النبي -ﷺ- وعائشة (يأتون ما أتوا): كأنه يشير إلى هذا الحديث، وأخرج منه ما أخرجه الحاكم من طريق عبد الله بن عمير عن أبيه أنه سأل عائشة عن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ كيف كان -ﷺ- يقرؤها يؤتون: يأتون أو يؤتون؟ قالت: أيهما أحب إليك؟ قال: الذين يأتون ما أتوا. قالت: أشهد أن رسول الله -ﷺ- كان يقرؤها، وكذلك أنزلت. وفي إسناده يحيى بن راشد وهو ضعيف. وله طريق أخرى، عند أحمد من طريق أبي خلف الجمحي: أن عبيد بن عمير سأل عائشة نحوه وفيه إسماعيل بن مسلم المكي. وهو ضعيف. انتهى.

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: ولا يدل لفظ لها سابقون على هذا التفسير لأنَّ سبق الشيء يدل على تقدم السابق على المسبوق فكيف يقول وهم يسبقون الخيرات وهذا لا يصح، قلت ولا أدري عدم الصحة من أي جهة وكأنه تخيل أن السابق يتقدم على المسبوق فكيف يتلاقيان لكنَّه ينبغي أن يقول فكيف يقول هم ينالون الخيرات وهم لا يجامعونها لتقدمهم عليها إلا أن يكون قد سبقه القلم فكيف يدل وهم ينالون وهم يسبقون، وعلى كل تقدير فأين عدم الصحة؟ انتهى. الدر المصون.

(٢) قصيدة رائقة صوغتها ... أنت لها أحمد من بين البشر

رائقة: خالية من الحشو والتعقيد. وصوغتها - بالتشديد - للمبالغة. وأنت لها: أي أهل وكفؤ لها. وأحمد: منادى. ومن بين البشر: متعلق بمحذوف حال، أي: منتخبا من بينهم، ويجوز أن أحمد أفعل تفضيل، كذا قيل. ويروى:

أنت لها منذر من بين البشر ... داهية الدهر وصماء الغبر

للأعشى الحرمازي، وضمير لها مبهم يفسره قوله «داهية الدهر» أي الشديدة المهمة من شدائده. والصماء الصلبة. والغبر - كسبب - بمعنى البقية، من غبر إذا بقي، أو من الغبار، أو من الظلمة. وأصل «صماء الغبر»: الحية تسكن في منقع قرب مويهة فلا تقرب. ويضرب بها المثل. والمعنى: أنها تغشى فلا يهتدى إلى التخلص منها. ومنذر: منادى. وروي بدله: أحمد. وقيل: ضمير لها للنبوة.

ينظر: لسان العرب (غبر)، وتاج العروس (غبر)، وتهذيب اللغة (٨/ ١٢٣)، وأساس البلاغة (غبر).

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يعني: أن هذا الذي وصف به الصالحين غير خارج من حدّ الوسع والطاقة، وكذلك كل ما كلفه عباده وما عملوه من الأعمال فغير ضائع عنده، بل هو مثبت لديه في كتاب، يريد: اللوح، أو صحيفة الأعمال ناطق بالحق لا يقرءون منه يوم القيامة إلا ما هو صدق وعدل، لا زيادة فيه ولا نقصان ولا يظلم منهم أحد، أو أراد: إن الله لا يكلف إلا الوسع، فإن لم يبلغ المكلف أن يكون على صفة هؤلاء السابقين بعد أن يستفرغ وسعه ويبذل طاقته، فلا عليه، ولدينا كتاب فيه عمل السابق والمقتصد، ولا نظلم أحداً من حقه ولا نحطه دون درجته، بل قلوب الكفرة في غفلة غامرة لها، ﴿فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي: مما عليه هؤلاء الموصوفون من المؤمنين، ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ﴾: متجاوزة متخطية لذلك، أي: لما وصف به المؤمنون، ﴿وَهُمْ لَهَا﴾: معتادون وبها ضارون، لا يفطمون، عنها حتى يأخذهم الله بالعذاب.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

وحتى هذه هي التي يبتدأ بعدها الكلام، والكلام: الجملة الشرطية، والعذاب: قتلهم يوم بدر، أو الجوع حين دعا عليهم رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَىٰ مُضَرَ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ» (١٠٠٠) فابتلاهم الله بالقحط حتى أكلوا الجيف والكلاب والعظام المحترقة والقد(١) والأولاد، الجؤار: الصراخ باستغاثة؛ قال: [الكامل]

جَأَرَ سَاعَاتِ النِّيَامِ لِرَبِّهِ

أي: يقال لهم حينئذ: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟﴾ ٢/١٣٦أ؛ فإن الجؤار غير نافع لكم، ﴿مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾: لا تغاثون ولا تمنعون منا أو من جهتنا، لا يلحقكم نصر ومغوثة، قالوا: الضمير

١٠٠٠ ـ تقدم برقم (٩٧٢).

قال الحافظ: متفق عليه من حديث ابن مسعود، وسيأتي تاماً في تفسير الدخان. انتهى.

---

(١) قوله «والقد» في الصحاح «القد» بالكسر: سير يقد من جلد غير مدبوغ. (ع)

في ﴿بِهِۦ﴾: للبيت العتيق أو للحرم، كانوا يقولون: لا يظهر علينا أحد؛ لأنا أهل الحرم، والذي سوّغ هذا الإضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت، وأنه لم تكن لهم مفخرة إلا أنهم ولاته والقائمون به، ويجوز أن يرجع إلى آياتي، إلا أنه ذكر؛ لأنها في معنى كتابي، ومعنى استكبارهم بالقرآن: تكذيبهم به استكباراً، ضمن مستكبرين معنى مكذّبين، فعدّى تعديته، أو يحدث لكم استماعه استكباراً وعتوّاً، فأنتم مستكبرون بسببه، أو تتعلق الباء بسامراً، أي: تستمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه، وكانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون، وكانت عامّة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحراً وشعراً وسبّ رسول الله ـ ﷺ ـ أو يتهجرون، والسامر: نحو الحاضر في الإطلاق على الجمع، وقرئ: «سمراً، وسماراً»، و«تهجرون وتهجرون»: من أهجر في منطقة إذا أفحش، والهجر ـ بالضم ـ: الفحش، ومن هجر الذي هو مبالغة في هجر إذا هذى، والهجر ـ بالفتح ـ: الهذيان.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿ٱلْقَوْلَ﴾: القرآن، يقول: أفلم يتدبروه؛ ليعلموا أنه الحق المبين فيصدّقوا به وبمن جاء به، بل ﴿جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ﴾؛ فلذلك أنكروه واستبدعوه؛ كقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾ [يس: ٦]، أو ليخافوا عند تدبر آياته وأقاصيصه مثل ما نزل بمن قبلهم من المكذبين، أم جاءهم من الأمن ما لم يأت آباءهم؛ حين خافوا الله فآمنوا به وبكتبه ورسله وأطاعوه؟ وآباؤهم: إسماعيل وأعقابه من عدنان وقحطان، وعن النبي ـ ﷺ ـ: «لاَ تَسُبُّوا مُضَرَ وَلاَ رَبِيعَةَ، فَإِنَّهُمَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ، وَلاَ تَسُبُّوا قُسًّا؛ فَإِنَّهُ كَانَ مُسْلِماً، وَلاَ تَسُبُّوا الْحَارِثَ بْنَ كَعْبٍ وَلاَ أَسَدَ بْنَ خُزَيْمَةَ وَلاَ تَمِيمَ بْنَ مُرٍّ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الإِسْلاَمِ، وَمَا شَكَكْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَلاَ تَشُكُّوا فِي أَنْ تُبَّعاً كَانَ مُسْلِماً» (١٠٠١)، وروي في

١٠٠١ ـ قال السهيلي في الروض الأنف (١/ ١٠): «وفي الحديث المروي: «لا تسبوا مضر ولا ربيعة؛ فإنهما كانا مؤمنين» ذكره الزبير بن بكار اهـ.
ورواه ابن سعد في الطبقات (١/ ٤٨) قال: أخبرنا خالد بن خداش أخبرنا عبد الله بن وهب قال: أخبرني سعيد بن أبي أيوب عن عبد الله بن خالد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تسبوا مضر، فإنه كان قد أسلم».
وكذا ذكره المتقي الهندي في كنز العمال رقم (٣٣٩٨٧)، وأخرج الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥٠) عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: «كان تبع رجلاً صالحاً، ألا ترى أن الله عز وجل ذم قومه ولم يذمه». وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .اهـ. ووافقه الذهبي.
وروى أحمد (٥/ ٣٤٠) عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «لا تسبوا تبعاً؛ =

أنّ ضبة كان مسلماً، وكان على شرطة سليمان بن داود، ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ﴾: محمداً وصحة نسبه، وحلوله في سطة هاشم، وأمانته، وصدقه، وشهامته، وعقله، واتسامه بأنه خير فتيان قريش، والخطبة التي خطبها أبو طالب في نكاح خديجة بنت خويلد، كفى برغائها منادياً.

الجنة: الجنون، وكانوا يعلمون أنه بريء منها وأنه أرجحهم عقلاً وأثقبهم ذهناً، ولكنه جاءهم بما خالف شهواتهم وأهواءهم، ولم يوافق ما نشأوا عليه، وسيط بلحومهم[1]، ودمائهم من اتباع الباطل، ولم يجدوا له مردًا ولا مدفعاً؛ لأنه الحق الأبلج والصراط المستقيم، فأخلدوا إلى البهت، وعوّلوا على الكذب من النسبة إلى الجنون والسحر والشعر.

فإن قلت: قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ فيه أن أقلهم كانوا لا يكرهون الحق.

قلت: كان فيهم من يترك الإيمان به أنفة واستنكافاً من توبيخ قومه، وأن يقولوا: صبأ وترك دين آبائه، لا كراهة للحق، كما يحكى عن أبي طالب[2].

= فإنه قد كان أسلم» والديلمي في مسند الفردوس (٥/ ١٦١) رقم (٧٤٨٤)، ورواه الطبراني في الكبير (٦/ ٢٠٣) رقم (٦٠١٣)، قال في المجمع (٨/ ٧٩): رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه عمرو بن جابر وهو كذاب» اهـ.

قال الحافظ: قلت اقتصر المخرج في عزو الجملة الأولى إلى السهيلي عن الزبير، وتتضمن الباقي. وقد أخرجه ابن سعد والبلاذري من طريق سعد بن أبي أيوب عن عبد الله بن خالد أنه بلغه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا تسبوا مضر؛ فإنه كان مسلماً». وأما تبع فروى الفاكهي من طريق عمر بن جابر عن سهل بن سعد رفعه «لا تسبوا تبعاً فإنه قد أسلم». وأخرجه الحاكم من طريق ابن جريج عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: «كان تبع رجلاً صالحاً. الحديث» موقوف. وقوله: والخطبة التي خطبها أبو طالب في نكاح خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ كفى برغائها منادياً: قلت نص له أيضاً. انتهى.

---

(١) قوله «وسيط بلحومهم» أي: وخلط. (ع)

(٢) قال محمود: «فإن قلت أكثرهم يعطي أن أقلهم لا يكره الحق، وكيف ذلك والكل كفرة؟ قلت: فيهم من أبى الإسلام حذراً من مخالفة آبائه ومن أن يقال صبأ كأبي طالب، لا كراهة للحق» قال أحمد: وأحسن من هذا أن يكون الضمير في قوله: (وأكثرهم) على الجنس للناس كافة، ولما ذكر هذه الطائفة من الجنس بنى الكلام في قوله (وأكثرهم) على الجنس بجملته، كقوله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ وكقوله ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ والنبي ﷺ جاء الناس كلهم وبعث إلى الكافة. ويحتمل أن يحمل الأكثر على الكل كما حمل القليل على النفي والله أعلم. وأما قول الزمخشري ـ: إن من تمادى على الكفر وآثر البقاء عليه تقليداً لآبائه «ليس كارهاً للحق ـ فمردود» فإن من أحب شيئاً كره ضده، =

فإن قلت: يزعم بعض الناس أنّ أبا طالب صحّ إسلامه.

قلت: سبحان الله! كأن أبا طالب كان أخمل أعمام رسول الله ـ ﷺ ـ حتى يشتهر إسلام حمزة والعباس ـ رضي الله عنهما ـ ويخفى إسلام أبي طالب.

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١)﴾

دل بهذا على عظم شأن الحق، وأنّ السمٰوات والأرض ما قامت ولا من فيهن إلا به، فلو اتبع أهواءهم لانقلب باطلاً، ولذهب ما يقوم به العالم فلا يبقى له بعده قوام، أوأراد أنّ الحق الذي جاء به محمد ـ ﷺ ـ وهو الإسلام، لو اتبع أهواءهم وانقلب شركا، لجاء الله بالقيامة، ولأهلك العالم ولم يؤخر؛ وعن قتادة: أنّ الحق هو الله، ومعناه: ولو كان الله إلهاً يتبع أهواءهم ويأمر بالشرك والمعاصي، لما كان إلٰهاً ولكان شيطاناً، ولما قدر أن يمسك السمٰوات والأرض، ﴿بِذِكْرِهِمْ﴾ أي: بالكتاب الذي هو ذكرهم، أي: وعظهم أو وصيتهم وفخرهم: أو بالذكر الذي كانوا يتمنونه، ويقولون: لو أنّ عندنا ذكراً من الأوّلين لكنا عباد الله المخلصين، وقرئ: «بذكراهم».

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢)﴾

قرئ: «خراجاً فخراج»، و«خرجاً فخرج»، و«خرجاً فخراج»: وهو ما تخرجه إلى الإمام من زكاة أرضك، وإلى كل عامل من أجرته وجُعله، وقيل: الخرج: ما تبرعت به، والخراج: ما لزمك أداؤه، والوجه: أنَّ الخرج أخص من الخراج؛ كقولك: خراج القرية، وخرج الكردة؛ زيادة اللفظ لزيادة المعنى؛ ولذلك حسنت قراءة من قرأ: «خرجا فخراج ربك»، يعني: أم تسألهم على هدايتك لهم قليلاً من عطاء الخلق، فالكثير من عطاء الخالق خير.

= فإذا أحبوا البقاء على الكفر فقد كرهوا الانتقال عنه إلى الإيمان ضرورة، والله أعلم. ثم انجر الكلام إلى استبعاد إيمان أبي طالب. وتحقيق القول فيه أنه مات على الكفر، ووجه ذلك بأنه أشهر عمومة النبي ﷺ، فلو كان قد أسلم لاشتهر إسلامه، كما اشتهر إسلام العباس وحمزة وأجدر لأنه أشهر، وللقائل بإسلامه أن يعتذر عن عدم شهرته بأنه إنما أسلم قبيل الاحتضار، فلم يظهر له مواقف في الإسلام يشتهر بها كما ظهر لغيره من عمومته عليه الصلاة والسلام. هذا والظاهر أنه لم يسلم. وحسبك دليلاً على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: سألت الله تعالى فيه، وأنه بعد ذلك لفي ضحضاح من نار يغلي رأسه من قدميه. فإن قيل: لا يلزم من ذلك موته على الكفر؛ لأن كثيراً من عصاة الموحدين يعذب بأكثر من ذلك. قلنا: من أثبت إسلامه ادعى أن ذلك كان قبيل الاحتضار، فالإسلام جب ما قبله، وتلك الدقيقة التي صار فيها من المسلمين لا تحتمل من المعاصي ما يوجب ذلك، والله أعلم.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَـٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾

قد ألزمهم الحجة في هذه الآيات وقطع معاذيرهم وعللهم بأن الذي أُرسل إليهم رجل معروف أمره وحاله، مخبور سرّه وعلنه، خليق بأن يجتبى مثله للرسالة من بين ظهرانيهم، وأنه لم يعرض له[1] حتى يدعي بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل، ولم يجعل ذلك سلماً إلى النيل من دنياهم واستعطاء أموالهم، ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام الذي هو الصراط المستقيم، مع إبراز المكنون من أدوائهم، وهو إخلالهم بالتدبر والتأمل، واستهتارهم[2] بدين الآباء الضلال من غير برهان، وتعللهم: بأنه مجنون بعد ظهور الحق وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات النيرة، وكراهتهم ٢/٣٦ب للحق، وإعراضهم عما فيه حظهم من الذكر، يحتمل أنّ هؤلاء وصفتهم أنهم لا يؤمنون بالآخرة، ﴿لَنَـٰكِبُونَ﴾ أي: عادلون عن هذا الصراط المذكور، وهو قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وأن كل من لا يؤمن بالآخرة فهو عن القصد ناكب؛ لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي ولحق باليمامة، ومنع الميرة من أهل مكة وأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا العلهز[3]، جَاءَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَقَالَ لَهُ: أَنْشُدُكَ اللَّهَ وَالرَّحِمَ، أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ بُعِثْتَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ؟ فَقَالَ: بَلَىٰ، فَقَالَ: قَتَلْتَ الآبَاءَ بِالسَّيْفِ، وَالأَبْنَاءَ بِالْجُوعِ (١٠٠٢).

١٠٠٢ ـ رواه الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٣٧٠) رقم (١٢٠٣٨) حدثنا عيسى بن القاسم الصيدلاني البغدادي ثنا عبد الرحمن بن بشر بن الحكم النيسابوري ثنا علي بن الحسين بن واقد حدثني أبي عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس قال: جاء أبو سفيان بن حرب إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: يا محمد، نشدتك الله والرحم قد أكلنا العلهز ـ يعني الوبر والدم ـ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

وابن حبان في صحيحه (٥/ ٤٢٨) رقم (١٧٥٣ ـ موارد)، والنسائي في التفسير (٢/ ٩٨ ـ ٩٩) رقم (٣٧٢)، وابن جرير الطبري في التفسير (٩/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦) رقم (٢٥٦٣٢)، وعزاه الزيلعي للبيهقي في الدلائل والواحدي في أسباب النزول، وذكره البغوي في التفسير (٣/ ٣١٤)، قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٧٦): «رواه الطبراني وفيه علي بن الحسين بن واقد وثقه النسائي وغيره وضعفه أبو حاتم» اهـ.

---

(١) قوله «لم يعرض» لعله: لم يعرض له جنون. (ع)

(٢) قوله «واستهتارهم بدين الآباء الضلال» في الصحاح: فلان مستهتر بالشراب، أي: مولع به لا يبالي ما قيل فيه. (ع)

(٣) قوله «حتى أكلوا العلهز» في الصحاح «العلهز» بالكسر: طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير في سني المجاعة. (ع)

﴿ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

والمعنى: لو كشف الله عنهم هذا الضرّ، وهو: الهزال والقحط الذي أصابهم برحمته عليهم ووجدوا الخصب، لارتدوا إلى ما كانوا عليه من الاستكبار وعداوة رسول الله ـ ﷺ ـ والمؤمنين وإفراطهم فيها، ولذهب عنهم هذا الإبلاس، وهذا التملق بين يديه ويسترحمونه، واستشهد على ذلك بأنا أخذناهم أوّلاً بالسيوف، وبما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسرهم، فما وجدت منهم بعد ذلك استكانة ولا تضرع، حتى فتحنا عليهم باب الجوع الذي هو أشدّ من الأسر والقتل وهو أطم العذاب، فأبلسوا الساعة وخضعت رقابهم، وجاء أعتاهم وأشدّهم شكيمة في العناد يستعطفك، أو محناهم بكل محنة من القتل والجوع فما رؤي فيهم لين مقادة وهم كذلك، حتى إذا عذبوا بنار جهنم فحينئذٍ يبلسون؛ كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الروم: ١٢]، ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزخرف: ٧٥]، والإبلاس: اليأس من كل خير، وقيل: السكوت مع التحير.

فإن قلت: ما وزن استكان؟

قلت: استفعل من الكون[١]، أي: انتقل من كون إلى كون، كما قيل: استحال إذا انتقل من حال إلى حال، ويجوز أن يكون افتعل من السكون أشبعت فتحة عينه، كما جاء [من الوافر]:

---

(١) قال محمود: «استكان استفعل من الكون، أي: انتقل من كون إلى كون، كما يقال: استحال، إذا انتقل من حال إلى حال» قال أحمد: هذا التأويل أسلم وأحق من تأويل من اشتقه من السكون وجعله افتعل، ثم أشبعت الفتحة فتولدت الألف كتولدها في قوله:

ينباع من ذفري غضوب جسرة

فإن هذا الإشباع ليس بفصيح، وهو من ضرورات الشعر، فينبغي أن ترفع منزلة القرآن عن ورود مثله فيه، لكن تنظير الزمخشري له باستحال: وهم، فإن استكان على تأويله أحد أقسام استفعل، الذي معناه التحول، كقولهم: استحجر الطين، واستنوق الجمل. وأما استحال فثلاثيه حال يحول، إذا انتقل من حال إلى حال، وإذا كان الثلاثي يفيد معنى التحول لم يبق لصيغة استفعل فيها أثر، فليس استحال من استفعل للتحول ـ ولكنه من استفعل بمعنى فعل، وهو أحد أقسامه، إذ لم يزد السداسي فيه على الثلاثي معنى، والله أعلم. ثم نعود إلى تأويله فنقول: المعنى عليه: فما انتقلوا من كون التكبر والتجبر والاعتياص إلى كون الخضوع والضراعة إلى الله تعالى. ولقائل أن يقول: استكان يفيد على التأويل المذكور الانتقال من كون إلى كون، فليس حمله على أنه انتقال عن التكبر =

. . . . بِـمُـنْـتَـزَاحِ[1]

فإن قلت: هلا قيل: وما تضرعوا، أو: فما يستكينون؟

قلت: لأنّ المعنى: محناهم فما وجدت منهم عقيب المحنة استكانة، وما من عادة هؤلاء أن يستكينوا ويتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد، وقرئ: «فتحنا».

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾

إنما خصّ السمع والأبصار والأفئدة؛ لأنه يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها، ومقدمة منافعها أن يعملوا أسماعهم وأبصارهم في آيات الله وأفعاله، ثم ينظروا ويستدلوا بقلوبهم، ومن لم يعملها فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، إذ كانوا

= إلى الخضوع بأولى من العكس. وترى هذه الصيغة لا تفهم إلا أحد الانتقالين، فلو كانت مشتقة من مطلق الكون لكانت مجملة محتملة للانتقالين جميعاً. والجواب أن أصلها كذلك على الإطلاق، ولكن غلب العرف على استعمالها في الانتقال الخاص كما غلب في غيرها، والله أعلم. وكان جدي أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير رحمه الله يذكر لي أنه لما دخل بغداد زمن الإمام الناصر رضي الله عنه، أظهر من جملة كراماته له: أن جمع له الوزير جميع علماء بغداد وعقد بهم محفلا للمناظرة، وكان يذكر لي أن مما انجر الكلام إليه حينئذٍ هذه الآية، وأن أحدهم وكان يعرف بالأجل اللغوي خصه الوزير بالسؤال عنها فقال: وهو مشتق من قول العرب: كنت لك إذا خضعت، وهي لغة هذلية فاستحسن منه ذلك. قال أحمد: وقد وقفت عليها بعد ذلك في غريب أبي عبيد الهروي وهو أحسن محامل الآية وأسلمها، والله أعلم. وعلى هذا يكون من استفعل بمعنى فعل، كقولهم: استقر واستعلى، وحال واستحال على ما مر. وقد قال لي بعضهم يوماً: لم لا تجعله على هذا التأويل من استفعل المبني للمبالغة. مثل استحسر واستعصم من حسر وعصم، فقلت: لا يسعني ذلك؛ لأن المعنى يأباه، وذلك أنها جاءت في النفي والمقصود منها ذم هؤلاء بالجفوة والقسوة وعدم الخضوع، مع ما يوجب نهاية الضراعة من أخذهم بالعذاب، فلو ذهبت إلى جعلها للمبالغة أفادت نقص المبالغة، لأن نفي الأبلغ أدنى من نفي الأدنى، وكأنهم على ذلك ذموا بنفي الخضوع الكثير، وأنهم ما بلغوا في الضراعة نهايتها، وليس الواقع؛ فإنهم ما اتسموا بالضراعة ولا بلمظة منها، فكيف تنفي عنهم النهاية الموهمة لحصول البداية، والله أعلم.

(١) قوله «كما جاء بمنتزاح» أي في قوله:

وأنت من الغوائل حين ترمي ... وعن ذم الرجال بمنتزاح

اهـ عليان.

قلت: وقد تقدم شرح هذا الشاهد.

يجحدون بآيات الله، ومقدمة شكر النعمة فيها الإقرار بالمنعم بها، وألاَّ يجعل له ندّ ولا شريك، أي: تشكرون شكراً قليلاً، و﴿مَّا﴾: مزيدة للتأكيد بمعنى: حقًّا، ﴿ذَرَأَكُمْ﴾: خلقكم وبثكم بالتناسل، ﴿وَإِلَيْهِ﴾: تجمعون يوم القيامة بعد تفرّقكم، ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: هو مختص به وهو متوليه، ولا يقدر على تصريفهما غيره، وقرئ: «يعقلون»: بالياء عن أبي عمرو.

﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾

أي: قال أهل مكة كما قال الكفار قبلهم، الأساطير: جمع أسطار: جمع سطر؛ قال رؤبة [من الرجز]:

إِنِّــي وَأَسْــطَــارٍ سُــطِــرْنَ سَــطْــرَا[1] . . . .

وهي: ما كتبه الأوّلون مما لا حقيقة له، وجمع أسطورة أوفق.

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ

---

(١) إنــي وأســطــار ســطــرن ســطــرا لــقــائــل: يــا نــصــر نــصــر نــصــرا

لرؤبة بن العجاج. والمراد بالأسطار: الكتابة، وهي جمع سطر بالتحريك، وأصله مصدر كالساكن الوسط. وسطرن: مبني للمجهول. وسطراً: مصدر. ولقائل: خبر «إني» وما بينهما جملة قسمية اعتراضية. ونصر: مبني على الضم، وهو ابن سيار ملك خراسان. ونصر الثاني توكيد لفظي، مرفوع على اللفظ. والثالث كذلك نصب على المحل لأنه كان مفردا معرفة لأنه تابع. أو هو مصدر نائب عن فعله. أي انصرني نصراً. وقيل «نضر» الثاني بالضاد المعجمة على أنه علم لصاحب نصر الأول، فهو على حذف العاطف. عن أبي عبيدة: والمنقول أن الذي بالضاد المعجمة هو الثالث، كان حاجباً لنصر، واشتكاه له الشاعر فنصبه على الإغراء. والمعنى على الأول: وحق الكتاب المسطور إني لمستغيث به لا بغيره.

ينظر ديوانه ص ١٧٤، ولسان العرب (نصر)؛ وتاج العروس (نصر)، ومقاييس اللغة ٥/٤٣٦، ومجمل اللغة ٤/٤٠٨، وخزانة الأدب ٢/٢١٩، والخصائص ١/٣٤٠، والدرر ٤/٢٢، وشرح شواهد الإيضاح ص ٢٤٣، وشرح المفصل ٢/٣، والكتاب ٢/١٨٥، ١٨٦، ولذي الرمة في شرح شذور الذهب ص ٥٦٤، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في لسان العرب (سطر)، وتهذيب اللغة ١٢/ ٣٢٧، وتاج العروس (سطر)، (نصر)، (الياء)، وأسرار العربية ص ٢٩٧، والأشباه والنظائر ٤/ ٨٦، والدرر ٦/٢٦، ومغني اللبيب ٢/٣٨٨، والمقاصد النحوية ٤/٢٠٩، والمقتضب ٤/٢٠٩، وهمع الهوامع ١/٢٤٧، ٢/١٢١.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

أي: أجيبوني عما استعلمتكم منه[1] إن كان عندكم فيه علم، وفيه استهانة بهم وتجويز لفرط جهالتهم بالديانات: أن يجهلوا مثل هذا الظاهر البين، وقرئ: «تذكرون»: بحذف التاء الثانية[2]، ومعناه: أفلا تتذكرون فتعلموا أنّ من فطر الأرض ومن فيها اختراعاً، كان قادراً على إعادة الخلق، وكان حقيقاً بألاّ يشرك به بعض خلقه في الربوبية، قرئ: «الأوّل»: باللام لا غير، والأخيران: باللام، وهو هكذا في مصاحف أهل الحرمين والكوفة والشام، وبغير اللام: وهو هكذا في مصاحف أهل البصرة، فباللام على المعنى؛ لأن قولك من ربه، ولمن هو: في معنى واحد، وبغير اللام على اللفظ، ويجوز قراءة الأوّل بغير لام، ولكنها لم تثبت في الرواية، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: أفلا تخافونه فلا تشركوا به وتعصوا رسله، أجرت فلاناً على فلان: إذا أغثته منه ومنعته، يعني: وهو يغيث من يشاء ممن يشاء، ولا يغيث أحد منه أحداً، ﴿تُسْحَرُونَ﴾: تخدعون عن توحيده وطاعته، والخادع: هو الشيطان والهوى.

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾

وقرئ: «أتيتهم وأُتيتهم»: بالفتح والضم، ﴿بِالْحَقِّ﴾: بأن نسبة الولد إليه محال والشرك باطل، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾؛ حيث يدعون له ولداً ومعه شريكاً، ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾: لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه واستبدّ به، ولرأيتم ملك كل واحد منهم متميزاً من ملك الآخرين، ولغلب بعضهم بعضاً؛ كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متمايزة وهم متغالبون، ٢/٣٧أ وحين لم تروا أثراً لتمايز الممالك وللتغالب، فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء.

فإن قلت: إذا: لا تدخل إلا على كلام هو جزاء وجواب، كيف وقع قوله: لذهب جزاء وجواباً، ولم يتقدّمه؛ شرط ولا سؤال سائل؟

قلت: الشرط محذوف تقديره: ولو كانت معه آلهة. وإنما حذف لدلالة قوله: ﴿وَمَا

(١) قوله «عما استعلمتكم منه» لعله «عنه». (ع)

(٢) قوله «وقرىء (تذكرون) بحذف التاء الثانية» يفيد أن القراءة المشهورة (تذكرون) بالتشديد. (ع)

كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، عليه، وهو جواب لمن معه المحاجة من المشركين ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾: من الأنداد والأولاد، ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾: بالجرّ صفة لله، وبالرفع: خبر مبتدأ محذوف.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

ما والنون: مؤكدتان، أي: إن كان لا بد من أن تريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا أو في الآخرة ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي﴾: قرينا لهم ولا تعذبني بعذابهم، عن الحسن: أخبره الله أن له في أمته نقمة ولم يخبره أفي حياته أم بعد موته، فأمره أن يدعو بهذا الدعاء.

فإن قلت: كيف يجوز أن يجعل الله نبيه المعصوم مع الظالمين، حتى يطلب ألاّ يجعله معهم؟

قلت: يجوز أن يسأل العبد ربه ما علم أنه يفعله، وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله؛ إظهاراً للعبودية، وتواضعاً لربه، وإخباتاً له، واستغفاره ـ ﷺ ـ إذا قام من مجلسه سبعين مرة أو مائة مرة لذلك، وما أحسن قول الحسن في قول أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنهما ـ: «وليتكم ولست بخيركم» (١٠٠٣) كان يعلم أنه خيرهم، ولكن المؤمن يهضم نفسه، وقرئ: «إما ترئنهم»: بالهمز (١)، مكان تريني، كما قرئ: «فإما ترئن»، و«لترؤن الجحيم»، وهي ضعيفة، وقوله: (رب): مرتين قبل الشرط وقبل الجزاء، حث على فضل تضرع وجؤار، كانوا ينكرون الموعد بالعذاب ويضحكون منه واستعجالهم له لذلك، فقيل لهم: إن الله قادر على إنجاز ما وعد إن تأملتم، فما وجه هذا الإنكار؟

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾

١٠٠٣ ـ رواه ابن هشام في السيرة: عن ابن إسحاق حدثني الزهري قال: حدثني أنس بن مالك قال: لما بويع أبو بكر... فذكر حديثاً طويلا وفيه. ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني... إلخ. كما في السيرة (٤/ ٣٦٩) رقم (٢١٠٠).
ورواه ابن سعد في الطبقات (٣/ ١٨٢) عن عروة عن أبيه مرسلاً.
وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢/ ٤٠٦) للدارقطني في كتابه المؤتلف والمختلف وفي غرائب مالك وأبي عبيد في كتاب الأموال والواقدي في آخر كتاب المغازي.

---

(١) قوله «وقرئ إما ترئنهم بالهمزة» في نسخة أخرى: إما ترئني بالهمز، كما قرئ... إلخ». (ع)

«وأبلغ من أن يقال: بالحسنة السيئة؛ لما فيه من التفضيل، كأنه قال: ادفع بالحسنى السيئة، والمعنى: الصفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الإحسان، حتى إذا اجتمع الصفح والإحسان وبذل الاستطاعة فيه: كانت حسنة مضاعفة بإزاء سيئة، وهذه بقضية قوله: ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ﴾[1]، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هي شهادة أن لا إلٰه إلا الله، والسيئة: الشرك، وعن مجاهد: السلام: يسلم عليه إذا لقيه، وعن الحسن: الإغضاء والصفح، وقيل: هي منسوخة بآية السيف، وقيل: محكمة؛ لأن المداراة محثوث عليها ما لم تؤدّ إلى ثلم دين وإزراء بمروءة، ﴿بِمَا يَصِفُونَ﴾: بما يذكرونه من أحوالك بخلاف صفتها، أو بوصفهم لك وسوء ذكرهم، والله أعلم بذلك منك وأقدر على جزائهم».

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾

الهمز: النخس، والهمزات: جمع المرّة منه، ومنه: مهماز الرائض، والمعنى: أنّ الشياطين يحثون الناس على المعاصي ويغرونهم عليها، كما تهمز الراضة الدواب حثًّا لها على المشي، ونحو الهمز: الأزّ؛ في قوله تعالى: ﴿تَؤُزُّهُمۡ أَزًّا﴾: أمر بالتعوّذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربه، المكرّر لندائه، وبالتعوذ من أن يحضروه أصلاً ويحوموا حوله،

---

(١) قال محمود: «هذا أبلغ من أن يقال: ادفع بالحسنة السيئة، لما فيه من التفضيل كأنه قال: ادفع بالحسنى السيئة، والمعنى: الصفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الإحسان، حتى إذا اجتمع الصفح والإحسان وبذل الاستطاعة فيه، كانت حسنة مضاعفة بإزاء سيئة، وهذه قضية قوله: بالتي هي أحسن، قال أحمد: ما ذكره تقريراً للمفاضلة عبارة عن الاشتراك في أمر والتميز بغيره، ولا اشتراك بين الحسنة والسيئة؛ فإنهما ضدان متقابلان، فكيف تتحقق المفاضلة؟ قلت: المراد أن الحسنة من باب الحسنات، أزيد من السيئة من باب السيئات، فتجيء المفاضلة مما هو أعم من كون هذه حسنة وهذه سيئة. وذلك شأن كل مفاضلة بين ضدين، كقولهم: العسل أحلى من الخل، يعنون أنه في الأصناف الحلوة أميز من الخل في الأصناف الحامضة. وليس لأن بينهما اشتراكاً خاصاً. ومن هذا القبيل ما يحكى عن أشعب الماجن أنه قال: نشأت أنا والأعمش في حجر فلان، فما زال يعلو وأسفل حتى استوينا، بمعنى أنهما استويا في بلوغ كل منهما الغاية: أشعب بلغ الغاية على السفلة. والأعمش: بلغ الغاية على العلية، هذا تفسير كلامه عن نفسه، ونعود إلى الآية فنقول: هي تحتمل وجهاً آخر من التفضيل أقرب متناولاً: وهو أن تكون المفاضلة بين الحسنات التي تدفع بها السيئة، فإنها قد تدفع بالصفح والإغضاء، ويقنع في دفعها بذلك، وقد يزاد على الصفح الإكرام وقد تبلغ غايته ببذل الاستطاعة، فهذه الأنواع من الدفع كلها دفع بحسنة، ولكن أحسن هذه الحسنات في الدفع هي الأخيرة، لاشتمالها على عدد من الحسنات، فأمر النبي ﷺ بأحسن الحسنات في دفع السيئة، فعلى هذا تجري المفاضلة على حقيقتها من غير حاجة إلى تأويل، والله أعلم. فتأمله فإنه حسن جدا.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: عند تلاوة القرآن، وعن عكرمة: عند النزع.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿حَتَّىٰٓ﴾: يتعلق بيصفون، أي: لا يزالون على سوء الذكر إلى هذا الوقف، والآية فاصلة بينهما على وجه الاعتراض والتأكيد للإغضاء عنهم، مستعيناً بالله على الشيطان أن يستزله عن الحلم ويغريه على الانتصار منهم، أو على قوله: وإنهم لكاذبون[1]: خطاب الله بلفظ الجمع للتعظيم؛ كقوله [من الطويل]:

فَإِنْ شِئْتُ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمُ[2] . . . .

وقوله [من الطويل]:

أَلاَ فَارْحَمُونِي يَا إِلٰهَ مُحَمَّدٍ[3] . . . .

إذا أيقن بالموت واطلع على حقيقة الأمر، أدركته الحسرة على ما فرّط فيه من الإيمان والعمل الصالح فيه، فسأله ربه الرجعة، وقال: ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾: في الإيمان الذي تركته، والمعنى: لعلي آتي بما تركته من الإيمان، وأعمل فيه صالحاً، كما تقول: لعلي أبني على أس، تريد: أُأسس أسا وأبني عليه، وقيل: فيما تركت من المال، وعن النبي ـ ﷺ ـ: «إِذَا عَايَنَ الْمُؤْمِنُ الْمَلاَئِكَةَ قَالُوا: نُرْجِعُكَ إِلَى الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: إِلَىٰ دَارِ الْهُمُومِ وَالأَحْزَانِ! بَلْ قُدُوماً إِلَى اللَّهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَقُولُ: رَبِّ ارْجِعُونِ» (١٠٠٤)،

١٠٠٤ ـ أخرجه ابن جرير (٩/ ٢٤٢) حدثنا القاسم قال: ثنا الحسين قال: ثنى حجاج عن ابن جريج قال: قال النبي ـ ﷺ ـ لعائشة: «إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا: نرجعك إلى الدنيا؟ فيقول: إلى دار الهموم والأحزان فيقول بل قدماني إلى الله وأما الكافر فيقال: نرجعك؟ فيقول: لعلي أعمل صالحاً =

---

(١) قوله «أو على قوله: وإنهم لكاذبون» لعله عطف على المعنى، كأنه قال فيما مر: حتى رد على قوله (يصفون). قال هنا: أو على قوله: (وإنهم لكاذبون). (ع)

(٢) تقدم.

(٣) ألا فارحموني يا إله محمد ... فإن لم أكن أهلاً فأنت له أهل

«ألا» استفتاحية دالة على الاهتمام بما يعقبها من الكلام، وخاطب الإله الواحد الأحد بخطاب الجمع جرياً على عادة العرب من خطاب السادة والملوك بذلك تعظماً. وقيل: هو إشارة إلى تكرار الفعل للتوكيد، كأنه قيل: ارحمني ارحمني ارحمني، وإضافته إلى محمد ﷺ للتوسل به إلى الله عز وجل، فإن لم أكن أهلاً لهذا الطلب أو المطلوب من الرحمة والرفق، فأنت يا الله أهل له.
ينظر: البحر (٦/ ٤٢١)، وروح المعاني (١٨/ ٦٣)، والدر المصون (٥/ ٢٠٠).

﴿كَلَّآ﴾: ردع عن طلب الرجعة، وإنكار واستبعاد، والمراد بالكلمة: الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض؛ وهي قوله: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾، ﴿هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾: لا محالة، لا يخليها ولا يسكت عنها؛ لاستيلاء الحسرة عليه وتسلط الندم، أو هو قائلها وحده لا يجاب إليها ولا تسمع منه، ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ﴾ والضمير: للجماعة، أي: أمامهم حائل بينهم وبين الرجعة إلى يوم البعث، وليس المعنى: أنهم يرجعون يوم البعث؛ وإنما هو إقناط كلي لما علم أنه لا رجعة يوم البعث إلا إلى الآخرة.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ (١٠١)﴾

الصور ـ بفتح الواو ـ: عن الحسن، والصور ـ بالكسر والفتح ـ: عن أبي رزين، وهذا دليل لمن فسر الصور بجمع الصورة، ونفى الأنساب: يحتمل أنّ التقاطع يقع بينهم، حيث يتفرّقون معاقبين ومثابين، ولا يكون التواصل بينهم والتألف إلا بالأعمال، فتلغوا الأنساب وتبطل، وأنه لا يعتدّ بالأنساب؛ لزوال التعاطف والتراحم بين الأقارب؛ إذ يفرّ المرء من أخيه وأمّه وأبيه وصاحبته وبنيه، وعن ابن مسعود: «ولا يساءلون»: بإدغام التاء في السين.

فإن قلت ٢/٣٧ب: قد ناقض هذا ونحو قوله: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا (١٠)﴾ [المعارج: ١٠]، قوله: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ (٢٧)﴾ [الصافات: ٢٧][1]، وقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [يونس: ٤٥]، فكيف التوفيق بينهما؟

قلت: فيه جوابان:

أحدهما: أن يوم القيامة مقداره خمسون ألف سنة، ففيه أزمنة وأحوال مختلفة يتساءلون ويتعارفون في بعضها، وفي بعضها لا يفطنون لذلك لشدّة الهول والفزع[2].

= فيما تركت» الآية.

قال الزيلعي (٣/٤٠٧): «وذكره الثعلبي عن عائشة مرفوعاً من غير سند» اهـ.

---

(١) قال محمود: «إن قلت قد ناقض هذا قوله: فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون» قال أحمد: يجب أن لا يسلك هذا المسلك في إيراد الأسئلة عن فوائد الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. وسؤال الأدب أن يقال: قصر فهمي عن الجمع بين هاتين الآيتين، فما وجهه؟ ولو سأل سائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن شيء من كتاب الله تعالى بهذه الصيغة لأوجع ظهره بالدرة.

(٢) عاد كلامه إلى جواب السؤال. قال: «وجه الجمع بينهما أن يحمل ذلك على اختلاف موقف القيامة» قال أحمد: وكثيراً ما ينتهز الزمخشري الفرصة في إنكار الشفاعة ويشمر ذيله للرد على =

والثاني: أنّ التناكر يكون عند النفخة الأولى، فإذا كانت الثانية، قاموا فتعارفوا وتساءلوا.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ (١٠٤)﴾

عن ابن عباس: الموازين: جمع موزون، وهي الموزونات من الأعمال، أي: الصالحات، التي لها وزن وقدر عند الله؛ من قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]، ﴿فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾: بدل من خسروا أنفسهم، ولا محلّ للبدل والمبدل منه؛ لأنّ الصلة لا محلّ لها، أو خبر بعد خبر لأولئك، أو خبر مبتدأ محذوف، ﴿تَلْفَحُ﴾: تسفع، وقال الزجاج: اللفح والنفح واحد، إلا أنّ اللفح أشدّ تأثيراً، والكلوح: أن تتقلص الشفتان وتتشمرا عن الأسنان؛ كما ترى الرءوس المشوية، وعن مالك بن دينار: كان سبب توبة عتبة الغلام أنه مرّ في السوق برأس أخرج من التنور فغشي عليه ثلاثة أيام ولياليهنّ، وروي عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «تَشْوِيهِ النَّارُ فَتَقَلَّصُ شَفَتُهُ الْعُلْيَا حَتَّىٰ تَبْلُغَ وَسَطَ رَأْسِهِ، وَتَسْتَرْخِي شَفَتُهُ السُّفْلَىٰ حَتَّىٰ تَبْلُغَ سُرَّتَهُ» (١٠٠٥)، وقرئ: «كلحون».

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ (١٠٦) رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ (١٠٧) قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨)﴾

١٠٠٥ ـ رواه الترمذي (٥/٣٢٨) كتاب التفسير، باب ومن سورة المؤمنون حديث (٣١٧٦) حدثنا سويد أخبرنا عبد الله بن المبارك عن سعيد بن يزيد أبي شجاع عن أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «وهم فيها كالحون» قال: تشويه النار، فتقلص شفته العالية حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته.
وأحمد في المسند (٣/٨) والحاكم (٢/٣٩٥)، وأبو يعلى في مسنده (٢/٥١٦) رقم (١٣٦٧)، وذكره السيوطي في الدر (٥/٣١)، وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في صفة النار وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية.
قال الحافظ: أخرجه الترمذي وأحمد والبيهقي في الشعب من رواية أبي السمح عن الهيثم بن أبي سعيد. انتهى.

= القائلين بها إذا انتهى إلى مثل قوله: ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾، ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾.
ويتغافل حينئذٍ عن طريق الجمع بين ما ظاهره نفي الشفاعة وبين ما ظاهره ثبوتها، بحمل الأمر على اختلاف الأحوال في القيامة، والله الموفق.

﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا﴾: ملكتنا، من قولك: غلبني فلان على كذا: إذا أخذه منك وامتلكه، والشقاوة: سوء العاقبة التي علم الله أنهم يستحقونها بسوء أعمالهم، قرئ: (شقوتنا)، وشقاوتنا بفتح الشين وكسرها فيهما، ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا﴾: ذلوا فيها وانزجروا كما تنزجر الكلاب إذا زجرت، يقال: خسأ الكلب وخسأ بنفسه[1]، ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾: في رفع العذاب، فإنه لا يرفع ولا يخفف، قيل: هو آخر كلام يتكلمون به، ثم لا كلام بعد ذلك إلا الشهيق والزفير والعواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون، وعن ابن عباس: إنّ لهم ست دعوات: إذا دخلوا النار قالوا ألف سنة: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ فيجابون: ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾، فينادون ألفاً: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾، فيجابون: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾، فينادون ألفاً: ﴿يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾، فيجابون: ﴿إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾، فينادون ألفاً: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ﴾، فيجابون: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟﴾، فينادون ألفاً: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا﴾، فيجابون: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾، فينادون ألفاً: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾، فيجابون: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا﴾.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾

في حرف أبيّ: أنه كان فريق، بالفتح، بمعنى: لأنه.

السخريّ ـ بالضم والكسر ـ: مصدر سخر كالسخر، إلا أن في ياء النسب زيادة قوّة في الفعل، كما قيل: الخصوصية في الخصوص، وعن الكسائي والفراء: أنّ المكسور من الهزء، والمضموم من السخرة والعبودية، أي: تسخروهم واستعبدوهم، والأوّل: مذهب الخليل وسيبويه، قيل: هم الصحابة، وقيل: أهل الصفة خاصة، ومعناه: اتخذتموهم هزؤا وتشاغلتم بهم ساخرين، ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ﴾: بتشاغلكم بهم على تلك الصفة، ﴿ذِكْرِى﴾: فتركتموه، أي: تركتم أن تذكروني فتخافوني في أوليائي، وقرئ: (أنهم): بالفتح، فالكسر، استئناف، أي: قد فازوا؛ حيث صبروا، فجزوا بصبرهم أحسن الجزاء، وبالفتح على أنه مفعول جزيتهم؛ كقولك: جزيتهم فوزهم.

﴿قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾

---

(١) قوله «يقال خسأ الكلب... إلخ» في الصحاح: خسأت الكلب وخسأ بنفسه: يتعدى ولا يتعدى. (ع)

﴿قَالَ﴾: في مصاحف أهل الكوفة، «وقل»: في مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام، ففي (قال): ضمير الله أو المأمور بسؤالهم من الملائكة، وفي (قل): ضمير الملك أو بعض رؤساء أهل النار.

استقصروا مدّة لبثهم في الدنيا بالإضافة إلى خلودهم ولما هم فيه من عذابها؛ لأن الممتحن يستطيل أيام محنته ويستقصر ما مرّ عليه من أيام الدعة إليها، أو لأنهم كانوا في سرور، وأيام السرور قصار، أو لأنّ المنقضي في حكم ما لم يكن، وصدقهم الله في تقالهم لسني لبثهم في الدنيا ووبخهم على غفلتهم التي كانوا عليها، وقرئ: ﴿فسل العادين﴾، والمعنى: لا نعرف من عدد تلك السنين إلا أنا نستقله ونحسبه يوماً أو بعض يوم؛ لما نحن فيه من العذاب، وما فينا أن نعدّها، فسل من فيه أن يعدّ، ومن يقدر أن يلقى إليه فكره، وقيل: فسل الملائكة الذين يعدّون أعمار العباد ويحصون أعمالهم، وقرئ: «العادِين»: بالتخفيف، أي: الظلمة؛ فإنهم يقولون كما نقول، وقرئ: «العاديين»، أي: القدماء المعمرين؛ فإنهم يستقصرونها، فكيف بمن دونهم؟ وعن ابن عباس: أنساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفختين.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾

﴿عَبَثًا﴾: حال، أي عابثين؛ كقوله: ﴿لَاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦]. أو مفعول له، أي: ما خلقناكم للعبث، ولم يدعنا إلى خلقكم إلا حكمة اقتضت ذلك، وهي: أن نتعبدكم ونكلفكم المشاق من الطاعات وترك المعاصي، ثم نرجعكم من دار التكليف ٢/ ٣٨أ إلى دار الجزاء، فنثيب المحسن ونعاقب المسيء، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾: معطوف على: ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾، ويجوز أن يكون معطوفاً على: (عبثاً)، أي: للعبث، ولترككم غير مرجوعين، وقرئ: (ترجعون): بفتح التاء[١]، ﴿الْحَقُّ﴾: الذي يحق له الملك؛ لأن كل شيء منه وإليه، أو الثابت الذي لا يزول ولا يزول ملكه، وصف العرش بالكرم؛ لأن الرحمة تنزل منه والخير والبركة، أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين، كما يقال: بيت كريم: إذا كان ساكنوه كراما، وقرئ: «الكريم»: بالرفع؛ ونحوه: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج:

(١) قوله «وقرئ ترجعون بفتح التاء» عبارة النسفي: بفتح التاء وكسر الجيم. (ع)

١٥]، ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾؛ كقوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٥١]، وهي: صفة لازمة؛ نحو قوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، جيء بها للتوكيد لا أن يكون في الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان[(١)]، ويجوز أن يكون اعتراضاً بين الشرط والجزاء؛ كقولك: من أحسن إلى زيد لا أحق بالإحسان منه، فالله مثيبه، وقرئ: أنه لا يفلح بفتح الهمزة، ومعناه: حسابه عدم الفلاح، والأصل: حسابه أنه لا يفلح هو، فوضع الكافرون موضع الضمير؛ لأنّ (من يدع): في معنى الجمع؛ وكذلك: (حسابه.. إنه لا يفلح) في معنى حسابهم.... إنهم لا يفلحون.

جعل فاتحة السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ①﴾، وأورد في خاتمتها: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمُؤْمِنُونَ بَشَّرَتْهُ المَلاَئِكَةُ بِالرَّوْحِ وَالرَّيْحَانِ وَمَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُهُ عِنْدَ نُزُولِ مَلَكِ الْمَوْتِ» (١٠٠٦).

وروي: «أنّ أوّل سورة قد أفلح وآخرها من كنوز العرش، من عمل بثلاث آيات من أوّلها، واتعظ بأربع آيات من آخرها: فقد نجا وأفلح» (١٠٠٧).

وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا نزل عليه الوحي يسمع عنده دويّ كدوي النحل، فمكثنا ساعة، فاستقبل القبلة ورفع يده وقال: «اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلاَ تَنْقُصْنَا، وَأَكْرِمْنَا وَلاَ تُهِنَّا، وَأَعْطِنَا وَلاَ تَحْرِمْنَا، وَآثِرْنَا وَلاَ تُؤْثِرْ عَلَيْنَا، وَأَرْضَ عَنَّا

١٠٠٦ ـ تقدم برقم (٣٤٦).
١٠٠٧ ـ قال الزيلعي (٢/٤٠٩): «غريب جداً».
وقال ابن حجر: «لم أجده».

---

(١) قال محمود: «لا برهان له به: إما صفة لازمة، أو كلام معترض لأن في الصفة إفهاماً لأن إلٰها سوى الله يمكن أن يكون به برهان» قال أحمد: إن كان صفة فالمقصود بها التهكم بمدعي إلٰه مع الله، كقوله: ﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ فنفى إنزال السلطان به وإن لم يكن في نفس الأمر سلطان لا منزل ولا غير منزل، ومن جنس مجيء الجملة بعد النكرة وصرفها عن أن تكون صفة لها: ما قدمه عند قوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ﴾ حيث أعرب الزمخشري موعدا مصدراً ناصباً لمكانا سوى، واعترضه بأن المصدر الموصوف لا يعمل إلا على كره، واعتذرت عنه بصرف الجملة على أن تكون صفة وجعلها معترضة مؤكدة لمعنى الكلام، والله أعلم.

وَأَرْضِنَا» ثم قال: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ عَشْرُ آيَاتٍ مَنْ أَقَامَهُنَّ، دَخَلَ الْجَنَّةَ» ح ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ حتى ختم العشر (١٠٠٨).

١٠٠٨ ـ أخرجه الترمذي (٥/ ٣٢٦) كتاب التفسير باب ومن سورة المؤمنون حديث (٣١٧٣)، وأحمد (١/ ٣٤)، والحاكم (٢/ ٣٩٢) في المستدرك تفسير سورة المؤمنون، وعبد الرزاق في المصنف (٣/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤) رقم (٦٠٣٨)، وعبد بن حميد في مسنده رقم (١٥ ـ منتخب)، والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٤٦٠) ترجمة يونس بن سليم، وعزاه الزيلعي للبزار وإسحاق بن راهويه في مسنديهما.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» اهـ.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الترمذي، والنسائي، وعبد الرزاق، والحاكم، وأحمد، وإسحاق، وابن أبي شيبة، وعبد، كلهم من رواية يونس بن سليم الصنعاني عن يونس عن الزهري عن عروة عن عبد الرحمن بن عبد عن عمر. قال النسائي: هذا حديث منكر، تفرد به يونس بن سليم ولا أعرفه. وقال ابن أبي حاتم عن أبيه: لا أعرفه ولا أعرف هذا الحديث عن الزهري وقال الترمذي. وقال العقيلي: لا يتابع عليه يونس بن سليم ولا يعرف إلا به، وبنحوه قال ابن عدي. وسئل عبد الرزاق عن شيخه يونس بن سليم هذا فقال: أظنه لا شيء. انتهى.

سُورَةُ النُّورِ

مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ ٱثْنَتَانِ وَسِتُّونَ آيَةً، وَقِيلَ: أَرْبَعٌ وَسِتُّونَ

[نَزَلَتْ بَعْدَ الْحَشْرِ]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ١﴾

﴿سُورَةٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف، و﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾: صفة، أو هي مبتدأ موصوف، والخبر محذوف، أي: فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها، وقرئ بالنصب على: زيداً ضربته، ولا محل لأنزلناها، لأنها مفسرة للمضمر فكانت في حكمه، أو على: دونك سورة أو اتل سورة، وأنزلناها: صفة، ومعنى: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾: فرضنا أحكامها التي فيها، وأصل الفرض: القطع، أي: جعلناها واجبة مقطوعاً بها، والتشديد للمبالغة في الإيجاب وتوكيده، أو لأن فيها فرائض شتى، وأنك تقول: فرضت الفريضة، وفرّضت الفرائض، أو لكثرة المفروض عليهم من السلف ومن بعدهم، ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: بتشديد الذال وتخفيفها، رفعهما على الابتداء، والخبر محذوف عند الخليل وسيبويه، على معنى: فيما فرض عليكم.

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٢﴾

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ أي: جلدهما، ويجوز أن يكون الخبر: (فاجلدوا)؛ وإنما دخلت الفاء لكون الألف واللام بمعنى: الذي وتضمينه معنى الشرط[1]؛ تقديره: التي زنت، والذي

---

(١) قال محمود: «في الرفع وجهين، أحدهما: الابتداء والخبر محذوف، وهو إعراب الخليل وسيبويه. والتقدير: وفيما فرض عليكم الزانية والزاني، أي: جلدهما. الثاني: أن يكون الخبر فاجلدوا، ودخلت الفاء لكون الألف واللام بمعنى الذي وقد ضمن معنى الشرط» قال أحمد: وإنما عدل سيبويه إلى هذا الذي نقله عنه لوجهين: لفظي ومعنوي. أما اللفظي فلأن الكلام أمر وهو يخيل اختيار النصب، ومع ذلك قراءة العامة، فلو جعل فعل الأمر خبراً وبنى المبتدأ عليه لكان خلاف المختار عند الفصحاء، فالتجأ إلى تقدير الخبر حتى لا يكون المبتدأ مبنياً على الأمر، فخلص من =

زنى فاجلدوهما، كما تقول: من زنى فاجلدوه؛ وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ﴾ [النور: ٤]، وقرئ بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر، وهو أحسن من سورة أنزلناها لأجل الأمر، وقرئ: «والزان»: بلا ياء، والجلد: ضرب الجلد، يقال: جلده؛ كقولك: ظهره وبطنه ورأسه.

فإن قلت: أهذا حكم جميع الزناة والزواني، أم حكم بعضهم؟

قلت: بل هو حكم من ليس بمحصن منهم؛ فإن المحصن حكمه الرجم، وشرائط الإحصان عند أبي حنيفة ست: الإسلام، والحرية، والعقل، والبلوغ، والتزوج بنكاح صحيح، والدخول، إذا فقدت واحدة منها فلا إحصان، وعند الشافعي: الإسلام ليس بشرط، لما روي أنّ النبي ـ ﷺ ـ رجم يهوديين زنيا (١٠٠٩)، وحجة أبي حنيفة ....

١٠٠٩ ـ أخرجه مالك (٢/ ٨١٩) كتاب الحدود: باب ما جاء في الرجم حديث (١)، والبخاري (٦/ ٦٣١) كتاب المناقب: باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾... حديث (٣٦٣٥)، ومسلم (٣/ ١٣٢٦)، كتاب الحدود: باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى حديث (٢٦/ ١٦٩٩)، أبو داود (٢/ ٥٥٨) كتاب الحدود: باب في رجم اليهوديين حديث (٤٤٤٦)، والترمذي كتاب الحدود: باب ما جاء في رجم أهل الكتاب حديث (١٤٣٦)، وابن ماجه (٢/ ٨٥٤)، كتاب الحدود: باب رجم اليهودي واليهودية حديث (٢٥٥٦)، الدارمي (٢/ ١٧٨ ـ ١٧٩) كتاب الحدود: باب في الحكم بين أهل الكتاب إذا تحاكموا إلى حكام المسلمين، والشافعي (٢/ ٨١) كتاب الحدود: باب الزنا حديث (٢٦٤)، وأحمد (٢/ ٥ ـ ٧ ـ ١٧ ـ ٦٢ ـ ٦٣ ـ ٧٦ ـ ١٢٦)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٧/ ٣١٨) رقم (١٣٣٣١ ـ ١٣٣٣٢)، وابن الجارود في «المنتقى» رقم (٨٢٢)، وأبو داود الطيالسي (١/ ٣٠١ ـ منحة) رقم (١٥٣)، والحميدي (٢/ ٣٠٦) رقم (٦٩٦)، والبيهقي (٨/ ٢٤٦) كتاب الحدود: باب ما جاء في حد الذميين، والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ٤٦٢ ـ بتحقيقنا) كلهم من طريق نافع عن ابن عمر قال: «إن اليهود جاءوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ =

= مخالفة الاختيار، وقد مثلهما سيبويه في كتابه بقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ﴾... الآية ووجه التمثيل أنه صدر الكلام بقوله (مثل الجنة) ولا يستقيم جزماً أن يكون قوله (فيها أنهار) خبره، فتعين تقدير خبره محذوفاً. وأصله: فيما نقص عليكم مثل الجنة، ثم لما كان هذا إجمالاً لذكر المثل فصل بقوله (فيها أنهار) إلى آخرها، فكذلك ههنا، كأنه قال: وفيما فرض عليكم شأن الزانية والزاني، ثم فصل هذا المجمل بما ذكر من أحكام الجلد، ويناسب هذا ترجمة الفقهاء في كتبهم حيث يقولون مثلاً: الصلاة، الزكاة، السرقة. ثم يذكرون في كل باب أحكامه، يريدون مما يصنف فيه ويبوب عليه: الصلاة، وكذلك غيرها؛ فهذا بيان المقتضى عند سيبويه، لاختيار حذف الخبر من حيث الصناعة اللفظية. وأما من حيث المعنى هو أن المعنى أتم وأكمل على حذف الخبر؛ لأن يكون قد ذكر حكم الزانية والزاني مجملاً حيث قال: الزاني والزانية وأراد: وفيما فرض عليكم حكم الزانية والزاني، فلما تشوف السامع إلى تفصيل هذا المجمل ذكر حكمهما مفصلاً، فهو أوقع في النفس من ذكره أول وهلة، والله أعلم.

فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ـ ﷺ ـ: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ قالوا: نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها لآية الرجم فأتوا بالتوارة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فإذا فيها آية الرجم، فقال: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ـ ﷺ ـ فرجما، قال عبد الله بن عمر: فرأيت الرجل يحنيء على المرأة يقيها الحجارة.

قال الترمذي: حسن صحيح.

وللحديث طرق أخرى عن ابن عمر.

فأخرجه أحمد (٢/١٥١) ثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن سالم عن أبيه بنحو حديث مالك.

وأخرجه أبو داود (٢/ ٥٦٠) كتاب الحدود: باب في رجم اليهوديين حديث (٤٤٤٩) من طريق ابن وهب حدثني هشام بن سعد أن زيد بن أسلم حدثه عن ابن عمر بمثل حديث مالك، وأخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨) من طريق خالد بن مخلد حدثني سليمان بن بلال حدثني عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: أتى النبي ـ ﷺ ـ بيهودي ويهودية قد أحدثا جميعاً فقال لهم: ما تجدون في كتابكم؟ فذكر الرجم.

وفي الباب عن جماعة من الصحابة وهم جابر بن عبد الله، وأبو هريرة، وجابر بن سمرة، والبراء بن عازب، وعبد الله بن الحارث، وابن عباس.

ـ حديث جابر:

أخرجه مسلم (٣/١٣٢٨) كتاب الحدود: باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا حديث (٢٨/ ١٧٠١)، وأبو داود (٢/ ٥٦٢) كتاب الحدود: باب رجم اليهوديين حديث (٤٤٥٥)، وعبد الرزاق (٧/٣١٩) رقم (١٣٣٣٣) كلهم من طريق ابن جريج قال: أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: «رجم النبي ـ ﷺ ـ رجلاً من اليهود وامرأة زنيا».

وللحديث طريق آخر عن جابر:

أخرجه أبو داود (٢/ ٥٦١ ـ ٥٦٢) كتاب الحدود: باب رجم اليهوديين حديث (٤٤٥٢)، والبزار (٢/ ٢١٩ ـ ٢٢٠ ـ كشف) رقم (١٥٥٨) كلاهما من طريق أبي أسامة ثنا مجالد قال أبو داود: أخبرنا عن عامر، وقال البزار: عن الشعبي ـ عن جابر: «جاءت اليهود برجل وامرأة منهم زنيا، قال: ائتوني بأعلم رجلين منكم، فأتوه بابني صوريا، فنشدهما كيف تجدان أمر هذين في التوراة؟ قالا: نجد في التوراة إذا شهد أربعة أنهم رأوا ذكره في فرجها مثل الميل في المكحلة رجما، قال: فما يمنعكما أن ترجموهما؟ قالا: ذهب سلطاننا فكرهنا القتل، فدعا رسول الله ـ ﷺ ـ بالشهود فجاءوا بأربعة، فشهدوا أنهم رأوا ذكره في فرجها مثل الميل في المكحلة. فأمر النبي ـ ﷺ ـ برجمهما. لفظ أبي داود ولفظ البزار مطولاً. وإسناده ضعيف لضعف مجالد بن سعيد.

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥) وقال: رواه أبو داود وغيره باختصار، رواه البزار من طريق مجالد عن الشعبي وقد صححها ابن عدي اهـ.

قلت: وقد سبق للهيثمي تضعيف مجالد في المجمع بما لا يحصى والحديث أخرجه أبو يعلى (٣/ ٤٣٧) رقم (١٩٢٨) بلفظ مختصر جداً من طريق عبد الرحيم بن سليمان عن مجالد عن الشعبي عن جابر عن النبي ـ ﷺ ـ أنه رجم يهودياً ويهودية.

ـ حديث أبي هريرة:

....

= أخرجه أبو داود (٢/ ٥٦٠ ـ ٥٦١) كتاب الحدود: باب رجم اليهوديين حديث (٤٤٥٠)، وعبد الرزاق (٧/ ٣١٦) رقم (١٣٣٣٠)، والبيهقي (٨/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧) من طريق الزهري قال: سمعت رجلاً من مزينة ممن يتبع العلم ويعيه، ثم اتفقا ونحن عند سعيد بن المسيب، فحدثنا عن أبي هريرة، وهذا حديث معمر، وهو أتم، قال: «زنى رجل من اليهود وامرأة فقال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى هذا النبي، فإنه نبي بعث بالتخفيف، فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند الله، قلنا: فتيا نبي من أنبيائك، قال: فأتوا النبي ـ ﷺ ـ وهو جالس في المسجد في أصحابه، فقالوا: يا أبا القاسم، ما ترى في رجل وامرأة [منهم] زنيا؟ فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مدراسهم، فقام على الباب فقال: «أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى، ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحصن»؟ قالوا: يحمم، ويجبه ويجلد، والتجبيه: أن يحمل الزانيان على حمار ويقابل أقفيتهما، ويطاف بهما، قال: وسكت شاب منهم، فلما رآه النبي ـ ﷺ سكت ألظ به النشدة؛ فقال: اللهم إذا نشدتنا، فإنا نجد في التوراة الرجم، فقال النبي ـ ﷺ ـ: «فما أول ما ارتخصتم أمر الله»؟ قال: زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا، فأخر عنه الرجم، ثم زنى رجل في أسرة من الناس فأراد رجمه، فحال قومه دونه، وقالوا: لا يرجم صاحبنا حتى تجيء بصاحبك فترجمه، فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم، فقال النبي ـ ﷺ ـ: «فإني أحكم بما في التوراة» فأمر بهما فرجما.

هذا إسناد ضعيف لضعف أو جهالة الرجل المزني.

ـ حديث جابر بن سمرة:

أخرجه أحمد (٥/ ٩٦) وابنه في «زوائد المسند» (٥/ ٩٧) والترمذي (٤/ ٣٤) كتاب الحدود: باب ما جاء في رجم أهل الكتاب حديث (١٤٣٧)، وابن ماجه (٢/ ٨٥٤) كتاب الحدود: باب رجم اليهودي واليهودية حديث (٢٥٥٧)، وأبو يعلى (١٣/ ٤٤٨) رقم (٧٤٥١)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ٢٣٠) رقم (١٩٥٤) كلهم من طريق شريك عن سماك عن جابر بن سمرة أن النبي ـ ﷺ ـ رجم يهودياً ويهودية.

قال الترمذي: حديث حسن غريب.

وأخرجه أبو داود الطيالسي (١/ ٣٠١) رقم (١٥٣١) عن حماد عن سماك عن جابر بن سمرة به.

ـ حديث البراء بن عازب:

وفيه أنه رجم يهودياً دون ذكر المرأة.

أخرجه مسلم (٣/ ١٣٢٧) كتاب الحدود: باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى حديث (٢٨/ ١٧٠٠)، وأبو داود (٢/ ٥٥٩) كتاب الحدود: باب رجم اليهوديين حديث (٤٤٤٨)، والنسائي في «الكبرى» (٤/ ٢٩٤): كتاب الرجم: باب إقامة الإمام الحد على أهل الكتاب إذا تحاكموا إليه، حديث (٧٢١٨)، وابن ماجه (٢/ ٨٥٥): كتاب الحدود: باب رجم اليهودي واليهودية، حديث (٢٥٥٨)، كلهم من طريق الأعمش عن عبد الله بن مرة عن البراء بن عازب قال: «مر على النبي ـ ﷺ ـ بيهودي محمماً مجلوداً، فدعاهم ـ ﷺ ـ فقال: «هكذا تجدون حد الزنى في كتابكم»؟ قالوا: نعم؛ فدعا رجلاً من علمائهم، فقال: «أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى! أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟» قال: لا. ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا =

قوله - ﷺ -: «مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ فَلَيْسَ بِمُحْصِنٍ» (١٠١٠).

= فلتجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع؛ فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم فقال رسول الله - ﷺ -: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إن أماتوه» فأمر به فرجم فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ [المائدة: ٤١] يقول: ائتوا محمداً - ﷺ - فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] ففي الكفار كلها.

- حديث عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي.

أخرجه البزار (٢/ ٢١٩ - كشف) رقم (١٥٥٧)، والبيهقي (٨/ ٢١٥) كتاب الحدود: باب ما يستدل به على شرائط الإحصان، من طريق سعيد بن أبي مريم أنبأ ابن لهيعة عن عبد العزيز بن عبد الملك بن عبد العزيز بن مُليل أن أباه أخبره أنه سمع عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي يذكر «أن اليهود أتوا رسول الله - ﷺ - بيهودي ويهودية زنيا، وقد أحصنا، فأمر رسول الله - ﷺ - برجمهما».

والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٧٤) وقال: رواه البزار والطبراني في «الكبير» و«الأوسط» وقال فيه: لا يروى عن ابن عباس إلا بهذا الإسناد كذا قال وأظنه خطأ وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف .اهـ. وذكره الحافظ في التلخيص (٤/ ٥٤) وقال: وإسناده ضعيف).

- حديث عبد الله بن عباس:

أخرجه الحاكم (٤/ ٣٦٥) وأحمد (٢٣٦٨ - شاكر)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٤٠٣) رقم (١٠٨٢١) من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن طلحة بن يزيد بن ركانة عن إسماعيل بن إبراهيم الشيباني عن ابن عباس أن النبي - ﷺ - أتى بيهودي ويهودية قد أحصنا، فسألوه أن يحكم فيهما بالرجم فرجمهما في فناء المسجد.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولعل متوهماً من غير أهل الصنعة يتوهم أن إسماعيل الشيباني هذا مجهول، وليس كذلك فقد روى عنه ابن دينار والأثرم وقال الذهبي: إسماعيل معروف .اهـ.

والحديث ليس على شرط مسلم، لأن مسلماً لم يخرج للشيباني هذا وذكر الحديث الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٧٤) وقال: رواه أحمد والطبراني... ورجال أحمد ثقات وقد صرح ابن إسحاق بالسماع في رواية أحمد .اهـ.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: متفق عليه من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما -. انتهى.

١٠١٠ - عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢/ ٤١٣) وفي نصب الراية (٣/ ٣٢٧)، لإسحاق بن راهويه في مسنده ومن طريقه أخرجه الدارقطني في السنن (٣/ ١٤٧).

وقال: لم يرفعه غير إسحاق ويقال: إنه رجع عنه، والصواب موقوف.

والموقوف رواه الدارقطني قبل هذا قال: نا عبد الله بن جعفر بن خشيش نا سلم بن جنادة نا وكيع عن سفيان عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر قال: من أشرك بالله فليس بمحصن.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه إسحاق والدارقطني تفرد برفعه إسحاق. قلت: قال إسحاق في مسنده أن شيخه حدثه به مرة أخرى موقوفاً. انتهى.

فإن قلت: اللفظ يقتضي تعليق الحكم بجميع الزناة والزواني؛ لأن قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾: عام في الجميع، يتناول المحصن وغير المحصن.

قلت: الزانية والزاني: يدلان على الجنسين المنافيين لجنسي العفيف والعفيفة؛ دلالة مطلقة والجنسية قائمة في الكل والبعض جميعاً، فأيهما قصد المتكلم فلا عليه، كما يفعل بالاسم المشترك، وقرئ: «ولا يأخذكم»: بالياء، «ورأفة»: بفتح الهمزة، ورآفة على فعالة، والمعنى: أن الواجب على المؤمنين أن يتصلبوا في دين الله ويستعملوا الجدّ والمتانة فيه، ولا يأخذهم اللين والهوادة في استيفاء حدوده، وكفى برسول الله - ﷺ - أسوة في ذلك؛ حيث قال: «لَوْ سَرَقَتْ ٢/٣٨ب فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، لَقَطَعْتُ يَدَهَا» (١٠١١)، وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾: من باب التهييج وإلهاب الغضب لله

١٠١١ - أخرجه البخاري (٨٧/١٢) كتاب الحدود: باب كراهية الشفاعة في الحد حديث (٦٧٨٨)، ومسلم (١٣١٥/٣) كتاب الحدود: باب قطع السارق والنهي عن الشفاعة في الحدود حديث (٨/ ١٦٨٨)، وأبو داود (٥٣٧/٤) كتاب الحدود: باب الحد يشفع فيه حديث (٤٣٧٣)، والترمذي (٢٩/٤) كتاب الحدود: باب ما جاء في كراهية أن يشفع في الحدود حديث (١٤٣٠)، والنسائي (٨/ ٧٣ - ٧٤) كتاب قطع السارق: باب ما يكون حرزاً وما لا يكون، وابن ماجه (٢/ ٨٥١) كتاب الحدود: باب الشفاعة في الحدود حديث (٢٥٤٧)، والدارمي (١٧٣/٢) كتاب الحدود: باب الشفاعة في الحدود دون السلطان، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١٧١/٣) كتاب الحدود: باب الرجل يستعير الحلي فلا يرده، والبيهقي (٢٥٣/٨ - ٢٥٤) كتاب السرقة: باب القطع في السرقة، والبغوي في «شرح السنة» (٤٩١/٥ - ٤٩٢ - بتحقيقنا) كلهم من طريق الليث عن الزهري عن عروة عن عائشة أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: يُكلم فيها رسول الله - ﷺ - قالوا: ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله - ﷺ - فقال رسول الله - ﷺ -: «أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم كان إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعت يدها».

قال الترمذي: حديث عائشة حديث حسن صحيح .اهـ.

وأخرجه مسلم (١٣١٦/٣) كتاب الحدود: باب قطع السارق والنهي عن الشفاعة في الحدود حديث (١٦٨٨/١٠)، وأبو داود (٥٣٨/٤) كتاب الحدود: باب الحد يشفع فيه حديث (٤٣٧٤)، وأحمد (١٦٢/٦)، وعبد الرزاق (٢٠١/١٠) رقم (١٨٨٣٠)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١٧٠/٣) كتاب الحدود: باب الرجل يستعير الحلي فلا يرده، وابن الجارود في «المنتقى» رقم (٨٠٤) كلهم من طريق معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة بمثل حديث الليث إلا أنهم ذكروا أن المرأة المخزومية كانت تستعير المتاع فلا ترده.

وأخرجه البخاري (٦١٩/٧) كتاب المغازي: باب (٥٣) حديث (٤٣٠٤)، ومسلم (١٣١٥/٣) كتاب الحدود: باب قطع السارق والنهي عن الشفاعة في الحدود حديث (١٦٨٨/٩)، والنسائي (٨/ ٧٤ - ٧٥) كتاب قطع السارق: باب ما يكون حرزاً وما لا يكون، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١٧١/٣) كتاب الحدود: باب الرجل يستعير الحلي فلا يرده، والبيهقي في «دلائل النبوة» =

ولدينه، وقيل: لا تترحموا عليهما؛ حتى لا تعطلوا الحدود أو حتى لا توجعوهما ضرباً، وفي الحديث: «يُؤْتَىٰ بِوَالٍ نَقَصَ مِنَ الْحَدِّ سَوطاً، فَيَقُولُ: رَحْمَةً لِعِبَادِكَ، فَيُقَالُ لَهُ: أَأَنْتَ أَرْحَمُ بِهِمْ مِنِّي؛ فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ، وَيُؤْتَىٰ بِمَنْ زَادَ سَوطاً فَيَقُولُ: لِيَنْتَهُوا عَنْ مَعَاصِيكَ فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ» (١٠١٢)، وعن أبي هريرة: إقامة حدّ بأرض، خير لأهلها من مطر

= (٥/ ٨٨) كلهم من طريق ابن وهب عن يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة بمثل حديث الليث.

وزاد البخاري: فقطعت يدها، فحسنت توبتها بعد ذلك، وتزوجت، وزاد مسلم: قال يونس: قال ابن شهاب: قال عروة: قالت عائشة، فحسنت توبتها بعد وتزوجت، وكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ـ ﷺ ـ.

وفي الباب عن ابن عمر ومسعود بن الأسود.

ـ حديث ابن عمر:

أخرجه أبو داود (٢/ ٥٤٤) كتاب الحدود: باب في القطع في العارية إذا جحدت حديث (٤٣٩٥)، والنسائي (٨/ ٧٠ ـ ٧١) كتاب قطع السارق: باب ما يكون حرزاً وما لا يكون، وأحمد (٢/ ١٥١) والطحاوي في «مشكل الآثار» (٣/ ٩٧) كلهم من طريق عبد الرزاق ثنا معمر عن أيوب عن نافع عن ابن عمر أن امرأة مخزومية كانت تستعير المتاع فتجحده فأمر النبي ـ ﷺ ـ بقطع يدها.

ـ حديث مسعود بن الأسود:

أخرجه ابن ماجه (٢/ ٨٥١ ـ ٨٥٢) كتاب الحدود: باب الشفاعة في الحدود حديث (٢٥٤٨) من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن طلحة بن ركانة عن أمه عائشة بنت مسعود بن الأسود عن أبيها قال: لما سرقت المرأة تلك القطيفة من بيت رسول الله ـ ﷺ ـ أعظمنا ذاك، وكانت امرأة من قريش، فجئنا إلى النبي ـ ﷺ ـ نكلمه وقلنا: نحن نفديها بأربعين أوقية، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: تطهر خير لها، فلما سمعنا لين قول رسول الله ـ ﷺ ـ أتينا أسامة فقلنا: كلم رسول الله ـ ﷺ ـ فلما رأى رسول الله ـ ﷺ ـ ذلك قام خطيباً فقال: ما إكثاركم عليَّ في حد من حدود الله عز وجل وقع على أمة من إماء الله والذي نفس محمد بيده لو كانت فاطمة ابنة رسول الله نزلت بالذي نزلت به لقطع محمد يدها.

ومن طريق محمد بن إسحاق أخرجه الحاكم (٤/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه السياقة ووافقه الذهبي والحديث ذكره الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (٦/ ٨٨) وعزاه لابن ماجه والبغوي وحسن إسناده.

وقال البوصيري في «الزوائد» (٢/ ٣٠٥): هذا إسناد ضعيف لتدليس ابن إسحاق .اهـ.

قلت: ولم أقف على تصريح ابن إسحاق بالسماع.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: متفق عليه من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ. انتهى.

١٠١٢ ـ قال الزيلعي (٢/ ٤١٤): «غريب».

وروى أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا أبو وائل خالد بن محمد البصري ثنا عبد الله بن بكر السهمي ثنا خلف بن خلف عن إبراهيم بن سالم عن عمرو بن ضرار عن حذيفة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يؤتى بالذي ضرب فوق الحد، فيقول له الله تعالى: عبدي، لم ضربت فوق الحد؟ فيقول: غضبت لك فيقول: أكان غضبك أشد من غضبي؟ ويؤتى بالذي قصر فيقول: عبدي =

أربعين ليلة (١٠١٣)، وعلى الإمام أن ينصب للحدود رجلاً عالماً بصيراً يعقل كيف يضرب، والرجل يجلد قائما على مجرّده[1] ليس عليه إلا إزاره، ضربا وسطاً لا مبرحاً ولا هيناً، مفرّقاً على الأعضاء كلها لا يستثنى منها إلا ثلاثة: الوجه، والرأس، والفرج، وفي لفظ الجلد: إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتجاوز الألم إلى اللحم، والمرأة تجلد قاعدة، ولا ينزع من ثيابها إلا الحشو والفرو، وبهذه الآية استشهد أبو حنيفة على أن الجلد حدّ غير المحصن بلا تغريب، وما احتج به الشافعي على وجوب التغريب من قوله ـ ﷺ ـ: «البِكْرُ بِالبِكْرِ جَلْدُ مائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ» (١٠١٤)، وما يروى عن الصحابة: أنهم جلدوا ونفوا:

= لم قصرت؟ فيقول: رحمته فيقول: أكانت رحمتك أشد من رحمتي؟! ثم يؤمر بهما جميعاً إلى النار» اهـ.

ولم أجده في مسند أبي يعلى المطبوع فلعله في مسنده الكبير.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: لم أجده بهذا اللفظ وعند أبي يعلى من رواية عمرو بن ضرار: «لم ضربته فوق الحد؟» فيقول: غضباً لك. فيقول: أكان غضبك أشد من غضبي. ويؤتى بالذي قصر فيقول عبدي لم قصرت؟ فيقول: رحمته. فيقول: أكانت رحمتك أشد من رحمتي. ثم يؤمر بهما جميعاً إلى النار. انتهى.

١٠١٣ ـ روي موقوفاً ومرفوعاً.

أما الموقوف فرواه النسائي (٧٦/٨) كتاب السارق، باب الترغيب في إقامة الحد وعزاه الزيلعي للثعلبي في تفسيره.

أما المرفوع فرواه النسائي أيضاً (٧٥/٨ ـ ٧٦) كتاب السارق، باب الترغيب في إقامة الحد.

وابن ماجه (٨٤٨/٢) كتاب الحدود، باب إقامة الحد حديث (٢٥٣٨) وابن حبان في صحيحه (٢٤٣/١٠) رقم (٤٣٩٧)، والطبراني في الكبير (٣٣٧/١١) رقم (١١٩٣٢) من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة، وحد يقام في الأرض بحقه أزكى فيها من مطر أربعين عاماً».

قال الهيثمي في المجمع (٢٠٠/٥): «رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه سعد أبو غيلان الشيباني، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات» اهـ.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه النسائي من طريق أبي زرعة عنه مرفوعاً، وأخرجه النسائي أيضا وابن حبان وأحمد وابن ماجه، والطبراني من هذا الوجه مرفوعاً. وقال: «أربعين صباحا» ولأحمد: «ثلاثين أو أربعين صباحاً» وفي الباب عن ابن عمر، أخرجه ابن ماجه بلفظ: «إقامة حد من حدود الله خير من مطر أربعين ليلة». انتهى.

١٠١٤ ـ أخرجه مسلم (١٣١٦/٣) كتاب الحدود: باب حد الزنى حديث (١٦٩٠/١٢)، وأبو داود (٥٦٩/٤ ـ ٥٧٠) كتاب الحدود: باب في الرجم حديث (٤٤١٥)، والترمذي (٤١/٤) كتاب الحدود: باب الرجم على الثيب حديث (١٤٣٤)، والدارمي (١٨١/٢) كتاب الحدود: باب في تفسير قول الله تعالى: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، وأحمد (٣١٣/٥ ـ ٣١٧ ـ ٣١٨ ـ ٣٢٠ ـ ٣٢١) وابن =

---

(١) قوله «على مجرده» في الصحاح: فلان حسن المجرد، أي: المعرى اهـ، أي: المكشوف عن الثياب. (ع)

منسوخ عنده وعند أصحابه بالآية، أو محمول على وجه التعزير والتأديب من غير وجوب، وقول الشافعي في تغريب الحرّ واحد، وله في العبد ثلاثة أقاويل: يغرب سنة كالحرّ، ويغرب نصف سنة كما يجلد خمسين جلدة، ولا يغرب كما قال أبو حنيفة، وبهذه الآية نسخ الحبس الأذى في قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ﴾ [النساء: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ [النساء: ١٦]. قيل: تسميته عذاباً دليل على أنه عقوبة، ويجوز أن يسمى عذاباً؛ لأنه يمنع من المعاودة كما سمي نكالاً.

الطائفة: الفرقة التي يمكن أن تكون حلقة، وأقلها ثلاثة أو أربعة؛ وهي صفة غالبة كأنها الجماعة الحافة حول الشيء، وعن ابن عباس في تفسيرها: أربعة إلى أربعين رجلاً من المصدقين بالله، وعن الحسن: عشرة، وعن قتادة: ثلاثة فصاعداً، وعن عكرمة: رجلان فصاعداً، وعن مجاهد: الواحد فما فوقه، وفضل قول ابن عباس؛ لأن الأربعة هي

= أبي شيبة (٨/١٠)، وأبو داود الطيالسي (١/٢٩٨ ـ منحة) رقم (١٥١٤)، وابن الجارود في «المنتقى» (٨١٠)، والطبري في «تفسيره» (٤/١٩٨)، وابن حبان (٤٤٠٨ ـ ٤٤٠٩ ـ ٤٤١٠ ـ ٤٤٢٦ ـ الإحسان) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ١٣٤) وفي «مشكل الآثار» (١/ ٩٢)، والبيهقي (٨/ ٢١٠) كتاب الحدود: باب جلد الزانيين ورجم الثيب، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/١١٣) من طرق عن الحسن عن حطان بن عبد الله الرقاشي عن عبادة بن الصامت به.
والحديث أخرجه الشافعي (٢/٧٧) كتاب الحدود: باب الزنا حديث (٢٥٢)، والطيالسي (١/٢٩٨ ـ منحة) رقم (١٥١٤)، وعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٥/٣٢٧)، والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ٤٥٧ ـ بتحقيقنا) من طريق الحسن عن عبادة بن الصامت دون ذكر حطان بن عبد الله
قلت: ولعل ذلك من تدليسات الحسن فأسقط حطان بن عبد الله ورواه عن عبادة دون واسطة.
تنبيه: وهذا الحديث أخرجه ابن ماجه (٢/ ٨٥٢) كتاب الحدود: باب حد الزنا حديث (٢٥٥٠) من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن يونس بن جبير عن حطان بن عبد الله عن عبادة بن الصامت
قال الحافظ المزي في «تحفة الأشراف» (٤/٢٤٧): هذا وهم ـ والله أعلم ـ إن المحفوظ بهذا الإسناد حديث حطان اهـ.
وقد روى هذا الحديث الفضل بن دلهم عن الحسن عن قبيصة بن حريث عن سلمة بن المحبق عن النبي ـ ﷺ ـ قال: خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً.... الحديث.
أخرجه أحمد (٣/٤٧٦).
قال ابن أبي حاتم في «العلل» (١/ ٤٥٦) رقم (١٣٧٠): سألت أبي عن حديث رواه الفضل بن دلهم عن الحسن عن قبيصة بن حريث عن سلمة بن المحبق عن النبي ـ ﷺ ـ: «خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً» الحديث ـ قال أبي: هذا خطأ، إنما رواه الحسن عن حطان عن عبادة بن الصامت عن النبي ـ ﷺ ـ اهـ.
ومن هذا الطريق ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/٢٦٧) وقال: رواه أحمد وفيه الفضل بن دلهم وهو ثقة ولكنه أخطأ في هذا الحديث.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه مسلم وأصحاب السنن من حديث عبادة بن الصامت في أثناء حديث. انتهى.

الجماعة التي يثبت بها هذا الحد، والصحيح: أن هذه الكبيرة من أمّهات الكبائر؛ ولهذا قرنها الله بالشرك، وقتل النفس في قوله: ﴿وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]، وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ وعن النبي ـ ﷺ ـ: «يا مَعْشَرَ النَّاس، اتَّقُوا الزِّنَى؛ فَإِنَّ فِيهِ سِتُّ خِصَالٍ: ثَلاَثٌ فِي الدُّنْيَا، وَثَلاَثٌ فِي الآخِرَةِ، فَأَمَّا اللاتِي فِي الدُّنْيَا: فَيُذْهِبُ البَهاءَ، وَيُورِثُ الفَقْرَ، وَيَنْقُصُ الْعُمْرَ، وَأَمَّا اللاتِي فِي الآخِرَةِ: فَيُوجِبُ السَّخْطَةَ، وَسُوءَ الْحِسَابِ، وَالْخُلُودَ فِي النَّارِ» (١٠١٥)؛ ولذلك وفي الله فيه عقد المائة بكماله، بخلاف حد القذف وشرب الخمر، وشرع فيه القتلة الهولة، وهي: الرجم، ونهى المؤمنين عن الرأفة على المجلود فيه، وأمر بشهادة الطائفة للتشهير، فوجب أن تكون طائفة يحصل بها التشهير، والواحد والاثنان ليسوا بتلك المثابة، واختصاصه المؤمنين؛ لأن ذلك أفضح، والفاسق بين صلحاء قومه أخجل؛ ويشهد له قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إلى أربعين رجلاً من المصدقين بالله.

﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾

الفاسق: الخبيث، الذي من شأنه الزنى والتقحب، لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء واللاتي على خلاف صفته؛ وإنما يرغب في فاسقة خبيثة من شكله، أو في مشركة،

١٠١٥ ـ رواه البيهقي في الشعب (٤/ ٣٧٩) رقم (٥٤٧٥)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ١٣) وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٣١٨)، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢/ ٤١٦) لابن مردويه، وابن أبي حاتم في تفسيريهما، والأصبهاني في «الترغيب والترهيب»، والثعلبي في تفسيره؛ كلهم من حديث حذيفة به مرفوعاً.

ورواه الواحدي في تفسيره من طريق أبي عثمان بن الخطاب المعروف بأبي الدنيا سمعت علي بن أبي طالب يقول: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «في الزنا ست خصال: ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخر... فذكره نحو حديث حذيفة.

قال الحافظ ابن حجر: أخرجه البيهقي في الشعب في السابع والثلاثين، وابن مردويه، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية في ترجمة أبي وائل عن حذيفة، بلفظ: «يا معشر الناس» وفي آخره: ثم تلا: ﴿أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ قال أبو نعيم: تفرد به مسلمة بن علي الحسني عن أبي عبد الرحمن الكوفي عن الأعمش وهو ضعيف. وقال البيهقي: مسلمة متروك. وعبد الرحمن مجهول، وأخرجه الثعلبي من رواية معاوية بن يحيى عن الأعمش فيحتمل أن يكون هو أبو عبد الرحمن المذكور. وفي الباب عن أنس أخرجه الخطيب وابن الجوزي من طريقه وفي إسناده كعب بن عمرو بن جعفر وهو غير ثقة. ورواه الواحدي في الوسيط غالباً من طريق أبي الدنيا الأشج عن علي مرفوعاً والأشج ادعى أنه سمع من علي بعد الثلاثمائة فسمع منه أبو بكر المفيد وغيره وأخباره معروفة. انتهى.

والفاسقة الخبيثة المسافحة؛ كذلك لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها؛ وإنما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة أو المشركين، ونكاح المؤمن الممدوح عند الله الزانية ورغبته فيها وانخراطه بذلك في سلك الفسقة المتسمين بالزنى: محرّم عليه محظور؛ لما فيه من التشبه بالفساق، وحضور موقع التهمة، والتسبب لسوء القالة فيه والغيبة وأنواع المفاسد، ومجالسة الخطائين كم فيها من التعرّض لاقتراف الآثام، فكيف بمزاوجة الزواني والقحاب؛ وقد نبه على ذلك بقوله: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، وقيل: كان بالمدينة موسرات من بغايا المشركين، فرغب فقراء المهاجرين في نكاحهنّ، فاستأذنوا رسول الله - ﷺ - فنزلت (١٠١٦)، وعن عائشة - رضي الله عنها - أن الرجل إذا زنى بامرأة، ليس له أن يتزوجها؛ لهذه الآية، وإذا باشرها كان زانياً، وقد أجازه ابن عباس - رضي الله عنهما - وشبهه بمن سرق ثمر شجرة ثم اشتراه، وعن النبي - ﷺ - أنه سئل عن ذلك؟ فقال: «أَوَّلُهُ سِفَاحٌ وَآخِرُهُ نِكَاح، وَالْحَرَامُ لا يُحَرِّمُ الْحَلالَ» (١٠١٧)، وقيل: المراد بالنكاح: الوطء، وليس بقول لأمرين، أحدهما: أن هذه الكلمة أينما وردت في القرآن لم ترد إلا في معنى العقد، والثاني: فساد المعنى وأداؤه إلى قولك: الزاني لا يزني إلا بزانية، والزانية لا يزني بها إلا زان، وقيل: كان نكاح الزانية محرّما في أول الإسلام ثم نسخ؛ والناسخ قوله: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، وقيل الإجماع، ورُوي ذلك عن سعيد بن المسيب، - رضي الله عنه -.

فإن قلت: أي فرق بين معنى الجملة الأولى ومعنى الثانية؟ قلت: معنى الأولى: صفة الزاني بكونه غير راغب في العفائف، ولكن في الفواجر، ومعنى الثانية: صفة الزانية

١٠١٦ - رواه ابن أبي شيبة (٣/ ٥٤٠) رقم (١٦٩٣٢) حدثنا معاوية بن هشام عن سفيان الثوري قال: سمعت سعيد بن جبير يقول: كن بغايا بمكة قبل الإسلام فكان رجال يتزوجونهن فينفقن عليهم ما أصبن، فلما جاء الإسلام تزوجهن رجال من أهل الإسلام، فحرم رسول الله - ﷺ - ذلك عليهم.

١٠١٧ - أخرجه الدارقطني (٣/ ٢٦٨) كتاب النكاح، باب المهر الحديث (٩٠)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ١٦٩) كتاب النكاح باب الزنا لا يحرم الحلال، والطبراني في الأوسط كما في المجمع (٤/ ٢٧١ - ٢٧٢)، من طريق المغيرة بن إسماعيل بن أيوب بن سلمة، عن عثمان بن عبد الرحمن الزهري، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة قالت: «سئل رسول الله - ﷺ - عن الرجل يتبع المرأة حراماً أينكح ابنتها أو يتبع الابنة حراماً، أينكح أمها؟ قالت: قال رسول الله - ﷺ -: «لا يحرم الحرام، إنما يحرم ما كان بنكاح حلال».

قال الهيثمي: «فيه عثمان بن عبد الرحمن الزهري وهو متروك» اهـ.

وروى ابن ماجه (١/ ٦٤٩) كتاب النكاح، باب لا يحرم الحرام الحلال، الحديث (٢٠١٥)، والدارقطني (٣/ ٢٦٨) كتاب النكاح، باب المهر الحديث (٨٩)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ١٦٨) كتاب النكاح، باب الزنا لا يحرم الحلال، والخطيب في تاريخ بغداد (٧/ ١٨٢)، من طريق عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر عن النبي - ﷺ - قال: «لا يحرم الحرام الحلال».

بكونها غير مرغوب ٢/ ٣٩أ فيها للأعفاء ولكن للزناة، وهما معنيان مختلفان[١].

فإن قلت: كيف قدمت الزانية على الزاني أولاً، ثم قدم عليها ثانياً؟

قلت: سيقت تلك الآية لعقوبتهما على ما جنيا، والمرأة هي المادة التي منها نشأت الجناية؛ لأنها لو لم تطمع الرجل ولم تومض له ولم تمكنه، لم يطمع ولم يتمكن، فلما كانت أصلاً وأولاً في ذلك بديء بذكرها، وأمّا الثانية: فمسوقه لذكر النكاح والرجل أصل فيه؛ لأنه هو الراغب والخاطب، ومنه يبدأ الطلب، وعن عمرو بن عبيد ـ رضي الله عنه ـ: لا ينكح، بالجزم على النهي، والمرفوع فيه ـ أيضاً ـ معنى النهي، ولكن أبلغ وآكد، كما أن: «رحمك الله، ويرحمك»: أبلغ من: «ليرحمك»، ويجوز أن يكون خبراً محضاً. على معنى: أن عادتهم جارية على ذلك، وعلى المؤمن ألا يدخل نفسه تحت هذه العادة ويتصوّن عنها، وقرئ: «وحرم»: بفتح الحاء[٢].

---

(١) قال محمود: «إن قلت أي فرق بين الجملتين في المعنى؟ قلت: معنى الأولى صفة الزاني بكونه غير راغب في العفائف، ولكن في الفواجر ومعنى الثانية صفة الزانية بكونها غير مرغوب فيها للأعفاء ولكن للزناة وهما معنيان مختلفان» قال أحمد: وليس فيما ذكره إيضاح إطباق الجملتين. ونحن نوضحه فنقول: الأقسام أربعة الزاني لا يرغب إلا في زانية. الزانية لا ترغب إلا في زان. العفيف لا يرغب إلا في عفيفة. العفيفة لا ترغب إلا في عفيف. وهذه الأقسام الأربعة مختلفة المعاني، وحاصرة للقسمة فنقول: اختصرت الآية من هذه الأربعة قسمين. واقتصرت على قسمين أحرى من المسكوت عنهما، فجاءت مختصرة جامعة، فالقسم الأول صريح في القسم الأول ويفهم الثالث، والقسم الثاني صريح في القسم الثاني ويفهم الرابع، والقسم الثالث والرابع متلازمان، من حيث أن المقتضى لانحصار رغبة العفيف في العفيفة هو اجتماعهما في العفة، وذلك بعينه مقتضٍ لانحصار رغبتها فيه، ثم يقصر التعبير عن وصف الزناة والأعفاء بما لا يقل عن ذكر الزناة وجودًا وسلبًا، فإن معنى الأول الزانية لا ينكحها عفيف، ومعنى الثاني: العفيفة لا ينكحها زان. والسر في ذلك أن الكلام في أحكامهم، فذكر الأعفاء بسلب نقائصهم، حتى لا يخرج بالكلام عما هو المقصود منه، ثم بينه في إسناد النكاح في هذين القسمين الذكور دون الإناث، بخلاف قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ فإنه جعل لكل واحد منهما ثم استقلالا، وقدم الزانية على الزاني. والسبب فيه أن الكلام الأول في حكم الزنا، والأصل فيه المرأة لما يبدو منها من الإيماض والإطماع، والكلام الثاني في نكاح الزناة إذا وقع ذلك على الصحة، والأصل في النكاح الذكور وهم المبتدؤن بالخطبة، فلم يسند إلا لهم لهذا ـ وإن كان الغرض من الآية تنفير الأعفاء من الذكور والإناث من مناكحة الزناة ذكوراً وإناثاً، زجراً لهم عن الفاحشة ـ ولذلك قرن الزنا والشرك. ومن ثم كره مالك رحمه الله مناكحة المشهورين بالفاحشة. وقد نقل بعض أصحابه الإجماع في المذهب على أن للمرأة أو لمن قام من أوليائها فسخ نكاح الفاسق. ومالك أبعد الناس من اعتبار الكفاءة إلا في الدين. وأما في النسب، فقد بلغه أنهم فرقوا بين عربية ومولى فاستعظمه وتلا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾.

(٢) قوله «بفتح الحاء» لعله: بفتح الحاء والراء. (ع)

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

القذف يكون بالزنى وبغيره، والذي دل على أن المراد قذفهن بالزنى شيئان، أحدهما: ذكر المحصنات عقيب الزواني، والثاني: اشتراط أربعة شهداء؛ لأنّ القذف بغير الزنى يكفي فيه شاهدان، والقذف بالزنى أن يقول الحرّ العاقل البالغ لمحصنة: يا زانية، أو لمحصن: يا زاني، يا ابن الزاني، يا ابن الزانية، يا ولد الزنا، لست لأبيك، لست لرشدة، والقذف بغير الزنا أن يقول: يا آكل الربا، يا شارب الخمر، يا يهودي، يا مجوسي، يا فاسق، يا خبيث، يا ماص بظر أمّه: فعليه التعزير، ولا يبلغ به أدنى حد العبيد وهو أربعون، بل ينقص منه، وقال أبو يوسف: يجوز أن يبلغ به تسعة وسبعون، وقال: للإمام أن يعزر إلى المائة، وشروط إحصان القذف خمسة: الحرية، والبلوغ، والعقل، والإسلام، والعفة، وقرئ: «بأربعة شهداء»: بالتنوين، وشهداء: صفة.

فإن قلت: كيف يشهدون مجتمعين أو متفرقين.

قلت: الواجب عند أبي حنيفة وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ أن يحضروا في مجلس واحد، وإن جاءوا متفرقين كانوا قذفة، وعند الشافعي ـ رضي الله عنه ـ: يجوز أن يحضروا متفرقين.

فإن قلت: هل يجوز أن يكون زوج المقذوفة واحدًا منهم؟

قلت: يجوز عند أبي حنيفة خلافاً للشافعي.

فإن قلت: كيف يجلد القاذف؟

قلت: كما جلد الزاني؛ إلا أنه لا ينزع عنه من ثيابه إلا ما ينزع عن المرأة من الحشو والفرو، والقاذفة ـ أيضاً ـ كالزانية، وأشدّ الضرب ضرب التعزير، ثم ضرب الزنا، ثم ضرب شرب الخمر، ثم ضرب القاذف، قالوا: لأنّ سبب عقوبته محتمل للصدق والكذب، إلا أنه عوقب صيانة للأعراض وردعاً عن هتكها.

فإن قلت: فإذا لم يكن المقذوف محصناً؟

قلت: يعزر القاذف ولا يحدّ، إلا أن يكون المقذوف معروفاً بما قذف به فلا حدّ ولا تعزير، ردّ شهادة القاذف معلق عند أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ باستيفاء الحد، فإذا شهد قبل الحد أو قبل تمام استيفائه قبلت شهادته، فإذا استوفى لم تقبل شهادته أبداً وإن تاب

وكان من الأبرار الأتقياء، وعند الشافعي ـ رضي الله عنه ـ: يتعلق ردّ شهادته بنفس القذف، فإن تاب عن القذف بأن رجع عنه، عاد مقبول الشهادة، وكلاهما متمسك بالآية، فأبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ جعل جزاء الشرط الذي هو الرمي: الجلد، وردّ الشهادة عقيب الجلد على التأبيد، فكانوا مردودي الشهادة عنده في أبدهم وهو مدة حياتهم، وجعل قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾: كلاماً مستأنفاً غير داخل في حيز جزاء الشرط، كأنه حكاية حال الرامين عند الله بعد انقضاء الجملة الشرطية، و﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾: استثناء من الفاسقين؛ ويدل عليه قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ والشافعي ـ رضي الله عنه ـ جعل جزاء الشرط الجملتين ـ أيضاً ـ غير أنه صرف الأبد إلى مدة كونه قاذفاً، وهي تنتهي بالتوبة والرجوع عن القذف وجعل الاستثناء متعلقاً بالجملة الثانية، وحق المستثنى عنده أن يكون مجروراً بدلاً من «هم» في: ﴿لَهُمۡ﴾، وحقه عند أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ أن يكون منصوباً؛ لأنه عن موجب، والذي يقتضيه ظاهر الآية ونظمها أن تكون الجمل الثلاث بمجموعهن جزاء الشرط، كأنه قيل: ومن قذف المحصنات فاجلدوهم وردّوا شهادتهم وفسقوهم، أي: فاجمعوا لهم الجلد والردّ والتفسيق؛ إلا الذين تابوا عن القذف وأصلحوا فإنّ الله يغفر لهم فينقلبون غير مجلودين ولا مردودين ولا مفسقين.

فإن قلت: الكافر يقذف فيتوب عن الكفر فتقبل شهادته بالإجماع، والقاذف من المسلمين يتوب عن القذف فلا تقبل شهادته عند أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ كأن القذف مع الكفر أهون من القذف مع الإسلام؟

قلت: المسلمون لا يعبئون بسب الكفار؛ لأنهم شهروا بعداوتهم والطعن فيهم بالباطل؛ فلا يلحق المقذوف بقذف الكافر من الشين والشنار ما يلحقه بقذف مسلم مثله، فشدّد على القاذف من المسلمين ردعاً وكفًا عن إلحاق الشنار[1].

فإن قلت: هل للمقذوف أو للإمام أن يعفو عن حدّ القاذف؟

قلت: لهما ذلك قبل أن يشهد الشهود ويثبت الحدّ، والمقذوف مندوب إلى ألَا يرافع القاذف ولا يطالبه بالحدّ، ويحسن من الإمام أن يحمل المقذوف على كظم الغيظ، ويقول له: أعرض عن هذا ودعه لوجه الله قبل ثبات الحدّ، فإذا ثبت لم يكن لواحد منهما أن يعفو؛ لأنه خالص حق الله؛ ولهذا لم يصح أن يصالح عنه بمال.

فإن قلت: هل يورث الحدّ؟

---

(١) قوله «الشنار» في الصحاح «الشنار» العيب والعار. (ع)

قلت: عند أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ لا يورث؛ لقوله ـ ﷺ ـ: «الحدُّ لا يُورَثُ» (١٠١٨)، ٢/٣٩ب وعند الشافعي ـ رضي الله عنه ـ: يورث، وإذا تاب القاذف قبل أن يثبت الحدّ سقط، وقيل: نزلت هذه الآية في حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ حين تاب مما قال في عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾﴾

قاذف امرأته إذا كان مسلماً حرًا بالغاً عاقلاً، غير محدود في القذف، والمرأة بهذه الصفة مع العفة: صح اللعان بينهما، إذا قذفها بصريح الزنى، وهو أن يقول لها: يا زانية، أو زنيت، أو رأيتك تزنين، وإذا كان الزوج عبداً، أو محدوداً في قذف، والمرأة محصنة: حدّ كما في قذف الأجنبيات، وما لم ترافعه إلى الإمام لم يجب اللعان، واللعان: أن يبدأ الرجل فيشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فيما رماها به من الزنى، ويقول في الخامسة: أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما رماها به من الزنى، وتقول المرأة أربع مرات: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به من الزنى، ثم تقول في الخامسة: أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين فيما رماني به من الزنى، وعند الشافعي ـ رضي الله عنه ـ: يقام الرجل قائماً حتى يشهد والمرأة قاعدة، وتقام المرأة والرجل قاعد حتى تشهد، ويأمر الإمام من يضع يده على فيه ويقول له: إني أخاف إن لم تكن صادقاً أن تبوء بلعنة الله، وقال: اللعان بمكة بين المقام والبيت، وبالمدينة على المنبر، وببيت المقدس في مسجده، ولعان المشرك في الكنيسة، وحيث يعظم، وإذا لم يكن له دين ففي مساجدنا إلا في المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [التوبة: ٢٨]، ثم يفرق القاضي بينهما، ولا تقع الفرقة بينهما إلا بتفريقه عند أبي حنيفة وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ إلا عند زفر؛ فإن الفرقة تقع باللعان، وعن عثمان البتي: لا فرقة أصلاً، وعند الشافعي ـ رضي الله عنه ـ: تقع بلعان الزوج، وتكون هذه الفرقة في حكم التطليقة البائنة عند أبي حنيفة ومحمد ـ رضي الله عنهما ـ ولا يتأبد حكمها، فإذا أكذب الرجل نفسه بعد ذلك فحدّ جاز أن يتزوجها، وعند أبي يوسف وزفر والحسن بن زياد

١٠١٨ ـ قال الزيلعي: غريب جداً.

والشافعي ـ رضي الله عنهم ـ: هي فرقة بغير طلاق توجب تحريماً مؤبداً، ليس لهما أن يجتمعا بعد ذلك بوجه، وروي أن آية القذف لما نزلت[1]، قرأها رسول الله ـ ﷺ ـ على المنبر، فقام عاصم بن عدي الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ فقال: جعلني الله فداك، إن وجد رجل مع امرأته رجلاً فأخبر جلد ثمانين وردّت شهادته أبداً وفسق، وإن ضربه بالسيف قتل، وإن سكت سكت على غيظ، وإلى أن يجيء بأربعة شهداء، فقد قضى الرجل حاجته ومضى: اللهم، افتح، وخرج فاستقبله هلال بن أمية أو عويمر، فقال: ما وراءك؟ قال شر: وجدت على بطن امرأتي خولة ـ وهي بنت عاصم ـ شريك بن سحماء، فقال: هذا والله سؤالي، ما أسرع ما ابتليت به! فرجعا، فأخبر عاصم رسول الله ـ ﷺ ـ فكلم خولة فقالت: لا أدري، ألغيرة أدركته؟ أم بخلا على الطعام ـ وكان شريك نزيلهم ـ وقال هلال: لقد رأيته على بطنها؛ فنزلت، ولاعن بينهما، وقال رسول الله ـ ﷺ ـ عند قوله وقولها: أنّ لعنة الله عليه، إن غضب الله عليها: آمين، وقال القوم: آمين، وقال لها: «إِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَٱعْتَرِفِي بِهِ، فَالرَّجْمُ أَهْوَنُ عَلَيْكِ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ، إِنَّ غَضَبَهُ هُوَ النَّارُ، وَقَالَ: تَحَيَّنُوا بِهَا الْوِلادَةَ، فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أُصَيْهِبَ أُثَيْبِجَ[2] يُضْرَبُ إِلَى السَّوَادِ، فَهُوَ لِشَرِيكٍ، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَوْرَقَ جَعْداً جَمَالِيًا خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ، فَهُوَ لِغَيْرِ الَّذِي رُمِيَتْ بِهِ» ح قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: فجاءت بأشبه خلق الله لشريك، فقال ـ ﷺ ـ: «لَوْلاَ الإِيمَانُ، لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ» (١٠١٩)، وقرئ: «ولم تكن»؛ بالتاء؛ لأنّ الشهداء جماعة، أو لأنهم في

١٠١٩ ـ قال الزيلعي (٢/ ٤٢١): «غريب بهذا السياق» اهـ.

وحديث عاصم بن عدي ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٤٣) وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه. قال: لما نزلت: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾... الآية قلت: يا رسول الله، إلى أن يأتي الرجل بأربعة شهداء قد خرج الرجل؛ فلم يلبث إلا أياماً فإذا ابن عم لي معه امرأته ومعها ابن، وهي تقول: منك، وهو يقول: ليس مني، فنزلت آية اللعان قال عاصم: فأنا أول من تكلم وأول من ابتلي به. =

---

(١) وفي الخازن: سبب نزول هذه الآية ما روي عن سهل بن سعد الساعدي أن عويمر العجلاني جاء إلى عاصم بن عدي فقال لعاصم أرأيت لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل سل لي رسول الله ﷺ وفيه أيضا عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء فقال رسول الله ﷺ: البينة أو حد في ظهرك، فقال يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة، فجعل النبي ﷺ يقول: البينة أو حد في ظهرك فنزل جبريل بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ الآية.

(٢) قوله: «فإن جاءت به أصيهب أثيبج» في الصحاح «الصهبة» الشقرة في شعر الرأس والرجل أصهب. وفيه: ثبج كل شيء وسطه. والأثبج: العريض الثبج ويقال الناتىء الثبج اهـ. وما في الحديث تصغيرهما. وفيه أيضاً «الخدلجة» بتشديد اللام المرأة الممتلئة الذراعين والساقين. (ع)

معنى الأنفس التي هي بدل، ووجه من قرأ أربع أن ينتصب؛ لأنه في حكم المصدر والعامل فيه المصدر الذي هو: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾، وهي مبتدأ محذوف الخبر، تقديره: واجب شهادة أحدهم أربع شهادات بالله، وقرئ: «أن لعنة الله»، و«أن غضب الله»: على تخفيف أن ورفع ما بعدها، وقرئ: «أن غضب الله»: على فعل الغضب، وقرئ: بنصب الخامستين[1]، على معنى: وتشهد الخامسة.

فإن قلت: لم خصت الملاعنة بأن تخمس بغضب الله؟

قلت: تغليظاً عليها؛ لأنها هي أصل الفجور ومنبعه بخلابتها[2] وإطماعها؛ ولذلك كانت مقدّمة في آية الجلد؛ ويشهد لذلك قوله ـ ﷺ ـ لخولة: «فَالرَّجْمُ أَهْوَنُ عَلَيْكِ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ» (١٠٢٠).

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

الفضل: التفضل، وجواب «لولا»: متروك، وتركه دال على أمر عظيم لا يكتنه، ورب مسكوت عنه أبلغ من منطوق به.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾

= أما حديث عويمر العجلاني أو هلال مع عاصم ابن عدي. أخرجه مالك (٢/ ٥٦٦ ـ ٥٦٧) كتاب الطلاق: باب ما جاء في اللعان حديث (٣٤)، والبخاري (٩/ ٣٦١) كتاب الطلاق: باب من جوز الطلاق الثلاث حديث (٥٢٥٩)، ومسلم (٢/ ١١٢٩ ـ ١١٣٠) كتاب اللعان حديث (١/ ١٤٩٢)، وأبو داود (٢/ ٦٧٩ ـ ٦٨٢) كتاب الطلاق: باب في اللعان حديث (٢٢٤٥)، والنسائي (٦/ ١٧٠ ـ ١٧١) كتاب الطلاق: باب بدء االعان. وابن ماجه (١/ ٦٦٧) كتاب الطلاق، باب اللعان حديث (٢٠٦٦) وأحمد (٥/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧)، والدارمي (٢/ ١٥٠) كتاب النكاح: باب في اللعان وابن الجارود في: «المنتقى» رقم (٧٥٦)، وابن حبان (٤٢٧١ ـ الإحسان)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ١٠٢)، والبيهقي (٧/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩) كتاب اللعان: باب سنة اللعان، والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ١٨١ ـ بتحقيقنا) من طريق الزهري عن سهل بن سعد به.

١٠٢٠ ـ انظر السابق.

---

(١) قوله «وقرئ بنصب الخامستين» في النسفي: أنه لا خلاف في رفع الخامسة الأولى على المشهور. (ع)

(٢) قوله «بخلابتها» في الصحاح «الخلابة» الخديعة باللسان. (ع)

الإفك: أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، وقيل: هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك، وأصله: الأفك، وهو القلب؛ لأنه قول مأفوك عن وجهه، والمراد: ما أُفك به على عائشة ـ رضي الله عنها ـ والعصبة: الجماعة من العشرة إلى الأربعين، وكذلك العصابة، واعصوصبوا: اجتمعوا، وهم عبد الله بن أبيّ رأس النفاق، وزيد بن رفاعة، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش، ومن ساعدهم، وقرئ: «كبره»: بالضم والكسر، وهو عظمه[1]، والذي تولاه عبد الله؛ لإمعانه في عداوة رسول الله ـ ﷺ ـ ٢/ ٤٠أ وانتهازه الفرص، وطلبه سبيلاً إلى الغميزة.

أي: يصيب كل خائض في حديث الإفك من تلك العصبة نصيبه من الإثم على مقدار خوضه، والعذاب العظيم لعبد الله؛ لأنّ معظم الشرّ كان منه، يحكى أن صفوان ـ رضي الله عنه ـ مرّ بهودجها عليه وهو في ملأ من قومه قال: من هذه؟ فقالوا: عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقال: والله، ما نجت منه ولا نجا منها، وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها، والخطاب في قوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: لمن ساءه ذلك من المؤمنين، وخاصة رسول الله ـ ﷺ ـ وأبي بكر، وعائشة، وصفوان بن المعطل ـ رضي الله عنهم ـ ومعنى كونه خيراً لهم: أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم؛ لأنه كان بلاء مبيناً ومحنة ظاهرة، وأنه نزلت فيه ثماني عشرة آية، كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله ـ ﷺ ـ وتسلية له، وتنزيه لأم المؤمنين ـ رضوان الله عليها ـ وتطهير لأهل البيت، وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمجه أذناه، وعدة ألطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة، وفوائد دينية، وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها.

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي: بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات؛ كقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]،[2] وذلك نحو ما يروى أن أبا أيوب الأنصاري قال لأم أيوب: ألا ترين ما يقال؟ فقالت: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله ـ ﷺ ـ سوءاً؟ قال: لا،

---

(١) قوله «وهو عظمه» في الصحاح: عظم الشيء: أكثره ومعظمه. (ع)

(٢) قال محمود: «معناه ظنوا بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾» قال أحمد: والسر في هذا التعبير: تعطيف المؤمن على أخيه وتوبيخه على أن يذكره بسوء، وتصوير ذلك بصورة من أخذ يقذف نفسه ويرميها بما ليس فيها من الفاحشة، ولا شيء أشنع من ذلك، والله أعلم.

قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة ـ رضي الله عنها ـ ما خنت رسول الله ـ ﷺ ـ فعائشة خير مني، وصفوان خير منك (١٠٢١)[1].

فإن قلت: هلا قيل: لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم؟ ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة، وعن الضمير إلى الظاهر؟

قلت: ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات، وليصرح بلفظ الإيمان؛ دلالة على أن الاشتراك فيه مقتض ألا يصدّق مؤمن على أخيه، ولا مؤمنة على أختها قول غائب ولا طاعن، وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قالة في أخيه، أن يبني الأمر فيها على الظنّ لا على الشك، وأن يقول بملء فيه بناء على ظنه بالمؤمن الخير ﴿هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾؛ هكذا بلفظ المصرح ببراءة ساحته، كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال، وهذا من الأدب الحسن الذي قل القائم به والحافظ له، وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما سمعه بأخوات.

﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾

جعل الله التفصلة بين الرمي الصادق والكاذب: ثبوت شهادة الشهود الأربعة وانتفاءها، والذين رموا عائشة ـ رضي الله عنها ـ لم تكن لهم بينة على قولهم، فقامت عليهم الحجة

١٠٢١ ـ رواه ابن إسحاق (٣/ ٣٠٠) قال: حدثني أبي إسحاق بن يسار عن بعض رجال بني النجار أن أبا أيوب خالد بن زيد قالت له امرأته أم أيوب: «يا أبا أيوب، ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب فاعلة؟ قالت: لا والله، ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك».

ورواه ابن جرير (٩/ ٢٨٤) رقم (٢٥٨٥٩) من طريق محمد بن إسحاق، وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٦٠)، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر.

---

[1] عاد كلامه. قال: ونقل أن أبا أيوب الأنصاري قال لامرأته: ألا ترين مقالة الناس؟ قالت له: لو كنت بدل صفوان أكنت تخون في حرمة رسول الله ﷺ سوءاً؟ قال: لا. قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنته، وصفوان خير منك وعائشة خير مني» قال أحمد: ولقد ألهمت بنور الإيمان إلى هذا السر الذي انطوى عليه التعبير عن الغير من المؤمنين بالنفس، فإنها نزلت زوجها منزلة صفوان، ونفسها منزلة عائشة، ثم أثبتت لنفسها ولزوجها البراءة والأمانة، حتى أثبتتها لصفوان وعائشة بطريق الأولى رضي الله عنها. ويحتمل والله أعلم خلاف ما قاله الزمخشري: وهو أن يكون التعبير بالأنفس حقيقة، والمقصود إلزامي سيء الظن بنفسه، لأنه لم يعتد بوازع الإيمان في حق غيره، وألغاه واعتبره في حق نفسه، وادعى لها البراءة قبل معرفته بحكم الهوى لا بحكم الهدى، والله أعلم.

وكانوا ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكمه وشريعته كاذبين، وهذا توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الإفك فلم يجدوا في دفعه وإنكاره، واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف في الشرع: من وجوب تكذيب القاذف بغير بينة، والتنكيل به إذا قذف امرأة محصنة من عرض نساء المسلمين، فكيف بأمّ المؤمنين الصدّيقة بنت الصدّيق حرمة رسول الله ـ ﷺ ـ وحبيبة حبيب الله؟

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

لولا الأولى: للتحضيض، وهذه لامتناع الشيء لوجود غيره، والمعنى: ولولا أني قضيت أن أتفضل عليكم في الدنيا بضروب النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة، وأن أترحم عليكم في الآخرة بالعفو والمغفرة، لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك، يقال: أفاض في الحديث، واندفع، وهضب، وخاض، ﴿إِذْ﴾: ظرف لمسكم، أو لأفضتم، ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾: يأخذه بعضكم من بعض، يقال: تلقى القول وتلقنه وتلقفه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧]، وقرئ على الأصل: «تتلقونه» و«إذ تلقونه»: بإدغام الذال في التاء[1]، وتلقونه، من لقيه بمعنى: لقفه، وتلقونه: من إلقائه بعضهم على بعض، وتلقونه وتألقونه، من الولق والألق: وهو الكذب، وتلقونه: محكية عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ وعن سفيان: سمعت أمي تقرأ: «إذ تثقفونه»[2]، وكان أبوها يقرأ بحرف عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿بِأَفْوَاهِكُم﴾، والقول لا يكون إلا بالفم؟

قلت: معناه: أن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب، فيترجم عنه اللسان[3]، وهذا الإفك ليس إلا قولاً يجري على ألسنتكم ويدور في أفواهكم من غير ترجمة عن علم به

---

(١) قوله «وإذ تلقونه» لعل رسمه هكذا «واتلقونه» إلا أن يعتبر ما قبل الإدغام. (ع)

(٢) قوله «سمعت أمي تقرأ إذ تثقفونه» وفي نسخة تقفونه، بمعنى تتبعونه، وكلا النسختين قراءة. (ع)

(٣) قال محمود: «إن قلت القول لا يكون إلا بالأفواه، فما فائدة ذكرها؟ قلت: المراد أن هذا القول لم يكن عبارة عن علم قام بالقلب، وإنما هو مجرد قول اللسان» قال أحمد: ويحتمل أن يكون المراد المبالغة، أو تعريضا بأنه ربما يتمشدق ويقضي تمشدق جازم عالم، وهذا أشد وأقطع، وهو السر الذي أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ والله أعلم.

في القلب؛ كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، أي: تحسبونه صغيرة وهو عند الله كبيرة موجبة[١]، وعن بعضهم أنه جزع عند الموت، فقيل له، فقال: أخاف ذنباً لم يكن مني على بال، وهو عند الله عظيم، وفي كلام بعضهم: لا تقولنّ لشيء من سيئاتك حقير، فلعله عند الله نخلة وهو عندك نقير، وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام وعلق مس العذاب العظيم بها.

أحدها: تلقي الإفك بألسنتهم؛ وذلك أن الرجل كان يلقى الرجل فيقول له: ما وراءك؟ فيحدثه بحديث الإفك حتى شاع وانتشر، فلم يبق بيت ولا ناد إلا طار فيه.

والثاني: التكلم مما لا علم لهم به، والثالث: استصغارهم لذلك وهو عظيمة من العظائم.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

فإن قلت: كيف جاز الفصل بين لولا وقلتم؟ ٢/ ٤٠ب

قلت: للظروف شأن وهو تنزلها من الأشياء منزلة أنفسها؛ لوقوعها فيها، وأنها لا تنفك عنها؛ فلذلك يتسع فيها ما لا يتسع في غيرها.

فإن قلت: فأيّ فائدة في تقديم الظرف حتى أوقع فاصلاً؟

قلت: الفائدة فيه: بيان أنه كان الواجب عليهم أن يتفادوا أوّل ما سمعوا بالإفك عن التكلم به، فلما كان ذكر الوقت أهمّ وجب التقديم.

فإن قلت: فما معنى يكون، والكلام بدونه متلثب[٢] لو قيل: ما لنا أن نتكلم بهذا؟

قلت: معناه معنى: ينبغي، ويصح، أي: ما ينبغي لنا أن نتكلم بهذا، وما يصح لنا؛ ونحوه: ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، و﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: للتعجب من عظم الأمر[٣].

---

(١) قوله «وهو عند الله كبيرة موجبة» لعله موجبة للعقاب. (ع)

(٢) قوله «والكلام بدونه متلثب» لعله: محرف وأصله مستتب. وفي الصحاح: استتب الأمر: تهيأ واستقام. (ع)

(٣) قال محمود: «معناه التعجب من عظم الأمر، وأصله أن الإنسان إذا رأى عجباً من صنائع الله تعالى سبحه، ثم كثر حتى استعمل عند كل متعجب منه، ثم أوردها هنا سؤالاً على توبيخهم على ترك التعجب فقال: إن قلت: لم جاز أن تكون زوجة النبي كافرة كامرأة نوح ولوط ولم يجز أن تكون فاجرة، ولم يكن كفرها متعجباً منه وفجورها متعجب منه؟ قلت: لأن الأنبياء مبعوثون إلى الكفار ليدعوهم ويتزلفوا إليهم، وكفر الزوجة غير مانع ولا منفر بخلاف الكشخنة» قال أحمد: وما أورد عليه أبرد من هذا السؤال، كأن أحدا يشكل عليه أن ينسب الفاحشة إلى مثل عائشة، مما ينكره كل عاقل ويتعجب منه كل لبيب، والله الموفق.

فإن قلت: ما معنى التعجب في كلمة التسبيح؟

قلت: الأصل في ذلك: أن يسبح الله عند رؤية العجيب من صنائعه، ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه، أو لتنزيه الله ـ تعالى ـ من أن تكون حرمة نبيه ـ عليه السلام ـ فاجرة.

فإن قلت: كيف جاز أن تكون امرأة النبي كافرة كامرأة نوح ولوط ولم يجز أن تكون فاجرة؟

قلت: لأنّ الأنبياء مبعوثون إلى الكفار ليدعوهم ويستعطفوهم، فيجب ألا يكون معهم ما ينفرهم عنهم، ولم يكن الكفر عندهم مما ينفر، وأما الكشخنة[1] فمن أعظم المنفرات.

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

أي: كراهة ﴿أَن تَعُودُواْ﴾، أو في أن تعودوا؛ من قولك: وعظت فلاناً في كذا فتركه، وأبدهم ما داموا أحياء مكلفين، و﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: فيه تهييج لهم ليتعظوا، وتذكير بما يوجب ترك العود، وهو اتصافهم بالإيمان الصادّ عن كل مقبح، ويبين الله لكم الدلالات على علمه وحكمته بما ينزل عليكم من الشرائع، ويعلمكم من الآداب الجميلة، ويعظكم به من المواعظ الشافية، والله عالم بكل شيء، فاعل لما يفعله بدواعي الحكمة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

المعنى: يشيعون الفاحشة عن قصد إلى الإشاعة، وإرادة ومحبة لها، وعذاب الدنيا: الحدّ، ولقد ضرب رسول الله ـ ﷺ ـ عبد الله بن أبيّ وحساناً ومسطحاً، وقعد صفوان لحسان فضربه ضربة بالسيف (١٠٢٢)، وكفّ بصره، وقيل: هو المراد بقوله: ﴿وَٱلَّذِى

١٠٢٢ ـ رواه أبو داود (٢/٥٦٨) كتاب الحدود، باب: في حد القذف، الحديث (٤٤٧٤) من حديث ابن أبي عدي حدثهم عن محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن عمرة عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «لما نزل عذري قام النبي ـ ﷺ ـ على المنبر فذكر ذلك، وتلا ـ تعني القرآن ـ فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدهم».
ورواه أيضاً الحديث رقم (٤٤٧٥) مرسلاً قال: فأمر برجلين وامرأة ممن تكلم بالفاحشة: حسان بن =

---

(١) قوله «الكشخنة» كأنها الدياثة. (ع)

﴿تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النور: ١١]، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾: ما في القلوب من الأسرار والضمائر، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، يعني: أنه قد علم محبة من أحب الإشاعة، وهو معاقبه عليها.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

وكرّر المنة بترك المعاجلة بالعقاب، حاذفاً جواب لولا كما حذفه ثمة، وفي هذا التكرير مع حذف الجواب مبالغة عظيمة، وكذلك في التوّاب والرءوف والرحيم.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

الفحشاء والفاحشة: ما أفرط قبحه؛ قال أبو ذُؤَيب [من الطويل]:

. . . . ضَرَائِرُ حِرْمِيٌّ تَفَاحَشَ غَارُهَا [1]

= ثابت، ومسطح بن أثاثة قال الثقيلي ويقولون: المرأة حمنة بنت جحش.
وحديث عائشة المرفوع رواه أيضاً الترمذي (٥/ ٣٣٦) في التفسير ومن سورة النور الحديث (٣١٨١)، وابن ماجه (٢/ ٨٥٧) كتاب الحدود، باب حد القذف، الحديث (٢٥٦٧)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٢٥) كتاب الرجم، باب حد القذف الحديث (٧٣٥١)، وروى الطبراني في معجمه كما في المجمع (٧/ ٨٣) عن سعيد بن جبير قال: «جلد النبي ـ ﷺ ـ حسان بن ثابت وعبد الله بن أبي، ومسطحاً، وحمنة بنت جحش كل واحد ثمانين جلدة في قذف عائشة، ثم تابوا من بعد ذلك غير عبد الله بن أبي رأس المنافقين مات على نفاقه».
ثم قال الهيثمي: «وفيه ابن لهيعة، وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح» اهـ.
ورواه البيهقي في الدلائل (٤/ ٧٤) من طريق عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة عن عائشة أنها قالت: «لما تلى رسول الله ـ ﷺ ـ القصة التي نزل بها عذري على الناس، نزل رسول الله ـ ﷺ ـ فأمر برجلين وامرأة ممن كان باء بالفاحشة في عائشة، فجلدوا الحد».
وأما حديث ضرب صفوان لحسان فرواه الحاكم (٣/ ٥١٩) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: وقعد صفوان بن المعطل لحسان بن ثابت فضربه... وذكرت قصته، ورواه البيهقي في الدلائل (٤/ ٧٤ ـ ٧٥).

---

(١) لهن نشيج بالنشيل كأنها ضرائر حرمي تفاحش غارها
الضمير للقدور: والنشيج: الصوت، كالنشيج. يقال: نشجت القدر ونشج الباكي، وطعنة ناشجة: تبك دما. والباء للملابسة. والنشيل: اللحم المطبوخ: ينشل من القدر. والضرائر: نسوة الرجل، لأن كلا منهن تريد ضر الأخرى والحرمي: نسبة إلى الحرم، كالجسم لغة في حرم مكة. والتفاحش: الإفراط في القبح. والغار؛ الغيرة، أو الوجيب والصياح، وهو أنسب بالتشبيه.
ينظر: شرح أشعار الهذليين ص ٧٩، ولسان العرب (نشج)، (ضرر)، (غور)، (غير)، (حرم)، =

أي: أفرطت غيرتها، والمنكر: ما تنكره النفوس فتنفر عنه ولا ترتضيه، وقرئ: «خطوات»: بفتح الطاء وسكونها، وزكى بالتشديد، والضمير لله تعالى، ولولا أنّ الله تفضل عليكم بالتوبة الممحصة، لما طهر منكم أحد آخر الدهر من دنس إثم الإفك، ولكن الله يطهر التائبين بقبول توبتهم إذا محضوها، وهو ﴿سَمِيعٌ﴾: لقولهم، ﴿عَلِيمٌ﴾: بضمائرهم وإخلاصهم.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

وهو من ائتلى إذا حلف: افتعال من الألية، وقيل: من قولهم: ما ألوت جهداً، إذا لم تدخر منه شيئاً، ويشهد للأول قراءة الحسن: «ولا يتألَّ»، والمعنى: لا يحلفوا على ألا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان، أو لا يقصروا في أن يحسنوا إليهم وإن كانت بينهم وبينهم شحناء لجناية اقترفوها، فليعودوا عليهم بالعفو والصفح، وليفعلوا بهم مثل ما يرجون أن يفعل بهم ربهم، مع كثرة خطاياهم وذنوبهم؛ نزلت في شأن مسطح، وكان ابن خالة أبي بكر الصدّيق ـ رضي الله عنهما ـ وكان فقيراً من فقراء المهاجرين، وكان أبو بكر ينفق عليه، فلما فرط منه ما فرط، آلى ألا ينفق عليه، وكفى به داعياً إلى المجاملة وترك الاشتغال بالمكافأة للمسيء، ويروى أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قرأها على أبي بكر، فقال: بل أحب أن يغفر الله لي، ورجع إلى مسطح نفقته، وقال: والله لا أنزعها أبداً (١٠٢٣)، وقرأ

١٠٢٣ ـ جزء من حديث عائشة في الإفك.
أخرجه البخاري (٥/ ٦٠١ ـ ٦٠٤) كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً الحديث (٢٦٦١).
ورواه في الشهادات، باب إذا عدل رجل رجلاً الحديث (٢٦٣٧)، وفي كتاب الجهاد، باب حمل الرجل امرأته في الغزو الحديث (٢٨٧٩)، وفي كتاب المغازي الحديث (٤٠٢٥)، وفي المغازي، باب حديث الإفك الحديث (٤١٤١)، وفي التفسير رقم (٤٦٩٠) وأيضاً في الحديث (٤٧٥٠ ـ ٦٦٦٢ ـ ٦٦٧٩ ـ ٧٣٦٩ ـ ٧٥٠٠ ـ ٧٥٤٥) ورواه مسلم (٩/ ١١٥ ـ نووي) كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف الحديث (٥٦ ـ ٥٧ ـ ٥٨/ ٢٧٧٠)، وأبو داود (٢/ ٦٤٨) السنة، باب في القرآن (٤٧٣٥)، والترمذي (٥/ ٣٣٢) كتاب التفسير الحديث (٣١٨٠)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٩٥) كتاب عشرة النساء، باب قرعة الرجل بين نسائه إذا أراد السفر الحديث =

= والتنبيه والإيضاح ٢/ ١٧٩، وتاج العروس (ضرر)، (غور)، وديوان الأدب ١/ ٢٠٢، وأساس البلاغة (فحش)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٤/ ٤٠٨، والمخصّص ٢/ ١٤١، ومجمل اللغة ٤/ ٢٩، وكتاب العين ٤/ ٤٤٢.

أبو حيوة وابن قطيب: «أن تؤتوا»: بالتاء على الالتفات؛ ويعضده قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿الْغَافِلَاتِ﴾: السليمات الصدور، النقيات القلوب، اللاتي ليس فيهن دهاء ولا مكر؛ لأنهنّ لم يجربن الأمور ولم يرزن الأحوال، فلا يفطن لما تفطّن له المجربات العرافات؛ قال [من الكامل]:

وَلَقَدْ لَهَوْتُ بِطَفْلَةٍ مَيَّالَةٍ ... بَلْهَاءَ تُطْلِعُنِي عَلَى أَسْرَارِهَا[1]

وكذلك البله من الرجال في قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلْهُ» ح.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾

وقرئ: «يشهد»: بالياء ٢/ ١٤١أ، والحق: بالنصب صفة للدين وهو الجزاء، وبالرفع: صفة لله، ولو فليت القرآن كله وفتشت عما أوعد به من العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة ـ رضوان الله عليها ـ ولا أنزل من الآيات القوارع، المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف، واستعظام ما ركب من ذلك،

= (٨٩٣١)، ورواه في التفسير أيضاً رقم (٢٧١ ـ ٣٨٠)، وأحمد (٦/ ١١٤ ـ ١١٧ ـ ١٩٤ ـ ١٩٧، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٨، ٢٦٩)، وعبد الرزاق (٥/ ٤١٠ ـ ٤١٩) رقم (٩٧٤٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٧٤) كتاب النكاح، وفي (٧/ ٢٩٦) كتاب القسم والنشوز، باب ما جاء في قول الله عز وجل: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾... الآية وابن حبان في صحيحه (١٠/ ١٣ ـ ٢٢) الحديث (٤٢١٢)، وأبو يعلى (٨/ ٣٢٢) رقم (٤٩٢٧) و(٤٩٣٣)، (٤٩٣٥)، والطبراني في الكبير (٢٣/ رقم ١٣٤ ـ ١٣٥ ـ ١٣٩ ـ ١٤٠ ـ ١٤١ ـ ١٤٢ ـ ١٤٣ ـ ١٤٤ ـ ١٤٥ ـ ١٤٦ ـ ١٤٧ ـ ١٤٨)، وابن جرير في التفسير (٩/ ٢٧٨) رقم (٢٥٨٥٤ ـ ٢٥٨٥٥ ـ ٢٥٨٥٦ ـ ٢٥٨٥٧ ـ ٢٥٨٥٨).

---

(١) لهوت: تلاهيت ولعبت، بطفلة ـ بالفتح ـ أي: امرأة ناعمة لينة، يقال: امرأة طفلة الأنامل، أي: رخصتها لينتها، ميالة: مختالة، بلهاء: غافلة لا مكر عندها ولا دهاء، فلذلك تطلعني على ضمائرها.
البيت للنمر بن تولب، ينظر ديوانه ص ٣٤٩، وبلا نسبة في لسان العرب، تهذيب اللغة (٦/ ٣١٢)، أساس البلاغة (بله) تاج العروس (بله).

واستفظاع ما أقدم عليه، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة، كل واحد منها كاف في بابه، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها؛ حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأنّ ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله؛ حتى يعلموا عند ذلك: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ فأوجز في ذلك وأشبع، وفصل وأجمل، وأكد وكرّر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة، وما ذاك إلا لأمر، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنه كان بالبصرة يوم عرفة، وكان يسئل عن تفسير القرآن، حتى سئل عن هذه الآيات فقال: من أذنب ذنباً ثم تاب منه قبلت توبته إلا من خاض في أمر عائشة، وهذه منه مبالغة وتعظيم لأمر الإفك، ولقد برّأ الله تعالى أربعة بأربعة: برأ يوسف بلسان الشاهد: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦]، وبرأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه، وبرّأ مريم بإنطاق ولدها حين نادى من حجرها: إني عبد الله، وبرّأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلوّ على وجه الدهر، مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات، فانظر، كم بينها وبين تبرئة أولئك؟ وما ذاك إلا لإظهار علوّ منزلة رسول الله ـ ﷺ ـ والتنبيه على إنافة محل سيد ولد آدم، وخيرة الأوّلين والآخرين، وحجة الله على العالمين، ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه ـ ﷺ ـ ويقدمّ قدمه وإحرازه لقصب السبق دون كل سابق، فليتلق ذلك من آيات الإفك، وليتأمل كيف غضب الله في حرمته؟ وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابه؟

فإن قلت: إن كانت عائشة هي المرادة، فكيف قيل: المحصنات[1]؟

قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يراد بالمحصنات أزواج رسول الله ـ ﷺ ـ وأن يخصصن بأن من قذفهنّ فهذا الوعيد لاحق به، وإذا أردن وعائشة كبراهن منزلة وقربة عند رسول الله ـ ﷺ ـ كانت المرادة أوّلاً.

والثاني: أنها أمّ المؤمنين فجمعت إرادة لها ولبناتها من نساء الأمّة الموصوفات

---

(١) قال محمود: «إن كانت عائشة هي المرادة، فلم جمع؟ قلت: المراد إما أزواج النبي ﷺ حتى يكون هذا الوعيد لاحقاً بقاذفهن، وإما عائشة وجمعت إرادة لها ولبناتها، كما قال: «قدني من نصر الخبيبين قدي» يعني عبد الله بن الزبير وأشياعه وكان يكنى أبا خبيب» قال أحمد: والأظهر أن المراد عموم المحصنات والمقصود بذكرهن على العموم وعيد من وقع في عائشة على أبلغ الوجوه، لأنه إذا كان هذا وعيد قاذف آحاد المؤمنات، فما الظن بوعيد من قذف سيدتهن وزوج سيد البشر ﷺ، على أن تعميم الوعيد أبلغ وأقطع من تخصيصه وهذا معنى قول زليخا (ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم) فعممت وأرادت يوسف، تهويلاً عليه وإرجافاً، والمعصوم من عصمه الله تعالى.

بالإحصان والغفلة والإيمان؛ كما قال [من الرجز]:

قَدْنِيَ مِنْ نَصْرِ الْخُبَيْبَيْنِ قَدِي[1]

أراد عبد الله بن الزبير وأشياعه، وكان أعداؤه يكنونه بخبيب ابنه، وكان مضعوفاً[2]، وكنيته المشهورة: أبو بكر، إلا أن هذا في الاسم وذاك في الصفة.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾؟

قلت: معناه: ذو الحق البين، أي: العادل الظاهر العدل، الذي لا ظلم في حكمه، والمحق الذي لا يوصف بباطل، ومن هذه صفته لم تسقط عنده إساءة مسيء ولا إحسان محسن، فحق مثله أن يتقى ويجتنب محارمه.

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

أي: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾ من القول تقال أو تعد، ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾: من الرجال والنساء،

---

(١) قدني من نصر الخبيبين قَدِي — ليس الإمام بالشحيح الملحد
ولا يوتن بالحجاز مفرد — إن ير يوماً بالقضاء يصطد
أو ينحجر فالحجر شر محكد

لحميد الأرقط. وقيل: لأبي بحدلة يخاطب عبد الملك بن مروان. وقدني: بمعني حسبي. وكرر للتوكيد. والخبيبين يروى بصيغة التثنية، يعني عبد الله بن الزبير وابنه خبيب، وكانوا إذا ذموه كنوه بأبي خبيب بالتصغير. ويروى بصيغة الجمع، يعني: عبد الله وشيعته، كان ادعى الخلافة فقال الشاعر: لا يكون الإمام شحيحاً أي بخيلاً، ولا ملحداً أي محتكراً أو محارباً في الحرم. والإلحاد: الميل. والوتن بالسكون، والواتن بالمثناة، وبالمثلثة: الثابت الدائم، يوصف به الماء ونحوه. ويروى: بوبر، والوبر حيوان صغير ذليل لا ذنب له يحبس ويعلف، ومفرد: يروى بالفاء وبالقاف. وقرد الرجل: سكت من عي. وأقرد: سكن وتماوت. وأقردت الشيء: جمعته وصممته وهو منه. ويصطد: مبني للمجهول، وهو يناسب رواية وبر. والانجحار: دخول الجحر. والمحكد. الملجأ والمهرب. وحاشا لابن الزبير أن يكون ملحداً.

لحميد بن مالك الأرقط، خزانة الأدب ٥/٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٥، ٣٨٩، ٣٩١، ٣٩٢، والدرر ١/ ٢٠٧، وشرح شواهد المغني ١/ ٤٨٧، ولسان العرب (خبب)، والمقاصد النحوية ١/ ٣٥٧، والتنبيه والإيضاح ٢/ ٤٧، ٥٣، وتاج العروس (خبب)، (حكد)، ولحميد بن ثور في لسان العرب (لحد)، وليس في ديوانه، ولأبي بجدلة في شرح المفصل ٣/ ١٢٤، وبلا نسبة في لسان العرب (حكد)، والأشباه والنظائر ٤/٢٤١، وأوضح المسالك ١/ ١٢٠، وتخليص الشواهد ص ١٠٨، ورصف المباني ص ٣٦٢، وشرح ابن عقيل ص ٦٤، والكتاب ٢/ ٣٧١، ومغني اللبيب ١/ ١٧٠، ونوادر أبي زيد ص ٢٠٥، والتنبيه والإيضاح ٢/ ٤٦، وتهذيب اللغة ١٤/ ١٢٤.

(٢) قوله «وكان مضعوفاً» في الصحاح: أضعفت الشيء فهو مضعوف، على غير قياس. (ع)

﴿وَٱلْخَبِيثُونَ﴾: منهم يتعرضون، ﴿لِلْخَبِيثَٰتِ﴾: من القول؛ وكذلك الطيبات والطيبون، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: إشارة إلى الطيبين، وأنهم مبرءون مما يقول الخبيثون من خبيثات الكلم[1]، وهو كلام جار مجرى المثل لعائشة وما رميت به من قول لا يطابق حالها في النزاهة والطيب، ويجوز أن يكون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: إشارة إلى أهل البيت، وأنهم مبرءون مما يقول أهل الإفك، وأن يراد بالخبيثات والطيبات: النساء، أي: الخبائث يتزوّجن الخباث، والخباث الخبائث؛ وكذلك أهل الطيب، وذكر الرزق الكريم هاهنا مثله في قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣١]، وعن عائشة: لقد أعطيت تسعاً ما أعطيتهن امرأة[2]: لقد نزل جبريل ـ عليه السلام ـ بصورتي في راحته حين أمر رسول الله ـ ﷺ ـ أن يتزوّجني ولقد تزوجني بكراً وما تزوج بكراً غيري، ولقد توفي وإنّ رأسه لفي حجري، ولقد قبر في بيتي، ولقد حفته الملائكة في بيتي، وإنّ الوحي لينزل عليه في أهله فيتفرقون عنه، وإنه كان لينزل عليه وأنا معه في لحافه، وإني لابنة خليفته وصديقه، ولقد نزل عذري من السماء، ولقد خلقت طيبة عند طيب، ولقد وعدت مغفرة ورزقاً كريماً (١٠٢٤).

١٠٢٤ ـ رواه أبو يعلى في مسنده (٨/ ٩٠ ـ ٩١) رقم (٤٦٢٦)، والواحدي في الوسيط (٣/ ٣١٤ ـ ٣١٥) قريباً مما ذكره المصنف؛ قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٤٤): «رواه أبو يعلى وفي الصحيح وغيره بعضه وفي إسناد أبي يعلى من لم أعرفهم.
ورواه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٥٠) بلفظ قالت: «فضلت على نساء النبي ـ ﷺ ـ بعشر. قيل: ما هن يا أم المؤمنين فذكرت الحديث».
ورواه الطبراني (٢٣/ ٣١) رقم (٧٧) بلفظ «خلال فيّ سبع، لم يكن في أحد من النساء إلا ما آتى الله مريم بنت عمران... الحديث».
وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف لابن أبي شيبة في المصنف والمسند. =

---

(١) قال محمود: تحتمل الآية أمرين، أحدهما: أن يكون المراد الكلمات الخبيثة للخبيثين، والمراد: الإفك ومن أفاض فيه، وعكسه في الطيبات والطيبين. الثاني: أن يكون المراد بالخبيثات النساء وبالخبيثين الرجال» قال أحمد: إن كان الأمر على التأويل الثاني، فهذه الآية تفصيل لما أجمله قوله تعالى: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ﴾ وقد بينا أنها مشتملة على هذه الأقسام الأربعة تصريحاً وتضميناً، فجاءت هذه الآية مصرحة بالجميع. وقد اشتملت على فائدة أخرى وهي الاستشهاد على براءة أم المؤمنين بأنها زوجة أطيب الطيبين، فلا بد وأن تكون طاهرة طيبة مبرأة مما أفكت به، وهذا التأويل الثاني هو الظاهر، فإن بعد الآية ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وبهذا وعد أزواجه عليه السلام في قوله تعالى: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ والله أعلم.

(٢) عاد كلامه. قال: ونقل عن عائشة أنها قالت: لقد أعطيت تسعاً ما أعطيتهن امرأة، فذكرت منهن أنها خلقت طيبة عند طيب» قال أحمد: وهذا أيضاً يحقق ما ذكرته من أن المراد بالطيبات والطيبين: النساء والرجال، وأن المراد بذلك: إظهار براءة عائشة بأنها زوج أطيب الطيبين، فيلزم أن تكون طيبة، وفاء بقوله: ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ والله أعلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾: فيه وجهان:

أحدهما: أنه من الاستئناس الظاهر الذي هو خلاف الاستيحاش؛ لأن الذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا؟ فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه، فإذا أذن له استأنس، فالمعنى: حتى يؤذن لكم؛ كقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وهذا من باب الكناية والإرداف[(١)]؛ لأن هذا النوع من الاستئناس يردف الإذن، فوضع موضع الإذن.

والثاني أن يكون من الاستئناس الذي هو الاستعلام والاستكشاف: استفعال من أنس الشيء: إذا أبصره ظاهراً مكشوفا، والمعنى حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال، هل يراد دخولكم أم لا، ومنه قولهم: استأنس هل ترى أحداً، واستأنست فلم أر أحداً ٢/ ٤١ب، أي: تعرفت واستعلمت؛ ومنه بيت النابغة [من البسيط]:

. . . . عَلَى مُسْتَأْنِسٍ وَحِدِ[(٢)]

= قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٤٤): «رواه الطبراني ورجال أحد أسانيد الطبراني رجال الصحيح».

(١) قال محمود: «فيه وجهان، أحدهما: أنه من الاستئناس الذي هو ضد الاستيحاش، أي: حتى يؤذن لكم فتستأنسوا، عبر بالشيء عما هو رادف له. الثاني: أن يكون من الاستعلام من آنس إذا أبصر. والمعنى: حتى تستكشفوا الحال، هل يراد دخولكم أم لا؟ وذكر أيضاً وجهاً بعيداً، وهو أن المراد حتى تعلموا هل فيها إنسان أم لا؟» قال أحمد: فيكون على هذا الأخير بنى من الإنس استفعل، والوجه الأول هو البين، وسر التجوز فيه والعدول إليه عن الحقيقة: ترغيب المخاطبين في الإتيان بالاستئذان بواسطة ذكر فإن له فائدة وثمرة تميل النفوس إليها وتنفر من ضدها وهو الاستيحاش الحاصل بتقدير عدم الاستئذان ففيه تنهيض للدواعي على سلوك هذا الأدب، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(٢) كأن رحلي وقد زال النهار بنا ... بذي الجليل على مستأنس وحد
للنابغة، يصف جمله بأنه كحمار الوحش المسرع خوفاً مما رآه. وقال الأصمعي: زال النهار: انتصف، ولعله لزوال الشمس فيه عن وسط السماء. ويجوز أن المعنى: مضى ولم يبق منه إلا قليل، كما هو متبادر إسناد الزوال إلى النهار. وبنا: أي علينا. ويجوز أن الباء للملابسة. والجليل: شجر له خوص كخوص النخل. وذو الجليل: موضعه. والمستأنس: الذي يرفع رأسه، هل يرى شخصاً؟ وقيل: الذي يخاف الأنيس. واستأنست بالشيء: سكن إليه قلبي. واستأنست: استعلمت واستبصرت وخفت من الأنيس. والوحد. المنفرد: ووحد كظرف، فهو وحيد، ووحد كسبب، ووحد كحذر: انفرد، أي كان الرجل فوق ذلك الحمار لا فوق الجمل، لسرعة سيره كالحمار. =

ويجوز أن يكون من الإنس، وهو أن يتعرف هل ثمة إنسان، وعن أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الاسْتِئْنَاسُ؟ قَالَ: يَتَكَلَّمُ الرَّجُلُ بِالتَّسْبِيحَةِ وَالتَّكْبِيرَةِ وَالتَّحْمِيدَةِ وَيَتَنَحْنَحُ: يُؤذِنُ أَهْلَ الْبَيْتِ، وَالتَّسْلِيمُ: أَنْ يَقُولَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ، أَأَدْخُلُ؟ ثَلاثَ مَرَّاتٍ؛ فَإِنْ أُذِنَ لَهُ وَإِلا رَجَعَ» (١٠٢٥)، وعن أبي موسى الأشعري أنه أتى باب عمر ـ رضي الله عنهما ـ فقال: السَّلامُ عَلَيْكُمْ، أَأَدْخُلُ؟ قَالَهَا ثَلاثاً ثُمَّ رَجَعَ وَقَالَ: سَمِعْتُ ـ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: الاسْتِئْذَانُ ثَلاَثاً (١٠٢٦) وَٱسْتَأْذَنَ رَجُلٌ عَلَى ـ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَقَالَ: أَأَلِجُ؟ فَقَالَ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لامْرَأَةٍ يُقَالُ لَهَا: رَوْضَةُ: قُومِي إِلَىٰ هٰذَا فَعَلِّمِيهِ؛ فَإِنَّهُ لاَ يُحْسِنُ أَنْ يَسْتَأْذِنَ، قُولِي لَهُ: يَقُولُ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ؟ أَأَدْخُلُ؟ فَسَمِعَهَا الرَّجُلُ فَقَالَهَا، فَقَالَ: ادْخُلْ» (١٠٢٧)، وكان أهل الجاهلية يقول الرجل منهم إذا دخل بيتاً غير بيته: حييتم صباحاً، وحييتم مساءً، ثم

١٠٢٥ ـ رواه ابن ماجه (٢/ ١٢٢١) كتاب الأدب، باب الاستئذان الحديث (٣٧٠٧)، قال البوصيري في المصباح (٣/ ١٧١): «هذا إسناد ضعيف؛ أبو سورة هذا قال فيه البخاري: منكر الحديث، يروي عن أبي أيوب مناكير لا يتابع عليه، ورواه أبو بكر بن أبي شيبة في مسنده بإسناده سواء» اهـ.
وعزاه السيوطي في الدر (٥/ ٦٩): لابن أبي شيبة، والحكيم، الترمذي، وابن أبي حاتم وابن مردويه.
وانظر كنز العمال رقم (٢٥٢٢٢ ـ ٢٥٢٢٣).

١٠٢٦ ـ أخرجه البخاري (١٢/ ٢٩٠) كتاب الاستئذان، باب التسليم والاستئذان ثلاثاً الحديث (٦٢٤٥)، ومسلم (٧/ ٣٨٤ ـ نووي) كتاب الآداب، باب الاستئذان الحديث (٣٣/ ٢١٥٣)، وأبو داود (٢/ ٧٦٦) كتاب الأدب، باب كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان الحديث (٥١٨٠)، والترمذي (٥/ ٥٣) كتاب الاستئذان، باب ما جاء في الاستئذان ثلاثة الحديث (٢٦٩٠)، وابن ماجه (٢/ ١٢٢١) كتاب الأدب، باب الاستئذان الحديث (٣٧٠٦) وأحمد (٣/ ٦ ـ ١٩) و(٤/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤ ـ ٤٠٣ ـ ٤١٠ ـ ٤١٨) ومالك في الموطأ (٢/ ٩٦٣) في الاستئذان، باب الاستئذان، والدارمي (٢/ ٢٧٤) كتاب الاستئذان، باب الاستئذان، وابن حبان (١٣/ ١٢٧) رقم (٥٨١٠)، والطيالسي رقم (٢١٦٤)، وعبد الرزاق في المصنف (١٠/ ٣٨١) رقم (١٩٤٢٣).

١٠٢٧ ـ رواه أبو داود (٢/ ٧٦٦) كتاب الأدب، باب كيف الاستئذان الحديث (٥١٧٧)، والنسائي (٦/ ٨٧) عمل اليوم والليلة، باب كيف يستأذن الحديث (١٠١٤٨) من حديث ربعي قال: «ثنا رجل من بني عامر أنه استأذن على النبي ـ ﷺ ـ وهو في بيت؛ فقال: أألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: «اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان، فقل له: قل السلام عليكم أأدخل؟ فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم أأدخل؟ فأذن له النبي ـ ﷺ ـ فدخل.
قال الحافظ: أخرجه ابن أبي شيبة من رواية سفيان السمان: سمعت سعيد بن جبير، ولم يسم روضة، قال فيه: «وقال لخادمه». انتهى.

= ينظر: ديوانه ص ١٧، والأزهيّة ص ٢٨٥، وخزانة الأدب ٣/ ١٨٧، والخصائص ٣/ ٢٦٢، وشرح المفصّل ٦/ ١٦، ولسان العرب (وحد)، (نهر)، (أنس)، (زول).

يدخل، فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف واحد، فصدّ الله عن ذلك، وعلم الأحسن والأجمل، وكم من باب من أبواب الدين هو عند الناس كالشريعة المنسوخة قد تركوا العمل به، وباب الاستئذان من ذلك: بينا أنت في بيتك، إذا رعف عليك الباب[1] بواحد، من غير استئذان ولا تحية من تحايى إسلام ولا جاهلية، وهو ممن سمع ما أنزل الله فيه، وما قال رسول الله ـ ﷺ ـ ولكن أين الأذن الواعية؟ وفي قراءة عبد الله: «حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا»، وعن ابن عباس وسعيد بن جبير: إنما هو: «حتى تستأذنوا»، فأخطأ الكاتب، ولا يعوّل على هذه الرواية، وفي قراءة أبي: «حتى تستأذنوا»، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: الاستئذان والتسليم، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: من تحية الجاهلية والدمور ـ وهو الدخول بغير إذن ـ واشتقاقه من الدمار وهو الهلاك، كأن صاحبه دامر لعظم ما ارتكب، وفي الحديث: «مَنْ سَبَقَتْ عَيْنُهُ اسْتِئْذَانَهُ، فَقَدْ دَمَّرَ» (١٠٢٨)، وروي أنّ رجلاً قال للنبي ـ ﷺ ـ: أَأَسْتَأْذِنُ عَلَىٰ أُمّي؟ قال: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّهَا لَيْسَ لَهَا خَادِمٌ غَيْرِي، أَأَسْتَأْذِنُ عَلَيْهَا كُلَّمَا دَخَلْتُ؟ قَالَ: أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً؟ قَالَ الرَّجُلُ: لا، قَالَ: فَاسْتَأْذِنْ» (١٠٢٩)، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أنزل عليكم، أو قيل: لكم هذه إرادة أن تذكروا

١٠٢٨ ـ رواه الطبراني في الكبير (٨/ ١٢٤) رقم (٧٥٠٥) عن أبي أمامة عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «من كان يشهد أني رسول الله فأم قوماً فلا يختص نفسه بالدعاء، ومن كان يشهد أني رسول الله فلا يدخل على أهل بيت حتى يستأنس ويسلم، فإذا نظر في قعر البيت فقد دخل».
ورواه أحمد (٥/ ٢٥٠ ـ ٢٦٠ ـ ٢٦١) قال الهيثمي في المجمع (٨/ ٤٦): «رواه الطبراني وأحمد... وفي إسناد الأول السفرين نسير وثقه ابن حبان وضعفه غيره، وعبد الله بن رجاء الشيباني لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات» اهـ.
وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٤٢٨) لأبي القاسم الأصبهاني في الترغيب والترهيب، ولإبراهيم الحربي في غريب الحديث ولأبي عبيد في غريبه؛ كلهم من حديث أبي هريرة.
أخرجه الطبراني من طريق أبي السفر عن يزيد بن شريح عن أبي أمامة بلفظ: «من أدخل عينه في بيت من غير إذن أهله فقد دمره ولإبراهيم الحربي في الغريب من حديث ثور بن يزيد عن يزيد بن شريح عن أبي حي المؤذن عن أبي هريرة بلفظ: «لا يحل لمسلم أن ينظر في بيت حتى يستأذن، فإن فعل فقد دمر قال أبو عبيدة في غريب الحديث: حدثنا هشيم عن منصور بن الحسن بلفظه مرسلاً قال: قال الكسائي: «دمر» بالتخفيف أي دخل بغير إذن. انتهى.
١٠٢٩ ـ أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٩٦٣) كتاب الاستئذان باب الاستئذان الحديث (١)، وأبو داود في المراسيل رقم (٤٨٨) باب ما جاء في الاستئذان من مراسيل عطاء بن يسار، وابن جرير في التفسير (٩/ ٢٩٨) رقم (٢٥٩٢٦) مرسلاً أيضاً وعزاه الزيلعي لابن أبي شيبة في المصنف.

---

(١) قوله: «إذا رعف عليك الباب» في الصحاح: رعف الرجل. إذا خرج الدم من أنفه. ورعف الفرس، إذا سبق وتقدم، فكان ما هاهنا مجاز على وجه التشبيه. (ع)

وتتعظوا وتعملوا بما أمرتم به في باب الاستئذان.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

يحتمل: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾: من الآذنين، ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾: واصبروا حتى تجدوا من يأذن لكم، ويحتمل: فإن لم تجدوا فيها أحدًا من أهلها ولكم فيها حاجة، فلا تدخلوها إلا بإذن أهلها؛ وذلك أنّ الاستئذان لم يشرع؛ لئلا يطلع الدامر على عورة، ولا تسبق عينه إلى ما لا يحل النظر إليه فقط؛ وإنما شرع لئلا يوقف على الأحوال التي يطويها الناس في العادة عن غيرهم ويتحفظون من اطلاع أحد عليها، ولأنه تصرف في ملك غيرك فلا بدّ من أن يكون برضاه، وإلا أشبه الغصب والتغلب، ﴿فَارْجِعُوا﴾ أي: لا تلحوا في إطلاق الإذن، ولا تلجوا في تسهيل الحجاب، ولا تقفوا على الأبواب منتظرين؛ لأن هذا مما يجلب الكراهة ويقدح في قلوب الناس خصوصاً إذا كانوا ذوي مروءة ومرتاضين بالآداب الحسنة، وإذا نهى عن ذلك لأدائه إلى الكراهة.، وجب الانتهاء عن كل ما يؤدي إليها: من قرع الباب بعنف، والتصييح بصاحب الدار، وغير ذلك مما يدخل في عادات من لم يتهذب من أكثر الناس، وعن أبي عبيد: .ما قرعت باباً على عالم قط، وكفى بقصة بني أسد زاجرة وما نزل فيها من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الحجرات: ٤].

فإن قلت: هل يصح أن يكون المعنى: وإن لم يؤذن لكم وأمرتم بالرجوع فامتثلوا، ولا تدخلوا مع كراهتهم؟

قلت: بعد أن جزم النهي عن الدخول مع فقد الإذن وحده من أهل الدار حاضرين وغائبين، لم تبق شبهة في كونه منهيًا عنه مع انضمام الأمر بالرجوع إلى فقد الإذن.

فإن قلت: فإذا عرض أمر في دار: من حريق، أو هجوم سارق، أو ظهور منكر يجب إنكاره؟

قلت: ذلك مستثنى بالدليل، أي: الرجوع أطيب لكم وأطهر؛ لما فيه من سلامة

= قال الحافظ ابن حجر: أخرجه أبو داود في المراسيل من حديث عطاء بن يسار: «أن رجلاً سأل» فذكره مرسلاً، وهو في الموطأ عن صفوان بن سليم عن عطاء. وأورده الطبري من طريق زياد بن سعد عن عطاء مرسلاً أيضاً وقال ابن أبي شيبة في النكاح: حدثنا ابن عيينة عن زيد بن أسلم فذكره مرسلاً. انتهى.

الصدور والبعد من الريبة، أو أنفع وأنمى خيراً، ثم أوعد المخاطبين بذلك بأنه عالم بما يأتون وما يذرون مما خوطبوا به فموف جزاءه عليه.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

استثنى من البيوت التي يجب الاستئذان على داخلها: ما ليس بمسكون منها؛ وذلك نحو الفنادق، وهي الخانات والربط وحوانيت البياعين، والمتاع: المنفعة، كالاستكنان من الحرّ والبرد، وإيواء الرحال والسلع والشراء والبيع، ويروى أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ قال: يا رسول الله، إنّ الله ـ تعالى ـ قد أنزل عليك آية في الاستئذان، وإنا نختلف في تجاراتنا فننزل هذه الخانات أفلا ندخلها إلا بإذن (١٠٣٠)؟ فنزلت، وقيل: الخربات يتبرز فيها، والمتاع: التبرز، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾: وعيد للذين يدخلون الخربات والدور الخالية من أهل الريبة.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾

من للتبعيض، والمراد غضّ البصر عما يحرم، والاقتصار به على ما يحلّ، وجوّز الأخفش أن تكون مزيدة، وأباه سيبويه.

فإن قلت: كيف دخلت في غضّ البصر دون حفظ الفروج؟

قلت: دلالة على أن أمر النظر أوسع؛ ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهنّ، وصدورهنّ، وثديهنّ، وأعضادهنّ، وأسوقهنّ، وأقدامهنّ، وكذلك الجواري المستعرضات، والأجنبية ينظر إلى وجهها وكفيها وقدميها في إحدى الروايتين، وأما أمر الفرج ٢/ ٤٢أ فمضيق، وكفاك فرقاً أن أبيح النظر إلا ما استثني منه، وحظر الجماع إلا ما استثني منه، ويجوز أن يراد ـ مع حفظها عن الإفضاء إلى ما لا يحل ـ حفظها عن الإبداء، وعن ابن زيد: كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا، إلا هذا فإنه أراد به الاستتار، ثم أخبر أنه: ﴿خَبِيرٌۢ﴾ بأفعالهم وأحوالهم، وكيف يجيلون أبصارهم؟ وكيف يصنعون بسائر حواسهم وجوارحهم؟ فعليهم ـ إذا عرفوا ذلك ـ أن يكونوا منه على تقوى وحذر في كل حركة وسكون.

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ

١٠٣٠ ـ قال الحافظ: لم أجده. وبيض له الزيلعي.

مِنْهَاۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾

النساء مأمورات ـ أيضاً ـ بغض الأبصار، ولا يحل للمرأة أن تنظر من الأجنبي إلى ما تحت سرته إلى ركبته، وإن اشتهت غضت بصرها رأسا، ولا تنظر من المرأة إلا إلى مثل ذلك، وغضها بصرها من الأجانب أصلا أولى بها وأحسن، ومنه حديث ابن أم مكتوم عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كُنْتُ عِنْدَ ـ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَعِنْدَهُ مَيْمُونَةُ، فَأَقْبَلَ ٱبْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ ـ وَذٰلِكَ بَعْدَ أَنْ أُمِرْنَا بِالْحِجَابِ ـ فَدَخَلَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: ٱحْتَجِبَا، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَيْسَ أَعْمَىٰ لاَ يُبْصِرُ؟ قَالَ: أَفَعَمْيَاوَانِ أَنْتُمَا؟ أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ» (١٠٣١).

فإن قلت: لم قدّم غض الأبصار على حفظ الفروج؟

قلت: لأنّ النظر بريد الزنى ورائد الفجور، والبلوى فيه أشدّ وأكثر، ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه، الزينة: ما تزينت به المرأة من حليّ أو كحل أو خضاب، فما كان ظاهرًا منها كالخاتم والفتخة[1] والكحل والخضاب، فلا بأس بإبدائه للأجانب، وما خفي

١٠٣١ ـ أخرجه أبو داود (٢/ ٤٦٢) كتاب اللباس، باب في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾ الحديث (٤١١٢)، والترمذي (٥/ ١٠٢) كتاب الأدب، باب ما جاء في احتجاب النساء من الرجال الحديث (٢٧٧٨)، وأحمد (٦/ ٢٩٦)، وابن حبان في صحيحه (١٢/ ٣٨٧) رقم (٥٥٧٥)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٩٣) في عشرة النساء، باب نظر النساء إلى الأعمى الحديث (٩٢٤١)، (٩٢٤٢)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ٩١ ـ ٩٢) كتاب النكاح باب مساواة المرأة الرجل في حكم الحجاب والنظر إلى الأجانب.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه أبو داود، والترمذي، والنسائي وابن حبان، وإسحاق، وابن أبي شيبة، وأبو يعلى، والطبراني كلهم من رواية بنهان كاتب أم سلمة عنها. قال النسائي: لا نعلم رواه عن بنهان إلا الزهري. وقال إسحاق في مسنده: أخبرنا يحيى بن آدم حدثنا مغول عن يونس عن الزهري عن بنهان عن أم سلمة قالت: «استأذن ابن أم مكتوم وأنا وزينب عنده ـ الحديث. ومندل ضعيف خالف في ذكر زينب بدل ميمونة. انتهى.

---

(١) قوله: والفتخة. . . إلخ» في الصحاح: الفتخة ـ بالتحريك ـ حلقة من فضة لا فص فيها، فإذا كان فيها فص فهو الخاتم، وربما جعلتها المرأة في أصابع رجليها. وفيه «الإكليل» شبه عصابة تزين بالجوهر. ويسمى التاج: إكليلاً. (ع)

منها كالسوار والخلخال والدملج والقلادة والإكليل والوشاح والقُرط، فلا تبديه إلا لهؤلاء المذكورين، وذكر الزينة دون مواقعها: للمبالغة في الأمر بالتصوّن والتستر؛ لأنّ هذه الزين واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء، وهي الذراع والساق والعضد والعنق والرأس والصدر والأذن، فنهى عن إبداء الزين نفسها، ليعلم أنّ النظر إذا لم يحل إليها لملابستها تلك المواقع ـ بدليل أن النظر إليها غير ملابسة لها لا مقال في حله ـ كان النظر إلى المواقع أنفسها متمكنًا في الحظر، ثابت القدم في الحرمة، شاهداً على أن النساء حقهن أن يحتطن في سترها ويتقين الله في الكشف عنها[١].

فإن قلت: ما تقول في القراميل[٢]، هل يحل نظر هؤلاء إليها؟

قلت: نعم.

فإن قلت: أليس موقعها الظهر، ولا يحل لهم النظر إلى ظهرها وبطنها، وربما ورد الشعر فوقعت القراميل على ما يحاذي ما تحت السرة؟

قلت: الأمر كما قلت، ولكن أمر القراميل خلاف أمر سائر الحلي؛ لأنه لا يقع إلا فوق اللباس، ويجوز النظر إلى الثوب الواقع على الظهر والبطن للأجانب فضلاً عن هؤلاء، إلا إذا كان يصف؛ لرقته فلا يحل النظر إليه، فلا يحل النظر إلى القراميل واقعة عليه.

فإن قلت: ما المراد بموقع الزينة؟ ذلك العضو كله، أم المقدار الذي تلابسه الزينة منه؟

قلت: الصحيح: أنه العضو كله كما فسرت مواقع الزينة الخفية؛ وكذلك مواقع الزينة الظاهرة: الوجه موقع الكحل في عينيه، والخضاب بالوسمة[٣] في حاجبيه وشاربيه، والغمرة في خديه، والكف والقدم موقعا الخاتم والفتخة والخضاب بالحناء.

فإن قلت: لم سومح مطلقاً في الزينة الظاهرة؟

قلت: لأن سترها فيه حرج، فإن المرأة لا تجد بدّاً من مزاولة الأشياء بيديها، ومن

---

(١) قال محمود: «المراد النهي عن إبداء مواضع الزينة، فليس النهي عن إظهار الزينة مقصوداً لعينه. ولكن جعل نفسها كناية عن إبداء مواقعها بطريق الأولى» قال أحمد: وقوله تعالى عقيب ذلك ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ محقق أن إبداء الزينة بعينه مقصوداً بالنهي، لأنه قد نهى عما هو ذريعة إليه خاصة، إذ الضرب بالأرجل لم يعلل النهي عنه إلا بعلم أن المرأة ذات زينة وإن لم تظهر، فضلاً عن مواضعها، والله أعلم.

(٢) قوله «القراميل» في الصحاح: القراميل، ما تشده المرأة في شعرها. (ع)

(٣) قوله «والخضاب بالوسمة» في الصحاح: الوسمة ـ بكسر السين ـ العظلم يختضب به، وتسكينها لغة، وفيه «العظلم» نبت يصبغ به. وفيه أيضاً «الغمرة» طلاء يتخذ من الورس. (ع)

الحاجة إلى كشف وجهها، خصوصاً في الشهادة والمحاكمة والنكاح، وتضطر إلى المشي في الطرقات وظهور قدميها، وخاصة الفقيرات منهنّ؛ وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ يعني إلا ما جرت العادة والجبلة على ظهوره والأصل فيه الظهور؛ وإنما سومح في الزينة الخفيفة، أولئك المذكورون لما كانوا مختصين به من الحاجة المضطرة إلى مداخلتهم ومخالطتهم، ولقلة توقع الفتنة من جهاتهم، ولما في الطباع من النفرة عن مماسة القرائب، وتحتاج المرأة إلى صحبتهم في الأسفار للنزول والركوب وغير ذلك، كانت جيوبهن واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليها، وكنّ يسدلن الخمر من ورائهنّ فتبقى مكشوفة، فأمرن بأن يسدلنها من قدامهنّ حتى يغطينها، ويجوز أن يراد بالجيوب: الصدور؛ تسمية بما يليها ويلابسها؛ ومنه قولهم: ناصح الجيب، وقولك: ضربت بخمارها على جيبها؛ كقولك: ضربت بيدي على الحائط: إذا وضعتها عليها، وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: ما رأيت نساءا خيراً من نساء الأنصار؛ لما نزلت هذه الآية قامت كل واحدة منهن إلى مرطها[1] المرحل فصدعت منه صدعة، فاختمرن، فأصبحن كأن على رءوسهن الغربان (١٠٣٢)، وقرئ: «جيوبهن»: بكسر الجيم لأجل الياء؛ وكذلك: ﴿بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ [النور: ٢٧]، قيل في نسائهن: هنّ المؤمنات؛ لأنه ليس للمؤمنة أن تتجرد بين يدي مشركة أو كتابية: عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ والظاهر أنه عنى بنسائهن وما ملكت أيمانهن: من في صحبتهن وخدمتهن من الحرائر والإماء والنساء، كلهنّ سواء في حلّ نظر بعضهن إلى بعض، وقيل: ما ملكت أيمانهن هم الذكور والإناث جميعاً، وعن

١٠٣٢ ـ عزاه الزيلعي (٢/ ٤٣٢) لابن أبي حاتم وابن مردويه من حديث عائشة.
رواه أبو داود (٢/ ٤٥٩) كتاب اللباس، باب في قول الله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ الحديث (٤١٠٢)، ورواه البخاري (٩/ ٤٣٣) كتاب التفسير، باب «وليضربن بخمرهن على جيوبهن» تعليقاً بلفظ.
وقال أحمد بن شبيب: حدثنا أبي عن يونس قال ابن شهاب عن عروة عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطهن فاختمرن به اهـ.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه ابن أبي حاتم من طريق مسلم بن خالد عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن صفية عنها وأتم منه. وأخرجه ابن مردويه من طريق داود بن عبد الرحمن، ومن طريق روح بن القاسم. كلاهما عن ابن خثيم. وأخرجه أبو داود مختصراً من وجه آخر عن قرة عن الزهري عن عروة عن عائشة. ولفظة البخاري قال: قال أحمد بن شبيب: حدثنا أبي عن يونس عن الزهري به: قلت ووصله ابن مردويه من طريق أحمد بن شبيب. انتهى.

---

(١) قوله «قامت كل واحدة منهن إلى مرطها» في الصحاح «المرط» كساء من صوف أو خز كان يؤتزر به. وفيه أيضاً «مرط مرحل» إزار خز فيه علم. (ع)

عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها أباحت النظر إليها لعبدها، وقالت لذكوان: إنك إذا وضعتني في القبر وخرجت فأنت حر (١٠٣٣)، وعن سعيد بن المسيب: مثله، ثم رجع وقال: لا تغرنكم آية النور؛ فإن المراد بها الإماء (١٠٣٤)، وهذا هو الصحيح؛ لأن عبد المرأة بمنزلة الأجنبي منها، خصياً كان أو فحلاً، وعن ميسون بنت بحدل الكلابية ٢/ ٤٢ب: أن معاوية دخل عليها ومعه خصي، فتقنعت منه، فقال: هو خصيّ، فقالت: يا معاوية؛ أترى أن المثلة به تحلل ما حرّم الله (١٠٣٥)؛ وعند أبي حنيفة: لا يحل استخدام الخصيان وإمساكهم وبيعهم وشراؤهم، ولم ينقل عن أحد من السلف إمساكهم.

فإن قلت: روي أنه أهدي لرسول الله ـ ﷺ ـ خصيّ فقبله.

قلت: لا يقبل فيما تعم به البلوى إلا حديث مكشوف، فإن صح فلعله قبله ليعتقه (١٠٣٦)، أو لسبب من الأسباب، ﴿ٱلْإِرْبَةِ﴾: الحاجة، قيل: هم الذين يتبعونكم

١٠٣٣ ـ هذا الأثر ملفق من أثرين:

الأول: أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ٤١٣) رقم (٦١٣٦) عن ابن جريج قال: أخبرني ابن أبي مليكة عن عائشة قالت: إذا غيبني أبو غمرو ودلاني في حفرتي فهو حر.

ورواه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٦١) في ترجمة عائشة قال: أخبرنا أنس بن عياض عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عائشة قالت: إذا كفنت وحنطت ثم دلاني ذكوان في حفرتي وسواها علي فهو حر» اهـ.

الثاني: رواه البيهقي في السنن (١٠/ ٣٢٤) عن سليمان بن يسار قال: استأذنت على عائشة فقالت: من هذا؟ قلت: سليمان قالت: كم بقي عليك من مكاتبتك؟ قلت: عشرة أواق قالت: ادخل فإنك عبد ما بقي عليك درهم.

قال الحافظ ابن حجر: هذا ملفق من أثرين، الأول: أخرجه البيهقي من طريق عمرو بن ميمون عن سليمان بن يسار قال استأذنت على عائشة فقالت: سليمان؟ ادخل، فإنك عبد ما بقي عليك درهم، وعلقه البخاري عن سليمان، والثاني: أخرجه ابن سعد من رواية محمد بن علي بن الحسين: «أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: إذا كفنت ودفنت وحنطت ودلاني ذكوان في حفرتي فهو حر»، وأخرجه عبد الرزاق عن ابن جريج. أخبرني ابن أبي مليكة أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «إذا غيبني أبو عمرو ودلاني في حفرتي فهو حر». انتهى.

١٠٣٤ ـ قوله: «وعن سعيد: مثل ما قالت عائشة».

قال الحافظ: لم أره وبيض له الزيلعي في تخريج الكشاف أما قصة رجوعه فقال الحافظ: أخرجه ابن أبي شيبة من رواية طارق عن سعيد بن المسيب: «لا تغرنكم الآية: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ إنما عني الإماء دون العبيد. انتهى.

١٠٣٥ ـ قال الحافظ: لم أجده قلت: ذكره المسعودي في مروج الذهب بغير إسناده اهـ.

وبيض له الزيلعي.

١٠٣٦ ـ روى ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٧٠ ـ ١٧١) في ترجمة مارية أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثني يعقوب بن محمد بن أبي صعصعة عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة قال: بعث =

ليصيبوا من فضل طعامكم، ولا حاجة لهم إلى النساء؛ لأنهم بله لا يعرفون شيئاً من أمرهن، أو شيوخ صلحاء إذا كانوا معهن غضوا أبصارهم، أو بهم عنانة، وقرئ: (غير): بالنصب على الاستثناء أو الحال، والجرّ على الوصفية، وضع الواحد موضع الجمع؛ لأنه يفيد الجنس، ويبين ما بعده أن المراد به الجمع؛ ونحوه: ﴿نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥]، ﴿لَمْ يَظْهَرُوا﴾: إما من ظهر على الشيء: إذا اطلع عليه، أي: لا يعرفون ما العورة ولا يميزون بينها وبين غيرها، وإما من ظهر على فلان، إذا قوي عليه، وظهر على القرآن: أخذه وأطاقه، أي: لم يبلغوا أوان القدرة على الوطء، وقرئ: «عورات»، وهي لغة هذيل.

فإن قلت: لم لم يذكر الله الأعمام والأخوال؟

قلت: سئل الشعبي عن ذلك؟ فقال: لئلا يصفها العم عند ابنه، والخال كذلك، ومعناه: أن سائر القرابات يشترك الأب والابن في المحرمية[1] إلا العم والخال وأبناءهما، فإذا رآها الأب فربما وصفها لابنه وليس بمحرم، فيداني تصوّره لها بالوصف نظره إليها؛ وهذا ـ أيضاً ـ من الدلالات البليغة على وجوب الاحتياط عليهن في التستر، كانت المرأة تضرب الأرض برجلها ليتقعقع خلخالها، فيعلم أنها ذات خلخال، وقيل: كانت تضرب بإحدى رجليها الأخرى، ليعلم أنها ذات خلخالين، وإذا نهين عن إظهار صوت الحلي بعدما نهين عن إظهار الحلي، علم بذلك أن النهي عن إظهار مواضع الحلي، أبلغ وأبلغ، أوامر الله ونواهيه في كل باب لا يكاد العبد الضعيف يقدر على مراعاتها، وإن ضبط نفسه واجتهد، ولا يخلو من تقصير يقع منه؛ فلذلك وصى المؤمنين جميعاً بالتوبة والاستغفار، وبتأميل الفلاح إذا تابوا واستغفروا، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: توبوا مما كنتم

= المقوقس صاحب الإسكندرية إلى رسول الله ـ ﷺ ـ في سنة سبع من الهجرة بمارية وبأختها سيرين وألف مثقال ذهباً وعشرين ثوباً ليناً وبغلته الدلدل وحماره عفير، ويقال: يعفور ومعهم خصي يقال له: مابور شيخ كبير كان أخا مارية.

قال الحافظ: أخرجه ابن سعد أخبرنا محمد بن عمر. حدثنا يعقوب بن أبي صعصعة عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة قال: «أهدى المقوقس صاحب الإسكندرية إلى النبي ـ ﷺ ـ سنة سبع من الهجرة. مارية وأختها سيرين، وألف مثقال ذهب وعشرين ثوباً وبغلة. وحماره عفيراً وخصياً يقال له: ما بود. فعرض حاطب على مارية الإسلام فأسلمت هي وأختها، ثم أسلم الخصي بعد، وقع ذكر الخصي هذا في عدة أحاديث منها حديث علي ـ رضي الله عنه ـ. وقوله: «هذا ضعيف، ولا يقبل فيما تعم به البلوى، إلا حديث مكشوف إن صح. ولعله قبله ليعتقه» اهـ. وليس هذا فيما تعم به البلوى في شيء. انتهى.

---

(١) قوله «يشترك الأب والابن في المحرمية» الرابط محذوف، أي: يشترك بها الأب... إلخ. (ع)

تفعلونه في الجاهلية؛ لعلكم تسعدون في الدنيا والآخرة.

فإن قلت: قد صحت التوبة بالإسلام، والإسلام يجب ما قبله، فما معنى هذه التوبة؟

قلت: أراد بها ما يقوله العلماء: إن من أذنب ذنباً ثم تاب عنه، يلزمه كلما تذكره أن يجدد عنه التوبة؛ لأنه يلزمه أن يستمرّ على ندمه وعزمه إلى أن يلقى ربه، وقرئ: «أيهُ المؤمنون»: بضم الهاء، ووجهه أنها كانت مفتوحة؛ لوقوعها قبل الألف، لما سقطت الألف لالتقاء الساكنين، أتبعت حركتها حركة ما قبلها.

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾

﴿ٱلْأَيَـٰمَىٰ﴾ واليتامى: أصلهما أيائم ويتائم، فقلبا، والأيم: للرجل والمرأة، وقد آم وآمت وتأيما: إذا لم يتزوجا بكرين كانا أو ثيبين؛ قال [من الطويل]:

فَإِنْ تَنْكِحِي أَنْكِحْ وَإِنْ تَتَأَيَّمِي ... وَإِنْ كُنْتُ أَفْتَى مِنْكُمُ أَتَأَيَّمُ[1]

وعن رسول الله ـ ﷺ ـ: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَيْمَةِ وَالْغَيْمَةِ وَالأَيْمَةِ وَالْكَرْمِ وَالْقَرْمِ»[2] (١٠٣٧)، والمراد: أنكحوا من تأيم منكم من الأحرار والحرائر، ومن كان فيه

١٠٣٧ ـ قال الحافظ: لم أجده، وبيض له الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف، والحديث ذكره ابن قتيبة في غريب الحديث (١/٣٣٨)، قال: يرويه سليمان بن الربيع الكوفي عن همام عن أبي العوام =

---

(١) آم الرجل ـ بالمد ـ والمرأة. وتأيما: إذا لم يتزوجا بكرين أو ثيبين، يقول لمحبوبته؛ إن تتزوجي أتزوج وإن لم تتزوجي لم أتزوج. وجملة «وإن كنت أفتى منكم» اعتراضية. والأفتى الأكثر فتية وشباباً. وعبر بضمير جمع الذكور للتعظيم، ورفع المضارع في جواب الشرط كما هنا قليل، ولعله ارتكبه لأجل القافية.

ينظر: لسان العرب (أيم)، مجاز القرآن (٢/٦٥)، الدر المصون (٥/٢١٨).

(٢) قوله «من العيمة والغيمة والأيمة والكزم والقزم» في الصحاح «العيمة» شهوة اللبن. وفيه: «الغيم» العطش وحرف الجوف اهـ. وهو يفيد أن «الغيمة» المرة من ذلك. وفيه «الأيامى» الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء. وآمت المرأة من زوجها تئيم أيمة. وفيه: كزم الشيء بمقدم فيه، أي: كسره واستخرج ما فيه. وفيه: قرم الصبي والبهم قرما، وهو أكل ضعيف في أول ما يأكل. والقرم ـ بالتحريك ـ: شدة شهوة اللحم اهـ. ويروى في الحديث «القذم» بالذال بدل الراء. وفي الصحاح: القذم على وزن الهجف: الشديد. وفيه أيضاً: الهجف من النعام ومن الناس. الجافي الثقيل. قال الكميت [من الطويل]:

هو الأضبط الهواس فينا شجاعة ... وفيمن يعاديه الهجف المثقل

ولا يستقيم الوزن إلا بتشديد الفاء. وفيه «الهواس»: الأسد. (ع)

صلاح من غلمانكم وجواريكم، وقرئ: «من عبيدكم»، وهذا الأمر للندب لما علم من أنّ النكاح أمر مندوب إليه[1]، وقد يكون للوجوب في حق الأولياء عند طلب المرأة ذلك، وعند أصحاب الظواهر: النكاح واجب، ومما يدل على كونه مندوبًا إليه قوله ـ ﷺ ـ: «مَنْ أَحَبَّ فِطْرَتِي فَلْيَسْتَنَّ بِسُنَّتِي، وَهِيَ النِّكَاحُ» (١٠٣٨)، وعنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَنْ كَانَ لَهُ مَا يَتَزَوَّجُ بِهِ فَلَمْ يَتَزَوَّجْ، فَلَيْسَ مِنَّا» (١٠٣٩)، وعنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ:

= عمران بن داور القطان عن قتادة عن الحسن عن عمران بن حصين عن النبي ـ ﷺ ـ . . . فذكره.

١٠٣٨ ـ رواه عبد الرزاق (٦/١٦٩) رقم (١٠٣٧٨)، وأبو يعلى في مسنده (٥/١٣٣) رقم (٢٧٤٨)، والبيهقي في الكبرى (٧/٧٨) ثلاثتهم عن عبيد بن سعد عن النبي ـ ﷺ ـ مرسلاً به.
ورواه البيهقي (٧/٧٨) كتاب النكاح، باب الرغبة في النكاح قال: وروي ذلك عن أبي حرة عن الحسن عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ فذكره معلقاً.
وقد رواه ابن عدي في الكامل (٧/٢٥٤٩)، قال الهيثمي في المجمع (٤/٢٥٥): رواه أبو يعلى ورجاله ثقات إن كان عبيد بن سعد صحابي وإلا فهو مرسل» اهـ.
والحديث ذكره الحافظ في المطالب العالية (٢/٣٦) رقم (١٥٨٦) وعزاه لأبي يعلى.
قال الحافظ ابن حجر: أخرجه عبد الرزاق من رواية عبيد بن سعيد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ . . . فذكره مرسلاً، وأخرجه أبو يعلى من هذا الوجه، فكأنه ظن أن عبيد بن سعيد له صحبة. ولابن عدي من رواية أبي حرة واصل بن عبد الرحمن عن الحسن عن أبي هريرة بلفظ: «من أحب فطرتي فليتبعن سنتي، وإن من سنتي النكاح». انتهى.

١٠٣٩ ـ أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٦/١٦٨) رقم (١٠٣٧٦)، والدارمي (٢/١٣٢) كتاب النكاح، باب الحث على التزويج، وأبو داود في مراسيله رقم (٢٠٢)، والبيهقي في الشعب (٤/٣٨٢) رقم (٥٤٨١ ـ ٥٤٨٢)، والطبراني في الأوسط، كما في المجمع (٤/٢٥٥)، وعزاه الحافظ ابن حجر في المطالب العالية رقم (١٥٧٩) للحارث بن أبي أسامة.
قال الهيثمي: «ورجاله ثقات، إلا أن أبا نجيح لا صحبة له» اهـ.
وقال المنذري في الترغيب (٢/٦٦٣): «رواه الطبراني بإسناد حسن والبيهقي وهو مرسل، واسم أبي نجيح يسار بالياء المثناة تحت وهو والد عبد الله بن أبي نجيح المكي» اهـ.
وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف لأحمد وإسحاق بن راهويه في مسنديهما.
قال الحافظ ابن حجر: أخرجه أبو داود في المراسيل وأحمد. وإسحاق والدارمي والطبراني وعبد الرزاق وابن أبي شيبة؛ كلهم من رواية أبي المفلس عن أبي نجيح رفعه: «من كان موسراً لأن ينكح فلم ينكح فليس منا»، وأخرجه الثعلبي من هذا الوجه، بلفظ المصنف، قال ابن راهويه: رواه بعضهم عن ابن جريج عن أبي المفلس عن أبي نجيح ـ عمرو بن عبسة قال: سمعت =

---

(١) قال محمود: «هذا أمر والمراد به الندب، ثم ذكر أحاديث تدل على ذلك، وأدرج فيها قوله عليه الصلاة والسلام: من وجد نكاحاً فلم ينكح فليس منا» قال أحمد: وهذا بأن يدل على الوجوب أولى، ولكن قد ورد مثله في ترك السنن كثيراً، وكأن المراد: من لم يستن بسنتنا، على أنه قد ورد في الواجب كقوله «من غشنا فليس منا» ومجانبة الغش واجبة «ومن شهر السلاح في فتنة فليس منا» ومثله كثير.

«إِذَا تَزَوَّجَ أَحَدُكُمْ عَجَّ[1] شَيْطَانُهُ: يَا وَيْلَهُ، عَصَمَ ابْنُ آدَمَ مِنِّي ثُلُثَيْ دِينِهِ» (١٠٤٠) وعنه - عليه الصلاة والسلام -: «يَا عِيَاضُ، لاَ تَزَوَّجَنَّ عَجُوزًا وَلا عَاقِراً؛ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ» (١٠٤١)، والأحاديث فيه عن النبي - ﷺ - والآثار كثيرة، وربما كان واجب الترك

= رسول الله - ﷺ - وهو غلط. وليس أبو نجيح هذا عمرو بن عبسة. وقد رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن الحكم بن موسى عن الوليد بن مسلم عن ابن جريج حدثني أبو المفلس سمعت أبا نجيح السلمي يقول: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول... فذكر نحوه. انتهى.

١٠٤٠ - أخرجه أبو يعلى في مسنده (٣٧/٤) رقم (٢٠٤١) عن جابر قال النبي - ﷺ -: «أيما شاب تزوج في حداثة سنه عج شيطانه: يا ويله! يا ويله! عصم مني دينه».
قال الهيثمي (٢٥٦/٤): رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط وفيه خالد بن إسماعيل المخزومي وهو متروك» اهـ.
وعزاه الزيلعي (٤٣٧/٢) للثعلبي في تفسيره.
قال الحافظ ابن حجر: أخرجه أبو يعلى والطبراني في الأوسط. والثعلبي من رواية صالح مولى التوأمة عن جابر. وعن بعضهم عن أبي هريرة بدل جابر، وفي إسناده خالد بن إسماعيل المخزومي وهو متروك. انتهى.

١٠٤١ - رواه الحاكم (٢٩٠/٣) من طريق معاوية بن يحيى الصرفي يقول ثنا يحيى بن جابر عن جبير بن نفير عن عياض بن غنم قال: قال لي رسول الله - ﷺ - ذات يوم: «يا عياض، لا تزوجن عجوزاً ولا عاقراً فإني مكاثر بكم»...
ورواه الطبراني في الكبير (٣٦٨/١٧) رقم (١٠٠٨) وابن عدي في الكامل (١٧٩٥/٥)، قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
وتعقبه الذهبي بقوله: قلت معاوية ضعيف.
وقال الهيثمي في المجمع (٢٦١/٤): «فيه معاوية بن يحيى الصرفي وهو ضعيف».
وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٤٣٨/٢) للثعلبي، والأحاديث عن النبي - ﷺ - في هذا كثيرة منها حديث: «تزوجوا الودود الولود».
أخرجه ابن ماجه (٥٩٩/١) كتاب النكاح: باب تزويج الحرائر والولود حديث (١٨٦٣) من طريق طلحة بن عمرو الحضرمي عن عطاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «انكحوا فإني مكاثر بكم».
وقال البوصيري في «الزوائد» (٧٣/٢): هذا إسناد ضعيف لضعف طلحة بن عمرو المكي الحضرمي اهـ. وطلحة بن عمرو.
قال عمرو بن علي: كان يحيى وعبد الرحمن لا يحدثان عنه، وقال أحمد: لا شيء متروك الحديث.
وقال البخاري: ليس بشيء.
وقال النسائي: متروك الحديث.
وكذلك ضعفه ابن حبان وغيره. ينظر التهذيب. وله لفظ آخر بإسناد آخر. =

---

(١) قوله «عج شيطانه» أي: صاح. (ع)

إذا أدّى إلى معصية أو مفسدة، وعن النبي ـ ﷺ ـ: «إِذَا أَتَىٰ عَلَىٰ أُمَّتِي مِائَةٌ وَثَمَانُونَ سَنَة،

= أخرجه أبو داود (٢/ ٥٤٢) كتاب النكاح: باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء حديث (٢٠٥٠) والنسائي (٦/ ٦٥ ـ ٦٦) كتاب النكاح: باب كراهية تزويج العقيم والحاكم (٢/ ١٦٢) وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٦٢) من حديث معقل بن يسار قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم».

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

وأخرجه أيضاً ابن حبان (١٢٢٩ ـ موارد)، والبيهقي (٧/ ٨١) كتاب النكاح: باب استحباب التزويج بالودود الولود.

وأخرجه أحمد (٣/ ١٥٨ ـ ٢٤٥) وسعيد بن منصور (١/ ١٦٤) رقم (٤٩٠)، وابن حبان (١٢٢٨ ـ موارد) والبيهقي (٧/ ٨١ ـ ٨٢) كتاب النكاح: باب استحباب التزوج بالودود الولود، والقضاعي في «مسند الشهاب» رقم (٦٧٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢١٩)، من حديث أنس بلفظ: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأنبياء». وصححه ابن حبان.

والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٢٦١) وقال: رواه أحمد والطبراني في «الأوسط» وإسناده حسن.

وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢١٤٧)، ومن طريقه البيهقي (٧/ ٧٨) من حديث أبي أمامة بلفظ: «تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم ولا تكونوا كرهبانية النصارى».

وفيه محمد بن ثابت البصري وهو ضعيف قاله الحافظ في «التقريب» (٢/ ١٤٨).

وأخرجه ابن ماجه (١/ ٥٩٢) كتاب النكاح: باب ما جاء في فضل النكاح حديث (١٨٤٦) من طريق عيسى بن ميمون عن القاسم عن عائشة قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «النكاح من سنتي، فمن لم يعمل بسنتي فليس مني، وتزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم، ومن كان ذا طول فلينكح، ومن لم يجد فعليه بالصوم، فإن الصوم له وجاء».

قال البوصيري في «الزوائد» (٢/ ٦٥): هذا إسناد ضعيف لضعف عيسى بن ميمون اهـ.

وضعفه الحافظ ابن حجر في «تلخيصه» (٢/ ١٠٢)، وقال: ضعيف.

وأخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» ١٢/(٣٧٧) من حديث ابن عمر بلفظ: «تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة».

وأخرجه عبد الرزاق (٦/ ١٧٣) رقم (١٠٣٩١) عن سعيد بن أبي هلال مرسلاً.

والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» برقم (١٧٨٢).

قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الحاكم والثعلبي من رواية معاوية بن يحيى عن يحيى بن جابر عن جبير بن معمر عن عياض بن غنم الأشعري ومعاوية ضعيف، وقوله: والأحاديث عن النبي ـ ﷺ ـ والآثار كثيرة اهـ. فمنها حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ في الصحيحين «أن أناساً من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ سألوا أزواجه عن عمله في السر فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء. . . الحديث» وفيه: «لكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وآكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»، ومنها حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج»، متفق عليه، وقد تقدم في المائدة. وحديث أنس ـ رضي الله عنه ـ: «كان يأمر بالباءة وينهى عن التبتل»، وأخرجه ابن حبان وحديث «تزوجوا توالدوا وتناسلوا فإني مباه بكم الأمم»، له طرق في السنن وغيرها. وحديث عطية بن بشر في قصة عكاف بن وداعة =

فَقَدْ حَلَّتْ لَهُمُ العُزُوبَةُ والعُزْلَةُ وَالتَّرَهُّبُ عَلَى رءوسِ الْجِبَالِ» (١٠٤٢)، وفي الحديث: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ تُنَالُ المَعِيْشَةُ فِيهِ إلاَّ بِالْمَعْصِيَةِ، فَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ الزَّمَانُ حَلَّتِ العُزُوبَةُ» (١٠٤٣).

فإن قلت: لم خص الصالحين؟

قلت: ليحصن دينهم، ويحفظ عليهم صلاحهم، ولأنّ الصالحين من الأرقاء هم الذين مواليهم يشفقون عليهم وينزلونهم منزلة الأولاد في الأثرة والمودّة، فكانوا مظنة للتوصية بشأنهم والاهتمام بهم وتقبل الوصية فيهم، وأما المفسدون منهم فحالهم عند مواليهم على عكس ذلك، أو أريد بالصلاح: القيام بحقوق النكاح، ينبغي أن تكون شريطة الله غير منسية في هذا الموعد ونظائره وهي مشيئته[1]، ولا يشاء الحكيم إلا ما اقتضته الحكمة وما

= الهلالي في الحضّ على التزويج. وفيه: «إن شراركم عزابكم»، رواه إسحاق في مسنده أخبرنا نضبة عن معاوية بن يحيى الصدفي، أنه حدثه عن سليمان بن موسى عن مكحول عن غضيف بن الحارث عن عطية بن بشر بطوله. رواه الطبراني في مسند الشاميين من رواية ابن عتبة عن برد بن سنان عن مكحول عن عطية بن بشر لم يذكر غضيف، وقال أحمد: حدثنا عبد الرزاق عن محمد بن راشد عن مكحول عن أبي ذر فذكر نحوه، ومنها حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ: من تزوج فقد استكمل نص الإيمان، فليتق الله في النصف الثاني؛ أخرجه الطبراني في الأوسط، وإسناده ضعيف جدًا. وسيأتي باقيها بعد. انتهى.

١٠٤٢ ـ عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف لعلي بن معبد في كتابه الطاعة والمعصية، والثعلبي في تفسيره.
وعزاه للديلمي في الفردوس من حديث أبي أمامة.
قال الحافظ: أخرجه البيهقي والثعلبي من حديث ابن مسعود، وفي إسناده سليمان بن عيسى الخراساني وهو كذاب. ومن طريقه رواه ابن الجوزي في الموضوعات، لكن له طرق أخرى. أخرجه علي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية عن الحسن بن واقد الحنفي، قال: أظنه من حديث بهز بن حكيم فذكره وهو متصل. انتهى.

١٠٤٣ ـ عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/٤٤٢) للخطابي في (العزلة) من حديث عبد الله بن مسعود، ولعلي بن معبد في كتاب «الطاعة والمعصية» عن الحسن مرسلاً.
قال الحافظ: أخرجه علي بن معبد في الطاعة والمعصية حدثنا عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من فر بدينه من شاهق إلى شاهق. ومن حجر إلى حجر. فإذا كان ذلك حصلت العزوبة. قيل: كيف تحل العزوبة ـ فذكر حديثاً طويلاً وصله الخطابي في العزلة من طريق السعدي بن يحيى عن الحسن عن أبي الأحوص عن عبد الله. وفي إسناده محمد بن يونس الكديمي وهو ضعيف. انتهى.

---

(١) عاد كلامه. قال: «ينبغي أن تكون شريطة الحكمة والمصلحة غير منسية: واستشهد على ذلك بقوله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ قال أحمد: جنوحه للمعتقد الفاسد يمنع عليه الصواب، فإن معتقده وجوب رعاية المصالح على الله تعالى، فمن ثم شرط الحكمة والمصلحة =

كان مصلحة[(١)]؛ ونحوه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣٢]،

= محجراً واسعاً من فضل الله تعالى، ثم استشهد على ذلك بما يشهد عليه لا له، فإن قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِن شَآءَ﴾ يقتضي أن وقوع الغنى مشروط بالمشيئة خاصة، وهذا معتقد أهل الحق، فطاح اشتراط الحكمة عن محل الاستدلال، تعالى عن الإيجاب رب الأرباب، لكن ينبغي التنبه لنكتة تدعو الحاجة إلى التنبيه عليها، ليعم نفعها ويعظم وقعها إن شاء الله. وذلك أنا إذا بنينا على أن ثم شرطاً محذوفاً، لا بد من تقديره ضرورة صدق الخبر، إذ لو اعتقدنا أن الله تعالى يغني كل متزوج على الإطلاق مع أنا نشاهد كثيراً ممن استمر به الفقر بعد النكاح بل زاد، للزم خلف الوعد ـ تقدس الله وتعالى عن ذلك ـ فقد ثبت الاضطرار إلى تقدير شرط للجمع بين الوعد والواقع، فالقدرية يقولون: المراد إن اقتضت الحكمة ذلك، فكل من لم يغنه الله بأثر التزوج فهو ممن لم تقتض الحكمة إغناءه. وقد أبطلنا أن يكون هذا الشرط هو المقدر، وحتمنا أن المقدر شرط المشيئة كما ظهر في الآية الأخرى، وحينئذ فكل من يستغن بالنكاح فذلك لأن الله تعالى لم يشأ غناه. فلقائل أن يقول: إذا كانت المشيئة هي المعتبرة في غنى المتزوج، فهي أيضاً المعتبرة في غنى الأعزب، فما وجه ربط وعد الغنى بالنكاح، مع أن حال الناكح منقسم في الغنى على حسب المشيئة، فمن مستغن به، ومن فقير كما أن حال غير الناكح كذلك منقسم، وليس هذا كإقرار شرط المشيئة في الغفران للموحد العاصي، فإن الوعد ثم له ارتباط بالتوحيد. وإن ارتبط بالمشيئة أيضاً، من حيث أن غير الموحد لا يغفر الله له حتماً، ولا تستطيع أن تقول: وغير الناكح لا يغنيه الله حتماً، لأن الواقع يأباه. فالجواب ـ وبالله التوفيق ـ: أن فائدة ربطه الغنى بالنكاح: أنه قد ركز في الطباع السكون إلى الأسباب والاعتماد عليها. والغفلة عن المسبب جل وعلا حتى غلب الوهم على العقل، فخيل أن كثرة العيال سبب يوجب الفقر حتماً، وعدمها سبب يوجب توفير المال جزماً، وإن كان واحد من هذين السببين غير مؤثر فيما ربطه الوهم به. فأريد قلع هذا الخيال المتمكن من الطبع بالإيذان بأن الله تعالى قد يوفر المال وينميه، مع كثرة العيال التي هي سبب في الأوهام لنفاد المال، وقد يقدر الإملاق مع عدمه الذي هو سبب في الإكثار عند الأوهام والواقع يشهد بذلك فلا مراء. فدل ذلك قطعاً على أن الأسباب التي يتوهمها البشر مرتبطات بمسبباتها ارتباطاً لا ينفك ليست على ما يزعمونه، وإنما يقدر الغنى والفقر مسبب الأسباب، غير موقوف، تقدير ذاك إلا على مشيئة خاصة، وحينئذٍ لا ينفر العاقل المتيقظ من النكاح، لأنه استقر عنده أن لا أثر له في الاقتار، وأن الله تعالى لا يمنعه ذلك من إغنائه، ولا يؤثر أيضاً الخلو عن النكاح لأجل التوفير، لأنه قد استقر أن لا أثر له فيه، وأن الله تعالى لا يمنعه مانع أن يقتر عليه، وأن العبد إن تعاطى سبباً فلا يكن ناظراً إليه ولكن إلى مشيئة الله تعالى وتقدس، فمعنى قوله حينئذٍ ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ﴾ . . . الآية أن النكاح لا يمنعهم الغنى من فضل الله، فعبر عن نفي كونه مانعاً من الغنى بوجوده معه، ولا تبطل المانعية إلا وجود ما يتوهم ممنوعاً مع ما يتوهم مانعاً ولو في صورة من الصور على أثر ذلك، فمن هذا الوادي أمثال قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإن ظاهر الأمر طلب الانتشار عند انقضاء الصلاة، وليس ذلك بمراد حقيقة، ولكن الغرض تحقيق زوال المانع وهو الصلاة، وبيان أن الصلاة متى قضيت فلا مانع، فعبر عن نفي المانع بالانتشار بما يفهم تقاضي الانتشار، مبالغة في تحقيق المعنى عند السامع والله أعلم، فتأمل هذا الفصل واتخذه عضداً حيث الحاجة إليه.

(١) قوله «إلا ما اقتضته الحكمة وما كان مصلحة» كأنه مبني على أنه تعالى يجب عليه فعل الصلاح، وهو مذهب المعتزلة، وعند أهل السنة: لا يجب على الله شيء. (ع)

وقد جاءت الشريطة منصوصة في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ٢/ ١٤٣أ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، ومن لم ينس هذه الشريطة، لم ينتصب معترضاً بعزب كان غنيًا فأفقره النكاح، وبفاسق تاب واتقى الله وكان له شيء ففنى وأصبح مسكيناً، وعن النبي ـ ﷺ ـ: «الْتَمِسُوا الرِّزْقَ بِالنِّكَاحِ» (١٠٤٤).

وشكا إليه رجل الحاجة فقال: «عَلَيْكَ بِالْبَاءَةِ[1]» (١٠٤٥) وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ: عجبت لمن لا يطلب الغنى بالباءة (١٠٤٦)، ولقد كان عندنا رجل رازح الحال،

١٠٤٤ ـ قال الزيلعي (٢/ ٤٤٣): «لم يروه بهذا اللفظ إلا الثعلبي»، وعزاه السيوطي في الجامع الصغير (١٥٦٧) للديلمي، وكذا العجلوني في الكشف رقم (٥٢٨).
ورواه الحاكم (٢/ ١٦١) من حديث عائشة مرفوعاً بلفظ: «تزوجوا النساء فإنهن يأتينكم بالمال»، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه لتفرد سالم بن جنادة بسنده وسالم ثقة مأمون» اهـ، ووافقه الذهبي.
قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي من رواية مسلم بن خالد وابن مردويه من رواية أبي السائب سلام بن جنادة عن أبي أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة مرفوعاً، «تزوجوا النساء فإنهن يأتين بالمال»، قال الحاكم: تفرد به سلام وهو ثقة: وقال البزار والدارقطني وغير سلام يرويه مرسلاً اهـ. وهو كما قال. وقد أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي أسامة فلم يذكر عائشة. وكذلك أخرجه أبو داود في المراسيل عن ابن التوأمة عن أبي أسامة، وأخرجه أبو القاسم حمزة بن يوسف في تاريخ جرجان من رواية الحسين بن علوان عن هشام موصولا. والحسين متهم بالكذب.
تنبيه: ظن المخرج أن هذا يرد على كلام البزار والدارقطني. وليس كما ظن، لأنه قال قد تابعه عبد المؤمن العطار، وقال أيضاً تابعه عبد الله بن ناجية، فأما الأول فالمتابع إنما هو الحسين شيخ عبد المؤمن، وقد قلنا: إنه لا يسوي شيئاً. وأما الثاني فإنما رواه ابن ناجية عن أبي السائب نفسه، فظهر تفرد أبي السائب بوصله من بين الثقات. وأما الحسين بن علوان فلا تفيد متابعته شيئا لوهنه. انتهى.

١٠٤٥ ـ عزاه الزيلعي (٢/ ٤٤٤) للثعلبي، وقال الحافظ: أخرجه الثعلبي من رواية الدارقطني عن أبي عجلان: «أن رجلاً أتى النبي ـ ﷺ ـ فشكى إليه الحاجة الحديث» اهـ.
قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي من رواية الدارقطني عن أبي عجلان: «أن رجلا أتى النبي ـ ﷺ ـ فشكى إليه الحاجة. الحديث». انتهى.

١٠٤٦ ـ رواه عبد الرزاق (٦/ ١٧٠ ـ ١٧١) رقم (١٠٣٨٥) قال: أخبرنا هشام بن حسان عن الحسن قال: قال عمر بن الخطاب: اطلبوا الفضل في الباه، قال: وتلا عمر: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.
ورواه (٦/ ١٧٣) رقم (١٠٣٩٣) عن معمر عن قتادة أن عمر بن الخطاب قال: ما رأيت مثل رجل لم يلتمس الفضل في الباه، والله يقول: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.
قال الحافظ: رواه هشام بن حسان عن الحسن عن عمر نحوه. انتهى.

---

(١) قوله «فقال عليك بالباءة» في الصحاح سمي النكاح باه وباءة؛ لأن الرجل يتبوأ من أهله، أي: يستمكن منها كما يتبوأ من داره، وفيه أيضاً «الرازح من الإبل» الهالك هزالاً اهـ. فإن كان مختصاً بالإبل فقد يتوسع فيه إلى غيرها. (ع)

ثم رأيته بعد سنين وقد انتعشت حاله وحسنت، فسألته؟ فقال: كنت في أول أمرى على ما علمت؛ وذلك قبل أن أرزق ولداً، فلما رزقت بكر ولدي تراخيت عن الفقر، فلما ولد لي الثاني زدت خيراً، فلما تتاموا ثلاثة صبّ الله عليّ الخير صبًا، فأصبحت إلى ما ترى، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي: غنيّ ذو سعة لا يرزؤه[1] إغناء الخلائق، ولكنه: ﴿عَلِيمٌ﴾: يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾: وليجتهد في العفة وظلف النفس[2]، كأن المستعف طالب من نفسه العفاف وحاملها عليه، ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: استطاعة تزوج، ويجوز أن يراد بالنكاح: ما ينكح به من المال، ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾: ترجية للمستعفين وتقدمة وعد بالتفضل عليهم بالغنى؛ ليكون انتظار ذلك وتأميله لطفالهم في استعفافهم، وربطاً على قلوبهم، وليظهر بذلك أن فضله أولى بالإعفاء وأدنى من الصلحاء، وما أحسن ما رتب هذه الأموار: حيث أمر أولاً بما يعصم من الفتنة ويبعد من مواقعة المعصية وهو غض البصر، ثم بالنكاح الذي يحصن به الدين ويقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام، ثم بالحمل على النفس الأمارة بالسوء وعزفها[3] عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن يرزق القدرة عليه، ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾: مرفوع على الابتداء، أو منصوب بعفل مضمر يفسره: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾؛ كقولك: زيدًا فاضربه، ودخلت الفاء؛ لتضمن معنى الشرط، والكتاب والمكاتبة، كالعتاب والمعاتبة: وهو أن يقول الرجل لمملوكه: كاتبتك على ألف درهم، فإن أداها عتق، ومعناه: كتبت لك على نفسي أن تعتق مني إذا وفيت بالمال، وكتبت لي على نفسك أن تفي بذلك، أو كتبت عليك الوفاء بالمال وكتبت على العتق، ويجوز عند أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ حالاً ومؤجلاً، ومنجماً وغير منجم؛ لأن الله ـ تعالى ـ لم يذكر التنجيم،

---

(١) قوله «لا يرزؤه» أي: لا ينقصه. (ع)

(٢) قوله «وظلف النفس» في الصحاح: ظلف نفسه عن الشيء، أي: منعها. وظلفت نفسي عن كذا بالكسر: أي كفت. (ع)

(٣) قوله «وعزفها عن الطموح إلى الشهوة» في الصحاح: عزفت نفسي عن الشيء: زهدت فيه وانصرفت عنه. (ع)

وقياساً على سائر العقود، وعند الشافعي ـ رضي الله عنه ـ: لا يجوز إلا مؤجلاً منجماً، ولا يجوز عنده بنجم واحد؛ لأنّ العبد لا يملك شيئاً، فعقده حالاً منع من حصول الغرض؛ لأنه لا يقدر على أداء البدل عاجلاً، ويجوز عقده على مال قليل وكثير، وعلى خدمة في مدة معلومة، وعلى عمل معلوم مؤقت: مثل حفر بئر في مكان بعينه معلومة الطول والعرض، وبناء دار قد أراه آجرها وجصها وما يبني به، وإن كاتبه على قيمته لم يجز، فإن أداها عتق، وإن كاتبه على وصيف[1]، جاز، لقلة الجهالة ووجب الوسط، وليس له أن يطأ المكاتبة، وإذا أدى عتق، وكان ولاؤه لمولاه؛ لأنه جاد عليه بالكسب الذي هو في الأصل له، وهذا الأمر للندب عند عامة العلماء، وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: ليس ذلك بعزم، إن شاء كاتب وإن شاء لم يكاتب، وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ: هي عزمة من عزمات الله، وعن ابن سيرين مثله، وهو مذهب داود، ﴿خَيْرًا﴾: قدرة على أداء ما يفارقون عليه، وقيل: أمانة وتكسباً، وعن سلمان ـ رضي الله عنه ـ أن مملوكاً له ابتغى أن يكاتبه، فقال: أعندك مال؟ قال: لا، قال: أفتأمرني أن آكل غسالة أيدي الناس، ﴿وَءَاتُوهُم﴾: أمر للمسلمين على وجه الوجوب بإعانة المكاتبين وإعطائهم سهمهم الذي جعل الله لهم من بيت المال؛ كقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، عند أبي حنيفة وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ.

فإن قلت: هل يحل لمولاه إذا كان غنيًا أن يأخذ ما تصدق به عليه؟

قلت: نعم، وكذلك إذا لم تف الصدقة بجميع البدل وعجز عن أداء الباقي طاب للمولى ما أخذه؛ لأنه لم يأخذه بسبب الصدقة؛ ولكن بسبب عقد المكاتبة كمن اشترى الصدقة من الفقير أو ورثها أو وهبت له، ومنه قوله ـ ﷺ ـ في حديث بريرة: «هُوَ لَهَا صَدَقَةٌ وَلَنَا هَدِيَّةٌ» (١٠٤٧)، وعند الشافعي ـ رضي الله عنه ـ: هو إيجاب على الموالي أن

١٠٤٧ ـ أخرجه البخاري (٤/ ١٢٣) كتاب الزكاة، باب الصدقة على موالي أزواج النبي ـ ﷺ ـ الحديث (١٤٩٣) وفي (٥/ ٥١٧) كتاب الهبة وفضلها، باب قبول الهدية الحديث (٢٥٧٨). مسلم (٤/ ١٩٤ ـ ١٩٥ ـ نووي) كتاب الزكاة، باب إباحة الهدية للنبي ـ ﷺ ـ الحديث (١٠٧٥)، ورواه في (٥/ ٤٠١) كتاب العتق، باب إنما الولاء لمن أعتق الحديث (١٥٠٥).
والنسائي (٦/ ١٦٢) كتاب الطلاق، باب خيار الأمة، وأحمد (٦/ ٤٥ ـ ٤٦)، وابن حبان في صحيحه (١٠/ ٩٠) رقم (٤٢٦٩)، وفي (١١/ ٥١٧ ـ ٥١٨) رقم (٥١١٥ ـ ٥١١٦)، والبيهقي في السنن (٦/ ١٨٥) كتاب الهبات، باب كان رسول الله ـ ﷺ ـ لا يأخذ صدقة التطوع ويأخذ الهبة، ورواه في (٧/ ١٣٤ ـ ٢٢٠)، وفي (١٠/ ٢٩٥).
=

---

(١) قوله «على وصيف» الوصيف: الخادم، غلاماً كان أو جارية، كذا في الصحاح. (ع)

يحطوا لهم من مال الكتابة، وإن لم يفعلوا أجبروا، وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: يحط له الربع، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يرضخ له من كتابته شيئاً، وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه كاتب عبداً له يكنى: أبا أمية، وهو أوّل عبد كوتب في الإسلام، فأتاه بأوّل نجم فدفعه إليه عمر ـ رضي الله عنه ـ وقال: استعن به على مكاتبتك فقال: لو أخرته إلى آخر نجم؟ قال: أخاف ألا أدرك ذلك (١٠٤٨)، وهذا عند أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ على وجه الندب، وقال: إنه عقد معاوضة، فلا يجبر على الحطيطة كالبيع، وقيل: معنى (وآتوهم): أسلفوهم، وقيل: أنفقوا عليهم بعد أن يؤدوا ويعتقوا، وهذا كله مستحب، وروي أنه كان لحويطب بن عبد العزى مملوك يقال له الصبيح: سأل مولاه أن يكاتبه فأبى؛ فنزلت، كانت إماء أهل الجاهلية يساعين على مواليهن، وكان لعبد الله بن أبيّ رأس النفاق ست جوار: معاذة، ومسيكة، وأميمة، وعمرة، وأروى، وقتيلة: يكرههن على البغاء، وضرب عليهن ضرائب فشكت ثنتان منهن إلى رسول الله ـ ﷺ ـ؛ فنزلت (١٠٤٩)، ويكنى بالفتى والفتاة: عن العبد والأمة، وفي الحديث «لِيَقُلْ أَحَدُكُمْ:

= قال الحافظ: متفق عليه من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ في أثناء حديث في قصة بريرة وعتقها. انتهى.

١٠٤٨ ـ رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٨٨/٤) كتاب البيوع، باب من كان يحط عن المكاتب في أول نجومه الحديث (٢١٣٤٥)، حدثنا وكيع عن أبي شبيب عن عكرمة عن ابن عباس؛ أن عمر كاتب عبداً له يكنى أبا أمية فجاءه بنجمة حين جاء فقال: يا أبا أمية استعن به في مكاتبتك، فقال: يا أمير المؤمنين، لو تركته حتى يكون في آخر نجم قال: إني أخاف أن لا أدرك ذلك، ثم قرأ: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾، قال عكرمة: وكان أول نجم أدي في الإسلام» اهـ.

وعزاه الزيلعي (٤٤٥/٢) لابن أبي حاتم في تفسيره.

قال الحافظ: أخرجه ابن أبي شيبة من طريق عكرمة عن ابن عباس إلا قوله: «وهو أول عبد كوتب في الإسلام» ذكره في آخره من قول عكرمة. وزاد ثم قرأ: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾، ورواه ابن أبي حاتم من طريق وكيع شيخ ابن أبي شيبة كذلك. انتهى.

١٠٤٩ ـ أخرجه مسلم في صحيحه (٣٨٧/٩ ـ نووي) كتاب التفسير باب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾.

الحديث (٢٦ ـ ٢٧/ ٣٠٢٩)، وأبو داود (٧٠٦/١) كتاب الطلاق، باب في تعظيم الزنا الحديث (٢٣١١)، والنسائي في التفسير (١٢٣/٢) رقم (٣٨٥)، والحاكم في المستدرك (٣٩٧/٢)، وابن جرير في التفسير (٣١٨/٩) رقم (٧٢ ـ ٢٦، ٢٦٠٧٣).

وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي.

وذكره السيوطي في الدر (٨٣/٥) لابن مردويه.

قال الحافظ: أخرجه الثعلبي من طريق مقاتل بهذا، وسنده إلى مقاتل في أول الكتاب وهو عن مسلم والبزار مختصر من طريق الأعمش عن أبي سفيان عن جابر. قال: «كان لعبد الله بن أبي جارية يقال لها مسيكة، وأخرى يقال لها أميمة، وكان يريدهما على الزنى... الحديث». انتهى.

فَتَايَ وَفَتَاتِي، وَلاَ يَقُلْ عَبْدِي وَأَمَتِي» (١٠٥٠)، والبغاء ٢/ ٤٣ب: مصدر البغي.

فإن قلت: لم أقحم قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾؟

قلت: لأن الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن، وآمر الطيعة المواتية للبغاء لا يسمى مكرها ولا أمره إكراها[1]، وكلمة ﴿إِنْ﴾ وإيثارها على «إذا»: إيذان بأن المساعيات كنّ يفعلن ذلك برغبة وطواعية منهن، وأن ما وجد من معاذة ومسيكة من حيز الشاذ النادر[2]،

١٠٥٠ - تقدم برقم (٨٩٨).
قال الحافظ: تقدم في الكهف. انتهى.

---

(١) قال محمود: «إن قلت: لم أقحم قوله (إن أردن تحصنا)؟ قلت: لأن الإكراه لا يكون إلا إذا أردن تحصنا ولا يتصور إلا كذلك، إذ لولا ذلك لكن مطاوعات» ولم يجب بما يشفي العليل. وعند العبد الفقير إلى الله تعالى أن فائدة ذلك - والله أعلم: أن يبشع عند المخاطب الوقوع فيه، لكي يتيقظ أنه كان ينبغي له أن يأنف من هذه الرذيلة وإن لم يكن زاجر شرعي. ووجه التبشيع عليها: أن مضمون الآية النداء عليه بأن أمته خير منه، لأنها آثرت التحصن عن الفاحشة. وهو يأبى إلا إكراهها عليها. ولو أبرز مكنون هذا المعنى لم يقع الزاجر من النفس موقعه، وعسى هذه الآية تأخذ بالنفوس الدنية، فكيف بالنفوس العربية. والله الموفق.

(٢) و«إذا» للشرط المتيقن، وهذا ما اتفق عليه الفاهمون من الباحثين في لغة القرآن العظيم.
واقرأ للمفسر العلامة هذا التحقيق عند قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ ترى من جانب الحسنة المعرفة كان الشرط «إذا» لبيان الوجوب والاتساع، وأما في جانب السيئة فإنها نادرة ويقع منها شيء وبهذا كان الشرط «بإن».
وقد تفيد «إن» إشارة إلى عادة عربية تحتاج إلى لون من التعنين كما في الآية المصدر بها هذا البحث ولهذااستعمل «إن» في موقع «إذا» لأن فعل البقاء برغبة وطواعية، وإرادة التحصن قليلة:
وللزمخشري ومعه أبو السعود باع في هذا المضمار وتطبيق المفاهيم في الآيات بعناية ودراية.
وقد تخرج «إن» إلى الشرط المتيقن لسر بلاغي وهذا ما تراه في قوله تعالى:
﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤] فإن السر في جعل «إن» هنا والأمر متيقن وهو «عدم الفعل» إنما هو التهكم بهم، وهذا ما يبينه المفسر العلامة.
ولهذا الخروج مغزى آخر تراه في قوله سبحانه:
﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾ في قراءة «إن» بالكسر، والسرفيه إرادة بيان أنهم جاهلون.
وقد يلمح مغزى سوى ما سبق في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ [البقرة: ١٣٧] وهذا لقصد التبكيت والاستهزاء كما تقول بعد تحقيق الرأي لصاحبك: هذا هو الرأي الصواب فإن كان عندك أصوب منه فاتبعه تريد بذلك تحقيق رأيك وتبكيته لتحقيق مرادك.
وقد يلمح «الاستبعاد» بإن كما في قوله تعالى:
﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧] فالقصد إلى أن استطاعتهم ردهم عن دينهم أمر مستبعد كما نقول لمن لا يستطيعك: =

﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: لهم أو لهن، أو لهم ولهنّ إن تابوا وأصلحوا، وفي قراءة ابن عباس: «لهن غفور رحيم».

فإن قلت: لا حاجة إلى تعليق المغفرة بهنّ؛ لأن المكرهة على الزنى بخلاف المكره عليه في أنها غير آثمة.

قلت: لعل الإكراه كان دون ما اعتبرته الشريعة من إكراه بقتل، أو بما يخاف منه التلف أو ذهاب العضو، من ضرب عنيف أو غيره حتى تسلم من الإثم، وربما قصرت عن الحدّ الذي تعذر فيه فتكون آثمة.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾: هي الآيات التي بينت في هذه السورة وأوضحت في معاني الأحكام والحدود، ويجوز أن يكون الأصل مبيناً فيها فاتسع في الظرف، وقرئ بالكسر، أي: بينت هي الأحكام والحدود، جعل الفعل لها على المجاز، أو من «بين» بمعنى: تبين؛ ومنه المثل: قد بين الصبح لذي عينين، ﴿وَمَثَلًا مِّنَ﴾: أمثال من ﴿قَبْلِكُمْ﴾ أي: قصة عجيبة من قصصهم كقصة يوسف ومريم، يعني: قصة عائشة ـ رضي الله عنها ـ، ﴿وَمَوْعِظَةً﴾: ما وعظ به في الآيات والمثل، من نحو قوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢]، ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ [النور: ١٢]، ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ [النور: ١٦]، ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [النور: ١٧].

﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾

= «إن أمسكت عليّ أمراً فافعل ما بدا لك» وأنت تعلم أنه لا يستطيع ذلك، وهذا سائر في كلام الناس مفهوم في صدور العاقلين، محقق لدى ذوي الألباب.
وهذا المبحث تراه في كتب البلاغة الأصيلة بلا زيادة على ما قلت، والله من وراء القصد.
«ينظر البلاغة القرآنية لأبي موسى ٢٩٩: ٣٠٢ والمطول للسعد التفتازاني ١٥٤ وما بعدها، ومفتاح العلوم للسكاكي ١١٥، وشروح التلخيص ٢/ ٥٥ وما بعدها ففيه كفاية ومقنع».

نظير قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مع قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾، و﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾: قولك: زيد كرم وجود، ثم تقول: ينعش الناس بكرمه وجوده، والمعنى: ذو نور السموات، وصاحب نور السموات، ونور السموات والأرض الحق، شبهه بالنور في ظهوره وبيانه؛ كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، أي: من الباطل إلى الحق، وأضاف النور إلى السمٰوات والأرض لأحد معنيين: إما للدلالة على سعة إشراقه وفشوّ إضاءته حتى تضيء له السموات والأرض، وإما أن يراد أهل السمٰوات والأرض وأنهم يستضيئون به، ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: صفة نوره العجيبة الشأن في الإضاءة ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾: كصفة مشكاة وهي الكوة في الجدار غير النافذة، ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾: سراج ضخم ثاقب، ﴿فِي زُجَاجَةٍ﴾: أراد قنديلاً من زجاج شامي[1] أزهر، شبهه في زهرته بأحد الدراري من الكواكب وهي المشاهير، كالمشتري والزهرة والمرّيخ وسهيل ونحوها، ﴿يُوقَدُ﴾: هذا المصباح، ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ أي: ابتدأ ثقوبه من شجرة الزيتون، يعني: زويت ذبالته[2] بزيتها، ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾: كثيرة المنافع، أو: لأنها تنبت في الأرض التي بارك فيها للعالمين، وقيل: بارك فيها سبعون نبيًا، منهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ وعن النبي ـ ﷺ ـ: «عَلَيْكُمْ بِهٰذِهِ الشَّجَرَةِ زَيْتُ الزَّيْتُونِ، فَتَدَاوَوْا بِهِ؛ فَإِنَّهُ مَصَحَّةٌ مِنَ الْبَاسُورِ» (١٠٥١)، ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: منبتها الشام، وأجود الزيتون: زيتون الشام، وقيل: لا في مضحى

١٠٥١ ـ رواه الطبراني في الكبير (١٧/ ٢٨١) رقم (٧٧٤)، حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح حدثني أبي ثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة بن عامر عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «عليكم بهذه الشجرة المباركة زيت الزيتون فتداووا به، فإنه مصحة من الباسور». ورواه ابن أبي حاتم في العلل (٢/ ٢٧٩) رقم (٢٣٣٨) وقال: «قال أبي: هذا حديث كذب» اهـ.

وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٤٤٦) لأبي نعيم في كتاب «طب الفقراء». وللثعلبي في تفسيره.

قال الهيثمي في المجمع (٥/ ١٠٣): «رواه الطبراني وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وبقية رجاله رجال الصحيح، ولكن ذكر الذهبي هذا الحديث في ترجمة عثمان عن أبي صالح، ونقل عن أبي حاتم أنه كذاب» اهـ.

قال الحافظ: أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم في العلل، وأبو نعيم في الطب، والثعلبي؛ كلهم من طريق عثمان بن صالح عن ابن لهيعة عن يزيد بن حبيب عن أبي الخير عن عتبة بن عامر بهذا. انتهى.

---

(١) قوله «شامي» نعت لزجاج، ويوضحه قوله «أزهر» وعبارة النسفي: شامي بكسر الزاي، أي قرأ الشامي: زجاجة، بكسر الزاي. (ع)

(٢) قوله «يعني زويت ذبالته بزيتها» في الصحاح: زويت الشيء: جمعته وقبضته. وانزوت الجلدة في النار، أي: اجتمعت وتقبضت. وفيه «الذبالة» الفتيلة، ولعله «رويت» بالراء، كما في عبارة النسفي.

ولا في مقنأة[1]، ولكن الشمس والظل يتعاقبان عليها، وذلك أجود لحملها وأصفى لدهنها، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا خَيْرَ فِي شَجَرَةٍ فِي مَقْنَأَةٍ، وَلاَ نَبَاتٍ فِي مَقْنَأَةٍ، وَلا خَيْرَ فِيهِمَا فِي مَضْحَىً» (١٠٥٢)، وقيل: ليست مما تطلع عليه الشمس في وقت شروقها أو غروبها فقط، بل تصيبها بالغداة والعشي جميعاً، فهي شرقية وغربية، ثم وصف الزيت بالصفاء والوبيص[2]، وأنه لتلألئه، ﴿يَكَادُ﴾: يضي من غير نار، ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي: هذا الذي شبهت به الحق نور متضاعف قد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت، حتى لم تبق مما يقوي النور ويزيده إشراقاً، ويمدّه بإضاءة بقية؛ وذلك أن المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة كان أضوأ له وأجمع لنوره، بخلاف المكان الواسع؛ فإنّ الضوأ ينبث فيه وينتشر، والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة، وكذلك الزيت وصفاؤه، ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ﴾: لهذا النور الثاقب، ﴿مَن يَشَآءُ﴾: من عباده، أي: يوفق لإصابة الحق من نظر وتدبر بعين عقله والإنصاف من نفسه، ولم يذهب عن الجادة الموصلة إليه يميناً وشمالاً، ومن لم يتدبر، فهو كالأعمى الذي سواء عليه جنح الليل الدامس وضحوة النهار الشامس، وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: «الله نور السموات والأرض»، أي: نشر فيها الحق وبثه فأضاءت بنوره، أو نور قلوب أهلها به، وعن أبيّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ: مثل نور من آمن به، وقرئ: «زجاجة الزجاجة»: بالفتح والكسر، «ودرّيّ»: منسوب إلى الدرّ، أي: أبيض متلألىء، «ودرّيء»: بوزن سكيت: يدرأ الظلام بضوئه، ودريء كمريق، ودري كالسكينة، عن أبي زيد، وتوقد: بمعنى: تتوقد، والفعل للزجاجة، «ويوقد، وتوقد»: بالتخفيف، «ويوقده»: بالتشديد، «ويوقد»: بحذف التاء وفتح الياء؛ لاجتماع حرفين زائدين وهو غريب، ويمسه بالياء؛ لأن التأنيث ليس بحقيقي، والضمير فاصل.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾

﴿فِي بُيُوتٍ﴾: يتعلق بما قبله، أي: كمشكاة في بعض بيوت الله وهي المساجد، كأنه

١٠٥٢ ـ قال الزيلعي (٤٤٧/٢): غريب جدًا وقال الحافظ: لم أجده.

---

(١) قوله «ولا مقنأة» في الصحاح: المقنأة، المكان الذي لا تطلع عليه الشمس.

(٢) قوله «والوبيص» البريق واللمعان. أفاده الصحاح. (ع)

قيل: مثل نوره كما يرى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت، أو بما بعده ٢/ ١٤٤أ، وهو يسبح، أي: يسبح له رجال في بيوت. وفيها تكرير؛ كقولك: زيد في الدار جالس فيها، أو بمحذوف؛ كقوله: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ [النمل: ١٢]، أي: سبحوا في بيوت، والمراد بالإذن: الأمر، ورفعها: بناؤها؛ كقوله: ﴿بَنَىٰهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٢٨]، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هي المساجد، أمر الله أن تبنى، أو تعظيمها والرفع من قدرها، وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: ما أمر الله أن ترفع بالبناء، ولكن بالتعظيم، ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾: أوفق له، وهو عام في كل ذكر، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: وأن يتلى فيها كتابه، وقرئ: ﴿يُسَبَّحُ﴾: على البناء للمفعول، ويسند إلى أحد الظروف الثلاثة، أعني: ﴿لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ﴾، و﴿رِجَالٌ﴾: مرفوع بما دلّ عليه ﴿يُسَبَّحُ﴾، وهو يسبح له، و«تُسبح»: بالتاء وكسر الباء، وعن أبي جعفر ـ رضي الله عنه ـ: بالتاء وفتح الباء، ووجهها أن يسند إلى أوقات الغدوّ والآصال على زيادة الباء، وتجعل الأوقات مسبحة، والمراد ربها، كصيد عليه يومان، والمراد: وحشهما، والآصال: جمع أصل وهو العشي، والمعنى: بأوقات الغدوّ، أي: بالغدوات، وقرئ: «والإيصال»، وهو الدخول في الأصيل، يقال: آصل، كأظهر وأعتم، التجارة: صناعة التاجر، وهو الذي يبيع ويشتري للربح، فإما أن يريد: لا يشغلهم نوع من هذه الصناعة، ثم خص البيع، لأنه في الإلهاء أدخل. من قبل أن التاجر إذا اتجهت له بيعة رابحة وهي طلبته الكلية من صناعته: أهلته ما لا يلهيه شراء شيء يتوقع فيه الربح في الوقت الثاني؛ لأن هذا يقين وذاك مظنون، وإمّا أن يسمى الشراء تجارة؛ إطلاقاً لاسم الجنس على النوع، كما تقول: رزق فلان تجارة رابحة: إذا اتجه له بيع صالح أو شراء، وقيل: التجارة لأهل الجلب، اتجر فلان في كذا: إذا جلبه، التاء في إقامة: عوض من العين الساقطة للإعلال، والأصل: «إقوام» فلما أضيفت أقيمت الإضافة مقام حرف التعويض، فأسقطت؛ ونحوه [من البسيط]:

. . . . وَأَخْلَفُوكَ عِدَ الأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا[1]

وتقلب القلوب والأبصار إما أن تتقلب وتتغير في أنفسها: وهو أن تضطرب من الهول والفزع وتشخص؛ كقوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، وإما أن تتقلب أحوالها وتتغير فتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعاً عليها لا تفقه، وتبصر الأبصار بعد أن كانت عمياً لا تبصر، ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي: أحسن جزاء أعمالهم؛ كقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [يونس: ٢٦]، والمعنى: يسبحون ويخافون؛ ليجزيهم ثوابهم مضاعفاً

(١) تقدم.

ويزيدهم على الثواب تفضلاً، وكذلك معنى قوله: ﴿الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾: المثوبة الحسنى وزيادة عليها من التفضل، وعطاء الله تعالى: إما تفضل، وإما ثواب، وإما عوض، ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ﴾: ما يتفضل به، ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: فأما الثواب فله حساب؛ لكونه على حسب الاستحقاق.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾

السراب: ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة، يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري، والقيعة: بمعنى: القاع أو جمع قاع، وهو المنبسط المستوي من الأرض، كجيرة في جار، وقرئ: بقيعات: بتاء ممطوطة، كديمات وقيمات، في ديمة وقيمة، وقد جعل بعضهم بقيعاة بتاء مدورة، كرجل عزهاة، شبه ما يعمله من لا يعتقد الإيمان ولا يتبع الحق من الأعمال الصالحة التي يحسبها تنفعه عند الله وتنجيه من عذابه ثم تخيب في العاقبة أمله ويلقى خلاف ما قدّر، بسراب يراه الكافر بالساهرة وقد غلبه عطش يوم القيامة فيحسبه ماء، فيأتيه فلا يجد ما رجاه ويجد زبانية الله عنده يأخذونه فيعتلونه إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾ [الغاشية: ٣]، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقيل: نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية؛ قد كان تعبد ولبس المسوح والتمس الدين في الجاهلية، ثم كفر في الإسلام.

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾

اللجي: العميق الكثير الماء، منسوب إلى اللج وهو معظم ماء البحر. وفي ﴿أَخْرَجَ﴾ ضمير الواقع فيه ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ مبالغة في لم يرها: أي: لم يقرب أن يراها: فضلاً عن أن يراها. ومثله قول ذي الرمة [من الطويل]:

إِذَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَ لَمْ يَكَدْ ... رَسِيسُ الْهَوَىٰ مِنْ حُبِّ مَيَّةَ يَبْرَحُ[1]

---

(١) إذا غير النأي المحبين لم يكد ... رسيس الهوى من حب مية يبرح
فلا القرب يدنو من هواها ملالة ... ولا حبها أن تنزح الدار ينزح

لذي الرمة. والنأي: البعد. ويقال: رس وأرس، إذا لزم. والرسيس: بقية المرض اللازمة داخل البدن. ويبرح: يذهب، أي: لم يقرب من البراح. وروي أنه لما قدم ذو الرمة الكوفة اعترض عليه ابن شبرمة في ذلك بأنه يدل على زوال رسيس الهوى، فغيره ذو الرمة بقوله: لم أجد. وقال ابن =

أي لم يقرب من البراح فما باله يبرح؟ شبه أعمالهم أولاً في فوات نفعها وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من بعيد شيئاً، ولم يكفه خيبة وكمداً أن لم يجد شيئاً كغيره من السراب، حتى وجد عنده الزبانية تعتله إلى النار، ولا يقتل ظمأه بالماء. وشبهها ثانياً في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة، وفي خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب، ثم قال: ومن لم يوله نور توفيقه وعصمته ولطفه، فهو في ظلمة الباطل لا نور له وهذا الكلام مجراه مجرى الكنايات؛ لأنّ الألطاف إنما تردف الإيمان والعمل أو كونهما مترقبين. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقوله: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقرئ: سحاب ظلمات، على الإضافة. وسحاب ظلمات، برفع ﴿سَحَابٌ﴾ وتنوينه وجرّ ﴿ظُلُمَـٰتٌ﴾ بدلاً من ﴿ظُلُمَـٰتٌ﴾ الأولى.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٢/ ٤٤ب وَٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾

﴿صَـٰٓفَّـٰتٍ﴾ يصفن أجنحتهنّ في الهواء. والضمير في ﴿عَلِمَ﴾ لكل أو لله. وكذلك في ﴿صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ والصلاة: الدعاء. ولا يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٤﴾﴾

﴿يُزْجِى﴾ يسوق. ومنه: البضاعة المزجاة: التي يزجيها كل أحد لا يرضاها. والسحاب يكون واحداً كالعماء، وجمعاً كالرباب[1]. ومعنى تأليف الواحد: أنه يكون قزعا[2] فيضم بعضه إلى بعض. وجاز بينه وهو واحد؛ لأنّ المعنى بين أجزائه؛ كما قيل في قوله [من الطويل]:

= عتبة: حدثت أبي بذلك فقال: أخطأ ابن شبرمة، وأخطأ ذو الرمة في تغييره، وإنما هو كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ والملالة: السآمة. وتنزح: تبعد. وينتزح: يزول.

ينظر: ديوانه ص (١١٩٢)، خزانة الأدب ٩/ ٣٠٩ ـ ٣١٢، شرح الأشموني ١/ ١٣٤، شرح المفصل ٧/ ١٢٤، لسان العرب (رسس)، الدر المصون ٣/ ٣٥.

(١) قوله «كالرباب» في الصحاح: الرباب ـ بالفتح ـ سحاب أبيض. (ع)

(٢) قوله «أن يكون قزعا» القزع: قطع من السحاب رقيقة، الواحدة: قزعة. (ع)

والركام: المتراكم بعضه فوق بعض. والودق: المطر ﴿مِنْ خِلَالِهِۦ﴾ من فتوقه ومخارجه: جمع خلل، كجبال في جبل. وقرئ: من خلله ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بالتشديد. ويكاد سنا: على الإدغام[2]. وبرقه: جمع برقة، وهي المقدار من البرق، كالغرفة واللقمة. وبرقة: بضمتين للاتباع، كما قيل في جمع فعلة: فعلات كظلمات. وسناء برقه: على المدّ المقصور، بمعنى الضوء. والممدود: بمعنى العلو والارتفاع، من قولك: سنيّ للمرتفع. و﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ على زيادة الباء، كقوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٥]، عن أبي جعفر المدني. وهذا من تعديد الدلائل على ربوبيته وظهور أمره، حيث ذكر تسبيح من في السموات والأرض وكل ما يطير بين السماء والأرض ودعاؤهم له وابتهالهم إليه، وأنه سخر السحاب التسخير الذي وصفه وما يحدث فيه من أفعاله حتى ينزل المطر منه، وأنه يقسم رحمته بين خلقه ويقبضها ويبسطها على ما تقتضيه حكمته، ويريهم البرق في السحاب الذي يكاد يخطف أبصارهم، ليعتبروا ويحذروا، ويعاقب بين الليل والنهار، ويخالف بينهما بالطول والقصر. وما هذه إلا براهين في غاية الوضوح على وجوده وثباته، ودلائل منادية على صفاته، لمن نظر وفكر وتبصر وتدبر، فإن قلت: متى رأى رسول الله ـ ﷺ ـ تسبيح من في السموات ودعاءهم، وتسبيح الطير ودعاءه، وتنزيل المطر

---

(١) قفا نبك من ذكر حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

لامرىء القيس مطلع معلقته، وروي أنه راهق ولم يقل شعرا، فقال أبوه: إنه ليس أبيض، وأمر اثنين من خاصته أن يخرجا به إلى مكان بعيد فيذبحاه هناك، فلما أراد ذبحه بكى وأنشأ البيت إلى آخر القصيدة، فرجعا به وقالا: هذا أشعر من على وجه الأرض: لقد وقف واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر واستذكر وهي الحبيب والدار في نصف بيت. والسقط ـ مثلث ـ: طرف اللوى، أي: المكان الملتوي المعوج. وهو هنا اسم مكان بعينه. وبين لا يضاف إلا لمتعدد المعنى، أو معطوف عليه بالواو خاصة. فالمعنى: بين أجزاء الدخول فحومل. أي فأجزاء حومل كلاهما اسم موضع، ولعل «سقط اللوى» ممتد بينهما. ويجوز أن الفاء بمعنى الواو، فيكون «سقط اللوى» بين هذين الموضعين، وتكون استعارة الفاء هنا للدلالة على قرب ما بين الدخول وحومل.

ينظر: ديوانه ص ٨، والأزهيّة ص ٢٤٤، ٢٤٥، وجمهرة اللغة ص ٥٦٧، والجنى الداني ص ٦٣، ٦٤، وخزانة الأدب ١/ ٣٣٢، ٣/ ٢٢٤، والدرر ٦/ ٧١، وسرّ صناعة الإعراب ٢/ ٥٠١، وشرح شواهد الشافية ص ٢٤٢، وشرح شواهد المغني ١/ ٤٦٣، والكتاب ٤/ ٢٠٥، ولسان العرب (أ)، ومجالس ثعلب ص ١٢٧، وهمع الهوامع ٢/ ١٢٩، وتاج العروس (قوا)، وبلا نسبة في الإنصاف ٢/ ٦٥٦، وأوضح المسالك ٣/ ٣٥٩، وجمهرة اللغة ص ٥٨٠، والدرر ٦/ ٨٢، ورصف المباني ص ٣٥٣، وشرح الأشموني ٢/ ٤١٧، وشرح شافية ابن الحاجب ٢/ ٣١٦، وشرح قطر الندى ص ٨٠، والصاحبي في فقه اللغة ص ١١٠، ومغني اللبيب ١/ ١٦١، ٢٦٦، والمنصف ١/ ٢٢٤، وهمع الهوامع ٢/ ١٣١، ولسان العرب (قوا).

(٢) قوله «ويكاد سنا على الإدغام» لعل رسمه هكذا «يكاسنا» إلا أن يعتبر ما قبل الإدغام. (ع)

من جبال برد في السماء، حتى قيل له: ألم تر؟ قلت: علمه من جهة إخبار الله إياه بذلك على طريق الوحي. فإن قلت: ما الفرق بين من الأولى والثانية والثالثة في قوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ﴾، ﴿مِن بَرَدٍ﴾؟ قلت: الأولى لابتداء الغاية، والثانية للتبعيض. والثالثة للبيان، أو الأوليان للابتداء والآخرة للتبعيض. ومعناه: أنه ينزل البرد من السماء من جبال فيها، وعلى الأوّل مفعول «ينزل»: «من جبال». فإن قلت: ما معنى ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾؟ قلت: فيه معنيان. أحدهما: أن يخلق الله في السماء جبال برد كما خلق في الأرض جبال حجر. والثاني: أن يريد الكثرة بذكر الجبال، كما يقال: فلان يملك جبالاً من ذهب.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)﴾

وقرئ: خالق كل دابة. ولما كان اسم الدابة موقعاً على المميز وغير المميز، غلب المميز فأعطى ما وراءه حكمه، كأن الدواب كلهم مميزون. فمن ثمة قيل: فمنهم. وقيل: من يمشي في الماشي على بطن والماشي على أربع قوائم. فإن قلت: لم نكر الماء في قوله: ﴿مِّن مَّاءٍ﴾؟ قلت: لأنّ المعنى أنه خلق كل دابة من نوع من الماء مختص بتلك الدابة. أو خلقها من ماء مخصوص وهو النطفة، ثم خالف بين المخلوقات من النطفة، فمنها هوام ومنها بهائم ومنها ناس. ونحوه قوله تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤]. فإن قلت: فما باله معرّفاً في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾؟ قلت: قصد ثمة معنى آخر: وهو أن أجناس الحيوان كلها مخلوقة من هذا الجنس[(١)] الذي هو جنس الماء، وذلك أنه هو الأصل وإن تخللت بينه وبينها وسائط. قالوا: خلق الملائكة من ريح خلقها من الماء، والجنّ من نار خلقها منه. وآدم من تراب خلقه منه، فإن قلت: لم جاءت الأجناس الثلاثة على هذا الترتيب؟ قلت: قدم ما هو أعرق في القدرة وهو الماشي بغير آلة مشي من أرجل أو قوائم، ثم الماشي على رجلين، ثم الماشي على أربع. فإن قلت: لم سمى الزحف على البطن مشياً؟ قلت: على سبيل

---

(١) قال محمود: «إن قلت لم نكر ماء ههنا وعرفه في قوله ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾؟ قلت: الغرض فيما نحن فيه أنه تعالى خلق كل دابة من نوع من الماء مخصوص وهو النطفة، ثم خالف بين المخلوقات بحسب اختلاف نطفها، فمنها كذا ومنها كذا. ونحوه قوله: ﴿يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾ وأما آية (اقترب) فالغرض فيها أن أجناس الحيوانات كلها مخلوقة من هذا الجنس» قال أحمد: وتحرير الفرق أن المقصد في الأولى إظهار الآية بأن شيئاً واحداً تكونت منه بالقدرة أشياء مختلفة، ذكر تفصيلها في آية النور والرعد. والمقصد في آية اقترب: أنه خلق الأشياء المتفقة في جنس الحياة من جنس الماء المختلف الأنواع، فذكر معرفاً ليشمل أنواعه المختلفة، فالآية في الأول لإخراج المختلف من المتفق، والله أعلم.

الاستعارة، كما قالوا في الأمر المستمرّ: قد مشى هذا الأمر. ويقال: فلان لا يتمشى له أمر. ونحوه استعارة الشفة مكان الجحفلة[1]، والمشفر مكان الشفة. ونحو ذلك. أو على طريق المشاكلة لذكر الزاحف مع الماشين.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى القائلين آمنا وأطعنا. أو إلى الفريق المتولي، فمعناه على الأوّل: إعلام من الله بأنّ جميعهم منتف عنهم الإيمان لا الفريق المتولي وحده. وعلى الثاني: إعلام بأنّ الفريق المتولي لم يكن ما سبق لهم من الإيمان إيماناً، إنما كان ادّعاء باللسان من غير مواطأة القلب؛ لأنه لو كان صادراً عن صحة معتقد وطمأنينة نفس لم يتعقبه التولي والإعراض. والتعريف في قوله (بالمؤمنين) دلالة على أنهم ليسوا بالمؤمنين الذين ٢/ ٤٥أ عرفت: وهم الثابتون المستقيمون على الإيمان، الموصوفون في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥].

﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾

معنى ﴿إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى رسول الله كقولك: أعجبني زيد وكرمه، تريد: كرم زيد؛ ومنه قوله [من الرجز]:

غَلَّسْتَهُ قَبْلَ الْقَطَا وَفُرَّطِه[2]

---

(١) قوله «مكان الجحفلة» في الصحاح: الجحفلة للحافر، كالشفة للإنسان اهـ. أي لذي الحافر. (ع)

(٢) ومنهل من الفيافي أوسطه غلسته قبل القطا وفرطه
في ظل أجاج المقيظ مغبطه

المنهل: الوادي ومسيل الماء. والفيافي: الصحاري، جمع فيفاء. والظاهر أن أوسطه صفة منهل المجرور برب المحذوفة، وهاؤه للسكت، ولو جعلته بدل بعض والهاء ضمير المنهل: لزم جر المعرفة برب، مع إمكان التخلص عنه إلا عند من جعل ضمير النكرة نكرة فلا محذور. ويروى: من الفلا في أوسطه. والفلا واحده فلاة، أي: مفازة. والرواية: غلسته بالتشديد، أي سرته في وقت الغلس وهو ظلمة الفجر، أو وردته فيه. والفرط من القطا: المتقدمات السابقات لغيرها، جمع فارط، كركع وراكع. وخصها لأنها أسرع الطير خروجاً من أوكارها. وأجاج المقيظ: شعاع الشمس يرى في شدة القيظ أي الحر كأنه يسير. وأجت النار: اشتعلت، والحر: اشتد، والظليم: أسرع وله حفيف، والأمر: اختلط. وأجاج: صفة مبالغة منه، وأغبط الشيء فهو مغبط: دام واستمر فمغبطه الدائم الكثير منه. والمعنى: أنه يبتدىء السير قبل السابقات من القطا، ويستمر عليه مع اشتداد الحر =

أراد: قبل فرط القطا. روي: أنها نزلت في بشر المنافق وخصمه اليهودي حين اختصما في أرض، فجعل اليهوديّ يجرّه إلى رسول الله، والمنافق يجرّه إلى كعب بن الأشرف ويقول: إن محمداً يحيف علينا. وروي أنّ المغيرة بن وائل كان بينه وبين عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ خصومة في ماء وأرض. فقال المغيرة: أمّا محمد فلست آتيه ولا أحاكم إليه فإنه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف عليّ ﴿إِلَيْهِ﴾ صلة يأتوا، لأنّ «أتى» و«جاء» قد جاءا معدّيين بإلى، أو يتصل بمذعنين لأنه في معنى مسرعين في الطاعة. وهذا أحسن لتقدّم صلته ودلالته على الاختصاص. والمعنى: أنهم لمعرفتهم أنه ليس معك إلا الحق المرّ والعدل البحت. يزورّون عن المحاكمة إليك إذا ركبهم الحق؛ لئلا تنتزعه من أحداقهم بقضائك عليهم لخصومهم، وإن ثبت لهم حق على خصم أسرعوا إليك ولم يرضوا إلا بحكومتك، لتأخذ لهم ما ذاب لهم في ذمّة الخصم[1].

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

ثم قسم الأمر في صدودهم عن حكومته إذا كان الحق عليهم بين أن يكونوا مرضى القلوب منافقين، أو مرتابين في أمر نبوّته، أو خائفين الحيف في قضائه. ثم أبطل خوفهم حيفه بقوله ﴿بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أي لا يخافون أن يحيف عليهم لمعرفتهم بحاله، وإنما هم ظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم ويتمّ لهم جحوده، وذلك شيء لا يستطيعونه في مجلس رسول الله ـ ﷺ ـ، فمن ثمة يأبون المحاكمة إليه.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾

وعن الحسن: قول المؤمنين، بالرفع والنصب أقوى، لأنّ أولى الاسمين بكونه اسماً لكان أوغلهما في التعريف؛ وأن يقولوا: أوغل، لأنه لا سبيل عليه للتنكير، بخلاف قول المؤمنين، وكان هذا من قبيل كان في قوله ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥]، ﴿مَّ

= في ظل شعاع الشمس، لا يظله إلا هو إن كان له ظل، وهذا من المبالغة في النفي. ويجوز أنه اعتاده فصار عنده كالظل، ويجوز أن المعنى: تحت كنفه وسترته وجاهه الشبيه بالظل.

ينظر: لسان العرب (غبط)، جمهرة اللغة (ص ٣٥٧)، مجالس ثعلب (٣١٣)، الدر المصون (٥/ ٢٢٨).

(١) قوله «ما ذاب لهم في ذمة الخصم» في الصحاح: ذاب لي عليه من الحق كذا: إذا وجب وثبت. (ع)

يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ [النور: ١٦]، وقرئ، ليحكم، على البناء للمفعول. فإن قلت: إلام أسند يحكم؟ ولا بدّ له من فاعل. قلت: هو مسند إلى مصدره. لأن معناه: ليفعل الحكم بينهم. ومثله: جمع بينهما؛ وأل بينهما. ومثله ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٥]، فيمن قرأ (بينكم) منصوباً: أي وقع التقطع بينكم. وهذه القراءة مجاوبة لقوله (دعوا).

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قرئ: ويتقه، بكسر القاف والهاء مع الوصل وبغير وصل، وبسكون الهاء، وبسكون القاف وكسر الهاء: شبه تَقِهِ بكتف فخفف؛ كقوله [من الرجز]:

قَالَتْ سُلَيْمَى: ٱشْتَرْ لَنَا سَوِيقَا[1]

ولقد جمع الله في هذه الآية أسباب الفوز. وعن ابن عباس في تفسيرها ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ في فرائضه ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ في سننه ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ على ما مضى من ذنوبه ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما يستقبل، وعن بعض الملوك أنه سأل عن آية كافية فتليت له هذه الآية.

﴿۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾

جهد يمينه: مستعار من جهد نفسه: إذا بلغ أقصى وسعها، وذلك إذا بالغ في اليمين وبلغ غاية شدّتها ووكادتها. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: من قال بالله، جهد يمينه، وأصل: أقسم جهد اليمين: أقسم بجهد اليمين جهدًا، فحذف الفعل وقدّم المصدر فوضع

---

(١) قالت سليمى: اشتر لنا سويقا ... وهات خبز البرّ أو دقيقا

للعذافر الكندي. يقال: شار العسل ونحوه، واشتاره: إذا اجتناه وأخذه من مكانه. فقوله «اشتر» أمر من الاشتيار. ويحتمل أنه من الاشتراء، وسكنت راؤه للضرورة. أي: اطلب لنا سويقاً، وهو ما تعمله العرب من الحنطة والشعير. وهات: بكسر التاء أمر للمذكر، طلبت منه السويق للأدم، وخيرته بين أن يأتي بخبز وبين أن يأتي بدقيق وهي تخبزه. ويروى: «وهات بر البخس أو دقيقاً» والبخس: الأرض التي تنبت من غير سقي، وفي بقية الرجز أنها طلبت منه لحماً وخادماً وصبغاً لثيابها بالعصفر، فقال:

يا سلم لو كنت لذا مطيقا ... ما كان عيشي عندكم ترنيقا

أي: مدة ترنيق الطائر، أي: صف جناحيه في الهواء.

ينظر: شرح شواهد الإيضاح ص ٢٥٨، وشرح شواهد الشافية ص ٢٠٤، ٢٠٥، وملحق نوادر أبي زيد ص ٣٠٦، وتاج العروس (بخس)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر ١/٦٦، وجمهرة اللغة ص ١٣٢٧، والخصائص ٢/٢٤٠، ٣/٩٦، وشرح شافية ابن الحاجب ٢/٢٩٨، والمحتسب ١/٣٦١، والمصنف ٢/٢٣٦.

موضعه مضافاً إلى المفعول كقوله: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٣]، وحكم هذا المنصوب حكم الحال، كأنه قال: جاهدين أيمانهم، و﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف. أو مبتدأ محذوف الخبر، أي: أمركم والذي يطلب منكم طاعة معروفة معلومة لا يشك فيها ولا يرتاب، كطاعة الخلص من المؤمنين الذين طابق باطن أمرهم ظاهره، لا أيمان تقسمون بها بأفواهكم وقلوبكم على خلافها، أو طاعتكم طاعة معروفة، بأنها بالقول دون الفعل، أو طاعة معروفة أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة. وقرأ اليزيدي: طاعة معروفة، بالنصب على معنى: أطيعوا طاعة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ﴾ [النور: ٥٣]، يعلم ما في ضمائركم ولا يخفى عليه شيء من سرائركم، وأنه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم.

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾

صرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات وهو أبلغ في تبكيتهم، يريد: فإن تتولوا فما ضررتموه وإنما ضررتم أنفسكم، فإنّ الرسول ليس عليه إلا ما حمله الله وكلفه من أداء الرسالة، فإذا أدّى فقد خرج عن عهدة تكليفه، وأما أنتم فعليكم ما كلفتم من التلقي بالقبول والإذعان، فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه، وإن أطعتموه فقد أحرزتم نصيبكم من الخروج عن الضلالة إلى الهدى، فالنفع والضرر عائدان إليكم، وما الرسول إلا ناصح وهاد، وما عليه إلا أن يبلغ ما له نفع في قبولكم[١]، ولا عليه ضرر في توليكم: والبلاغ: بمعنى التبليغ، كالأداء: بمعنى التأدية، ومعنى المبين: كونه مقروناً بالآيات والمعجزات.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ٢/ ٤٥ب فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾

الخطاب لرسول الله - ﷺ - ولمن معه. ومنكم: للبيان، كالتي في آخر سورة الفتح: وعدهم الله أن ينصر الإسلام على الكفر، ويورّثهم الأرض، ويجعلهم فيها خلفاء، كما فعل ببني إسرائيل، حين أورثهم مصر والشام بعد إهلاك الجبابرة، وأن يمكن الدين المرتضى وهو دين الإسلام. وتمكينه: تثبيته وتوطيده، وأن يؤمن سربهم ويزيل عنهم الخوف الذي كانوا عليه، وذلك أنّ النبي - ﷺ - وأصحابه مكثوا بمكة عشر

---

(١) قوله «في قبولكم» عبارة النسفي: في قلوبكم. (ع)

سنين خائفين، ولما هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون في السلاح ويمسون فيه، حتى قال رجل: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فقال ـ ﷺ ـ: «لا تغبرون[1] إلا يسيرًا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليس معه حديدة» (١٠٥٣)، فأنجز الله وعده وأظهرهم على جزيرة العرب، وافتتحوا بعد بلاد المشرق والمغرب، ومزقوا ملك الأكاسرة وملكوا خزائنهم، واستولوا على الدنيا، ثم خرج الذين على خلاف سيرتهم فكفروا بتلك الأنعم وفسقوا، وذلك قوله ـ ﷺ ـ: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم يملك الله من يشاء فتصير ملكاً، ثم تصير بزيزي[2]: قطع سبيل، وسفك دماء وأخذ

١٠٥٣ ـ أخرجه ابن جرير (٩/ ٣٤٣) رقم (٢٦١٧٩) حدثنا الحسين قال: ثنى حجاج عن أبي جعفر عن الربيع عن أبي العالية في الآية قال: «مكث النبي ـ ﷺ ـ عشر سنين خائفاً، يدعو إلى الله سراً وعلانية؛ قال: «ثم أمر بالهجرة إلى المدينة. قال: فمكث بها هو وأصحابه خائفين، يصبحون في السلاح ويمسون فيه، فقال رجل: «ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح»، فقال النبي ـ ﷺ ـ: «لا تغبرون إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً فيه ليس فيه حديدة، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾.... إلى قوله: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ قال يقول: من كفر بهذه النعمة: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ وليس يعني الكفر بالله قال: فأظهره الله على جزيرة العرب فآمنوا، ثم تجبروا فغير الله ما بهم، وكفروا بهذه النعمة، فأدخل الله عليهم الخوف الذي كان رفعه عنهم».

وذكره السيوطي في الدر (٥/ ١٠٠) وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم. وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٤٤٧) للواحدي في أسباب النزول.

وروى الحاكم (٢/ ٤٠١) من حديث الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال: لما قدم رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة، كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين، لا نخاف إلا الله، فنزلت: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾... الآية.

وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه اهـ.

قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٨٦): «رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات» اهـ.

وذكره السيوطي في الدر (٥/ ١٠٠) وعزاه لابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، والضياء في المختارة. وذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٣٢٦).

قال الحافظ: أخرجه الطبري من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قال: مكث النبي ـ ﷺ ـ عشر سنين خائفاً يدعو إلى الله سراً وعلانية. ثم أمر بالهجرة إلى المدينة فمكث بها هو وأصحابه ـ إلى آخره، وصله الحاكم وابن مردويه دون أوله بذكر أبي بن كعب فيه. وأوله «لما قدم النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار. رمتهم العرب عن قوس واحدة لا يبيتون إلا بالسلاح... الحديث. انتهى.

---

(١) قوله «لا تغبرون إلا يسيراً» أي لا تبقون. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «تصير بزيزي» في الصحاح: بزه يبزه بزا: سلبه. والاسم البزيزي مثل الخصيصي. (ع)

أموال بغير حقها» (١٠٥٤)، وقرئ: كما استخلف، على البناء للمفعول وليبدلنهم: بالتشديد، فإن قلت: أين القسم الملتقي باللام والنون في ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾؟ قلت: هو محذوف تقديره: وعدهم الله، وأقسم ليستخلفنهم، أو نزّل وعد الله في تحققه منزلة القسم. فتلقى بما يتلقى به القسم، كأنه قيل: أقسم الله ليستخلفنهم. فإن قلت: ما محل ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾؟ قلت: إن جعلته استئنافاً لم يكن له محل، كأن قائلاً قال: ما لهم يستخلفون ويؤمنون؟ فقال: يبعدونني. وإن جعلته حالاً عن وعدهم، أي وعدهم الله ذلك في حال عبادتهم وإخلاصهم، فمحله النصب ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ يريد كفران النعمة: كقوله ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢]. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: هم الكاملون في فسقهم، حيث كفروا تلك النعمة العظيمة وجسروا على غمطها[1]. فإن قلت: هل في هذه الآية دليل على

١٠٥٤ ـ قال الزيلعي (٢/٤٤٨): «غريب بهذا اللفظ» اهـ.

قال الحافظ ابن حجر: «لم أجده وأوله في السنن» اهـ.

قلت في السنن حديث سفينة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتي الله الملك أو ملكه من يشاء».

رواه أبو داود (٢/٦٢٢) كتاب السنة، باب في الخلفاء الحديث (٤٦٤٦)، (٤٦٤٧)، والترمذي (٤/٥٠٣) كتاب الفتن، باب ما جاء في الخلافة الحديث (٢٢٢٦).

والحاكم (٣/١٤٥) كتاب معرفة الصحابة، وأحمد (٥/٢٢١)، وابن حبان في صحيحه (١٥/٣٤ ـ ٣٥) رقم (٦٦٥٧)، والبيهقي في الدلائل (٦/٢٤١)، والطيالسي (١١٠٧)، والطبراني في الكبير (١/٨٩) رقم (١٣٦) ورواه في (٧/٩٧) رقم (٦٤٤٢) ورقم (٦٤٤٣ ـ ٦٤٤٤)، والبغوي في شرح السنة (٧/١٧٥) رقم (٣٧٥٨ ـ بتحقيقنا)، وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/٤٤٨)، للبيهقي في «المدخل» والنسائي في كتاب «المناقب» والثعلبي في تفسيره.

وله شاهد من حديث أبي عبيدة ومعاذ بن جبل مرفوعاً: «إن الله تعالى بدأ هذا الأمر نبوة ورحمة، وكائناً خلافة ورحمة، وكائناً ملكا عضوضاً، وكائناً عتوة وجبرية وفسادا في الأرض يستحلون الفروج والخمور والحرير، وينصرون على ذلك ويرزقون أبدا حتى يلقوا الله...

رواه الطيالسي رقم (٢٥٩٢ ـ منحة)، والبيهقي في الكبرى (٨/١٥٩) كتاب قتال أهل البغي، باب الصبر على أذى يصيبه من جهة إمامه. وفي الدلائل (٦/٣٤٠) وهو عند غيرهما، وشاهد آخر من حديث أبي بكرة رواه أبو داود (٢/٦١٩) كتاب السنة، باب في الخلفاء، الحديث (٤٦٣٥)، والبيهقي في الدلائل (٦/٣٤٢ ـ ٣٤٨) وغيرهما.

قال الحافظ: لم أجده. وأوله في السنن وابن ماجه، والحاكم، وأحمد، والطبراني، والبيهقي، والثعلبي كلهم من حديث سفينة «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ملك» وفي لفظ: «ثم يملك الله من يشاء» وروى أحمد، وابن أبي شيبة، والطبراني من طريق عبد الرحمن بن سابط، عن أبي ثعلبة، عن أبي عبيدة، ومعاذ بن جبل مرفوعاً: «إن الله بدأ هذا الأمر نبوة ثم يصير خلافة... الحديث». انتهى.

---

(١) قوله «على غمطها» أي: احتقارها. (ع)

أمر الخلفاء الراشدين؟ قلت: أوضح دليل وأبينه؛ لأن المستخلفين الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم هم.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ معطوف على ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤]، وليس ببعيد أن يقع بين المعطوف والمعطوف عليه فاصل وإن طال؛ لأنّ حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه. وكرّرت طاعة الرسول: تأكيداً لوجوبها.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾

وقرئ: لا يحسبنّ بالياء، وفيه أوجه: أن يكون ﴿مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هما المفعولان. والمعنى: لا يحسبن الذين كفروا أحداً يعجز الله في الأرض حتى يطمعوا هم في مثل ذلك. وهذا معنى قوي جيد، وأن يكون فيه ضمير الرسول لتقدم ذكره في قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤]، وأن يكون الأصل: لا يحسبنهم الذين كفروا معجزين، ثم حذف الضمير الذي هو المفعول الأوّل، وكان الذي سوّغ ذلك أنّ الفاعل والمفعولين ما كانت لشيء واحد، اقتنع بذكر اثنين عن ذكر الثالث؛ وعطف قوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ على لا يحسبنّ الذين كفروا معجزين؛ كأنه قيل: الذين كفروا لا يفوتون الله ومأواهم النار. والمراد بهم: المقسمون جهد أيمانهم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾

أمر بأن يستأذن العبيد. وقيل: العبيد والإماء والأطفال الذين لم يحتلموا من الأحرار ﴿ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ في اليوم والليلة: قبل صلاة الفجر؛ لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ما ينام فيه من الثياب ولبس ثياب اليقظة، وبالظهيرة: لأنها وقت وضع الثياب للقائلة. وبعد صلاة العشاء: لأنه وقت التجرّد من ثياب اليقظة والالتحاف بثياب النوم. وسمى كل واحد من هذه الأحوال عورة؛ لأن الناس يختل تسترهم وتحفظهم فيها. والعورة: الخلل. ومنها: أعور الفارس[1]، وأعور المكان، والأعور: المختل العين، ثم عذرهم في ترك

---

(١) قوله «ومنها أعور الفارس» في الصحاح أعور الفارس، إذا بدا فيه موضع خلل للضرب. (ع)

الاستئذان وراء هذه المرات، وبين وجه العذر في قوله: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني أن بكم وبهم حاجة إلى المخالطة والمداخلة: يطوفون عليكم للخدمة، وتطوفون عليهم للاستخدام؛ فلو جزم الأمر بالاستئذان في كل وقت، لأدى إلى الحرج. وروي أن مدلج بن عمرو: وكان غلاماً أنصاريًا: أرسله رسول الله ـ ﷺ ـ وقت الظهر إلى عمر ليدعوه، فدخل عليه وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه، فقال عمر: لوددت أنّ الله عز وجل نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا هذه الساعات إلا بإذن، ثم انطلق معه إلى النبي ـ ﷺ ـ، فوجده وقد أنزلت عليه هذه الآية (١٠٥٥)، وهي إحدى الآيات المنزلة بسبب عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ. وقيل: نزلت في أسماء بنت أبي مرشد[1]، قالت: إنا لندخل على الرجل والمرأة ولعلهما يكونان في لحاف واحد (١٠٥٦)، وقيل: دخل عليها غلام لها كبير في وقت كرهت دخوله ٢/٤٦أ، فأتت رسول الله ـ ﷺ ـ فقالت: إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها. وعن أبي عمرو: ﴿الْحُلْمَ﴾ بالسكون. وقرئ: ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ﴾ بالنصب بدلاً عن ثلاث مرات، أي: أوقات ثلاث عورات. وعن الأعمش: عورات على لغة هذيل. فإن قلت: ما محل ليس عليكم؟ قلت: إذا رفعت ثلاث عورات كان ذلك في محل الرفع على الوصف. والمعنى: هنّ ثلاث عورات مخصوصة بالاستئذان، وإذا نصبت: لم يكن له محل وكان كلاماً مقرّراً للأمر بالاستئذان في تلك الأحوال خاصة: فإن قلت: بم ارتفع ﴿بَعْضُكُمْ﴾؟ قلت: بالابتداء وخبره ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ على معنى: طائف على بعض، وحذف لأن طوافون يدل عليه، ويجوز أن يرتفع بيطوف مضمراً لتلك الدلالة.

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩)﴾

١٠٥٥ ـ أخرجه ابن مندة من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ بعث غلاماً من الأنصار يقال له مدلج إلى عمر يدعوه... الحديث. كما في الإصابة للحافظ ابن حجر (٦/ ٥٠) ترجمة مدلج الأنصاري رقم (٧٨٧٥ ـ بتحقيقنا).
وذكره البغوي في معالم التنزيل (٣/ ٣٥٥) بغير إسناد.
قال الحافظ: هكذا نقله الثعلبي والواحدي والبغوي وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ بغير سند. انتهى.

١٠٥٦ ـ قال الزيلعي (٢/ ٤٥٠): «نقله الثعلبي والواحدي عن مقاتل» اهـ.
قال الحافظ: هكذا نقله الثعلبي والواحدي عن مقاتل.

---

(١) قوله «وقيل نزلت في أسماء بنت أبي مرشد» لعله مرثد، كما في عبارة النسفي. (ع)

﴿ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ﴾ أي من الأحرار دون المماليك ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يريد: الذين بلغوا الحلم من قبلهم، وهم الرجال. أو الذين ذكروا من قبلهم في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ [النور: ٢٧]، الآية: والمعنى أنّ الأطفال مأذون لهم في الدخول بغير إذن إلا في العورات الثلاث، فإذا اعتاد الأطفال ذلك ثم خرجوا عن حدّ الطفولة بأن يحتلموا أو يبلغوا السنّ التي يحكم فيها عليهم بالبلوغ، وجب أن يفطموا عن تلك العادة ويحملوا على أن يستأذنوا في جميع الأوقات كما الرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن: وهذا مما الناس منه في غفلة، وهو عندهم كالشريعة المنسوخة. وعن ابن عباس: آية لا يؤمن بها أكثر الناس: آية الإذن، وإني لآمر جارتي أن تستأذن عليّ. وسأل عطاء: أأستأذن على أختي؟ قال: نعم وإن كانت في حجرك تمونها، وتلا هذه الآية. وعنه. ثلاث آيات جحدهنّ الناس: الإذن كله، وقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فقال ناس: أعظمكم بيتا. وقوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ [النساء: ٨]. وعن ابن مسعود: عليكم أن تستأذنوا على آبائكم وأمهاتكم وأخواتكم. وعن الشعبي: ليست منسوخة، فقيل له: إن الناس لا يعملون بها، فقال: الله المستعان، وعن سعيد بن جبير يقولون هي منسوخة، ولا والله ما هي منسوخة، ولكن الناس تهاونوا بها: فإن قلت ما السنّ التي يحكم فيها بالبلوغ؟ قلت: قال أبو حنيفة ثماني عشرة سنة في الغلام. وسبع عشرة في الجارية. وعامة العلماء على خمس عشرة فيهما. وعن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه كان يعتبر القامة ويقدره بخمسة أشبار؛ وبه أخذ الفرزدق في قوله [من الكامل]:

مَـا زَالَ مُـذْ عَـقَـدَتْ يَـدَاهُ إِزَارَهُ   فَـسَـمَـا فَـأَدْرَكَ خَـمْـسَـةَ الأَشْـبَـارِ[1]

---

(١) مـا زال مـذ عـقـدت يـداه إزاره   وسـمـا فـأدرك خـمـسـة الأشـبـار
يدني خوافق من خوافق تلتقي   في ظل معتبط الغبار مثار

للفرزدق: يرثي يزيد بن المهلب. يقول: لا زال يحارب من حين عقدت يداه إزاره على نفسه كناية عن تمييزه فيتولى أمور نفسه، فمذ: ظرف زمان لإضافتها إلى الجملة، ولكنها تفيد معنى من الابتدائية أيضا، لأن المعنى: ما زال يقتحم الحروب من حين بلغ أشده إلى أن مات. وإسناد العقد إلى اليد من باب الإسناد للآلة، لأنه عاقد بها. وسما: ارتفع فبلغت قامته مقدار خمسة الأشبار. قيل: المراد بها مقدار السيف، وذلك كناية عن بلوغه أشده. وقيل: المراد بها مقدار القبر، وإدراكها: كناية عن موته. أي: من حين تمييزه إلى حين موته يهيج الحروب وهو أبلغ في المعنى. وعطف «أدرك» بالفاء دلالة على قصر مدته وقرب موته، ويروى: فسما بالفاء. ويجوز أن يكون معناه: ارتفع قدره، فيكون قد حكى جميع حالاته. وقوله «يدني» خبر ما زال، أي: يقرب رايات مضطربات إلى أخرى في الحرب. أو خيلاً مضطربة إلى مثلها. والمراد أنه يقرب الكتائب بعضها إلى بعضها حتى تلتقي كلها في ظل معتبط من الغبار. والمعتبط ـ بالعين المهملة ـ: اسم مفعول، أي: لم يقاتل فيه غيره قبله فيثيره من موضعه، بل هو الذي أثاره منه. أو أنه هو الذي أخرجه من =

واعتبر غيره الإنبات. وعن عثمان ـ رضي الله عنه ـ أنه سئل عن غلام، فقال: هل اخضر إزاره؟

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

القاعد: التي قعدت عن الحيض والولد لكبرها ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ لا يطمعن فيه: والمراد بالثياب: الثياب الظاهرة كالملحفة والجلباب الذي فوق الخمار ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ غير مظهرات زينة[1]، يريد: الزينة الخفيفة التي أرادها في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أو غير قاصدات بالوضع التبرج، ولكن التخفف إذا احتجن إليه. والاستعفاف من الوضع خير لهنّ لما ذكر الجائز عقبه بالمستحب. بعثا منه عن اختيار أفضل الأعمال وأحسنها. كقوله: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٠]. فإن قلت: ما حقيقة التبرج؟ قلت: تكلف إظهار ما يجب إخفاؤه من قولهم: سفينة بارج، لا غطاء عليها. والبرج: سعة العين، يرى بياضها محيطاً بسوادها كله لا يغيب منه شيء، إلا أنه اختص بأن تتكشف المرأة للرجال بإبداء زينتها وإظهار

= الأرض الصلبة فلم يكن موجوداً قبل، ويروى بالغين المعجمة، أي: مكثر: والمعنى: أنه كان يزاد منه ويكثره. ويجوز أنه اسم مكان. ويروى: معترك العجاج، وهو موضع المعركة. والعجاج: الغبار. ومثار: صفة معتبط إن لم يتعرف بالإضافة. ويجوز أن أصله: مثاره، بالإضافة للضمير، فحذف للضرورة. وفي إثبات الظل للغبار المعتبط المثار: دلالة على أنه متراكم حاجب ضوء الشمس عن المحاربين.

ينظر: ديوانه ١/ ٣٠٥، والأشباه والنظائر ٥/ ١٢٣، والجنى الداني ص ٥٠٤، وجواهر الأدب ص ٣١٧، وخزانة الأدب ١/ ٢١٢، والدرر ٣/ ١٤٠، وشرح التصريح ٢/ ٢١، وشرح شواهد الإيضاح ص ٣١٠، وشرح شواهد المغني ٢/ ٧٥٥، وشرح المفصل ٢/ ١٢١، ٦/ ٣٣، والمقاصد النحوية ٣/ ٣٢١، والمقتضب ٢/ ١٧٦، وبلا نسبة في إصلاح المنطق ص ٣٠٣، وأوضح المسالك ٣/ ٦١، والدرر ٦/ ٢٠٣، وشرح الأشموني ١/ ٨٧، ولسان العرب (خمس)، ومغني اللبيب ١/ ٣٣٦، وهمع الهوامع ١/ ٢٦٦، ٢/ ١٥٠.

(١) قال أحمد: قرر الزمخشري هذه الآية عى ظاهرها، ويظهر لي والله أعلم أن قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ من باب:

على لاحب يهتدي بمناره

أي: لا منار فيه فيهتدي به، وكذلك، المراد: هنا: والقواعد من النساء اللاتي لا زينة لهن فيتبرجن بها، لأن الكلام فيمن هي بهذه المثابة، وكأن الغرض من ذلك أن هؤلاء استعفافهم عن وضع الثياب خير لهن، فما ظنك بذوات الزينة من الثياب، وأبلغ ما في ذلك أنه جعل عدم وضع الثياب في حق القواعد من الاستعفاف إيذانا بأن وضع الثياب لا مدخل له في العفة، هذا في القواعد. فكيف بالكواعب؟ والله أعلم.

محاسنها، وبدأ، وبرز، بمعنى: ظهر، من أخوات: تبرج وتبلج، كذلك.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)﴾

كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء وذوي العاهات إلى بيوت أزواجهم وأولادهم وإلى بيوت قراباتهم وأصدقائهم فيطعمونهم منها، فخالج قلوب المطعمين والمطعمين ريبة في ذلك، وخافوا أن يلحقهم فيه حرج؛ وكرهوا أن يكون أكلا بغير حق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]، فقيل لهم: ليس على الضعفاء ولا على أنفسكم؛ يعني: عليكم وعلى من في مثل حالكم من المؤمنين حرج في ذلك. وعن عكرمة: كانت الأنصار في أنفسها قزازة[١]. فكانت لا تأكل من هذه البيوت إذا استغنوا. وقيل: كان هؤلاء يتوقون مجالسة الناس ومؤاكلتهم لما عسى يؤدي إلى الكراهة من قبلهم، ولأنّ الأعمى ربما سبقت يده إلى ما سبقت عين أكيله إليه وهو لا يشعر، والأعرج يتفسح في مجلسه ويأخذ أكثر من موضعه فيضيق على جليسه، والمريض لا يخلو من رائحة تؤذي أو جرح يبض أو أنف يذن[٢] ونحو ذلك. وقيل: كانوا يخرجون إلى الغزو ويخلفون الضعفاء في بيوتهم، ويدفعون إليهم المفاتيح. ويأذنون لهم أن يأكلوا من بيوتهم فكانوا يتحرّجون. حكي عن الحارث بن عمرو أنه خرج غازياً وخلف مالك بن زيد في بيته وماله، فلما رجع ٢/٤٦ب رآه مجهوداً فقال: ما أصابك؟ قال: لم يكن عندي شيء، ولم يحل لي أن آكل من مالك ١٠٥٧، فقيل: ليس على هؤلاء الضعفاء حرج فيما تحرجوا عنه، ولا

١٠٥٧ ـ ذكره السيوطي في الدر (١٠٦/٥): وعزاه للثعلبي عن ابن عباس قال: «خرج الحارث غازياً مع رسول الله ـ ﷺ ـ وخلف على أهله خالد بن زيد، فحرج أن يأكل من طعامه وكان مجهوداً فنزلت.

---

(١) قوله «في أنفسها قزازة» في الصحاح «القزازة» التنطس والتباعد عن الدنس. وفيه «التنطس» المبالغة في التطهر. (ع)

(٢) قوله «أو جرح يبض أو أنف يذن» يبض أي يسيل قليلاً قليلا. ويذن: أي يسيل مخاطه. أفاده الصحاح. (ع)

عليكم أن تأكلوا من هذه البيوت، وهذا كلام صحيح، وكذلك إذا فسر بأن هؤلاء ليس عليهم حرج في القعود عن الغزو، ولا عليكم أن تأكلوا من البيوت المذكورة، لالتقاء الطائفتين في أن كل واحدة منهما منفي عنها الحرج. ومثال هذا أن يستفتيك مسافر عن الإفطار في رمضان. وحاج مفرد عن تقديم الحلق على النحر، فقلت: ليس على المسافر حرج أن يفطر، ولا عليك يا حاج أن تقدّم الحلق على النحر، فإن قلت: هلا ذكر الأولاد؛ قلت: دخل ذكرهم تحت قوله: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ [النحل: ٨٠]، لأنّ ولد الرجل بعضه، وحكمه حكم نفسه. وفي الحديث «إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه، وإن ولده من كسبه (١٠٥٨)، ومعنى ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم: ولأنّ الولد أقرب ممن عدّد من القرابات، فإذا كان سبب الرخصة هو القرابة: كان الذي هو أقرب منهم أولى. فإن قلت: ما معنى ﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾؟ قلت: أموال الرجل إذا كان له عليها قيم ووكيل يحفظها له: أن يأكل من ثمر بستانه ويشرب من لبن ماشيته. وملك المفاتح: كونها في يده وحفظه. وقيل: بيوت المماليك؛ لأن مال العبد لمولاه. وقرئ: مفتاحه: فإن قلت: فما معنى ﴿أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ﴾؟ قلت: معناه: أو بيوت أصدقائكم. والصديق يكون واحدا وجمعا[1]، وكذلك الخليط والقطين والعدوّ. يحكى عن الحسن أنه

١٠٥٨ ـ أخرجه أبو داود (٢/ ٣١١) كتاب البيوع، باب في الرجل يأكل من مال ولده الحديث (٣٥٢٨)، والنسائي (٧/ ٢٤٠) كتاب البيوع، باب الحث على الكسب، والترمذي (٣/ ٦٣٠) كتاب الأحكام، باب ما جاء أن الوالد يأخذ من مال ولده الحديث (١٣٥٨)، وابن ماجه (٢/ ٧٦٩) كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده الحديث (٢٢٩٠)، وأحمد في مسنده (٦/ ٣١ ـ ٤١ ـ ٤٢ ـ ١٢٦ ـ ١٢٧، ١٢٧ ـ ١٦٢ ـ ١٧٣ ـ ١٩٣ ـ ٢٠٠ ـ ٢٠١ ـ ٢٠٢ ـ ٢٠٣)، وابن حبان في صحيحه (١٠/ ٧٢ ـ ٧٣) رقم (٤٢٥٩ ـ ٤٢٦٠)، والدارمي (٢/ ٢٤٧) كتاب البيوع، باب في الكسب وعمل الرجل بيده، والبيهقي (٧/ ٤٧٩ ـ ٤٨٠) كتاب النفقات، باب نفقة الأبوين، والبخاري في التاريخ (١/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧)، والطيالسي (١٥٨٠)، والبغوي في شرح السنة (٥/ ٢٣٥) رقم (٢٣٩١ ـ بتحقيقنا).

قال الحافظ: أخرجه أصحاب السنن، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن حبان، والحاكم، وأحمد، وإسحاق، والبزار، وأبو يعلى، كلهم من حديث عائشة بهذا. قال ابن القطان: يرويه عمارة بن عمير فقال إبراهيم عنه عن عمته عن عائشة. وقال الحاكم: عن عمارة عن أمه عن عائشة، وذكره الدارقطني في العلل والاختلاف فيه وأطال. وفي الباب عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «أتى أعرابي النبي ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله: إن أبي يريد أن يجتاح مالي. قال: أنت ومالك لوالدك، إن أطيب ما أكلتم من كسبكم وإن أموال أولادكم من كسبكم فكلوا هنيئا، رواه أبو داود وابن ماجه من طريق الحجاج بن أرطأة عن عمرو وحجاج مدلس وفيه ضعف. انتهى.

---

(١) قال محمود: «الصديق يكون واحداً وجمعاً والمراد هنا الجمع» قال أحمد: وقد قال الزمخشري: =

دخل داره وإذا حلقة من اصدقائه وقد استلوا سلالاً من تحت سريره فيها الخبيص وأطايب الأطعمة وهم مكبون عليها يأكلون، فتهللت أسارير وجهه سروراً وضحك وقال: هكذا وجدناهم، هكذا وجدناهم. يريد كبراء الصحابة ومن لقيهم من البدريين ـ رضي الله عنهم ـ. وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو غائب فيسأل جاريته كيسه فيأخذ منه ما شاء، فإذا حضر مولاها فأخبرته أعتقها سروراً بذلك، وعن جعفر بن محمد الصادق ـ رضي الله عنهما ـ: من عظم حرمة الصديق أن جعله الله من الأنس والثقة والانبساط وطرح الحشمة بمنزلة النفس والأب والأخ والابن. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الصديق أكبر من الوالدين، إن الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والأمهات، فقالوا: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم. وقالوا: إذا دل ظاهر الحال على رضا المالك، قام ذلك مقام الإذن الصريح، وربما سمج الاستئذان وثقل، كمن قدّم إليه طعام فاستأذن صاحبه في الأكل منه ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ أي مجتمعين أو متفرقين. نزلت في بني ليث بن عمرو من كنانة كانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده فربما قعد منتظرا نهاره إلى الليل، فإن لم يجد من يواكله أكل ضرورة، وقيل في قوم من الأنصار: إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا مع ضيفهم وقيل: تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الأكل وزيادة بعضهم على بعض ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ من هذه البيوت لتأكلوا فبدئوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم ديناً وقرابة[1] ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي ثابتة بأمره، مشروعة من لدنه. أو لأنّ التسليم والتحية طلب سلامة وحياة للمسلم عليه والمحيا من عند الله. ووصفها بالبركة والطيب: لأنها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله زيادة الخير وطيب الرزق. وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: خدمت رسول الله ـ ﷺ ـ عشر سنين ـ وروي: تسع سنين ـ فما قال لي لشيء فعلته لم فعلته؟ ولا قال لي لشيء كسرته لم كسرته؟ وكنت واقفاً على رأسه أصب الماء على يديه فرفع رأسه فقال: ألا أعلمك ثلاث خصال تنتفع بها؟ قلت: بلى بأبي وأمي يا رسول الله. قال: متى لقيت من أمّتي أحداً فسلم عليه يطل عمرك، وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة

= إن سر إفراده في قوله تعالى: ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾ دون الشافعين التنبيه على قلة الأصدقاء، ولا كذلك الشافعون، فإن الإنسان قد يحمي له ويشفع في حقه من لا يعرفه فضلاً عن أن يكون صديقاً، ويحتمل في الآيتين ـ والله أعلم ـ أن يكون المراد به الجمع فلا كلام. ويحتمل أن يراد الإفراد، فيكون سره ذلك، والله أعلم.

(١) قال محمود: «معناه: فسلموا على الجنس الذي هو منكم دينا وقرابة» قال أحمد: وفي التعبير عنهم بالأنفس تنبيه على السر الذي اقتضى إباحة الأكل من هذه البيوت المعدودة، وأن ذلك إنما كان لأنها بالنسبة إلى الداخل كبيت نفسه لاتحاد القرابة، فليطب نفساً بالبساط فيها، والله أعلم.

الأبرار الأوّابين (١٠٥٩)، وقالوا: إن لم يكن في البيت أحد فليقل: السلام علينا من ربنا،

١٠٥٩ ـ أخرجه البيهقي في الشعب (٧/٤٢٧) رقم (٨٧٥٨ ـ ٨٧٥٩) من طريق عبد الله بن محمد الكعبي قال: ثنا أبو نصر اليسع بن زيد بن سهل الزينبي قال: نا سفيان بن عيينة عن حميد الطويل عن أنس بن مالك قال: خدمت رسول الله ـ ﷺ ـ فما قال: لشيء فعلته لم فعلته، ولا قال: لشيء كسرته لم كسرته، وكنت واقفاً على رأس رسول الله ـ ﷺ ـ أصب على يديه الماء فرفع رسول الله ـ ﷺ ـ رأسه فقال: ألا أعلمك ثلاث خصال تنتفع بها؟ قال: قلت: بلى بأبي وأمي يا رسول الله. قال: من لقيت من أمتي فسلم عليه يطل عمرك، وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك، وصل صلاة الضحى، فإنها صلاة الأبرار».

وعزاه الزيلعي (٢/٤٥٢) للسهمي في تاريخ جرجان وللثعلبي في تفسيره وقال: روي من طرق.

أحدها: عند البزار في مسنده: ثنا محمد بن المثنى، ثنا عويد بن أبي عمران، عن أبيه عبد الملك أبي عمران، عن أنس. . . فذكره، وسكت عنه.

والثاني: عند أبي يعلى الموصلي في مسنده: ثنا منصور بن أبي مزاحم، ثنا عمرو بن أبي خليفة، عن ضرار بن مسلم، عن أنس. . . فذكره.

والثالث: رواه مسدد في مسنده: ثنا علي بن الجنيد، عن عمرو بن دينار، عن أنس. . . فذكره.

ومن طريق مسدد رواه الطبراني في معجمه الصغير.

والرابع: عند ابن عدي في الكامل: عن أزور بن غالب، عن سليمان التيمي، عن أنس. . . ولين أزور تليينا يسيراً.

قال ابن طاهر في كلامه على أحاديث الشهاب: هذا حديث رواه أشعث بن براز، عن ثابت، عن أنس، وأشعث متروك الحديث.

ورواه الفضل بن العباس البصري: عن ثابت، عن أنس، قال العقيلي: فضل مجهول، ولم يتابعه عليه إلا من هو دونه أو مثله.

ورواه عويد بن أبي عمران الجوني: عن أبيه، عن أنس، وعويد لا شيء.

ورواه سعيد بن زون الثعلبي: عن أنس، وسعيد بن زون أيضاً لا شيء.

ورواه الأزور بن غالب: عن سليمان التيمي، عن أنس، والأزور منكر الحديث، ضعيف. انتهى.

وحديث عويد: رواه ابن حبان في كتاب الضعفاء، وأعله به، وقال: إنه يروي عن أبيه ما ليس من حديثه؛ فبطل الاحتجاج بخبره. انتهى.

قال الحافظ: أخرجه أبو القاسم حمزة بن يوسف الجرجاني في تاريخ جرجان، والبيهقي في الشعب في الحادي والستين، والثعلبي من طريق اليسع بن زيد بن سهل عن ابن عتبة عن حميد وعن أنس بتمامه واليسع آخر من زعم أنه سمع من ابن عتبة، مات بعد الثمانين والمائتين وهو واهي الحديث، وأصل الحديث دون القصة التي فيه. في الصحيح من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ وباقيه مروي عن أنس من أوجه: منها ما رواه البزار من طريق عويد بن عمران الجوني عن أبيه قال: «أوصاني النبي ـ ﷺ ـ بخمس خصال؛ قال: أسبغ الوضوء يزد في عمرك، وسلم على من لقيت من أمتي تكثر حسناتك، وإذا دخلت بيتك فسلم على أهلك يكثر خير بيتك، وصل صلاة الضحى؛ فإنها صلاة الأوّابين، وارحم الصغير ووقر الكبير، تكن من رفاقي» وعويد: قال ابن حبان: يروى عن أبيه ما ليس من حديثه. ورواه أبو يعلى من رواية عمرو بن أبي خليفة عن ضرار بن عمرو عن أنس وإسناده ضعيف جداً، وكذا رواه الطبراني في الصغير من رواية عمرو بن دينار عن أنس والراوي عنه ساقط، ورواه العقيلي من رواية الفضل بن العباس عن ثابت عن أنس =

السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين السلام على أهل البيت ورحمة الله. وعن ابن عباس: إذا دخلت المسجد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين تحية من عند الله، وانتصب تحية بسلموا، لأنها في معنى تسليماً، كقولك: قعدت جلوساً.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

أراد عز وجل أن يريهم عظم الجناية في ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله - ﷺ - بغير إذنه ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الإيمان بالله والإيمان برسله، وجعلهما كالتشبيب له[1] والبساط لذكره، وذلك مع تصدير الجملة بإنما وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبراً عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الإيمانين، ثم عقبه بما يزيده توكيداً وتشديداً، حيث أعاده على أسلوب آخر وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وضمنه شيئاً آخر، وهو: أنه جعل الاستئذان كالمصداق لصحة الإيمانين، وعرّض بحال المنافقين وتسللهم لواذاً. ومعنى قوله ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ ٢/ ١٤٧أ لم يذهبوا حتى يستأذنوه ويأذن لهم. ألا تراه كيف علق الأمر بعد وجود استئذانهم بمشيئته وإذنه لمن استصوب أن يأذن له. والأمر الجامع: الذي يجمع له الناس، فوصف الأمر بالجمع على سبيل المجاز، وذلك نحو مقاتلة عدوّ، أو تشاور في خطب مهمّ، أو تضام لإرهاب مخالف، أو تماسح في حلف وغير ذلك. أو الأمر الذي يعم بضرره أو بنفعه. وقرئ: أمر جميع. وفي قوله: ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أنه خطب جليل لا بد لرسول الله - ﷺ - فيه من ذوي رأي وقوّة، يظاهرونه عليه ويعاونونه ويستضيء بآرائهم ومعارفهم وتجاربهم في كفايته، فمفارقة أحدهم في مثل تلك الحال مما يشق على قلبه ويشعث عليه رأيه. فمن ثمة غلظ عليهم وضيق عليهم الأمر في الاستئذان، مع العذر المبسوط ومساس الحاجة إليه، واعتراض ما يهمهم ويعنيهم، وذلك قوله: ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾، وذكر الاستغفار للمستأذنين: دليل على أنّ الأحسن الأفضل أن لا يحدثوا أنفسهم بالذهاب ولا يستأذنوا فيه. وقيل: نزلت في حفر الخندق وكان قوم يتسللون بغير

= والفضل مجهول. قال العقيلي: لم يتابعه عليه إلا من هو دونه أو قبله ورواه ابن عدي من طريق أزور بن غالب عن سليمان التيمي عن أنس. قال ابن ضاهر: أزور منكر الحديث. وله طريق أخرى عن أنس أشد ضعفاً من هذه. انتهى.

(١) قوله «وجعلهما كالتشبيب له» في الصحاح التشبيب النسيب يقال هو يشبب بفلانة أي ينسب بها. (ع)

إذن. وقالوا: كذلك ينبغي أن يكون الناس مع أئمتهم ومقدميهم في الدين والعلم يظاهرونهم ولا يخذلونهم في نازلة من النوازل ولا يتفرقون عنهم. والأمر في الإذن مفوّض إلى الإمام: إن شاء أذن وإن شاء لم يأذن، على حسب ما اقتضاه رأيه.

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾

إذا احتاج رسول الله ـ ﷺ ـ إلى اجتماعكم عنده لأمر فدعاكم فلا تفرقوا عنه إلا بإذنه، ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعي. أو لا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمي بعضكم بعضاً ويناديه باسمه الذي سماه به أبواه، ولا تقولوا: يا محمد، ولكن يا نبي الله، ويا رسول الله، مع التوقير والتعظيم والصوت المخفوض والتواضع. ويحتمل: لا تجعلوا دعاء الرسول ربه مثل ما يدعو صغيركم كبيركم وفقيركم غنيكم، يسأله حاجة فربما أجابه وربما ردّه، فإن دعوات رسول الله ـ ﷺ ـ مسموعة مستجابة ﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾ ينسلون قليلاً قليلاً. ونظير «تسلل»: «تدرج وتدخل»: واللواذ: الملاوذة، وهو أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا، يعني: ينسلون عن الجماعة في الخفية على سبيل الملاوذة واستتار بعضهم ببعض. و﴿لِوَاذًا﴾ حال، أي: ملاوذين. وقيل: كان بعضهم يلوذ بالرجال إذا استأذن فيأذن له، فينطلق الذي لم يؤذن له معه. وقرئ: لواذاً، بالفتح، يقال: خالفه إلى الأمر، إذا ذهب إليه دونه. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨] وخالفه عن الأمر: إذا صدّ عنه دونه. ومعنى ﴿الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ الذين يصدّون عن أمره دون المؤمنين وهم المنافقون، فحذف المفعول لأنّ الغرض ذكر المخالف والمخالف عنه. الضمير في أمره لله سبحانه أو للرسول ـ ﷺ ـ. والمعنى: عن طاعته ودينه ﴿فِتْنَةٌ﴾ محنة في الدنيا ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: فتنة قتل. وعن عطاء: زلازل وأهوال. وعن جعفر بن محمد: يسلط عليهم سطان جائر.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)﴾

أدخل ﴿قَدْ﴾ ليؤكد عليه بما هم عليه من المخالفة عن الدين والنفاق ومرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد[(١)]، وذلك أن ﴿قَدْ﴾ إذا دخلت على المضارع كانت بمعنى «ربما»

---

(١) قلنا: لأن الأصل في قد إذا دخلت على المضارع إفادة التوقع، ولهذا صارت بمعنى «ربما» فوافقتها في الخروج إلى معنى التكثير، وهذا ما فهمه العلامة الزمخشري وأفاده أبو السعود بعبارة قوية،

فوافقت «ربما» في خروجها إلى معنى التكثير في نحو قوله [من الطويل]:

فَإِنْ تُمْسِ مَهْجُورَ الْفِنَاءِ فَرُبَّمَا أَقَامَ بِهِ بَعْدَ الْوُفُودِ وُفُودُ[1]

ونحوه قول زهير [من الطويل]:

أَخِي ثِقَةٍ لاَ تُهْلِكُ الْخَمْرُ مَالَهُ وَلٰكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ الْمَالَ نَائِلُهْ[2]

والمعنى: أن جميع ما في السموات والأرض مختصة به خلقاً وملكاً وعلماً، فكيف يخفى عليه أحوال المنافقين وإن كانوا يجتهدون في سترها عن العيون وإخفائها، وسينبئهم يوم القيامة بما أبطنوا من سوء أعمالهم وسيجازيهم حق جزائهم. والخطاب والغيبة في قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يجوز أن يكونا جميعاً للمنافقين على طريق الالتفات. ويجوز أن يكون ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ عامًّا، و﴿يُرْجَعُونَ﴾ للمنافقين، والله أعلم.

عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قرأ سورة النور أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي (١٠٦٠).

١٠٦٠ ـ تقدم برقم (٣٤٦).
قال الحافظ: أخرجه الثعلبي وابن مردويه بإسناديهما إلى أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ. انتهى.

= لأدار الفكرة مرة أخرى عند قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

ومن أراد الوقوف على معانيها مع الماضي والمضارع وشروطها في كل موضع وصورها في جميع المواقع فعليه بما سطره ابن هشام في مصنفه المغني فإنه يغني.

«ينظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ومعه حاشية الأمير ١/ ١٣٥ ـ ١٣٩، والبلاغة القرآنية لأبي موسى ٢٩٤ وما بعدها، وأبو السعود ٤/ ١٧٠، ١٧١.

(١) ألا إن عيناً لم تجد يوم واسط عليك بجاري دمعها لجمود
عشية قام النائحات وشققت جيوب بأيدي مأتم وخدود
فإن تمس مهجور الفناء فربما أقام به بعد الوفود وفود

لابن عطاء السندي: يرثي ابن هبيرة لما قتله المنصور. وواسط: موضع الواقعة. وأتم بالمكان: أقام به. والمأتم: مكان الإقامة: استعمل في جماعة النساء الحزينات مجازاً مشهوراً، وجمعه: مآتم بمد الهمزة. يقول: إن كل عين لم تبك عليك ذلك اليوم لشديدة الجمود. وعشية: بدل من يوم. وجيب القميص: مخرج الرأس منه، أي: مزقت الجيوب والخدود بأيدي النساء، ثم التفت إلى الخطاب، وصبر وتصبر بقوله: فإن تمس مهجور الفناء، كناية عن الموت. فربما؛ أي كثيراً أقام بفناء بيتك جموع من الناس بعد جموع، يستمنحونك، أي: فإن يهجر فناؤك الآن فلا حزن، لأنه كثيراً ما اجتمع فيه الناس ومنحوا خيراً.

وهو لمعن بن زائدة في أمالي المرتضى ١/ ٢٢٣، ولأبي عطاء السندي في خزانة الأدب ٩/ ٥٣٩، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٨٠٠، والشعر والشعراء ٢/ ٧٧٣، ولسان العرب (عهد)؛ وبلا نسبة في الأشباه والنظائر ٣/ ١٨٦، وجواهر الأدب ص ٣٦٦، ٣٦٨.

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد.

سورة الفرقان

مكية إلا الآيات ٦٨ و٦٩ و٧٠ فمدنية
وآياتها ٧٧ [نزلت بعد يس]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢)﴾

البركة: كثرة الخير وزيادته. ومنها ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وفيه معنيان: تزايد خيره، وتكاثر. أو تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله. والفرقان: مصدر فرق بين الشيئين إذا فصل بينهما وسمي به القرآن لفصله بين الحق والباطل. أو لأنه ٢/ ٤٧ب لم ينزل جملة واحدة ولكن مفروقاً، مفصولاً بين بعضه وبعض في الإنزال[١]. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا (١٠٦)﴾ [الإسراء: ١٠٦] وقد جاء الفرق بمعناه[٢]؛ قال: [الرجز]

وَمُشْرِكِيٍّ كَافِرٍ بِالْفَرْقِ[٣]

وعن ابن الزبير ـ رضي الله عنه ـ: على عباده. وهم رسول الله ـ ﷺ ـ وأمّته، كما قال ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]، ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]. والضمير في ﴿لِيَكُونَ﴾ لعبده أو للفرقان. ويعضد رجوعه إلى الفرقان قراءة ابن الزبير ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ للجنّ والإنس ﴿نَذِيرًا﴾ منذراً أي ومخوّفاً أو إنذاراً، كالنكير بمعنى الإنكار. ومنه قوله

---

(١) قال محمود: «يجوز أن يراد بوصفه بالفرقان تفريقه بين الحق والباطل، ويجوز أن يراد نزوله مفرقاً شيئاً فشيئاً كما قال. وقرآناً فرقناه» قال أحمد: والأظهر هنا هو المعنى الثاني؛ لأن في أثناء السورة بعد آيات ﴿وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي أنزلناه مفرقاً كذلك ﴿لنثبت به فؤادك﴾ فيكون وصفه بالفرقان في أول السورة ـ والله أعلم ـ كالمقدمة والتوطئة لما يأتي بعد.

(٢) قوله «وقد جاء الفرق بمعناه» في الصحاح: والفرق أيضاً: الفرقان. ونظيره: الخسر والخسران. قال الراجز: ومشركي. . . إلخ. (ع)

(٣) ينظر لسان العرب (فرق)، (شرك)، ديوان الأدب (١/ ١٥٧)، تاج العروس (فرق)، (شرك).

تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ [القمر: ٣٠]، ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ﴾ رفع على الإبدال من الذي نزل أو رفع على المدح. أو نصب عليه. فإن قلت: كيف جاز الفصل بين البدل والمبدل منه؟ قلت: ما فصل بينهما بشيء؛ لأنّ المبدل منه صلته نزل. و﴿لِيَكُونَ﴾ تعليل له، فكأنّ المبدل منه لم يتمّ إلا به. فإن قلت: في الخلق معنى التقدير، فما معنى قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ كأنه قال: وقدّر كل شيء فقدّره؟ قلت: المعنى أنه أحدث كل شيء إحداثاً مراعي فيه التقدير والتسوية، فقدّره وهيأه لما يصلح له، مثاله: أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر المسوّى الذي تراه، فقدّره للتكاليف والمصالح المنوطة به في بابي الدين والدنيا، وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدّرة بأمثلة الحكمة والتدبير، فقدّره لأمر مّا ومصلحة مطابقاً لما قدر له غير متجاف عنه. أو سمي إحداث الله خلقاً لأنه لا يحدث شيئاً لحكمته إلا على وجه التقدير من غير تفاوت، فإذا قيل: خلق الله كذا فهو بمنزلة قولك: أحدث وأوجد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق، فكأنه قيل: وأوجد كل شيء فقدّره في إيجاده لم يوجده متفاوتاً. وقيل: فجعل له غاية ومنتهى. ومعناه: فقدّره للبقاء إلى أمد معلوم.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾

الخلق بمعنى الافتعال، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، والمعنى: أنهم آثروا على عبادة الله سبحانه عبادة آلهة لا عجز أبين من عجزهم، لا يقدرون على شيء من أفعال الله ولا من أفعال العباد، حيث لا يفتعلون شيئاً وهم يفتعلون، لأن عبدتهم يصنعونهم بالنحت والتصوير ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾ أي: لا يستطيعون لأنفسهم دفع ضرر عنها أو جلب نفع إليها وهم يستطيعون، وإذا عجزوا عن الافتعال ودفع الضرر وجلب النفع التي يقدر عليها العباد كانوا عن الموت والحياة والنشور التي لا يقدر عليها إلا الله أعجز.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾

﴿قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ قيل: هم اليهود. وقيل: عداس مولى حويطب بن عبد العزى، ويسار مولى العلاء بن الحضرمي، وأبو فكية الرومي: قال ذلك النضر بن الحارث بن عبد الدار. «جاء» «وأتى» يستعملان في معنى فعل، فيعديان تعديته، وقد يكون على معنى: وردوا ظلماً، كما تقول: جئت المكان. ويجوز أن يحذف الجار ويوصل الفعل.

وظلمهم: أن جعلوا العربي يتلقن من العجمي الرومي كلاماً عربياً أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب. والزور: أن بهتوه بنسبة ما هو بريّ منه إليه.

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ما سطّره المتقدمون من نحو أحاديث رستم واسفنديار، جمع: أسطار أو أسطورة كأحدوثة ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ كتبها لنفسه وأخذها، كما تقول: استكب الماء واصطبه: إذا سكبه وصبه لنفسه وأخذه. وقرئ: اكتُتبها على البناء للمفعول. والمعنى: اكتتبها كاتب له؛ لأنه كان أمّياً لا يكتب بيده، وذلك من تمام إعجازه، ثم حذفت اللام فأفضى الفعل إلى الضمير فصار اكتتبها إياه كاتب، كقوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥] ثم بنى الفعل للضمير الذي هو إياه فانقلب مرفوعاً مستتراً بعد أن كان بارزاً منصوباً، وبقي ضمير الأساطير على حاله، فصار ﴿ٱكْتُتِبَهَا﴾ كما ترى[١]. فإن قلت: كيف قيل: اكتتبها ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ وإنما يقال: أمليت عليه فهو يكتتبها؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أراد اكتتابها أو طلبه فهي تملي عليه. أو كتبت له وهو أميّ فهي تملي عليه: أي تلقي عليه من كتابه يتحفظها؛ لأن صورة الإلقاء على الحافظ كصورة الإلقاء على الكاتب. وعن الحسن: أنه قول الله سبحانه يكذبهم وإنما يستقيم أن لو فتحت الهمزة للاستفهام الذي في معنى الإنكار؛ ووجهه أن يكون نحو قوله [من المنسرح]:

أَفْـــرَحُ أَنْ أُرْزَأَ الْـــكِـــرَامَ وَأَنْ أُورَثَ ذُوداً شَـــصَـــائِـــصَـــا نَـــبَـــلاَ[٢]

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: ولا يصح ذلك على مذهب جمهور البصريين؛ لأن اكتتبها له كاتب وصل الفعل فيه لمفعولين أحدهما مُسَرَّحٌ وهو ضمير الأساطير والآخر مُقَيَّدٌ وهو ضميره عليه السلام ثم اتُّسِعَ في الفعل فحذف حرف الجَرّ فصار اكْتَتَبَهَا إياه كاتب فإذا بنى هذا للمفعول إنما ينوب عن الفاعل المفعول المُسَرَّحُ لفظاً وتقديراً لا المُسَرَّحُ لفظاً المُقَيَّدُ تقديراً فعلى هذا كان يكون التركيب اكْتُتِبَتْهُ لا اكْتُتِبَهَا وعلى هذا الذي قلناه جاء السماع قال الفرزدق [من الطويل]:

وَمِنَّا الَّذِي اخْتِيرَ الرِّجَالَ سَمَاحَةً وَجُـوداً إِذَا هَـبَّ الـرِّيَـاحُ الـزَّعَـازِعُ

وَلَوْ جَاءَ على ما قدره الزمخشري لجاء التركيبُ: وَمِنَّا الذي اختيره الرجالَ لأن اختير تعدى إلى الرجال بإسقاط حرف الجر إذ تقديره اختير من الرجال. قُلْتُ: وهو اعتراض حَسَنٌ بالنسبة إلى مذهب الجمهور ولكن الزمخشري قد لا يلتزمه ويوافق الأخفش والكوفيين وإذا كان الأخفش وهم يتركون المُسَرَّحَ لفظاً وتقديراً ويقيمون المجرور بالحرف مع وجوده فهذا أَوْلَى وأَجْدَى. والظاهر أن الجملة من قوله: ﴿ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ﴾ من تتمة قول الكفار، وعن الحسن إنها من كلام الباري تعالى وكان حق الكلام على هذا أن يُقْرَأَ «أَكْتَتَبَهَا» بهمزة مقطوعة مفتوحة للاستفهام كقوله: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ ويمكن أنْ يُعْتَذَرَ عنه أنه حذف الهمزة للعلم بها كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ﴾ انتهى. الدر المصون.

(٢) إن كـنـت أزنـنـتـنـي بـهـا كـذبـا جـزء فـلاقـيـت بـعـدهـا عـجـلا =

وحق الحسن أن يقف على الأولين ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي دائماً، أو في الخفية قبل أن ينتشر الناس. وحين يأوون إلى مساكنهم.

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾

أي يعلم كل سرّ خفيّ في السموات والأرض. ومن جملته ما تسرونه أنتم من الكيد لرسوله ـ ﷺ ـ مع علمكم أنّ ما تقولونه باطل وزور، وكذلك باطن أمر رسول الله ـ ﷺ ـ وبراءته مما تبهتونه به، وهو يجازيكم ويجازيه على ما علم منكم وعلم منه. فإن قلت: كيف طابق قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ هذا المعنى؟ قلت: لما كان ما تقدّمه في معنى الوعيد عقبه بما يدل على القدرة عليه؛ لأنه لا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة. أو هو تنبيه على أنهم استوجبوا بمكابرتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صبًّا، ولكن صرف ذلك عنهم إنه غفور رحيم: يمهل ولا يعاجل.

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ ٢/ ١٤٨أ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾

وقعت اللام في المصحف مفصولة عن هذا خارجة عن أوضاع الخط العربي. وخط المصحف سنة لا تغير. وفي هذا استهانة وتصغير لشأنه وتسميته بالرسول سخرية منهم

= أفـــرح أن أرزأ الـــكــــرام وأن ... أورث ذودا شـصــائـصــا نـبــلا

لحضرمي بن عامر، يخاطب جزء بن سنان بن مؤلة حين اتهمه بسروره بأخذ دية أخيه القتيل، وقيل: لجرير، وليس بذاك. وجزؤ ـ بفتح فسكون ـ وإن هنا للشرط مجرداً عن الشك، أو بمعنى إذ. وأزننتني: أي تهمتني بها: أي بتلك الفعله الرذيلة كذبا منك يا جزؤ، فهو منادى، فلاقيت أنت بعدها عجلا: دعاء عليه بأن ينال مثلها سريعاً، وينظر هل يفرح أو يحزن؟ وروي: فلاقيت مثلها عجلا. أفرح، أي: أأفرح بأن أرزأ الكرام وأصاب فيهم، فحذفت همزة الاستفهام الإنكاري أو التعجبي على فرض الوقوع لدلالة المقام عليها، وليصور الكلام بصورة الأخبار والإثبات، فيظهر للخصم قبح دعواه. وأرزأ: مبني للمجهول، وكذلك أورث، أي: أعطى ذودا: أي قطيعاً من الإبل بعد موتهم. والذود: ما بين الثلاثة إلى العشر، مؤنث لا واحد له من لفظه، عبر به عن الدية كلها استقلالا وتحقيراً لها. ولذلك وصفه بشصائصا: جمع شصوص، وهي الناقة القليلة اللبن. وصرفه للوزن. والنبل ـ كسيب ؛ جمع نبيل. ويروى بالضم، فهو جمع نبيل أيضاً، ككرماً وكريم، أو جمع نبلة، كغرف وغرفة: أي الصغار أو النجائب فهو من الأضداد؛ لكن الأول أوفق بالمقام. ويجوز أن الدية كانت عشرة.

ينظر: التهذيب (١١/ ٢٦٣)، اللسان: جزأ، الدر المصون (٥/ ٢٤٣).

وطنز[1]، كأنهم قالوا: ما لهذا الزاعم أنه رسول. ونحوه قول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، أي: إن صحّ أنه رسول الله فما باله حاله مثل حالنا ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾، كما نأكل؛ ويتردد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردد، يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكاً مستغنياً عن الأكل والتعيش. ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكاً إلى اقتراح أن يكون إنساناً معه ملك، حتى يتساندا في الإنذار والتخويف، ثم نزلوا أيضاً فقالوا: وإن لم يكن مرفوداً بملك، فليكن مرفوداً بكنز يلقى إليه من السماء يستظهر به ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش. ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون رجلاً له بستان يأكل منه ويرتزق كما الدهاقين والمياسير. أو يأكلون هم من ذلك البستان فينتفعون به في دنياهم ومعاشهم. وأراد بالظالمين: إياهم بأعيانهم: وضع الظاهر موضع المضمر ليسجل عليهم بالظلم فيما قالوا. وقرئ: فيكون، بالرفع. أو يكون له جنة، بالياء، ونأكل بالنون. فإن قلت: ما وجها الرفع والنصب في فيكون؟ قلت: النصب لأنه جواب «لولا» بمعنى «هلا» وحكمه حكم الاستفهام. والرفع على أنه معطوف على أنزل، ومحله الرفع، ألا تراك تقول: لولا ينزل بالرفع، وقد عطف عليه: يلقى، وتكون مرفوعين، ولا يجوز النصب فيهما لأنهما في حكم الواقع بعد لولا، ولا يكون إلا مرفوعاً. والقائلون هم كفار قريش النضر بن الحرث ، وعبد الله بن أبي أمية، ونوفل بن خويلد ومن ضامهم ﴿مَّسْحُورًا﴾ سحر فغلب على عقله. أو ذا سحر، وهو الرئة: عنوا أنه بشر لا ملك.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾

﴿ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ أي: قالوا فيك تلك الأقوال واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال النادرة، من نبوّة مشتركة بين إنسان وملك. وإلقاء كنز عليك من السماء وغير ذلك، فبقوا متحيرين ضلالا، لا يجدون قولاً يستقرّون عليه. أو فضلوا عن الحق فلا يجدون طريقاً إليه.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾

تكاثر خير ﴿ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ﴾ وهب لك في الدنيا ﴿خَيْرًا﴾ مما قالوا، وهو أن يجعل لك مثل ما وعدك في الآخرة من الجنات والقصور. وقرئ: ويجعل بالرفع عطفاً على

---

(١) قوله «وطنز» في الصحاح «الطنز»: السخرية. (ع)

جعل[1]؛ لأن الشرط إذا وقع ماضياً، جاز في جزائه الجزم والرفع؛ كقوله:[من البسيط]:

وَإِنْ أَتَــاهُ خَــلِــيــلٌ يَــوْمَ مَــسْــأَلَــةٍ ... يَــقُــولُ: لاَ غَــائِــبٌ مَــالِــي ولاَ حَــرِمُ[2]

ويجوز في ﴿وَيَجْعَل لَّكَ﴾ إذا أدغمت: أن تكون اللام في تقدير الجزم والرفع جميعاً. وقرئ بالنصب، على أنه جواب الشرط بالواو.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤)﴾

﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾عطف على ما حكي عنهم. يقول: بل أتوا بأعجب من ذلك كله وهو تكذيبهم بالساعة. ويجوز أن يتصل بما يليه، كأنه قال: بل كذبوا بالساعة، فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب، وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك في الآخرة وهم لا يؤمنون بالآخرة. السعير: النار الشديدة الاستعار. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: أنه اسم من أسماء جهنم ﴿رَأَتْهُم﴾ من قولهم: دورهم تترا[3]، أي: وتتناظر. ومن قوله ـ ﷺ ـ «لا تراءى ناراهما» (١٠٦١) كأن بعضها يرى بعضاً على سبيل المجاز. والمعنى: إذا كانت منهم بمرأى الناظر في البعد سمعوا صوت غليانها. وشبه ذلك بصوت المتغيظ والزافر. ويجوز أن يراد: إذا رأتهم زبانيتها تغيظوا وزفروا غضباً على الكفار وشهوة للانتقام منهم. الكرب مع الضيق، كما أن الروح مع السعة، ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها

١٠٦١ ـ تقدم في المائدة.

---

(١) قال السمين الحلبي: وفيه نظر من حيث إن من جملة من قرأ بذلك وهو نافع والأخوان وحفص ليس من أصولهم الإدغام حتى يدعي لهم في هذا المكان. نعم أبو عمرو أصله الإدغام وهو يقرأ هنا بسكون اللام فيحتمل ذلك على قراءته وهذا من محاسن علم النحو والقراءات معاً. انتهى. الدر المصون.

(٢) تقدم.

(٣) قال محمود: «هو من قولهم: دور بني فلان تترا، أي على المجاز» قال أحمد: لا حاجة إلى حمله على المجاز فإن رؤية جهنم جائزة. وقدرة الله تعالى صالحة. وقد تظافرت الظواهر على وقوع هذا الجائز، وعلى أن الله تعالى يخلق لها إدراكاً حسياً وعقلياً. ألا ترى إلى قوله: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا﴾ وإلى محاجتها مع الجنة، وإلى قولها: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ وإلى اشتكائها إلى ربها فأذن لها في نفسين، إلى غير ذلك من الظواهر التي لا سبيل إلى تأويلها، إذ لا محوج إليه. ولو فتح باب التأويل والمجاز في أحوال المعاد، لتطوح الذي يسلك ذلك إلى وادي الضلالة والتحيز إلى فرق الفلاسفة، فالحق أنا متعبدون بالظاهر ما لم يمنع مانع، والله أعلم.

السموات والأرض. وجاء في الأحاديث: أن لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا، ولقد جمع الله على أهل النار أنواع التضييق والإرهاق، حيث ألقاهم في مكان ضيق يتراصون فيه تراصا، كما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في تفسيره أنه يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح، وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرنون في السلاسل: قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الجوامع. وقيل: يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة وفي أرجلهم الأصفاد. والثبور: الهلاك. ودعاؤه أن يقال: واثبوراه، أي: تعال يا ثبور فهذا حينك وزمانك ﴿لَّا تَدْعُواْ﴾ أي يقال لهم ذلك، أو هم أحقاء بأن يقال لهم، وإن لم يكن ثمة قول ومعنى ﴿وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً، وإنما هو ثبور كثير. إما لأن العذاب أنواع وألوان كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته. أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها، فلا غاية لهلاكهم.

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾

الراجع إلى الموصولين محذوف، يعني: وعدها المتقون وما يشاءونه. وإنما قيل: كانت؛ لأن ما وعده الله وحده فهو في تحققه كأنه قد كان. أو كان مكتوباً في اللوح قبل أن برأهم بأزمنة متطاولة: أن الجنة جزاؤهم ومصيرهم. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾؟ قلت: هو كقوله: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١] فمدح الثواب ٢/٤٨ب ومكانه، كما قال: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، فذم العقاب ومكانه لأنّ النعيم لا يتم للمتنعم إلا بطيب المكان وسعته وموافقته للمراد والشهوة. وأن لا تنغص، وكذلك العقاب يتضاعف بغثاثة الموضع[1] وضيقه وظلمته وجمعه لأسباب الاجتواء والكراهة، فلذلك ذكر المصير مع ذكر الجزاء. والضمير في ﴿كَانَ﴾ لما يشاءون. والوعد: الموعود، أي: كان ذلك موعداً واجباً على ربك إنجازه، حقيقاً أن يسئل ويطلب؛ لأنه جزاء وأجر مستحق. وقيل: قد سأله الناس والملائكة في دعواتهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]، ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن

---

(١) قوله «بغثاثة الموضع» أي فساده ورداءته. والاجتواء: كراهة المقام بالمكان. أفاده الصحاح. (ع)

يحشرهم. فيقول كلاهما بالنون والياء، وقرئ: يحشرهم، بكسر الشين ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ يريد: المعبودين من الملائكة والمسيح وعزير. وعن الكلبي: الأصنام ينطقها الله. ويجوز أن يكون عامًا لهم جميعاً. فإن قلت: كيف صحّ استعمال (ما) في العقلاء؟ قلت: هو موضوع على العموم للعقلاء وغيرهم، بدليل قولك ـ إذا رأيت شبحاً من بعيد ـ ما هو؟ فإذا قيل لك: إنسان، قلت حينئذٍ: من هو؟ ويدلك قولهم «من» لما يعقل. أو أريد به الوصف، كأنه قيل: ومعبوديهم. ألا تراك تقول إذا أردت السؤال عن صفة زيد: ما زيد؟ تعني: أطويل أم قصير؟ أفقيه أم طبيب؟ فإن قلت: ما فائدة أنتم وهم؟ وهلا قيل أضللتم عبادي هؤلاء أم هم[(١)] ضلوا السبيل؟ قلت: ليس السؤال عن الفعل ووجوده؛ لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب، وإنما هو عن متوليه، فلا بد من ذكره وإيلائه حرف الاستفهام، حتى يعلم أنه المسئول عنه. فإن قلت: فالله سبحانه قد سبق علمه بالمسئول عنه، فما فائدة هذا السؤال؟ قلت: فائدته أن يجيبوا بما أجابوا به، حتى يبكت عبدتهم بتكذيبهم إياهم، فيبهتوا[(٢)] وينخذلوا وتزيد حسرتهم، ويكون ذلك نوعاً ما يلحقهم من غضب الله وعذابه، ويغتبط المؤمنون ويفرحوا بحالهم ونجاتهم من فضيحة أولئك، وليكون حكاية ذلك في القرآن لطفاً للمكلفين، وفيه كسر بين لقول من يزعم[(٣)] أن الله يضل عباده على الحقيقة[(٤)]، حيث يقول للمعبودين من دونه: أأنتم أضللتموهم، أم

---

(١) قوله «أم هم ضلوا» لعله أم ضلوا، كعبارة النسفي. (ع)

(٢) قوله «فيبهتوا» يدهشوا. أو يتحيروا. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله «لقول من يزعم أن الله... إلخ» يريد أهل السنة القائلين: إضلال الله لعباده خلق الضلال في قلوبهم، خلافاً للمعتزلة القائلين: أنه تعالى لا يخلق الشر ولا يريده. (ع)

(٤) قال محمود: «في هذه الآية كسر بين لمن يزعم أن الله تعالى يضل عباده حقيقة. حيث يقول للمعبودين من دونه: أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء، أم هم ضلوا بأنفسهم؟ فيتبرؤون منهم ويستعيذون مما نسب إليهم، ويقولون: بل تفضلك على هؤلاء أوجب أن جعلوا عوض الشكر كفراً، فإذا برأت الملائكة والرسل أنفسهم من ذلك. فهم لله أشد تبرئة وتنزيهاً منه، ولقد نزهوه حيث أضافوا التفضل بالنعمة إلى الله تعالى، وأسندوا الضلال الذي نشأ عنه إلى الضالين، فهو شرح للإسناد المجازي في قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ ولو كان مضلاً حقيقة لكان الجواب العتيد أن يقولوا: بأن أنت أضللتهم» قال أحمد: قد تقدم شرح عقيدة أهل الحق في هذا المعنى، وأن الباعث لهم على اعتقاد كون الضلال من خلق الله تعالى: التزامهم للتوحيد المحض والإيمان الصرف، الذي دل على صحته بعد الأدلة العقلية قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ والضلال شيء، فوجب كونه خالقه: هذا من حيث العموم. وأما من حيث الخصوص، فأمثال قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، والأصل الحقيقة، وقول موسى عليه السلام ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ فلو كان الإضلال مستحيلاً على الله تعالى لما جاز أن يخاطبه الكليم بما لا يجوز، فإذا أوضح ذلك =

هم ضلوا بأنفسهم؟ فيتبرءون من إضلالهم ويستعيذون به أن يكونوا مضلين، ويقولون: بل أنت تفضلت من غير سابقة على هؤلاء وآبائهم تفضل جواد كريم، فجعلوا النعمة التي حقها أن تكون سبب الشكر، سبب الكفر ونسيان الذكر، وكان ذلك سبب هلاكهم، فإذا برأت الملائكة والرسل أنفسهم من نسبة الإضلال الذي هو عمل الشياطين إليهم واستعاذوا منه، فهم لربهم الغنيّ العدل أشدّ تبرئة وتنزيهاً منه، ولقد نزهوه حين أضافوا إليه التفضل بالنعمة والتمتيع بها، وأسندوا نسيان الذكر والتسبب به للبوار إلى الكفرة، فشرحوا الإضلال المجازي الذي أسنده الله تعالى إلى ذاته في قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ ولو كان هو المضل على الحقيقة لكان الجواب العتيد أن يقولوا: بل أنت أضللتهم. والمعنى: أأنتم أوقعتموهم في الضلال عن طريق الحق؟ أم هم ضلوا عنه بأنفسهم؟ وضل: مطاوع «أضله» وكان القياس: ضل عن السبيل، إلا أنهم تركوا الجار كما تركوه في هداه الطريق. والأصل: إلى الطريق، وللطريق. وقولهم: أضلَّ البعير، في معنى: جعله ضالاً، أي: ضائعاً، لما كان أكثر ذلك بتفريط من صاحبه وقلة احتياط في حفظه، قيل: أضله، سواء كان منه فعل أو لم يكن ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ تعجب منهم، قد تعجبوا مما قيل لهم لأنهم ملائكة وأنبياء معصومون، فما أبعدهم عن الإضلال الذي هو مختص بإبليس وحزبه أو نطقوا بسبحانك ليدلوا على أنهم المسبحون المتقدّسون الموسومون بذلك، فكيف يليق بحالهم أن يضلوا عباده. أو قصدوا به تنزيهه عن الأنداد، وأن يكون له نبيّ أو ملك أو غيرهما

= فالملائكة لم يسألوا في هذه الآية عن المضل لعبادهم حقيقة، فيقال لهم: من أضل هؤلاء، وإنما قيل لهم: أأنتم أضللتموهم، أم هم ضلوا؟ فليس الجواب المطابق العتيد أن يقولوا: أنت أضللتهم ولو كان معتقدهم أن الله تعالى هو المضل حقيقة، لكان قولهم في جواب هذا السؤال: بل أنت أضللتهم مجاوزة لمحز السؤال ومحله، وإنما كان هذا الجواب مطابقاً لو قيل لهم: من أضل عبادي هؤلاء؟ فقد وضح أن هذا السؤال لا يجاب عنه بما تخيله الزمخشري، بتقدير أن يكون معتقدهم أن الله تعالى هو الذي أضلهم، وأن عدولهم عنه ليس لأنهم لا يعتقدونه، ولكن لأنه لا يطابق، وبقي وراء ذلك نظراً في أن جوابهم هذا يدل على معتقدهم الموافق لأهل الحق، لأن أهل الحق يعتقدون أن الله تعالى وإن خلق لهم الضلالة إلا أن لهم اختياراً فيها وتميزاً لها، ولم يكونوا عليها مقسورين كما هم مقسورون على أفعال كثيرة يخلقها الله فيهم كالحركات الرعشية ونحوها. وقد قدمنا في مواضع: أن كل فعل اختياري له نسبتان: إن نظر إلى كونه مخلوقاً فهو منسوب إلى الله تعالى، وإن نظر إلى كونه اختيارياً للعبد فهو منسوب إلى العبد. وبذلك قطعت الملائكة في قولهم: بل متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر، فنسبوا نسيان الذكر إليهم، أي: الانهماك في الشهوات الذي نشأ عنه النسيان؛ لأنهم اختاروه لأنفسهم، فصدقت نسبته إليهم، ونسبوا السبب الذي اقتضى نسيانهم وانهماكهم في الشهوات إلى الله تعالى: وهو استدراجهم ببسط النعم عليهم، فبها ضلوا، فلا تنافي بين معتقد أهل الحق وبين مضمون قول الملائكة حينئذٍ. بل هما متواطئان على أمر واحد، والله أعلم.

نداً، ثم قالوا: ما كان يصحّ لنا ولا يستقيم ونحن معصومون أن نتولى أحداً دونك، فكيف يصحّ لنا أن نحمل غيرنا على أن يتولونا دونك، أو ما كان ينبغي لنا أن نكون أمثال الشياطين في توليهم الكفار كما تولاهم الكفار. قال الله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾ يريد الكفرة وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ وقرأ أبو جعفر المدني: نتخذ، على البناء للمفعول. وهذا الفعل أعني «اتخذ» يتعدى إلى مفعول واحد، كقولك: اتخذ وليًا وإلى مفعولين كقولك اتخذ فلاناً وليا. قال الله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنبياء: ٢١]، وقال: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ فالقراءة الأولى من المتعدي إلى واحد وهو ﴿مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ والأصل: أن نتخذ أولياء، فزيدت (من) لتأكيد معنى النفي، والثانية من المتعدي إلى مفعولين. فالأول ما بني له الفعل. والثاني: ﴿مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾. ومن للتبعيض، أي: لا نتخذ بعض أولياء. وتنكير ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ من حيث أنهم أولياء مخصوصون وهم الجن والأصنام والذكر: ذكر الله والإيمان به، أو القرآن والشرائع. والبور: الهلاك، يوصف به الواحد والجمع. ويجوز أن يكون جمع بائر، كعائذ وعوذ.

﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ١٩﴾

هذه المفاجأة[1] بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة وخاصة إذا انضم إليها الالتفات وحذف القول ونحوها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ﴾ [المائدة: ١٩]، وقول القائل [من البسيط]:

قَالُوا: خُرَاسَانُ أَقْصَى مَا يُرَادُ بِنَا ... ثُمَّ الْقُفُولُ فَقَدْ جِئْنَا خُرَاسَانَا[2]

وقرئ: يقولون، بالتاء والياء. فمعنى من قرأ بالتاء فقد كذبوكم بقولكم أنهم آلهة. ومعنى من قرأ بالياء: فقد كذبوكم بقولهم: ﴿سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾: فإن قلت: هل يختلف حكم الباء مع التاء والياء؟ قلت إي والله، هي مع التاء كقوله: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ﴾ ٢/ ٤٩أ والجار والمجرور بدل من الضمير. كأنه قيل: فقد كذبوا

(١) قوله «هذه المفاجأة» أي: التي في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم﴾. (ع)

(٢) يقول: قالوا: إن هذه البلدة أبعد ما يراد بنا وغاية السفر بنا، ثم يكون القفول أي الرجوع. ويجوز أنه عطف على خراسان. وقوله «فقد جئنا» مرتب على محذوف. أي: إن صدقوا في قولهم فقد جئنا خراسان، فلم لم نتخلص من السفر. ويجوز أنه عدل إلى الخطاب، أي فقولوا: لهم اقطعوا السفر بنا وارجعوا. فقد جئنا الموعد، لكن ليس ذلك التفاتاً.
البيت للعباس بن الأحنف، ينظر ديوانه (٣١٢)، الدر المصون (٥/ ٢٤٨).

بما تقولون: وهي مع الياء كقولك: كتبت بالقلم. وقرئ: يستطيعون، بالتاء والياء أيضاً. يعني: فما تستطيعون أنتم يا كفار صرف العذاب عنكم. وقيل: الصرف: التوبة وقيل: الحيلة، من قولهم: إنه ليتصرف، أي يحتال أو فما يستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب. أو أن يحتالوا لكم. الخطاب على العموم للمكلفين. والعذاب الكبير لاحقٌ بكل من ظلم، والكافر ظالم؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣]، والفاسق ظالم. لقوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]. وقرئ: يذقه، بالياء. وفيه ضمير الله. أو ضمير مصدر يظلم.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾

الجملة بعد «إلا» صفة لموصوف محذوف. والمعنى: وما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين إلا آكلين وماشين. وإنما حذف اكتفاء بالجار والمجرور. أعني من المرسلين ونحوه قوله عز من قائل: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ١٦٤﴾ [الصافات: ١٦٤] على معنى: وما منا أحد. وقرئ ويمشون. على البناء للمفعول، أي: تمشيهم حوائجهم أو الناس. ولو قرئ: يمشون، لكان أوجه لولا الرواية. وقيل: هو احتجاج على من قال: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾. ﴿فِتۡنَةً﴾ أي محنة وابتلاء. وهذا تصبير لرسول الله ـ ﷺ ـ على ما قالوه واستبدعوه، من أكله الطعام ومشيه في الأسواق بعد ما احتج عليهم بسائر الرسل، يقول: وجرت عادتي وموجب حكمتي على ابتلاء بعضكم أيها الناس ببعض. والمعنى: أنه ابتلى المرسلين بالمرسل إليهم، وبمناصبتهم لهم العداوة، وأقاويلهم الخارجة عن حدّ الإنصاف، وأنواع أذاهم، وطلب منهم الصبر الجميل، ونحوه ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وموقع ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ بعد ذكر الفتنة موقع ﴿أَيُّكُمۡ﴾ بعد الابتلاء في قوله: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾ [هود: ٧]. ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ عالماً بالصواب فيما يبتلى به وغيره فلا يضيقنّ صدرك، ولا يستخفنك أقاويلهم فإن في صبرك عليها سعادتك وفوزك في الدارين. وقيل: هو تسلية له عما عيروه به من الفقر، حين قالوا: أو يلقى إليه كنز، أو تكون له جنة، وأنه جعل الأغنياء فتنة للفقراء؛ لينظر: هل يصبرون؟ وأنها حكمته ومشيئته: يغني من يشاء ويفقر من يشاء. وقيل: جعلناك فتنة لهم؛ لأنك لو كنت غنياً صاحب كنوز وجنان لكان ميلهم إليك وطاعتهم لك للدنيا، أو ممزوجة بالدنيا؛ فإنما بعثناك فقيراً ليكون طاعة من يطيعك خالصة لوجه الله من غير طمع دنيوي. وقيل: كان أبو جهل والوليدين المغيرة والعاصي بن وائل ومن في طبقتهم

يقولون: إن أسلمنا وقد أسلم قبلنا عمار وصهيب وبلال وفلان وفلان ترفعوا علينا إدلالاً بالسابقة، هو افتتان بعضهم ببعض.

﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٢١﴾﴾

أي لا يأملون لقاءنا بالخير لأنهم كفرة. أو لا يخافون لقاءنا بالشر. والرجاء في لغة تهامة الخوف، وبه فسر قوله تعالى: ﴿لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ [نوح: ١٣]جعلت الصيرورة إلى دار جزائه بمنزلة لقائه لو كان ملقياً. اقترحوا من الآيات أن ينزل الله عليهم الملائكة فتخبرهم بأن محمداً صادق حتى يصدقوه. أو يروا الله جهرة فيأمرهم بتصديقه واتباعه. ولا يخلو: إما أن يكونوا عالمين بأن الله لا يرسل الملائكة إلى غير الأنبياء، وأن الله لا يصح أن يرى[1]. وإنما علقوا إيمانهم بما لا يكون. وإما ألا يكونوا عالمين بذلك وإنما أرادوا التعنت باقتراح آيات سوى الآيات التي نزلت وقامت بها الحجة عليهم، كما فعل قوم موسى حين قالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة. فإن قلت: ما معنى ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾؟ قلت: معناه أنهم أضمروا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد في قلوبهم واعتقدوه. كما قال: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ [غافر: ٥٦]. ﴿وَعَتَوۡ﴾ وتجاوزوا الحدّ في الظلم. يقال: عتا علينا فلان. وقد وصف العتوّ بالكبير، فبالغ في إفراطه يعني أنهم لم يخسروا على هذا القول العظيم، إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتوّ، واللام جواب قسم محذوف. وهذه الجملة في حسن استئنافها غاية، وفي أسلوبها قول القائل [من الطويل]:

وَجَارَةُ جَسَّاسٍ أَبَأْنَا بِنَابِهَا ... كُلَيْباً غَلَتْ نَابٌ كُلَيْبٌ بَوَاؤُهَا[2]

---

(١) قوله «لا يصح أن يرى» هذا مذهب المعتزلة، وعند أهل السنة: يصح أن يرى. (ع)

(٢) لرجل من بني بكر: قبيلة جساس، يفتخر على بني تغلب: قبيلة كليب بن ربيعة أخي مهلهل وخال امرىء القيس. وجارة جساس: هي خالته البسوس. أبأنا ـ بالهمز ـ: أي قابلنا وساوينا كليباً، بنابها: أي بناقتها المسنة، فقتلناه فيها، ثم قال تعجباً واستعظاماً: غلت، أي: ارتفعت وعظمت ناقة مسنة مهزولة بواؤها كليب المشهور. وبواء كسواء وزناً ومعنى، أي: كفؤها ومساويها كليب بن ربيعة الشجاع المعروف. ومن خبرها أن البسوس أتت مع رجل من جرم تزور أختها هيلة أم جساس بن مرة فخرجت ناقة الجرمي ترعى مع إبل بني بكر في أرض تغلب لما كان بينهما من المصاهرة والمودة، فأنكر كليب الناقة وظنها أجنبية، فرماها بسهم فأصاب ضرعها فرجعت تشخب دماً، وبركت بفناء جساس، فرأتها البسوس فصاحت: واذلاه، واغربتاه! فقال جساس: اهدئي: والله لأعقرن فيها فحلاً هو أعز على أهله منها، فظن كليب أنه يعني فحلاً عنده اسمه عليان، فقال: دون عليان خرط القتاد، لكن جساساً كان يعني نفس كليب، فترقبه يوماً ورماه برمحه فصرعه، =

وفي فحوى هذا الفعل دليل على التعجب من غير لفظ التعجب. ألا ترى أن المعنى: ما أشدّ استكبارهم، وما أكبر عتوّهم، وما أغلى نابا بواؤها كليب.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ منصوب بأحد شيئين: إما بما دل عليه ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾ أي: يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى أو يعدمونها. ويومئذٍ للتكرير[1]. وإما بإضمار «اذكر» أي: اذكر يوم يرون الملائكة ثم قال ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾. وقوله: «للمجرمين» إما ظاهر في موضع ٢/ ٤٩ب ضمير. وإما لأنه عام، فقد تناولهم بعمومه ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ ذكره سيبويه في باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بأفعال متروك إظهارها نحو: معاذ الله[2]، وقعدك الله، وعمرك الله. وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدوّ موتور أو هجوم نازلة، أو نحو ذلك: يضعونها موضع الاستعاذة. قال سيبويه: ويقول الرجل للرجل: أتفعل كذا وكذا، فيقول: حجرا، وهي من حجره إذا منعه؛ لأنّ المستعيذ طالب من الله أن يمنع المكروه فلا يلحقه فكان المعنى: أسأل الله أن يمنع ذلك منعاً ويحجره حجراً. ومجيئه على فعل أو فعل في قراءة الحسن، تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد، كما كان قعدك وعمرك

= وتبعه عمرو بن الحارث، فلما رآه كليب قال له: اسقني يا عمرو. فقال: تركت الماء وراءك وأجهز عليه، فضرب به المثل المشهور [من البسيط]:

المستجير بعمرو عند كربته ... كالمستجير من الرمضاء بالنار

واشتعلت الحرب بين بكر وتغلب نحو ثلاثين سنة، وضرب المثل السائر: سد كليب في الناقة.

(١) قال السمين الحلبي: وردَّهُ الشيخ سواء أُرِيدَ بالتكرير التوكيدُ اللفظيُّ أَمْ أُريدَ به البدل قال: لأن يَوْمَ منصوب بما تقدم ذِكْرُهُ من اذكر أو مِنْ يَعْدَمُونَ الْبُشْرَى وما بعد لا العاملة في الاسم لا يعمل فيه ما قبلها وعلى تقدير ما ذَكَرَاه يكون العامل فيه ما قبل لاَ. قُلْتُ: وما ردَّهُ ليس بِظاهر وذلك لأن الجملة المنفيَّة معمولة للقول المضمر الواقع حالاً من الملائكة والملائكة معمولةٌ لِيَرَوْنَ وَيَرَوْنَ معمولةٌ لِيَوْمَ خُصِّصا بالإضافة فَلاَ وَمَا في خبرها من تَتِمَّةِ الظرف الأول من حيث إنها معمولة لِبَعْضِ ما فِي خَبَرِهِ فليست بأجنبيةٍ ولا مانعةٍ من أنْ يعمل ما قبلَها فيما بعدها، والعَجَبُ له كيف تَخيَّل هذا وغفل عما قلته فإنه واضح مع التأمل؟! و«لِلْمُجرمينَ» من وَضْع الظاهرِ موضع المضمر شَهَادةً عليهم بذلك والضمير في «يَقُولُونَ» يجوز عَوْدُه للكفار ولِلْمَلائِكَةِ. و«حِجْراً» من المصادر المُلْتَزَم إضمارُ ناصبها ولا يَتَصَرَّفُ فيه قال سيبويه. ويقول الرجل للرجل أتفعل كذا فيقول «حِجْراً». وهي من حَجَرَهُ إذا مَنَعَه لأن المستعيذ طالب من الله أن يمنع المكروه لا يلحقه وكأنَّ المعنى: أسْألُ الله أن يمنعه مَنْعاً ويَحْجُرُهُ حِجْراً. والعامة على كسر الحاء والضَّحاكُ والحَسَنُ وأبو رجاء على ضَمِّها وهو لغة فيه. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله «وقعدك الله» في الصحاح: وقولهم قعيدك لا آتيك، وقعيدك الله لا آتيك، وقعدك الله لا آتيك: يمين للعرب، وهي مصادر استعملت منصوبة بفعل مضمر. والمعنى: بصاحبك الذي هو صاحب كل نجوى، كما يقال: نشدتك الله. (ع)

كذلك؛ وأنشدت لبعض الرّجاز [من الرجز]:

قَــالَــتْ وَفِـيـهَــا حَـيْــدَةٌ وَذُعْــرُ: عُــوذٌ بِــرَبِّــي مِــنْــكُــمُ وَحِــجْــرُ[1]

فإن قلت: فإذ قد ثبت أنه من باب المصادر، ما معنى وصفه بمحجور؟ قلت: جاءت هذه الصفة لتأكيد معنى الحجر، كما قالوا. ذيل ذائل، والذيل: الهوان. وموت مائت. والمعنى في الآية: أنهم يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه، وهم إذا رأوهم عند الموت أو يوم القيامة كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم، لأنهم لا يلقونهم إلا بما يكرهون، وقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدوّ الموتور[2] وشدة النازلة. وقيل: هو من قول الملائكة ومعناه: حراماً محرماً عليكم الغفران والجنة والبشرى، أي: جعل الله ذلك حراما عليكم.

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾

ليس ههنا قدوم ولا ما يشبه القدوم، ولكن مثلت حال هؤلاء وأعمالهم التي عملوها في كفرهم من صلة رحم، وإغاثة ملهوف، وقرى ضيف، ومنّ على أسير، وغير ذلك من مكارمهم ومحاسنهم بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه، فقدم على أشيائهم، وقصد إلى ما تحت أيديهم فأفسدها ومزقها كل ممزق، ولم يترك لها أثراً ولا عثيراً[3] والهباء: ما يخرج من الكوّة مع ضوء الشمس شبيه بالغبار. وفي أمثالهم: أقل من الهباء ﴿مَّنثُورًا﴾ صفة للهباء، شبهه بالهباء في قلته وحقارته عنده، وأنه لا ينتفع به، ثم بالمنثور منه؛ لأنك تراه منتظماً مع الضوء، فإذا حركته الريح رأيته قد تناثر وذهب كل مذهب. ونحوه قوله: ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ [الفيل: ٥] لم يكف أن شبههم بالعصف حتى جعله مؤوفا

---

(١) الحيدة: الصدود، وذعره ذعراً: فزعه. والذعر ـ بالضم ـ: اسم مصدر، وكذلك العوذ بمعنى التعوذ والالتجاء، وكذلك الحجر بمعنى الامتناع والتحصن، والمبتدأ محذوف. أي: قالت أمري تعوذ منكم وتحصن بربي، والحال أنها صادة فزعة، وهذا يقال على لسانهم عند لقاء المكروه.

(٢) قوله «الموتور» في الصحاح: الذي قتل له قتيل فلم يدرك بدمه. (ع)

(٣) قوله «لم يترك لها أثراً ولا عثيراً» في الصحاح «العثير» بتسكين الثاء: الغبار. (ع)

قال السمين الحلبي: وهذا الذي أنشدَه الزمخشري يقتضي تَصَرُّفَ حِجْراً وقد تقدم نصُّ سيبويه على أنه يُلْتَزَم النصبُ وحكى أبو البقاء فيه لغةً ثالثةً وهي الفتح قال: وَقَدْ قُرِىءَ بها فَعَلَى هذا كَمُل فيه ثلاثُ لغات مَقْرُوءٌ بِهِنَّ و«مَحْجُوراً» صفة مؤكدة للمعنى كقولهم: «ذَيْلٌ ذَائِلٌ» و«مَوْتٌ مَائِتٌ» والحِجْرُ: العَقْلُ لأنه يمنع صاحبه. انتهى. الدر المصون.

ينظر تهذيب اللغة (٣/ ١٤٧)، لسان العرب (عوذ)، (حجر)، تاج العروس (عوذ)، (حجر)، المخصص (١٢/ ٢٩٩)، ديوان الأدب (١/ ١٥٢)، البحر المحيط (٦/ ٤٩٢)، الدر المصون (٥/ ٢٥٠).

بالأكال[1] ولا أن شبه عملهم بالهباء حتى جعله متناثراً. أو مفعول ثالث لجعلناه أي فجعلناه جامعاً لحقارة الهباء والتناثر، كقوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، أي جامعين للمسخ والخسء. ولام الهباء واو، بدليل الهبوة.

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

المستقرّ: المكان الذي يكونون فيه في أكثر أوقاتهم مستقرّين يتجالسون ويتحادثون. والمقيل: المكان الذي يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم والتمتع بمغازلتهنّ وملامستهنّ، كما أنّ المترفين في الدنيا يعيشون على ذلك الترتيب. وروي أنه يفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم، فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار. وفي معناه قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس: ٥٥ ـ ٥٦]، قيل في تفسير الشغل: افتضاض الأبكار، ولا نوم في الجنة. وإنما سمي مكان دعتهم واسترواحهم إلى الحور مقيلا على طريق التشبيه. وفي لفظ الأحسن: رمز إلى ما يتزين به مقيلهم. من حسن الوجوه وملاحة الصور، إلى غير ذلك من التحاسين والزين.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾

وقرئ ﴿تَشَقَّقُ﴾ والأصل: تتشقق، فحذف بعضهم التاء، وغيره أدغمها. ولما كان انشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها، جعل الغمام كأنه الذي تشقق به السماء، كما تقول: شق السنام بالشفرة وانشق بها. ونظيره قوله تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل: ١٨]. فإن قلت: أي فرق بين قولك: انشقت الأرض بالنبات، وانشقت عن النبات؟ قلت: معنى انشقت به: أنّ الله شقها بطلوعه فانشقت به. ومعنى انشقت عنه: أنّ التربة ارتفعت عنه عند طلوعه. والمعنى: أن السماء تنفتح بغمام يخرج منها، وفي الغمام الملائكة ينزلون وفي أيديهم صحائف أعمال العباد. وروي تنشق سماء سماء، وتنزل الملائكة إلى الأرض. وقيل: هو غمام أبيض رقيق، مثل الضبابة، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم. وفي معناه قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]. وقرئ: وننزل الملائكة، وتنزل الملائكة، ونزل الملائكة، ونزلت الملائكة، وأنزل الملائكة، ونزل الملائكة، ونزل الملائكة: على حذف النون الذي هو فاء الفعل من تنزل: قراءة أهل مكة.

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾

(١) قوله «بالأكال» هو بالضم: الحكة. (ع)

الحق: الثابت؛ لأنّ كل ملك يزول يومئذٍ ويبطل، ولا يبقى إلا ملكه.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾

عض اليدين والأنامل، والسقوط في اليد، وأكل البنان، وحرق الأسنان والأرم[1]، وقرعها: كنايات عن الغيظ والحسرة؛ لأنها من روادفها، فيذكر الرادفة ويدل بها على المردوف، فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة، ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة والاستحسان ما لا يجده عند لفظ المكنى عنه. وقيل: نزلت في عقبة بن أبي معيط بن أمية بن عبد شمس، وكان يكثر مجالسة رسول الله ـ ﷺ ـ. وقيل: اتخذ ضيافة فدعا إليها رسول الله ـ ﷺ ـ، فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين، ففعل وكان أبي بن خلف صديقه فعاتبه ٢/ ٥٠أ وقال: صبأت يا عقبة؟ قال: لا، ولكن آلى أن لا يأكل من طعامي وهو في بيتي، فاستحييت منه فشهدت له والشهادة ليست في نفسي، فقال: وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمداً فلم تطأ قفاه وتبزق في وجهه وتلطم عينه، فوجده ساجداً في دار الندوة ففعل ذلك. فقال النبي ـ ﷺ ـ: لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف، فقتل يوم بدر: أمر علياً ـ رضي الله عنه ـ بقتله. وقيل: قتله عاصم بن ثابت بن أفلح الأنصاري وقال: يا محمد، إلى من السبية[2] قال: إلى النار. وطعن رسول الله ـ ﷺ ـ أبيا بأحد، فرجع إلى مكة فمات (١٠٦٢). واللام في ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ يجوز

١٠٦٢ ـ رواه أبو نعيم في الدلائل (ص ٣٥٤) قال: حدثنا إبراهيم بن أحمد المقري ثنا أحمد بن فرج، قال: ثنا أبو عمرو الدوري، قال: ثنا محمد بن مروان عن محمد بن المسيب عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كان عقبة بن أبي معيط لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً فدعا عليه الناس جيرانه وأهل مكة كلهم وكان يكثر مجالسة النبي ـ ﷺ ـ ويعجبه حديثه ويغلب عليه الشقاء فقدم ذات يوم من سفره فصنع طعاماً ثم دعا رسول الله ـ ﷺ ـ إلى طعامه فقال: ما أنا بالذي آكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فقال: اطعم يا ابن أخي، قال: ما أنا بالذي أفعل حتى تقول، فتشهد بذلك، فطعم من طعامه فبلغ ذلك أبي بن خلف فأتاه، فقال: صبوت يا عقبة =

---

(١) قوله «وحرق الأسنان والأرم» في الصحاح: حرقت الشيء حرقاً: بروته وحككت بعضه ببعض. ومنه قولهم: حرقت نابه، أي سحقه حتى سمع له صريف. وفلان يحرق عليك الأرم غيظاً. وفيه أيضاً: أرم على الشيء أي: عض عليه وأرمه أيضاً، أي: أكله، والأرم: الأضراس، كأنه جمع آرم. يقال: فلان يحرق عليك الأرم، إذا تغيظ فحك أضراسه بعضها ببعض. (ع)

(٢) قوله «وقال يا محمد إلى من السبية» في الصحاح «السبية»: المرأة تسبى. (ع)

أن تكون للعهد، يراد به عقبة خاصة. ويجوز أن تكون للجنس فيتناول عقبة وغيره. تمنى أن لو صحب الرسول وسلك معه طريقاً واحداً وهو طريق الحق ولم يتشعب به طرق الضلالة والهوى. أو أراد أني كنت ضالاً لم يكن لي سبيل قط، فليتني حصلت بنفسي في صحبة الرسول سبيلا. وقرئ: يا ويلتي بالياء، وهو الأصل؛ لأن الرجل ينادي ويلته وهي هلكته، يقول لها: تعالي فهذا أوانك. وإنما قلبت الياء ألفاً كما في: صحاري، ومداري. فلان: كناية عن الأعلام، كما أن الهن كناية عن الأجناس فإن أريد بالظالم عقبة، فالمعنى: ليتني لم أتخذ أبيا خليلاً، فكنى عن اسمه. وإن أريد به الجنس، فكل من اتخذ من المضلين خليلاً كان لخليله اسم علم لا محالة، فجعله كناية عنه ﴿عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ عن ذكر الله، أو القرآن، أو موعظة الرسول. ويجوز أن يريد نطقه بشهادة الحق، وعزمه على الإسلام. والشيطان: إشارة إلى خليله، سماه شيطاناً لأنه أضله كما يضل الشيطان، ثم خذله ولم ينفعه في العاقبة. أو أراد إبليس، وأنه هو الذي حمله على مخالة المضل ومخالفة الرسول، ثم خذله. أو أراد الجنس، وكل من تشيطن من الجنّ والإنس. ويحتمل أن يكون ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ حكاية كلام الظالم، وأن يكون كلام الله. اتخذت: يقرأ على الإدغام والإظهار، والإدغام أكثر.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾

= وكان خليله، فقال: لا والله، ما صبوت ولكن دخل علي رجل فأبى أن يطعم فشهدت له وطعم، فقال: ما أنا بالذي أرضى عنك أبداً حتى تأتيه فتبزق في وجهه وتطأ على عنقه، قال ففعل به ذلك، وأخذ رحم دابة فألقاه بين كتفيه فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف» فأسر عقبة يوم بدر فقتل صبراً ولم يقتل من الأسارى غيره قتله ثابت بن الأفلح» وذكره السيوطي في الدر (٥/ ١٢٥).

ورواه ابن جرير في التفسير (٩/ ٣٨٥) رقم (٢٦٣٥١) قال: حدثني محمد بن عمرو قال: ثنا أبو عاصم قال: ثنا عيسى وحدثني الحارث قال: ثنا الحسن قال: ثنا ورقاء جميعاً عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: قال عقبة بن أبي معيط... فذكره مختصراً.

ورواه عبد الرزاق في التفسير (٢/ ٦٨) من طريق معمر عن عثمان الجزري عن مقسم مولى ابن عباس عن ابن عباس، فذكره قريباً من حديث أبي نعيم. وزاد فيه قصة قتل أبي بن خلف يوم أحد. قال الحافظ: أخرجه أبو نعيم في الدلائل من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس فذكره مطولاً لكن إلى قوله: «فأسر عقبة يوم بدر فقتل صبراً. ولم يقتل من الأسارى يوم بدر غيره. قتله ثابت بن أبي الأفلح»، وروى الطبري من طريق مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ قال: دعا عقبة بن أبي معيط النبي ـ ﷺ ـ إلى طعام صنعه، إلى قوله: فشهدت له، والشهادة ليست في نفسي ومن طريق مقسم نحوه، مختصراً قال فقتل عقبة يوم بدر صبراً، وأما أبي بن خلف فقتله النبي ـ ﷺ ـ بيده يوم أحد في القتال وهما اللذان أنزل الله تعالى فيهما: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ وذكره الثعلبي ثم الواحدي من غير سند. انتهى.

الرسول: محمد ﷺ وقومه قريش، حكى الله عنه شكواه قومه إليه. وفي هذه الحكاية تعظيم للشكاية وتخويف لقومه: لأن الأنبياء كانوا إذا التجئوا إليه وشكوا إليه قومهم: حلّ بهم العذاب ولم ينظروا.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾

ثم أقبل عليه مسلياً ومواسياً وواعداً النصرة عليهم، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كان كل نبيّ قبلك مبتلى بعداوة قومه، وكفاك بي هادياً إلى طريق قهرهم والانتصار منهم، وناصراً لك عليهم. مهجورا: تركوه وصدّوا عنه وعن الإيمان به. وعن النبي ﷺ: من تعلم القرآن وعلمه وعلق مصحفاً لم يتعاهده ولم ينظر فيه، جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول: يا رب العالمين، عبدك هذا اتخذني مهجوراً، اقض بيني وبينه (١٠٦٣)، وقيل: هو من هجر، إذا هذى، أي: جعلوه مهجوراً فيه، فحذف الجار وهو على وجهين، أحدهما: زعمهم أنه هذيان وباطل وأساطير الأوّلين. والثاني: أنهم كانوا إذا سمعوه هجروا فيه، كقوله تعالى: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، ويجوز أن يكون المهجور بمعنى الهجر، كالمجلود والمعقول. والمعنى: اتخذوه هجراً. والعدوّ: يجوز أن يكون واحداً وجمعاً. كقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ [الشعراء: ٧٧]، وقيل المعنى: وقال الرسول يوم القيامة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾

﴿نُزِّلَ﴾ههنا بمعنى أنزل لا غير، كخبر بمعنى أخبر، وإلا كان متدفعاً، وهذا أيضاً من اعتراضاتهم واقتراحاتهم الدالة على شرادهم عن الحق وتجافيهم عن اتباعه. قالوا: هلا أنزل عليه دفعة واحدة في وقت واحد كما أنزلت الكتب الثلاثة، وماله أنزل على التفاريق. والقائلون: قريش. وقيل: اليهود. وهذا فضول من القول ومماراة بما لا طائل تحته؛ لأنّ أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة أو مفرّقاً. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾

١٠٦٣ ـ قال الزيلعي (٢/ ٤٥٩): «رواه الثعلبي: أخبرنا أبو الطيب الربيع بن محمد الحاتمي وأبو نصر محمد بن علي بن الفضل الخزاعي، قالا: أنا أبو الحسن علي بن محمد بن عقبة السيباني ثنا أبو القاسم الخضر بن أبان القرشي ثنا أبو هدبة إبراهيم بن هدبة ثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من تعلم... إلى آخره» اهـ.
قال الحافظ: أخرجه الثعلبي من طريق أبي هدبة عن أنس وأبو هدبة كذاب. انتهى.

جواب لهم، أي: كذلك أنزل مفرّقاً. والحكمة فيه: أن نقوّي بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه؛ لأنّ المتلقن إنما يقوي قلبه على حفظ العلم شيئاً بعد شيء، وجزءاً عقيب جزء. ولو ألقى عليه جملة واحدة لبعل به وتعيا[1] بحفظه، والرسول ﷺ فارقت حاله حال موسى وداود وعيسى عليهم السلام، حيث كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب وهم كانوا قارئين كاتبين، فلم يكن له بدّ من التلقن والتحفظ، فأنزل عليه منجماً في عشرين سنة. وقيل: في ثلاث وعشرين. وأيضاً: فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين، ولأنّ بعضه منسوخ وبعضه ناسخ، ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفرّقاً. فإن قلت: ذلك في كذلك يجب أن يكون إشارة إلى شيء تقدّمه، والذي تقدّم هو إنزاله جملة واحدة، فكيف فسرته بكذلك أنزلناه مفرّقاً؟ قلت: لأنّ قولهم: لولا أنزل عليه جملة: معناه: لم أنزل مفرّقاً؟ والدليل على فساد هذا الاعتراض: أنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم واحد من نجومه، وتحدّوا بسورة واحدة من أصغر السور، فأبرزوا صحة عجزهم ٢/ ٥٠ب وسجلوا به على أنفسهم حين لاذوا بالمناصبة وفزعوا إلى المحاربة، ثم قالوا: هلا نزل جملة واحدة، كأنهم قدروا على تفاريقه حتى يقدروا على جملته ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ﴾ معطوف على الفعل الذي تعلق به كذلك، كأنه قال: كذلك فرقناه ورتلناه. ومعنى ترتيله: أن قدره آية بعد آية، ووقفة عقيب وقفة. ويجوز أن يكون المعنى: وأمرنا بترتيل قراءته، وذلك قوله: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، أي اقرأه بترسل وتثبت. ومنه حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ في صفة قراءته ﷺ «لا كسردكم هذا، لو أراد السامع أن يعدّ حروفه يعدّها» (١٠٦٤)، وأصله: الترتيل في الأسنان: وهو تفليجها. يقال: ثغر رتل ومرتل، ويشبه بنور الأقحوان

١٠٦٤ ـ قال الزيلعي: «غريب بهذا اللفظ».

والحديث أخرجه مسلم (٨/ ٢٩١ ـ نووي) كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي هريرة الحديث (١٦٠/ ٢٤٩٣) حدثني حرملة بن يحيى التجيبي أخبرنا ابن وهب أخبرني يونس عن ابن شهاب أن عروة بن الزبير حدثه أن عائشة قالت: ألا يعجبك أبو هريرة! جاء فجلس إلى جنب حجرتي يحدث عن النبي ـ ﷺ ـ يسمعني ذلك؛ وكنت أسبح فقام قبل أن أقضي سبحتي ولو أدركته لرددت عليه: إن رسول الله ـ ﷺ ـ لم يكن يسرد الحديث كسردكم.

وعلقه البخاري (٧/ ٢٦١) كتاب المناقب، باب صفة النبي ـ ﷺ ـ الحديث (٣٥٦٨) قال: وقال الليث حدثني يونس عن ابن شهاب فذكره.

ورواه موصولاً من طريق أخرى رقم (٣٥٦٧) ورواه أبو داود (٢/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥) كتاب العلم، باب في سرد الحديث، الحديث (٣٦٥٤ ـ ٣٦٥٥) وفي (٢/ ٦٧٦) كتاب الأدب، باب الهدي في الكلام الحديث (٤٨٣٩)، والترمذي (٥/ ٦٠٠) كتاب المناقب، باب في كلام النبي ـ ﷺ ـ الحديث =

---

(١) قوله «لبعل به وتعيا بحفظه» في الصحاح: بعل الرجل ـ بالكسر ـ: أي دهش: وفيه أيضاً: عييت بأمري، إذا لم تهتد لوجهه. وأعيا عليه الأمر وتعيا وتعايا، بمعنى اهـ فتدبر (ع)

في تفليجه. وقيل: هو أن نزله مع كونه متفرقاً على تمكث وتمهل في مدة متباعدة وهي عشرون سنة، ولم يفرقه في مدة متقاربة ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾ بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة ـ كأنه مثل البطلان ـ إلا أتيناك نحن بالجواب الحق الذي لا محيد عنه وبما هو أحسن معنى، ومؤدّى من سؤالهم. ولما كان التفسير هو التكشيف عما يدل عيه الكلام، وضع موضع معناه فقالوا: تفسير هذا الكلام كيت وكيت، كما قيل: معناه كذا وكذا. أو لا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون: هلا كانت هذه صفتك وحالك، نحو: أن يقرن بك ملك ينذر معك، أو يلقي إليك كنز، أو تكون لك جنة، أو ينزل عليك القرآن جملة، إلا أعطيناك نحن من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا ومشيئتنا أن تعطاه، وما هو أحسن تكشيفاً لما بعثت عليه ودلالة على صحته، يعني: أن تنزيله مفرقاً وتحدّيهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كلما نزل شيء منها: أدخل في الإعجاز وأنور للحجة من أن ينزل كله جملة ويقال لهم جيئوا بمثل هذا الكتاب في فصاحته مع بعد ما بين طرفيه، كأنه قيل لهم: إن حاملكم على هذه السؤالات أنكم تضلون سبيله وتحتقرون مكانه ومنزلته. ولو نظرتم بعين الإنصاف وأنتم من المسحوبين على وجوههم إلى جهنم. لعلمتم أن مكانكم شر من مكانه وسبيلكم أضل من سبيله. وفي طريقته قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠] الآية. ويجوز أن يراد بالمكان: الشرف والمنزلة. وأن يراد الدار والمسكن، كقوله: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣]، ووصف السبيل بالضلال من الإسناد المجازي وعن النبي ﷺ: يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أثلاث: ثلث على الدواب وثلث على وجوههم، وثلث على أقدامهم ينسلون نسلاً (١٠٦٥).

= (٣٦٣٩)، وأحمد (٦/ ١١٨ ـ ١٣٨ ـ ١٥٧ ـ ٢٥٧)، والحميدي (١٠/ ١٢٠) رقم (٢٤٧)، وأبو يعلى (٧/ ٣٥٧) رقم (٤٣٩٣)، رقم (٤٦٧٧) وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٤٦٠) للبيهقي في المدخل، وإسحاق بن راهويه في مسنده، وابن أبي شيبة في مسنده.

قال الحافظ: أخرجه البخاري من رواية عروة. قال: «جلس أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ إلى حجرة عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقال: إن النبي ـ ﷺ ـ إنما كان يحدث الحديث لوعده العاد لأحصاه» ولمسلم: «لم يكن يسرد الحديث كسردكم» وزاد الترمذي والنسائي: «ولكن كان يتكلم بكلام فصل يحفظه من جلس إليه» وسيأتي في المزمل. انتهى.

١٠٦٥ ـ أخرجه الترمذي (٥/ ٣٠٥) كتاب التفسير، الحديث (٣١٤٢) حدثنا عبد بن حميد حدثنا الحسن بن موسى وسليمان بن حرب قالا: حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أوس بن خالد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: صنفاً مشاة، وصنفاً ركباناً، وصنفاً على وجوههم، قيل يا رسول الله، وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم، إما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك»، وأحمد في المسند (٢/ ٣٥٤ ـ ٣٦٣)، والبيهقي في البعث والنشور ص (٧٣) =

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾

الوزارة: لا تنافي النبوّة، فقد كان يبعث في الزمن الواحد أنبياء ويؤمرون بأن يوازر بعضهم بعضا. والمعنى: فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم، كقوله: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، أي: فضرب فانفلق. أراد اختصار القصة فذكر حاشيتها أوّلها وآخرها؛ لأنهما المقصود من القصة بطولها أعني: إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم. وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ فدمَّرتهم. وعنه: فدمّراهم. وقرئ فدمّرانهم، على التأكيد بالنون الثقيلة.

= رقم(١١١)، وأصل حديث أبي هريرة رواه البخاري (١٣/١٨٧) كتاب الرقاق، باب الحشر، الحديث (٦٥٢٢)، ومسلم (٩/٢١١) كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر الحديث (٥٩/٢٨٦١) والنسائي (٤/١١٥) كتاب الجنائز، باب البعث وغيرهم كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «يحشر الناس على ثلاث طرائق: راغبين راهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، ويحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا».

وروى النسائي (٤/١١٦) كتاب الجنائز، باب البعث من حديث أبي ذر قال: «إن الصادق المصدوق ـ ﷺ ـ حدثني: أن الناس يحشرون ثلاثة أفواج: فوج راكبين طاعمين كاسين، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم النار، وفوج يمشون ويسعون يلقى الله الآفة على الظهر فلا يبقى حتى إن الرجل لتكون له الحديقة يعطيها بذات القتب لا يقدر عليها»، وأحمد في المسند (٥/١٦٤ ـ ١٦٥)، والحاكم في المستدرك (٢/٣٦٧ ـ ٣٦٨)، وابن أبي شيبة (٧/٨٦) كتاب الزهد، باب ما ذكر عن النبي ـ ﷺ ـ في الزهد الحديث (٣٤٣٩٦)، والبيهقي في البعث (ص ٧٢) رقم (١٠٩). وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» اهـ.
وروى النسائي في الكبرى (٦/٤٣٩) كتاب التفسير، سورة يس الحديث (١١٤٣١) من حديث حكيم بن معاوية عن أبيه أنه جاء إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: يا محمد، إني حلفت بعدد أصابعي ألا أتبعك ولا أتبع دينك... وفيه وأشار بيده إلى الشام فقال: ههنا إلى ههنا تحشرون ركباناً ومشاة وعلى وجوهكم يوم القيامة... الحديث.
ورواه الطبراني مختصراً (١٩/رقم ٩٩٩ ـ ١٠٠٢ ـ ١٠٣٤ ـ ١٠٣٨ ـ ١٠٣٩) وهو عند غيرهما.
قال الحافظ: أخرجه البيهقي من طريق مسدد عن بشر بن المفضل عن علي بن زيد عن أوس بن أبي أوس عن أبي هريرة مرفوعاً بهذا، وأصله في الترمذي، والبزار، وأحمد، وإسحاق، وابن أبي شيبة من هذا الوجه لكن قال عن أوس بن خالد، وعند الحاكم من رواية أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد عن أبي ذر حدثني الصادق المصدوق: «أن الناس يحشرون ثلاثة أفواج: فوجاً طاعمين لابسين راكبين، وفوجاً يمشون ويسعون، وفوجا تسحبهم الملائكة على وجوههم إلى النار» وفي الترمذي، والنسائي من رواية معاوية بن جبله حدثنا بهز بن حكيم رفعه: «إنكم محشورون إلى الله ركباناً ورجالاً وتمرون على وجوهكم. انتهى.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾

كأنهم كذبوا نوحاً ومن قبله من الرسل صريحاً. أو كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيب للجميع أو لم يروا بعثة الرسل أصلاً كالبراهمة ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ وجعلنا إغراقهم أو قصتهم ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ إمّا أن يعني بهم قوم نوح، وأصله: وأعتدنا لهم، إلا أنه قصد تظليمهم فأظهر. وإمّا أن يتناولهم بعمومه.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾

عطف عادا على (هم) في جعلناهم أو على الظالمين، لأنّ المعنى: ووعدنا الظالمين. وقرئ: وثمود، على تأويله القبلة. وأما المنصرف فعلى تأويل الحيّ أو لأنه اسم الأب الأكبر. قيل في أصحاب الرس: كانوا قوماً من عبدة الأصنام أصحاب آبار ومواش. فبعث الله إليهم شعيباً فدعاهم إلى الإسلام. فتمادوا في طغيانهم وفي إيذائه. فبيناهم حول الرس وهو البئر غير المطوية. عن أبي عبيدة: انهارت بهم فخسف بهم وبديارهم. وقيل: الرس قرية بفلج اليمامة، قتلوا نبيهم فهلكوا، وهم بقية ثمود قوم صالح. وقيل: هم أصحاب النبي حنظلة بن صفوان، كانوا مبتلين بالعنقاء وهي أعظم ما يكون من الطير، سميت لطول عنقها، وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فتخ، وهي تنقض على صبيانهم فتخطفهم، إن أعوزها الصيد، فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة، ثم إنهم قتلوا حنظلة فأهلكوا: وقيل: هم أصحاب الأخدود. والرس: هو الأخدود. وقيل الرس بأنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجار. وقيل ٢/٥١أ: كذبوا نبيهم ورسوه في بئر، أي: دسوه فيها ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي بين ذلك المذكور، وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير إليها بذلك، ويحسب الحاسب أعداداً متكاثرة ثم يقول: فذلك كيت وكيت على معنى: فذلك المحسوب أو المعدود ﴿ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ بينا له القصص العجيبة من قصص الأوّلين، ووصفنا لهم ما أجروا إليه من تكذيب الأنبياء وجرى عليهم من عذاب الله وتدميره. والتتبير: التفتيت والتكسير. ومنه: التبر، وهو كسار الذهب والفضة والزجاج. و﴿وَكُلًّا﴾ الأوّل منصوب بما دل عليه ﴿ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ وهو: أنذرنا. أو: حذرنا. والثاني بتبرنا، لأنه فارغ له.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾

أراد بالقرية «سدوم» من قرى قوم لوط، وكانت خمساً: أهلك الله تعالى أربعة بأهلها وبقيت واحدة. ومطر السوء: الحجارة، يعني أن قريشا مرّوا مراراً كثيرة في متاجرهم إلى الشام على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا﴾ في مرار مرورهم ينظرون إلى آثار عذاب الله ونكاله ويذكرون ﴿بَلْ كَانُوا﴾ قوما كفرة بالبعث لا يتوقعون ﴿نُشُورًا﴾ وعاقبة، فوضع الرجاء موضع التوقع، لأنه إنما يتوقع العاقبة من يؤمن فمن ثم لم ينظروا ولم يذكروا، ومرّوا بها كما مرّت ركابهم. أو لا يأملون نشورا كما يأمله المؤمنون لطمعهم في الوصول إلى ثواب أعمالهم. أو لا يخافون، على اللغة التهامية.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٤١) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢)﴾

﴿إِن﴾ الأولى نافية، والثانية مخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينهما. واتخذه هزواً: في معنى استهزأ به، والأصل: اتخذه موضع هزؤ، أو مهزوءاً به ﴿أَهَٰذَا﴾ محكي بعد القول المضمر. وهذا استصغار، و﴿بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ وإخراجه في معرض التسليم والإقرار، وهم على غاية الجحود والإنكار سخرية واستهزاء، ولو لم يستهزؤا لقالوا: أهذا الذي زعم أو ادّعى أنه مبعوث من عند الله رسولاً. وقولهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ دليل على فرط مجاهدة رسول الله ـ ﷺ ـ في دعوتهم، وبذله قصارى الوسع والطاقة في استعطافهم، مع عرض الآيات والمعجزات عليهم حتى شارفوا بزعمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام، لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم، و﴿لَوْلَا﴾ في مثل هذا الكلام جار من حيث المعنى ـ لا من حيث الصنعة ـ مجرى التقييد للحكم المطلق ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيد ودلالة على أنهم لا يفوتونه وإن طالت مدّة الإمهال، ولا بدّ للوعيد أن يلحقهم فلا يغرّنهم التأخير. وقوله: ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ كالجواب عن قولهم ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ لأنه نسبة لرسول الله ـ ﷺ ـ إلى الضلال من حيث لا يضلّ غيره إلا من هو ضال في نفسه. ويروى أنه من قول أبي جهل لعنه الله.

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣)﴾

من كان في طاعة الهوى في دينه يتبعه في كل ما يأتي ويذر لا يتبصر دليلاً ولا يصغي إلى برهان. فهو عابد هواه وجاعله إلهه، فيقول لرسوله هذا الذي لا يرى معبودا إلا هواه كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى أفتتوكل عليه وتجبره على الإسلام وتقول لا بدّ أن تسلم شئت أو أبيت ـ ولا إكراه في الدين؟ وهذا كقوله: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]، ﴿لَّسْتَ

عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢٢] ويروى أنّ الرجل منهم كان يعبد الحجر، فإذا رأى أحسن منه رمى به وأخذ آخر. ومنهم الحرث بن قيس السهمي.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾

أم هذه منقطعة. معناه؛ بل أتحسب كأن هذه المذمة أشدّ من التي تقدّمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها وهي كونهم مسلوبي الأسماع والعقول، لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أذناً ولا إلى تدبره عقلاً، ومشبهين بالأنعام التي هي مثل في الغفلة والضلال، ثم أرجح ضلالة منها. فإن قلت لم أخر هواه والأصل قولك: اتخذ الهوى إلهاً؟ قلت: ما هو إلا تقديم المفعول الثاني على الأوّل للعناية، كما تقول: علمت منطلقاً زيدا: لفضل عنايتك بالمنطلق[1]، فإن قلت: ما معنى ذكر الأكثر؟ قلت: كان فيهم من لم يصدّه عن الإسلام إلا داء واحد: وهو حب الرياسة، وكفى به داء عضالاً. فإن قلت: كيف جُعلوا أضل من الإنعام؟ قلت: لأن الأنعام تنقاد لأربابها التي تعلفها وتتعهدها، وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها، وتهتدي لمراعيها ومشاربها. وهؤلاء لا ينقادون لربهم، ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوّهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتقون العقاب الذي هو أشدّ ٢/ ٥١ب المضارّ والمهالك، ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهنيّ والعذب الروي.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ألم تنظر إلى صنع ربك وقدرته، ومعنى مدّ الظل: أن جعله يمتدّ وينبسط فينتفع به الناس ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي لاصقاً بأصل كل مظل من جبل وبناء وشجرة، غير منبسط فلم ينتفع به أحد: سمي انبساط الظل وامتداده تحركاً منه وعدم ذلك سكوناً. ومعنى كون الشمس دليلاً: أنّ الناس يستدلون بالشمس وبأحوالها في مسيرها على

---

(١) قال محمود: «إن قلت لم قدم إلهه وهو المفعول الثاني، وأجاب بأنه قدم عناية به كقولك ظننت منطلقاً زيداً إذا كانت عنايتك بالمنطلق» قال أحمد: وفيه نكتة حسنة وهي إفادة الحصر، فإن الكلام قبل دخول أرأيت مبتدأ وخبر: المبتدأ هواه، والخبر إلهه. وتقديم الخبر كما علمت يفيد الحصر، فكأنه قال: أرأيت من لم يتخذ معبوده إلا هواه، فهو أبلغ في ذمه وتوبيخه، والله أعلم.
قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وادعاء القلب يعني أن التقديم ليس بجيد. لأنه من ضرائر الأشعار. انتهى. الدر المصون.

أحوال الظل، من كونه ثابتاً في مكان زائلاً[١] ومتسعاً ومتقلصاً، فيبنون حاجتهم إلى الظل واستغناءهم عنه على حسب ذلك. وقبضه إليه: أنه ينسخه بضح الشمس[٢] ﴿يَسِيرًا﴾ أي على مهل. وفي هذا القبض اليسير شيئاً بعد شيء من المنافع ما لا يعدّ ولا يحصر، ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعاً. فإن قلت: ثم في هذين الموضعين كيف موقعها؟ قلت: موقعها لبيان تفاضل الأمور الثلاثة: كان الثاني أعظم من الأوّل، والثالث أعظم منهما، تشبيهاً لتباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت. ووجه آخر: وهو أنه مدّ الظل حين بنى السماء كالقبة المضروبة، ودحا الأرض تحتها فألقت القبة ظلها على الأرض فينانا ما في أديمه جوب[٣] لعدم النير، ولو شاء لجعله ساكناً مستقراً على تلك الحالة، ثم خلق الشمس وجعلها على ذلك الظل، أي: سلطها عليه، ونصبها دليلاً متبوعاً له كما يتبع الدليل في الطريق، هو يزيد بها وينقص، ويمتدّ ويتقلص، ثم نسخه بها فقبضه قبضاً سهلاً يسيراً غير عسير. ويحتمل أن يريد: قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه وهي الأجرام التي تبقي الظل فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه، وقوله: قبضناه إلينا: يدل عليه، وكذلك قوله يسيراً، كما قال ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾

شبه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر. والسبات: الموت. والمسبوت: الميت؛ لأنه مقطوع الحياة، وهذا كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]. فإن قلت: هلا فسرته بالراحة؟ قلت: النشور في مقابلته يأباه إباء العيوف الورد وهو مرنق[٤]. وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهار لنعمته على خلقه؛ لأنّ الاحتجاب بستر الليل، كم فيه لكثير من الناس من فوائد دينية ودنيوية، والنوم واليقظة وشبههما بالموت والحياة، أي عبرة فيها لمن اعتبر. وعن لقمان أنه قال لابنه: يا بني، كما تنام فتوقظ، كذلك تموت فتنشر.

---

(١) قوله «زائلا» لعله: زائلا عن آخر. (ع)

(٢) قوله «أنه ينسخه بضح الشمس» في الصحاح: ضحضح السراب وتضحضح، إذا ترقرق. والضح: الشمس. وفي الحديث «لا يقعدن أحدكم بين الضح والظل» فإنه مقعد الشيطان. (ع)

(٣) قوله «ظلها على الأرض فينانا ما في أديمه جوب» في الصحاح «الفينان» الطويل، وفيه «الأدم» جمع الأديم، مثل: أفيق وأفق، وربما سمي وجه الأرض أديماً. وفيه: جاب يجوب جوباً، إذا خرق وقطع، فتدبر. (ع)

(٤) قوله «يأباه إباء العيوف الورد وهو مرنق» في الصحاح «العيوف» من الإبل: الذي يشم الماء فيدعه وهو عطشان، وفيه: رنقته ترنيقاً: كدرته. (ع)

قرئ: الريح. والرياح نشراً: إحياء. ونشراً: جمع نشور، وهي المحيية. ونشراً: تخفيف نشر، وبشراً تخفيف بشر: جمع بشور وبشرى. و﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ استعارة مليحة، أي: قدام المطر ﴿طَهُورًا﴾ بليغاً في طهارته. وعن أحمد بن يحيى هو ما كان طاهراً في نفسه مطهراً لغيره، فإن كان ما قاله شرحاً لبلاغته في الطهارة كان سديداً. ويعضده قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١]، وإلا فليس «فعول» من التفعيل في شيء. والطهور على وجهين في العربية: صفة، واسم غير صفة؛ فالصفة قولك: ماء طهور، كقولك: طاهر، والاسم قولك لما يتطهر به: طهور، كالوضوء والوقود، لما يتوضأ به وتوقد به النار. وقولهم: تطهرت طهورا حسنا، كقولك: وضوءاً حسناً، ذكره سيبويه. ومنه قوله ﷺ: «لا صلاة إلا بطهور» (١٠٦٦)، أي طهارة. فإن

١٠٦٦ ـ أخرجه مسلم (١/ ٢٠٤) كتاب الطهارة: باب وجوب الطهارة للصلاة حديث (١/ ٢٢٤)، والترمذي (١/ ٥) كتاب الطهارة: باب وجوب الطهارة للصلاة حديث (١) وابن ماجه (١/ ١٠٠) كتاب الطهارة: باب لا يقبل الله صلاة بغير طهور حديث (٢٦٢) وأحمد (٢/ ٢٠ ـ ٣٩ ـ ٥١) وأبو داود الطيالسي (١/ ٤٩) ـ منحة) رقم (١٥٥) وابن أبي شيبة (١/ ٤ ـ ٥) وأبو عبيد في «كتاب الطهور» (٥٤) وأبو عوانة (١/ ٢٣٤) وأبو يعلى (٩/ ٤٦٧) رقم (٥٦١٤) وفي «المعجم» رقم (٢٩٦) وابن خزيمة (١/ ٨) رقم (٨) وابن الجارود في «المنتقى» رقم (٦٥) وابن المنذر في «الأوسط» (١/ ١٠٨) والسهمي في «تاريخ جرجان» (ص ٢٩٦) والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧) والحاكم في «معرفة علوم الحديث (ص ١٣٩) وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ١٧٦) والبيهقي (١/ ٤٢) كتاب الطهارة: باب فرض الطهور للصلاة، كلهم من طريق سماك بن حرب عن مصعب بن سعد قال: دخل عبد الله بن عمر على ابن عامر يعوده وهو مريض فقال: ألا تدعو لي يا ابن عمر؟ قال: إني سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «لا تقبل صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول».

قال الترمذي: هذا الحديث أصح شيء في هذا الباب وأحسن اهـ.

وللحديث طريق آخر عن ابن عمر.

قال ابن أبي حاتم في «العلل» (١/ ٢٤ ـ ٢٥) رقم (٣٧): سألت أبي عن حديث رواه عيسى بن جعفر عن مندل عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي عمر الزهري سمعت عبد الله بن عمر بن الخطاب يذكر عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول» قال أبي: ليس ذا بشيء. قلت: فتعرف أبا عمر الزهري قال: لا. اهـ.

وفي الباب عن جماعة من الصحابة وهم أسامة بن عمير وأنس بن مالك وأبو بكرة والزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود وعمران بن حصين وأبو سعيد الخدري وأبو هريرة وابن مسعود وابن عمر كلاهما موقوفاً والحسن وأبو قلابة كلاهما مرسلاً.

١ ـ حديث أسامة بن عمير:

أخرجه أبو داود (١/ ٤٨ ـ ٤٩) كتاب الطهارة: باب فرض الوضوء حديث (٥٩) والنسائي (١/ ٨٨) =

قلت: ما الذي يزيل عن الماء اسم الطهور؟ قلت: تيقن مخالطة النجاسة أو غلبتها على

= كتاب الطهارة: باب فرض الوضوء، وابن ماجه (١/ ١٠٠) كتاب الطهارة: باب لا يقبل الله صلاة بغير طهور حديث (٢٧١) وابن أبي شيبة (١/ ٥) كتاب الطهارات: باب لا تقبل صلاة إلا بطهور وأحمد (٥/ ٧٤) وأبو عوانة (١/ ٢٣٥) وأبو داود الطيالسي (١/ ٤٩ ـ منحة) رقم (١٥٣) وأبو عبيد في «كتاب الطهور» (٥٦) والدارمي (١/ ١٧٥) كتاب الطهارة: باب لا تقبل الصلاة بغير طهور وابن حبان (١٤٥ ـ موارد) والطبراني في «الصغير» (١/ ٣٩) وفي «الكبير» (١/ ١٩١) رقم (٥٠٥ ـ ٥٠٦) وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ١٧٦ ـ ١٧٧) والبيهقي (١/ ٤٢) كتاب الطهارة: باب فرض الطهور للصلاة، والبغوي في «شرح السنة» (١/ ٢٥٧ ـ بتحقيقنا) كلهم من طريق قتادة عن أبي المليح عن أبيه قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ «يقول: لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول».

وهذا الحديث صحيح صححه ابن حبان. وقال البغوي: هذا حديث صحيح.

٢ ـ حديث أنس بن مالك:

أخرجه ابن ماجه (١/ ١٠٠) كتاب الطهارة: باب لا يقبل الله صلاة بغير طهور حديث (٢٧٣) وأبو عوانة في «مسنده» (١/ ٢٣٥) باب الدليل على إيجاب الوضوء لكل صلاة، وأبو يعلى (٧/ ٢٤٥) رقم (٤٢٥٢) من طرق عن يزيد بن أبي حبيب عن سعيد بن سنان عن أنس بن مالك عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول».

قال البوصيري في «الزوائد» (١/ ١٢٠): هذا إسناد ضعيف لضعف التابعي وقد تفرد يزيد بالرواية عنه واختلف عليه في اسمه فقال الليث: سعد بن سنان، وقال ابن إسحاق وابن لهيعة: سنان بن سعد وقال أحمد بن حنبل: لم أكتب حديثه لاضطرابهم في اسمه.

٢ ـ حديث أبي بكرة:

أخرجه ابن ماجه (١/ ١٠٠) كتاب الطهارة: باب لا يقبل الله صلاة بغير طهور (٢٧٤) وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٣٣٢) كلاهما من طريق الخليل بن زكريا ثنا هشام بن حسان عن الحسن عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول».

وهذا إسناد ضعيف جدا.

الخليل بن زكريا: متروك ينظر التقريب (١/ ٢٢٨).

وقال البوصيري في «الزوائد» (١/ ١٢١): هذا إسناد ضعيف لضعف الخليل بن زكريا .اهـ.

قلت: وقد توبع الخليل على هذا الحديث تابعه منهال بن بحر أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٣٣١) من طريق منهال بن بحر عن هشام بن حسان عن الحسن عن أبي بكرة به.

ومنهال بن بحر قال أبو حاتم الرازي: ثقة، الجرح والتعديل (٨/ ٣٥٧)، وقال العقيلي (٤/ ٢٣٨): في حديثه نظر، وقال ابن عدي (٦/ ٣٣٢): وليس للمنهال بن بحر كثير رواية.

٤ ـ حديث الزبير بن العوام:

أخرجه الطبراني في «الأوسط» كما في «مجمع الزوائد» (١/ ٢٣٢) بلفظ: لا تقبل صلاة إلا بطهور ولا صدقة من غلول.

قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٢٣٢): رواه الطبراني في الأوسط وفيه وهب بن حفص الحراني قيل فيه كذاب .اهـ.

قال برهان الدين الحلبي في «الكشف الحثيث عمن رمي بوضع الحديث (ص ٤٥٣): وهب بن =

الظنّ، تغير أحد أوصافه الثلاثة أو لم يتغير. أو استعماله في البدن لأداء عبادة عند أبي

= حفص البجلي الحراني عن أبي قتادة الحراني كذبه الحافظ أبو عروبة وقال الدارقطني: كان يضع الحديث ونقل ابن الجوزي في «الموضوعات عن أبي زرعة أنه كذاب يضع الحديث وذكر في مكان آخر ذلك عن أبي عروبة فلعل قوله ذلك عن أبي زرعة من غلط الناس.

٥ ـ حديث عبد الله بن مسعود:
أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٦٠ ـ ١٦١) من طريق عباد بن أحمد العرزمي ثنا عمي عن أبيه عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي السفر عن الأسود عن عبد الله قال: سمعت النبي ـ ﷺ ـ يقول: لا «يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول وابدأ بمن تعول».
والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٢٣٢) وقال: رواه الطبراني في الكبير وفيه عباد بن أحمد العرزمي وهو متروك.
٦ ـ حديث عمران بن حصين:
أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٨/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧) رقم (٥٠٩) من طريق زيد بن الحباب ثنا شعبة عن قتادة عن أبي السوار العدوي عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول».
قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٢٣٣): ورجاله رجال الصحيح.
٧ ـ حديث أبي سعيد الخدري:
أخرجه البزار (١/ ١٣٢ ـ ١٣٣ ـ كشف) حدثنا محمد بن عبيد الله بن يزيد حدثني أبي ثنا سليمان بن أبي داود الجزري عن مكحول عن رجاء بن حيوة عن أبي سعيد الخدري عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول».
وذكره الهيثمي في «المجمع» (١/ ٢٣٢) وقال: رواه الطبراني في الأوسط والبزار وفيه عبيد الله بن يزيد القردواني لم يرو عنه غير ابنه محمد.
٨ ـ حديث أبي هريرة:
أخرجه أبو عوانة (١/ ٢٣٦) وابن خزيمة في صحيحه (١/ ٨) رقم (١٠) والبزار (١/ ١٣٣ ـ كشف) رقم (٢٥٢) من طريق كثير بن زيد عن الوليد بن رباح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تقبل صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول».
قال البزار: لا نعلمه يروى عن أبي هريرة إلا بهذا الإسناد وقد رواه عن كثير غير سليمان .اهـ.
ولم يعلله ابن خزيمة فهو صحيح عنده.
والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٢٣٢) وقال: رواه البزار وفيه كثير بن زيد الأسلمي وثقه ابن حبان وابن معين في رواية وقال أبو زرعة: صدوق فيه لين وضعفه النسائي وقال محمد بن عبد الله بن عمار: ثقة .اهـ.
قلت: وقال أبو حاتم: صالح ليس بالقوي يكتب حديثه، وقال أحمد: ما أرى به بأساً، وقال ابن عدي: أرجو أن لا بأس به، وذكره ابن حبان في «الثقات» ينظر التهذيب (٨/ ١٤).
وقال الحافظ في «التقريب» (٢/ ١٣٢): صدوق يخطىء.
فمثله حسن الحديث كما هو مقرر في علم مصطلح الحديث. أما قول البزار المتقدم فمتعقب فقد جاء الحديث عن أبي هريرة من ثلاث طرق أخرى.
الطريق الأول: =

حنيفة وعند مالك بن أنس ـ رضي الله عنهما ـ: ما لم يتغير أحد أوصافه فهو طهور. فإن

= أخرجه أبو يعلى (١١/١٠٣) رقم (٦٢٣٠) من طريق عباد بن كثير عن أبي أمية قال: حدث الحسن بن أبي الحسن عن أبي هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا يقبل الله صلاة إلا بطهور ولا صدقة من غلول».

وهذا إسناد ضعيف فيه علل كثيرة.

أبو أمية هو عبد الكريم بن أبي المخارق قال الذهبي في «المغني» ضعيف تركه بعضهم.

وعباد بن كثير ضعيف أيضاً، والحسن لم يسمع من أبي هريرة.

الطريق الثاني:

أخرجه أبو عوانة (١/٢٣٦) وابن خزيمة (١/٨) رقم (٨) كلاهما من طريق عكرمة بن عمار عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة به مرفوعاً.

ورواية عكرمة عن يحيى مضطربة.

قال عبد الله بن أحمد عن أبيه عن عكرمة مضطرب الحديث عن يحيى بن أبي كثير وقال أيضاً: مضطرب الحديث عن غير إياس بن سلمة وكان حديثه عن إياس صالحاً.

وقال أبو زرعة الدمشقي: سمعت أحمد يضعف رواية أيوب بن عتبة وعكرمة بن عمار عن يحيى بن أبي كثير وقال عكرمة أوثق الرجلين.

وقال ابن المديني: أحاديث عكرمة عن يحيى بن أبي كثير ليست بذاك مناكير كان يحيى بن سعيد يضعفها.

وقال البخاري: مضطرب في حديث يحيى بن أبي كثير.

وقال أبو داود: ثقة وفي حديثه عن يحيى بن أبي كثير اضطراب. ينظر التهذيب (٧/ ٢٦١ ـ ٢٦٢).

الطريق الثالث:

أخرجه أبو عوانة (١/ ٢٣٦) من طريق هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة به مرفوعاً.

٩ ـ موقوف ابن مسعود وابن عمر:

أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٤ ـ ٥) كتاب الطهارات: باب من قال لا تقبل صلاة إلا بطهور.

١٠ ـ مرسل الحسن:

أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده (٦٥ ـ بغية الباحث) عن داود بن المحبر ثنا حماد عن حميد وغيره عن الحسن عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لا يقبل صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول».

وهذا الحديث مع إرساله فيه داود بن المحبر.

قال ابن حبان في «المجروحين» (١/ ٢٨٧): وكان يضع الحديث على الثقات ويروي عن المجاهيل المقلوبات وكان أحمد بن حنبل رحمه الله يقول: هو كذاب.

وقال الحافظ في «التقريب» (١/ ٢٣٤): متروك وأكثر كتاب العقل الذي صنفه موضوعات.

والحديث ذكره الحافظ في «المطالب العالية» (١/ ٢١) رقم (٦٣) وعزاه للحارث.

١١ ـ مرسل أبي قلابة:

أخرجه الحارث في «مسنده» (٦٤ ـ بغية الباحث) عن داود بن المحبر ثنا حماد بن سلمة عن أيوب وحميد أو أحدهما عن أبي قلابة فذكره مرفوعاً. وفيه داود بن المحبر وقد تقدم شيء من ترجمته. =

قلت: فما تقول في قوله ﷺ حين سئل عن بئر بضاعة فقال: «الماء طهور لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه» (١٠٦٧)؟ قلت: قال الواقدي: كان بئر بضاعة طريقاً للماء إلى البساتين.

= وهذا الحديث قد عده الحافظ السيوطي متواتراً فذكره في «الأزهار المتناثرة» رقم (١٢) وعزاه لمسلم عن ابن عمر وأبي داود والنسائي عن أسامة بن عمير وابن ماجه عن أنس وأبي بكرة والطبراني عن الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود وعمران بن حصين وأبي سعيد الخدري والبزار عن أبي هريرة والخطيب في «المتفق والمفترق» عن الحسن بن علي والحارث بن أبي أسامة في «مسنده» من مرسل الحسن وأبي قلابة وابن أبي شيبة في «المصنف» موقوفاً على ابن عمر وابن مسعود.

قال الحافظ: أخرجه الترمذي عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ «لا تقبل صلاة إلا بطهور» وأصله في مسلم والطبراني من طريق عيسى بن صبرة عن أبيه عن جده «لا صلاة إلا بوضوء» وفي الباب عن جماعة من الصحابة. قلت: استوفيت طرقه في أول شرحي على الترمذي ولم يذكر المخرج منها إلا شيئاً يسيراً. انتهى.

١٠٦٧ ـ أخرجه أبو داود (١/ ٥٥) كتاب الطهارة: باب ما جاء في بئر بضاعة، الحديث (٦٧)، والشافعي في المسند (١/ ٢١): كتاب الطهارة: باب في المياة، الحديث (٣٥)، وأبو داود الطيالسي (٢٩٢)، وأحمد (٣/ ٣١) في مسند أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ، والترمذي (١/ ٩٥): كتاب الطهارة: باب ما جاء أن الماء لا ينجسه شيء، الحديث (٦٦)، والنسائي (١/ ١٧٤): كتاب المياة: باب ذكر بئر بضاعة، وابن الجارود (ص ٢٧): باب في طهارة الماء، الحديث (٤٧)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ١١) كتاب الطهارة، والدارقطني (١/ ٢٩ ـ ٣٠): كتاب الطهارة: باب الماء المتغير، الحديث (١٠)، والبيهقي (١/ ٢٥٧): كتاب الطهارة: باب الماء الكثير لا ينجس بنجاسة تحدث فيه ما لم يتغير، وقال الترمذي: (هذا حديث حسن وقد جوده أبو أسامة، ولم يرو حديث أبي سعيد في بئر بضاعة، أحسن مما روى أبو أسامة). والحديث صححه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وابن حزم كما في «تلخيص الحبير» (١/ ١٣).

وللحديث شواهد من حديث جابر وابن عباس وسهل بن سعد وعائشة وميمونة وثوبان وأبي أمامة.

ـ حديث جابر:

أخرجه ابن ماجه (١/ ١٧٣) كتاب الطهارة: باب الحياض حديث (٥٢٠) من طريق شريك عن طريف بن شهاب قال: سمعت أبا نضرة يحدث عن جابر قال: انتهينا إلى غدير فإذا فيه جيفة حمار قال: فكففنا عنه حتى انتهى إلينا رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «إن الماء لا ينجسه شيء».

قال الحافظ البوصيري في «الزوائد» (١/ ٢٠٨): هذا إسناد فيه طريف بن شهاب وقد أجمعوا على ضعفه.

ـ حديث ابن عباس:

أخرجه أحمد (١/ ٢٣٥) والبزار (١/ ١٣٢ ـ كشف) رقم (٢٥٠) كلاهما من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس أن امرأة من أزواج النبي ـ ﷺ ـ اغتسلت من جنابة فتوضأ النبي ـ ﷺ ـ بفضله فذكرت ذلك له فقال: «إن الماء لا ينجسه شيء».

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٢١٦): ورجاله ثقات وأخرجه أصحاب السنن من هذا الطريق ولكن بلفظ آخر قريباً من هذا. =

وإنما قال ﴿مَّيۡتٗا﴾ لأنّ البلدة في معنى البلد في قوله: ﴿فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ [فاطر: ٩]، وأنه غير جار على الفعل كفعول ومفعال ومفعيل. وقرئ: نسقيه بالفتح. وسقى، وأسقى:

= ـ حديث سهل بن سعد:

أخرجه الدارقطني (١/ ٢٩) كتاب الطهارة: باب الماء المتغير حديث (٤) من طريق أبي حازم عن سهل بن سعد عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «الماء لا ينجسه شيء».

ـ حديث عائشة:

أخرجه أبو يعلى (٨/ ٢٠٣) رقم (٤٧٦٥) والبزار (١/ ١٣٢ ـ كشف) رقم (٢٤٩) من طريق شريك عن المقدام بن شريح عن أبيه عن عائشة عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «الماء لا ينجسه شيء».

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٢١٧) وقال: رواه أبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط ورجاله ثقات .اهـ.

وذكره الحافظ في «المطالب العالية» (١/ ٦) وعزاه لأبي يعلى وقال: وإسناده حسن.

ـ حديث ميمونة:

أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٤/ ١٧) رقم (٣٤) من طريق شريك عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس عن ميمونة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «الماء لا ينجسه شيء».

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٢١٧) وقال: رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون.

ـ حديث ثوبان:

أخرجه الدارقطني (١/ ٢٨) كتاب الطهارة: باب الماء المتغير حديث (١) من طريق رشدين بن سعد ثنا معاوية بن صالح عن راشد بن سعد عن ثوبان قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الماء طهور إلا ما غلب على ريحه أو على طعمه».

قال الدارقطني: لم يرفعه غير رشدين بن سعد عن معاوية بن صالح وليس بالقوي.

ـ حديث أبي أمامة:

أخرجه ابن ماجه (١/ ١٧٤) كتاب الطهارة: باب الحياض حديث (٥٢١) والدارقطني (١/ ٢٨) كتاب الطهارة: باب الماء المتغير حديث (٣) والطبراني في «الكبير» (٨/ ١٢٣) رقم (٧٥٠٣) من طريق رشدين بن سعد عن معاوية بن صالح عن راشد بن سعد عن أبي أمامة عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «الماء لا ينجسه شيء إلا ما غلب على ريحه أو طعمه أو لونه».

قال المناوي في «فيض القدير» (٢/ ٣٨٣): جزم بضعفه جمع منهم الحافظ العراقي ومغلطاي في شرح ابن ماجه فقال: ضعيف، لضعف رواته الذين منهم رشدين بن سعد الذي قال فيه أحمد: لا يبالي عمن روى، وأبو حاتم منكر الحديث وقال النسائي: متروك، ويحيى: واه. وأشار الشافعي إلى ضعفه واستغنى عنه بالإجماع .اهـ.

قال الحافظ: لم أجده هكذا. بل هو ملفق من حديثين فالأول أخرجه أصحاب السنن من حديث رافع بن خديج قال يا رسول الله أنتوضأ من بضاعة وهي بئر يلقى فيها الجيف ولحوم الكلاب والنتن فقال: «الماء طهور لا ينجسه شيء إلا ما غلب على لونه أو طعمه أو ريحه». وقد استوفيت طرقها في تخريج أحاديث الرافعي. انتهى.

لغتان. وقيل: أسقاه: جعل له سقيا. الأناسي: جمع إنسى أو إنسان. ونحوه ظرابي في ظربان، على قلب النون ياء، والأصل: أناسين وظرابين. وقرئ بالتخفيف بحذف ياء أفاعيل، كقولك: أناعم، في: أناعيم. فإن قلت: إنزال الماء موصوفا بالطهارة وتعليله بالإحياء والسقي يؤذن بأن الطهارة شرط في صحة ذلك، كما تقول: حملني الأمير على فرس جواد لأصيد ٢/٥٢أ عليه الوحش. قلت: لما كان سقى الأناسي من جملة ما أنزل له الماء، وصفه بالطهور إكراماً لهم، وتتميماً للمنة عليهم، وبياناً أن من حقهم حين أراد الله لهم الطهارة وأرادهم عليها أن يؤثروها في بواطنهم ثم في ظواهرهم، وأن يربئوا بأنفسهم عن مخالطة القاذورات كلها كما ربأ بهم ربهم. فإن قلت: لم خص الأنعام من بين ما خلق من الحيوان الشارب؟ قلت: لأن الطير والوحش تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب، بخلاف الأنعام؛ ولأنها قنية الأناسي، وعامة منافعهم متعلقة بها، فكان الإنعام عليهم بسقي أنعامهم كالإنعام بسقيهم. فإن قلت: فما معنى تنكير الأنعام والأناسي ووصفها بالكثرة؟ قلت: معنى ذلك أن علية الناس وجلهم منيخون بالقرب من الأودية والأنهار ومنابع الماء، فبهم غنية عن سقي السماء، وأعقابهم ـ وهم كثير منهم ـ لا يعيشهم إلا ما ينزل الله من رحمته وسقيا سمائه، وكذلك قوله: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ يريد بعض بلاد هؤلاء المتبعدين من مظان الماء. فإن قلت: لم قدم إحياء الأرض وسقي الأنعام على سقي الأناسي؟ قلت: لأنّ حياة الأناسيّ بحياة أرضهم وحياة أنعامهم، فقدم ما هو سبب حياتهم وتعيشهم على سقيهم، ولأنهم إذا ظفروا بما يكون سقياً أرضهم ومواشيهم، لم يعدموا سقياهم.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾

يريد: ولقد صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن وفي سائر الكتب والصحف التي أنزلت على الرسل عليهم السلام ـ وهو ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر ـ ليفكروا ويعتبروا، ويعرفوا حق النعمة فيه ويشكروا ﴿فَأَبَىٰٓ﴾ أكثرهم إلا كفران النعمة وجحودها وقلة الاكتراث لها. وقيل: صرفنا المطر بينهم في البلدان المختلفة والأوقات المتغايرة، وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطل، وجود ورذاذ، وديمة ورهام[1]: فأبوا إلا الكفور وأن يقولوا: مطرنا بنوء كذا، ولا يذكروا صنع الله ورحمته. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما من عام أقل مطراً من عام، ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما شاء، وتلا

---

(١) قوله «ورذاذا وديمة ورهام» الرذاذ: مطر ضعيف. والرهام: جمع رهمة وهي المطرة الضعيفة الدائمة، كذا في الصحاح. (ع)

هذه الآية (١٠٦٨)، وروي أن الملائكة يعرفون عدد المطر ومقداره في كل عام، لأنه لا يختلف ولكن تختلف فيه البلاد. وينتزع من ههنا جواب في تنكير البلدة والأنعام والأناسي، كأنه قال: لنحيي به بعض البلاد الميتة، ونسقيه بعض الأنعام والأناسي، وذلك البعض كثير. فإن قلت: هل يكفر من ينسب الأمطار إلى الأنواء؟ قلت: إن كان لا يراها إلا من الأنواء ويجحد أن تكون هي والأنواء من خلق الله: فهو كافر. وإن كان يرى أن الله خالقها وقد نصب الأنواء دلائل وأمارات عليها: لم يكفر.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢)﴾

يقول لرسوله ﷺ ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ لخففنا عنك أعباء نذارة جميع القرى. و﴿لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ نبياً ينذرها. وإنما قصرنا الأمر عليك وعظمناك به، وأجللناك وفضلناك على سائر الرسل، فقابل ذلك بالتشديد والتصبر ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ فيما يريدونك عليه، وإنما أراد بهذا تهييجه وتهييج المؤمنين وتحريكهم. والضمير للقرآن أو لترك الطاعة الذي يدل عليه: ﴿فَلَا تُطِعِ﴾ والمراد: أن الكفار يجدون ويجتهدون في توهين أمرك، فقابلهم من جدك واجتهادك وعضك على نواجذك بما تغلبهم به وتعلوهم، وجعله جهاداً كبيراً لما يحتمل فيه من المشاق العظام. ويجوز أن يرجع الضمير في ﴿بِهِ﴾ إلى ما دل عليه: ﴿وَلَوْ

١٠٦٨ ـ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٠٣) في التفسير، قال: أخبرني أبو عبد الله محمد بن يعقوب الحافظ ثنا إبراهيم أنبأ يزيد بن هارون أنبأ سليمان التيمي عن الحسن بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «ما من عام أمطر من عام، ولكن الله يصرفه حيث يشاء، ثم قرأ ﴿ولقد صرفناه بينهم﴾ الآية».
وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي.
ورواه ابن جرير (٩/ ٣٩٧) رقم (٢٦٤١٣ ـ ٢٦٤١٤)، ورواه العقيلي في الضعفاء الكبير (٣/ ٢٢٨) في ترجمة علي بن حميد السلولي رقم (١٢٢٩)، من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: «ما أحد بأكسب من أحد، ولا عام بأمطر من عام، ولكن الله يصرفه حيث يحب، وإن الله يعطي المال من يحب، ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من يحب، فإذا أحب عبداً أعطاه الإيمان».
وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٤٦٤) لابن مردويه في تفسيره عن ابن مسعود من وجه آخر. قال الحافظ: أخرجه الحاكم والطبري من رواية الحسن بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ما من عام أمطر من عام، ولكن الله يصرفه. وفي الباب عن ابن مسعود، أخرجه العقيلي من رواية علي بن حميد عن شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عنه، وقال: لا يتابع على رفعه، ثم أخرجه موقوفاً من رواية عمر بن مرزوق عن شعبة، وقال: هذا أولى، وأورده ابن ماردويه من وجه آخر عن ابن مسعود مرفوعاً. انتهى.

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ﴿٥١﴾﴾ من كونه نذير كافة القرى، لأنه لو بعث في كل قرية نذيراً لوجبت على كل نذير مجاهدة قريته، فاجتمعت على رسول الله - ﷺ - تلك المجاهدات كلها، فكبر جهاده من أجل ذلك وعظم، فقال له ﴿وَجَٰهِدۡهُم﴾ بسبب كونك نذير كافة القرى ﴿جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ جامعاً لكل مجاهدة.

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٥٣﴾﴾

سمى الماءين الكثيرين الواسعين: بحرين، والفرات: البليغ العذوبة حتى يضرب إلى الحلاوة. والأجاج: نقيضه. ومرجهما: خلاهما متجاورين متلاصقين، وهو بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج. وهذا من عظيم اقتداره وفي كلام بعضهم: وبحران: أحدهما مع الآخر ممروج، وماء العذب منهما بالأجاج ممزوج[1] ﴿بَرۡزَخٗا﴾ حائلاً من قدرته، كقوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ [الرعد: ٢]، يريد بغير عمد مرئية، وهو قدرته. وقرئ: ملح، على فعل، وقيل: كأنه حذف من مالح تخفيفاً، كما قال: وصليانا برداً، يريد: بارداً: فإن قلت: ﴿وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ ما معناه؟ قلت: هي الكلمة التي يقولها المتعوذ؛ وقد فسرناها، وهي ههنا واقعة على سبيل المجاز، كأن كل واحد من البحرين يتعوّذ من صاحبه ويقول له: حجراً محجوراً، كما قال ﴿لَّا يَبۡغِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠]، أي لا يبغي أحدهما على صاحبه بالممازجة، فانتفاء البغي ثمة كالتعوذ ههنا: جعل كل واحد منهما في صورة الباغي على صاحبه، فهو ٢/ ٥٢ب يتعوّذ منه وهي من أحسن الاستعارات وأشهدها على البلاغة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ﴿٥٤﴾﴾

أراد: فقسم البشر قسمين ذوي نسب، أي: ذكوراً ينسب إليهم، فيقال: فلان بن فلان وفلانة بنت فلان، وذوات صهر: أي إناثاً يصاهر بهنّ، ونحوه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة: ٣٩]. ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٤]. حيث خلق من النطفة الواحدة بشراً نوعين: ذكراً وأنثى.

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ﴿٥٥﴾﴾

الظهير والمظاهر، كالعوين والمعاون. و«فعيل» بمعنى مفاعل غير عزيز. والمعنى: أنّ الكافر يظاهر الشيطان على ربه بالعداوة والشرك. روي أنها نزلت في أبي جهل، ويجوز أن

---

(١) قوله «ممزوج» لعله: غير ممزوج، فليحرر. (ع)

يريد بالظهير: الجماعة، كقوله ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]، كما جاء: الصديق والخليط، يريد بالكافر: الجنس، وأنّ بعضهم مظاهر لبعض على إطفاء نور دين الله. وقيل: معناه: وكان الذي يفعل هذا الفعل ـ وهو عبادة ما لا ينفع ولا يضر ـ على ربه هيناً مهيناً، من قولهم: ظهرت به، إذا خلفته خلف ظهرك لا تلتفت إليه، وهذا نحو قوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ٧٧].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

مثال ﴿إِلَّا مَن شَاءَ﴾ والمراد: إلا فعل من شاء واستثنائه عن الأجر قول ذي شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال: ما أطلب منك ثواباً على ما سعيت إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب، ولكن صوّره هو بصورة الثواب وسماه باسمه، فأفاد فائدتين، إحداهما: قلع شبهة الطمع في الثواب من أصله، كأنه يقول لك: إن كان حفظك لمالك ثواباً فإني أطلب الثواب، والثانية: إظهار الشفقة البالغة وأنك إن حفظت مالك: اعتدّ بحفظك ثواباً ورضي به كما يرضى المثاب بالثواب. ولعمري إنّ رسول الله ـ ﷺ ـ كان مع المبعوث إليهم بهذا الصدد وفوقه. ومعنى اتخاذهم إلى الله سبيلا: تقربهم إليه وطلبهم عنده الزلفى بالإيمان والطاعة. وقيل: المراد التقرّب بالصدقة والنفقة في سبيل الله.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

أمره بأن يثق به ويسند أمره إليه في استكفاء شرورهم، مع التمسك بقاعدة التوكل وأساس الالتجاء وهو طاعته وعبادته وتنزيهه وتحميده، وعرّفه أن الحي الذي لا يموت، حقيق بأن يتوكل عليه وحده ولا يتكل على غيره من الأحياء الذين يموتون. وعن بعض السلف أنه قرأها فقال: لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق، ثم أراه أن ليس إليه من أمر عباده شيء، آمنوا أم كفروا، وأنه خبير بأعمالهم كاف في جزاء أعمالهم.

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يعني في مدة: مقدارها هذه المدة، لأنه لم يكن حينئذٍ نهار ولا ليل. وقيل: ستة أيام من أيام الآخرة، وكل يوم ألف سنة. والظاهر أنها من أيام الدنيا. وعن مجاهد: أوّلها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة. ووجهه أن يسمي الله لملائكته تلك الأيام

المقدرة بهذه الأسماء فلما خلق الشمس وأدارها وترتب أمر العالم على ما هو عليه، جرت التسمية على هذه الأيام. وأما الداعي إلى هذا العدد ـ أعني الستة دون سائر الأعداد ـ فلا نشك أنه داعي حكمة، لعلمنا أنه لا يقدّر تقديراً إلا بداعي حكمة، وإن كنا لا نطلع عليه ولا نهتدي إلى معرفته. ومن ذلك تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار تسعة عشر، وحملة العرش ثمانية، والشهور اثني عشر، والسموات سبعاً والأرض كذلك، والصلوات خمساً، وأعداد النصب والحدود والكفارات وغير ذلك. والإقرار بدواعي الحكمة في جميع أفعاله، وبأن ما قدّره حق وصواب هو الإيمان. وقد نص عليه في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ [المدثر: ٣١] ثم قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] وهو الجواب أيضاً في أنه لم يخلقها في لحظة، وهو قادر على ذلك. وعن سعيد بن جبير ـ رضي الله عنهما ـ. إنما خلقها في ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها في لحظة، تعليماً لخلقه الرفق والتثبت. وقيل: اجتمع خلقها يوم الجمعة فجعله الله عيداً للمسلمين. الذي خلق مبتدأ. و﴿الرَّحْمَنُ﴾ خبره. أو صفة للحيّ، والرحمن: خبر مبتدأ محذوف. أو بدل عن المستتر في استوى. وقرئ: الرحمن، بالجرّ صفة للحيّ. وقرئ فسل؛ والباء في به صلة سل، كقوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾ ٢/ ١٥٣أ [المعارج: ١] كما تكون عن صلته في نحو قوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾ فسأل به؛ كقوله: اهتمّ به، واعتنى به؛ واشتغل به. وسأل عنه كقولك: بحث عنه؛ وفتش عنه، ونقر عنه. أو صلة خبيراً: وتجعل خبيراً مفعول سل، يريد: فسل عنه رجلاً عارفاً يخبرك برحمته. أو فسل رجلا خبيراً به وبرحمته. أو: فسل بسؤاله خبيراً؛ كقولك: رأيت به أسدا، أي برؤيته. والمعنى: إن سألته وجدته خبيراً. أو تجعله حالاً عن الهاء، تريد: فسل عنه عالماً بكل شيء. وقيل: الرحمن اسم من أسماء الله مذكور في الكتب المتقدمة، ولم يكونوا يعرفونه: فقيل: فسل بهذا الاسم من يخبرك من أهل الكتاب؛ حتى يعرف من ينكره. ومن ثمة كانوا يقولون: ما نعرف الرحمن إلا الذي باليمامة، يعنون مسيلمة. وكان يقال له: رحمن اليمامة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ۝٦٠﴾

﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ يجوز أن يكون سؤالاً عن المسمى به؛ لأنهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم. والسؤال عن المجهول بـ«ما». ويجوز أن يكون سؤالاً عن معناه، لأنه لم يكن مستعملاً في كلامهم كما استعمل الرحيم والرحوم والراحم. أو لأنهم أنكروا إطلاقه على الله تعالى ﴿لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي للذي تأمرناه؛ بمعنى تأمرنا سجوده: على قوله: أمرتك

الخير. أو لأمرك لنا. وقرئ بالياء، كأن بعضهم قال لبعض: أنسجد لما يأمرنا محمد ﷺ. أو يأمرنا المسمى بالرحمن ولا نعرف ما هو. وفي ﴿وَزَادَهُمْ﴾ ضمير ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ لأنه هو المقول.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾

البروج: منازل الكواكب السبعة السيارة: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت: سميت بالبروج التي هي القصور العالية؛ لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها. واشتقاق البرج من التبرج؛ لظهوره. والسراج: الشمس كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]، وقرئ، سرجا، وهي الشمس والكواكب الكبار معها. وقرأ الحسن والأعمش: وقمراً منيرا، وهي جمع ليلة قمراء، كأنه قال: وذا قمر منيراً؛ لأنّ الليالي تكون قمراً بالقمر، فأضافه إليها، ونظيره ـ في بقاء حكم المضاف بعد سقوطه وقيام المضاف إليه مقامه ـ قول حسان [من الكامل]:

. . . . بَرَدَىٰ يُصَفَّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ[١]

يريد: ماء بردى، ولا يبعد أن يكون القمر بمعنى القمر، كالرشد والرشد، والعرب والعرب.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾

الخلفة من خلف، كالركبة من ركب: وهي الحالة التي يخلف عليها الليل والنهار كلّ واحد منهما الآخر. والمعنى: جعلهما ذوي خلفة، أي: ذوي عقبة، أي: يعقب هذا ذاك وذاك هذا. ويقال: الليل والنهار يختلفان، كما يقال: يعتقبان. ومنه قوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [البقرة: ١٦٤] ويقال: بفلان[٢] خلفة واختلاف، إذا اختلف كثيراً إلى متبرّزه. وقرئ: يذكر ويذكر. وعن أبيّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ: يتذكر. والمعنى لينظر في اختلافهما الناظر، فيعلم أن لا بد لانتقالهما من حال إلى حال، وتغيرهما من ناقل ومغير. ويستدل بذلك على عظم قدرته، ويشكر الشاكر على النعمة فيهما من السكون بالليل والتصرف بالنهار، كما قال عز وعلا: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣]. أو ليكونا وقتين للمتذكرين والشاكرين، من فاته في أحدهما

---

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول عند تفسير آية ١٩ من سورة البقرة فراجعه إن شئت اهـ.

(٢) قوله «ويقال بفلان خلفة» لعله: لفلان. (ع)

ورده من العبادة قام به في الآخر. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: من فاته عمله من التذكر والشكر بالنهار كان له في الليل مستعتب. ومن فاته بالليل: كان له في النهار مستعتب.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مبتدأ خبره في آخر السورة. كأنه قيل: وعباد الرحمن الذين هذه صفاتهم أولئك يجزون الغرفة. ويجوز أن يكون خبره ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ﴾ وأضافهم إلى الرحمن تخصيصاً وتفضيلاً. وقرئ: وعباد الرحمن. وقرئ: يمشون ﴿هَوْنًا﴾ حال، أو صفة للمشي، بمعنى: هينين. أو: مشياً هيناً؛ إلا أن في وضع المصدر موضع الصفة مبالغة. والهون: الرفق واللين. ومنه الحديث «أحبب حبيبك هوناً مّا» (١٠٦٩)، وقوله:

١٠٦٩ ـ روي من حديث أبي هريرة، وابن عمر وابن عمرو.
أمّا حديث أبي هريرة: فرواه الترمذي (٤/ ٣٦٠) كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الاقتصاد في الحب والبغض الحديث (١٩٩٧)، حدثنا أبو كريب حدثنا سويد بن عمرو الكلبي عن حماد بن سلمة عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة أراه رفعه قال: «أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما».
ورواه الطبراني في الأوسط (٧/ ١٠٥ ـ ١٠٦) رقم (٦١٨١).
وأمّا حديث ابن عمر: رواه الطبراني في الأوسط والكبير، كما في المجمع (٨/ ٩١) من حديث أبي الصلت عبد السلام بن صالح الهروي: عن جميل بن زيد عن ابن عمر عن النبي ـ ﷺ ـ به.
ورواه ابن حبان في الضعفاء والمتروكين (٢/ ١٥٢) في ترجمة عبد السلام بن صالح أبو الصلت الهروي. والقضاعي في مسند الشهاب رقم (٧٣٩).
وأما حديث ابن عمرو: فرواه الطبراني في الكبير والأوسط؛ كما في المجمع (٨/ ٩١)، وقال الهيثمي: «وفيه محمد بن كثير النهري وهو ضعيف».
ورواه البيهقي في الشعب (٥/ ٢٦٠) باب الاقتصاد في النفقة، وتحريم أكل المال الباطل الحديث (٦٥٩٣) موقوفاً على علي بن أبي طالب.
قال الزيلعي (٢/ ٤٩٩) وقال الدارقطني في علله: لا يصح رفعه، والصحيح عن علي، موقوف. انتهى.
ولم يعزه الطيبي إلا للشهاب، وهو في الشهاب عن ابن عمر، وأسنده القضاعي في مسند الشهاب بسند الطبراني، عن ابن عمر، وقال ابن طاهر في كلامه على أحاديث الشهاب: هذا حديث يرويه سويد بن عمرو الكلبي، عن حماد بن سلمة، عن أيوب وهشام، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة مرفوعاً، وسويد هذا يضع الأسانيد الصحيحة على المتون الواهية.
ورواه أيضاً كذلك الحسن بن دينار: عن ابن سيرين: عن أبي هريرة، والحسن هذا متروك.
ورواه أيضاً الحسن بن أبي جعفر الجفري: عن أيوب وهو متروك، كلهم رفعوه، ولا يصح رفعه، وإنما هو عن علي موقوف، والله أعلم.
وحديث الحسن بن أبي جعفر في فوائد تمام أخرجه عنه: عن أيوب، عن حميد بن عبد الرحمن الحميري، عن علي بن أبي طالب مرفوعاً.
=

«المؤمنون هينون لينون» (١٠٧٠)، والمثل: إذا عزّ أخوك فهن. ومعناه: إذا عاسر فياسر. والمعنى: أنهم يمشون بسكينة ووقار وتواضع، لا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشراً وبطرا، ولذلك كره بعض العلماء الركوب في الأسواق، ولقوله: ﴿وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]. ﴿سَلَٰمًا﴾ تسلماً منكم لانجاهلكم، ومتاركة لا خير بيننا ولا شر، أي: نتسلم منكم تسلماً، فأقيم السلام مقام التسلم. وقيل: قالوا سدادا من القول يسلمون فيه من الإيذاء والإثم. والمراد بالجهل: السفه وقلة الأدب وسوء الرعة[1] من قوله [من الوافر]:

أَلا لا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا ... فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا[2]

= وأخرجه أيضاً، من طريق محمد بن إسحاق بن خزيمة: ثنا يحيى بن الفضل العنزي، ثنا أبو عامر العقدي، ثنا هارون بن إبراهيم الأهوازي، عن ابن سيرين، عن حميد بن عبد الرحمن الحميري، عن علي مرفوعاً. . . فذكره.

ورواه ابن حبان في كتاب الضعفاء بسند الترمذي، وأعله بسويد، وقال: إنه يضع المتون الواهية على الأسانيد الصحيحة، لا يجوز الاحتجاج به بحال، وليس هذا من حديث أبي هريرة، وإنما هو من قول علي بن أبي طالب، وقد رفعه الحسن بن أبي جعفر: عن أيوب، عن حميد بن عبد الرحمن، عن علي، وهو خطأ فاحش. انتهى.

قال الحافظ: أخرجه الترمذي من رواية أيوب عن ابن سيرين عن أبي هريرة تفرد به سويد بن عمرو عن حماد بن سلمة عن أيوب قال الترمذي: غريب. وقال ابن حبان في الضعفاء: سويد بن عمرو يضع المتون الواهية على الأسانيد الصحيحة. وليس هذا من حديث أبي هريرة. وإنما هو من قول علي ـ رضي الله عنه ـ وقد رفعه الحسن بن أبي جعفر عن أيوب عن حميد بن عبد الرحمن عن علي. وهو خطأ فاحش. ورواية الحسن بن أبي جعفر في فوائد تمام، وأخرجه ابن عدي من طريق الحسن بن دنيا ـ عن ابن سيرين عن أبي هريرة. قال: الحسن بن دنيا ـ أجمعوا على ضعفه ورواه الطبراني في الأوسط. من رواية أبي الزناد عن الأعرج. عن أبي هريرة، لكن الراوي له عن أبي الزناد متروك. وهو عباد بن كثير، وفي الباب عن ابن عمر أخرجه الطبراني وفيه أبو السلط الهروي. وهو متروك وعن ابن عمرو بن العاص أخرجه أيضاً من طريق محمد بن كثير الضمري. عن ابن لهيعة، عن أبي نهشل عنه وهذا إسناد واه جداً. والمعروف عن علي. أخرجه البيهقي في الشعب في الحادي والأربعين من رواية أبي إسحاق عن صبرة بن يزيد ثم عن علي ـ وقال الدارقطني: الصحيح على علي موقوف. انتهى.

١٠٧٠ ـ رواه ابن المبارك في الزهد (١/ ١٣٠) رقم (٣٨٧)، قال: أخبرنا سعيد بن عبد العزيز عن مكحول قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «المؤمنون هينون لينون كالجمل الأنف الذي إن قيد انقاد، وإذا أنيخ على صخرة استناخ». =

---

(١) قوله «وسوء الرعة» في الصحاح: يقال: فلان سيء الرعة، أي: قليل الورع. وفيه: قبل ذلك الورع ـ بكسر الراء ـ: الرجل التقي. وقد ورع يرع ـ بالكسر فيهما ـ ورعا ورعة. (ع)

(٢) تقدم.

وعن أبي العالية: نسختها آية القتال، ولا حاجة إلى ذلك؛ لأنّ الإغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن في الأدب والمروءة والشريعة، وأسلم للعرض والورع.

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا ٢/ ٥٣ب وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾

البيتوتة: خلاف الظلول، وهو أن يدركك الليل، نمت أو لم تنم، وقالوا: من قرأ شيئاً من القرآن في صلاته وإن قلّ فقد بات ساجداً وقائماً. وقيل: هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء. والظاهر أنه وصف لهم بإحياء الليل أو بأكثره. يقال: فلان يظل صائماً ويبيت قائماً.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾

﴿غَرَامًا﴾ هلاكا وخسراناً ملحا لازماً؛ قال: [المتقارب]

وَيَوْمُ النِّسَارِ وَيَوْمُ الْجِفَارِ ... فَكَانَا عَذَاباً وَكَانَا غَرَامَا[1]

وقال [من الخفيف]:

إِنْ يُعَاقِبْ يَكُنْ غَرَاماً وَإِنْ يُعْـ ... ـطِ جَزِيلاً فَإِنَّهُ لاَ يُبَالِي[2]

ومنه: الغريم: لإلحاحه ولزامه. وصفهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين، ثم عقبه

= ورواه البيهقي في الشعب (٦/ ٢٧٢) رقم (٨١٢٨) من طريق ابن المبارك.
ثم رواه في (٦/ ٢٧٣) رقم (٨١٢٩) عن ابن عمر مرفوعاً وقال: الأول مع إرساله أصح.
ورواه العقيلي في الضعفاء (٢/ ٢٧٩) في ترجمة عبد الله بن عبد العزيز بن أبي روّاد.
قال الحافظ: أخرجه ابن المبارك في الزهد قال: أخبرنا سعيد بن عبد العزيز عن مكحول بهذا مرسلاً: «وزاد كالجمل الأنف الذي إن قيد انقاد، وإن ينخ على صخرة أناخ»، وأخرجه البيهقي في الشعب في السادس والخمسين من هذا الوجه قال: هذا مرسل، ثم أخرجه من طريق العقيلي في منكرات عبد الله بن عبد العزيز. وفي الباب عن ابن أنس مرفوعاً ذكره ابن طاهر في الكلام على أحاديث الشهاب. وفيه زكريا بن يحيى الوقاد وهو واهي الحديث. انتهى.

(١) لبشر بن أبي خازم. والنسار: ماء لبني عامر. والجفار: ماء لبني تميم بنجد، يقول: واقعة النسار وواقعة الجفار، كانا عذابا على أهلهما، وكانا غراماً، أي: هلاكاً لازما لهم. وقيل: شراً دائماً.
(٢) للأعشى، يقول: إن يعاقب هذا الممدوح أعداءه يكن غراماً أي هلاكا ملازماً لهم. وإن يعط السائل عطاء جزيلاً عظيماً فإنه لا يبالي به ولا يكترث به ولا يستكثره، فهو شجاع جواد.

بذكر دعوتهم هذه، إيذاناً بأنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون إلى الله في صرف العذاب عنهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، ﴿سَآءَتْ﴾ في حكم «بئست» وفيها ضمير مبهم يفسره: مستقرّاً. والمخصوص بالذم محذوف، معناه: ساءت مستقرّاً ومقاما هي. وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم إنّ وجعلها خبراً لها. ويجوز أن يكون ﴿سَآءَتْ﴾ بمعنى: أحزنت. وفيها ضمير اسم إنّ. و﴿مُسْتَقَرًّا﴾ حال أو تمييز، والتعليلان يصح أن يكونا متداخلين ومترادفين، وأن يكونا من كلام الله وحكاية لقولهم.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾

قرئ (يقتروا) بكسر التاء وضمها. ويقتروا، بتخيف التاء وتشديدها. والقتر والإقتار والتقتير: التضييق الذي هو نقيض الإسراف. والإسراف: مجاوزة الحدّ في النفقة. ووصفهم بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير. وبمثله أُمر رسول الله ـ ﷺ ـ ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقيل: الإسراف إنما هو الإنفاق في المعاصي، فأما في القرب فلا إسراف. وسمع رجل رجلاً يقول: لا خير في الإسراف. فقال: لا إسراف في الخير. وعن عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ أنه شكر عبد الملك بن مروان حين زوّجه ابنته وأحسن إليه، فقال: وصلت الرحم وفعلت وصنعت، وجاء بكلام حسن، فقال ابن لعبد الملك: إنما هو كلام أعدّه لهذا المقام، فلما كان بعد أيام دخل عليه والابن حاضر، فسأله عن نفقته وأحواله فقال: الحسنة بين السيئتين، فعرف عبد الملك أنه أراد ما في هذه الآية فقال لابنه: يا بنيّ، أهذا أيضاً مما أعدّه؟ وقيل: أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة، ولا يلبسون ثوباً للجمال والزينة، ولكن كانوا يأكلون ما يسدّ جوعتهم ويعينهم على عبادة ربهم، ويلبسون ما يستر عوراتهم ويكنهم من الحرّ والقرّ[1]. وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: كفى سرفاً أن لا يشتهي رجل شيئاً إلا اشتراه فأكله ١٠٧١، والقوام: العدل بين الشيئين لاستقامة الطرفين واعتدالهما. ونظير القوام من الاستقامة: السواء من الاستواء. وقرئ:

١٠٧١ ـ أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٧١) ثنا ابن عيينة عن رجل عن الحسن عن عمر.
قال الحافظ: أخرجه عبد الرزاق في التفسير عن ابن عيينة عن رجل عن الحسن عن عمر بن الخطاب، وهذا منقطع من طريقه. رواه الثعلبي. ورواه أحمد في الزهد عن إسماعيل عن يونس عن الحسن كذلك، ورواه ابن ماجه، وأبو يعلى، والبيهقي في الشعب من طريق نوح بن ذكوان عن الحسن عن أنس ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً، والأول أصح. انتهى.

---

(١) قوله «والقر» أي البرد. (ع)

قواماً. بالكسر، وهو ما يقام به الشيء. يقال: أنت قوامنا، بمعنى ما تقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص، والمنصوبان أعني ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾: جائز أن يكونا خبرين معا، وأن يجعل بين ذلك لغوا، وقواماً مستقراً. وأن يكون الظرف خبراً، وقواماً حالاً مؤكدة. وأجاز الفراء أن يكون ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ اسم كان، على أنه مبني لإضافته إلى غير متمكن، كقوله [من البسيط]:

لَمْ يَمْنَعِ الشُّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ نَطَقَتْ . . . . (1)

وهو من جهة الإعراب لا بأس به، ولكن المعنى ليس بقوي: لأنّ ما بين الإسراف والتقتير قوام لا محالة، فليس في الخبر الذي هو معتمد الفائدة فائدة.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (70)﴾

﴿حَرَّمَ﴾ أي حرّمها. والمعنى: حرّم قتلها. و﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ متعلق بهذا القتل المحذوف. أو بلا يقتلون، ونفي هذه المقبحات العظام على الموصوفين بتلك الخلال العظيمة في الدين، للتعريض بما كان عليه أعداء المؤمنين من قريش وغيرهم، كأنه قيل: والذين برأهم الله وطهرهم مما أنتم عليه. والقتل بغير الحق: يدخل فيه الوأد وغيره. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قلت: يا رسول الله، أيّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» قلت: ثم أيّ؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك» قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك» 1072، فأنزل الله تصديقه. وقرئ: يلق فيه أثاماً. وقرئ: يلقى، بإثبات الألف، وقد مر مثله. والآثام: جزاء الإثم، بوزن الوبال والنكال ومعناهما،

1072 ـ أخرجه البخاري (9/438) كتاب التفسير، باب قوله: «والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر. . . . الحديث (4761)، وأطرافه في (4477 ـ 6001 ـ 6811 ـ 7520 ـ 7532)، ومسلم (1/357) كتاب الإيمان، باب بيان كون الشرك أقبح الذنوب الحديث (141 ـ 142/ 86).
وأبو داود (1/705) كتاب الطلاق، باب في تعظيم الزنا، الحديث (2310).
والترمذي (5/336) في التفسير، باب ومن سورة الفرقان الحديث (3182)، (3183).
والنسائي (7/89 ـ 90) كتاب التحريم، باب ذكر أعظم الذنب.
ورواه في التفسير الحديث رقم (7 ـ 388 ـ 389)، وأحمد في المسند (1/380 ـ 434 ـ 462). =

---

(1) تقدم.

قال [من الوافر]:

جَزَى اللَّهُ ٱبْنَ عُرْوَةَ حَيْثُ أَمْسَى ... عَقُوقاً وَالْعُقُوقُ لَهُ أَثَامُ[1]

وقيل هو الإثم. ومعناه: يلق جزاء أثام. وقرأ ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أياما[2]، أي شدائد. يقال: يوم ذو أيام: لليوم العصيب. ﴿يُضَعَّفْ﴾ بدل من يلق؛ لأنهما في معنى واحد؛ كقوله [من الطويل]:

مَتَىٰ تَأْتِنَا تُلْمِمْ بِنَا فِي دِيَارِنَا ... تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً وَنَاراً تَأَجَّجَا[3]

وقرئ: يضعف، ونضعف له العذاب، بالنون ونصب العذاب. وقرئ بالرفع على الاستئناف أو على الحال، وكذلك ﴿يَخْلُدْ﴾ وقرئ: ويخلد، على البناء للمفعول مخففاً ومثقلاً، من الإخلاد والتخليد. وقرئ: وتخلد، بالتاء على الالتفات ﴿يُبَدِّلُ﴾ مخفف ومثقل، وكذلك سيئاتهم. فإن قلت: ما معنى مضاعفة العذاب وإبدال السيئات حسنات؟ قلت: إذا ارتكب المشرك معاصي مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصي جميعاً، فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه. وإبدال السيئات حسنات: أنه يمحوها بالتوبة، ويثبت مكانها الحسنات: الإيمان، والطاعة، والتقوى. وقيل: يبدّلهم بالشرك إيماناً، ويقتل المسلمين: قتل المشركين، وبالزنا: عفة وإحصاناً.

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾

يريد. ومن يترك المعاصي ويندم عليها ويدخل في العمل الصالح فإنه بذلك تائب إلى الله ﴿مَتَابًا﴾ مرضيا عنده مكفراً للخطايا محصلاً للثواب. أو فإنه تائب متاباً إلى الله الذي يعرف حق التائبين ويفعل بهم ما يستوجبون، والذي يحب التوابين ويحب

= وابن حبان في صحيحه (١٠/ ٢٦١ ـ ٢٦٢) رقم (٤٤١٤ ـ ٤٤١٥) والبيهقي (٨/ ١٨)، كتاب الجنايات، باب قتل الولدان. والبغوي في شرح السنة (١/ ١٠٤) رقم (٤٢ ـ بتحقيقنا).
قال الحافظ: متفق عليه من رواية أبي وائل عن عمرو بن شرحبيل عنه. انتهى.

---

(١) العقوق ـ بالفتح ـ: كثير العقوق بالضم، وهو منع بر الوالدين وقطع صلتهما ـ والأثام ـ كالوبال ـ: جزاء الإثم. وقيل: هو الإثم، فسمي به مسببه وهو الجزاء، ومفعول جزى الثاني محذوف. وعقوقاً خبر أمسى. والعقوق: مبتدأ، أي: لا بد للعقوق من جزاء سيء عظيم.
البيت لشافع الليثي، ينظر لسان العرب (أثم)، بلا نسبة في تهذيب اللغة (١٥/ ١٦١)، ينظر مجاز القرآن (٢/ ٨١)، البحر المحيط (٦/ ٥١٥)، الدر المصون (٥/ ٢٦٤).

(٢) قوله «أياما» وفي الصحاح «الأيام»: الدخان. (ع)

(٣) تقدم.

المتطهرين، وفي كلام بعض العرب: لله أفرح بتوبة العبد من المضل الواجد، والظمآن الوارد، والعقيم الوالد، أو: فإنه يرجع إلى الله وإلى ثوابه مرجعاً حسنا وأيّ مرجع.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾

يحتمل أنهم ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين فلا يحضرونها ولا يقربونها، تنزهاً عن مخالطة الشر وأهله، وصيانة لدينهم عما يثلمه؛ لأن: مشاهد الباطل شركة فيه، ولذلك قيل في النظارة إلى كل ما لم تسوّغه الشريعة: هم شركاء فاعليه في الإثم؛ لأنّ حضورهم ونظرهم دليل الرضا به، وسبب وجوده، والزيادة فيه؛ لأن الذي سلط على فعله هو استحسان النظارة ورغبتهم في النظر إليه، وفي مواعظ عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ إياكم ومجالسة المخاطئين، أنهم لا يشهدون شهادة الزور، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وعن قتادة: مجالس الباطل، وعن ابن الحنفية: اللهو والغناء. وعن مجاهد: أعياد المشركين. اللغو: كل ما ينبغي أن يلغى ويطرح. والمعنى: وإذا مروا بأهل اللغو والمشتغلين به. مرّوا معرضين عنهم، مكرمين أنفسهم عن التوقف عليهم والخوض معهم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٥٥] وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: لم تسفههم المعاصي. وقيل: إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا. وقيل: إذا ذكروا النكاح كنوا عنه.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾

﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا﴾ ليس بنفي للخرور. وإنما هو إثبات له، ونفي للصمم والعمى، كما تقول: لا يلقاني زيد مسلماً، هو نفي للسلام لا للقاء. والمعنى: أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصاً على استماعها، وأقبلوا على المذكر بها وهم في إكبابهم عليها، سامعون بآذان واعية، مبصرون بعيون راعية، لا كالذين يذكرون بها فتراهم مكبين عليها مقبلين على من يذكر بها، مظهرين الحرص الشديد على استماعها، وهم كالصم العميان حيث لا يعونها ولا يتبصرون ما فيها كالمنافقين وأشباههم.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾

قرئ: ذريتنا، وذرياتنا. وقرة أعين، وقرّات أعين. سألوا ربهم أن يرزقهم أزواجاً وأعقاباً عمالاً لله، يسرون بمكانهم وتقرّ بهم عيونهم. وعن محمد بن كعب: ليس شيء أقرّ لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو الولد إذا رآه يكتب الفقه. وقيل: سألوا أن يلحق الله بهم أزواجهم وذريتهم

في الجنة ليتم لهم سرورهم. أراد. أئمة، فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس ولعدم اللبس، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧] أو أرادوا اجعل كل واحد منا إماما. أو أراد جمع أمّ، كصائم وصيام. أو أرادوا اجعلنا إماماً واحدا لاتحادنا واتفاق كلتنا. وعن بعضهم: في الآية ما يدل على أن الرياسة في الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها. وقيل: نزلت هذه الآيات في العشرة المبشرين بالجنة. فإن قلت: (من) في قوله: ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾ ما هي؟ قلت: يحتمل أن تكون بيانية، كأنه قيل: هب لنا قرّة أعين، ثم بينت القرّة وفسرت بقوله: من أزواجنا وذرياتنا. ومعناه: أن يجعلهم الله لهم قرّة أعين، وهو من قولهم: رأيت منك أسداً، أي: أنت أسد، وأن تكون ابتدائية على معنى: هب لنا من جهتهم ما تقرّ به عيوننا من طاعة وصلاح. فإن قلت: لم قال ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ فنكر وقلل؟ قلت: أما التنكير فلأجل تنكير القرّة؛ لأن المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه، كأنه ٢/ ٥٤ب قيل: هب لنا منهم سروراً وفرحاً. وإنما قيل ﴿أَعْيُنٍ﴾ دون عيون؛ لأنه أراد أعين المتقين، وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم. قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[1] [سبأ: ١٣]، ويجوز أن يقال في تنكير ﴿أَعْيُنٍ﴾ أنها أعين خاصة، وهي أعين المتقين.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾

المراد يجزون الغرفات وهي العلالي في الجنة، فوحد اقتصاراً على الواحد الدال على الجنس، والدليل على ذلك قوله: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]، وقراءة من قرأ: في الغرفة ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ بصبرهم على الطاعات، وعن الشهوات، وعن أذى الكفار ومجاهدتهم. وعلى الفقر وغير ذلك. وإطلاقه لأجل الشياع في كل مصبور عليه. وقرئ: يلقون، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] ويلقون، كقوله تعالى: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]. والتحية: دعاء بالتعمير. والسلام: دعاء بالسلامة، يعني أن الملائكة يحيونهم ويسلمون عليهم. أو يحيي بعضهم بعضاً ويسلم عليه أو يعطون التبقية والتخليد

---

(١) قال محمود: «إن قلت: لم قلل الأعين إذ الأعين صيغة جمع قلة؟ قلت: لأن أعين المتقين قليل بالإضافة إلى غيرهم، يدل على ذلك قوله: وقليل من عبادي الشكور» قال أحمد: والظاهر أن المحكي كلام كل أحد من المتقين، فكأنه قال: يقول كل واحد منهم اجعل لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين، وهذا أسلم من تأويله؛ فإن المتقين وإن كانوا بالإضافة إلى غيرهم قليلاً إلا أنهم في أنفسهم على كثرة من العدد. والمعتبر في إطلاق جمع القلة أن يكون المجموع قليلاً في نفسه لا بالنسبة والإضافة. والله أعلم.

مع السلامة عن كل آفة. اللهم وفقنا لطاعتك، واجعلنا مع أهل رحمتك، وارزقنا مما ترزقهم في دار رضوانك.

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾

لما وصف عبادة العباد، وعدّد صالحاتهم وحسناتهم، وأثنى عليهم من أجلها، ووعدهم الرفع من درجاتهم في الجنة: أتبع ذلك بيان أنه إنما اكترث لأولئك وعبأ بهم وأعلى ذكرهم ووعدهم ما وعدهم، لأجل عبادتهم، فأمر رسوله أن يصرّح للناس، ويجزم لهم القول بأن الاكتراث لهم عند ربهم، إنما هو للعبادة وحدها لا لمعنى آخر، ولولا عبادتهم لم يكترث لهم البتة ولم يعتدّ بهم ولم يكونوا عنده شيء يبالى به. والدعاء: العبادة. و﴿مَا﴾ متضمنة لمعنى الاستفهام، وهي في محل النصب، وهي عبارة عن المصدر، كأنه قيل: وأي عبء يعبأ بكم لولا دعاؤكم. يعني أنكم لا تستأهلون شيئاً من العبء بكم لولا عبادتكم. وحقيقة قولهم ما عبأت به: ما اعتددت به من فوادح همومي ومما يكون عبئاً عليّ، كما تقول: ما اكترثت له، أي: ما اعتددت به من كوارثي ومما يهمني. وقال الزجاج في تأويل ﴿مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي﴾: أي وزن يكون لكم عنده؟ ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ نافية، ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ يقول: إذا أعلمتكم أن حكمي أني لا أعتدّ بعبادي إلا عبادتهم، فقد خالفتم بتكذيبكم حكمي، فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم حتى يكبكم في النار. ونظيره في الكلام أن يقول الملك لمن استعصى عليه: إن من عادتي أن أحسن إلى من يطعيني ويتبع أمري، فقد عصيت فسوف ترى ما أحلّ بك بسبب عصيانك. وقيل: معناه ما يصنع بكم ربي لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام. وقيل: ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة. فإن قلت: إلى من يتوجه هذا الخطاب؟ قلت: إلى الناس على الإطلاق، ومنهم مؤمنون عابدون ومكذبون عاصون، فخوطبوا بما وجدوا في جنسهم من العبادة والتكذيب. وقرئ: فقد كذب الكافرون. وقيل: يكون العذاب لزاماً. وعن مجاهد ـ رضي الله عنه ـ: هو قتل يوم بدر، وأنه لوزم بين القتلى لزاماً، وقرئ: لزاماً، بالفتح بمعنى اللزوم، كالثبات والثبوت. والوجه أن ترك اسم كان غير منطوق به بعد ما علم أنه مما توعد به، لأجل الإبهام وتناول ما لا يكتنه الوصف، والله أعلم بالصواب.

عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قرأ سورة الفرقان لقي الله يوم القيامة وهو مؤمن بأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأدخل الجنة بغير نصب» (١٠٧٣).

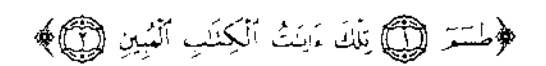
١٠٧٣ ـ تقدم برقم (٣٤٦).
قال الحافظ: أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي. انتهى.

سورة الشعراء

مكية، إلا قوله [والشعراء . . . إلى آخر السورة]

وهي مائتان وسبع وعشرون آية، وفي رواية: وست وعشرون آية [نزلت بعد الواقعة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ



﴿طسم (١)﴾ بتفخيم الألف وإمالتها، وإظهار النون وإدغامها ﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ الظاهر إعجازه، وصحة أنه من عند الله، والمراد به السورة أو القرآن. والمعنى: آيات هذا المؤلف من الحروف المبسوطة تلك آيات الكتاب المبين.

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾

البخع: أن يبلغ بالذبح البخاع بالباء، وهو عرق مستبطن الفقار، وذلك أقصى حدّ الذبح، ولعل للإشفاق، يعني: أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ما فاتك من إسلام قومك ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ لئلا يؤمنوا، أو لامتناع إيمانهم، أو خيفة أن لا يؤمنوا. وعن قتادة ـ رضي الله عنه ـ: باخع نفسك على الإضافة.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)﴾

أراد: آية ملجئة إلى الإيمان قاصرة عليه. ﴿فَظَلَّتْ﴾ معطوف على الجزاء الذي هو ننزل؛ لأنه لو قيل: أنزلنا، لكان صحيحاً. ونظيره: فأصدّق وأكن، كأنه قيل: أصدق. وقد قرئ: لو شئنا لأنزلنا. وقرئ: فتظل أعناقهم. فإن قلت: كيف صح ٢/ ١٥٥أ مجيء خاضعين خبراً عن الأعناق؟ قلت: أصل الكلام: فظلوا لها خاضعين. فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع، وترك الكلام على أصله، كقوله: ذهبت أهل اليمامة، كأنّ الأهل غير مذكور. أو لما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء قيل: خاضعين، كقوله تعالى: ﴿لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وقيل أعناق الناس: رؤساؤهم ومقدّموهم، شبهوا بالأعناق كما قيل لهم هم الرءوس والنواصي والصدور، قال [من البسيط]:

. . . . فِي مَحْفِلٍ مِنْ نَوَاصِي النَّاسِ مَشْهُودِ[1]

وقيل: جماعات الناس. يقال: جاءنا عنق من الناس لفوج منهم. وقرئ: فظلت أعناقهم لها خاضعة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت هذه الآية فينا وفي بني أمية. قال: ستكون لنا عليهم الدولة، فتذل لنا أعناقهم بعد صعوبة، ويلحقهم هوان بعد عزة.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٦﴾

أي: وما يجدد لهم الله بوحيه موعظة وتذكيراً، إلا جددوا إعراضاً عنه وكفرًا به. فإن قلت: كيف خولف بين الألف والغرض واحد، وهي الإعراض والتكذيب والاستهزاء؟ قلت: إنما خولف بينها لاختلاف الأغراض، كأنه قيل: حين أعرضوا عن الذكر فقد كذبوا به، وحين كذبوا به فقد خف عندهم قدره وصار عرضة للاستهزاء والسخرية؛ لأنّ من كان قابلاً للحق مقبلاً عليه، كان مصدقاً به لا محالة ولم يظن به التكذيب ومن كان مصدقاً به، كان موقراً له ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ وعيد لهم وإنذار بأنهم سيعلمون إذا مسهم عذاب الله يوم بدر أو يوم القيامة ﴿مَا﴾ الشيء الذي كانوا يستهزؤون به وهو القرآن، وسيأتيهم أنباؤه وأحواله التي كانت خافية عليهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٩﴾

وصف الزوج وهو الصنف من النبات بالكرم، والكريم: صفة لكل ما يرضى ويحمد في بابه، يقال: وجه كريم، إذا رضي في حسنه وجماله، وكتاب كريم: مرضي في معانيه وفوائده؛ وقال [من المنسرح]:

. . . . حَتَّىٰ يَشُقَّ الصُّفُوفَ مِنْ كَرَمِهْ[2]

---

(١) تقدم.

(٢)
من رأى يومنا ويوم بني التّـ	ـيم إذا التف صيقه بدمه
لما رأوا أن يومهم أشب	شدوا حيازيمهم على ألمه
كأنما الأسد في عرينهم	ونحن كالليل جاش في قتمه
لا يسلمون الغداة جارهم	حتى يزل الشراك عن قدمه =

أي: من كونه مرضياً في شجاعته وبأسه، والنبات الكريم: المرضي فيما يتعلق به من المنافع ﴿إِنَّ فِي﴾ إنبات تلك الأصناف ﴿لَآيَةً﴾ على أن منبتها قادر على إحياء الموتى، وقد علم الله أن أكثرهم مطبوع على قلوبهم، غير مرجوّ إيمانهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من الكفرة ﴿الرَّحِيمُ﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً. فإن قلت: ما معنى الجمع بين كم وكل، ولو قيل كم أنبتنا فيها من زوج كريم[1]؟ قلت: قد دلّ ﴿كُلِّ﴾ على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل، و﴿كَمْ﴾ على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة[2]، فهذا معنى الجمع بينهما، وبه نبه على كمال قدرته. فإن قلت: فما معنى وصف الزوج بالكريم؟ قلت: يحتمل معنيين، أحدهما: أن النبات على نوعين: نافع وضارّ، فذكر كثرة ما أنبت في الأرض من جميع أصناف النبات النافع، وخلى ذكر الضارّ. والثاني: أن يعم جميع النبات نافعه وضارّه، ويصفهما جميعاً بالكرم وينبه على أنه ما أنبت شيئاً إلا وفيه فائدة؛ لأنّ الحكيم لا يفعل فعلاً إلا لغرض صحيح ولحكمة بالغة، وإن غفل عنها الغافلون، ولم يتوصل إلى معرفتها العاقلون. فإن قلت: فحين ذكر الأزواج ودلّ عليها بكلمتي الكثرة والإحاطة، وكانت بحيث لا يحصيها إلا عالم الغيب، كيف قال: ﴿إِنَّ فِي

= ولا يخيم اللقاء فارسهم ... حتى يشق الصفوف من كرمه

لرجل من حمير. ومن: استفهامية. والصيق والصيقة ـ بالكسر ـ: الغبار والتراب. والأشب ـ كحذر ـ: كثير الجلبة والاختلاط، ويطلق على المكان الذي التف شجره، والحيزوم: الصدر. والعرين: أجمة الأسد يسكن فيها. وجاش: ارتفع وأقبل. والقتم: الغبار والسواد والظلمة. وروي في غشمه: بالغين. والمعنى واحد، لا يسلمون لا يخذلون ولا يتركون. والشراك: سير النعل، ولا يخيم: أي لا يجبن عن اللقاء، واليوم: الزمن أو الواقعة، وإضافة الصيق والدم إليه لأنه فيه. ووصف اليوم بأنه كثير الصياح والاختلاط، لأن ذلك واقع فيه، وشد الحيازيم على الألم: كناية عن التجلد والصبر. وشبههم بالأسود في شجاعتهم، وشبه قومه بالليل في الإحاطة والقهر للغير، ثم قال: لا يتركون حليفهم غداة الروع حتى يرتبك وحده في الحرب، فزلل الشراك: كناية عن ذلك ولا يجبن الفارس منهم عن اللقاء، فهو نصب على نزع الخافض، وقيل: مفعول معه، حتى يشق صفوف الحرب ويدخلها من كرمه، أي شجاعته وجراءته، لأن الكرم في كل باب بحسبه، وحتى الأولى غاية للمنفي، والثانية غاية للنفي. ويجوز أن الثانية ابتدائية، والفعل بعدها مرفوع على الاستئناف، وهذا أبلغ في المدح، ثم إن مدح عدوهم مدح لهم.

(1) قوله «كم أنبتنا فيها من زوج كريم» لعل بعده سقطا تقديره «كان مستقيما». (ع)

(2) قال محمود: «إن قلت: ما فائدة الجمع بين كل وكم؟ وأجاب بأن كلا دخلت للإحاطة بأزواج النبات وكم دلت على أن هذ المحاط به متكاثر مفرط الكثرة» قال أحمد: فعلى مقتضى ذلك يكون المقصود بالتكثير: الأنواع والظاهر أن المقصود آحاد الأزواج والأنعام، ويدل عليه أنك لو أسقطت (كل) فقلت: انظروا إلى الأرض كم أنبت الله فيها من الصنف الفلاني، لكنت مكنيا عن آحاد ذلك الصنف المشار إليه، فإذا أدخلت (كل) فقد أديت بتكريره آحاد كل صنف لا آحاد صنف معين، والله أعلم.

﴿ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ وهلا قال: آيات؟ قلت: فيه وجهان: أن يكون ذلك مشاراً به إلى مصدر أنبتنا، فكأنه قال: إن في الإنبات لآية أيّ آية. وأن يراد: أن في كل واحدة من تلك الأزواج لآية. وقد سبقت لهذا الوجه نظائر.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾

سجل عليهم بالظلم بأن قدّم القوم الظالمين، ثم عطفهم عليهم عطف البيان، كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون وكأنهما عبارتان تعتقبان على مؤدى واحد: إن شاء ذاكرهم عبر عنهم بالقوم الظالمين، وإن شاء عبر بقوم فرعون. وقد استحقوا هذا الاسم من جهتين: من جهة ظلمهم أنفسهم بالكفر وشرارتهم، ومن جهة ظلمهم لبني إسرائيل باستعبادهم لهم. قرئ: ألا يتقون بكسر النون، بمعنى: ألا يتقونني: فحذفت النون لاجتماع النونين، والياء للاكتفاء بالكسرة. فإن قلت: بم تعلق بقوله: ألا يتقون؟ قلت: هو كلام مستأنف أتبعه عز وجل إرساله إليهم للإنذار، والتسجيل عليهم بالظلم، تعجيباً لموسى من حالهم التي شنعت في الظلم والعسف، ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم وحذرهم من أيام الله، ويحتمل أن يكون **(لا يتقون)** حالاً من الضمير في الظالمين، أي: يظلمون غير متقين الله وعقابه، فأدخلت همزة الإنكار على الحال، وأمّا من قرأ: ألا تتقون. على الخطاب. فعلى طريقة الالتفات ٢/ ٥٥ب إليهم، وجبههم، وضرب وجوههم بالإنكار، والغضب عليهم، كما ترى من يشكو من ركب جناية إلى بعض أخصائه والجاني حاضر، فإذا اندفع في الشكاية وحرّ مزاجه[١] وحمي غضبه قطع مباثة صاحبه وأقبل على الجاني يوبخه ويعنف به ويقول له: ألم تتق الله، ألم تستح من الناس. فإن قلت: فما فائدة هذا الالتفات، والخطاب مع موسى عليه الصلاة والسلام في وقت المناجاة، والملتفت إليهم غيب لا يشعرون؟ قلت: إجراء ذلك في تكليم المرسل إليهم في معنى إجرائه بحضرتهم وإلقائه إلى مسامعهم، لأنه مبلغه ومنهيه وناشره بين الناس، وله فيه لطف وحث على زيادة التقوى، وكم من آية أنزلت في شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين، تدبرا لها واعتبارا بموردها. وفي ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ بالياء وكسر النون وجه آخر، وهو أن يكون المعنى: ألا يا ناس اتقون، كقوله ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ **[النمل: ٢٥]**.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾

---

(١) قوله «وحر مزاجه» في الصحاح: حر يحر حرا وحرارة وحرورا. (ع)

ويضيق وينطلق، بالرفع؛ لأنهما معطوفان على خبر إنّ، وبالنصب لعطفهما على صلة أن، والفرق بينهما في المعنى: أنّ الرفع يفيد أنّ فيه ثلاث علل: خوف التكذيب، وضيق الصدر، وامتناع انطلاق اللسان، والنصب على أن خوفه متعلق بهذه الثلاثة. فإن قلت: في النصب تعليق الخوف بالأمور الثلاثة، وفي جملتها نفي انطلاق اللسان. وحقيقة الخوف إنما هي غم يلحق الإنسان لأمر سيقع، وذلك كان واقعاً، فكيف جاز تعليق الخوف به؟ قلت: قد علق الخوف بتكذيبهم وبما يحصل له بسببه من ضيق الصدر، والحبسة في اللسان زائدة على ما كان به، على أنّ تلك الحبسة التي كانت به قد زالت بدعوته. وقيل: بقيت منها بقية يسيرة. فإن قلت: اعتذارك هذا يردّه الرفع، لأنّ المعنى: إني خائف ضيق الصدر غير منطلق اللسان. قلت: يجوز أن يكون هذا قبل الدعوة واستجابتها، ويجوز أن يريد القدر اليسير الذي بقي به، ويجوز أن لا يكون مع حل العقدة من لسانه من الفصحاء المصاقع[1] الذين أوتوا سلاطة الألسنة وبسطة المقال، وهارون كان بتلك الصفة، فأراد أن يقرن به. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤] ومعنى ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾: أرسل إليه جبرائيل. واجعله نبياً، وآزرني به[2]، واشدد به عضدي، وهذا كلام مختصر. وقد بسطه في غير هذا الموضع، وقد أحسن في الاختصار حيث قال: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ فجاء بما يتضمن معنى الاستنباء، ومثله في تقصير الطويلة والحسن قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾ [الفرقان: ٣٦] حيث اقتصر على ذكر طرفي القصة أوّلها وآخرها، وهما الإنذار والتدمير، ودلّ بذكرهما على ما هو الغرض من القصة الطويلة كلها، وهو أنهم قوم كذبوا بآيات الله، فأراد الله إلزام الحجة عليهم، فبعث إليهم رسولين فكذبوهما، فأهلكهم. فإن قلت: كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يأمره الله بأمر فلا يتقبله بسمع وطاعة من غير توقف وتشبث بعلل. وقد علم أن الله من ورائه؟ قلت: قد امتثل وتقبل، ولكنه التمس من ربه أن يعضده بأخيه حتى يتعاونا على تنفيذ أمره وتبليغ رسالته، فمهد قبل التماسه عذره فيما التمسه، ثم التمس بعد ذلك، وتمهيد العذر في التماس المعين على تنفيذ الأمر: ليس بتوقف في امتثال الأمر، ولا بتعلل فيه؛ وكفى بطلب العون دليلاً على التقبل لا على التعلل.

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾

أراد بالذنب: قتله القبطي. وقيل: كان خباز فرعون واسمه فاتون. يعني: ولهم عليّ

---

(١) قوله «من الفصحاء المصاقع» في الصحاح «صقع الديك»: صاح. وخطيب مصقع، أي: بليغ. (ع)

(٢) قوه «وآزرني به» في الصحاح «آزرت فلاناً»: عاونته. والعامة تقول: وازرته. (ع)

تبعة ذنب، وهي قود ذلك القتل[1]، فأخاف أن يقتلوني به، فحذف المضاف، أو سمى تبعة الذنب ذنباً، كما سمى جزاء السيئة سيئة. فإن قلت: قد أبيت أن تكون تلك الثلاث عللا، وجعلتها تمهيداً للعذر فيما التمسه، فما قولك في هذه الرابعة؟ قلت: هذه استدفاع للبلية المتوقعة. وفرق من أن يقتل قبل أداء الرسالة، فكيف يكون تعللاً. والدليل عليه: ما جاء بعده من كلمة الردع، والموعد بالكلاءة والدفع.

﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾

جمع الله له الاستجابتين معاً في قوله ﴿كَلَّا فَاذْهَبَا﴾ لأنه استدفعه بلاءهم فوعده الدفع بردعه عن الخوف، والتمس منه الموازرة بأخيه فأجابه بقوله ﴿فَاذْهَبَا﴾ أي اذهب أنت والذي طلبته وهو هارون. فإن قلت: علام عطف قوله ﴿فَاذْهَبَا﴾؟ قلت: على الفعل الذي يدل عليه ﴿كَلَّا﴾ كأنه قيل: ارتدع يا موسى عما تظنّ، فاذهب أنت وهارون. وقوله: ﴿مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ من مجاز الكلام، يريد: أنا لكما ولعدوّكما كالناصر الظهير لكما عليه إذا حضر واستمع ما يجري بينكما وبينه. فأظهركما وأُغلبكما وأكسر شوكته عنكما وأنكسه. ويجوز أن يكونا خبرين لأنّ، أو يكون ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾ مستقراً، و﴿مَعَكُم﴾ لغواً ٢/ ٥٦أ. فإن قلت: لم جعلت ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾ قرينة ﴿مَعَكُم﴾ في كونه من باب المجاز، والله تعالى يوصف على الحقيقة بأنه سميع وسامع؟ قلت: ولكن لا يوصف بالمستمع على الحقيقة؛ لأنّ الاستماع جار مجرى الإصغاء، والاستماع من السمع بمنزلة النظر من الرؤية. ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾ [الجن: ١] ويقال: استمع إلى حديثه، وسمع حديثه، أي: أصغى إليه وأدركه بحاسة السمع. ومنه قوله ﷺ: «من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صبّ في أذنيه البرم»[2] (١٠٧٤). فإن قلت:

١٠٧٤ ـ قال الزيلعي (٢/ ٤٧٣): غريب جدًا.
قال الحافظ: لم أجده بهذا اللفظ والمحفوظ: «صب في أذنيه الآنك» اهـ. =

---

(١) قوله «وهي قود ذلك القتل» لعله القتيل. (ع)
(٢) قوله «صب في أذنيه البرم» في الصحاح «البرم»: ثمر العضاة. (ع)

هلا ثنى الرسول كما ثنى في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]؟ قلت: الرسول يكون بمعنى المرسل، وبمعنى الرسالة، فجعل ثم بمعنى المرسل فلم يكن بدّ من تثنيته، وجعل ههنا بمعنى الرسالة فجاز التسوية فيه - إذا وصف به - بين الواحد والتثنية والجمع، كما يفعل بالصفة بالمصادر، نحو: صوم، وزور، قال [من المتقارب]:

أَلِكْنِي إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرَّسُو ... لِ أَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الْخَبَرْ[1]

فجعله للجماعة. والشاهد في الرسول بمعنى الرسالة قوله [من الطويل]:

لَقَدْ كَذَبَ الوَاشُونَ مَا فُهْتُ عِنْدَهُمْ ... بِسِرٍّ وَلاَ أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ[2]

= وهو حديث ابن عباس؛ رواه ابن حبان في صحيحه (١٢/٤٩٨) رقم (٥٦٨٥) عن ابن عباس قال عن النبي - ﷺ - قال: «من صور صورة إنه يعذب حتى ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ فيها الروح، ومن تحلم حلماً كاذباً - كلف أن يعقد بين شعيرتين، ويعذب على ذلك، ومن استمع إلى قوم وهم =

---

(١) لأبي ذؤيب. وألاكه يليكه: إذا أرسله. والمصدر إلاكة، فالهمزة زائدة. والأصل: لاك يلوك، كقام يقوم. وأما ألكه: إذا أرسله أيضا، فمصدره: ألوكة وأليكة ومألكة، بضم اللام وفتحها. ومألك بضمها وقيل: ألاكه، إذا تحمل رسالته. فالمعنى: أرسلني، أو تحمل رسالتي إليها. ويروى: إليه: أي: إلى ذلك الأمر. والرسول في الأصل مصدر، فجاز إفراده مع تعدد معناه، ولذلك عاد إليه ضمير الجمع في أعلمهم. وشبه الخبر بمكان ذي جهات على طريق المكنية. والنواحي تخييل. أو شبه توابع الخبر التي يسأل عنها تبعاً له بالنواحي على طريق التصريحية، يعني أنه أعلم من غيره بذلك.
ينظر شرح أشعار الهذليين (ص ١١٣)، لسان العرب (لوك) (رسل)، المخصص (١٢/٢٢٥)، تاج العروس (ألك).

(٢) حلفت برب الراقصات إلى منى ... خلال الملا يمددن كلّ جديل
لقد كذب الواشون ما فهت عندهم ... بسر ولا أرسلتهم برسول
فلا تعجلي يا عز أن تتفهمي ... بنصح أتى الواشون أم بحبول
لكثير صاحب عزة. والراقصات: المطايا السائرات إلى منى في الحج، خلال الملا: أي في أثناء الناس. والجديل الرسن في عنقها تمده به. والواشي: الذي يحسن الكلام ويموهه، ويخلط الصدق بالكذب، ويحرف الكلم عن مواضعه. و«ما» نافية، أي: ما تفوهت عندهم بسر، ولا أرسلتهم إلى أحد برسول، أي برسالة، فهو في الأصل مصدر. وقد يطلق على المرسل، وهو الظاهر في رواية؛ (ولا راسلتهم برسول) أي لا شافهتهم بالسر ولا أرسلت إليهم رسولاً به. وهذه الرواية أوفق بالمقابلة. ويمكن أن أرسلتهم بمعنى أرسلت إليهم، والأصل: يا عزة، فرخم بحذف التاء، أن تفهمي: أي: في أن تتفهمي. أو لأجل أن تتفهمي، بنصح، أي: أبنصح أتى الواشون إليك، أم بحبول: جمع حبل بالكسر: وهي الداهية العظيمة، ولا أدهى من الكذب.
ينظر: ديوانه ص ١١٠، ولسان العرب (رسل)، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ١٢/٣٩١، وديوان الأدب ١/٣٩٥، ولسان العرب (رسل)، وتاج العروس (رسل) (وفيه «برسيل» مكان «برسولِ).

ويجوز أن يوحد، لأنّ حكمهما لتساندهما واتفاقهما على شريعة واحدة، واتحادهما لذلك وللإخوة كان حكماً واحداً، فكأنهما رسول واحد، أو أريد أنّ كل واحد منا ﴿أَنْ أَرْسِلْ﴾ بمعنى: أي أرسل؛ لتضمن الرسول معنى الإرسال. وتقول: أرسلت إليك أن افعل كذا، لما في الإرسال من معنى القول، كما في المناداة والكتابة ونحو ذلك. ومعنى هذا الإرسال: التخلية والإطلاق كقولك: أرسل البازي، يريد: خلهم يذهبوا معنا إلى فلسطين، وكانت مسكنهما. ويروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة، حتى قال البواب: إنّ ههنا إنساناً يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال: ائذن له لعلنا نضحك منه، فأدّيا إليه الرسالة، فعرف موسى فقال له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾ حذف فأتيا فرعون فقالا له ذلك، لأنه معلوم لا يشتبه. وهذا النوع من الاختصار كثير في التنزيل. الوليد: الصبي لقرب عهده من الولادة. وفي رواية عن أبي عمرو: من عمرك. بسكون الميم ﴿سِنِينَ﴾ قيل: مكث عندهم ثلاثين سنة. وقيل: وكز القبطي وهو ابن ثنتي عشرة سنة، وفرّ منهم على أثرها، والله أعلم بصحيح ذلك. وعن الشعبي: فعلتك بالكسرد وهي قتله القبطي، لأنه قتله بالوكزة وهو ضرب من القتل. وأما الفعلة؛ فلأنها كانت وكزة واحدة. عدّد عليه نعمته من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال، ووبخه بما جرى على يده من قتل خبازه، وعظم ذلك وفظعه[1] بقوله ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ يجوزأن يكون حالاً. أي: قتلته وأنت لذاك من الكافرين بنعمتي. أو أنت إذ ذاك ممن تكفرهم الساعة،

= له كارهون صب في أذنيه الآنك يوم القيامة».

ورواه أبي داود (٢/ ٧٢٤) كتاب الأدب، باب ما جاء في الرؤيا الحديث (٥٠٢٤). وابن حبان (١٢/ ٤٩٩) رقم (٥٦٨٦)، بلفظ: «ومن استمع إلى حديث قوم يفرون به منه صب في أذنيه الآنك» اهـ.

وأصل الحديث عند الشيخين وغيرهما، والحديث ذكره ابن الأثير في النهاية بلفظ المصنف (١/ ١٢١).

قال الحافظ: لم أجده بهذا اللفظ والمحفوظ «صب في أذنيه الآنك» وهو الرصاص. وذكره ابن الأثير في النهاية بلفظ: «البرم الدم» وقال: هو الكحل المذاب. قلت: وإنما تلقاه ابن الأثير عن الفائق، فرجع إلى الزمخشري. انتهى.

(١) قال محمود: «عدد نعمته عليه ووبخه بما جرى على يديه من قتل خبازه وفظعه عليه بقوله: وفعلت فعلتك» قال أحمد: ووجه التفظيع عليه من ذلك أن في إتيانه به مجملا مبهماً، إيذاناً بأنه لفظاعته مما لا ينطق به إلا مكنياً عنه. ونظيره في التفخيم المستفاد من الإبهام قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾، ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ ومثله كثير، والله أعلم.

وقد افترى عليه أو جهل أمره؛ لأنه كان يعيشهم بالتقية، فإنّ الله تعالى عاصم من يريد أن يستنبئه من كل كبيرة ومن بعض الصغائر، فما بال الكفر. ويجوز أن يكون قوله ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ حكما عليه بأنه من الكافرين بالنعم، ومن كانت عادته كفران النعم لم يكن قتل خواص المنعم عليه بدعا منه. أو بأنه من الكافرين لفرعون وإلهيته. أو من الذين كانوا يكفرون في دينهم، فقد كانت لهم آلهة يعبدونهم، يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، وقرئ: إلهتك، فأجابه موسى بأن تلك الفعلة إنما فرطت منه وهو ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي الجاهلين. وقراءة ابن مسعود: من الجاهلين، مفسرة. والمعنى: من الفاعلين فعل أولي الجهل والسفه. كما قال يوسف لإخوته ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩]أو المخطئين كمن يقتل خطأ من غير تعمد للقتل. أو الذاهبين عن الصواب. أو الناسين، من قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وكذب فرعون ودفع الوصف بالكفر عن نفسه، وبرّ ساحته، بأن وضع الضالين موضع الكافرين رَبناً بمحل من رشح للنبوّة عن تلك الصفة، ثم كرّ على امتنانه عليه بالتربية، فأبطله من أصله واستأصله من سنخه[1]، وأبى أن يسمي نعمته إلا نقمة. حيث بين أن حقيقة إنعامه عليه تعبيد بني إسرائيل؛ لأن تعبيدهم وقصدهم بذبح أبنائهم هو السبب في حصوله عنده وتربيته، فكأنه امتن عليه بتعبيد قومه إذا حققت، وتعبيدهم: تذليلهم واتخاذهم عبيداً. يقال: عبدت الرجل وأعبدته، إذا اتخذته عبداً، قال [من البسيط]:

عَلامَ يُعْبِدُنِي قَوْمِي وَقَدْ كَثُرَتْ فِيهِمْ أَبَاعِرُ مَا شَاءُوا وَعُبْدَانُ؟[2] ٢/٥٦ب

فإن قلت: إذا جواب وجزاء معا، والكلام وقع جواباً لفرعون، فكيف وقع جزاء

---

(١) قوله «واستأصله من سنخته» في الصحاح «السنخ» الأهل، وسنخ في العلم سنوخاً رسخ: وسنخ الدهر ـ بالكسر ـ: لغة في زنخ، إذا فسد وتغير ريحه. يقال: بيت له سنخة وسناخة اهـ. (ع)

(٢) علام: استفهام إنكاري عن العلة، أي: على أي شيء. وأعبدت الرجل وعبدته: إذا اتخذته عبداً. والأباعر: جمع بعير، يطلق على الذكر والأنثى من الإبل. والعبد: يجمع على عبدان بالكسر والضم وعبدي، بتشديد الدال مقصوراً وممدوداً، ومعبوداً، وعباد، وأعبد، وعبيد، وعبد بضمتين وبفتحتين، يقول: لأي شيء يتخذوني عبداً، والحال أنه كثرت فيهم الإبل والعبيد بسببي، فليتخذوا منها ما شاؤوا. وما شاؤوا: بدل من الأباعر أو واقع موقع المصدر لكثرت، دلالة على التكثير. وفي هذه الحال: تهكم بهم ودلالة على حمقهم. ويجوز أن المعنى: والحال أن بعضهم كالأباعر، وبعضهم عبيد، فليكتفوا ببعضهم عني. وقيل: يجوز أن التقييد بهذه الحالة، لأنها التي حملتهم على التكبر عليه.

وهو للفرزدق في ديوانه ص ١٨٤ (طبعة الصاوي)، ولسان العرب (عبد)، وبلا نسبة في لسان العرب (عبد)، وديوان الأدب ٢/٢٩٢، وأساس البلاغة (عبد)، وتهذيب اللغة ٢/٢٣٣، ونوادر أبي زيد ص ٨٧، وتاج العروس (عبد).

قلت: قول فرعون: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ فيه معنى: إنك جازيت نعمتي بما فعلت، فقال له موسى: نعم فعلتها مجازياً لك، تسليماً لقوله، لأنّ نعمته كانت عنده جديرة بأن تجازى بنحو ذلك الجزاء. فإن قلت: لم جمع الضمير في منكم وخفتكم؟ مع إفراده في تمنها وعبدت؟ قلت: الخوف والفرار لم يكونا منه وحده، ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله، بدليل قوله: ﴿ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾ [القصص: ٢٠]، وأما الامتنان فمنه وحده، وكذلك التعبيد. فإن قلت: (تلك) إشارة إلى ماذا. و﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ ما محلها من الإعراب؟ قلت: تلك إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة، لا يدري ما هي إلا بتفسيرها. ومحل ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ الرفع عطف بيان لتلك. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ [الحجر: ٦٦] والمعنى: تعبيدك بني إسرائيل نعمة تمنها علي. وقال الزجاج: ويجوز أن يكون (أن) في موضع نصب، المعنى: إنما صارت نعمة عليّ لأن عبدت بني إسرائيل؛ أي: لو لم تفعل ذلك لكفلني أهلي ولم يلقوني في اليم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾

لما قال له بوّابه إن ههنا من يزعم أنه رسول رب العالمين قال له عند دخوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يريد: أي شيء رب العالمين. وهذا السؤال لا يخلو: إما أن يريد به أي شيء هو من الأشياء التي شوهدت وعرفت أجناسها، فأجاب بما يستدل به عليه من أفعاله الخاصة، ليعرّفه أنه ليس بشيء مما شوهد وعرف من الأجرام والأعراض، وأنه شيء مخالف لجميع الأشياء، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] وإما أن يريد به: أي شيء هو على الإطلاق، تفتيشاً عن حقيقته الخاصة ما هي، فأجابه بأنّ الذي إليه سبيل وهو الكافي في معرفته معرفة ثباته بصفاته، استدلالاً بأفعاله الخاصة على ذلك. وأمّا التفتيش عن حقيقته الخاصة التي هي فوق فطر العقول، فتفتيش عما لا سبيل إليه، والسائل عنه متعنت غير طالب للحق. والذي يليق بحال فرعون ويدل عليه الكلام: أن يكون سؤاله هذا إنكار لأن يكون للعالمين رب سواه لادعائه الإلهية، فلما أجاب موسى بما أجاب، عجب قومه من جوابه حيث نسب الربوبية إلى غيره، فلما ثنى بتقرير قوله، جننه إلى قومه وطنز به[1]، حيث سماه رسولهم، فلما ثلث بتقرير آخر: احتدّ واحتدم وقال: لئن اتخذت إلهاً غيري. وهذا يدل على صحة هذا الوجه الأخير.

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾

---

(١) قوله «وطنز به» أي: سخر به واحتدم، أي: التهب صدره غيظاً. أفاده الصحاح. (ع)

فإن قلت: كيف قيل ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ على التثنية، والمرجوع إليه مجموع؟ قلت: أريد وما بين الجنسين، فعل بالمضمر ما فعل بالظاهر من قال [من البسيط]:

. . . . فِي الْهَيْجَا جِمَالَيْنِ[1]

فإن قلت: ما معنى قوله ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ وأين عن فرعون وملئه الإيقان؟ قلت: معناه إن كان يرجى منكم الإيقان الذي يؤدي إليه النظر الصحيح نفعكم هذا الجواب، وإلا لم ينفع. أو إن كنتم موقنين بشيء قط فهذا أولى ما توقنون به، لظهوره وإنارة دليله.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

فإن قلت: ومن كان حوله؟ قلت: أشراف قومه قيل: كانوا خمسمائة رجل عليهم الأساور وكانت للملوك خاصة. فإن قلت: ذكر السموات والأرض وما بينهما قد استوعب به الخلائق كلها، ما معنى ذكرهم وذكر آبائهم بعد ذلك وذكر المشرق والمغرب؟ قلت: قد عمم أوّلا، ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم. لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه، وما شاهد وعاين من الدلائل على الصانع، والناقل من هيئة إلى هيئة وحال إلى حال من وقت ميلاده إلى وقت وفاته، ثم خصص المشرق والمغرب، لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم في فصول السنة وحساب مستو من أظهر ما استدل به؛ ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل الله، عن

---

(١) سعى عقالاً فلم يترك لنا سبدًا … فكيف لو قد سعى عمرو عقالين؟
لأصبح الناس أو بادا ولم يجدوا … عند التفرق في الهيجا جمالين

الساعي: المنصوب لأخذ الزكاة. والعقال: زكاة العام، والمراد به هنا العام، لأنه جرى مجرى الظرف. والسبد: الشيء القليل. يقال: لا له سبد ولا لبد، أي: لا قليل ولا كثير. وقال الأصمعي: الأول من الشعر، والثاني من الصوف. والأوباد: جمع وبد بفتحتين، وأصله ضيق العيش وسوء الحال، فاستعمل استعمال الصفات للمبالغة، وثنى الجمال على معنى نوعين منها أو طائفتين منها ولو من نوع واحد. يقول: سعى سنة واحدة لأخذ زكاتها، فظلمنا ولم يترك لنا شيئاً قليلاً من مالنا، فكيف يكون حالنا لو سعى عامين. وفي ذكر عمرو بعد تقدم ضميره نوع من التهويل. ويحتمل أنه من باب التنازع، فيجوز أن الظاهر فاعل الأول، وفاعل الثاني ضميره، وقوله «لأصبح» مرتب على محذوف، أي: لو سعى عقالين، لأصبح الناس هلكى من الفقر، ولم يجدوا عند تفرقهم في الحرب نوعين من الجمال: لكل فريق منهما نوع، فيختل أمر الغزوات لاحتمال محاربة العدو في جهتين بل في جهات، فيحتاج إلى جمالين، بل إلى جمالات.
وهو لعمرو بن العداء في خزانة الأدب ٧/٥٧٩، ٥٨٠، وشرح شواهد الإيضاح ص ٥٦٠، ولسان العرب (وبد)، ١١/٤٦٤ (عقل)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر ٤/٢٠٣، وشرح المفصل ٤/ ١٥٣، ومجالس ثعلب ١/١٧١، والمقرب ٢/٤٣.

الاحتجاج بالإحياء والإماتة على نمروذ بن كنعان، فبهت الذي كفر. وقرئ: رب المشارق والمغارب. الذي أرسل إليكم بفتح الهمزة. فإن قلت: كيف قال أوّلاً ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ وآخراً ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؟ قلت: لاين أوّلاً، فلما رأى منهم شدّة الشكيمة[1] في العناد وقلة الإصغاء إلى عرض الحجج خاشن وعارض: إنّ رسولكم لمجنون، بقوله: إن كنتم تعقلون.

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩)﴾

فإن قلت: ألم يكن: لأسجننك، أخصر من ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ ومؤدياً مؤداه؟ قلت: أما أخصر فنعم. وأما مؤدّ مؤدّاه فلا؛ لأنّ معناه: لأجعلنك واحداً ممن عرفت حالهم في سجوني. وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه ٢/٥٧أ فيطرحه في هوّة ذاهبة في الأرض بعيدة العمق فردًا لا يبصر فيها ولا يسمع، فكان ذلك أشدّ من القتل وأشدّ.

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١)﴾

الواو في قوله: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ﴾ واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام. معناه: أتفعل بي ذلك ولو جئتك بشيء مبين، أي: جائياً بالمعجزة. وفي قوله: ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أنه لا يأتي بالمعجزة إلا الصادق في دعواه، لأن المعجزة تصديق من الله لمدعي النبوّة، والحكيم لا يصدّق الكاذب. ومن العجب أن مثل فرعون لم يخف عليه هذا، وخفي على ناس من أهل القبلة[2] حيث جوّزوا القبيح على الله تعالى حتى لزمهم تصديق الكاذبين بالمعجزات[3]، وتقديره: إن كنت من الصادقين في دعواك أتيت به، فحذف الجزاء، لأن الأمر بالإتيان به يدل عليه.

---

(١) قوله شدة الشكيمة؛ في الصحاح: فلان شديد الشكيمة، إذا كان شديد النفس أنفاً أبيا. (ع)

(٢) قوله «وخفي على ناس من أهل القبلة» يريد أهل السنة، حيث قالوا: إن كلا من الحسن والقبيح بقضاء الله تعالى وقدره، ولم يلزمهم باطل كما بين في علم التوحيد. (ع)

(٣) قال محمود: «علم فرعون أنه لا يأتي بالمعجزة إلا صادق في دعواه، لأن المعجزة تصديق من الله تعالى لمدعي النبوة، والحكيم لا يصدق الكاذب. ومن العجب أن فرعون لم يخف عليه هذا وخفي على طائفة من أهل القبلة، حيث جوزوا القبيح على الله تعالى حتى لزمهم تصديق الكاذبين بالمعجزات. انتهى كلامه» قال أحمد: ليته سلم وجه تصنيفه من ثآليل هذه الأباطيل، وكلف هذا التكليف في كيده لأهل السنة وإن كيده لفي تضليل، بينا هو يعرض بتفضيل فرعون عليهم، إذا هو قد حتم على إخوانه القدرية أنهم فراعنة، وأن كلاً منهم إذا فتش نفسه وجد فيها نصيباً من فرعنته حيث يقول ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ لأنهم يعتقدون أن أفعالهم خلقهم، وأنهم لها مبدعون خالقون كلا إنهم لهم المبتدعون المختلقون، لأنهم حجروا على الله تعالى أن يفعل إلا ما توطأت أوهامهم، على أنه =

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر الثعبانية، لا شيء يشبه الثعبان، كما تكون الأشياء المزوّرة بالشعوذة والسحر. وروي أنها انقلبت حية ارتفعت في السماء قدر ميل، ثم انحطت مقبلة إلى فرعون، وجعلت تقول: يا موسى، مرني بما شئت. ويقول فرعون: أسألك بالذي أرسلك إلا أخذتها، فأخذها فعادت عصا ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ دليل على أن بياضها كان شيئاً يجتمع النظارة على النظر إليه، لخروجه عن العادة، وكان بياضاً نورياً. روي أنّ فرعون لما أبصر الآية الأولى قال: فهل غيرها؟ فأخرج يده فقال له: ما هذه؟ قال: يدك فما فيها؟ فأدخلها في إبطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشى الأبصار[1] ويسدّ الأفق.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

فإن قلت: ما العامل في ﴿حَوْلَهُۥٓ﴾؟ قلت: هو منصوب نصبين: نصب في اللفظ، ونصب في المحل؛ فالعامل في النصب اللفظي ما يقدر في الظرف، والعامل في النصب

= حسن بالنسبة إلى الخلق في الشاهد. فمن ثم أشركوا به وهم لا يشعرون. ولما هدى الله تعالى أهل السنة إلى التوحيد الحق، اعتقدوا أن كل شيء هو مخلوق لله تعالى لا شريك له في ملكه، وأن كل ممكن يجوز أن ينظمه سلطان القدرة الأزلية في سلكه، فكان من الممكنات أن يبتلي الله عباده بخرق العادات على أيدي الكذابين، ومراده إظهار الضلالات: وقد اندرج ذلك لكونه ممكناً تحت سطوة القدرة حقاً بيناً، ثم لم يلزم من ذلك لله الحمد خرم في الدين، فإن توهم ناظر بعين الهوى والغرض، معنون عما في قلبه من مرض: أن ذلك يجر إلى عدم الوثوق بمعجزات الأنبياء، حيث كان على يد غيرهم من الكذابين الأشقياء. قيل: معاذ الله أن نأخذ ذلك بنفس مطمئنة بصدق الأنبياء، آمنة بحصول العلم لها من وقوع ما جوزه العقل، ولو قدح الامكان العقلي في علم حاصل يقيني، للزم الآن الشك في أن جبال الأرض قد عادت تبراً أحمر، وترابها مسكاً أذفر، وانقلبت البحار دما عبيطاً لأن ذلك ممكن في العقل بلا خلاف، ولا يشكك نفسه في هذا الإمكان إلا ذو خبل وعته وعمي وعمه، وأين الزمخشري من الحديث الصحيح في الشاب الذي يكذب الدجال فيقسمه بالسيف جزلتين فيمشي بينهما، ثم يقول له: عد فيعود حياً، فيقول له: ما ازددت فيك إلا بصيرة، أنت الدجال الذي وصفه لنا رسول الله ﷺ، فيهم به ثاني مرة فلا يسلط عليه. قال النبي ﷺ: وهو حينئذ خير أهل الأرض، أو من خير أهل الأرض، أفرأيت هذا المؤمن لما نظر انخراق العادة على يد أكذب الكاذبين حتى شاهد ذلك في نفسه، لم يشككه ذلك في معلومه، فلم يتلكأ في معاودة تكذيبه، ولكن ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾.

(١) قوله «ولها شعاع يكاد يغشي الأبصار» في الصحاح «الغشاء»: الغطاء .اهـ. ولعل عبارة المصنف يعشى بالعين المهملة، وفي الصحاح: «العشا» مقصور: مصدر: الأعشى، وهو الذي لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار. (ع)

المحلي وهو النصب على الحال: قال: ولقد تحير فرعون لما أبصر الآيتين، وبقي لا يدري أي طرفيه أطوف، حتى زلّ عنه ذكر دعوى الإلهية، وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية، وارتعدت فرائصه، وانتفخ سحره خوفاً وفرقاً[1]؛ وبلغت به الاستكانة لقومه الذين هم بزعمه عبيده وهو إلههم: أن طفق يؤامرهم ويعترف لهم بما حذر منه وتوقعه وأحسّ به من جهة موسى عليه السلام وغلبته على ملكه وأرضه، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ قول باهت إذا غلب ومتمحل إذا لزم ﴿تَأْمُرُونَ﴾ من المؤامرة وهي المشاورة. أو من الأمر الذي هو ضدّ النهي: جعل العبيد آمرين وربهم مأمورا لما استوى عليه من فرط الدهش والحيرة. وماذا منصوب: إما لكونه في معنى المصدر، وإما لأنه مفعول به من قوله: أمرتك الخير.

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾

قرئ: أرجئه وأرجه: بالهمز والتخفيف، وهما لغتان، يقال: أرجأته وأرجيته، إذا أخرته. ومنه: المرجئة[2]، وهم الذين لا يقطعون بوعيد الفساق ويقولون: هم مرجئون لأمر الله. والمعنى: أخره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة. وقيل: احبسه ﴿حَٰشِرِينَ﴾ شرطاً يحشرون السحرة[3]، وعارضوا قوله: إن هذا لساحر، بقولهم: بكل سحار، فجاءوا بكلمة الإحاطة وصفة المبالغة، ليطامنوا من نفسه ويسكنوا بعض قلقه. وقرأ الأعمش: بكل ساحر.

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

اليوم المعلوم: يوم الزينة. وميقاته. وقت الضحى؛ لأنه الوقت الذي وقته لهم موسى صلوات الله عليه من يوم الزينة في قوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩]

---

(١) قوله: «وانتفخ سحره خوفاً وفرقاً» في الصحاح: «السحر»: الرئة. ويقال للجبان: قد انتفخ سحره. (ع)

(٢) قال محمود: «معناه أخره. ومنه المرجئة الذين لا يقطعون بوعيد الفساق ويقولون: هم مرجئون لأمر الله» قال أحمد: ضاقت عليه المسالك في تفسير الأرجاء، حتى استدل عليه بالمرجئة، وصرف هذا اللقب لأهل السنة، فإنهم هم الذين لا يقطعون بوعيد فساق المؤمنين، ويقولون: أمرهم إلى الله، إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم. فإن كانت المرجئة هم المؤمنون بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ اللهم فاشهد أنا مرجئة.

(٣) قوله «شرطاً يحشرون السحرة» الشرط ـ محركة ـ: الحرس، سموا بذلك لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها، أفاده الصحاح. (ع)

والميقات: ما وقت به، أي حدد من زمان أو مكان. ومنه: مواقيت الإحرام ﴿... مُّجْتَمِعُونَ﴾ استبطاء لهم في الاجتماع، والمراد منه: استعجالهم واستحثاثهم، كما يقول الرجل لغلامه: هل أنت منطلق: إذا أراد أن يحرّك منه ويحثه على الانطلاق، كأنما يخيل له أن الناس قد انطلقوا وهو واقف، ومنه قول تأبط شرًا [من البسيط]:

هَلْ أَنْتَ بَاعِثُ دِينَارٍ لِحَاجَتِنَا ... أَوْ عَبْدَ رَبٍّ أَخَا عَوْنِ بْنِ مِخْرَاقِ؟[1]

يريد: ابعثه إلينا سريعاً ولا تبطىء به ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ أي في دينهم إن غلبوا موسى، ولا نتبع موسى في دينه. وليس غرضهم باتباع السحرة[2]، وإنما الغرض الكلي: أن لا يتبعوا موسى، فساقوا الكلام مساق الكناية؛ لأنهم إذا اتبعوهم لم يكونوا متبعين لموسى عليه السلام.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾

وقرئ: نعم، بالكسر[3]، وهما لغتان، ولما كان قوله ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ في معنى جزاء الشرط، لدلالته عليه، وكان قوله: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ معطوفاً عليه ومدخلاً في حكمه، دخلت إذا قارّة في مكانها الذي تقتضيه من الجواب والجزاء، وعدهم أن يجمع لهم إلى الثواب على سحرهم الذي قدروا أنهم يغلبون به موسى: القربة ٢/٥٧ب عنده والزلفى.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾

أقسموا بعزة فرعون وهي من أيمان الجاهلية، وهكذا كل حلف بغير الله، ولا يصح في الإسلام إلا الحلف بالله معلقاً ببعض أسمائه أو صفاته، كقولك: بالله، والرحمن، وربي، ورب العرش، وعزة الله، وقدرة الله، وجلال الله، وعظمة الله. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمّهاتكم ولا بالطواغيت، ولا تحلفوا إلا بالله،

---

(١) لتأبط شراً. وقيل: لجرير الخطفي، وهل: استفهام استبطائي فيه حث على الفعل. ودينار: اسم رجل وعبد رب كذلك، وهو نصب عطفاً على محل دينار، لأنه مفعول معنى. وأخا عون: نعت له. وقيل: منادى. و(عون ومخراق) اسمان لرجلين. ويروى «عوف» بالفاء.
ينظر البيت في الكتاب ١/١٧١، خزانة الأدب ٧/٢١٥، همع الهوامع ٢/١٤٥، الدرر ٢/٢٠٤، المقتضب ٤/١٥١، الدر المصون ٣/١٣٤.

(٢) قوله «باتباع السحرة» لعله: اتباع، كعبارة النسفي. (ع)

(٣) قوله «وقرىء نعم بالكسر» أي كسر العين، كما في الصحاح. (ع)

ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون» (١٠٧٥) ولقد استحدث الناس في هذا الباب في إسلامهم جاهلية نسيت، لها الجاهلية الأولى، وذلك أنّ الواحد منهم لو أقسم بأسماء الله كلها وصفاته على شيء: لم يقبل منه، ولم يعتدّ بها حتى يقسم برأس سلطانه، فإذا أقسم به فتلك عندهم جهد اليمين التي ليس وراءها حلف لحالف.

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (٤٦) قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨)﴾

﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم وكيدهم، ويزوّرونه فيخيلون في حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى، بالتمويه على الناظرين أو إفكهم: سمى تلك الأشياء إفكاً مبالغة. روي أنهم قالوا: إن يك ما جاء به موسى سحراً فلن يغلب، وإن كان من عند الله فلن يخفى علينا، فلما قذف عصاه فتلقفت ما أتوا به، علموا أنه من الله فآمنوا.

١٠٧٥ ـ أخرجه أبو داود (٣/ ٢٢٢) كتاب الأيمان والنذور: باب في كراهية الحلف بالآباء حديث (٣٢٤٨)، والنسائي (٧/ ٥)، كتاب الأيمان والنذور: باب الحلف بالأمهات كلاهما من طريق عبيد الله بن معاذ قال: ثنا أبي قال: ثنا عوف عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة مرفوعا بلفظ: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد، ولا تحلفوا إلا بالله، ولا تحلفوا إلا وأنتم صادقون».
وأخرجه النسائي (٧/ ٧) كتاب الأيمان والنذور باب الحلف بالطواغيت من طريق الحسن عن عبد الرحمن بن سمرة مرفوعاً: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بالطواغيت» وللحديث شاهد من حديث ابن عمر.
أخرجه مالك (٢/ ٤٨٠) كتاب النذور والأيمان / باب جامع الأيمان (١٤) والبخاري ١١/ ٥٣٨ كتاب الأيمان والنذور / باب لا تحلفوا بآبائكم (٦٦٤٦) ومسلم (٢/ ١٢٦٧) كتاب الأيمان / باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى (١٦٤٦/ ٣) والترمذي (١٥٣٤) والدارمي (٢/ ١٨٥) وابن حبان ١٠/ ٢٠١ ـ ٢٠٤ كتاب الأيمان حديث (٤٣٥٩ ـ ٤٣٦٠ ـ ٤٣٦١)، والبيهقي (١٠/ ٢٨) كتاب الأيمان / باب كراهية الحلف بغير الله عز وجل وأحمد في المسند ٢/ ١١ ـ ١٧ ـ ١٤٢، والحميدي (٢/ ٣٠١ / ٦٨٦) وأبو نعيم في الحلية (٩/ ١٦٠) من طرق عن نافع عن ابن عمر: «أن رسول الله ـ ﷺ ـ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب وهو يحلف بأبيه فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت».
وأخرجه البخاري ١١/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩ كتاب الأيمان والنذور / باب لا تحلفوا بآبائكم (٦٦٤٧) ومسلم (٢/ ١٢٦٦) كتاب الأيمان / باب النهي عن الحلف بغير الله (١٦٤٦) وأبو داود (٢/ ٢٤٢) كتاب الأيمان / باب في كراهية الحلف بالآباء (٣٢٥٠).
قال الحافظ: أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة دون قوله: «ولا تحلفوا إلا بالله» وقال: «بالأنداد» بدل: «الطواغيت»، وله من حديث عبد الرحمن بن سمرة: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بالطواغيت»، مختصر وفي الصحيحين عن ابن عمر رفعه: «من كان حالفا فلا يحلف إلا بالله». انتهى.

وعن عكرمة ـ رضي الله عنه ـ: أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء، وإنما عبر عن الخرور بالإلقاء، لأنه ذكر مع الإلقاءات، فسلك به طريق المشاكلة. وفيه أيضاً مع مراعاة المشاكلة أنهم حين رأوا ما رأوا، لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين، كأنهم أخذوا فطرحوا طرحاً. فإن قلت: فاعل الإلقاء ما هو لو صرح به؟ قلت: هو الله عزّ وجل بما خوّلهم من التوفيق. أو إيمانهم. أو ما عاينوا من المعجزات الباهرة، ولك أن لا تقدّر فاعلاً؛ لأنّ (ألقوا) بمعنى خرّوا وسقطوا ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ عطف بيان لرب العالمين، لأنّ فرعون لعنة الله عليه كان يدعي الربوبية، فأرادوا أن يعزلوه. ومعنى إضافته إليهما في ذلك المقام: أنه الذي يدعو إليه هذان، والذي أجرى على أيديهما ما أجرى.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ﴾ أي وبال ما فعلتم.

﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾

الضر والضير والضور: واحد، أرادوا: لا ضرر علينا في ذلك، بل لنا فيه أعظم النفع لما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله، من تكفير الخطايا والثواب العظيم، مع الأعواض الكثيرة. أو لا ضير علينا فيما تتوعدنا به من القتل أنه لا بد لنا من الانقلاب إلى ربنا بسبب من أسباب الموت. والقتل أهون أسبابه وأرجاها. أو لا ضير علينا في قتلك، إنك إن قتلتنا انقلبنا إلى ربنا انقلاب من يطمع في مغفرته ويرجو رحمته، لما رزقنا من السبق إلى الإيمان وخبر ﴿لَا﴾ محذوف. والمعنى: لا ضير في ذلك، أو علينا ﴿أَن كُنَّآ﴾ معناه: لأن كنا، وكانوا أوّل جماعة مؤمنين من أهل زمانهم، أو من رعية فرعون، أو من أهل المشهد. وقرئ: إن كنا، بالكسر وهو من الشرط الذي يجيء به المدلّ بأمره[1]، المتحقق لصحته، وهم كانوا متحققين أنهم أوّل المؤمنين. ونظيره قول العامل لمن يؤخر جعله: إن كنت عملت لك فوفني حقي ومنه قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ﴾ [الممتحنة: ١] مع علمه أنهم لم يخرجوا إلا لذلك.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

---

(١) قوله «المدل بأمره» أي الواثق به. أفاده الصحاح. (ع)

قرئ: أسر، بقطع الهمزة ووصلها. وسر ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ علل الأمر بالإسراء باتباع فرعون وجنوده آثارهم. والمعنى: أني بنيت تدبير أمركم وأمرهم على أن تتقدّموا ويتبعوكم، حتى يدخلوا مدخلكم، ويسلكوا مسلككم من طريق البحر، فأطبقه عليهم فأهلكهم. وروي: أنه مات في تلك الليلة في كل بيت من بيوتهم ولد، فاشتغلوا بموتاهم حتى خرج موسى بقومه. وروي: أنّ الله أوحى إلى موسى: أن اجمع بني إسرائيل، كل أربعة أبيات في بيت، ثم اذبحوا الجداء[١] واضربوا بدمائها على أبوابكم، فإني سآمر الملائكة أن لا يدخلوا بيتاً على بابه دم، وسآمرهم بقتل أبكار القبط، واخبزوا خبزا فطيراً[٢] فإنه أسرع لكم، ثم أسر بعبادي حتى تنتهي إلى البحر فيأتيك أمري، فأرسل فرعون في أثره ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسوّر، مع كل ملك ألف، وخرج فرعون في جمع عظيم، وكانت مقدّمته سبعمائة ألف: كل رجل على حصان وعلى رأسه بيضة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: خرج فرعون في ألف ألف حصان سوى الإناث ٢/٥٨إ فلذلك استقل قوم موسى عليه السلام وكانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً، وسماهم شرذمة قليلين ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ محكى بعد قول مضمر. والشرذمة: الطائفة القليلة. ومنها قولهم: ثوب شراذم، للذي بلى وتقطع قطعاً، ذكرهم بالاسم الدال على القلة، ثم جعلهم قليلاً بالوصف، ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلاً، واختار جمع السلامة الذي هو للقلة[٣]، وقد يجمع القليل على أقلة وقلل[٤]. ويجوز أن يريد بالقلة: الذلة والقماءة، ولا يريد قلة العدد. والمعنى: أنهم لقلتهم لا يبالي بهم ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم، ولكنهم يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق صدورنا، ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر

---

(١) قوله «ثم اذبحوا الجداء» في الصحاح «الجدي» من ولد المعز. وثلاثة أجد. فإذا كثرت فهي الجداء. (ع)

(٢) قوله «واخبزوا خبزاً فطيراً» في الصحاح «الفطير»: خلاف الخمير، وكل شيء أعجلته عن إدراكه فهو فطير. (ع)

(٣) قال محمود: «وقللهم من أربعة أوجه: عبر عنهم بالشرذمة وهي تفيد القلة، ثم وصفهم بالقلة، وجمع وصفهم ليعلم أن كل ضرب منهم قليل، واختار جمع السلامة ليفيد القلة» قال أحمد: ووجه آخر في تقليلهم يكون خامساً: وهو أن جمع الصفة والموصوف منفرد، قد يكون مبالغة لصوق ذلك الوصف بالموصوف وتناهيه فيه بالنسبة إلى غيره من الموصوفين به، كقولهم: معا زيد جياع، مبالغة في وصفه بالجوع، فكذلك ههنا جمع قليلاً، وكان الأصل إفراده فيقال: لشرذمة قليلة، كما أفرد في قوله (كم من فئة قليلة) ليدل بجمعه على تناهيهم في القلة، لكن يبقى النظر في أن هذا السر يبقي الوجوه المذكورة على ما هي عليه، أو يسقط منها شيئاً ويخلفه، فتأمله والله الموفق.

(٤) قوله «وقد يجمع القليل على أقلة وقلل» في الصحاح: مثل سرير وسرر. (ع)

واستعمال الحزم في الأمور، فإذا خرج علينا خارج، سارعنا إلى حسم فساده؛ وهذه معاذير، اعتذر بها إلى أهل المدائن؛ لئلا يظنّ به ما يكسر من قهره وسلطانه. وقرئ: حذرون وحاذرون وحادرون[1]، بالدال غير المعجمة. فالحذر: اليقظ، والحاذر: الذي يجدّد حذره. وقيل: المؤدي في السلاح، وإنما يفعل ذلك حذراً واحتياطاً لنفسه. والحادر: السمين القوي، قال [من الطويل]:

أُحِبُّ الصَّبِيَّ السُّوءَ مِنْ أَجْلِ أُمِّهِ ... وَأُبْغِضُهُ مِنْ بُغْضِهَا وَهْوَ حَادِرُ[2]

أراد أنهم أقوياء أشداء. وقيل مدججون في السلاح، قد كسبهم ذلك حدارة في أجسامهم.

﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾

وعن مجاهد: سماها كنوزاً لأنهم لم ينفقوا منها في طاعة الله. والمقام: المكان، يريد: المنازل الحسنة والمجالس البهية. وعن الضحاك: المنابر. وقيل السر في الحجال[3] ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه: النصب على أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفناه. والجر على أنه وصف لمقام، أي: مقام كريم مثل ذلك المقام الذي كان لهم. والرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي: الأمر كذلك. ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ فلحقوهم. وقرئ: فاتبعوهم ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ داخلين في وقت الشروق، من شرقت الشمس شروقاً إذا طلعت.

﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾

---

(١) قوله «وقرىء حذرون وحاذرون وحادرون» في الصحاح: وقرىء: وإنا لجميع حاذرون. وحذرون. وحذرون، أيضاً بضم الذال، حكاه الأخفش. ومعنى «حاذرون» متأهبون. وفيه: آد الرجل، أي قوى، من الأداة، فهو مؤد بالهمز، أي: شاك في السلاح. وفيه آديت للسفر فأنا مؤد له، إذا كنت متهيئاً له (ع)

(٢) الحادر: القوي الشديد، أو الشجاع الباسل، أي: إن مدار حب الولد على حب أمه، لا على حسن أوصافه وضمير «أبغضه» عائد على الصبي بدون وصفه، لكن هذه شيمة المنهمك في حب النساء. ينظر لسان العرب (حدر)، تاج العروس (حدر) تهذيب اللغة (٤/٤٠٨)، البحر المحيط (٧/١٨)، الدر المصون (٥/ ٢٧٤).

(٣) قوله «وقيل السر في الحجال» السر: الجماع، والحجال: جمع حجلة وهي بيت العروس يزين بالثياب والأسرة والستور، كذا في الصحاح. (ع)

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾

﴿سَيَهْدِينِ﴾ طريق النجاة من إدراكهم وإضرارهم. وقرئ، فلما تراءت الفئتان. إنا لمدّرِكون: بتشديد الدال وكسر الراء، من ادّرك الشيء إذا تتابع ففنى. ومنه قوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ [النمل: ٦٦]، قال الحسن: جهلوا علم الآخرة، وفي معناه بيت الحماسة [من الطويل]:

أَبَعْدَ بَنِي أُمِّي الَّذِينَ تَتَابَعُوا ... أُرَجِّي الْحَيَاةَ أَمْ مِنَ الْمَوْتِ أَجْزَعُ؟[1]

والمعنى: إنا لمتابعون في الهلاك على أيديهم، حتى لا يبقى منا أحد. الفرق: الجزء المتفرّق منه. وقرئ: كل فلق. والمعنى واحد. والطود: الجبل العظيم[2] المنطاد في السماء ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ﴾ حيث انفلق البحر ﴿الْآخَرِينَ﴾ قوم فرعون، أي: قربناهم من بني إسرائيل: أو أدنينا بعضهم من بعض، وجمعناهم حتى لا ينجو منهم أحد، أو قدمناهم إلى البحر، وقرئ: وأزلقنا بالقاف، أي: أزللنا أقدامهم، والمعنى: أذهبنا عزهم؛ كقوله [من الطويل]:

تَدَارَكْتُمَا عَبْساً وَقَدْ ثُلَّ عَرْشُهَا ... وَذُبْيَانَ إِذْ زَلَّتْ بِأَقْدَامِهَا النَّعْلُ[3]

---

(١) أبعد بني أمي الذين تتابعوا ... أرجي حياة أم من الموت أجزع؟
ثمانية كانوا ذؤابة قومهم ... بهم كنت أعطي ما أشاء وأمنع
أولئك إخوان الصفاء رزئتهم ... وما الكف إلا أصبع ثم أصبع
لأبي الحناك البراء ربعي الفقعسي، والهمزة للاستفهام الإنكاري، والمراد التحسر والتحزن، وتتابعوا أي انقرضوا واحداً بعد واحد. أرجي: أي ارتجى حياة أم أجزع من الموت، أي: لا أفعل ذلك بعدهم وقال: بني أمي، لأن المقام مقام رقة ورحمة، فهم ثمانية كانوا رؤساء قومهم، كالذؤابة للرأس، وهي شعرها الذي يتحرك حولها، فهو تشبيه بليغ، ثم قال: كنت بهم أفعل ما أريد من الإعطاء والمنع. ويجوز بناء الفعلين للمجهول، فالمعنى: كنت بهم أنال ما أشاء وأكفي شر ما أشاء، ورزأته أصبته في ماله. ورزأته ماله. ورزأتهم: مبني للمجهول، أي: نقصني الدهر إياهم وأخذهم مني، فلا قوة لي بعدهم، كما أن الكف إذا فقدت أصابعها بطلت قوتها؛ لأن بطشها ليس إلا بالأصابع منتظمة مرتبة، فهم لي كالأصابع للكف.
ينظر البحر المحيط (٧/ ٢٠)، الدر المصون (٥/ ٢٧٥).
(٢) قوله «والطود» الجبل العظيم المنطاد في السماء» في الصحاح «طود في الجبال»: مثل طوف وطوح. والمطاود مثال المطاوح. (ع)
(٣) لزهير يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف. وعبس وذبيان كلاهما اسم قبيلة. يقول: تداركتما هاتين القبيلتين بالصلح بينهما ودفع ديات قتلاهم، وقد ثل: أي هدم عرشها. وهذا تمثيل لذهاب عزهم وفناء دواتهم. وزلت النعل بالقدم: زلقت عن مقرها، وهذا أيضاً تمثيل لاختلال أمرهم =

ويحتمل أن يجعل الله طريقهم في البحر على خلاف ما جعله لبني إسرائيل يبساً فيزلقهم فيه. عن عطاء بن السائب أن جبريل عليه السلام كان بين بني إسرائيل وبين آل فرعون، فكان يقول لبني إسرائيل: ليلحق آخركم بأولكم. ويستقبل القبط فيقول: رويدكم يلحق آخركم. فلما انتهى موسى إلى البحر قال له مؤمن آل فرعون ـ وكان بين يدي موسى: أين أمرت فهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون؟ قال: أمرت بالبحر ولا يدري موسى ما يصنع، فأوحى الله تعالى إليه: أن اضرب بعصاك البحر. فضربه فصار فيه اثنا عشر طريقاً: لكل سبط طريق. وروي أنّ يوشع قال: يا كليم الله، أين أمرت فقد غشينا فرعون والبحر أمامنا؟ قال موسى: ههنا. فخاض يوشع الماء وضرب موسى بعصاه البحر فدخلوا. وروي أنّ موسى قال عند ذلك: يا من كان قبل كل شيء، والمكوّن لكل شيء. والكائن بعد كل شيء. ويقال: هذا البحر هو بحر القلزم. وقيل: هو بحر من وراء مصر، يقال له: أساف ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أية آية، وآية لا توصف، وقد عاينها الناس وشاع أمرها فيهم، وما تنبه عليها أكثرهم، ولا آمن بالله. وبنو إسرائيل: الذين كانوا أصحاب موسى المخصوصين بالإنجاء قد سألوه بقرة يعبدونها، واتخذوا العجل، وطلبوا رؤية الله جهرة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ المنتقم من أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأوليائه.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾

كان إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام / ٢/ ٥٨ب؛ ولكنه سألهم ليريهم أنّ ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء، كما تقول للتاجر: ما مالك؟ وأنت تعلم أنّ ماله الرقيق، ثم تقول له: الرقيق جمال وليس بمال. فإن قلت: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ سؤال عن المعبود فحسب، فكان القياس أن يقولوا: أصناما، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ [سبأ: ٢٣]، ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ [النحل: ٣٠]. قلت: هؤلاء قد جاؤوا بقصة أمرهم كاملة كالمبتهجين بها والمفتخرين، فاشتملت على جواب إبراهيم، وعلى ما قصدوه من إظهار ما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار. ألا تراهم كيف عطفوا على قولهم تعبد ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ ولم يقتصروا على

= وفساد رأيهم. وفي البيت شبه الطباق، حيث إن الأولى أتاها العذاب من فوق رأسها. والثانية: أتاها من تحت أرجلها.

ينظر: ديوانه ص ١٠٩، ولسان العرب (عرش)، (حلف)، (ثلل)، وجمهرة اللغة ص ٨٤، وكتاب العين ١/ ٢٤٩، ومقاييس اللغة ١/ ٣٦٩، ٤/ ٢٦٥، وأساس البلاغة (عرش)، والمخصص ٦/ ٨، وتاج العروس (عرش)، (حلف)، (ثلل)، وديوان الأدب ١/ ١١٤.

زيادة نعبد وحده. ومثاله أن تقول لبعض الشطار: ما تلبس في بلادك؟ فيقول: ألبس البرد الأتحمي[1]، فأجرّ ذيله بين جواري الحي. وإنما قالوا: نظل، لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾

لا بد في ﴿يَسْمَعُونَكُمْ﴾ من تقدير حذف المضاف، معناه: هل يسمعون دعاءكم. وقرأ قتادة: يسمعونكم، أي: هل يسمعونكم الجواب عن دعائكم؟ وهل يقدرون على ذلك؟ وجاء مضارعاً مع إيقاعه في إذ على حكاية الحال الماضية. ومعناه: استحضروا الأحوال الماضية التي كنتم تدعونها فيها، وقولوا هل سمعوا أو أسمعوا قط. وهذا أبلغ في التبكيت.

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾

ما أجابوه بجواب المقلدين لآبائهم قال لهم: رقوا أمر تقليدكم هذا إلى أقصى غاياته وهي عبادة الأقدمين الأوّلين من آبائكم، فإن التقدّم والأوّلية لا يكون برهانا على الصحة، والباطل لا ينقلب حقاً بالقدم، وما عبادة من عبد هذه الأصنام إلا عبادة أعداء له، ومعنى العداوة قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨٢] ولأنّ المغري على عبادتها أعدى أعداء الإنسان وهو الشيطان، وإنما قال: ﴿عَدُوٌّ لِّي﴾تصويراً للمسألة في نفسه، على معنى: أني فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة للعدوّ، فاجتنبتها وآثرت عبادة من الخير كله منه، وأراهم بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسه أوّلاً وبنى عليها تدبير أمره، لينظروا فيقولوا: ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه، وما أراد لنا إلا ما أراد لروحه، ليكون أدعى لهم إلى القبول، وأبعث على الاستماع منه. ولو قال: فإنه عدوّ لكم لم يكن بتلك المثابة، ولأنه دخل في باب من التعريض، وقد يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه التصريح؛ لأنه يتأمّل فيه، فربما قاده التأمّل إلى التقبل. ومنه ما يحكى عن الشافعيّ ـ رضي الله تعالى عنه ـ أنّ رجلا واجهه بشيء فقال: لو كنت بحيث أنت، لاحتجت إلى أدب، وسمع رجل ناساً يتحدثون في الحجر فقال: ما هو ببيتي ولا بيتكم.

---

(١) قوله «البرد الأتحمي» في الصحاح «الأتحمي»: ضرب من البرود. (ع)

والعدوّ والصديق: يجيئان في معنى الوحدة والجماعة، قال [من المتقارب]:

وَقَــوْمٍ عَــلَــيَّ ذَوِي مِــرَّةٍ أَرَاهُــمْ عَــدُوًّا وَكَــانُــوا صَــدِيــقَــا[1]

ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ شبها بالمصادر للموازنة، كالقبول والولوع، والحنين والصهيل ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استثناء منقطع، كأنه قال: ولكن رب العالمين ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ يريد أنه حين أتمّ خلقه ونفخ فيه الروح، عقب ذلك هدايته المتصلة التي لا تنقطع إلى كلّ ما يصلحه ويعنيه، وإلا فمن هداه إلى أن يغتذي بالدم في البطن امتصاصا، ومن هداه إلى معرفة الثدي عند الولادة، وإلى معرفة مكانه، ومن هداه لكيفية الارتضاع، إلى غير ذلك من هدايات المعاش والمعاد، وإنما قال: ﴿مَرِضْتُ﴾ دون «أمرضني» لأنّ كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه[2] وغير ذلك. ومن ثم قالت الحكماء: لو قيل لأكثر الموتى: ما سبب آجالكم؟ لقالوا التخم. وقرئ: خطاياي، والمراد: ما يندر منه من بعض الصغائر؛ لأنّ الأنبياء معصومون مختارون على العالمين. وقيل: هي قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ وقوله لسارة: هي أختي. وما هي إلا معاريض كلام، وتخييلات للكفرة، وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار. فإن قلت: إذا لم يندر منهم إلا الصغائر وهي تقع مكفرة، فما له أثبت لنفسه خطيئة أو خطايا

(١) المرة: القوة، وشدة الجدال. ويروى: ذوي مبرة، أي: عداوة أو فخر أو شدة. والعدو والصديق يجيئان للمذكر والمؤنث والمثنى والجمع. يقول: ورب قوم أصحاب قوة علي، أراهم اليوم أعداء وكانوا أصدقاء.

(٢) قال محمود: «إنما أضاف المرض إلى نفسه لأن كثيراً منه بتفريط الإنسان في مطعمه ومشربه» قال أحمد: والذي ذكره غير الزمخشري أن السر في إضافة المرض إلى نفسه التأدب مع الله تعالى بتخصيصه بنسبة الشفاء الذي هو نعمة ظاهرة إليه تعالى، ولعل الزمخشري إنما عدل عن هذا لأن إبراهيم عليه السلام قد أضاف الإماتة إلى الله تعالى وهي أشد من المرض، فلم يثبت عنده المعنى المذكور، ولكن المعنى الذي أبداه الزمخشري أيضاً في المرض ينكسر بالموت، فإن المرض كما يكون بسبب تفريط الإنسان في نفسه. كذلك الموت الناشىء عن سبب هذا المرض الذي يكون بتفريط الإنسان وقد أضافه إلى الله تعالى. ويمكن أن يفرق بين نسبة الموت ونسبة المرض في مقتضى الأدب: بأن الموت قد علم واشتهر أنه قضاء محتوم من الله تعالى على سائر البشر، وحكم عام لا يخص، ولا كذلك المرض. فكم من معافى منه قد بغته الموت، فالتأسي بعموم الموت لعله يسقط أثر كونه بلاء فيسوغ في الأدب نسبته إلى الله تعالى. وأما المرض فلما كان مما يخص به بعض البشر دون بعض، كان بلاء محققاً فاقتضى العلو في الأدب مع الله تعالى أن ينسبه الإنسان إلى نفسه باعتبار ذلك السبب الذي لا يخلو منه، ويؤيد ذلك أن كل ما ذكره مع المرض أخبر عن وقوعه بتاً وجزماً؛ لأنه أمر لا بد منه. وأما المرض فلما كان قد يتفق وقد لا، أورده مقروناً بشرط إذا، فقال (وإذا مرضت) وكان ممكناً أن يقول: والذي يمرضني فيشفيني كما قال في غيره، فما عدل عن المطابقة المجانسة المأثورة إلا لذلك، والله أعلم.

وطمع أن تغفر له؟ قلت: الجواب ما سبق لي: أن استغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم، وهضم لأنفسهم، ويدل عليه قوله: ﴿أَطْمَعُ﴾ ولم يجزم القول بالمغفرة. وفيه تعليم لأممهم، وليكون لطفاً لهم في اجتناب المعاصي والحذر منها، وطلب المغفرة مما يفرط منهم. فإن قلت: لم علق مغفرة الخطيئة بيوم الدين، وإنما تغفر في الدنيا؟ قلت: لأنّ أثرها يتبين يومئذٍ، وهو الآن خفي لا يعلم /٢/ ١٥٩أ.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾

الحكم: الحكمة، أو الحكم بين الناس بالحق. وقيل: النبوّة؛ لأنّ النبي ذو حكمة وذو حكم بين عباد الله. والإلحاق بالصالحين: أن يوفقه لعمل ينتظم به في جملتهم، أو يجمع بينه وبينهم في الجنة. ولقد أجابه حيث قال: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾. والإخزاء: من الخزي وهو الهوان. ومن الخزاية[1] وهي الحياء. وهذا أيضاً من نحو استغفارهم مما علموا أنه مغفور وفي ﴿يُبْعَثُونَ﴾ ضمير العباد؛ لأنه معلوم. أو ضمير الضالين. وأن يجعل من جملة الاستغفار لأبيه[2]، يعني: ولا تخزني يوم يبعث الضالون وأبي فيهم ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ﴾ إلا حال من أتى الله ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ وهو من قولهم [من الوافر]:

. . . . تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ[3]

وما ثوابه إلا السيف. وبيانه أن يقال لك: هل لزيد مال وبنون؟ فتقول: ماله وبنوه: سلامة قلبه، تريد نفي المال والبنين عنه، وإثبات سلامة القلب له بدلاً عن ذلك. وإن شئت حملت الكلام على المعنى وجعلت المال والبنين في معنى الغنى، كأنه قيل: يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم؛ لأن غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه، كما أن غناه في دنياه بماله وبنيه. ولك أن تجعل الاستثناء منقطعا، ولا بدّ لك مع ذلك من تقدير المضاف وهو الحال، والمراد بها سلامة القلب، وليست هي من جنس المال والبنين، حتى يؤوّل المعنى إلى أن المال والبنين لا ينفعان، وإنما ينفع سلامة القلب. ولو لم يقدر المضاف، لم يتحصل للاستثناء معنى. وقد جعل (من) مفعولا لينفع، أي: لا ينفع مال

---

(١) قوله «ومن الخزاية» لعله: أو من. (ع)

(٢) قوله «أو ضمير الضالين، وأن يجعل من جملة الاستغفار لأبيه» لعله عطف على المعنى، كأنه قال: ويحتمل أنه ضمير الضالين... إلخ. (ع)

(٣) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول عند تفسير آية ١٠ من سورة البقرة فراجعه إن شئت اهـ.

ولا بنون، إلا رجلاً سلم قلبه مع ماله حيث أنفقه في طاعة الله، ومع بنيه حيث أرشدهم إلى الدين وعلمهم الشرائع. ويجوز على هذا ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ من فتنة المال والبنين. ومعنى سلامة القلب: سلامته من آفات الكفر والمعاصي، ومما أكرم الله تعالى به خليله ونبه على جلالة محل في الإخلاص: أن حكى استثناء هذا حكاية راض بإصابته فيه. ثم جعله صفة له في قوله: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤]، ومن بدع التفاسير: تفسير بعضهم السليم باللديغ من خشية الله. وقول آخر: هو الذي سلم وسلم وأسلم وسالم واستسلم. وما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين، حين سألهم أوّلاً عما يعبدون سؤال مقرّر لا مستفهم، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع على تقليدهم آباءهم الأقدمين، فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلاً أن يكون حجة، ثم صوّر المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله عز وعلا، فعظم شأنه وعدّد نعمته، من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته، مع ما يرجى في الآخرة من رحمته، ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين، وابتهل إليه ابتهال الأوّابين، ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه وما يدفع إليه المشركون يومئذٍ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمنى الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾

الجنة تكون قريبة من موقف السعداء ينظرون إليها ويغتبطون بأنهم المحشورون إليها، والنار تكون بارزة مكشوفة للأشقياء بمرأى منهم، يتحسرون على أنهم المسوقون إليها: قال الله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ [ق: ٣١] وقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الملك: ٢٧]: يجمع عليهم الغموم كلها والحسرات، فتجعل النار بمرأى منهم، فيهلكون غماً في كل لحظة، ويوبخون على إشراكهم، فيقال لهم: أين آلهتكم؟ هل ينفعونكم بنصرتهم لكم. أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم؛ لأنهم وآلهتهم وقود النار، وهو قوله: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ﴾ أي الآلهة ﴿وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم. والكبكبة: تكرير الكب، جعل التكرير في اللفظ دليلا على التكرير في المعنى، كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقرّ في قعرها، اللهم أجرنا منها يا خير مستجار ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ شياطينه، أو متبعوه من عصاة الجن والإنس.

﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

يجوز أن ينطق الله الأصنام حتى يصح التقاول والتخاصم. ويجوز أن يجري ذلك بين العصاة والشياطين. والمراد بالمجرمين الذين أضلوهم: رؤساؤهم وكبراؤهم، كقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧] وعن السدّي: الأوّلون الذين اقتدينا بهم. وعن ابن جريج: إبليس، وابن آدم القاتل، لأنه أوّل من سنّ القتل وأنواع المعاصي، ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين ﴿وَلَا صَدِيقٍ﴾ كما نرى لهم أصدقاء، لأنه لا يتصادق في الآخرة /٢/٥٩ب إلا المؤمنون. وأما أهل النار فبينهم التعادي والتباغض، قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧] أو: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء؛ لأنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله، وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس. أو أرادوا أنهم وقعوا في مهلكة علموا أنّ الشفعاء والأصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم، فقصدوا بنفيهم نفي ما يتعلق بهم من النفع؛ لأنّ ما لا ينفع: حكمه حكم المعدوم. والحميم من الاحتمام، وهو الاهتمام، وهو الذي يهمه ما يهمك. أو من الحامة بمعنى الخاصة، وهو الصديق الخاص. فإن قلت: لم جمع الشافع ووحد الصديق؟ قلت: لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق[1] ألا ترى أن الرجل

---

(١) قال محمود: «إنما جمع الشافع ووحد الصديق لكثرة الضعاء في العادة إذا نزل بإنسان خطب ممن يعرفه وممن لا يعرفه وأما الصديق فقليل» قال أحمد: العجب أن الصديق يقع على الواحد وعلى الجمع، فما الدليل على إرادة الإفراد؟ ثم لو كان المراد الإفراد لكان أعم؛ لأنه في سياق النفي، فينفي الواحد فما زاد عليه إلى ما لانهاية له، والله أعلم.
في قوله سبحانه: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.
ترى الجمع في قوله: شافعين، والإفراد في قوله «صديق» فكيف ورد هذا؟ ويجيب المفسر العلامة في عرض هذه الآية:
ولكن الأمر في حاجة إلى نظر حول «الجمع والإفراد» في نظم القرآن الكريم، فأقول:
إن جمع الكلمة جمع قلة أو كثرة أو إفرادها أو استعمال الجمع في موضع المفرد أو عكسه في سياق واحد أو سياقات كل ذلك له مدلوله وسره الذي جاء النظر عليه ليشير إليه، ولا يكمل المعنى إلا به، ولا يدرك هذه اللمحات إلا صاحب الحس البصير، وبالنظر في القرآن العظيم نلاحظ:
١ ـ أن الإفراد يفيد التفصيل والتقصي كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]. =

إذا امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته، رحمة له وحسبة، وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة. وأما الصديق ـ وهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما أهمك ـ فأعز من بيض الأنوق[1]. وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال: اسم لا معنى له. ويجوز أن يريد بالصديق: الجمع. الكرّة: الرجعة إلى الدنيا. ولو في مثل هذا

= ٢ ـ ويأتي الإفراد والجمع في الآيات الواردة في سياق واحد ولكل دلالة كما ورد في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾، ثم يأتي في نهاية هذا المقام فيقول عن الصلاة مرة أخرى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ [المؤمنون: الآيات ١: ٩]. فقد أفردت الصلاة لإفادة معنى الخشوع، وجمعت لإدراك معنى المحافظة على أعدادها وسننها.

٣ ـ ويأتي الجمع والإفراد ـ أيضاً ـ في المقام الواحد للدلالة على أخلاق الناس وأحوالهم كما ورد في قوله جل جلاله: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۝١٠٠﴾ ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾ القراءة وهي الآية التي معنا مصدراً بها هذا البحث فقد جمع الشفعاء في هذا الموقف لكثرتهم عادة، وأفرد الصديق لأنه لا يوجد إلا عزيزاً نادراً كما بين العلامة المفسر، ولابن المنير كلام فيه مناقشة.

٤ ـ وتأتي صيغة الجمع لتفيد معنى أخلاقياً نراه جلياً عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الحجرات: ٤].

فجمع «الحجرات» فيه للإشارة الخفية أنهم أتوا إليه وهو في موضع خلوته، ولهذا كانوا سفهاء في مناداته، وفي هذا إشعار بمحل رسول الله ﷺ وإجلاله، وقد وفى الزمخشري وتبعه أبو السعود الآية في هذا المقام.

٥ ـ وقد تفيد صيغة الجمع «الإجلال» لأنها موضع الواحد، كما في ضمير الجمع للواحد المعظم نفسه عند النحاة، وهذا ما تراه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ۝٧٥﴾ [الصافات: ٧٥].

٦ ـ وقد يأتي في جمع القلة مكان جمع الكثرة وبالعكس لإفادة معنى، وهذا ما وجده المفسر العلامة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

فقد وضع «أذلة» مكان «أذلاء» لإفادة أنهم قلة كما بين المفسر.

وقد وقف العلامة الزمخشري عند قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقال إن جمع «قروء» للكثرة في موضع «أقرء» جمع القلة المناسب لثلاثة من باب الاتساع وهو: التسوية في أداء المعنى المفهوم، وهذا الفهم عليه مناقشة من أستاذنا أبي موسى حيث بين أن القرآن لا يصح فيه القول بالاتساع لأن لكل كلمة معنى يقصد في مكانه ولا يجوز غيرها لأنها لا تحل محلها، وناقش المعنى مفيداً أن جمع الكثرة لإفادة وجوب الاحتياط في أداء العدة كاملة بحيث لا تتعجل ولا تطمح إلى الأزواج قبل تمامها.

واختيار كلمة «الأنفس» جمع قلة لإفادة التقليل والتهوين لتتجاوب هذه الخصوصية مع هذا السياق.

وفي نهاية هذا المبحث أقول: إن كلام الله ـ جلت حكمته ـ منظوم نظماً إلهياً وضعت فيه الكلمات بهيئتها وصورتها مع جاراتها لإفادة معنى يقصده المولى الكريم لعباده المؤمنين، ولا تصلح لفظة مكان سواها في كتاب الله، وإلا صح للبشر أن يعدلوا في كلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. «وبالله التوفيق».

«ينظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري لأبي موسى ٢٧٤ ـ ٢٧٩».

(١) قوله «فأعز من بيض الأنوق» في الصحاح: الأنوق ـ على فعول: طائر وهو الرخمة. (ع)

الموضع في معنى التمني، كأنه قيل: فليت لنا كرة. وذلك لما بين معنى «لو» و«ليت» من التلاقي في التقدير. ويجوز أن تكون على أصلها ويحذف الجواب، وهو: لفعلنا كيت وكيت.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾

القوم: مؤنثة، وتصغيرها قويمة. ونظير قوله: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ والمراد نوح عليه السلام: قولك: فلان يركب الدواب ويلبس البرود، وما له إلا دابة وبرد[1]. قيل: أخوهم؛ لأنه كان منهم، من قول العرب: يا أخا بني تميم، يريدون: يا واحداً منهم، ومنه بيت الحماسة [من البسيط]:

لاَ يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ   فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا[2]

كان أميناً فيهم مشهوراً بالأمانة، كمحمد ﷺ في قريش ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في نصحي لكم وفيما أدعوكم إليه من الحق ﴿عَلَيْهِ﴾ على هذا الأمر، وعلى ما أنا فيه، يعني: دعاءه ونصحه ومعنى ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾: فاتقوا الله في طاعتي، وكرره ليؤكده عليهم

---

(١) قال محمود: «المراد نوح، كما تقول: فلان يركب الدواب ويلبس البرود، وما له إلا دابة وبرد» قال أحمد: لا حاجة إلى تأويل الجمع بالواحد ههنا مع القطع بأن من كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل لأنه ما من نبي إلا ومستند صدقه المعجزة الدالة على الصدق فقد كذبوا كل من استند صدقه إلى دليل المعجزة، وكذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ لأن التفرقة بينهم توجب تكذيب الكل وتصديق واحد يوجب تصديق الكل والله علم.

(٢) قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم   طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم   في النائبات على ما قال برهانا

لقريط بن أنيق من قبيلة بلعنبر، أغار عليه ناس من بني شيبان فأخذوا منه ثلاثين بعيراً، فاستنجد قومه فلم ينجدوه، فاستغاث ببني مازن فركبوا معه، وأطردوا له مائة بعير من بني شيبان، وحرسوه إلى قومه، فمدحهم ووبخ قومه. والناجذ: السن بين الضرس والناب. وقيل: ضرس العقل. وقيل: الضرس مطلقاً. والزرافة - بالفتح والضم -: الجماعة من الناس، وبها سميت الدابة المعروفة، والوحدان - بالضم -: جمع واحد. وشبه الشر بأسد يكشر عن أنيابه على طريق المكنية فأثبت له الناجذين تخييلا. يقول: بنو مازن شجعان: إذا ظهر الشر واشتد فزعوا إليه جماعات ومنفردين، فاستعار الطيران لذلك على طريق التصريحية. أو شبههم بالطيور في السرعة والانتشار على طريق الكناية والطريق تخييل، لا يسألون صاحبهم دليلا على ما قاله حين يناديهم برفع صوته في الملمات.

ينظر ديوان الحماسة (١/ ١٣)، البحر المحيط (٨/ ٢٣٩)، الدر المصون (٦/ ٢٩١).

ويقرّره في نفوسهم، مع تعليق كل واحدة منهما بعلة، جعل علة الأوّل كونه أميناً فيما بينهم، وفي الثاني حسم طمعه عنهم.

﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾

وقرئ: وأتباعك، جمع تابع، كشاهد وأشهاد. أو جمع تبع، كبطل وأبطال. والواو للحال. وحقها أن يضمر بعدها «قد» في: واتبعك. وقد جمع الأرذل على الصحة وعلى التكسير في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧] والرذالة والنذالة: الخسة والدناءة. وإنما استرذلوهم لا تضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا. وقيل كانوا من أهل الصناعات الدنية[١] كالحياكة والحجامة. والصناعة لا تزري بالديانة، وهكذا كانت قريش تقول في أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ، وما زالت أتباع الأنبياء كذلك، حتى صارت من سماتهم وأماراتهم. ألا ترى إلى هرقل حين سأل أبا سفيان عن أتباع رسول الله ـ ﷺ ـ، فلما قال ضعفاء الناس وأراذلهم قال: ما زالت أتباع الأنبياء كذلك (١٠٧٦). وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هم الغاغة[٢]. وعن عكرمة: الحاكة والأساكفة (١٠٧٧). وعن مقاتل: السفلة (١٠٧٨).

١٠٧٦ ـ أخرجه البخاري (١/ ٤٦ ـ ٤٨) كتاب بدء الوحي حديث (٦)، وأطرافه في ٥١، ٢٦٨١، ٢٨٠٤، ٢٩٤١، ٢٩٧٨، ٣١٧٤، ٤٥٥٣، ٥٩٨٠، ٦٢٦٠، ٧١٩٦، ٧٥٤١.
وأخرجه أيضاً مسلم (٣/ ١٣٩٣ ـ ١٣٩٧) كتاب الجهاد: باب كتاب النبي ـ ﷺ ـ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام حديث (٧٤/ ١٧٧٣)، والترمذي (٥/ ٦٩) كتاب الاستئذان: باب ما جاء كيف يكتب لأهل الشرك حديث (٢٧١٧) مختصراً، وأحمد (١/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣)، وعبد الرزاق (٩٧٢٤)، وابن حبان (٦٥٥٥)، وابن منده في «الإيمان» (١٤٣)، واللالكائي في «أصول الاعتقاد» (١٤٥٧)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ٣٧٧ ـ ٣٨٣) كلهم من طريق الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس به.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
قال الحافظ: متفق عليه من حديث ابن عباس عن أبي سفيان بلفظ: وسألتك ضعفاء الناس اتبعوه أم أشرافهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم، وكذلك أتباع الرسل قلت: رواه بلفظ: «أراذلهم». انتهى.
١٠٧٧ ـ ورُوى هذا أيضاً عن قتادة ومجاهد.
أخرجه ابن أبي حاتم عنهما كما في «الدر المنثور» (٥/ ١٦٨). وينظر تفسير «الوسيط» (٣/ ٣٥٧ ـ بتحقيقنا).
١٠٧٨ ـ ورُوي أيضاً عن قتادة.
أخرجه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥/ ١٦٨).

---

(١) قوله «الصناعات الدنية» لعله: الدنيئة. كعبارة النسفي. (ع)
(٢) قوله «هم الغاغة» لعله الصاغة. وفي الخازن: قال ابن عباس: يعني القافة. (ع)

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾

﴿وَمَا عِلْمِي﴾ وأي شيء علمي؟ والمراد: انتفاء علمه بإخلاص أعمالهم لله واطلاعه على سر أمرهم وباطنه. وإنما قال هذا لأنهم قد طعنوا ـ مع استرذالهم ـ في إيمانهم، وأنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة، وإنما آمنوا هوى وبديهة، كما حكى الله عنهم في قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ ويجوز أن يتغابى لهم نوح عليه السلام. فيفسر قولهم الأرذلين، بما هو الرذالة عنده، من سوء الأعمال وفساد العقائد، ولا يلتفت إلى ما هو الرذالة عندهم، ثم يبني جوابه على ذلك فيقول: ما عليّ إلا اعتبار الظواهر، دون التفتيش عن أسرارهم والشق عن قلوبهم، وإن كان لهم عمل سيء، فالله محاسبهم ومجازيهم عليه، وما أنا إلا منذر لا محاسب ولا مجاز ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ ذلك، ولكنكم تجهلون فتنساقون مع الجهل حيث سيركم، وقصد بذلك ردّ اعتقادهم وإنكار أن يسمى المؤمن رذلاً، وإن كان أفقر الناس وأوضعهم نسباً، فإن الغنى غنى الدين، والنسب نسب التقوى ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ يريد ليس من شأني أن أتبع شهواتكم وأطيب نفوسكم بطرد المؤمنين الذين صح إيمانهم طمعاً في إيمانكم وما عليّ إلا أن أنذركم إنذاراً بيناً بالبرهان الصحيح الذي يتميز به الحق من الباطل /٢/ ٦٠أ، ثم أنتم أعلم بشأنكم.

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

ليس هذا بإخبار بالتكذيب، لعلمه أن عالم الغيب والشهادة أعلم، ولكنه أراد أني لا أدعوك عليهم لما غاظوني وآذوني، وإنما أدعوك لأجلك ولأجل دينك، ولأنهم كذبوني في وحيك ورسالتك، فاحكم ﴿بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ﴾ والفتاحة: الحكومة. والفتاح: الحاكم؛ لأنه يفتح المستغلق كما سمي فيصلاً، لأنه يفصل بين الخصومات. الفلك: السفينة. وجمعه فلك: قال الله تعالى: ﴿وترى الفلك فيه مواخر﴾؛ فالواحد بوزن قفل، والجمع بوزن أسد، كسروا فعلاً على فعل، كما كسروا فعلاً على فعل، لأنهما أخوان في قولك: العرب والعرب، والرشد والرشد. فقالوا أسد وأسد، وفلك وفلك. ونظيره: بعير هجان، وإبل هجان. ودرع دلاص، ودروع دلاص، فالواحد بوزن كناز، والجمع بوزن كرام. والمشحون: المملوء. يقال: شحنها عليهم خيلاً ورجالاً.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾

قرئ: بكل ريع، بالكسر والفتح: وهو المكان المرتفع، قال المسيب بن عَلَسٍ [من الكامل]:

فِي الآلِ يَرْفَعُهَا وَيَخْفِضُهَا ... رِيعٌ يَلُوحُ كَأَنَّهُ سَحْلُ[1]

ومنه قولهم: كم ريع أرضك؟ وهو ارتفاعها. والآية: العلم وكانوا ممن يهتدون بالنجوم في أسفارهم. فاتخذوا في طرقهم أعلاماً طوالاً فبعثوا بذلك، لأنهم كانوا مستغنين عنها بالنجوم. وعن مجاهد: بنوا بكل ريع بروج الحمام[2]. والمصانع: مآخذ الماء. وقيل: القصور المشيدة والحصون ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ترجون الخلود في الدنيا، أو تشبه حالكم حال من يخلد. وفي حرف أبيّ: كأنكم. وقرئ تخلدون بضم التاء مخففاً ومشدداً ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ بسوط أو سيف كان ذلك ظلماً وعلواً، وقيل: الجبار الذي يقتل ويضرب على الغضب. وعن الحسن: تبادرون تعجيل العذاب، لا تتثبتون متفكرين في العواقب.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ

---

(١) للمسيب بن علس. والآل: هو السراب. وقيل: الآل: ما في طرفي النهار وما في وسطه السراب. والريع بالكسر: الطريق والمرتفع من الأرض. والسحل: نوع أبيض من ثياب اليمن، ولعل الضمير للظعائن.، أي: هي في الآل، أو في وقته: برفعها تارة وبخفضها أخرى، ريع: أي طريق مرتفع تارة، ومنخفض أخرى. أو مكان عال ترتفع بصعوده وتنخفض بالهبوط منه، يلوح: أي يظهر من بعد، كأنه ثياب بيض.
ينظر: ديوانه (ص ٦٢٥)، لسان العرب (ريع)، (سحل)، تاج العروس (ريع)، (سحل).

(٢) قال محمود: «كانوا يهتدون في أسفارهم بالنجوم، فاتخذوا في طرقهم أعلاماً فعبثوا بذلك، إذ النجوم فيها غنية عنها. وقيل: المراد القصور المشيدة، وقيل: بروج الحمام» قال أحمد: وتأويلها على القصور أظهر، وقد ورد ذم ذلك على لسان نبينا ﷺ، حيث وصف الكائنين آخر الزمان بأنهم يتطاولون في البنيان، وما أحسن قول مالك رضي الله عنه: ولا يصلي الإمام على شيء أرفع مما عليه أصحابه، كالدكاك تكون مرتفعة في المحراب ارتفاعاً كبيرا، لأنهم يعبثون، فعبر عن ترفعهم إلى المحراب على سبيل التكبر ومطاولتهم المأمومين بالعبث، كتعبير هود صلوات الله عليه وسلامه عن ترفع قومه في البنيان بالعبث. وأما تأويل الآية على اتخاذهم الأعلام في الطرقات وقد كانت لهم بالنجوم كفاية، ففيه بعد، من حيث أن الحاجة تدعو إلى ذلك لغيم مطبق وما يجري مجراه. ولو وضع هذا في زماننا اليوم لهذا المقصد لم يكن عبثا. والله أعلم.

﴿عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣٥﴾

بالغ في تنبيههم على نعم الله، حيث أجملها ثم فصلها مستشهداً بعلمهم، وذلك أنه أيقظهم عن سنة غفلتهم عنها حين قال[1] ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾ ثم عدّدها عليهم وعرّفهم المنعم بتعديد ما يعلمون من نعمته، وأنه كما قدر أن يتفضل عليكم بهذه النعمة، فهو قادر على الثواب والعقاب، فاتقوه. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]. فإن قلت: كيف قرن البنين بالأنعام؟ قلت: هم الذين يعينونهم على حفظها والقيام عليها.

﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٤٠﴾

فإن قلت: لو قيل ﴿أَوَعَظۡتَ﴾ أو لم تعظ، كان أخصر. والمعنى واحد. قلت: ليس المعنى بواحد وبينهما فرق، لأنّ المراد: سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ، أم لم تكن أصلاً من أهله ومباشريه، فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه، من قولك: أم لم تعظ. من قرأ: خلق الأوّلين بالفتح، فمعناه: أنّ ما جئت به اختلاق الأوّلين وتخرّصهم، كما قالوا: أساطير الأوّلين. أو ما خلقنا هذا إلا خلق القرون الخالية، نحيا كما حيوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا حساب. ومن قرأ: خلق، بضمتين، وبواحدة، فمعناه، ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين وعادتهم، كانوا يدينونه ويعتقدونه، ونحن بهم مقتدون. أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت الإعادة لم يزل عليها الناس في قديم الدهر أو ما هذا الذي جئت به من الكذب إلا عادة الأولين، كانوا يلفقون مثله ويسطرونه.

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٤١ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٤٢ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٤٣ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٤٤ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٥ أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ١٤٦ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ١٤٨ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ١٤٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ١٥٢﴾

---

(١) قوله «حين قال» لعله: حيث قال. (ع)

﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ يجوز أن يكون إنكاراً لأن يتركوا مخلدين في نعيمهم لا يزالون عنه، وأن يكون تذكيراً بالنعمة في تخلية الله إياهم وما يتنعمون فيه من الجنات وغير ذلك، مع الأمن والدّعة ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ في الذي استقر في هذا المكان من النعيم، ثم فسره بقوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾﴾ وهذا أيضاً إجمال ثم تفصيل. فإن قلت: لم قال /٢/ ٦٠ب ﴿وَنَخْلٍ﴾ بعد قوله: في جنات، والجنة تتناول النخل أوّل شيء كما يتناول النعم الإبل كذلك من بين الأزواج، حتى أنهم ليذكرون الجنة ولا يقصدون إلا النخيل؛ كما يذكرون النعم ولا يريدون إلا الإبل؛ قال زهير [من البسيط]:

. . . . تَسْقِي جَنَّةً سَحَقَا[1]

قلت: فيه وجهان: أن يخص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر؛ تنبيهاً على انفراده عنها بفضله عليها، وأن يريد بالجنات: غيرها من الشجر؛ لأنّ اللفظ يصلح لذلك، ثم يعطف عليها النخل. الطلعة: هي التي تطلع من النخلة. كنصل السيف في جوفه شماريخ القنو. والقنو: اسم للخارج من الجذع كما هو بعرجونه وشماريخه. والهضيم: اللطيف الضامر، من قولهم: كشح هضيم، وطلع إناث النخل فيه لطف، وفي طلع الفحاحيل جفاء، وكذلك طلع البرني ألطف من طلع اللون[2]، فذكرهم نعمة الله في أن وهب لهم أجود النخل وأنفعه: لأنّ الإناث ولادة التمر، والبرني: أجود التمر وأطيبه ويجوز أن يريد أن نخيلهم أصابت جودة المنابت وسعة الماء. وسلمت من العاهات، فحملت الحمل الكثير، وإذا كثر الحمل هضم، وإذا قل جاء فاخرا. وقيل: الهضيم: اللين النضيج، كأنه قال: ونخل قد أرطب ثمره. قرأ الحسن: وتنحتون، بفتح الحاء. وقرئ: فرهين، وفارهين. والفراهة: الكيس والنشاط. ومنه: خيل فرهة، استعير لامتثال الأمر، وارتسامه طاعة الآمر المطاع. أو جعل الأمر مطاعاً على المجاز الحكمي، والمراد الآمر. ومنه قولهم: لك عليّ إمرة مطاعة. وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى﴾. فإن قلت: ما فائدة قوله ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾؟ قلت: فائدته أنّ فسادهم فساد مصمت ليس معه شيء من الصلاح، كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول عند تفسير آية ٢٥ من سورة البقرة فراجعه إن شئت اهـ.

(٢) قوله «وكذلك طلع البرني ألطف من طلع اللون» البرني: ضرب من التمر. واللون: الدقل، والدقل: أردأ التمر. كذا في الصحاح. (ع)

المسحر: الذي سحر كثيراً حتى غلب على عقله. وقيل: هو من السحر الرئة[1]، وأنه بشر.

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾

الشرب: النصيب من الماء، نحو السقي والقيت، للحظ من السقي والقوت. وقرئ بالضم. روي أنهم قالوا: نريد ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة، فتلد سقبا[2]. فقعد صالح يتفكر، فقال له جبريل عليه السلام: صل ركعتين وسل ربك الناقة، ففعل، فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم ونتجت سقبا مثلها في العظم. وعن أبي موسى: رأيت مصدرها فإذا هو ستون ذراعاً. وعن قتادة: إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله، ولهم شرب يوم لا تشرب فيه الماء ﴿بِسُوٓءٍ﴾ بضرب أو عقر أو غير ذلك. عظم اليوم لحلول العذاب فيه ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب، لأن الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد.

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

وروي أن مسطعاً ألجأها إلى مضيق في شعب، فرماها بسهم فأصاب رجلها فسقطت: ثم ضربها قدار. وروي أنّ عاقرها قال: لا أعقرها حتى ترضوا أجميعن، فكانوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون: أترضين؟ فتقول: نعم، وكذلك صبيانهم. فإن قلت: لم أخذهم العذاب وقد ندموا؟ قلت: لم يكن ندمهم ندم تائبين. ولكن ندم خائفين أن يعاقبوا على العقر عقاباً عاجلاً، كمن يرى في بعض الأمور رأياً فاسداً ويبني عليه، ثم يندم ويتحسر كندامة الكسعيّ[3] أو ندموا ندم تائبين ولكن في غير وقت التوبة، وذلك عند معاينة العذاب. وقال الله تعالى ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [النساء: ١٨]

---

(١) قوله «الرئة» لعله: بمعنى الرئة. (ع)

(٢) قوله «فتلد سقبا» في الصحاح «السقب»: الذكر من ولد الناقة. (ع)

(٣) قوله «كندامة الكسعي» الكسع: حي من اليمن. والكسعي: رجل منهم ربى تبعة حتى أخذ منها قوساً فرمى عنها الوحش ليلا وظن أنه أخطأ، فكسر القوس، فلما أصبح رأى ما أصابه من الصيد فندم. وضرب به المثل من قال [من الوافر]:

ندمت ندامة الكسعي لما ... رأت عيناه ما صنعت يداه

كذا في الصحاح. (ع)

الآية. وقيل: كانت ندامتهم على ترك الولد، وهو بعيد. واللام في العذاب: إشارة إلى عذاب يوم عظيم.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦)﴾

أراد بالعالمين: الناس. أي: أتأتون من بين أولاد آدم عليه السلام ـ على فرط كثرتهم وتفاوت أجناسهم وغلبة إناثهم على ذكورهم في الكثرة ذكرانهم كأن الإناث قد أعوزتكم. أو أتأتون أنتم ـ من بين من عداكم من العالمين ـ الذكران، يعني أنكم يا قوم لوط وحدكم مختصون بهذه الفاحشة. والعالمون على هذا القول: كل ما ينكح من الحيوان ﴿مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ يصلح أن يكون تبييناً لما خلق[1]، وأن يكون للتبعيض، ويراد بما خلق: العضو المباح منهنّ. وفي قراءة ابن مسعود: ماأصلح لكم ربكم من أزواجكم، وكأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم. العادي: المتعدّي في ظلمه، المتجاوز فيه الحدّ، ومعناه: أترتكبون هذه المعصية على / ٢/ ٦١أ عظمها، بل أنتم قوم عادون في جميع المعاصي، فهذا من جملة ذاك، أو بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا بالعدوان، حيث ارتكبتم مثل هذه العظيمة.

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧)﴾

﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ﴾ عن نهينا وتقبيح أمرنا ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ من جملة من أخرجناه من بين أظهرنا

---

(١) قال محمود: «يحتمل أن يكون من أزواجكم بياناً لما خلق، وأن يكون للتبعيض ويراد به العضو المباح منهن. وفي قراءة ابن مسعود: ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم، فكأنهم كانوا يفعلون ذلك بنسائهم»، قال أحمد: وقد أشار الزمخشري بهذه الإشارة للاستدلال بهذه الآية على خطر إتيان المرأة في غير المأتى، وبيانه أن «من» لو كانت بياناً لكان المعنى حينئذٍ على ذمهم بترك الأزواج، ولا شك أن ترك الأزواج مضموم إلى إتيان الذكران، وحينئذ يكون المنكر عليهم الجمع بين ترك الأزواج وإتيان الذكران، لا أن ترك الأزواج وحده منكر، ولو كان الأمر كذلك لكان النصب في الثاني متوجها على الجمع، وكان إما الأفصح أو المتعين، وقد اجتمعت العامة على القراءة به مرفوعاً، ولا يتفقون على ترك الأفصح إلى ما لا مدخل له في الفصاحة أو في الجواز أصلاً. فلما وضح ذلك تبين أن هذا المعنى غير مراد، فيتعين حمل «من» على البعضية، فيكون المنكر عليهم أمرين كل واحد منهما مستقل بالإنكار، أحدهما: إتيان الذكران. والثاني: مجانبة إتيان النساء في المأتى رغبة في إتيانهن في غيره، وحينئذٍ يتوجه الرفع لفوات الجمع اللازم على الوجه الأول، واستقلال كل واحد من هاتين العظيمتين بالنكير، والله الموفق.

وطردناه من بلدنا، ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال: من تعنيف به. واحتباس لأملاكه[1]. وكما يكون حال الظلمة إذا أجلوا بعض من يغضبون عليه، وكما كان يفعل أهل مكة بمن يريد المهاجرة.

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾

و﴿مِّنَ الْقَالِينَ﴾ أبلغ من أن يقول: إني لعملكم قال، كما تقول فلان من العلماء، فيكون أبلغ من قولك: فلان عالم؛ لأنك تشهد له بكونه معدوداً في زمرتهم، ومعروفة مساهمته لهم في العلم. ويجوز أن يريد: من الكاملين في قلاكم. والقلى: البغض الشديد، كأنه بغض يقلي الفؤاد والكبد. وفي هذا دليل على عظم المعصية، والمراد: القلي من حيث الدين والتقوى، وقد تقوى همة الدّين في دين الله حتى تقرب كراهته للمعاصي من الكراهة الجبلية ﴿مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من عقوبة عملهم وهو الظاهر. ويحتمل أن يريد بالتنجية: العصمة. فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا﴾؟ قلت: معناه أنه عصمه وأهله من ذلك إلا العجوز، فإنها كانت غير معصومة منه، لكونها راضية به ومعينة عليه ومحرشة، والراضي بالمعصية في حكم العاصي. فإن قلت: كان أهله مؤمنين ولولا ذلك لما طلب لهم النجاة، فكيف استثنيت الكافرة منهم؟ قلت: الاستثناء إنما وقع من الأهل وفي هذا الاسم لها معهم شركة بحق الزواج وإن لم تشاركهم

---

(١) قال محمود: «أي من جملة من أخرجناه، ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال من تعنيف به واحتباس لأملاكه وأشباه ذلك، قال أحمد: وكثيرا ما ورد في القرآن خصوصاً في هذه الصورة العدول عن التعبير بالفعل إلى التعبير بالصفة المشتقة، ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع، كقول فرعون ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ وقولهم ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ وقولهم ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ وقوله: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾ وقوله تعالى في غيرها) ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ وكذلك ﴿ذرنا نكن مع القاعدين﴾ وأمثاله كثيرة، والسر في ذلك والله أعلم: أن التعبير بالفعل إنما يفهم وقوعه خاصة، وأما التعبير بالصفة ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع، فإنه يفهم أمراً زائداً على وقوعه، وهو أن الصفة المذكورة كالسمة لموصوف ثابتة العلوق به. كأنها لقب، وكأنه من طائفة صارت كالنوع المخصوص المشهور ببعض السمات الرديئة. واعتبر ذلك لو قلت: رضوا بأن يتخلفوا، لما كان في ذلك مزيد على الأخبار بوقوع التخلف منهم لا غير. وانظر إلى المساق وهو قوله ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ كيف ألحقهم لقباً رديئاً، وصيرهم من نوع رذل مشهور بسمة التخلف، حتى صارت له لقباً لاصقا به، وهذا الجواب عام في جميع ما يرد عليك من أمثال ذلك، فتأمله واقدره قدره، والله الموفق للصواب.

في الإيمان. فإن قلت: ﴿فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ صفة لها، كأنه قيل: إلا عجوزاً غابرة، ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم[1] قلت: معناه إلا عجوزاً مقدرا غبورها. ومعنى الغابرين في العذاب والهلاك: غير الناجين. قيل: إنها هلكت مع من خرج من القرية بما أمطر عليهم من الحجارة. والمراد بتدميرهم: الائتفاك بهم، وأمّا الإمطار: فعن قتادة: أمطر الله على شذاذ القوم حجارة من السماء فأهلكهم. وعن ابن زيد: لم يرض بالائتفاك حتى أتبعه مطرا من حجارة. وفاعل ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ ولم يرد بالمنذرين قوماً بأعيانهم، أنما هو للجنس، والمخصوص بالذمّ محذوف، وهو مطرهم.

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾

قرئ أصحاب الأيكة بالهمزة وبتخفيفها، وبالجرّ على الإضافة وهو الوجه. ومن قرأ بالنصب وزعم أن ليكة بوزن ليلة: اسم بلد، فتوهم قاد إليه خط المصحف، حيث وجدت مكتوبة في هذه السورة وفي سورة ص بغير ألف. وفي المصحف أشياء كتبت على خلاف قياس الخط المصطلح عليه، وإنما كتبت في هاتين السورتين على حكم لفظ اللافظ، كما يكتب أصحاب النحو لان، ولولى: على هذه الصورة لبيان لفظ المخفف، وقد كتبت في سائر القرآن على الأصل، والقصة واحدة، على أن ليكة اسم لا يعرف. وروي أن أصحاب الأيكة كانوا أصحاب شجر ملتف، وكان شجرهم الدوم. فإن قلت: هلا قيل: أخوهم شعيب، كما في سائر المواضع؟ قلت: قالوا: إن شعيباً لم يكن من أصحاب الأيكة. وفي الحديث: إن شعيباً أخا مدين، أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة.

﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾

الكيل على ثلاثة أضرب: واف، وطفيف، وزائد، فأمر بالواجب الذي هو الإيفاء، ونهى عن المحرّم الذي هو التطفيف، ولم يذكر الزائد، وكأن تركه عن الأمر والنهي: دليل على أنه إن فعله فقد أحسن وإن لم يفعله فلا عليه. قرئ: بالقسطاس مضموماً ومكسورا

---

(١) قال محمود: «المجرور صفة لها، كأنه قيل: إلا عجوزاً غابرة ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم. قلت: معناه: إلا عجوزاً مقدرا غبورها، أي: في الهلاك والعذاب» قال أحمد: وإن تعجلت برفع القاعدة الممهدة آنفاً، فاعلم أن السر الذي اقتضى العدول عن أن يقول مثلاً: إلا عجوزاً غابرة إلى ما ذكر في المتلوّ: هو أن المذكور في التلاوة يقتضي الاسجال عليها بأنها من أمة موسومين بهذه السمة من الهلاك كما قدمته الآن، فهو أبلغ من مجرد وصفها بالغبور. والله أعلم.

وهو الميزان وقيل: القرسطون، فإن كان من القسط وهو العدل ـ وجعلت العين مكررة ـ فوزنه فعلاس، وإلا فهو رباعي. وقيل: وهو بالرومية العدل. يقال: بخسته حقه، إذا نقصته إياه. ومنه قيل للمكس: البخس، وهو عامّ في كل حق ثبت لأحد أن لا يهضم، وفي كل ملك أن لا يغضب عليه مالكه ولا يتحيف منه، ولا يتصرف فيه إلا بإذنه تصرفاً شرعياً. يقال: عثا في الأرض وعثى وعاث، وذلك نحو قطع الطريق، والغارة، وإهلاك الزروع، وكانوا يفعلون ذلك مع توليهم أنواع الفساد فنهوا عن ذلك. وقرئ: الجبلة، بوزن الأبلة. والجبلة[1]، بوزن الخلقة. ومعناهنّ واحد، أي: ذوي الجبلة، وهو كقولك: والخلق الأوّلين.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾

فإن قلت: هل اختلف المعنى /٢/ ٦١ب بإدخال الواو ههنا وتركها في قصة ثمود؟ قلت: إذا أدخلت الواو فقد قصد معنيان: كلاهما مناف للرسالة عندهم: التسحير والبشرية، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحراً ولا يجوز أن يكون بشراً، وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحراً، ثم قرر بكونه بشراً مثلهم. فإن قلت: إن المخففة من الثقيلة ولامها كيف تفرقتا على فعل الظنّ وثاني مفعوليه؟ قلت: أصلهما أن يتفرقا على المبتدأ والخبر، كقولك: إن زيد لمنطلق، فلما كان البابان ـ أعني باب كان وباب ظننت ـ من جنس باب المبتدأ والخبر، فعل ذلك في البابين فقيل: إن كان زيد لمنطلقاً، وإن ظننته لمنطلقاً.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾

قرئ: كسفاً بالسكون والحركة وكلاهما جمع كسفة، نحو: قطع وسدر. وقيل: الكسف والكسفة، كالريع والريعة، وهي القطعة وكسفة: قطعة والسماء: السحاب، أو المظلة. وما كان طلبهم في ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب. ولو كان فيهم أدنى ميل إلى التصديق لما أخطروه ببالهم فضلاً أن يطلبوه. والمعنى: إن كنت صادقاً أنك نبيّ. فادع الله أن يسقط علينا كسفاً من السماء.

﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

---

(١) قوله «الأبلة والجبلة» في الصحاح «الأبلة» بالضم وتشديد اللام: الغدرة من التمر. وفيه «الغدرة»: القطعة من اللحم إذا كانت مجتمعة. وفيه أيضاً: الجبلة الخلقة. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقرأها الحسن بالضم اهـ. (ع)

﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ يريد: أنّ الله أعلم بأعمالكم وبما تستوجبون عليها من العقاب، فإن أراد أن يعاقبكم بإسقاط كسف من السماء فعل، وإن أراد عقاباً آخر فإليه الحكم والمشيئة.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾

﴿فَأَخَذَهُمۡ﴾ الله بنحو ما اقترحوا من عذاب الظلة إن أرادوا بالسماء السحاب، وإن أرادوا المظلة فقد خالف بهم عن مقترحهم. يروى أنه حبس عنهم الريح سبعاً، وسلط عليهم الومد[1] فأخذ بأنفاسهم لا ينفعهم ظلّ ولا ماء ولا سرب، فاضطرّوا إلى أن خرجوا إلى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها برداً ونسيماً، فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا. وروي أنّ شعيباً بعث إلى أمّتين: أصحاب مدين، وأصحاب الأيكة، فأهلكت مدين بصيحة جبريل، وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة. فإن قلت: كيف كرّر في هذه السورة في أوّل كل قصة وآخرها ما كرّر؟ قلت: كل قصة منها كتنزيل برأسه، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها، فكانت كل واحدة منها تدلي بحق في أن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها، وأن تختتم بما اختتمت به، ولأنّ في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس، وتثبيتاً لها في الصدور. ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها، وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب وأرسخ في الفهم وأثبت للذكر وأبعد من النسيان، ولأنّ هذه القصص طرقت بها آذان وقر عن الإنصات للحق، وقلوب غلف عن تدبره، فكوثرت بالوعظ والتذكير، وروجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذناً، أو يفتق ذهناً، أو يصقل عقلاً طال عهده بالصقل، أو يجلو فهماً قد غطى عليه تراكم الصدأ.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإن هذا التنزيل، يعني: ما نزل من هذه القصص والآيات. والمراد بالتنزيل: المنزل. والباء في ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ﴾ ونزل به الروح، على القراءتين للتعدية. ومعنى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ﴾ جعل الله الروح نازلاً ﴿به على قلبك﴾ أي: حفظكه وفهمك إياه. وأثبته في قلبك إثبات ما لا ينسى، كقوله تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ [الأعلى: ٦] ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ﴾ إما أن يتعلق بالمنذرين، فيكون المعنى: لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان وهم خمسة: هود،

(١) قوله «الومد» شدة حر الليل، كما في الصحاح. (ع)

وصالح، وشعيب، وإسماعيل، ومحمد عليهم الصلاة والسلام. وإما أن يتعلق بنزل، فيكون المعنى: نزل باللسان العربي[1] لتنذر به؛ لأنه لو نزله باللسان الأعجمي، لتجافوا عنه أصلاً، ولقالوا: ما نصنع بما لا نفهمه فيتعذر الإنذار به وفي هذا الوجه: أن تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك، لأنك تفهمه ويفهمه قومك. ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك، لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها، وقد يكون الرجل عارفاً بعدّة لغات، فإذا كلم بلغته التي لقنها أولاً ونشأ عليها وتطبع بها، لم يكن قلبه إلا إلى معاني الكلام يتلقاها بقلبه ولا يكاد يفطن للألفاظ كيف جرت وإن كلم بغير تلك اللغة وإن كان ماهراً بمعرفتها كان نظره أولاً في ألفاظها ثم في معانيها، فهذا تقرير أنه نزل على قلبه لنزوله بلسان عربي مبين ﴿وَإِنَّهُ﴾ وإن القرآن ـ يعني ذكره مثبت في سائر الكتب السماوية. وقيل: إن معانيه فيها. وبه يحتج لأبي حنيفة في جواز القراءة بالفارسية في الصلاة على أن القرآن قرآن إذا ترجم بغير العربية حيث قيل ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ لكون معانيه فيها / ٢/ ١٦٢أ. وقيل: الضمير لرسول الله ـ ﷺ ـ وكذلك في ﴿أَن يَعْلَمَهُ﴾ وليس بواضح.

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾

وقرئ: يكن، بالتذكير. وآية، بالنصب على أنها خبره، و﴿أَن يَعْلَمَهُ﴾ هو الاسم. وقرئ. تكن، بالتأنيث، وجعلت ﴿ءَايَةً﴾ اسما، و﴿أَن يَعْلَمَهُ﴾ خبراً، وليست كالأولى لوقوع النكرة اسماً والمعرفة خبراً، وقد خرّج لها وجه آخر ليتخلص من ذلك، فقيل: في (تكن) ضمير القصة، و﴿ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ﴾ جملة واقعة موقع الخبر. ويجوز على هذا أن يكون (لهم آية) هي جملة الشأن، و﴿أَن يَعْلَمَهُ﴾ بدلاً عن آية. ويجوز مع نصب الآية تأنيث (تكن) كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾، ومنه بيت لبيد [من الكامل]:

فَمَضَى وَقَدَّمَهَا وَكَانَتْ عَادَةً ... مِنْهُ إِذَا هِيَ عَرَّدَتْ أَقْدَامُهَا[2]

---

(١) عاد كلامه. قال: واعلم أن الآيات الأول كالمقدمات لهذه الآيات، فإن الله تعالى أبان أنه منزل بلغتهم التي لا يعرفون غيرها، وعلى لسان عربي لو أشكل عليهم فهم شيء منه لكان البيان عنده عتيداً ناجزاً، وما نزله على لسان أعجمي قد يعتذرون بأنه لا يفهمهم ما استغلق على أفهامهم من معانيه، فقد أزاح أعذارهم ودحض حججهم، وسلكه في قلوبهم ومكنهم من فهمه أشد التمكين، ولكن لم يوفقهم بل قدر عليهم أنهم لا يؤمنون» قال أحمد: يعني بقوله قدر عليهم أنهم لا يؤمنون علم أنهم لا يؤمنون، لأن التقدير عنده العلم. والحق أن الله تعالى أراد منهم أنهم لا يؤمنون. وهذا تقرير لجواب عن سؤال مقدر، وهو أن يقال: قلوبهم نائية عن قبول الحق، لا يلجها بوجه ولا بسبب، فكيف يسلك الحق فيها؟ فيجاب عنه بهذا الجواب، والله أعلم.

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة ١٣ فراجعه إن شئت اهـ. مصصحه.

وقرئ: تعلمه بالتاء. و﴿عُلَمَـٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: عبد الله بن سلام وغيره. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [القصص: ٥٣]. فإن قلت: كيف خط في المصحف (علمواء) بواو قبل الألف؟ قلت: خط على لغة من يميل الألف إلى الواو وعلى هذه اللغة كتبت الصلوة والزكوة والربوا.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾

الأعجم: الذي لا يفصح في لسانه عجمة واستعجام. والأعجمي مثله. إلا أن فيه لزيادة ياء النسبة زيادة تأكيد. وقرأ الحسن: الأعجميين. ولما كان من يتكلم بلسان غير لسانهم لا يفقهون كلامه، قالوا له: أعجم وأعجمي، شبهوه بمن لا يفصح ولا يبين، وقالوا لكل ذي صوت من البهائم والطيور وغيرها: أعجم، قال حُمَيْدٌ [من الطويل]:

. . . . وَلاَ عَرَبِيًّا شَاقَهُ صَوْتُ أَعْجَمَا[1]

﴿سَلَكْنَـٰهُ﴾ أدخلناه ومكناه. والمعنى: إنا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربي بلسان عربي مبين، فسمعوا به وفهموه وعرفوا فصاحته وأنه معجزة لا يعارض بكلام مثله، وانضم إلى ذلك اتفاق علماء أهل الكتب المنزلة قبله على أن البشارة بإنزاله وتحلية المنزل عليه

---

(١) وما هاج هذا الشوق إلا حمامة ... دعت ساق حر ترحة وتندما
فغنت على غصن عشاء فلم تدع ... لنائحة في نوحها متندما
عجبت لها أنى يكون غناؤها ... فصيحا ولم تفغر بمنطقها فما
ولم أر مثلي شاقه صوت مثلها ... ولا عربياً شاقه صوت أعجما

لحميد بن ثور، وقد رحلت صاحبته سلمى، يقول: وما حرك هذا الشوق وبعثه فتوقد بقلبي، إلا حمامة دعت ذكرها وساق حر: مركب إضافي. وهو ذكر القمري، أو ذكر الحمام مطلقاً. والحر ـ بالضم ـ: فرخ الحمامة، والترحة: الحزن، ضد الفرحة. والتندم: التأسف على ما فات. ويروى «ترنما» وهو تحسين الصوت. وهما نصب على الحالية، أي: حزينة ومتأسفة. أو ذات ترحة وذات تندم. وعشا: نصب على الظرف. فلم تدع: أي تترك لنائحة في غنائها، متندماً: أي تندما أو شيئاً يتندم به أو فيه. ويجوز أن ضمير نوحها للنائحة، وأنى بمعنى: كيف أو من أنى. والاستفهام تعجبي. والفصيح: البين الخالي عن اللكنة والتعقيد. وفغر فاه يفغره، من باب نفع: فتحه، أي والحال أنها لم تفتح فمها بنطقها، وإنما يخرج صوتها من صدرها. وشاقه: تسبب له في الشوق، والعربي: المفصح. والأعجم: الذي لا يفصح من الحيوان، نقلته العرب لمن لا يفهمون كلامه ولا يفقهون مراده، وربماألحقوه ياء النسب للمبالغة في شدة العجمة وبينه وبين عربي طباق التضاد.

وصفته في كتبهم، وقد تضمنت معانيه وقصصه، وصحّ بذلك أنها من عند الله وليست بأساطير كما زعموا، فلم يؤمنوا به وجحدوه، وسموه شعراً تارة، وسحراً أخرى، وقالوا: هو من تلفيق محمد وافترائه ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ﴾ الأعاجم الذي لا يحسن العربية، فضلاً أن يقدر على نظم مثله ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ هكذا فصيحاً معجزاً متحدّى به، لكفروا به كما كفروا، ولتمحلوا لجحودهم عذراً، ولسموه سحراً، ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ أي مثل هذا السلك سلكناه في قلوبهم، وهكذا مكناه وقرّرناه فيها، وعلى مثل هذه الحال وهذه الصفة من الكفر به والتكذيب له وضعناه فيها، فكيفما فعل بهم وصنع وعلى أي وجه دبر أمرهم، فلا سبيل أن يتغيروا عما هم عليه من جحوده وإنكاره، كما قال ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [الأنعام: ٧]. فإن قلت: كيف أسند السلك بصفة التكذيب إلى ذاته؟ قلت: أراد به الدلالة على تمكنه مكذباً في قلوبهم أشدّ التمكن، وأثبته فجعله بمنزلة أمر قد جبلوا عليه وفطروا. ألا ترى إلى قولهم: هو مجبول على الشح، يريدون: تمكن الشحّ فيه؛ لأنّ الأمور الخلقية أثبت من العارضة، والدليل عليه أنه أسند ترك الإيمان به إليهم على عقبه[1]، وهو قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

فإن قلت: ما موقع ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ من قوله: ﴿سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؟ قلت: موقعه منه موقع الموضع والملخص؛ لأنه مسوق لثباته مكذباً مجحوداً في قلوبهم، فأتبع ما يقرّر هذا المعنى من أنهم لا يزالون على التكذيب به وجحوده حتى يعاينوا الوعيد. ويجوز أن يكون حالاً، أي: سلكناه فيها غير مؤمن به. وقرأ الحسن: فتأتيهم، بالتاء يعني: الساعة. وبغتة. بالتحريك. وفي حرف أبيّ: ويروه بغتة. فإن قلت: ما معنى التعقيب في قوله: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً . . . فَيَقُولُواْ﴾؟ قلت: ليس المعنى ترادف رؤية العذاب ومفاجأته وسؤال النظرة فيه في الوجود، وإنما المعنى ترتبها في الشدّة، كأنه قيل: لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم للعذاب فما هو أشدّ منها وهو لحوقه بهم مفاجأة، فما هو أشدّ منه وهو سؤالهم النظرة. ومثال ذلك أن تقول لمن تعظه: إن أسات مقتك الصالحون فمقتك الله، فإنك لا تقصد بهذا الترتيب أنّ مقت الله يوجد عقيب مقت الصالحين، وإنما قصدك إلى ترتيب شدّة الأمر على المسيء، وأنه يحصل له بسبب الإساءة مقت الصالحين، فما هو أشدّ من مقتهم: وهو مقت الله، وترى ثمّ يقع في هذا الأسلوب فيحل موقعه /٢/ ٦٢ب

---

(١) قال محمود: «إن قلت: كيف أسند السلك بصيغة التكذيب إلى ذاته؟ قلت: المراد الدلالة على تمكنه مكذباً في قلبهم أشد التمكن، فجعله بمنزلة أمر قد جبلوا عليه، بدليل أنه أسند إليهم ترك الإيمان به على عقبه في قوله: لا يؤمنون به» قال أحمد: وما ينقم من بقائه على ظاهره إلا أنه التوحيد المحض والإيمان الصرف، وأن الله تعالى خلق قلوبهم نائية عن قبول الحق. والقدرية لا يبلغون في التوحيد إلى هذا الحد، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ تبكيت لهم بإنكار وتهكم، ومعناه: كيف يستعجل العذاب من هو معرض لعذاب يسأل فيه من جنس ما هو فيه اليوم من النظرة والإمهال طرفة عين فلا يجاب إليها. ويحتمل أن يكون هذا حكاية توبيخ يوبخون به عند استنظارهم يومئذ، و﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾ على هذا الوجه حكاية حال ماضية. ووجه آخر متصل بما بعده، وذلك أنّ استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه غير كائن ولا لاحق بهم، وأنهم ممتعون بأعمار طوال في سلامة وأمن، فقال تعالى: أفبعذابنا يستعجلون أشراً وبطرا واستهزاء واتكالا على الأمل الطويل، ثم قال: هب أنّ الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم، فإذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ما ينفعهم حينئذٍ ما مضى من طول أعمارهم وطيب معايشهم. وعن ميمون بن مهران: أنه لقي الحسن في الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال له: عظني، فلم يزده على تلاوة هذه الآية، فقال ميمون: لقد وعظت فأبلغت. وقرئ: يمتعون، بالتخفيف.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾

﴿مُنذِرُونَ﴾ رسل ينذرونهم ﴿ذِكْرَىٰ﴾ منصوبة بمعنى تذكرة، إمّا لأن «أنذر، وذكر» متقاربان، فكأنه قيل: مذكرون تذكرة. وإمّا لأنها حال من الضمير في منذرون أي، ينذرونهم ذوي تذكرة. وإمّا لأنها مفعول له؛ على معنى: أنهم ينذرون لأجل الموعظة والتذكرة. أو مرفوعة على أنها خبر مبتدأ محذوف، بمعنى: هذه ذكرى. والجملة اعتراضية، أو صفة بمعنى: منذرون ذوو ذكرى. أو جعلوا ذكرى لإمعانهم في التذكرة وإطنابهم فيها. ووجه آخر: وهو أن يكون ذكرى متعلقة بأهلكنا مفعولاً له. والمعنى: وما أهلكنا من أهل قرية ظالمين إلا بعدما ألزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم، ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم، فلا يعصوا مثل عصيانهم ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فنهلك قوماً غير ظالمين. وهذا الوجه عليه المعوّل. فإن قلت: كيف عزلت الواو عن الجملة بعد «إلا» ولم تعزل عنها في قوله ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾﴾ [الحجر: ٤]؟ قلت: الأصل: عزل الواو لأن الجملة صفة لقرية، وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف كما في قوله: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾

كانوا يقولون: إنّ محمداً كاهن وما يتنزل عليه من جنس ما يتنزل به الشياطين على الكهنة، فكذبوا بأنّ ذلك مما لا يتسهل للشياطين ولا يقدرون عليه؛ لأنهم مرجومون بالشهب معزولون عن استماع كلام أهل السماء. وقرأ الحسن: الشياطون. ووجهه أنه رأى

آخره كآخر يبرين وفلسطين، فتخير بين أن يجري الإعراب على النون، وبين أن يجريه على ما قبله، فيقول: الشياطين والشياطون، كما تخيرت العرب بين أن يقولوا. هذه يبرون ويبرين، وفلسطون وفلسطين. وحقه أن تشتقه من الشيطوطة وهي الهلاك كما قيل له الباطل. وعن الفرّاء: غلط الشيخ في قراءته «الشياطون» ظنّ أنها النون التي على هجاءين، فقال النضر بن شميل: إن جاز أن يحتج بقول العجاج ورؤبة، فهلا جاز أن يحتجّ بقول الحسن وصاحبه ـ يريد: محمد بن السميفع ـ مع أنا نعلم أنهما لم يقرآ به إلا وقد سمعا فيه.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾

قد علم أنّ ذلك لا يكون، ولكنه أراد أن يحرّك منه لازدياد الإخلاص والتقوى. وفيه لطف لسائر المكلفين، كما قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾ [الحاقة: ٤٤]، فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك، فيه وجهان: أحدهما أن يؤمر بإنذار الأقرب فالأقرب من قومه، ويبدأ في ذلك بمن هو أولى بالبداءة، ثم بمن يليه. وأن يقدّم إنذارهم على إنذار غيرهم، كما روي عنه عليه السلام: أنه لما دخل مكة قال: «كل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين، وأوّل ما أضعه ربا العباس (١٠٧٩) والثاني: أن يؤمر بأن لا يأخذه القريب للقريب من العطف والرأفة، ولا يحابيهم في الإنذار والتخويف. وروي أنه صعد الصفا ـ لما نزلت ـ فنادى الأقرب فالأقرب فخذاً فخذاً، وقال: «يا بني عبد المطلب، يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، يا عباس عمّ النبيّ، يا صفية عمة رسول الله، إني لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم (١٠٨٠). وروي أنه جمع بني عبد المطلب وهم

١٠٧٩ ـ هو جزء من حديث صفة حجة النبي ـ ﷺ ـ كما رواه جابر.
وقد تقدم بتمامه.
وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: وعزاه الطيبي للترمذي من رواية عمرو بن الأحوص وليس هو عنده بتمامه.
قال الحافظ: أخرجه مسلم من حديث جابر الطويل في صفة الحج، وعزاه الطيبي للترمذي من رواية عمرو بن الأحوص، وليس هو عنده بتمامه. انتهى.

١٠٨٠ ـ ورد هذا في عدة أحاديث منها ما أخرجه البخاري (٥/ ٤٤٩) كتاب الوصايا: باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب حديث (٢٧٥٣)، ومسلم (١/ ٦٢٣ ـ الأبي) كتاب الإيمان: باب في قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ حديث (٣٥١/ ٢٠٦)، والنسائي (٦/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ٢٨٠) من طريق شعيب، ويونس عن الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة به.
وللحديث طريق آخر عن أبي هريرة: أخرجه مسلم (١/ ٦٢٢ ـ الأبي) كتاب الإيمان باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ حديث (٣٤٨/ ٢٠٤)، والترمذي (٥/) كتاب التفسير، =

يومئذٍ أربعون رجلاً: الرجل منهم يأكل الجذعة، ويشرب العس[1] على رجل شاة وقعب من لبن، فأكلوا وشربوا حتى صدروا، ثم أنذرهم فقال: «يا بني عبد المطلب، لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدّقي؟ قالوا: نعم. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» (١٠٨١)، وروي أنه قال: «يا بني عبد المطلب، يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، افتدوا أنفسكم من النار فإني لا أغني عنكم شيئاً» ثم قال: «يا عائشة بنت أبي بكر،

= باب ومن سورة الشعراء حديث (٣١٨٥)، وأحمد (٢/ ٣٣٣ ـ ٣٦٠ ـ ٣٦١ ـ ٥١٩)، والنسائي (٦/ ٢٤٨) كتاب الوصايا: باب إذا أوصى لعشيرته الأقربين؛ كلهم من طريق عبد الملك بن عمير عن موسى بن طلحة عن أبي هريرة به. وللحديث شاهد من حديث عائشة. أخرجه مسلم (١/ ٦٢٣ ـ الأبي) كتاب الإيمان باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ حديث (٣٥٠/ ٢٠٥)، والترمذي (٥/) كتاب التفسير: باب ومن سورة الشعراء، حديث (٣١٨٤)، والنسائي (٦/ ٢٥٠) كتاب الوصايا: باب إذا أوصى لعشيرته الأقربين، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ١١٨)، وابن منده في «الإيمان» (٩٤٥ ـ ٩٤٦ ـ ٩٤٧)، وابن حبان (٦٥٤٨)؛ كلهم من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وروى بعضهم عن هشام بن عروة عن أبيه عن النبي ـ ﷺ ـ مرسلاً لم يذكر فيه عائشة.

قال الحافظ: أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة قال: قام رسول الله ـ ﷺ ـ حين نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾، فقال: يا بني عبد مناف يا بني هاشم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، وروى مسلم من حديث عائشة لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾، قام رسول الله ـ ﷺ ـ على الصفا فقال: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب: لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم»، وروى ابن مردويه من حديث أبي أمامة قال لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾، خرج رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «يا بني هاشم اشتروا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، يا عائشة بنت أبي بكر، ويا حفصة بنت عمر، ويا أم سلمة ويا فاطمة بنت محمد، ويا أم الزبير عمة رسول الله ـ ﷺ ـ: اشتروا أنفسكم من النار؛ فإني لا أملك لكم من الله شيئاً». انتهى.

١٠٨١ ـ يقرب منه حديث ابن عباس في هذا الباب أخرجه البخاري (٨/ ٦٠٩) كتاب التفسير باب في تفسير سورة «تبت يدا أبي لهب وتب» حديث (٤٩٧١) ومسلم (١/ ٦٢٤ ـ الأبي) كتاب الإيمان: باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ حديث (٣٥٥/ ٢٠٨) والترمذي (٥/) كتاب التفسير: باب ومن سورة تبت حديث (٣٣٦٣) والنسائي في «التفسير» (٤٤٦).

والطبري (١٩/ ١٢١) وابن منده في «الإيمان» (٩٤٩ ـ ٩٥٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ١٨١ ـ ١٨٢)، وابن حبان (٦٥٥٠)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٤٠٠ ـ ٤٠١)، وأحمد (١/ ٢٨١) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

وللحديث طرق أخرى عند ابن مردويه، والبيهقي، وأبي نعيم معاً في الدلائل يراجع لها «تخريج الكشاف» للإمام الزيلعي (٢/ ٤٧٧ ـ ٤٧٨).

---

(١) قوله «ويشرب العس» هو القدح العظيم، كما في الصحاح. (ع)

ويا حفصة بنت عمر، ويا فاطمة بنت محمد، ويا صفية عمة محمد، اشترين أنفسكنّ من النار فإني لا أغني عنكنّ شيئا» (١٠٨٢).

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه، وإذا أراد / ٢/ ٦٣أ أن ينهض للطيران رفع جناحه، فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلاً في التواضع ولين الجانب؛ ومنه قول بعضهم [من المتقارب]:

وَأَنْتَ الشَّهِيرُ بِخَفْضِ الْجَنَاحِ فَلاَ تَكُ فِي رَفْعِهِ أَجْدَلا[(١)]

ينهاه عن التكبر بعد التواضع. فإن قلت: المتبعون للرسول هم المؤمنون، والمؤمنون هم المتبعون للرسول، فما قوله: ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؟ قلت: فيه وجهان: أن يسميهم قبل الدخول في الإيمان مؤمنين لمشارفتهم ذلك، وأن يريد بالمؤمنين المصدّقين بألسنتهم، وهم صنفان: صنف صدّق واتبع رسول الله فيما جاء به، وصنف ما وجد منه إلا التصديق فحسب، ثم إمّا أن يكونوا منافقين أو فاسقين، والمنافق والفاسق لا يخفض لهما الجناح. والمعنى: من المؤمنين من عشيرتك وغيرهم، يعني: أنذر قومك فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض لهم جناحك، وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم من الشرك بالله وغيره.

١٠٨٢ ـ ينظر الحديث قبل السابق.

قال الحافظ: أما أوله فأخرجه ابن إسحاق في المغازي، والبيهقي في الدلائل من طريقه من رواية ابن عباس مطولاً. وأخرجه البزار، وأبو نعيم في الدلائل من طريق عباد بن عبد الله الأسدي عن علي قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ قال لي رسول الله ـ ﷺ ـ: اصنع لي رجل شاة على صاع من طعام، وأعد قعباً من لبن. ففعلت. ثم قال لي: اجمع لي بني عبد المطلب فجمعتهم وهم يومئذٍ أربعون رجلاً ـ فوضعت الطعام بينهم، فأكلوا حتى شبعوا، وإن فيهم لمن يأكل الجذعة ويشرب العس، ثم جئت بالعس فشربوا حتى رووا، وأما بقيته فمتفق عليه من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، خرج رسول الله ـ ﷺ ـ حتى صعد الصفا، فنادى: يا صباحاه، فاجتمعوا إليه، فقال) يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب. أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم تصدقونني؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تباً لك؟ ألهذا جمعتنا فنزلت هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾. انتهى.

---

(١) شبه بطائر يرق لأفراخه ويخفض إليها جناحه رحمة لها؛ فاستعار خفض الجناح لذلك على سبيل التمثيل؛ ورشحه بقوله: «فلا تك في رفعه أجدلا» أي شبيهاً بالأجدل؛ وهو الصقر في القسوة والجفوة. أو في التكبر والترفع ويجوز أن خفض الجناح: كناية عما يلزمه من الرقة والرحمة واللين. ورفعه: كناية عن القسوة والجفوة؛ وبين الخفض والرفع طباق التضاد.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾

﴿وَتَوَكَّلْ﴾ على الله يكفك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم. والتوكل: تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره. وقالوا: المتوكل من إن دهمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية لله، فعلى هذا إذا وقع الإنسان في محنة ثم سأل غيره خلاصه، لم يخرج من حد التوكل؛ لأنه لم يحاول دفع ما نزل به عن نفسه بمعصية الله. وفي مصاحف أهل المدينة والشام: فتوكل، وبه قرأ نافع وابن عامر، وله محملان في العطف: أن يعطف على ﴿فَقُلْ﴾. أو ﴿فَلَا تَدْعُ﴾. ﴿عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ على الذي يقهر أعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته. ثم أتبع كونه رحيماً على رسوله ما هو من أسباب الرحمة: وهو ذكر ما كان يفعله في جوف الليل من قيامه للتهجد، وتقلبه في تصفح أحوال المتهجدين من أصحابه؛ ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون. ويستبطن سر أمرهم، وكيف يعبدون الله، وكيف يعملون لآخرتهم، كما يحكى أنه حين نسخ فرض قيام الليل، طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون لحرصه عليهم وعلى ما يوجد منهم من فعل الطاعات وتكثير الحسنات، فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع منها من دندنتهم بذكر الله والتلاوة. والمراد بالساجدين: المصلون. وقيل: معناه يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة. وتقلبه في الساجدين: تصرفه فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده إذا أمّهم. وعن مقاتل: أنه سأل أبا حنيفة رحمه الله، هل تجد الصلاة في الجماعة في القرآن؟ فقال: لا يحضرني، فتلا له هذه الآية. ويحتمل أنه: لا يخفى عليه حالك كلما قمت وتقلبت مع الساجدين في كفاية أمور الدين ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما تقوله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما تنويه وتعمله. وقيل: هو تقلب بصره فيمن يصلي خلفه، من قوله ﷺ: «أتموا الركوع والسجود، فوالله إني لأراكم من خلف ظهري إذا ركعتم وسجدتم» (١٠٨٣). وقرئ: ويقلبك.

١٠٨٣ ـ أخرجه البخاري (٢/ ٣٤٧) كتاب الأذان باب إلزاق المنكب بالمنكب حديث (٧٢٥) ومسلم (٢/ ٣١٧ ـ الأبي) كتاب الصلاة: باب الأمر بتحسين الصلاة وإتمامها والخشوع فيها حديث (١١٠/ ٤٢٥) وأحمد (٣/ ١٣٠ ـ ١٧٠ ـ ٢٧٩)، والنسائي (٢/ ١٩٣) كتاب الافتتاح: باب الأمر بإتمام الركوع، وأبو يعلى (٥/ ٣٤١) رقم (٢٩٧١) كلهم من طريق شعبة عن قتادة عن أنس به مرفوعاً.
وأخرجه البخاري (١١/ ٥٣٤) كتاب الأيمان والنذور: باب كيف كانت يمين رسول الله ـ ﷺ ـ حديث (٦٦٤٤) وأحمد (٣/ ٢٦٩) كلاهما من طريق همام عن قتادة عن أنس به وأخرجه مسلم (٢/ ٣١٧ ـ الأبي) كتاب الصلاة باب الأمر بتحسين الصلاة حديث (١١١/ ٤٢٥) وأحمد (٣/ ١٧٨) والطيالسي (١/ ٩٧ ـ منحة) رقم (٤٢٦) والبيهقي (٢/ ١١٧) كتاب الصلاة باب التغليظ على من لا يتم الركوع والسجود كلهم من طريق هشام عن قتادة عن أنس، وأخرجه مسلم (٢/ ٣١٧ ـ الأبي) =

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾

﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ هم الكهنة والمتنبئة، كشق، وسطيح، ومسيلمة، وطليحة ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ هم الشياطين، كانوا قبل أن يحجبوا بالرجم يسمعون إلى الملإ الأعلى فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب، ثم يوحون به إلى أوليائهم من أولئك ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ فيما يوحون به إليهم؛ لأنهم يسمعونهم ما لم يسمعوا. وقيل: يلقون إلى أوليائهم السمع أي المسموع من الملائكة. وقيل: الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين فيتلقون وحيهم إليهم. أو يقولون المسموع من الشياطين إلى الناس، وأكثر الأفاكين كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم، وترى أكثر ما يحكمون به باطلاً وزوراً. وفي الحديث: «الكلمة يتخطفها الجنيّ فيقرّها في أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة» (١٠٨٤). والقرّ: الصب. فإن قلت: كيف دخل حرف الجرّ على «من» المتضمنة لمعنى الاستفهام والاستفهام له صدر الكلام؟ ألا ترى إلى قولك: أعلى زيد مررت؟ ولا تقول: على أزيد مررت؟ قلت: ليس معنى التضمن أن الاسم دل على معنيين معاً: معنى الاسم، ومعنى الحرف. وإنما معناه: أن الأصل أمن، فحذف حرف الاستفهام واستمرّ الاستعمال على حذفه، كما حذف من «هل» والأصل: أهَلْ؛ قال [من البسيط]:

. . . . أَهَلْ رَأَوْنَا بِسَفْحِ الْقَاعِ ذِي الأَكَمِ؟ (١)

= كتاب الصلاة: باب الأمر بتحسين الصلاة حديث (١١١/ ٤٢٥) وأحمد (٣/ ١٧٠ ـ ٢٣٤) من طريق سعيد عن قتادة عن أنس.

قال الحافظ: متفق عليه من حديث قتادة عن أنس بمعناه. واللفظ المذكور عند النسائي واتفقا عليه من حديث أبي هريرة بلفظ: «وهل ترون قبلتي ههنا: فوالله ما يخفى علي ركوعكم ولا سجودكم وإني لأراكم من وراء ظهري». انتهى.

١٠٨٤ ـ أخرجه البخاري (١١/ ٣٧٨) كتاب الطب باب الكهانة حديث (٥٧٦٢) وفي (١٢/ ٢٤٠) كتاب الأدب: باب قول الرجل للشيء ليس بشيء حديث (٦٢١٣) وفي (١٣/ ٥٤٥) كتاب التوحيد: باب قراءة الفاجر والمنافق حديث (٧٥٦١) ومسلم (٤/ ١٧٥٠) كتاب السلام باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان حديث (١٢٢/ ٢٢٢٨) وأحمد (٦/ ٨٧) وعبد الرزاق (٢٠٣٤٧) وابن حبان (٦١٣٦) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ١٣٨) والبغوي في «شرح السنة» (٦/ ٢٧٥ ـ بتحقيقنا) كلهم من طريق الزهري عن يحيى بن عروة عن عروة عن عائشة به.

قال الحافظ: متفق عليه من حديث عائشة أتم منه. انتهى.

---

(١) سائل فوارس يربوع بشدتنا أهل رأونا بسفح القاع ذي الأكم؟

لزيد الخيل الذي سماه النبي ﷺ زيد الخير، وسائل: فعل أمر بمعنى أسألهم وراجعهم في السؤال، =

فإذا أدخلت حرف الجرّ على «من» فقدّر الهمزة قبل حرف الجرّ في ضميرك، كأنك تقول: أعلى من تنزّل الشياطين، كقولك: أعلى زيد مررت. فإن قلت: ﴿يُلْقُونَ﴾ ما محله؟ قلت: يجوز أن يكون في محل النصب على الحال، أي: تنزل ملقين / ٢/ ٦٣ب السمع، وفي محل الجرّ صفة لكل أفاك؛ لأنه في معنى الجمع. وأن لا يكون له محل بأن يستأنف، كأن قائلاً قال: لم تنزل على الأفاكين؟ فقيل: يفعلون كيت وكيت. فإن قلت: كيف؟ قيل ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ بعد ما قضى عليهم أن كل واحد منهم أفاك؟ قلت: الأفاكون هم الذين يكثرون الإفك، ولا يدل ذلك على أنهم لا ينطقون إلا بالإفك، فأراد أن هؤلاء الأفاكين قلّ من يصدق منهم فيما يحكي عن الجني؛ وأكثرهم مفتر عليه. فإن قلت: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢)﴾، ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠)﴾، ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١)﴾ لم فرق بينهنّ وهنّ أخوات؟ قلت: أريد التفريق بينهنّ بآيات ليست في معناهنّ، ليرجع إلى المجيء بهنّ وتطرية ذكر ما فيهنّ كرّة بعد كرّة: فيدل بذلك على أن المعنى الذي نزلن فيه من المعاني التي اشتدت كراهة الله لخلافها. ومثاله: أن يحدّث الرجل بحديث وفي صدره اهتمام بشيء منه وفضل عناية، فتراه يعيد ذكره ولا ينفك عن الرجوع إليه.

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦)﴾

= لتتلقن حقيقة الحال، ويربوع: أبو حي، والباء بمعنى عن، أي: سلهم عن قوتنا. ويروى: بشدتنا، بفتح الشين. يقال: شد على قرنه في الحرب: حمل عليه، أي سلهم عن صولتنا عليهم، وجعل البصريون الباء بعد السؤال للسببية، لا بمعنى عن، والأصل في الاستفهام الهمزة، ولذلك كان لها تمام التصدير في الكلام، وأصل «هل» بمعنى «قد»، «ومن» لمن يفعل، «وما» لما لا يفعل. «ومتى» للزمان، وهكذا بقية الأدوات موضوعة لمعان غير الاستفهام، فليست عريقة فيه، بل الهمزة مقدرة قبلها، ولذلك تظهر في بعض الأحيان كما في البيت، ويدخل عليها حروف الجر، ويضاف إليها غيرها: لكن لكثرة الاستعمال فيه صارت الهمزة نسياً منسيا في حيز الإهمال. والاستفهام هنا للتقرير، «وهل» بمعنى «قد»، وأنكر ذلك ابن هشام. ونقل عن السيرافي أن الرواية: أم هل، فأم بمعنى «بل» «وهل» للاستفهام: قال: وعلى صحة الأولى فهل مؤكدة للهمزة شذوذاً اهـ. ويروى: فهل رأونا. ويجوز أن معناه: سلهم فقد رأونا. والسفح: السطح أو أصل الجبل المنسطح. والقاع المستوى من الأرض. والأكم ـ بالفتح ـ: واحده أكمة؛ وجمعه أكم بالضم، وهي التلول المرتفعة.

ينظر: ديوانه ص ١٥٥، والجنى الداني ص ٣٤٤، والدرر ٥/ ١٤٦، وشرح شواهد المغني ٢/ ٧٧٢، وشرح المفصل ٨/ ١٥٢، وبلا نسبة في أسرار العربية ص ٣٥٨، والأشباه والنظائر ٢/ ٤٢٧، ٧/ ٥٥، وتذكرة النحاة ص ٧٨؛ وجواهر الأدب ص ٢٨١، وخزانة الأدب ١١/ ٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٦، والخصائص ٢/ ٤٦٣، ورصف المباني ص ٤٠٧، وشرح عمدة الحافظ ص ٣٨٥، واللمع ص ٣١٧، ومغني اللبيب ٢/ ٣٥٢، والمقتضب ١/ ٤٤، ٣/ ٢٩١، وهمع الهوامع ٢/ ٧٧، ١٣٣.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ مبتدأ. و﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾ خبره: ومعناه: أنه لا يتبعهم على باطلهم وكذبهم وفضول قولهم وما هم عليه من الهجاء وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب، والنسيب بالحرم والغزل[1] والابتهار، ومدح من لا يستحق المدح، ولا يستحسن ذلك منهم ولا يطرب على قولهم ـ إلا الغاوون والسفهاء والشطار. وقيل: الغاوون: الراوون. وقيل: الشياطين، وقيل: هم شعراء قريش: عبد الله بن الزبعري، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، ومسافع بن عبد مناف، وأبو عزة الجمحيّ. ومن ثقيف: أمية بن أبي الصلت. قالوا: نحن نقول مثل قول محمد ـ وكانوا يهجونه، ويجتمع إليهم الأعراب من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم ـ وقرأ عيسى بن عمر: والشعراء، بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر. قال أبو عبيد: كان الغالب عليه حبّ النصب. قرأ: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤﴾ [المسد: ٤]. ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ و﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا﴾[2] وقرئ: يتبعهم، على التخفيف. ويتبعهم، بسكون العين تشبيها «لبعه بعضد».

ذكر الوادي والهيوم: فيه تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول واعتسافهم وقلة مبالاتهم بالغلوّ في المنطق ومجاوزة حدّ القصد فيه، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة، وأشحهم على حاتم، وأن يبهتوا البريّ[3]، ويفسقوا التقي. وعن الفرزدق: أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله [من الوافر]:

فَبِتْنَ بِجَانِبَيَّ مُصَرَّعَاتٍ وَبِتُّ أَفُضُّ أَغْلَاقَ الْخِتَامِ[4]

---

(١) قوله «والنسيب بالحرم والغزل» النسيب: أي التشبب، والغزل: محادثة النساء ومراودتهن. والابتهار: ادعاء الشيء كذبا، كذا في الصحاح في مواضع. (ع)

(٢) قوله «وسورة أنزلناها» لعل بعدها سقطاً تقديره: بالنصب. (ع)

(٣) قوله «وأن يبهتوا البري» أي يتهموا. (ع)

(٤)
خرجن إلي لم يطمثن قبلي وهن أصح من بيض النعام
فبتن بجانبي مصرعات وبت أفض أغلاق الختام

للفرزدق: يقول: خرج النسوة إلي من خدورهن حال كونهن لم يطمثن، أي لم يزل بكارتهن أحد قبلي، وأكد ذلك بقوله: وهُنّ أصح من بيض النعام الذي يصان عادة عن الكسر، لئلا تذهب زينته فبتن مطروحات عن يميني وشمالي، وبت أفض: أفتح وأزيل بكارتهن الشبيهة بأغلاق الختام لسدها الفروج، والأغلاق جمع غلق كسبب، بمعنى الأقفال. والختام: ما يسد به فم الزجاجة ونحوها، فإضافتها إليه بيانية. أو من إضافة المسميات إلى الاسم كأعواد السواك. ويجوز أن الختام بمعنى المختوم وهو الفرج، ويمكن أن يراد بالأغلاق: جوانب البكارة المشتبكة بالفرج وشبه البكارات أو جوانبها بالأغلاق على طريق التصريح، ولما سمع سليمان بن عبد الملك ذلك، قال: قد وجب عليك الحد، فقال: قد درأه الله عني بقوله: ﴿وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ۝٢٢٦﴾ فخلى سبيله.
ينظر ديوانه (ص ٨٣٦) (طبعة الصاوي)، لسان العرب (غلق)، (ختم)، أساس البلاغة (فضض)، تاج العروس (غلق).

فقال: قد وجب عليك الحدّ، فقال: يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني الحدّ بقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله وتلاوة القرآن، وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر، وإذا قالوا شعراً قالوه في توحيد الله والثناء عليه، والحكمة والموعظة، والزهد والآداب الحسنة، ومدح رسول الله ـ ﷺ ـ والصحابة وصلحاء الأمة، وما لا بأس به من المعاني التي لا يتلطخون فيها بذنب ولا يتلبسون بشائنة ولا منقصة، وكان هجاؤهم على سبيل الانتصار ممن يهجوهم. قال الله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ﴾ [النساء: ١٤٨]، وذلك من غير اعتداء ولا زيادة على ما هو واجب لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وعن عمرو بن عبيد: أن رجلاً من العلوية قال له: إن صدري ليجيش بالشعر، فقال: فما يمنعك منه فيما لا بأس به؟ والقول فيه: أن الشعر باب من الكلام، فحسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام. وقيل: المراد بالمستثنين: عبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت، والكعبان: كعب بن مالك، وكعب بن زهير؛ والذين كانوا ينافحون عن رسول الله ـ ﷺ ـ، ويكافحون هجاة قريش. وعن كعب بن مالك أنّ النبي ﷺ قال له: «اهجهم؛ فوالذي نفسي بيده لهو أشدّ عليهم من النبل» (١٠٨٥)، وكان يقول لحسان:

١٠٨٥ ـ قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢/ ٤٧٩) غريب.
وأخرج الترمذي (٥/ ١٣٩) كتاب الأدب: باب ما جاء في إنشاد الشعر حديث (٢٨٤٧) والنسائي (٥/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣) كتاب الحج: باب إنشاد الشعر في الحرم والمشي بين يدي الإمام حديث (٢٨٧٣) من طريق ثابت عن أنس أن النبي ـ ﷺ ـ دخل مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رواحة يمشي بين يديه وهو يقول [من الرجز]:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

فقال له عمر: يا ابن رواحة بين يدي رسول الله ـ ﷺ ـ وفي حرم الله عز وجل تقول الشعر قال النبي ـ ﷺ ـ: خل عنه فلهو أسرع فيهم من نضح النبل.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه وقد روى عبد الرزاق هذا الحديث أيضاً عن معمر عن الزهري عن أنس نحو هذا. وروي في غير هذا الحديث أن النبي ـ ﷺ ـ دخل مكة في عمرة القضاء وكعب بن مالك بين يديه وهذا أصح عند بعض أهل الحديث لأن عبد الله بن رواحة قتل يوم مؤتة وإنما كانت عمرة القضاء بعد ذلك .اهـ. =

«قل وروح القدس معك» (١٠٨٦). ختم السورة بآية ناطقة بما لا شيء أهيب منه وأهول،

= وأخرجه ابن مردويه كما في «تخريج الكشاف» (٢/ ٤٨٠) من طريق عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال: لما نزلت ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾ أتيت رسول الله ـ ﷺ ـ فقلت: يا رسول الله ماذا ترى في الشعر فقال: إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأنما تنضحوهم بالنبل.

قال الحافظ: أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال: لما نزلت ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾ أتيت رسول الله ـ ﷺ ـ فقلت: يا رسول الله، ماذا ترى في الشعر؟ فقال: المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفس محمد بيده لكأنما تنضحونهم بالنبل، قلت: وأخرجه من هذا الوجه قال ابن سعد في الطبقات: أخبرنا عبد الوهاب أخبرنا ابن عوف عن ابن سيرين «أن النبي ـ ﷺ ـ قال لكعب بن مالك: هيه: فأنشده. فقال: «لهو أشد عليهم من وقع النبل» ولمسلم عن عائشة مرفوعاً «اهجوا قريشاً فهو أشد عليها من رشق النبل» وللترمذي والنسائي من حديث ثابت عن أنس في أثناء حديث: فقال النبي ـ ﷺ ـ: «حل عنهم يا عمر، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل».

١٠٨٦ ـ أخرجه النسائي في الكبرى (٨٠١٥) كتاب المناقب (٨٢٩٥) من طريق يحيى بن آدم عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ لحسان: «اهج المشركين؛ فإن روح القدس معك».

قلت: وهذا إسناد صحيح، وإن كان بعضهم تكلم في إسرائيل، واختلاط أبي إسحاق لكن رواية إسرائيل عن أبي إسحاق قبل الاختلاط، كما قرر ذلك عدد من أهل العلم.

فقال أبو حاتم الرازي: «إسرائيل ثقة متقن، من أتقن أصحاب أبي إسحاق».

وقال عبد الرحمن بن مهدي: «إسرائيل في أبي إسحاق أثبت من شعبة والثوري».

وقال أبو داود: قلت لأحمد بن حنبل: إسرائيل إذا انفرد بحديث يحتج به؟ قال: «إسرائيل ثبت الحديث. . .».

وقال حجاج الأعور: «قلنا لشعبة: حدثنا حديث أبي إسحاق قال: سلوا عنها إسرائيل، فإنه أثبت مني» / انظر سير أعلام النبلاء (٣٥٥١٧ ـ ٣٦١) وشرح علل الترمذي لابن رجب (٢/ ٥١٩ ـ ٥٢٥) وللحديث طريق آخر عند الحاكم (٣/ ٤٨٧) عن عيسى بن عبد الرحمن حدثني عدي بن ثابت عن البراء بن عازب ـ فذكر نحوه وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٤٨١) لابن مردويه في تفسيره في سورة الأحزاب قلت: والحديث أصله في الصحيحين عن عدي بن ثابت عن البراء أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «اهج المشركين، فإن جبريل معك».

قلت: ووجدت متابعاً لإسرائيل عند الطبراني في الصغير (٨٣١٢) من طريق أيوب بن سويد عن السري بن يحيى عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب «أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لحسان بن ثابت: «اهج المشركين، فإن الله عز وجل يؤيدك بروح القدس» وقال: لم يروه عن السري إلا أيوب.

والذي يظهر لي أن فيه انقطاعاً بين السري بن يحيى وأبي إسحاق السبيعي والعلم عند الله تعالى.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: متفق عليه من حديث البزار. ولفظ النسائي: قال لحسان: «اهج المشركين، فإن روح القدس معك» وللحاكم وابن مردويه من طريق مجالد عن الشعبي عن جابر أن النبي ـ ﷺ ـ قال يوم الأحزاب «من يحمي أعراض المسلمين؟ فقال حسان: أنا. قال: فقم اهجهم، فإن روح القدس سيعينك». انتهى.

ولا أنكى لقلوب المتأملين ولا أصدع لأكباد المتدبرين. وذلك قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾ وما فيه من الوعيد البليغ، وقوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وإطلاقه. وقوله: ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ وإبهامه، وقد تلاها أبو بكر لعمر ـ رضي الله عنهما ـ حين عهد إليه (١٠٨٧). وكان السلف الصالح يتواعظون بها ويتناذرون شدّتها. وتفسير الظلم بالكفر تعليل[1]. ولأن تخاف فتبلغ الأمن: خير من أن تأمن فتبلغ الخوف. وقرأ ابن عباس: أي منفلت ينفلتون، ومعناها: إن الذين ظلموا يطمعون أن ينفلتوا من عذاب الله، وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات / ٢/ ٦٤أ وهو النجاة: اللهم اجعلنا ممن جعل هذه الآية بين عينيه فلم يغفل عنها؛ وعلم أن من عمل سيئة فهو من الذين ظلموا، والله أعلم بالصواب.

قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم وبعدد من كذب بعيسى وصدق بمحمد عليهم الصلاة والسلام» (١٠٨٨).

١٠٨٧ ـ أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ١٤٨) في ترجمة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ عن الواقدي بأسانيد متعددة مطولاً.
وعزاه الزيلعي وابن حجر في تخريج الكشاف لابن أبي حاتم في تفسيره.
قال الحافظ ابن حجر في الكشاف: أخرجه ابن أبي حاتم من طريق محمد بن عبد الرحمن بن المحسر عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: «كتب أبي وصية فذكرها، وفي آخرها: وإن تجر وتظلم فإني لا أعلم الغيب. وسيعلم الذين ظلموا ـ الآية، ورواه ابن سعد في الطبقات في ترجمة أبي بكر عن الواقدي بأسانيد متعددة مطولاً. انتهى.

١٠٨٨ ـ تقدم برقم (٣٤٦)، وهو حديث فضائل القرآن سورة سورة وهو حديث موضوع.
قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف: رواه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب. انتهى.

---

(١) قوله «وتفسير الظلم بالكفر تعليل» لعله من علله بالشيء، أي: لهاه به، كما يعلل الصبي بشيء من الطعام يجتزأ به عن اللبن، كما في الصحاح. (ع)

سورة النمل

مكية، وهي ثلاث وتسعون آية، وقيل أربع وتسعون

[نزلت بعد الشعراء]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿طسٓ﴾ قرئ بالتفخيم والإمالة، و﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى آيات السورة والكتاب المبين: إما اللوح، وإبانته: أنه قد خط فيه كل ما هو كائن فهو يبينه للناظرين فيه إبانة. وإما السورة. وإما القرآن، وإبانتهما: أنهما يبينان ما أودعاه من العلوم والحكم والشرائع، وأنّ إعجازهما ظاهر مكشوف، وإضافة الآيات إلى القرآن والكتاب المبين: على سبيل التفخيم لها والتعظيم؛ لأنّ المضاف إلى العظيم يعظم بالإضافة إليه. فإن قلت: لم نكر الكتاب المبين؟ قلت: ليبهم بالتنكير فيكون أفخم له، كقوله تعالى: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٥]. فإن قلت: ما وجه عطفه على القرآن إذا أريد به القرآن؟ قلت: كما يعطف إحدى الصفتين على الأخرى في نحو قولك: هذا فعل السخي والجواد الكريم، لأنّ القرآن هو المنزل المبارك المصدّق لما بين يديه، فكان حكمه حكم الصفات المستقلة بالمدح، فكأنه قيل: تلك الآيات آيات المنزل المبارك آي كتاب مبين. وقرأ ابن أبي عبلة: وكتاب مبين بالرفع على تقدير: وآيات كتاب مبين، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. فإن قلت: ما الفرق بين هذا وبين قوله: الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين؟ قلت: لا فرق بينهما إلا ما بين المعطوف والمعطوف عليه من التقدّم والتأخر، وذلك على ضربين: ضرب جار مجرى التثنية لا يترجح فيه جانب على جانب وضرب فيه ترجح، فالأول نحو قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾، ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ ومنه ما نحن بصدده. والثاني: نحو قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾، ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ في محل النصب أو الرفع، فالنصب على الحال، أي: هادية ومبشرة؛ والعامل فيها ما في تلك من معنى الإشارة، والرفع على ثلاثة أوجه، على: هي هدى

وبشرى، وعلى البدل من الآيات، وعلى أن يكون خبراً بعد خبر، أي: جمعت أنها آيات، وأنها هدى وبشرى. والمعنى في كونها هدى للمؤمنين: أنها زائدة في هداهم. قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾. فإن قلت: ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ كيف يتصل بما قبله؟ قلت: يحتمل أن يكون من جملة صلة الموصول، ويحتمل أن تتم الصلة عنده ويكون جملة اعتراضية، كأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة: هم الموقنون بالآخرة، وهو الوجه. ويدل عليه أنه عقد جملة ابتدائية وكرّر فيها المبتدأ الذي هو (هم) حتى صار معناها: وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح، لأنّ خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾

فإن قلت: كيف أسند تزيين أعمالهم إلى ذاته، وقد أسنده إلى الشيطان في قوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ [الأنعام: ٤٣]؟ قلت: بين الإسنادين فرق، وذلك أنّ إسناده إلى الشيطان حقيقة، وإسناده إلى الله عز وجل[2] مجاز، وله طريقان في علم البيان. أحدهما:

---

(١) قال محمود: «كرر الضمير حتى صار معنى الكلام: ولا يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح، لأن خوف الآخرة يحملهم على تحمل المشاق» قال أحمد: قد تقدم في غير موضع اعتقاد أن إيقاع الضمير مبتدأ يفيد الحصر، كما مر له في قوله تعالى: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أن معناه: لا ينشر إلا هم، وعد الضمير من آلات الحصر كما مر ليس ببين، وقد بينا لمجيء الضمير في سورة اقترب وجهاً سوى الحصر. وأما وجه تكراره هنا - والله أعلم - فهو أنه لما كان أصل الكلام: وهم يوقنون بالآخرة، ثم قدم المجرور على عامله عناية به فوقع فاصلاً بين المبتدأ والخبر، فأريد أن يلي المبتدأ خبره وقد حال المجرور بينهما، فطرى ذكره ليليه الخير، ولم يفت مقصود العناية بالمجرور. حيث بقي على حاله مقدماً، ولا يستنكر أن تعاد الكلمة مفصولة له وحدها بعد ما يوجب التطرية، فأقرب منها أن الشاعر قال:

سل ذو عجل ذا وألحقنا بذا ... الشحم إنا قد مللناه بخل

والأصل: وألحقنا بذا الشحم، فوقع منتصف الرجز أو منتهاه، على القول بأن مشطور الرجز بيت كامل عند اللام وبنى الشاعر على أنه لا بد عند المنتصف أو المنتهى من وقيفة ما، فقدر بتلك الوقفة بعد أن بين المعرف وآلة التعريف فطراها ثانية، فهذه التطرية لم تتوقف على أن يحول بين الأول وبين المكرر ولا كلمة واحدة، سوى تقديره وقفة لطيفة لا غير، فتأمل هذا الفصل فإنه جدير بالتأمل، والله أعلم.

(٢) قال محمود: «إن قلت كيف أسند التزيين إلى ذاته وقد أسنده إلى الشيطان في قوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ قلت: إن بين الإسنادين فرقاً، فالإسناد إلى الله مجاز. وإلى الشيطان حقيقة. وقد روي عن الحسن أن المراد زينا لهم أعمال البر فعمهوا عنها ولم يهتدوا إلى العمل بها، قال أحمد: وهذا الجواب مبني على القاعدة الفاسدة في إيجاب رعاية الصلاح والأصلح، وامتناع أن يخلق الله =

أن يكون من المجاز الذي يسمى الاستعارة. والثاني: أن يكون من المجاز الحكميّ، فالطريق الأوّل: أنه لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق. وجعلوا إنعام الله بذلك عليهم وإحسانه إليهم ذريعة إلى اتباع شهواتهم وبطرهم وإيثارهم الروح والترفه، ونفارهم عما يلزمهم فيه التكاليف الصعبة والمشاق المتعبة، فكأنه زين لهم بذلك أعمالهم. وإليه أشارت الملائكة صلوات الله عليهم في قولهم: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ﴾ والطريق الثاني: أن إمهاله الشيطان وتخليته حتى يزين لهم ملابسة ظاهرة للتزيين، فأسند إليه لأن المجاز الحكميّ يصححه بعض الملابسات. وقيل: هي أعمال الخير التي وجب عليهم أن يعملوها، زينها لهم الله فعمهوا عنها وضلوا، ويعزى إلى الحسن. والعمه: التحير والتردّد، كما يكون حال الضال عن الطريق. وعن بعض الأعراب: أنه دخل السوق وما أبصرها قط، قال: رأيت الناس عمهين، أراد: متردّدين في /٢/ ٦٤ب أعمالهم وأشغالهم ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ القتل والأسر يوم بدر. و﴿الْأَخْسَرُونَ﴾ أشدّ الناس خسرانا؛ لأنهم لو آمنوا لكانوا من الشهداء على جميع الأمم، فخسروا ذلك مع خسران النجاة وثواب الله.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾

﴿لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ لتؤتاه وتلقنه ﴿مِن﴾ عند أي ﴿حَكِيمٍ﴾ وأي ﴿عَلِيمٍ﴾ وهذا معنى مجيئهما نكرتين. وهذه الآية بساط وتمهيد، لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيص وما في ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾

﴿إِذْ﴾ منصوب بمضمر، وهو: اذكر، كأنه قال على أثر ذلك: خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى. ويجوز أن ينتصب بعليم. وروي أنه لم يكن مع موسى عليه السلام

= تعالى للعبد إلا ما هو مصلحة، فمن ثم جعل إسناد التزيين إلى الله تعالى مجازاً، وإلى الشيطان حقيقة، ولو عكس الجواب لفاز بالصواب، وتأمل ميله إلى التأويل الآخر: من أن المراد أعمال البر على بعده؛ لأنه لا يعرض لقاعدته بالنقض، وأنى لهم ذلك وقد أتى الله بنيانهم من القواعد؛ على أن التزيين قد ورد في الخير في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ومما يبعد حمله على أعمال البر: إضافة الأعمال إليهم في قوله (أعمالهم) وأعمال البر ليست مضافة إليهم؛ لأنهم لم يعملوها قط، فظاهر الإضافة يعطي ذلك. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وقوله: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ فأطلق الإيمان في المكانين عن إضافته إليهم؛ لأنه لم يصدر منهم، وأضاف الإسلام الظاهر إليهم، لأنه صدر منهم، والله أعلم.

غير امرأته، وقد كنى الله عنها بالأهل، فتبع ذلك ورود الخطاب على لفظ الجمع، وهو قوله: ﴿ٱمْكُثُوٓا۟﴾. الشهاب: الشعلة. والقبس: النار المقبوسة، وأضاف الشهاب إلى القبس لأنه يكون قبساً وغير قبس. ومن قرأ بالتنوين: جعل القبس بدلاً، أو صفة لما فيه من معنى القبس. والخبر: ما يخبر به عن حال الطريق، لأنه كان قد ضله. فإن قلت: سآتيكم منها بخبر، ولعلي آتيكم منها بخبر: كالمتدافعين؛ لأنّ أحدهما ترجّ والآخر تيقن. قلت: قد يقول الراجي إذا قوي رجاؤه. سأفعل كذا، وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة. فإن قلت: كيف جاء بين التسويف؟ قلت: عدة لأهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ، أو كانت المسافة بعيدة. فإن قلت: فلم جاء بأو دون الواو؟ قلت: بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعاً لم يعدم واحدة منهما: إمّا هداية الطريق؛ وإما اقتباس النار، ثقة بعادة الله أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده، وما أدراه حين قال ذلك أنه ظافر على النار بحاجتيه الكليتين جميعاً، وهما العزّان: عز الدنيا، وعز الآخرة.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾

﴿أَنۢ﴾هي المفسرة؛ لأنّ النداء فيه معنى القول. والمعنى: قيل له بورك. فإن قلت: هل يجوز أن تكون المخففة من الثقيلة وتقديره: نودي بأنه بورك. والضمير ضمير الشأن؟ قلت: لا، لأنه لا بدّ من «قد». فإن قلت: على إضمارها؟ قلت: لا يصح؛ لأنها علامة لا تحذف. ومعنى ﴿بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ بورك من في مكان النار، ومن حول مكانها. ومكانها: البقعة التي حصلت فيها وهي البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى: ﴿نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ﴾ [القصص: ٣٠] وتدل عليه قراءة أبيّ. تباركت الأرض ومن حولها. وعنه: بوركت النار؛ والذي بوركت له البقعة، وبورك من فيها وحواليها حدوث أمر ديني فيها؛ وهو تكليم الله موسى واستنباؤه له وإظهار المعجزات عليه؛ وربّ خير يتجدّد في بعض البقاع، فينشر الله بركة ذلك الخير في أقاصيها، ويبث آثار يمنه في أباعدها، فكيف بمثل ذلك الأمر العظيم الذي جرى في تلك البقعة. وقيل: المراد بالمبارك فيهم: موسى والملائكة الحاضرون. والظاهر أنه عامّ في كل من كان في تلك الأرض وفي ذلك الوادي وحواليهما من أرض الشام، ولقد جعل الله أرض الشام بالبركات موسومة في قوله: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ وحقت أن تكون كذلك، فهي مبعث الأنبياء صلوات الله عليهم ومهبط الوحي إليهم وكفاتهم أحياء وأمواتا. فإن قلت: فما معنى ابتداء خطاب الله موسى بذلك عند مجيئه؟ قلت: هي بشارة له بأنه قد قضى أمر عظيم تنتشر منه في أرض الشام كلها البركة ﴿وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ تعجيب لموسى عليه السلام من ذلك، وإيذان بأنّ ذلك الأمر مريده ومكوّنه رب العالمين،

تنبيهاً على أن الكائن من جلائل الأمور وعظائم الشئون.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

الهاء في ﴿إِنَّهُۥٓ﴾ يجوز أن يكون ضمير الشأن، والشأن ﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ مبتدأ وخبر. و﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صفتان للخبر. وأن يكون راجعاً إلى ما دل عليه ما قبله، يعني: أنّ مكلمك أنا، والله بيان لأنا. والعزيز الحكيم: صفتان للمبين، وهذا تمهيد لما أراد أن يظهره على يده من المعجزة، يريد: أنا القويّ القادر على ما يبعد من الأوهام كقلب العصا حية، الفاعل كل ما أفعله بحكمة وتدبير.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾

فإن قلت: علام عطف قوله ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾؟ قلت: على بورك؛ لأن المعنى: نودي أن بورك من في النار، وأن ألق عصاك: كلاهما تفسير لنودي. والمعنى: قيل له بورك من في النار، وقيل له: ألق عصاك. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ بعد قوله: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ على تكرير حرف التفسير، كما تقول: كتبت إليك أن حج وأن اعتمر، وإن شئت أن حج واعتمر. وقرأ الحسن: جأنّ على لغة من يجدّ في الهرب من التقاء الساكنين /٢/ ٦٥أ، فيقول: شأبّة ودأبّة. ومنها قراءة عمرو بن عبيد: ولا الضألين ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ لم يرجع، يقال: عقب المقاتل، إذا كرّ بعد الفرار؛ قال [من الطويل]:

فَمَا عَقَّبُوا إِذْ قِيلَ: هَلْ مِنْ مُعَقِّبٍ؟ ... وَلاَ نَزَلُوا يَوْمَ الْكَرِيهَةِ مَنْزِلا[1]

وإنما رعب لظنه أن ذلك لأمر أريد به، ويدل عيه ﴿لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ و﴿إِلَّا﴾ بمعنى «لكن» لأنه لما أطلق نفي الخوف عن الرسل، كان ذلك مظنة لطروّ الشبهة، فاستدرك ذلك. والمعنى: ولكن من ظلم منهم أي فرطت منه صغيرة مما يجوز على الأنبياء، كالذي فرط من آدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف، ومن موسى بوكزة القبطي، ويوشك أن يقصد بهذا التعريض بما وجد من موسى، وهو من التعريضات التي يلطف مأخذها. وسماه ظلماً، كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ والحسن، والسوء: حسن التوبة، وقبح الذنب. وقرئ: ألا من ظلم، بحرف التنبيه. وعن أبي عمرو

---

(١) يصف قوماً بالجبن، وإنهم إن قيل: هل من معقب وراجع على عقبه للحرب فما رجعوا إليها، ولا نزلوا يوم الحرب منزلاً من منازلها، أي: لم يقدموا مرة على العدو. وروي: إذ قيل، أي: حين ذلك.

في رواية عصمة: حسناً.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾

و﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ كلام مستأنف، وحرف الجرّ فيه يتعلق بمحذوف. والمعنى: اذهب في تسع آيات ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾؛ ونحوه [من الوافر]:

فَقُلْتُ: إِلَى الطَّعَامِ فَقَالَ مِنْهُمْ ... فَرِيقٌ: نَحْسُدُ الأَنْسَ الطَّعَامَا[1]

ويجوز أن يكون المعنى: وألق عصاك، وأدخل يدك: في تسع آيات، أي: في جملة تسع آيات وعدادهنّ. ولقائل أن يقول: كانت الآيات إحدى عشرة: ثنتان منها اليد والعصا، والتسع: الفلق، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطمسة، والجدب في بواديهم، والنقصان في مزارعهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾

المبصرة: الظاهرة البينة. جعل الإبصار لها وهو في الحقيقة لمتأمّليها، لأنهم لابسوها وكانوا بسبب منها بنظرهم وتفكرهم فيها. ويجوز أن يراد بحقيقة الإبصار: كل ناظر فيها من كافة أولي العقل، وأن يراد إبصار فرعون وملئه، لقوله: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ أو جعلت كأنها تبصر فتهدي، لأنّ العمي لا تقدر على الاهتداء، فضلا أن تهدي غيرها. ومنه قولهم: كلمة عيناء، وكلمة عوراء، لأن الكلمة الحسنة ترشد، والسيئة تغوي. ونحوه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] فوصفها بالبصارة، كما وصفها بالإبصار. وقرأ عليّ بن الحسين ـ رضي الله عنهما ـ وقتادة: مبصرة، وهي نحو: مجبنة ومبخلة ومجفرة[2]، أي: مكانا يكثر فيه التبصر.

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

الواو في ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾ واو الحال، وقد بعدها مضمرة، والعلو: الكبر والترفع عن الإيمان بما جاء به موسى، كقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون وقرئ: عليا، وعليا بالضم والكسر، كما قرئ عتيا، وعتيا.

---

(١) تقدم.

(٢) قوله «ومجفرة» في الصحاح «جفر الفحل عن الضراب»: إذا انقطع عنه. ومنه قيل: الصوم مجفرة، أي قاطع للنكاح. (ع)

وفائدة ذكر الأنفس: أنهم جحدوها بألسنتهم، واستيقنوها في قلوبهم وضمائرهم. والاستيقان أبلغ من الإيقان، وقد قوبل بين المبصرة والمبين، وأي ظلم أفحش من ظلم من اعتقد واستيقن أنها آيات بينة واضحة جاءت من عند الله، ثم كابر بتسميتها سحراً بيناً مكشوفاً لا شبهة فيه.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾

﴿عِلْمًا﴾طائفة من العلم[1] أو علماً سنياً غزيراً. فإن قلت: أليس هذا موضع الفاء دون الواو، كقولك: أعطيته فشكر، ومنعته فصبر؟ قلت: بلى، ولكن عطفه بالواو إشعار بأن ما قالاه بعض ما أحدث فيهما إيتاء العلم وشيء من مواجبه، فأضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد، كأنه قال: ولقد آتيناهما علماً فعملا به وعلماه وعرفا حق النعمة فيه[2] والفضيلة ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾. والكثير المفضل عليه: من لم يؤت علماً. أو من لم يؤت مثل علمهما. وفيه: أنهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير. وفي الآية دليل على شرف العلم وإنافة محله وتقدم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجل النعم. وأجزل القسم، وأن من أوتيه فقد أوتي فضلاً على كثير من عباد الله، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وما سماهم رسول الله ـ ﷺ ـ «ورثة الأنبياء» (١٠٨٩) إلا لمداناتهم لهم في الشرف والمنزلة، لأنهم القوّام بما بعثوا من أجله. وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة

١٠٨٩ ـ ورد هذا الحديث عن جماعة من الصحابة هم أبو الدرداء والبراء بن عازب وعبد الله بن عمرو، وجابر وابن مسعود.

---

(١) قال محمود: «معناه طائفة من العلم» قال أحمد: التبعيض والتقليل من التنكير، وكما يرد للتقليل من شأن المنكر، فكذلك يرد للتعظيم من شأنه كما مر آنفاً في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ ولم يقل الحكيم العليم. والغرض من التنكير التفخيم، كأنه قال: من لدن حكيم عليم؛ فظاهر قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ في سياق الامتنان تعظيم العلم الذي أوتياه؛ كأنه قال: علماً أي علم، وهو كذلك؛ فإن علمهما كان مما يستعظم ويستغرب؛ ومن ذلك علم منطق الطير وسائر الحيوانات الذي خصهما الله تعالى به وكل علم بالإضافة إلى علم الله تعالى قليل ضئيل؛ والله أعلم.

(٢) قال محمود: «بجلا نعمة الله عليهما من حيث قولهما (فضلنا) وتواضعا بقولهما (على كثير) ولم يقولا: على عباده؛ اعترافاً بأن غيرهما يفضلهما، حذراً من الترفع.
قال السمين الحلبي: وإنما نكر «علماً» تعظيماً له أي علماً سنيًا أو دلالة على التبعيض لأنه قليل جداً بالنسبة إلى علمه تعالى. انتهى. الدر المصون.

لوازم، منها: أن يحمدوا الله على ما أوتوه من فضلهم على غيرهم. وفيها التذكير

= أما حديث أبي الدرداء: فأخرجه أبو داود (٣/٣١٧) ـ كتاب العلم ـ باب الحث على طلب العلم ـ (٣٦٤١) وابن ماجه (١/٨١) ـ المقدمة ـ باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ـ (٢٢٣) وأحمد في مسنده (٥/١٩٦)، والبيهقي في الشعب (٢/٢٦٢) (١٦٩٦) والدارمي (١/٩٨)، وابن حبان (١/٢٨٩ ـ ٢٩٠) (٨٨)، والخطيب البغدادي في «الرحلة في طلب الحديث» رقم (٥).
والبغوي في «شرح السنة» (١/٢٢٣) (١٢٩)، والبزار في مسنده (١٣٦) وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/١٦٣ ـ ١٦٤) (١٧٢)، كلهم من طرق عن عاصم بن رجاء بن حيوة عن داود بن جميل عن كثير بن قيس، قال: كنت جالساً مع أبي الدرداء في مسجد دمشق. . .
وقال البغوي: حديث غريب لا يُعرف إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة.
وقال ابن عبد البر: داود بن جميل مجهول، ولا يعرف هو ولا أبوه، ولا نعلم أحداً روى عنه غير عاصم بن رجاء ـ بتصرف ـ وقال الدارقطني: «مجهول».
وقال الحافظ في التقريب: داود بن جميل ويقال اسمه الوليد، ضعيف قلت وقع تصحيف عند أحمد «عن عاصم بن رجاء بن حيوة عن داود بن حميد به» وصوابه «داود بن جميل» كما أثبتناه.
وأخرجه أحمد أيضاً (٥/١٩٦)، والترمذي (٥/٤٨ ـ ٤٩) ـ كتاب العلم ـ (٤٣) باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ـ (٢٦٨٢)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/١٦٠) حديث رقم (١٦٩).
من طرق عن عاصم بن رجاء بن حيوة عن قيس بن كثير قال: قدم رجل من المدينة. . . .
وقال الترمذي: ولا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء، وليس هو عندي بمتصل. . . وإنما يروى هذا الحديث عن عاصم بن رجاء بن حيوة عن الوليد بن جميل عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء عن النبي ـ ﷺ ـ. . . وهذا أصح. . . ورأى محمد بن إسماعيل هذا أصح .اهـ.
قلت: وللحديث متابعة عند أبي داود في سننه (٣/٣١٧) (٣٦٤٢) من طريق الوليد قال: لقيت شبيب بن شيبة فحدثني به عن عثمان بن أبي سودة عن أبي الدرداء ـ يعني عن النبي ـ ﷺ ـ بمعناه وهذا إسناد حسن يتقوى الحديث به.
وأخرجه أيضاً الخطيب البغدادي في تاريخه (١/٣٩٨) من طريق محمد بن إبراهيم أبو حمزة المروزي قال: نبأنا علي بن الحسن بن شقيق قال: أنبأنا ابن المبارك قال أنبأ يونس بن يزيد عن عطاء الخراساني قال: قال أبو الدرداء سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «من سلك. . .» قلت: وهذا إسناد رجال ثقات غير أن عطاء بن أبي مسلم الخرساني لم يسمع من أبي الدرداء وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/٩) للطبراني في معجمه الكبير من حديث مسلم، عن شعيب بن رزيق سمعت عثمان بن رزيق: سمعت عثمان بن أبي سودة قال: قدم رجل. . . . فذكر الحديث وفيه «العلماء ورثة الأنبياء» وقال الزيلعي: وهذه الرواية أشبه من رواية أبي داود، وإسناده جيد، وشعيب بن رزيق، قال فيه دحيم: لا بأس به، وقال الدارقطني ثقة، وللحديث طريق سالمة من الضعف والاضطراب رواه الطبراني، في معجمة الكبير فذكره .اهـ.
وذكر السخاوي في المقاصد الحسنة (ص ٢٨٦/٧٠٣) وقال: صححه الحاكم وابن حبان وغيرهما وحسنه حمزة الكتاني، وضعفه غيرهم بالاضطراب في سنده، لكن له شواهد يتقوى بها.
قلت فمن شواهده. =

بالتواضع، وأن يعتقد العالم أنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه مثلهم. وما أحسن قول عمر: كل الناس أفقه من عمر (١٠٩٠).

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

ورث منه النبوّة والملك دون سائر / بنيه ـ وكانوا تسعة عشر ـ وكان داود أكثر تعبداً، وسليمان أقضى وأشكر لنعمة الله ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ تشهيراً لنعمة الله، وتنويهاً بها، واعترافاً بمكانها، ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير، وغير ذلك مما أوتيه من عظائم الأمور. والمنطق: كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف،

= حديث عبد الله بن مسعود.
أخرجه أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي في تاريخ جرجان (ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦) ثنا يحيى بن زكريا بن أحمد المصري، ثنا زفر بن الهديل، ثنا أبو حنيفة النعمان بن ثابت، عن حماد عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً «العلماء ورثة الأنبياء».
وحديث جابر بن عبد الله: أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (٤/٤٣٨)، وابن الجوزي في العلل (١/٧٩)، كلاهما من طريق الضحاك بن حجوة قال نا الفريابي قال نا سفيان الثوري عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله: قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أكرموا العلماء فإنهم ورثة الأنبياء..».
قال ابن الجوزي: حديث لا يصح. قال ابن عدي الضحاك بن حجوة منكر الحديث عن الثقات رواياته مناكير إما متناً وإما إسناداً، وقال ابن حبان، لا يجوز الاحتجاج به. اهـ.
وأما حديث البراء بن عازب وعبد الله بن عمر فذكرهما الزيلعي في تخريج الكشاف وعزاهما لأبي نعيم في كتابه «فضل العالم العفيف على الجاهل الشريف».
والحديث ذكره البخاري في صحيحه (١/٢١٥) ـ كتاب العلم ـ باب العلم قبل القول والعمل لقول الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فبدأ بالعلم وإن العلماء هم ورثة الأنبياء...
وقال الحافظ ابن حجر: طرف من حديث أخرجه أبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم مصححاً من حديث أبي الدرداء وحسنه حمزة الكتاني وضعفه عندهم سنده، لكن له شواهد يتقوى بها، ولم يفصح المصنف بكونه حديثاً فلهذا لا يعد في تعاليقه، لكن إيراده له في الترجمة يشعر بأن له أصلاً، وشاهده في القرآن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه أبو داود والترمذي وابن حبان من حديث أبي الدرداء، من حديث واه «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً وفيه إن العلماء ورثة الأنبياء» وله طرق عند الطبراني.
وفي الباب عن البراء وابن عمرو بن العاص أخرجهما أبو نعيم في كتاب «فضل العالم العفيف على الجاهل الشريف»، وعن ابن مسعود أخرجه ابن حمزة السهمي في تاريخ جرجان، وعن جابر أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد في ترجمة أحمد بن محمد الثلجي. وفي إسناده الضحاك بن حجوة. وهو متهم بوضع الحديث. انتهى.
١٠٩٠ ـ تقدم في سورة النساء.

المفيد وغير المفيد. وقد ترجم يعقوب بن السكيت كتابه بإصلاح المنطق، وما أصلح فيه إلا مفردات الكلم. وقالت العرب: نطقت الحمامة، وكل صنف من الطير يتفاهم أصواته، والذي علمه سليمان من منطق الطير: هو ما يفهم بعضه من بعض من معانيه[1] وأغراضه. ويحكى أنه مر على بلبل في شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول؟ قالوا: الله ونبيه أعلم: قال يقول: أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء. وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا. وصاح طاووس، فقال يقول: كما تدين تدان. وصاح هدهد، فقال يقول: استغفروا الله يا مذنبين. وصاح طيطوى، فقال يقول: كل حيّ ميت، وكل جديد بال. وصاح خطاف فقال يقول: قدّموا خيراً تجدوه. وصاحت رخمة، فقال تقول: سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه. وصاح قمري، فأخبر أنه يقول: سبحان ربي الأعلى. وقال: الحدأ يقول: كل شيء هالك إلا الله. والقطاة تقول: من سكت سلم. والببغاء تقول: ويل لمن الدنيا همه: والديك يقول: اذكروا الله يا غافلين. والنسر يقول: يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت. والعقاب يقول: في البعد من الناس أنس. والضفدع يقول: سبحان ربي القدوس. وأراد بقوله: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ كثرة ما أوتي، كما تقول: فلان يقصده كل أحد، ويعلم كل شيء، تريد: كثرة قصاده ورجوعه إلى غزارة في العلم واستكثار منه. ومثله قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ قول وارد على سبيل الشكر والمحمدة، كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» (١٠٩١)، أي: أقول هذا القول شكراً ولا أقوله فخراً. فإن قلت: كيف قال علمنا وأوتينا وهو من كلام المتكبرين؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يريد نفسه وأباه. والثاني: أن هذه النون يقال لها نون الواحد المطاع ـ وكان ملكاً مطاعاً ـ فكلم أهل طاعته على صفته وحاله التي كان عليها، وليس التكبر من لوازم ذلك، وقد يتعلق بتجمل الملك وتفخمه وإظهار آيينه[2] وسياسته مصالح، فيعود تكلف ذلك واجباً. وقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ يفعل نحواً من ذلك إذا وفد عليه وفد أو احتاج أن يرجح في عين عدوّ. ألا ترى كيف أمر العباس

١٠٩١ ـ تقدم.
قال الحافظ: تقدم في يوسف.

---

(١) قوله «هو ما يفهم بعضه من بعض معانيه» عبارة النسفي: والمنطق: كل ما يصوت من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد، وكان سليمان عليه السلام يفهم منها كما يفهم بعضها من بعض اهـ. (ع)

(٢) قوله «وإظهار آيينه» قيل: مراتبه وبهاؤه. وفي نسخه: أبهته، فليحرر. (ع)

- رضي الله عنه - بأن يحبس أبا سفيان حتى تمرّ عليه الكتائب (١٠٩٢).

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

روي أن معسكره كان مائة فرسخ في مائة: خمسة وعشرون للجنّ، وخمسة وعشرون للإنس، وخمسة وعشرون للطير، وخمسة وعشرون لوحش، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب، فيها ثلاثمائة منكوحة. وسبعمائة سرية، وقد نسجت له الجنّ بساطاً من ذهب وإبريسم فرسخاً في فرسخ، وكان يوضع منبره في وسطه وهو من ذهب، فيقعد عليه وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب وفضة، فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة، وحولهم الناس وحول الناس الجنّ والشياطين، وتظله الطير بأجنحتها حتى لا يقع عليه الشمس، وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر. ويروى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله، ويأمر الرخاء تسيره، فأوحى الله إليه وهو يسير بين السماء والأرض: إني قد زدت في ملكك لا يتكم أحد بشيء إلا ألقته الريح في سمعك، فيحكى أنه مر بحرّاث فقال: لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً، فألقته الريح في أذنه، فنزل ومشى إلى الحرّاث وقال: إنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه، ثم قال: لتسبيحة واحدة يقبلها الله، خير مما أوتي آل داود ﴿يُوزَعُونَ﴾ يحبس أولهم على آخرهم، أي: توقف سلاف العسكر[1] حتى تلحقهم التوالي فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد، وذلك للكثرة العظيمة.

١٠٩٢ - أخرجه البخاري في صحيحه (٩/٣١٦) - كتاب المغازي (٦٤) - باب أين ركز النبي - ﷺ - الراية يوم الفتح (٤٩) (٤٢٨٠) من رواية هشام بن عروة عن أبيه قال: لما سار رسول الله - ﷺ - عام الفتح - وفيه فأسلم أبو سفيان: فلما سار قال للعباس: «احبس أبا سفيان عند «خطم الجبل» حتى ينظر إلى المسلمين» فحبسه العباس فجعلت القبائل تمر مع النبي - ﷺ - كتيبة كتيبة...

وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٣٢ - ٣٤) من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال: حدثنا الحسن بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس عن عكرمة عن ابن عباس قال: فذكره وابن إسحاق وهو محمد بن إسحاق أبو بكر إمام في المغازي ولكنه صدوق وكثير التدليس.

قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف: أخرجه البخاري من رواية هشام بن عروة عن أبيه في قصة الفتح، قال فأسلم أبو سفيان. فلما سار قال للعباس احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين؛ فحبسه العباس، فجعلت الكتائب تمر مع النبي - ﷺ - كتيبة بعد كتيبة وأخرجه البيهقي في الدلائل من طريق عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهما -.

---

(١) قوله «سلاف العسكر» أي متقدموهم. أفاده الصحاح. (ع)

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾

قيل: هو واد بالشام كثير النمل، فإن قلت: لم عدّى ﴿أَتَوۡاْ﴾ بعلى؟ قلت: يتوجه على معنيين أحدهما: أن إتيانهم كان من فوق، فأتى بحرف الاستعلاء؛ كما قال أبو الطيب [من الكامل]:

. . . . وَلَشُدَّ مَا قَرُبَتْ عَلَيْكَ الأَنْجُمُ[1]

لما كان قربا من فوق. والثاني: أن يراد قطع الوادي وبلوغ آخره، من قولهم: أتى على الشيء إذا أنفذه وبلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادي، لأنهم ما دامت الريح تحملهم في الهواء لا يخاف حطمهم، وقرئ نملة يا أيها النمل، بضم الميم وبضم النون والميم، وكان الأصل: النمل، بوزن الرجل، والنمل الذي عليه الاستعمال: تخفيف /٢/٦٦أ عنه، كقولهم: «السبع» في السبع. قيل: كانت تمشي وهي عرجاء تتكاوس[2]، فنادت: يا أيها النمل: الآية، فسمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال. وقيل: كان اسمها طاخية. وعن قتادة أنه دخل الكوفة فالتف عليه الناس، فقال: سلوا عما شئتم، وكان أبو حنيفة رحمه الله حاضراً ـ وهو غلام حدث ـ. فقال: سلوه عن نملة سليمان، أكانت ذكراً أم أنثى؟ فسألوه فأفحم، فقال أبو حنيفة: كانت أنثى، فقيل له: من أين عرفت؟ قال: من كتاب الله، وهو قوله: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ ولو كانت ذكراً لقال: قال نملة[3]،

---

(١) فلشد ما جاوزت قدرك صاعداً ... ولشد ما قربت عليك الأنجم
لأبي الطيب المتنبي، طلب منه رجل المدح، فأبى وقال ذلك، واللام للتأكيد، وشد على صورة المبني للمجهول للتعجب، وأصله شدد كحسن. فنقل ضم الدال إلى الشين وأدغم. كما هو قياس بناء التعجب، أي: ما أشد مجاوزتك لقدرك، يعني: كثرت مجاوزتك لمقدارك، حال كونك صاعداً فيما ليس لك من الرفعة، وقال: عليك، دون: إليك؛ لأن قرب الأنجم من جهة العلو، أي: كثر عندك قرب النجوم إليك من فوق، ثم يحتمل أن النجوم حقيقة فقد بنى على الصعود المعنوي ما ينبني على الصعود الحسي، للمبالغة في تشبيه الأول بالثاني، ويحتمل أنها مستعارة لشعره الذي هو النجوم في الحسن، وعزة الوصول إليه على طريق التصريحية، ففيه شبه التورية.

(٢) قوله «تتكاوس» في الصحاح: كوسته على رأسه تكويساً، أي: قلبته. وكاس هو يكوس: إذا فعل ذلك. وكاس البعير: إذا مشى على ثلاث قوائم وهو معرقب. (ع)

(٣) قال محمود: «لما دخل قتادة الكوفة التفت عليه الناس، فقال: سلوا عما شئتم، فقال أبو حنيفة ـ وكان شاباً ـ: سلوه عن النملة التي كلمت سليمان، أذكر كانت أم أنثى؟ فسألوه فأفحم، فقال أبو حنيفة: كانت أنثى فقيل: كيف لك ذلك؟ قال: لأن الله عز وجل قال ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾، ولو كانت ذكراً لقال: قال نملة» قال أحمد: لا أدري العجب منه أم من أبي حنيفة أن يثبت ذلك عنه، وذلك =

وذلك أنّ النملة مثل الحمامة والشاة في وقوعها على الذكر والأنثى، فيميز بينهما بعلامة، نحو قولهم: حمامة ذكر، وحمامة أنثى، وهو وهي. وقرئ: مسكنكم ولا يحطمنكم، بتخفيف النون، وقرئ لا يحطمنكم بفتح الحاء وكسرها. وأصله: يحتطمنكم. ولما جعلها قائلة والنمل مقولاً لهم كما يكون في أولي العقل: أجرى خطابهم مجرى خطابهم. فإن قلت: لا يحطمنكم ما هو؟ قلت: يحتمل أن يكون جواباً للأمر، وأن يكون نهياً بدلاً من الأمر، والذي جوّز أن يكون بدلاً منه: أنه في معنى: لا تكونوا حيث أنتم فيحطمكم، على طريقة: لا أرينك ههنا، أراد: لا يحطمنكم جنود سليمان، فجاء بما هو أبلغ، ونحوه: عجبت من نفسي ومن إشفاقها.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

ومعنى ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ تبسم شارعاً في الضحك وآخذاً فيه، يعني أنه قد تجاوز حدّ التبسم إلى الضحك، وكذلك ضحك الأنبياء عليهم السلام. وأما ما روي أن رسول الله ـ ﷺ ـ ضحك حتى بدت نواجذه (١٠٩٣)، فالغرض المبالغة في وصف ما

١٠٩٣ ـ وردت في هذه الجملة عدة أحاديث منها.
ـ حديث عبد الله بن مسعود:
أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ٥١٤) ـ كتاب التفسير (٦٥) ـ سورة الزمر ـ (٤٨١١) ومسلم (٩/ ١٤٢ ـ ١٤٣) ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٥٠) ـ كتاب صفة القيامة والجنة والنار ـ حديث رقم (٢٧٨٦).
والترمذي (٥/ ٣٧١) ـ كتاب تفسير القرآن (٤٨) ـ تفسير سورة الزمر ـ (٣٢٣٨) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٦) ـ كتاب التفسير ـ باب قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ (١١٤٥٠) وابن أبي عاصم في السنة حديث رقم (٥٤٢)، والآجري في الشريعة ص ٣١٩، وابن خزيمة في التوحيد (ص ٧٧) من طريق سفيان الثوري، عن منصور وسليمان الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة عن =

= أن النملة كالحمامة والشاة تقع على الذكر وعلى الأنثى لأنه اسم جنس، يقال: نملة ذكر ونملة أنثى، كما يقولون حمامة ذكر وحمامة أنثى، وشاة ذكر وشاة أنثى، فلفظها مؤنث. ومعناه محتمل، فيمكن أن تؤنث لأجل لفظها، وإن كانت واقعة على ذكر، بل هذا هو الفصيح المستعمل. ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تضحي بعوراء ولا عجفاء ولا عمياء» كيف أخرج هذه الصفات على اللفظ مؤنثة ولا يعني الإناث من الأنعام خاصة، فحينئذٍ قوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ روعي فيه تأنيث اللفظ. وأما المعنى فيحتمل على حد سواء، وإنما أطلت في هذا وإن كان لا يتمشى عليه حكم، لأنه نسبه إلى الإمام أبي حنيفة على بصيرته باللغة، ثم جعل هذا الجواب معجبا لنعمان على غزارة علمه وتبصره بالمنقولات؛ ثم قرر الكلام على ما هو عليه مصوناً له، فياللعجب العجاب، والله الموفق للصواب.

وجد منه من الضحك النبوي، وإلا فبدوّ النواجذ على الحقيقة إنما يكون عند الاستغراب،

= عبد الله قال: جاء رجل من اليهود فقال: يا محمد فذكر الحديث وفيه «فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ حتى بدت نواجذه...».

وللحديث طرق أخرى عن عبد الله بن مسعود.

ـ وحديث أبي ذر:

أخرجه مسلم في صحيحه (٤٨١٢ ـ نووي) ـ كتاب الإيمان (١) ـ باب أوتى أهل الجنة منزلة فيها حديث رقم (١٩٠/٣١٤) والترمذي (٧١٣/٤) ـ كتاب صفة جهنم (٤٠) ـ حديث رقم (٢٥٩٦)، كلاهما من طريق الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة...» الحديث. فلقد رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ ضحك حتى بدت نواجذه».

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ـ حديث سلمة بن الأكوع:

أخرجه مسلم في صحيحه (٤١٤/٦ ـ نووي) ـ كتاب الجهاد والسير (٣٢) ـ باب غزوة ذي قرد وغيرها (٤٥) حديث رقم (١٨٠٧) عن سلمة بن الأكوع قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله ـ ﷺ ـ ونحن أربع عشرة مائة... فذكر الحديث بطوله وفيه ثم قال لي: «يا سلمة أين جحفتك أودرقتك التي أعطيتك قال: قلت: يا رسول الله لقيني عمي عامر عزلا. فأعطيته إياها. قال: فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ وقال: «اللهم أبغني حبيبا هو أحب إلي من نفسي...».

وفيه أيضاً قال سلمة: قلت: يا رسول الله خلني فانتخب من القوم مائة رجل فأتبع القوم لا يبقى منهم مخبر إلا قتلته قال: «فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ...».

والحديث أخرجه أحمد (٤٨/٤ ـ ٥١ ـ ٥٢)، وأبو داود (٤٩/٣) (٢٦٥٤) مختصراً وليس فيها ذكر الضحك.

ـ وحديث أبو عمرة الأنصاري واسمه ثعلبه بن عمرو بن محصن:

أخرجه أحمد (٤١٧/٣ ـ ٤١٨)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١١٤٠) والحاكم في المستدرك (٦١٨/٢ ـ ٦١٩) وعنه البيهقي في دلائل النبوة (١٢١/٦ ـ ١٢٢) والطبراني في معجمه الكبير (١/ ٢١١ ـ ٢١٢) (٥٧٥)، وابن حبان في صحيحه (٤٥٤/١ ـ ٤٥٥) (٢٢١).

كلهم من طرق عن الأوزاعي حدثني المطلب بن حنطب المخزومي قال: حدثني عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري حدثني أبي قال: كنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ في غزاة ـ فذكر الحديث وفيه فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ حتى بدت نواجذه...

وقال الحاكم: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٤/١ ـ ٢٥) وزاد نسبته إلى «الأوسط» ـ رجاله ثقات قلت: والمطلب بن حنطب وهو المطلب بن عبد الله بن المطلب بن حنطب بن الحارث المخزومي صدوق وهو وإن كان موصوفاً بالتدليس ـ فقد صرح بالتحديث في رواية أحمد والحاكم والبيهقي والطبراني.

ـ حديث أم أيمن:

أخرجه الحاكم (٦٣١٤ ـ ٦٤) من طريق أبي مالك النخعي عن الأسود بن قيس عن نبيح العنزي عن أم أيمن ـ رضي الله عنها ـ قالت: قام النبي ـ ﷺ ـ من الليل إلى فخارة من جانب البيت فبال فيها فقمت من الليل وأنا عطش فشربت ما في الفخارة... وفيه «فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ حتى =

وقرأ ابن السميفع: ضحكا، فإن قلت: ما أضحكه من قولها؟ قلت: شيئان، إعجابه بما

= بدت نواجذه ثم قال: «أما إنك لا يفجع بطنك بعده أبداً» قلت: وفيه أبو مالك النخعي واسمه عبد الملك بن الحسين ويقال عبادة بن الحسين: قال يحيى بن معين ليس بشيء، وقال عمرو بن علي: ضعيف الحديث منكر الحديث، وقال أبو زرعة وأبو حاتم، ضعيف الحديث وقال البخاري ليس بالقوي عندهم، وقال النسائي ليس بثقة ولا يكتب حديثه راجع تهذيب الكمال (٣٤/٢٤٨ ـ ٢٤٩) ت (٧٥٩٩).

وقال الحافظ في التقريب (٢/٤٦٨) متروك.

ـ حديث عائشة:

أخرجه أبو داود (١/ ٣٠٤) ـ كتاب الصلاة ـ باب رفع اليدين في الاستسقاء (١١٧٣) والطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٣٢٥) والبيهقي في السنن (٣/ ٣٤٩) وابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٧١ ـ ٢٧٢) (٩٩١) والحاكم في مستدركه (١/ ٣٢٨) كلهم من طريق خالد بن نزار حدثني القاسم بن مبرور عن يونس عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: شكى الناس إلى رسول الله ـ ﷺ ـ قحوط المطر... وفيه ثم أمطرت بإذن الله، فلم يأت مسجده حتى سالت السيول، فلما رأى سرعتهم إلى الكن ضحك ـ ﷺ ـ حتى بدت نواجذه فقال: «أشهد أن الله على كل شيء قدير» وقال أبو داود: هذا حديث غريب إسناده جيد.

وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

قلت: وفي ذلك نظر: فإن خالد بن نزار وشيخه القاسم كذلك لم يخرج لهما الشيخان شيئاً وخالد بن نزار وهو الغساني الأيلي لا يرتقي حديثه إلى الصحة ـ فهو صدوق يخطىء كما في التقريب (١/ ٨٤) ـ فحديثه حسن والله المستعان.

ـ ولها حديث آخر في هذا الباب:

أخرجه أبو داود (٤/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤) ـ كتاب الأدب ـ باب في اللعب بالنبات ـ (٤٩٣٢) والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧) ـ كتاب عشرة النساء ـ (٨٩٥٠)، كلاهما من طريق يحيى بن أيوب قال: حدثني عمارة بن غزية أن محمد بن إبراهيم بن الحارث حدثه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة قالت: قدم النبي ـ ﷺ ـ من غزوة... وفيه قوله: أوما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة! فضحك حتى رأيت نواجذه. قلت: وفيه عمارة بن غزية وثقه أحمد وأبو زرعة وقال يحيى بن معين صالح. وقال أبو حاتم، ما بحديثه بأس كان صدوقاً، وقال النسائي لا بأس به.

راجع تهذيب الكمال (٢١/ ٢٦٠) ت (٤١٩٥) وقال الحافظ في التقريب لا بأس. قلت: فالحديث حسن إن شاء الله.

قلت: وفي الباب عن زيد بن أرقم وأبي سعيد الخدري وعبد الله بن مسعود، وصهيب وعبد الله بن عباس.

ينظر «تخريج الكشاف» للزيلعي.

قال الحافظ: وقعت في هذه الجملة عدة أحاديث. منها حديث ابن مسعود: «جاء رجل من اليهود، فقال: يا محمد، إن الله يمسك السموات على أصبع الحديث. وفيه فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ حتى بدت نواجذه متفق عليه، ومنها حديثه مرفوعاً «إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها ـ الحديث. وفيه: قول الرجل: أتسخر بي وأنت الملك؟ قال: ولقد رأيت النبي ـ ﷺ ـ ضحك حتى بدت نواجذه» متفق عليه أيضاً. ومنها حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ: «يؤتى برجل يوم القيامة. فيقال: اعرض عليه صغار ذنوبه ـ الحديث. وفيه: فلقد رأيت النبي ـ ﷺ ـ إلى آخر» =

دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم، وعلى شهرة حاله وحالهم في باب التقوى، وذلك قولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ تعني أنهم لو شعروا لم يفعلوا. وسروره بما آتاه الله مما لم يؤت أحداً: من إدراكه بسمعه ما همس به بعض الحكل[1] الذي هو مثل في الصغر والقلة، ومن إحاطته بمعناه، ولذلك اشتمل دعاؤه على استيزاع الله شكر ما أنعم به عليه من ذلك، وعلى استيفاقه[2] لزيادة العمل الصالح والتقوى. وحقيقة ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ اجعلني أزع شكر نعمتك عندي، وأكفه وأرتبطه لا ينفلت عني، حتى لا أنفك شاكراً لك. وإنما أدرج ذكر والديه لأنّ النعمة على الولد نعمة على الوالدين، خصوصاً النعمة الراجعة إلى الدين، فإنه إذا كان تقياً نفعهما بدعائه وشفاعته وبدعاء المؤمنين لهما كلما دعوا له، وقالوا: رضي الله عنك وعن والديك. وروي أن النملة أحست بصوت الجنود ولا تعلم أنهم في الهواء، فأمر سليمان الريح فوقفت لئلا يذعرن حتى دخلن مساكنهنّ، ثم دعا بالدعوة. ومعنى ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ واجعلني من أهل الجنة.

= أخرجه مسلم. ومنها حديث أبي سعيد ـ رفعه: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة ـ الحديث. وفيه: فنظر إلينا رسول الله ـ ﷺ ـ ثم ضحك حتى بدت نواجذه» متفق عليه، ومنها حديث جابر: «دخل أبو بكر والقوم جلوس على الباب ـ فذكر الحديث وفيه: فقال عمر: لو رأيت بنت خارجة وهي تسألني النفقة فقمت فوجأت عنقها» قال: فضحك النبي ـ ﷺ ـ حتى بدت نواجذه». أخرجه مسلم.

ومنها حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: «كنا مع النبي ـ ﷺ ـ في غزوة فأصاب الناس مخمصة ـ الحديث. وفيه: فلم يبق في الجيش وعاء إلا مليء وبقي مقله. فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ حتى بدت نواجذه»، أخرجه ابن حبان والحاكم. ومنها حديث سلمة بن الأكوع: «قدمنا الحديبية ـ الحديث. وفيه قلت: يا رسول الله، خلني أنتخب من القوم مائة رجل، فأتبع القوم، فلا أبقي منهم أحداً إلا قتلته، فضحك النبي ـ ﷺ ـ حتى بدت نواجذه» وهو حديث طويل. وفيه هذه اللفظة في موضع آخر أخرجه مسلم. ومنها حديث زيد بن أرقم: «أتى علي ـ رضي الله عنه ـ وهو باليمن ـ بثلاثة وقعوا على امرأة في طهر واحد ـ الحديث. وفيه: فذكر ذلك للنبي ـ ﷺ ـ فضحك حتى بدت نواجذه»، أخرجه أبو داود، وابن حبان، والحاكم. ومنها حديث أم أيمن: «قام رسول الله ـ ﷺ ـ بالليل، فبال في فخارة. فقمت وأنا عطشانة فشربته وأنا لا أشعر، فلما أصبح أمرني أن أهريقها فقلت: إني شربتها، فضحك حتى بدت نواجذه» أخرجه الحاكم، ومنها حديث صهيب في أكلة التمر وهو أرمد. فقال: «إنما آكله من شق عيني الصحيحة. قال: فضحك النبي ـ ﷺ ـ حتى بدت نواجذه» أخرجه البزار بتمامه. وبعضه لابن ماجه والحاكم. ومنها حديث ابن عباس «كان عبد الله بن رواحة مضطجعاً إلى جنب امرأته. فقام إلى جارية له فوقع عليها ـ الحديث. وفيه: الشعر. وقول المرأة: آمنت بالله وكذبت البصر. قال: فغدا على رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبره فضحك حتى بدت نواجذه» أخرجه البزار وإسناده ضعيف. انتهى.

---

(١) قوله «ما همس به بعض الحكل» في الصحاح «الحكل»: ما لا يسمع له صوت. (ع)

(٢) قوله «وعلى استيفاقه لزيادة العمل» في الصحاح «استوفقت الله»: سألته التوفيق. (ع)

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾

﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة: نظر إلى مكان الهدهد فلم يبصره، فقال: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ على معنى أنه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره أو غير ذلك، ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول: أهو غائب؟ كأنه يسأل عن صحة ما لاح له. ونحوه قولهم: إنها لإبل أم شاء، وذكر من قصة الهدهد أنّ سليمان حين تم له بناء بيت المقدس تجهز للحج بحشره[1]، فوافى الحرم وأقام به ما شاء، وكان يقرّب كل يوم طول مقامه بخمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة، ثم عزم على السير إلى اليمن فخرج من مكة صباحاً يؤم سهيلا؛ فوافى صنعاء وقت الزوال؛ وذلك مسيرة شهر، فرأى أرضا حسناء أعجبته خضرتها، فنزل ليتغذى ويصلي فلم يجدوا الماء، وكان الهدهد قناقنه[2]، وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى الماء في الزجاجة فيجيء الشياطين فيسخلونها كما يسلخ الإهاب ويستخرجون الماء فتفقده لذلك، وحين نزل سليمان حلق الهدهد فرأى هدهداً واقعاً، فانحط إليه فوصف له ملك سليمان وما سخر له من كل شيء، وذكر له صاحبه ملك بلقيس، وأنّ تحت يدها اثني عشر ألف قائد تحت كل قائد مائة ألف وذهب معه لينظر فما رجع إلا بعد العصر، وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان فنظر فإذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه، ثم قال لسيد الطير وهو العقاب: عليَّ به، فارتفعت فنظرت، فإذا هو مقبل فقصدته، فناشدها الله وقال: بحق الذي قوّاك وأقدرك عليَّ إلا رحمتني، فتركته وقالت: ثكلتك أمك، إنّ نبي الله قد حلف ليعذبنك؛ قال: وما استثنى؟ قالت: بلى قال: أو ليأتيني بعذر مبين، فلما قرب من سليمان أرخى / ٢/٦٦ب ذنبه وجناحيه يجرّها على الأرض تواضعاً له، فلما دنا منه أخذ برأسه فمدّه إليه. فقال: يا نبي الله؛ اذكر وقوفك بين يدي الله: فارتعد سليمان وعفا عنه؛ ثم سأله، تعذيبه: أن يؤدّب بما يحتمله حاله ليعتبر به أبناء جنسه. وقيل: كان عذاب سليمان للطير أن ينتف ريشه ويشمسه. وقيل: أن يطلى بالقطران ويشمس. وقيل: أن يلقى للنمل تأكله. وقيل: إيداعه القفص. وقيل: التفريق بينه وبين إلفه. وقيل: لألزمنه صحبة الأضداد. وعن بعضهم: أضيق السجون معاشرة

---

(١) قوله «تجهز للحج بحشره» في الصحاح: حشرت الناس أحشرهم حشراً: جمعتهم. ومنه: يوم الحشر. (ع)

(٢) قوله «وكان الهدهد قناقنه» القناقن ـ بالضم ـ: الدليل الهادي والبصير بالماء في حفر القنى. والقنى: جمع قناة. أفاده الصحاح في موضعين. (ع)

الأضداد. وقيل: لألزمنه خدمة أقرانه. فإن قلت: من أين حل له تعذيب الهدهد؟ قلت: يجوز أن يبيح له الله ذلك. لما رأى فيه من المصلحة والمنفعة؛ كما أباح ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع؛ وإذا سخر له الطير ولم يتم ما سخر له من أجله إلا بالتأديب والسياسة؛ جاز أن يباح له ما يستصلح به. وقرئ: ليأتينني. وليأتينن. والسلطان: الحجة والعذر. فإن قلت: قد حلف على أحد ثلاثة أشياء: فحلفه على فعليه لا مقال فيه، ولكن كيف صح حلفه على فعل الهدهد؟ ومن أين درى أنه يأتي بسلطان، حتى يقول والله ليأتيني بسلطان؟ قلت: لما نظم الثلاثة «بأو» في الحكم الذي هو الحلف: آل كلامه إلى قولك: ليكونن أحد الأمور، يعني: إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح، وإن لم يكن كان أحدهما، وليس في هذا ادّعاء دراية، على أنه يجوز أن يتعقب حلفه بالفعلين وحيٌ من الله بأنه سيأتيه بسلطان مبين، فثلث بقوله ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ عن دراية وإيقان.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿فَمَكَثَ﴾ قرئ بفتح الكاف وضمها ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ غير زمان بعيد، كقوله: عن قريب، ووصف مكثه بقصر المدّة للدلالة على إسراعه خوفاً من سليمان، وليعلم كيف كان الطير مسخراً له، ولبيان ما أعطي من المعجزة الدالة على نبوّته وعلى قدرة الله تعالى ﴿أَحَطتُ﴾ بإدغام الطاء في التاء بإطباق وبغير إطباق: ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوّة والحكمة والعلوم الجمة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة، ابتلاء له في علمه، وتنبيهاً على أنّ في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علماً بما لم يحط به، لتتحاقر إليه نفسه ويتصاغر إليه علمه، ويكون لطفاً له في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء وأعظم بها فتنة، والإحاطة بالشيء علماً: أن يعلم من جميع جهاته لا يخفى منه معلوم. قالوا: وفيه دليل على بطلان قول الرافضة إنّ الإمام لا يخفى عليه شيء، ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه. سبأ: قرئ بالصرف ومنعه. وقد روي بسكون الباء. وعن ابن كثير في رواية: سبا، بالألف كقولهم: ذهبوا أيدي سبأ. وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، فمن جعله اسماً للقبيلة لم يصرف، ومن جعله اسماً للحيّ أو الأب الأكبر صرف؛ قال [من المنسرح]:

مِنْ سَبَإِ الْحَاضِرِينَ مَأْرِبَ إِذْ ... يَبْنُونَ مِنْ دُونِ سَيْلِهِ الْعَرِمَا[1]

(١) يمدح رجلاً بأنه من قبيلة سبأ، وهو في الأصل اسم لابن يشجب بن يعرب بن قحطان، ثم سميت به القبيلة ومأرب: مدينتها. وقيل: قصر لملكهم، وهو مفعول الحاضرين ممنوع من الصرف. وإذ ظرف. ومن دون بمعنى أمام. والعرم: السد العظيم، يحبس السيل عن المدينة.

وقال [من البسيط]:

أَلْــوَارِدُونَ وَتَــيْـمٌ فِــي ذُرَى سَــبَــإٍ   قَدْ عَضَّ أَعْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ[1]

ثم سميت مدينة مأرب بسبإ، وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث، كما سميت معافر بمعافر بن أدّ. ويحتمل أن يراد المدينة والقوم. والنبأ: الخبر الذي له شأن. وقوله: ﴿مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾ من جنس الكلام الذي سماه المحدّثون البديع، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق[2] باللفظ، بشرط أن يجيء مطبوعا، أو يصنعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى وسداده، ولقد جاء ههنا زائداً على الصحة فحسن وبدع لفظاً ومعنى. ألا ترى أنه لو وضع مكان بنبإ بخبر، لكان المعنى صحيحاً، وهو كما جاء أصح، لما في النبإ، من الزيادة التي يطابقها وصف الحال.

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

المرأة بلقيس بنت شراحيل، وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها، وقد ورث الملك من أربعين ملكاً ولم يكن له ولد غيرها، فغلبت على الملك، وكانت هي وقومها مجوساً يعبدون الشمس. والضمير في ﴿تَمْلِكُهُمْ﴾ راجع إلى سبإ، فإن أريد به القوم فالأمر ظاهر، وإن أريدت المدينة فمعناه: تملك أهلها. وقيل في وصف عرشها: كان ثمانين ذراعاً في ثمانين، وسمكه ثمانين. وقيل ثلاثين مكان ثمانين، وكان من ذهب وفضة مكللاً بأنواع الجواهر، وكانت قوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ودرّ وزمرّد، وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق، فإن قلت: كيف استعظم عرشها مع ما كان يرى من ملك

= وهو للنابغة الجعدي في ديوانه ص ١٣٤، وجمهرة اللغة ص ٧٧٣، ١٠٢٢، وسمط اللآلي ص ١٨، وشرح أبيات سيبويه ٢/٢٤١، ولسان العرب (عرم)، ولأميّة بن أبي الصلت في ديوانه ص ٥٩، وللنابغة الجعدي أو لأميّة في خزانة الأدب ٩/١٣٩، وللأعشى في معجم ما استعجم ص ١١٧٠، وبلا نسبة في الاشتقاق ص ٤٨٩، والإنصاف ٢/٥٠٢، وجمهرة اللغة ص ١١٠٧، والكتاب ٣/٢٥٣، ولسان العرب (سبأ)، وما ينصرف وما لا ينصرف ص ٥٩.

(١) أي الواردون هم: وتيم: اسم قبيلة في أعالي أرض سبأ. والمراد بجلد الجواميس: الحبال المفتولة منه لتغل بها الأسرى في أعناقهم، فشبهت ما يصح منه العض لصلابتها على طريق المكنية، والعض تخييل، ويصح استعارته للقرص على طريق التصريحية، وسبأ ـ في الأصل ـ: لقب رجل من قحطان اسمه عبد شمس، لأنه أول من سبى كان له عشرة أولاد، فذهب ستة إلى اليمن: حمير، وكندة، والأسد، وأشعر، وقشعم، وبجيلة. وذهب أربعة إلى الشام: لخم، وجذام، وعاملة، وغسان. وبها سميت قبائلهم المشهورة.
البيت لجرير، ينظر ديوانه ص ١٣٠، لسان العرب (ضغبس)، المخصص (١/٣١)، (٤/٤١)، (١٣/٨٦)، (١٥/١٨٦)، (١٧/٣٠)، البحر المحيط (٧/٢٦٩)، الدر المصون (٥/٣٠٥).

(٢) قوله «الذي يتعلق» لعله: التي تتعلق. (ع)

سليمان؟ قلت: يجوز أن يستصغر حالها إلى حال سليمان ٢/ ١٦٧أ، فاستعظم لها ذلك العرش. ويجوز أن لا يكون لسليمان مثله وإن عظمت مملكته في كل شيء، كما يكون لبعض أمراء الأطراف شيء لا يكون مثله للملك الذي يملك عليهم أمرهم ويستخدمهم. ومن نوكى القصاص[1] من يقف على قوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ﴾ ثم يبتدىء ﴿عَظِيمٌ وَجَدتُّهَا﴾ يريد: أمر عظيم، أن وجدتها وقومها يسجدون للشمس. فرّ من استعظام الهدهد عرشها، فوقع في عظيمة وهي مسخ كتاب الله. فإن قلت: كيف قال: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ مع قول سليمان ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ كأنه سوّى بينهما؟ قلت: بينهما فرق بين؛ لأن سليمان عليه السلام عطف قوله على ما هو معجزة من الله، وهو تعليم منطق الطير، فرجع أوّلاً إلى ما أوتي من النبوّة والحكمة وأسباب الدين، ثم إلى الملك وأسباب الدنيا، وعطفه الهدهد على الملك فلم يرد إلا ما أوتيت من أسباب الدنيا اللائقة بحالها فبين الكلامين بون بعيد. فإن قلت: كيف خفي على سليمان مكانها وكانت المسافة بين محطه وبين بلدها قريبة، وهي مسيرة ثلاث بين صنعاء ومأرب؟ قلت: لعل الله عز وجل أخفى عنه ذلك لمصلحة رآها، كما أخفى مكان يوسف على يعقوب.

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾

فإن قلت: من أين للهدهد التهدي إلى معرفة الله، ووجوب السجود له، وإنكار سجودهم للشمس وإضافته إلى الشيطان وتزيينه؟ قلت: لا يبعد أن يلهمه الله ذلك كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوان المعارف اللطيفة التي لا يكاد العقلاء الرجاح العقول يهتدون لها، ومن أراد استقراء ذلك فعليه بكتاب الحيوان، خصوصاً في زمن نبيّ سخرت له الطيور وعلم منطقها، وجعل ذلك معجزة له. من قرأ بالتشديد أراد: فصدّهم عن السبيل لئلا يسجدوا فحذف الجار مع أن. ويجوز أن تكون «لا» مزيدة، ويكون المعنى: فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا. ومن قرأ بالتخفيف، فهو ألا يسجدوا. ألا للتنبيه، ويا حرف النداء. ومناداه محذوف؛ كما حذفه من قال: [الطويل]

أَلاَ يَا أَسْلَمِي يَا دَارَمَيَّ عَلَى الْبِلَى . . . .[2]

---

(١) قوله «ومن نوكي القصاص» النوكي: جمع أنوك، وهو الأحمق. (ع)

(٢) ألا يا اسلمي يا دار مي على البلى ولا زال منهلاً بجرعائك القطر

وفي حرف عبد الله وهي قراءة الأعمش: هلا، وهلا: بقلب الهمزتين هاء. وعن عبد الله: هلا تسجدون بمعنى ألا تسجدون على الخطاب. وفي قراءة أبيّ: ألا تسجدون لله الذي يخرج الخبء من السماء والأرض ويعلم سركم وما تعلنون وسمي المخبوء بالمصدر: وهو النبات والمطر وغيرهما مما خبأه عز وعلا من غيوبه. وقرئ: الخب، على تخفيف الهمزة بالحذف. والخبا، على تخفيفها بالقلب، وهي قراءة ابن مسعود ومالك بن دينار. ووجهها: أن تخرج على لغة من يقول في الوقف: هذا الخبو، رأيت الخبا، ومررت بالخبي. ثم أجرى الوصل مجرى الوقف، لا على لغة من يقول: الكمأة والحمأة؛ لأنها ضعيفة مسترذلة. وقرئ: يخفون ويعلنون، بالياء والتاء. وقيل: من أحطت إلى العظيم[1]: هو كلام الهدهد. وقيل: كلام رب العزة. وفي إخراج الخبء: أمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السموات والأرض جلت قدرته ولطف علمه، ولا يكاد تخفى على ذي الفراسة النظار بنور الله مخائل كل مختص بصناعة أو فنّ من العلم في روائه[2] ومنطقه وشمائله، ولهذا ورد: ما عمل عبد عملاً إلا ألقى الله عليه رداء عمله. فإن قلت: أسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعاً أم في إحداهما؟ قلت: هي واجبة فيهما جميعا، لأنّ مواضع السجدة إما أمرٌ بها، أو مدحٌ لمن أتى بها، أو ذمٌّ لمن تركها، وإحدى القراءتين أمر بالسجود، والأخرى ذم للتارك، وقد اتفق أبو حنيفة والشافعي رحمهما الله على أنّ سجدات القرآن أربع عشرة، وإنما اختلفا في سجدة ص: فهي عند أبي حنيفة سجدة

= لذي الرمة. وألا استفتاحية للتنبيه، فلا معنى ليا إلا النداء. والمنادى بها محذوف، تقديره: يا دار مي اسلمي. فاستغنى عنه بما بعده؛ وحذفه اهتماماً بطلب السلامة لها. وفي تكرير ندائها: نوع تفجع. ومي: مرخم مية. وترخيم المضاف إليه: ضرورة حسنها سبق النداء. وعلى: بمعنى مع، أي: اسلمي ولو كنت بالية، لأنه إن لم تبق الدار كفتني الآثار. ومنهلا: منصباً. والجرعاء: مؤنث الأجراع، وهو الموضع المختلط ترابه بالحصى. والقطر: المطر، يدعو لها بالخصب.

ينظر: ديوانه ص ٥٥٩، والإنصاف ١/ ١٠٠، وتخليص الشواهد ص ٢٣١، ٢٣٢، والخصائص ٢/ ٢٧٨، والدرر ٢/ ٤٤، ٤/ ٦١، وشرح التصريح ١/ ١٨٥، وشرح شواهد المغني ٢/ ٦١٧، والصاحبي في فقه اللغة ص ٢٣٢، واللامات ص ٣٧، ولسان العرب (يا)، ومجالس ثعلب ١/ ٤٢، والمقاصد النحوية ٢/ ٦، ٤/ ٢٨٥، وبلا نسبة في أوضح المسالك ١/ ٢٣٥، وجواهر الأدب ص ٢٩٠، والدرر ٥/ ١١٧، وشرح الأشموني ١/ ١٧٨، وشرح ابن عقيل ص ١٣٦، وشرح عمدة الحافظ ص ١٩٩، وشرح قطر الندى ص ١٢٨، ولسان العرب (ألا)، ومغني اللبيب ١/ ٢٤٣، ١/ ١١١، ٢/ ٤، ٧٠.

(١) قوله «وقيل من أحطت إلى العظيم» في اللباب: أن الخلاف في: ألا يسجدوا ـ إلى ـ العظيم، ومال إليه في التقريب اهـ. من هامش. (ع)

(٢) قوله «في روائه» بالضم، أي: منظره. أفاده الصحاح. (ع)

تلاوة. وعند الشافعي: سجدة شكر. وفي سجدتي سورة الحج وما ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد، فغير مرجوع إليه. فإن قلت: هل يفرق الواقف بين القراءتين؟ قلت: نعم إذا خفف وقف على ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ثم ابتدأ ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾، وإن شاء وقف على ﴿ألا يا﴾ ثم ابتدأ ﴿يَسْجُدُوا﴾ وإذا شدّد لم يقف إلا على ﴿الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾. فإن قلت: كيف سوّى الهدهد بين عرش بلقيس وعرش الله في الوصف بالعظم؟ قلت: بين الوصفين بون عظيم، لأنّ وصف عرشها بالعظم: تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك. ووصف عرش الله بالعظم: تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض. وقرئ: العظيم، بالرفع.

﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾

﴿سَنَنظُرُ﴾ من النظر الذي هو التأمل والتصفح. وأراد: أصدقت أم كذبت، إلا أن ﴿كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أبلغ، لأنه إذا كان معروفا بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذباً لا محالة، وإذا كان كاذباً اتهم بالكذب / ٢/ ٦٧ب فيم أخبر به فلم يوثق به[1]، ﴿تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه، ليكون ما يقولونه بمسمع منك. و﴿يَرْجِعُونَ﴾ من قوله تعالى: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ فيقال: دخل عليها من كوّة فألقى الكتاب إليها وتوارى في الكوّة. فإن قلت: لم قال: فألقه إليهم، على لفظ الجمع؟ قلت: لأنه قال: وجدتها وقومها يسجدون للشمس، فقال: فألقه إلى الذين هذا دينهم، اهتماما منه بأمر الدين، واشتغالاً به عن غيره. وبنى الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١)﴾

﴿كَرِيمٌ﴾ حسن مضمونه وما فيه، أو وصفته بالكرم، لأنه من عند ملك كريم أو مختوم. قال ﷺ: «كرم الكتاب ختمه» (١٠٩٤)، وكان ﷺ يكتب إلى العجم، فقيل له:

١٠٩٤ أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» رقم (٣٩) من طريق محمد بن مروان السدي ثنا محمد بن =

---

(١) قال محمود: «معناه أصدقت أم كذبت، إلا أن عبارة الآية أبلغ؛ لأنه إذا كان معروفاً بالكذب اتهم في جملة إخباره فلم يوثق به» قال أحمد: وهذا مما نبهت عليه في سورة الشعراء من العدول عن الفعل الذي هو: أم كذبت، وعن مجرد صفته في قوله: أم كنت كاذباً، إلى جعله واحداً من الفئة الموسومة بالكذب، فهو أبلغ في مقصود سياق الآية من التهديد. والله أعلم.

إنهم لا يقبلون إلا كتاباً عليه خاتم، فاصطنع خاتماً (١٠٩٥). وعن ابن المقفع: من كتب

= السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس مرفوعاً.

قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ١٦): قال ابن طاهر في كلامه على أحاديث الشهاب: هذا التخليط وقع فيه من جهة محمد بن مروان فإنه مرة عن محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ومرة رواه عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ومحمد بن مروان يعرف بالسدي الصغير متروك الحديث والكلبي مثله اهـ.

وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤/ ٥١٩) رقم (٣٨٨٤) والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٧٦ ـ بتحقيقنا) من طريق يحيى بن طلحة اليربوعي قال: ثنا محمد بن مروان السدي عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس مرفوعاً.

وقال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن ابن جريج إلا محمد بن مروان تفرد به يحيى بن طلحة.

قلت: لم ينفرد به يحيى بن طلحة بل تابعه صالح بن محمد عند الثعلبي في «تفسيره» كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ١٦).

والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه محمد بن مروان السدي الصغير وهو متروك الحديث .اهـ.

تنبيه: وقع في الإسناد عن الطبراني في الأوسط يحيى بن أبي طلحة اليربوعي وهو خطأ صوابه يحيى بن طلحة اليربوعي ينظر تهذيب التهذيب (١١/ ٢٣٣).

قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: أخرجه الطبراني في الأوسط من رواية محمد بن مروان وهو السدي الصغير عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس وأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب».

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الطبراني في الأوسط من رواية محمد بن مروان وهو السدي الصغير عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس. وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب. انتهى.

١٠٩٥ ـ أخرجه البخاري (١/ ١٨٧) كتاب العلم: باب ما يذكر في المناولة حديث (٦٥) وفي (٦/ ١٢٧) كتاب الجهاد والسير: باب دعوة اليهود والنصارى حديث (٢٩٣٨) وفي (١٠/ ٣٣٦): كتاب اللباس: باب نقش الخاتم حديث (٥٨٧٢)، وباب اتخاذ الخاتم ليختم به الشيء حديث (٥٨٧٥) وفي (١٣/ ١٥٠) كتاب الأحكام: باب الشهادة على الخط المختوم حديث (٧١٦٢) ومسلم (٣/ ١٦٥٧) كتاب اللباس والزينة باب في اتخاذ النبي ـ ﷺ ـ خاتماً لما أراد أن يكتب إلى العجم حديث (٥٦/ ٢٠٩٢) وأبو داود (٤/ ٨٨) كتاب الخاتم: باب ما جاء في اتخاذ الخاتم حديث (٤٢١٤) والترمذي (٥/ ٦٩ ـ ٧٠) كتاب الاستئذان: باب ما جاء في ختم الكتاب حديث (٢٧١٨) وفي «الشمائل المحمدية» رقم (٩٣) والنسائي (٨/ ١٧٤) كتاب الزينة: باب صفة خاتم النبي ـ ﷺ ـ، وفي «التفسير» رقم (٥٣٢) وأحمد (٣/ ١٦٨ ـ ١٦٩ ـ ١٨١ ـ ٢٢٣ ـ ٢٧٥) وأبو يعلى (٣٠٠٩ ـ ٣٠٧٥ ـ ٣١٥٤ ـ ٣٢٧١ ـ ٣٢٧٢) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ٢٦٤) وأبو الشيخ في «أخلاق النبي ـ ﷺ ـ (ص ١٣١) والبيهقي (١٠/ ١٢٨) كتاب آداب القاضي: باب ختم الكتاب، كلهم من طريق قتادة عن أنس.

وقال الترمذي: هذا حديث صحيح.

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: متفق عليه من رواية قتادة عن أنس قال: أراد أن يكتب. . . فذكره.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: متفق عليه من رواية قتادة عن أنس قال: أراد أن يكتب. . . فذكره. انتهى.

إلى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد استخف به. وقيل: مصدّر ببسم الله الرحمن الرحيم: هو استئناف وتبيين لما ألقى إليها، كأنها لما قالت: إني ألقي إليّ كتاب كريم، قيل لها: ممن هو؟ وما هو؟ فقالت: إنه من سليمان وإنه: كيت وكيت. وقرأ عبد الله: وإنه من سليمان وإنه. عطفاً على: إني. وقرئ: أنه من سليمان وأنه، بالفتح على أنه بدل من كتاب، كأنه قيل: ألقي إليّ أنه من سليمان. ويجوز أن تريد: لأنه من سليمان ولأنه، كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان، وتصديره باسم الله. وقرأ أبيّ: أنْ من سليمان وأنْ بسم الله، على أن المفسرة. وأن في ﴿أَلَّا تَعْلُوا﴾ مفسرة أيضاً. لا تعلوا: لا تتكبروا كما يفعل الملوك. وقرأ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بالغين معجمة من الغلو: وهو مجاوزة الحدّ. يروى أنّ نسخة الكتاب من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ: السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فلا تعلوا عليّ وائتوني مسلمين، وكانت كتب الأنبياء عليهم السلام جملا لا يطيلون ولا يكثرون، وطبع الكتاب بالمسك وختمه بخاتمه، فوجدها الهدهد راقدة في قصرها بمأرب، وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها، فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهي مستلقية. وقيل: نقرها فانتبهت فزعة. وقيل: أتاها والقادة والجنود حواليها، فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت رأسها، فألقى الكتاب في حجرها، وكانت قارئة كاتبة عربية من نسل تبع بن شراحيل الحميري؛ فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت، وقالت لقومها ما قالت: ﴿مُسْلِمِينَ﴾ منقادين أو مؤمنين.

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾

الفتوى: الجواب في الحادثة، اشتقت على طريق الاستعارة من الفتى في السن. والمراد بالفتوى ههنا: الإشارة عليها بما عندهم فيما حدث لها من الرأي والتدبير، وقصدت بالانقطاع إليهم والرجوع إلى استشارتهم واستطلاع آرائهم: استعطافهم وتطييب نفوسهم ليمالئوها ويقوموا معها ﴿قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ فاصلة. وفي قراءة ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: قاضية أي لا أبت أمراً إلا بمحضركم. وقيل: كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً: كل واحد على عشرة آلاف.

﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

أرادوا بالقوة: قوّة الأجساد وقوّة الآلات والعدد، وبالبأس: النجدة والبلاء في الحرب ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ أي هو موكول إليك، ونحن مطيعون لك، فمرينا بأمرك نطعك ولا نخالفك. كأنهم أشاروا عليها بالقتال. أو أرادوا: نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأي والمشورة، وأنت ذات الرأي والتدبير، فانظري ماذا ترين: نتبع رأيك.

﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾

لما أحست منهم الميل إلى المحاربة، رأت من الرأي الميل إلى الصلح والابتداء بما هو أحسن، ورتبت الجواب، فزيفت أولاً ما ذكروه وأرتهم الخطأ فيه بـ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً﴾ عنوة وقهرا ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ أي خربوها ـ ومن ثمة قالوا للفساد: الخربة ـ، وأذلوا أعزتها، وأهانوا أشرافها: وقتلوا وأسروا، فذكرت لهم عاقبة الحرب وسوء مغبتها ثم قالت: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أرادت: وهذه عادتهم المستمرة الثابتة التي لا تتغير، لأنها كانت في بيت الملك القديم فسمعت نحو ذلك ورأت، ثم ذكرت بعد ذلك حديث الهدية وما رأت من الرأي السديد. وقيل: هو تصديق من الله لقولها، وقد يتعلق الساعون في الأرض بالفساد بهذه الآية ويجعلونها حجة لأنفسهم. ومن استباح حراماً فقد كفر، فإذا احتج له بالقرآن على وجه التحريف فقد جمع بين كفرين ﴿مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ أي مرسلة رسلاً بهدية أصانعه بها عن ملكي ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾ ما يكون منه حتى أعمل على حسب ذلك، روي أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجواري، وحليهن الأساور والأطواق. والقرطة[1] / ٢/ ٦٨أ راكبي خيل مغشاة بالديباج محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر، وخمسمائة جارية على رماك[2] في زي الغلمان. وألف لبنة من ذهب وفضة، وتاجاً مكللاً بالدرّ والياقوت المرتفع والمسك والعنبر، وحقاً فيه درّة عذراء، وجزعة معوجة الثقب، وبعثت رجلين من أشراف قومها: المنذر بن عمرو، وآخر ذا رأي وعقل، وقالت: إن كان نبياً ميز بين الغلمان والجواري، وثقب الدرّة ثقباً مستوياً، وسلك في الخرزة خيطاً، ثم قالت للمنذر: إن نظر إليك غضبان فهو ملك؛ فلا يهولنك، وإن رأيته بشاً لطيفاً فهو نبيّ، فأقبل الهدهد فأخبر سليمان، فأمر الجنّ فضربوا لبن الذهب والفضة، وفرشوه في ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ، وجعلوا حول الميدان حائطاً شرفه من الذهب والفضة، وأمر بأحسن الدواب في البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبن، وأمر بأولاد الجن وهم خلق كثير فأقيموا عن اليمين واليسار، ثم قعد على سريره والكراسيّ من جانبيه، واصطفت الشياطين صفوفاً فراسخ، والإنس صفوفاً فراسخ. والوحش والسباع والهوام والطيور كذلك، فلما دنا القوم ونظروا: بهتوا، ورأوا الدواب

---

(١) قوله «والقرطة» واحدها: قرط. (ع)

(٢) قوله «على رماك» هي إناث الخيل. (ع)

تروث على اللبن، فتقاصرت إليهم نفوسهم ورموا بما معهم، ولما وقفوا بين يديه نظر إليهم بوجه طلق وقال: ما وراءكم؟ وقال: أين الحقّ؟ وأخبره جبريل عليه السلام بما فيه فقال لهم: إن فيه كذا وكذا، ثم أمر الأرضة فأخذت شعرة ونفذت فيها، فجعل رزقها في الشجرة. وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها ونفذت فيها، فجعل رزقها في الفواكه. ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها، والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه، ثم رد الهدية وقال للمنذر: ارجع إليهم، فقالت: هو نبيّ وما لنا به طاقة، فشخصت إليه في اثني عشر ألف قيل، تحت كل قيل ألوف، وفي قراءة ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: فلما جاءوا. ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ وقرئ بحذف الياء والاكتفاء بالكسرة وبالإدغام، كقوله: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾ وبنون واحدة: أتمدوني. الهدية: اسم المهدَى؛ كما أن العطية اسم المعطَى، فتضاف إلى المهدى والمهدى إليه، تقول هذه هدية فلان، تريد: هي التي أهداها أو أهديت إليه، والمضاف إليه ههنا هو المهدى إليه. والمعنى: أن ما عندي خير مما عندكم، وذلك أن الله آتاني الدين الذي فيه الحظ الأوفر والغنى الأوسع، وآتاني من الدنيا ما لا يستزاد عليه، فكيف يرضى مثلي بأن يمدّ بمال ويصانع به ﴿بَلْ أَنتُم﴾ قوم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا؛ فلذلك ﴿تَفْرَحُونَ﴾ بما تزادون ويهدى إليكم، لأن ذلك مبلغ همتكم وحالي خلاف حالكم؛ وما أرضى منكم بشيء ولا أفرح به إلا بالإيمان وترك المجوسية. فإن قلت: ما الفرق بين قولك: أتمدني بمال وأنا أغنى منك، وبين أن تقوله بالفاء؟ قلت: إذا قلته بالواو، فقد جعلت مخاطبي عالماً بزيادتي عليه في الغنى واليسار، وهو مع ذلك يمدني بالمال. وإذا قلته بالفاء، فقد جعلته ممن خفيت عليه حالي، فأنا أخبره الساعة بما لا أحتاج معه إلى إمداده، كأني أقول له: أنكر عليك ما فعلت، فإني غني عنه. وعليه ورد قوله: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾. فإن قلت: فما وجه الإضراب؟ قلت: لما أنكر عليهم الإمداد وعلل إنكاره، أضرب عن ذلك إلى بيان السبب الذي حملهم عليه: وهو أنهم لا يعرفون سبب رضا ولا فرح؛ إلا أن يهدي إليهم حظ من الدنيا التي لا يعلمون غيرها. ويجوز أن تجعل الهدية مضافة إلى المهدي، ويكون المعنى: بل أنتم بهديتكم هذه التي أهديتموها تفرحون فرح افتخار على الملوك، بأنكم قدرتم على إهداء مثلها. ويحتمل أن يكون عبارة عن الردّ، كأنه قال: بل أنتم من حقكم أن تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها.

﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿ٱرْجِعْ﴾ خطاب للرسول. وقيل: للهدهد محملاً كتاباً آخر ﴿لَّا قِبَلَ﴾ لا طاقة. وحقيقة القبل: المقاومة والمقابلة، أي: لا يقدرون أن يقابلوهم. وقرأ ابن مسعود ـ رضي الله

عنه ـ: لا قبل لهم بهم. الضمير في منها لسبأ. والذل: أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العزّ والملك. والصغار: أن يقعوا في أسر واستعباد، ولا يقتصر بهم على أن يرجعوا سوقة بعد أن كانوا ملوكاً.

﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾

يروى أنها أمرت عند خروجها إلى سليمان عليه السلام، فجعل عرشها في آخر سبعة أبيات بعضها في بعض في آخر قصر من قصور سبعة لها. وغلقت الأبواب ووكلت به حرساً يحفظونه، ولعله أوحى إلى سليمان عليه السلام باستيثاقها من عرشها، فأراد أن يغرب عليها ويريها بذلك بعض ما خصه الله به من إجراء العجائب على يده، مع اطلاعها على عظيم قدرة الله وعلى ما يشهد لنبوّة سليمان عليه السلام ويصدقها. وعن قتادة: أراد أن يأخذه قبل أن تسلم، لعلمه أنها إذا أسلمت لم يحلّ له أخذ مالها. وقيل: أراد أن يؤتى به فينكر ويغير، ثم ينظر أتثبته أم تنكره؟ اختبارا لعقلها.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ ٢/ ٦٨ب مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾

وقرئ: عفرية. والعفر. والعفريت. والعفرية، والعفراة، والعفارية من الرجال: الخبيث المنكر، الذي يعفر أقرانه. ومن الشياطين: الخبيث المارد. وقالوا: كان اسمه ذكوان ﴿لَقَوِىٌّ﴾ على حمله ﴿أَمِينٌ﴾ آتي به كما هو لا أختزل منه شيئا ولا أبدله.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ رجل كان عنده اسم الله الأعظم، وهو يا حي يا قيوم، وقيل: يا إلٰهنا وإلٰه كل شيء إلٰهاً واحداً لا إلٰه إلا أنت. وقيل: يا ذا الجلال والإكرام، وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: الله. والرحمن. وقيل هو آصف بن برخيا كاتب سليمان عليه السلام، وكان صدّيقاً عالماً. وقيل: اسمه أسطوم. وقيل: هو جبريل. وقيل: ملك أيد الله به سليمان. وقيل: هو سليمان نفسه، كأنه استبطأ العفريت فقال له: أنا أريك ما هو أسرع مما تقول. وعن ابن لهيعة: بلغني أنه الخضر عليه السلام: علم من الكتاب: من الكتاب المنزل، وهو علم الوحي والشرائع. وقيل: هو اللوح. والذي عنده علم منه: جبريل عليه السلام. وآتيك ـ في الموضعين ـ يجوز أن يكون فعلاً واسم فاعل. الطرف: تحريكك أجفانك إذا نظرت، فوضع موضع النظر، ولما كان الناظر موصوفاً بإرسال

الطرف في نحو قوله [من الطويل]:

وَكُنْتَ إِذَا أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِداً   لِقَلْبِكَ يَوْماً أَتْعَبَتْكَ الْمَنَاظِرُ[1]

وصف بردّ الطرف، ووصف الطرف بالارتداد. ومعنى قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أنك ترسل طرفك إلى شيء، فقبل أن ترده أبصرت العرش بين يديك: ويروى أن آصف قال لسليمان عليه السلام: مدّ عينيك حتى ينتهي طرفك، فمدّ عينيه فنظر نحو اليمن ودعا آصف فغار العرش في مكانه بمأرب، ثم نبغ[2] عند مجلس سليمان عليه السلام بالشام بقدرة الله، قبل أن يردّ طرفه. ويجوز أن يكون هذا مثلاً لاستقصار مدّة المجيء به، كما تقول لصاحبك: افعل كذا في لحظة، وفي ردّة طرف، والتفت ترني، وما أشبه ذلك: تريد السرعة. ﴿يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنه يحط به عنها عبء الواجب، ويصونها عن سمة الكفران، وترتبط به النعمة ويستمد المزيد. وقيل: الشكر، قيد للنعمة الموجودة. وصيد للنعمة المفقودة. وفي كلام بعض المتقدمين: إن كفران النعمة بوار، وقلما أقشعت[3] نافرة فرجعت في نصابها، فاستدع شاردها بالشكر، واستدم راهنها بكرم الجوار، واعلم أن سبوغ ستر الله متقلص عما قريب إذا أنت لم ترج لله وقارا ﴿غَنِيٌّ﴾ عن الشكر ﴿كَرِيمٌ﴾ بالإنعام على من يكفر نعمته، والذي قاله سليمان عليه السلام عند رؤية العرش شاكراً لربه، جرى على شاكلة أبناء جنسه من أنبياء الله والمخلصين من عباده يتلقون النعمة القادمة بحسن الشكر، كما يشيعون النعمة المودعة بجميل الصبر.

﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾

---

(١) وكنت إذا أرسلت طرفك رائداً   لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر   عليه ولا عن بعضه أنت صابر
لأعرابية، نظرها أعرابي فخاطبها بشعر يسألها عن أحوالها ومحاسنها، كأنه يراودها عن نفسها، فأجابته بذلك وقيل: هو لشاعر حماسي. وشبه إطلاق البصر نحو المناظر الجميلة بإرسال الرائد أمام الركب يتعرف لهم مكان الخصب، على طريق التصريحية، ورائداً ترشيح، لأنه يلائم الإرسال. ويوماً: ظرف له. والمناظر: مواقع النظر، واستدل على إتعابها إياه بقوله: رأيت الذي لا تملكه كله ولا تصبر عن بعضه، فكانت عينك سبباً لوقوع قلبك في حيرة الهوى وحرقة الجوى.
ينظر: عيون الأخبار (٤/ ٢٢)، البحر المحيط (٧/ ٧٧)، الدر المصون (٥/ ٣١٥).

(٢) قوله «ثم نبغ عند مجلس سليمان» في الصحاح «نبغ الشيء» ظهر. (ع)

(٣) قوله «وقلما أقشعت» أي: أقلعت. أفاده الصحاح. (ع)

﴿نَكِّرُواْ﴾ اجعلوه متنكراً متغيراً عن هيئته وشكله، كما يتنكر الرجل للناس لئلا يعرفوه. قالوا: وسعوه وجعلوا مقدّمه مؤخره، وأعلاه أسفله. وقرئ: ننظر، بالجزم على الجواب، وبالرفع على الاستئناف ﴿أَتَهْتَدِيٓ﴾ لمعرفته، أو للجواب الصواب إذا سئلت عنه، أو للدين والإيمان بنبوّة سليمان عليه السلام إذا رأت تلك المعجزة البينة، من تقدّم عرشها وقد خلفته وأغلقت عليه الأبواب ونصبت عليه الحرس. هكذا ثلاث كلمات: حرف التنبيه، وكاف التشبيه، واسم الإشارة. لم يقل: أهذا عرشك، ولكن: أمثل هذا عرشك؛ لئلا يكون تلقيناً ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ ولـم تقل: هو هو، ولا ليس به، وذلك من رجاحة عقلها، حيث لم تقع في المحتمل[1] ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ من كلام سليمان وملئه: فإن قلت: علام عطف هذا الكلام، وبم اتصل؟ قلت: لما كان المقام ـ الذي سئلت فيه عن عرشها وأجابت بما أجابت به ـ مقاماً أجرى فيه سليمان وملؤه ما يناسب قولهم ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ نحو أن يقولوا عند قولها كأنه هو: قد أصابت في جوابها وطبقت المفصل[2]، وهي عاقلة لبيبة، وقد رزقت الإسلام، وعلمت قدرة الله وصحة النبوّة بالآيات التي تقدّمت عند وفدة المنذر، وبهذه الآية العجيبة من أمر عرشها ـ عطفوا على ذلك قولهم: وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته، وبصحة ما جاء من عنده قبل علمها، ولم نزل على دين الإسلام شكراً لله على فضلهم عليها وسبقهم إلى العلم بالله والإسلام قبلها ﴿وَصَدَّهَا﴾ عن التقدم إلى الإسلام عبادة الشمس ونشؤها بين ظهراني الكفرة؛ ويجوز أن يكون من كلام بلقيس موصولاً بقولها ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ والمعنى: وأوتينا / ٢/ ١٦٩أ العلم بالله وبقدرته وبصحة نبوّة سليمان عليه السلام قبل هذه المعجزة أو قبل هذه الحالة، تعني: ما تبينت من الآيات عند وفدة المنذر ودخلنا في الإسلام، ثم قال الله تعالى: وصدها قبل ذلك عما دخلت فيه ضلالها عن سواء

---

(١) قال محمود: «لم يقل أهذا عرشك؛ لئلا يكون تلقينا، قالت: كأنه هو ولم تقل هو هو، ولا ليس بهو وذلك من رجاحة عقلها حيث لم تقع في المحتمل» قال أحمد: وفي قولها (كأنه هو) وعدولها عن مطابقة الجواب للسؤال، بأن تقول: هكذا هو. نكتة حسنة. ولعل قائلاً يقول: كلا العبارتين تشبيه؛ إذ كاف التشبيه فيهما جميعاً، وإن كانت في إحداهما داخلة على اسم الإشارة، وفي الأخرى داخلة على المضمر. وكلاهما ـ أعني اسم الإشارة والمضمر ـ واقع على الذات المشبهة، وحينئذٍ تستوي العبارتان في المعنى، ويفضل قولها هكذا هو بمطابقته للسؤال، فلا بد في اختيار (كأنه هو) من حكمة فنقول: حكمته والله أعلم: أن (كأنه هو) عبارة من قرب عنده الشبه حتى شكك نفسه في التغاير بين الأمرين، فكاد يقول: هو هو.، وتلك حال بلقيس. وأما هكذا هو؛ فعبارة جازم بتغاير الأمرين، حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير، فلهذا عدلت إلى العبارة المذكورة في التلاوة لمطابقتها لحالها والله أعلم. وقول الزمخشري: ولا ليس بهو، إن كان من قوله فوهم، والصواب: ولا ليس به، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(٢) قوله «وطبقت المفصل» لعله: وطابقت. (ع)

السبيل. وقيل: وصدها الله ـ أو سليمان ـ عما كانت تعبد[1] بتقدير حذف الجار وإيصال الفعل. وقرئ: أنها، بالفتح على أنه بدل من فاعل صد. أو بمعنى لأنها.

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

الصرح: القصر. وقيل: صحن الدار. وقرأ ابن كثير: سأقيها، بالهمزة. ووجهه أنه سمع: سؤقا، فأجرى عليه الواحد. والممرد: المملس، وروي أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج أبيض، وأجرى من تحته الماء، وألقى فيه من دواب البحر السمك وغيره، ووضع سريره في صدره، فجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والإنس، وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظاماً لأمره، وتحققاً لنبوته، وثباتاً على الدين. وزعموا أنّ الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضي إليه بأسرارهم، لأنها كانت بنت جنية. وقيل: خافوا أن يولد له منها ولد تجتمع له فطنة الجن والإنس، فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك هو أشدّ وأفظع، فقالوا له: إن في عقلها شيئاً، وهي شعراء الساقين، ورجلها كحافر الحمار فاختبر عقلها بتنكير العرش، واتخذ الصرح ليتعرف ساقها ورجلها، فكشفت عنهما فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً لا أنها شعراء، ثم صرف بصره وناداها ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ وقيل: هي السبب في اتخاذ النورة: أمر بها الشياطين فاتخذوها، واستنكحها سليمان عليه السلام وأحبها وأقرها على ملكها وأمر الجن فبنوا لها سيلحين وغمدان[2]، وكان يزورها في الشهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام، وولدت له. وقيل: بل زوجها ذا تبع ملك همدان، وسلطه على اليمن، وأمر زوبعة أمير جن اليمن أن يطيعه، فبنى له المصانع، ولم يزل أميراً حتى مات سليمان ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ تريد بكفرها فيما تقدم، وقيل حسبت أن سليمان عليه السلام يغرقها في اللجة فقالت: ظلمت نفسي بسوء ظني بسليمان عليه السلام.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ

---

(١) قال السمين الحلبي: وفيه نظر؛ من حيث أن حذف الجار ضرورة كقوله: تمرون الديار فلم تعوجوا. . . انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله «فبنوا لها سيلحين وغمدان» في الصحاح «سيلحون»: قرية. وفيه في فصل «نصب»: أن للعرب في نصيبين ونحوه كبيرين وفلسطين وسيلحين وياسمين وقنسرين: مذهبين، أحدهما: لزوم الياء وإعراب ما لا ينصرف. والثاني: إعراب الجمع بالياء والنون نصباً وجراً، وبالواو والنون رفعاً. وفي فصل «غمد»: غمدان: قصر باليمن. وفي فصل «صنع» المصانع: الحصون. (ع)

﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

وقرئ: أن اعبدوا، بالضم على إتباع النون الباء ﴿فَرِيقَانِ﴾ فريق مؤمن وفريق كافر. وقيل أريد بالفريقين صالح عليه السلام وقومه قبل أن يؤمن منهم أحد ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ يقول كل فريق: الحق معي. السيئة: العقوبة، والحسنة: التوبة، فإن قلت: ما معنى استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة؟ وإنما يكون ذلك إذا كانتا متوقعتين إحداهما قبل الأخرى؟ قلت: كانوا يقولون لجهلهم: إن العقوبة التي يعدها صالح عليه السلام إن وقعت على زعمه، تبنا حينئذٍ واستغفرنا ـ مقدّرين أن التوبة مقبولة في ذلك الوقت ـ. وإن لم تقع، فنحن على ما نحن عليه، فخاطبهم صالح عليه السلام على حسب قولهم واعتقادهم، ثم قال لهم: هلا تستغفرون الله قبل نزول العذاب؟ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ تنبيهاً لهم على الخطأ فيما قالوه: وتجهيلاً فيما اعتقدوه.

﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾

وكان الرجل يخرج مسافراً فيمر بطائر فيزجره، فإن مر سانحاً[1] تيمن، وإن مر بارحاً تشاءم، فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر، استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته: أو من عمل العبد الذي هو السبب في الرحمة والنقمة. ومنه قالوا: طائر الله لا طائرك، أي: قدر الله الغالب الذي ينسب إليه الخير والشر، لا طائرك الذي تتشاءم به وتتيمن، فلما قالوا: أطيرنا بكم، أي: تشاءمنا وكانوا قد قحطوا ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي سببكم الذي يجيء منه خيركم وشركم عند الله، وهو قدره وقسمته، إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم. ويجوز أن يريد: عملكم مكتوب عند الله، فمنه نزل بكم ما نزل. عقوبة لكم وفتنة. ومنه قوله: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾، ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾. وقرئ: تطيرنا بكم، على الأصل. ومعنى: تطير به: تشاءم به. وتطير منه: نفر منه ﴿تُفْتَنُونَ﴾ تختبرون. أو تعذبون. أو يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة.

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ

---

(١) قوله «فإن مرّ سانحاً تيمن... إلخ» السانح: ما ولاك ميامنه من ظبي أو طائر أو غيرهما، بأن يمر من مياسرك إلى ميامنك، والبارح: ما ولاك مياسره بأن يمر من ميامنك إلى مياسرك، كذا في الصحاح. (ع)

أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿ٱلْمَدِينَةِ﴾ الحجر. وإنما جاز تمييز التسعة بالرهط لأنه في معنى الجماعة، فكأنه قيل: تسعة أنفس. والفرق بين الرهط والنفر: أن الرهط من الثلاثة إلى العشرة، أو من السبعة إلى العشرة. والنفر من الثلاثة إلى التسعة وأسماؤهم عن وهب: الهذيل بن عبد رب. غنم بن غنم. رباب بن مهرج. مصدع بن مهرج. عمير بن كردبة. عاصم بن مخرمة. سبيط بن صدقة. سمعان بن صفي. قدار بن سالف: وهم الذين سعوا في عقر الناقة، وكانوا عتاة / ٢/٦٩ب قوم صالح عليه السلام، وكانوا من أبناء أشرافهم ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يعني أن شأنهم الإفساد البحت الذي لا يخلط بشيء من الصلاح كما ترى بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح ﴿تَقَاسَمُوا۟﴾ يحتمل أن يكون أمراً وخبراً في محل الحال بإضمار قد[1]، أي: قالوا متقاسمين: وقرئ: تقسموا. وقرئ: لتبيتنه، بالتاء والياء والنون، فتقاسموا ـ مع النون والتاء ـ يصح فيه الوجهان. ومع الياء لا يصح إلا أن يكون خبراً. والتقاسم، والتقسم: كالتظاهر، والتظهر: التحالف. والبيات: مباغتة العدو ليلاً[2]. وعن الإسكندر أنه أشير عليه بالبيات فقال: ليس من آيين الملوك[3] استراق الظفر، وقرئ:

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: أمّا قوله وخبراً فلا يصح لأنّ الخبر أحَدُ قِسْمَي الكلام لأنه ينقسم إلى الخبر والإنشاء وجميع معانيه إذا حققت راجعة إلى هذين القسمين قُلْتُ: ولا أدري عدم الصحة مِمَّاذا؟ لأنه جعل الماضي خبراً لاحتماله الصدق والكذب مقابلاً للأمر الذي لا يحتملها أما كون الكلام لا ينقسم إلاّ إلى خبر وإنشاء وأنّ معانيه إذا حققت ترجع إليهما فأي مدخل لهذا في الرد على أبي القاسم؟

قال الشيخ: والتقييد بالحال ليس إلاّ من باب نسبة التقييد لاَ مِنْ نِسْبَتِهِ الكلام التي هي الإسناد فإذا أُطْلِقَ عليها الخبر كان ذلك على تقدير أنها لو لم تكن حالاً لجاز أن تستعمل خبراً وكذلك قولهم في الجملة الواقعة صلة هي خبرية فهو مجَازٌ والمعنى أنها لو لم تكن صلة لجاز أن تستعمل خبراً وهذا فيه غموض. قُلْتُ: مُسَلَّمٌ أنَّ الجملة ما دامت حالاً أَوْ صِلَةً لا يقال إنها خبرية بمعنى أنها تَسْتَقِلُ بإفادة الإسناد لأنها سيقت مَسَاقَ القَيْدِ في الحال ومَسَاقَ حدُّ كَلِمَةٍ في الصلة وكان ينبغي أن يذكر أيضاً وكان ينبغي أن الجملة الواقعة صفة فإن الحكم كذلك. ثم قال: وأما إضْمَار قد فلا يُحْتَاجُ إليه لكثرة وقوع الماضي حالاً دون قد كثرة ينبغي القياس عليها قُلْتُ: الزمخشري مَشَى مع الجمهور فإن مذهبهم إنّه لا بُدَّ مِنْ قد ظاهرةً مضمرة لتقرِّبُهُ من الحال، وقرأ ابن أبي لَيْلَى «تَقَسَّمُوا» دون ألف مع تشديد السين والتَّقَاسُمُ والتَّقَسُّمُ كالتَّظَاهُرِ والتَّظَهُّرِ. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله «والبيات مباغتة العدو ليلاً» في الصحاح «بيت العدو» أي: أوقع بهم ليلاً، والاسم: البيات. (ع)

(٣) قوله «ليس من آيين الملوك» تقدم آنفاً أنه قيل: آيين الملك: مراتبه وبهاؤه، كما وجد بهامش. (ع)

مهلك بفتح الميم واللام وكسرها من هلك. ومهلك بضم الميم من أهلك. ويحتمل المصدر والزمان والمكان، فإن قلت: كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا، فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه[1]؟ قلت كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيتوا صالحاً وبيتوا أهله فجمعوا بين البياتين ثم قالوا ما شهدنا مهلك أهله؛ فذكروا أحدهما: كانوا صادقين، لأنهم فعلوا البياتين جميعاً لا أحدهما وفي هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه ولا يخطر ببالهم. ألا ترى أنهم قصدوا قتل نبي الله ولم يرضوا لأنفسهم بأن يكونوا كاذبين حتى سووا للصدق في خبرهم حيلة يتفصون بها عن الكذب[2]. مكرهم: ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح عليه السلام وأهله. ومكر الله: إهلاكهم من حيث لا يشعرون. شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة. روي أنه كان لصالح مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه، فقالوا: زعم صالح عليه السلام أنه يفرغ منا إلى ثلاث، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث، فخرجوا إلى الشعب وقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم، فبعث الله صخرة من الهضب[3] حيالهم، فبادروا، فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب، فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل

---

(١) قال محمود: «إن قلت: كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا، فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه؟ قلت: كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيتوا صالحاً وبيتوا أهله وجمعوا بين البياتين جميعاً لا أحدهما كانوا صادقين، وفي هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه ولا يخطر ببالهم، ألا تراهم قصدوا قتل نبي الله ولم يرضوا لأنفسهم بأن يكونوا كاذبين حتى سووا للصدق حيلة يتفصون بها عن الكذب، قال أحمد: وحيلة الزمخشري لتصحيح قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل أقرب من حيلتهم التي سماها الله تعالى مكراً؛ لأن غرضه من تمهيد حيلتهم أن يستشهد على صحة القاعدة المذكورة في موافقة قوم لوط عليها، إذ استقبحوا الكذب بعقولهم لا بالشرع. وأنى يتم له ذلك أو لهم، وهم كاذبون صريح الكذب في قولهم ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ وذلك أنهم فعلوا الأمرين، ومن فعل الأمرين فجحد فعل أحدهما لم يكن في فريته مرية، وإنما كانت الحيلة تتم لو فعلوا أمراً فادعى عليهم فعل أمرين، فجحدوا المجموع. ومن ثم لم تختلف العلماء في أن من حلف لا أضرب زيداً، فضرب زيداً وعمراً: كان حانثاً، بخلاف الحالف لا أضرب زيداً وعمرا فضرب عمراً، ولا آكل رغيفين فأكل أحدهما، فإن مثل هذا محل خلاف العلماء في الحنث وعدمه، فإذا تمهد أن هؤلاء كاذبون صراحاً في قولهم ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ وأنه لا حيلة لهم في الخلاص من الكذب، فلا يخلو أمرهم أن يكونوا عقلاء فهم لا يتواطؤون على اعتقاد الصدق بهذه الحيلة، مع القطع بأنها ليست حيلة، ولا شبهة لقرب جحدهم من الصدق، فيبطل ما قال الزمخشري لإثبات قاعدة دينه على زعمه، إذ قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل من قواعد عقائد القدرية، بموافقة قوم غير عقلاء على صحتها، فحسبه ما رضي به لدينه، والسلام.

(٢) قوله «حيلة يتفصون بها عن الكذب» في الصحاح «فصا الإنسان»: إذا تخلص من البلية والضيق، وتفصيت من الديون: إذا خرجت منها وتخلصت. (ع)

(٣) قوله «صخرة من الهضب حيالهم» أي من المطر المتتابع مطرة بعد مطرة، وقعد حياله: أي إزاءه. وأصله الواو، أفاده الصحاح. (ع)

بقومهم، وعذب الله كلاً منهم في مكانه، ونجى صالحا ومن معه. وقيل: جاءوا بالليل شاهري سيوفهم، وقد أرسل الله الملائكة ملء دار صالح فدمغوهم بالحجارة: يرون الحجارة ولا يرون رامياً ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ استئناف. ومن قرأ بالفتح رفعه بدلاً من العاقبة، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هي تدميرهم. أو نصبه على معنى: لأنا، أو على أنه خبر كان، أي: كان عاقبة مكرهم الدمار ﴿خَاوِيَةً﴾ حال عمل فيها ما دل عليه تلك. وقرأ عيسى بن عمر: خاوية، بالرفع على خبر المبتدأ المحذوف.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥)﴾

﴿وَ﴾ اذكر ﴿وَلُوطًا﴾ أو أرسلنا لوطاً لدلالة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ عليه. ﴿إِذْ﴾ بدل على الأول ظرف على الثاني ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ من بصر القلب، أي: تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا إليها، وأن الله إنما خلق الأنثى للذكر ولم يخلق الذكر للذكر، ولا الأنثى للأنثى، فهي مضادة لله في حكمته وحكمه، وعلمكم بذلك أعظم لذنوبكم وأدخل في القبح والسماجة. وفيه دليل على أن القبيح من الله أقبح منه عباده؛ لأنه أعلم العالمين وأحكم الحاكمين. أو تبصرونها بعضكم من بعض، لأنهم كانوا في ناديهم يرتكبونها معالنين بها، لا يتستر بعضهم من بعض خلاعة ومجانة، وانهماكاً في المعصية، وكأن أبا نواس بنىٰ علىٰ مذهبهم قوله [من الطويل]:

وَبُحْ بِاسْمِ مَا تَأْتِي وَذَرْنِي مِنَ الْكُنَىٰ ... فَلاَ خَيْرَ فِي اللَّذَّاتِ مِنْ دُونِهَا سِتْرُ[1]

أو تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم. فإن قلت: فسرت تبصرون بالعلم وبعده ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فكيف يكونون علماء وجهلاء؟ قلت: أراد: تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك. أو تجهلون العاقبة، أو أراد بالجهل: السفاهة والمجانة التي كانوا عليها فإن قلت: ﴿تَجْهَلُونَ﴾ صفة لقوم، والموصوف لفظه لفظ الغائب، فهلا طابقت الصفة الموصوف فقرئ بالياء دون التاء؟ وكذلك بل أنتم قوم تفتنون؟ قلت:

---

(١) ألا فاسقني خمرًا وقل لي: هي الخمر ... ولا تسقني سرًا إذا أمكن الجهر
وبح باسم من تهوى وذرني من الكنى ... فلا خير في اللذات من دونها ستر

لأبي نواس. وألا استفتاحية للتنبيه، فكأنه قال: تنبه فاسقني. وقل لي هي الخمر: أي اجهر باسمها. وقوله: إذا أمكن الجهر: احترس ـ وباح الشيء: ظهر. وباح به أظهره، أي: أظهر اسم من تحب كما تبوح باسم الخمر. ويروى وبح باسم ما تأتي، أي: ما تفعل. ودعني: أي اتركني: ضمنه معنى باعدني فعداه بمن، كناية عن نهيه عن ذكر الكنى: جمع كنية: وهو ما دل على الشيء دلالة خفية، وشبه العبارة الخفية بالستر الحائل تصريحاً.

اجتمعت الغيبة والمخاطبة، فغلبت المخاطبة، لأنها أقوى وأرسخ أصلاً من الغيبة.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

وقرأ الأعمش: جواب قومه، بالرفع. والمشهورة أحسن ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ يتنزهون عن القاذورات كلها، فينكرون هذا العمل القذر، ويغيظنا إنكارهم. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو استهزاء ﴿قَدَّرْنَـٰهَا﴾ قدرنا كونها ﴿مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ ٢/ ٧٠أ كقوله: ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ فالتقدير واقع على الغبور في المعنى.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾

أمر رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده. وفيه تعليم حسن، وتوقيف على أدب جميل، وبعث على التيمن بالذكرين، والتبرك بهما، والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقي إلى السامعين وإصغائهم إليه، وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المسمع. ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب، فحمدوا الله عز وجل وصلوا على رسول الله ـ ﷺ ـ أمام كل علم مفاد وقبل كل عظة وتذكرة، وفي مفتتح كل خطبة، وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن. وقيل: هو متصل بما قبله، وأمر بالتحميد على الهالكين من كفار الأمم والصلاة على الأنبياء عليهم السلام وأشياعهم الناجين. وقيل: هو خطاب للوط عليه السلام، وأن يحمد الله على هلاك كفار قومه، ويسلم على من اصطفاه الله ونجاه من هلكتهم وعصمه من ذنوبهم. معلوم أن لا خير فيما أشركوه أصلاً حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكه، وإنما هو إلزام لهم وتبكيت[1] وتهكم بحالهم، وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله، ولا يؤثر عاقل شيئاً على شيء إلا لداع يدعوه إلى إيثاره من زيادة خير ومنفعة، فقيل لهم، مع العلم بأنه

---

(١) قال محمود: «معلوم أن لا خير فيما أشركوه حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكه، وإنما هو إلزام لهم وتبكيت» قال أحمد: كلام مرضي بعد أن تضع (خالق كل شيء) مكان قوله (خالق كل خير) فإنه تخصيص قدري: أو إشراك خفي. والتوحيد الأبلج: ما قلناه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

لا خير فيما آثروه، وأنهم لم يؤثروه لزيادة الخير ولكن هوى وعبثاً، لينبهوا على الخطأ المفرط والجهل المورط وإضلالهم التمييز ونبذهم المعقول وليعلموا أنّ الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد. ونحوه ما حكاه عن فرعون ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ مع علمه أنه ليس لموسى مثل أنهاره التي كانت تجري تحته، ثم عدّد سبحانه الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله، كما عدّدها في موضع آخر ثم قال: هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء. وقرئ: يشركون بالياء والتاء. وعن رسول الله ـ ﷺ ـ: أنه كان إذا قرأها يقول: «بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم» (١٠٩٦).

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

فإن قلت: ما الفرق بين أم وأم في ﴿أم تشركون﴾ و﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾؟ قلت: تلك متصلة؛ لأنّ المعنى: أيهما خير. وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة، لما قال الله تعالى: آلله خير أم الآلهة؟ قال: بل أمّن خلق السموات والأرض خير؟ تقريراً لهم بأن من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شيء. وقرأ الأعمش: أمَن، بالتخفيف. ووجهه أن يجعل بدلاً من الله، كأنه قال: أمَن خلق السموات والأرض خير أم ما تشركون؟ فإن قلت: أي نكتة في نقل الإخبار عن الغيبة إلى التكلم عن ذاته في قوله فأنبتنا؟ قلت: تأكيد معنى اختصاص الفعل بذاته، والإيذان بأنّ إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع حسنها وبهجتها بماء واحد. لا يقدر عليه إلا هو وحده. ألا ترى كيف رشح معنى الاختصاص بقوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ ومعنى الكينونة: الانبغاء. أراد أن تأتي ذلك محال من غيره، وكذلك قوله: ﴿بَلْ هُمْ﴾ بعد الخطاب: أبلغ في تخطئة رأيهم. والحديقة: البستان عليه حائط: من الإحداق وهو

١٠٩٦ ـ أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣) رقم (٢٠٨٢) من طريق جابر الجعفي عن أبي جعفر قال: كان علي بن الحسين يذكر. . . فذكر الحديث بطوله.
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: كذا ذكره الثعلبي بغير إسناد وأخرجه البيهقي في «الشعب» في الباب التاسع من رواية جابر الجعفي عن أبي جعفر قال: كان علي بن الحسين يذكر أن النبي ـ ﷺ ـ إذا ختم القرآن ـ فذكر حديثاً طويلاً ـ وفيه والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أم ما يشركون؟ بل الله خير وأجل وأبقى وأكرم وأعظم مما يشركون.
قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: كذا ذكره الثعلبي بغير إسناد. وأخرجه البيهقي في الشعب في الباب التاسع من رواية جابر الجعفي عن أبي جعفر قال: «كان علي بن الحسين يذكر أن النبي ـ ﷺ ـ إذا ختم القرآن ـ فذكر حديثاً طويلاً ـ وفيه والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أم ما يشركون؟ بل الله خير وأجل وأبقى وأكرم وأعظم مما يشركون. انتهى.

الإحاطة. وقيل: ﴿ذَاتَ﴾؛ لأنّ المعنى: جماعة حدائق ذات بهجة، كما يقال: النساء ذهبت. والبهجة: الحسن، لأنّ الناظر يبتهج به ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أغيره يقرن به ويجعل شريكاً له. وقرئ: أإلٰهاً مع الله، بمعنى: أتدعون، أو أتشركون. ولك أن تحقق الهمزتين وتوسط بينهما مدّة، وتخرج الثانية بين بين ﴿يَعْدِلُونَ﴾ به غيره أو يعدلون عن الحق الذي هو التوحيد.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿أَمَّن جَعَلَ﴾ وما بعده بدل من (أمّن خلق) فكان حكمهما حكم ﴿قَرَارًا﴾ دحاها وسوّاها بالاستقرار عليها ﴿حَاجِزًا﴾ كقوله: برزخاً.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

الضرورة: الحالة المحوجة إلى اللجأ. والاضطرار: افتعال منها. يقال: اضطرّه إلى كذا. والفاعل والمفعول: مضطر. والمضطر الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى اللجأ والتضرع إلى الله. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو المجهود. وعن السدّي: الذي لا حول له ولا قوة. وقيل: المذنب إذا استغفر. فإن قلت: قد عم المضطرين بقوله: ﴿يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ وكم من مضطرّ يدعوه لا يجاب[(1)]؟ قلت: الإجابة موقوفة على أن يكون المدعوّ به مصلحة، ولهذا لا يحسن دعاء العبد إلا شارطاً فيه المصلحة. وأما المضطر فمتناول للجنس مطلقاً، يصلح لكله ولبعضه، فلا طريق إلى الجزم على/ ٢/ ٧٠ب أحدهما إلا بدليل، وقد قام الدليل على البعض وهو الذي أجابته مصلحة، فبطل التناول على العموم ﴿خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ خلفاء فيها، وذلك توارثهم سكناها والتصرف فيها قرناً بعد قرن. أو أراد بالخلافة الملك والتسلط. وقرئ: يذكرون، بالياء مع الإدغام. وبالتاء مع الإدغام والحذف. وما مزيدة، أي: يذكرون تذكراً قليلاً. والمعنى:

---

(١) قال محمود: «إن قلت فكم من مضطر لا يجاب؟ قلت: الإجابة موقوفة على كون المدعو به مصلحة، ولهذا لا يحسن دعاء العبد إلا شارطاً فيه المصلحة» قال أحمد: الصواب أن الإجابة مقرونة بالمشيئة لا بالمصلحة، وإنما تقف الإجابة على المصلحة عند القدرية، لإيجابهم على الله تعالى رعاية المصالح، فقول الزمخشري: لا يحسن الدعاء من العبد إلا شارطاً فيه المصلحة: فاسد: فإن المشيئة شرط في إجابة الدعاء اتفاقاً، ومع ذلك نهى النبي ﷺ أن يقول الداعي: اللهم اغفر لي إن شئت.

نفي التذكر، والقلة تستعمل في معنى النفي.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿يَهْدِيكُمْ﴾ بالنجوم في السماء، والعلامات في الأرض: إذا جنّ الليل عليكم مسافرين في البر والبحر.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

فإن قلت: كيف قيل لهم: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وهم منكرون للإعادة؟ قلت: قد أزيحت علتهم بالتمكين من المعرفة والإقرار، فلم يبق لهم عذر في الإنكار ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الماء ﴿و﴾ من ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ النبات ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنّ مع الله إلهاً، فأين دليلكم عليه؟

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾

فإن قلت: لم رفع اسم الله، والله يتعالى أن يكون ممن في السموات والأرض؟ قلت: جاء على لغة بني تميم، حيث يقولون: ما في الدار أحد إلا حمار، يريدون: ما فيها إلا حمار، كأنّ أحداً لم يذكر؛ ومنه قوله [من الطويل]:

عَشِيَّةَ مَا تُغْنِي الرِّمَاحُ مَكَانَهَا ... وَلاَ النَّبْلُ إِلاَّ الْمَشْرَفِيُّ الْمُصَمِّمُ[1]

وقولهم: ما أتاني زيد إلا عمرو، وما أعانه إخوانكم إلا إخوانه. فإن قلت: ما الداعي إلى اختيار المذهب التميمي على الحجازي؟ قلت: دعت إليه نكتة سَرية[2]. حيث أخرج

---

(١) النبل: السهام العربية. والمشرفي: السيف، نسبة لمشارف اليمن. والمصمم: الماضي النافذ لصلابته، وكانت عادة المتحاربين التناضل بالسهام عند التباعد، فإذا تقاربوا تحاربوا بالرماح، فإذا التقوا تضاربوا بالسيوف. وذكر النبل بعد الرماح لدفع توهم بعد العدو، فكأن النبل يغني عن غيره، فالبيت كناية عن شدة الأمر واختلاط الصفين. وضمير مكانها للحرب أو للسيوف، والاستثناء منقطع بعد النفي، ويجب نصبه عند الحجازيين. ويجوز رفعه كما هنا عند التميميين: إما على البدل، أو على توهم أن المستثنى منه غير مذكور، وأن العامل مفرغ لما بعد «إلا».
البيت لضرار بن الأزور ينظر تذكرة النحاة ص ٣٣٠، وخزانة الأدب ٣/٣١٨، وشرح أبيات سيبويه ٢/١٢٨، والمقاصد النحوية ٣/٩، وللحصين بن الحمام برواية (المصمما) مكان (المصممُ) في شرح اختيارات المفضل ١/٣٢٩، ينظر شرح الأشموني ١/٢٢٩، والدر المصون ٢/٤٥٢.

(٢) قوله «دعت إليه نكتة سرية» لعله بزنة فعلية، فيكون بمعنى شريفة. (ع)

المستثنى مخرج قوله: إلا اليعافير، بعد قوله: ليس بها أنيس، ليؤول المعنى إلى قولك: إن كان الله ممن في السموات والأرض، فهم يعلمون الغيب، يعني: أنّ علمهم الغيب في استحالته كاستحالة أن يكون الله منهم، كما أنّ معنى ما في البيت[1]: إن كانت اليعافير أنيساً ففيها أنيس، بتا للقول بخلوّها عن الأنيس. فإن قلت: هلا زعمت أنّ الله ممن في السموات والأرض، كما يقول المتكلمون: الله في كل مكان، على معنى أنّ علمه في الأماكن كلها، فكأن ذاته فيها حتى لا تحمله على مذهب بني تميم؟ قلت: يأبى ذلك أن كونه في السموات والأرض مجاز، وكونهم فيهن حقيقة، وإرادة المتكلم بعبارة واحدة حقيقة ومجازاً غير صحيحة، على أنّ قولك: من في السموات والأرض.، وجمعك بينه وبينهم في إطلاق اسم واحد: فيه إيهام تسوية، والإيهامات مزالة عنه وعن صفاته تعالى. ألا ترى كيف قال ﷺ لمن قال: ومن يعصهما فقد غوى: «بئس خطيب القوم أنت» (١٠٩٧) وعن عائشة - رضي الله عنها -: من زعم أنه يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية (١٠٩٨)، والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. وعن بعضهم: أخفى غيبه عن الخلق ولم يطلع عليه أحداً؛ لئلا يأمن أحد من عبيده مكره. وقيل: نزلت في المشركين حين سألوا رسول الله - ﷺ - عن وقت الساعة ﴿أَيَّانَ﴾ بمعنى متى، ولو سمي به: لكان فعالاً، من آن يئين ولانصرف. وقرئ: إيان، بكسر الهمزة.

١٠٩٧ - أخرجه مسلم (٢/ ٥٩٤) كتاب الجمعة: باب تخفيف الصلاة والخطبة حديث (٤٨/ ٨٧٠) وأبو داود (١/ ٣٥٥ - ٣٥٦) كتاب الصلاة: باب الرجل يخطب على قوس حديث (١٠٩٩)، (٢/ ٧١٤) كتاب الأدب حديث (٤٩٨١) والنسائي (٦/ ٩٠) كتاب النكاح: باب ما يكره من الخطبة، وأحمد (٤/ ٢٥٦ - ٣٧٩) والحاكم (١/ ٢٨٩) والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤/ ٢٩٦) وابن حبان (٧/ ٣٧) رقم (٢٧٩٨) من طريق عبد العزيز بن رفيع عن تميم بن طرفة عن عدي بن حاتم أن رجلاً خطب عند النبي - ﷺ - فقال: من يطع الله ورسوله قد رشد ومن يعصهما فقد غوى فقال النبي - ﷺ - بئس الخطيب قل: ومن يعصي الله ورسوله.
قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: أخرجه مسلم من حديث عدي بن حاتم. انتهى.

١٠٩٨ - أخرجه البخاري (٦/ ٣٦١) كتاب بدء الخلق باب إذا قال أحدكم آمين حديث (٣٢٣٤) ومسلم (٢/ ٨ - نووي) كتاب الإيمان: باب معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾... حديث (٢٨٧/ ١٧٧) والترمذي (٥/ ٢٦٢ - ٢٦٣) كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة الأنعام حديث (٣٠٦٨) من طريق مسروق عن عائشة.
قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: متفق عليه من حديثها في أثناء حديث. انتهى.

---

(١) قوله: «معنى ما في البيت» هو قول الشاعر [من الرجز]:

وبلدة ليس بها أنيس ... إلا اليعافير وإلا العيس

(ع)

وقرئ: بل أدَّرك. بل ادَّراك. بل ادَّارك. بل تدارك. بل أأدرك، بهمزتين. بل آأدرك، بألف بينهما. بل ادرك، بالتخفيف والنقل. بل ادّرك، بفتح اللام وتشديد الدال. وأصله: بل أدرك؟ على الاستفهام. بلى أدرك. بلى أأدرك. أم تدارك. أم أدرك؛ فهذه ثنتا عشرة قراءة. وادّارك: أصله تدارك، فأدغمت التاء في الدال. وادّرك: افتعل. ومعنى أدرك علمهم: انتهى وتكامل. وادّرك: تتابع واستحكم. وهو على وجهين، أحدهما: أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة كائنة لا ريب فيه، قد حصلت لهم ومكنوا من معرفته، وهم شاكون جاهلون، وهو قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾: يريد المشركين ممن في السموات والأرض؛ لأنهم لما كانوا في جملتهم نسب فعلهم إلى الجميع، كما يقال: بنو فلان فعلوا كذا وإنما فعله ناس منهم. فإن قلت: إن الآية سيقت لاختصاص الله بعلم الغيب، وأن العباد لا علم لهم بشيء منه وأن وقت بعثهم ونشورهم من جملة الغيب وهم لا يشعرون به، فكيف لاءم هذا المعنى وصف المشركين بإنكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة؟ قلت: لما ذكر أن العباد لا يعلمون الغيب، ولا يشعرون بالبعث الكائن ووقته الذي يكون فيه، وكان هذا بياناً لعجزهم ووصفاً لقصور علمهم: وصل به أن عندهم عجزاً أبلغ منه، وهو أنهم يقولون للكائن الذي لا بدّ أن يكون ـ وهو وقت جزاء أعمالهم ـ: لا يكون، مع أن عندهم أسباب معرفة كونه واستحكام العلم به. والوجه الثاني: أن وصفهم باستحكام العلم وتكامله تهكم بهم ٢/ ١٧١أ، كما تقول لأجهل الناس: ما أعلمك! على سبيل الهزؤ، وذلك حيث شكوا وعموا عن إثباته الذي الطريق إلى علمه مسلوك، فضلاً أن يعرفوا وقت كونه الذي لا طريق إلى معرفته: وفي: أدرك علمهم، وادارك علمهم: وجه آخر، وهو أن يكون أدرك بمعنى انتهى وفنى، من قولك: أدركت الثمرة؛ لأن تلك غايتها التي عندها تعدم: وقد فسره الحسن ـ رضي الله عنه ـ باضمحل علمهم وتدارك، من تدارك بنو فلان: إذا تتابعوا في الهلاك فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ: بل أأدرك على الاستفهام؟ قلت: هو استفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم، وكذلك من قرأ: أم أدرك. وأم تدارك؛ لأنها أم التي بمعنى بل والهمزة. فإن قلت: فمن قرأ: بلى أدرك، وبلى أأدرك؟ قلت: لما جاء ببلى، بعد قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ كان معناه: بلى يشعرون، ثم فسر الشعور بقوله: أدرك علمهم في الآخرة على سبيل التهكم الذي معناه المبالغة في نفي العلم، فكأنه قال: شعورهم بوقت الآخرة أنهم لا يعلمون كونها، فيرجع إلى نفي الشعور على أبلغ ما يكون. وأما من قرأ: بلى أأدرك؟ على الاستفهام فمعناه: بلى يشعرون متى يبعثون، ثم أنكر علمهم بكونها، وإذا أنكر علمهم

بكونها لم يتحصل لهم شعور بوقت كونها؛ لأنّ العلم بوقت الكائن تابع للعلم بكون الكائن ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ في شأن الآخرة ومعناها فإن قلت؛ هذه الاضرابات الثلاث ما معناها؟ قلت: ما هي إلا تنزيل لأحوالهم: وصفهم أولاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة، ثم بأنهم يخبطون في شك ومرية فلا يزيلونه والإزالة مستطاعة. ألا ترى أن من لم يسمع اختلاف المذاهب وتضليل أربابها بعضهم لبعض: كان أمره أهون ممن سمع بها وهو جاثم لا يشخص به طلب التمييز بين الحق والباطل، ثم بما هو أسوأ حالاً وهو العمى، وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه، لا يخطر بباله حقاً ولا باطلاً. ولا يفكر في عاقبة. وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه فلذلك عدّاه بمن دون عن؛ لأنّ الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذي جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۝٦٧ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾

العامل في ﴿إِذَا﴾ ما دلّ عليه ﴿أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ وهو نخرج؛ لأنّ بين يدي عمل اسم الفاعل[1] فيه عقاباً وهي همزة الاستفهام، وإن ولام الابتداء وواحدة منها كافية، فكيف إذا اجتمعن؟ والمراد: الإخراج من الأرض. أو من حال الفناء إلى الحياة، وتكرير حرف الاستفهام بإدخاله على «إذا» و«إن» جميعاً إنكار على إنكار، وجحود عقيب جحود، ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه. والضمير في (إنا) لهم ولآبائهم؛ لأنّ كونهم تراباً قد تناولهم وآباءهم. فإن قلت: قدّم في هذه الآية ﴿هَٰذَا﴾ على ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ وفي آية أخرى قدّم ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ على ﴿هَٰذَا﴾؟ قلت: التقديم دليل على أن المقدّم هو الغرض المتعمد بالذكر، وإن الكلام إنما سبق لأجله، ففي إحدى الآيتين دلّ على أن اتخاذ البعث هو الذي تعمد بالكلام، وفي الأخرى على أن اتخاذ المبعوث بذلك الصدد.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٦٩ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝٧٠﴾

لم تلحق علامة التأنيث بفعل العاقبة؛ لأنّ تأنيثها غير حقيقي؛ ولأنّ المعنى: كيف

---

(١) قوله «اسم الفاعل فيه عقاباً» لعله اسم المفعول وعقاباً جمع عقبة. أفاده الصحاح. وعبارة النسفي: لأن اسم الفاعل والمفعول ـ بعد همزة الاستفهام أو أن أو لام الابتداء لا يعمل فيما قبله، فكيف إذا اجتمعن. (ع)

كان آخر أمرهم؟ وأراد بالمجرمين: الكافرين، وإنما عبر عن الكفر بلفظ الإجرام ليكون لطفاً للمسلمين في ترك الجرائم وتخوّف عاقبتها، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ﴾ وقوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لأنهم لم يتبعوك، ولم يُسلموا فيَسلموا وهم قومه قريش، كقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾. ﴿فِى ضَيْقٍ﴾ في حرج صدر من مكرهم وكيدهم لك، ولا تبال بذلك فإن الله يعصمك من الناس. يقال: ضاق الشيء ضيقاً وضيقاً، بالفتح والكسر. وقد قرئ بهما. والضيق أيضاً: تخفيف الضيق. قال الله تعالى ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ قرئ مخففاً ومثقلاً ويجوز أن يراد في أمر ضيق من مكرهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٧١ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ۝٧٢﴾

استعجلوا العذاب الموعود فقيل لهم: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾ ردفكم بعضه وهو عذاب يوم بدر فزيدت اللام للتأكيد كالباء في ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾ أو ضمن معنى فعل يتعدى باللام نحو: دنا لكم وأزف لكم، ومعناه: وتبعكم ولحقكم، وقد عدى بمن قال [من الطويل]:

فَلَمَّا رَدِفْنَا مِنْ عُمَيْرٍ وَصَحْبِهِ ... تَوَلَّوْا سِرَاعاً وَالْمَنِيَّةُ تُعْنِقُ[1]

يعني: دنونا من عمير، وقرأ الأعرج: ردف لكم، بوزن ذهب، وهما لغتان، والكسر أفصح. وعسى ولعل وسوف ـ في وعد الملوك ووعيدهم ـ يدل على صدق الأمر وجدّه وما لا مجال للشكّ بعده/ ٢/٧١ب، وإنما يعنون بذلك: إظهار وقارهم وأنهم لا يعجلون بالانتقام؛ لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم ووثوقهم أنّ عدوّهم لا يفوتهم، وأن الرمزة إلى الأغراض كافية من جهتهم؛ فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾

الفضل والفاضلة: الإفضال. ولفلان فواضل في قومه وفضول. ومعناه: أنه مفضل عليهم بتأخير العقوبة، وأنه لا يعاجلهم بها، وأكثرهم لا يعرفون حق النعمة فيه ولا

---

(١) ردف كتبع يتعدى بنفسه، وضمن هنا معنى الدنو فعدى بمن، وأعنق الفرس: سار سيراً سريعاً سهلاً. والعنق: اسم منه يقول: فلما دنونا من عمير وأصحابه للحرب أدبروا مسرعين، والحال أن الموت يسرع خلفهم من جهتنا. شبه المنية بالأسد على طريق المكنية، فأثبت لها العنق تخييلاً، كأنهم كانوا تبعوهم برمي النبال. ويجوز أنه استعار المنية لنفسه وقومه على طريق التصريح، أي: ونحن نسرع خلفهم، فذكر العنق تجريد؛ لأنه يلائم المشبه.
ينظر: البحر المحيط (٧/٩٥)، الدر المصون (٥/٣٢٦).

يشكرونه، ولكنهم بجهلهم يستعجلون وقوع العقاب: وهم قريش.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾

قرئ تكن. يقال: كننت الشيء وأكننته: إذا سترته وأخفيته، يعني: أنه يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة رسول الله ـ ﷺ ـ ومكايدهم، وهو معاقبهم على ذلك بما يستوجبونه.

﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

سمى الشيء الذي يغيب ويخفى: غائبة وخافية، فكانت التاء فيهما بمنزلتها في العافية والعاقبة ونظائرهما: النطيحة، والرمية، والذبيحة: في أنها أسماء غير صفات. ويجوز أن يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة، كالراوية في قولهم: ويل للشاعر من راوية السوء، كأنه قال: وما من شيء شديد الغيبوبة والخفاء إلا وقد علمه الله وأحاط به وأثبته في اللوح. المبين: الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

قد اختلفوا في المسيح فتحزبوا فيه أحزاباً، ووقع بينهم التناكر في أشياء كثيرة حتى لعن بعضهم بعضاً، وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه لو أنصفوا وأخذوا به وأسلموا، يريد: اليهود والنصارى ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لمن أنصف منهم وآمن، أي: من بني إسرائيل. أو منهم ومن غيرهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾

﴿بَيْنَهُم﴾ بين من آمن بالقرآن ومن كفر به. فإن قلت: ما معنى يقضي بحكمه؟ ولا يقال: زيد يضرب بضربه ويمنع بمنعه؟ قلت: معناه بما يحكم به وهو عدله، لأنه لا يقضي إلا بالعدل، فسمي المحكوم به حكماً. أو أراد بحكمته ـ وتدل عليه قراءة من قرأ بحكمه ـ: جمع حكمة. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلا يرد قضاؤه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بمن يقضي له وبمن يقضي عليه، أو العزيز في انتقامه من المبطلين، العليم بالفصل بينهم وبين المحقين.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ

أمره بالتوكل على الله وقلة المبالاة بأعداء الدين، وعلل التوكل بأنه على الحق الأبلج الذي لا يتعلق به الشكّ والظنّ. وفيه بيان أنّ صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع الله وبنصرته. وأن مثله لا يخذل. فإن قلت: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يشبه أن يكون تعليلاً آخر للتوكل، فما وجه ذلك؟ قلت: وجهه أن الأمر بالتوكل جعل مسبباً عما كان يغيظ رسول الله ـ ﷺ ـ من جهة المشركين وأهل الكتاب: من ترك اتباعه وتشييع ذلك بالأذى والعداوة، فلاءم ذلك أن يعلل توكل متوكل مثله، بأن اتباعهم أمر قد يئس منه، فلم يبق إلا الاستنصار عليهم لعداوتهم واستكفاء شرورهم وأذاهم، وشبهوا بالموتى وهم أحياء صحاح الحواس، لأنهم إذا سمعوا ما يتلى عليهم من آيات الله ـ فكانوا أقماع القول لا تعيه آذانهم وكان سماعهم كلا سماع ـ: كانت حالهم ـ لانتفاء جدوى السماع ـ: كحال الموتى الذين فقدوا مصحح السماع؛ وكذلك تشبيههم بالصمّ الذين ينعق بهم فلا يسمعون. وشبهوا بالعمي حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم، وأن يجعلهم هداة بصراء إلا الله عز وجل. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾؟ قلت: هو تأكيد لحال الأصم، لأنه إذا تباعد عن الداعي بأن يولي عنه مدبراً كان أبعد عن إدراك صوته. وقرئ: ولا يسمع الصمّ، وما أنت بهادِ العمي، على الأصل. وتهدي العمي. وعن ابن مسعود: وما أن تهدي العمى، وهداه عن الضلال. كقولك: سقاه عن العيمة[1] أي: أبعده عنها بالسقي، وأبعده عن الضلال بالهدى ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ أي ما يجدي إسماعك إلا على الذين علم الله أنهم يؤمنون بآياته، أي: يصدقون بها ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون من قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ يعني: جعله سالماً لله خالصاً له.

﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾

سمى معنى القول ومؤداه بالقول، وهو ما وعدوا من قيام الساعة والعذاب، ووقوعه: حصوله. والمراد: مشارفة الساعة وظهور أشراطها وحين لا تنفع التوبة. ودابة الأرض: الجساسة. جاء في الحديث: أنّ طولها ستون ذراعاً، لا يدركها طالب، ولا يفوتها هارب (١٠٩٩). وروي: لها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان. وعن ابن جريج في

١٠٩٩ ـ أخرجه الثعلبي في «تفسيره» من طريق محمد بن النضر بن محمد الأودي عن أبيه عن سفيان =

---

(١) قوله «سقاه عن العيمة» هي شهوة اللبن كما في الصحاح. (ع)

وصفها: رأس ثور، وعين خنزير، وأذن فيل، وقرن إيل، وعنق نعامة، وصدر أسد، ولون نمر، وخاصرة هرّ، وذنب كبش، وخف بعير/ ٧٢/٢أ وما بين المفصلين: اثنا عشر ذراعاً بذراع آدم عليه السلام. وروي: لا تخرج إلا رأسها، ورأسها يبلغ أعنان السماء[1]، أو يبلغ السحاب. وعن أبي هريرة: فيها من كل لون، وما بين قرنيها فرسخ للراكب. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: لا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام. وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: أنها تخرج ثلاثة أيام، والناس ينظرون فلا يخرج إلا ثلثها. وعن النبي ﷺ: أنه سئل: من أين تخرج الدابة؟ فقال: «من أعظم المساجد حرمة على الله (١١٠٠)، يعني المسجد الحرام. وروي: أنها تخرج ثلاث خرجات: تخرج بأقصى اليمن ثم تتكمن، ثم تخرج بالبادية ثم تتكمن دهراً طويلاً، فبينا الناس في أعظم المساجد حرمة وأكرمها على الله، فما يهولهم إلا خروجها من بين الركن حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهربون وقوم يقفون نظارة. وقيل: تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية

= الثوري عن شهاب بن عبد الرحمن بن طارق عن ربعي بن حراش عن حذيفة مرفوعاً.
وينظر «تخريج الكشاف» للزيلعي (١٩/٣) وقال الحافظ في «تخريج الكشاف»: أخرجه الثعلبي من حديث حذيفة دون قوله: «وهي الجساسة» وسيأتي بعضه للحاكم وغيره في الذي بعده. انتهى.

١١٠٠ ـ أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٥/٢٠) من طريق ربعي بن حراش عن حذيفة بن اليمان.
وأخرجه الحاكم (٤٨٤/٤) وأبو داود الطيالسي (ص ١٤٤) رقم (١٠٦٩) والطبراني في «المعجم الكبير» (١٩٣/٣) رقم (٣٠٣٥) وفي «الأحاديث الطوال» (٢٦٢/٢٥ ـ ٢٦٣) رقم (٣٤) كلهم من طريق طلحة بن عمرو الحضرمي عن عبد الله بن عبيد بن عمير الليثي عن أبي الطفيل عن أبي سريحة الأنصاري به وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد وهو أبين حديث في ذكر دابة الأرض ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي فقال: طلحة بن عمرو الحضرمي ضعفوه وتركه أحمد. اهـ.
وطلحة بن عمرو بن عثمان الحضرمي متروك ينظر «الكامل» (١٤٢٦/٤ ـ ١٤٢٧) و«التقريب» (٣٧٩/١)، والتهذيب (٢٣/٥ ـ ٢٤).
وللحديث شاهد من حديث ابن عباس. أخرجه ابن مردويه كما في «تخريج الكشاف» (٢٠/٣ ـ ٢١).
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: أخرجه الطبري من طريق ربعي عن حذيفة بن اليمان: «ذكر رسول الله ـ ﷺ ـ الدابة فقلت: يا رسول الله من أين تخرج فقال: من أعظم المساجد حرمة على الله... الحديث وروى الحاكم والبيهقي في «الشعب» وإسحاق في مسنده وابن مردويه من طريق أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد رفعة قال: يكون للدابة ثلاث خرجات ـ إلى أن قال: بينما الناس في أعظم المساجد حرمة وخيرها وأكرمها: المسجد الحرام، لم يردهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام... الحديث وفيه: ثم ولت في الأرض لا يدركها طالب ولا يقودها هارب، وفي الباب عن ابن عباس أخرجه ابن مردويه مطولاً. انتهى.

(١) قوله «ورأسها يبلغ أعنان السماء» في الصحاح «أعنان السماء»: صفائحها وما اعترض من أقطارها، كأنه جمع عنن. والعامة تقول: عنان السماء. (ع)

بلسان ذلق[1] فتقول: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢﴾ يعني أن الناس كانوا لا يوقنون بخروجي؛ لأنّ خروجها من الآيات، وتقول: ألا لعنة الله على الظالمين. وعن السدي: تكلمهم ببطلان الأديان كلها سوى دين الإسلام. وعن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ: تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه، ثم تستقبل المشرق، ثم الشام ثم اليمن فتفعل مثل ذلك. وروي: تخرج من أجياد[2]. وروي: بينا عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون، إذ تضطرب الأرض تحتهم تحرك القنديل، وينشق الصفا مما يلي المسعى، فتخرج الدابة من الصفا ومعها عصى موسى وخاتم سليمان، فتضرب المؤمن في مسجده، أو فيما بين عينيه بعصا موسى عليه السلام، فتنكت نكتة بيضاء تفشو تلك النكتة في وجهه حتى يضيء لها وجهه أو تترك وجهه كأنه كوكب درّي، وتكتب بين عينيه: مؤمن: وتنكت الكافر بالخاتم في أنفه، فتفشو النكتة حتى يسودّ لها وجهه وتكتب بين عينيه: كافر. وروي: فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتحطم أنف الكافر بالخاتم، ثم تقول لهم: يا فلان، أنت من أهل الجنة. ويا فلان، أنت من أهل النار. وقرئ: تكلمهم، من الكلم وهو الجرح. والمراد به: الوسم بالعصا والخاتم. ويجوز أن يكون تكلمهم من الكلم أيضاً، على معنى التكثير. يقال: فلان مكلم، أي مجرّح. ويجوز أن يستدل بالتخفيف على أنّ المراد بالتكليم: التجريح، كما فسر: لنحرقنه، بقراءة عليّ ـ رضي الله عنه ـ: لنحرقنه، وأن يستدل بقراءة أبيّ: تنبئهم. وبقراءة ابن مسعود: تكلمهم بأن الناس، على أنه من الكلام. والقراءة بإن مكسورة: حكاية لقول الدابة، إما لأنّ الكلام بمعنى القول. أو بإضمار القول، أي: تقول الدابة ذلك. أو هي حكاية لقوله تعالى عند ذلك. فإن قلت: إذا كانت حكاية لقول الدابة فكيف تقول بآياتنا قلت: قولها حكاية لقول الله تعالى. أو على معنى بآيات ربنا. أو لاختصاصها بالله وأثرتها عنده، وأنها من خواص خلقه: أضافت آيات الله إلى نفسها، كما يقول بعض خاصة الملك: خيلنا وبلادنا، وإنما هي خيل مولاه وبلاده. ومن قرأ بالفتح فعلى حذف الجار، أي: تكلمهم بأن.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝٨٣﴾

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يحبس أوّلهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيكبكبوا في النار. وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد أطرافه، كما وصفت جنود سليمان بذلك. وكذلك قوله (فوجاً) فإن الفوج الجماعة الكثيرة. ومنه قوله تعالى: ﴿يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ وعن ابن عباس

---

(١) قوله «بلسان ذلق» أي طلق، كما في الصحاح. (ع)

(٢) قوله «تخرج من أجياد» جبل بمكة، سمي بذلك لموضع خيل تبع، وسمي «قعيقعان» لموضع سلاحه. (ع)

ـ رضي الله عنهما ـ: أبو جهل والوليد بن المغيرة، وشيبة بن ربيعة: يساقون بين يدي أهل مكة، وكذلك يحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى النار. فإن قلت: أي فرق بين من الأولى والثانية؟ قلت: الأولى للتبعيض، والثانية للتبيين، كقوله: ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾

الواو للحال، كأنه قال: أكذبتم بها باديء الرأي من غير فكر ولا نظر يؤدي إلى إحاطة العلم بكنهها، وأنها حقيقة بالتصديق أو بالتكذيب. أو للعطف، أي: أجحدتموها ومع جحودكم لم تلقوا أذهانكم لتحققها وتبصرها؛ فإن المكتوب إليه قد يجحد أن يكون الكتاب من عند من كتبه، ولا يدع مع ذلك أن يقرأه ويتفهم مضامينه ويحيط بمعانيه ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بها للتبكيت لا غير. وذلك أنهم لم يعملوا إلا التكذيب، فلا يقدرون أن يكذبوا ويقولوا قد صدّقنا بها وليس إلا التصديق بها أو التكذيب. ومثاله أن تقول لراعيك ـ وقد عرفته رويعي سوء ـ: أتأكل نعمي، أم ماذا تعمل بها؟ فتجعل ما تبتديء به وتجعله أصل كلامك وأساسه هو الذي صحّ عندك من أكله وفساده، وترمي بقولك: أم ماذا تعمل بها، مع علمك أنه لا يعمل بها إلا الأكل؛ لتبهته[1] وتعلمه علمك بأنه لا يجيء منه إلا أكلها، وأنه لا يقدر أن يدعي الحفظ والإصلاح؛ لما شهر من خلاف ذلك. أو أراد: أما كان لكم عمل في الدنيا إلا الكفر والتكذيب بآيات الله، أم ماذا كنتم تعملون من غير ذلك؟ يعني أنه لم يكن لهم عمل غيره، كأنهم لم يخلقوا إلا للكفر والمعصية، وإنما خلقوا للإيمان والطاعة/ ٢/ ٧٢ب: يخاطبون بهذا قبل كبهم في النار ثم يكبون فيها، وذلك قوله: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ يريد أن العذاب الموعود يغشاهم بسبب ظلمهم، وهو التكذيب بآيات الله، فيشغلهم عن النطق والاعتذار، كقوله تعالى: ﴿هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾

جعل الإبصار للنهار وهو لأهله. فإن قلت: ما للتقابل لم يراع في قوله: ﴿لِيَسْكُنُوا۟﴾ و﴿مُبْصِرًا﴾ حيث كان أحدهما علة والآخر حالاً؟ قلت: هو مراعى من حيث المعنى، وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف؛ لأن معنى مبصراً: ليبصروا فيه طرق التقلب في المكاسب.

---

(١) قوله «لتبهته» أي تدهشه وتحيره. (ع)

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾

فإن قلت: لم قيل ﴿فَفَزِعَ﴾ دون فيفزع؟ قلت: لنكتة وهي الإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة، واقع على أهل السموات والأرض؛ لأنّ الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به. والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ إلا من ثبت الله قلبه من الملائكة، قالوا: هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت ـ عليهم السلام. وقيل: الشهداء. وعن الضحاك: الحور، وخزنة النار، وحملة العرش. وعن جابر: منهم موسى عليه السلام، لأنه صعق مرّة، ومثله قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾. وقرئ: أتوه. وأتاه. ودخرين، فالجمع على المعنى والتوحيد على اللفظ. والداخر والدخر: الصاغر. وقيل: مع الإتيان حضورهم الموقف بعد النفخة الثانية. ويجوز أن يراد رجوعهم إلى أمره وانقيادهم له.

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾

﴿جَامِدَةً﴾ من جمد في مكانه إذا لم يبرح. تجمع الجبال فتسير كما تسير الريح السحاب، فإذا نظر إليها الناظر حسبها واقفة ثابتة في مكان واحد ﴿وَهِيَ تَمُرُّ﴾ مرّا حثيثاً كما يمر السحاب. وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد: إذا تحركت لا تكاد تتبين حركتها، كما قال النابغة في صفة جيش [من الطويل]:

بِأَرْعَنَ مِثْلِ الطَّوْدِ تَحْسَبُ أَنَّهُمْ ... وُقُوفٌ لِحَاجٍ وَالرِّكَابُ تَهَمْلَجُ[1]

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ من المصادر المؤكدة، كقوله: (وعد الله). و(صبغة الله) إلا أن مؤكده محذوف، وهو الناصب ليوم ينفخ، والمعنى: ويوم ينفخ في الصور وكان كيت وكيت

---

(١) للنابغة. والأرعن: الجبل العالي. والطود: الجبل العظيم، فاستعار الأرعن للجيش؛ ثم شبهه بالطود ليفيد المبالغة في الكثرة. والحاج: اسم جمع واحده حاجة. والركاب: المطي لا واحد له من لفظه. والهملجة: السير الرهو السهل، فارسي معرب. والهملاج: السريع. يقول: حاربنا العدو بجيش عظيم، تظنهم واقفين لحاجة لكثرتهم، والحال أن ركابهم تسرع السير.
ينظر: ديوانه ص ١٨٧، لسان العرب (صرد)، تاج العروس (صرد)، المعاني الكبير ص (٨٩١)، تأويل المشكل (٦)، السبع الطوال (٤٦١)، البحر المحيط (٧/ ١٠٠)، الدر المصون (٥/ ٣٢٩).

أثاب الله المحسنين وعاقب المجرمين، ثم قال: صنع الله يريد به: الإثابة والمعاقبة. وجعل هذا الصنع من جملة الأشياء التي أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب، حيث قال: صنع الله ﴿ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ يعني أنّ مقابلته الحسنة بالثواب والسيئة بالعقاب: من جملة إحكامه للأشياء وإتقانه لها، وإجرائه لها على قضايا الحكمة أنه عام بما يفعل العباد وبما يستوجبون عليه، فيكافئهم على حسب ذلك. ثم لخص ذلك بقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ إلى آخر الآيتين، فانظر إلى بلاغة هذا الكلام، وحسن نظمه وترتيبه، ومكانة إضماده، ورصانة تفسيره[1]، وأخذ بعضه بحجزة بعض، كأنما أفرغ إفراغاً واحداً ولأمر مّا أعجز القوى وأخرس الشقاشق[2]. ونحو هذا المصدر إذا جاء عقيب كلام، جاء كالشاهد بصحته والمنادى على سداده، وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا كما قد كان. ألا ترى إلى قوله: (صنع الله)، و(صبغة الله)، و(وعد الله)، و(فطرة الله): بعد ما وسمها بإضافتها إليه بسمة التعظيم، كيف تلاها بقوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾، ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ﴾، لا يخلف الله الميعاد ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ وقرئ: تفعلون، على الخطاب. ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ يريد الإضعاف وأنّ العمل يتقضى والثواب يدوم، وشتان ما بين فعل العبد وفعل السيد. وقيل: فله خير منها، أي: له خير حاصل من جهتها وهو الجنة. وعن ابن عباس؛ الحسنة كلمة الشهادة. وقرئ: ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ مفتوحا مع الإضافة؛ لأنه أضيف إلى غير متمكن. ومنصوباً مع تنوين فزع. فإن قلت: ما الفرق بين الفزعين؟ قلت: الفزع الأوّل: هو ما لا يخلو منه أحد عند الإحساس بشدّة تقع وهول يفجأ، من رعب وهيبة، وإن كان المحسن يأمن لحاق الضرر به؛ كما يدخل الرجل على الملك بصدر هياب وقلب وجاب[3] وإن كانت ساعة إعزاز وتكرمة وإحسان وتولية. وأمّا الثاني: فالخوف من العذاب. فإن قلت: فمن قرأ ﴿مِّن فَزَعٍ﴾ بالتنوين ما معناه؟ قلت: يحتمل معنيين. من فزع واحد وهو خوف العقاب، وأمّا ما يلحق الإنسان من التهيب والرعب لما يرى من الأهوال والعظائم، فلا يخلون منه؛ لأنّ البشرية تقتضي ذلك. وفي الأخبار والآثار ما يدل عليه. ومن فزع شديد مفرط الشدّة لا يكتنهه الوصف/ ٢/ ٧٣أ: وهو خوف النار. أمن: يعدى بالجار وبنفسه، كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾. وقيل: السيئة: الإشراك. يعبر عن الجملة بالوجه والرأس والرقبة، فكأنه قيل: فكبوا في النار، كقوله تعالى: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا﴾ ويجوز أن يكون ذكر الوجوه

---

(١) قوله «ومكانة إضماده ورصانة تفسيره» الذي في الصحاح «ضمد الجرح، يضمده ضمداً»: شده بعصابة وفيه «الرصين» المحكم الثابت. وقد رصن ـ بالضم ـ رصانة. (ع)

(٢) قوله «وأخرس الشقاشق» في الصحاح «شقشق الفحل شقشقة»: هدر. وإذا قالوا للخطيب: ذو شقشقة، فإنما يشبه بالفحل. (ع)

(٣) قوله «وقلب وجاب» في الصحاح «وجب القلب وجيباً»: اضطرب. (ع)

إيذاناً بأنهم يكبون على وجوههم فيها منكوسين ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ يجوز فيه الالتفات وحكاية ما يقال لهم عند الكب بإضمار القول.

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

أمر سوله بأن يقول: ﴿أُمِرْتُ﴾ أن أخص الله وحده بالعبادة، ولا أتخذ له شريكاً كما فعلت قريش، وأن أكون من الحنفاء الثابتين على ملة الإسلام ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ من التلاوة أو التلوّ كقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾. والبلدة: مكة حرسها الله تعالى: اختصها من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها؛ لأنها أحبّ بلاده إليه، وأكرمها عليه؛ وأعظمها عنده. وهكذا قال النبي ﷺ حين خرج في مهاجره، فلما بلغ الحزورة[1] استقبلها بوجهه الكريم فقال: «إني أعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله. ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت» (١١٠١)، وأشار إليها إشارة تعظيم لها وتقريب، دالاً على أنها موطن نبيه ومهبط

١١٠١ ـ ورد هذا الحديث عن جماعة من الصحابة هم عبد الله بن عدي بن الحمراء وأبو هريرة وعبد الله بن عباس.
فأما حديث عبد الله بن عدي:
فأخرجه الترمذي (٥/ ٧٢٢) ـ كتاب المناقب (٥٠) ـ باب في فضل مكة ـ (٣٩٢٥) وابن ماجه (٢/ ١٠٣٧) ـ كتاب المناسك (٢٥) ـ باب فضل مكة ـ (٣١٠٨) والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٧٩) ـ كتاب الحج ـ باب فضل مكة (٤٢٥٢) والحاكم في مستدركه (٣/ ٧) وابن حبان في صحيحه (٩/ ٢٢) (٣٧٠٨) والدارمي في سننه (٢/ ٢٣٩).
كلهم من طريق الليث عن عقيل عن الزهري أن أبا سلمة بن عبد الرحمن أخبره أن عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري قال: رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ ـ على راحلته ـ فذكر الحديث وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
وقال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح، وقد رواه يونس عن الزهري نحوه، ورواه محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ـ ﷺ ـ وحديث الزهري عن أبي سلمة عن عبد الله بن عدي بن حمراء عندي أصح.
وأخرجه أحمد (٤/ ٣٠٥) والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٧٩) (٤٢٥٣) وعبد بن حميد في مسنده (ص ١٧٧ ـ ١٧٨) حديث رقم (٤٩١) كلهم من طريق صالح بن كيسان عن ابن شهاب به.
وأخرجه أحمد (٤/ ٣٠٥) والحاكم (٣/ ٤٣١) من طريق شعيب عن الزهري به وله طرق أخرى عن الزهري عند أحمد (٤/ ٣٠٥).
=

---

(١) قوله «فلما بلغ الحزورة» هي تل صغير كما في الصحاح. (ع)

وحيه، ووصف ذاته بالتحريم الذي هو خاص وصفها، فأجزل بذلك قسمها في الشرف والعلو، ووصفها بأنها محرمة لا ينتهك حرمتها إلا ظالم مضادّ لربه ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لا يختلى خلاها، ولا يعضد شجرها[1]، ولا ينفر صيدها. واللاجىء إليها آمن. وجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخولها تحتهما. وفي ذلك إشارة إلى أن ملكا ملك مثل هذه البلدة عظيم الشأن قد ملكها وملك إليها كل شيء[2]: اللهم بارك لنا في سكناها، وآمنا فيها شرَّ كل ذي شرّ، ولا تنقلنا من جوار بيتك إلا إلى دار رحمتك. وقرئ: التي حرّمها واتل عليهم هذا القرآن: عن أبيّ وأن

= وأخرجه الحاكم في مستدركه (٣/ ٢٨٠) عن عبد العزيز بن محمد الدراوردي عن ابن أخي ابن شهاب عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم.

ـ حديث أبي هريرة:

أخرجه النسائي في «الكبرى» (٢/ ٤٨٠) كتاب الحج: باب فضل مكة حديث (٤٢٥٤) من طريق معمر عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة به ومن طريق معمر أيضاً أخرجه عبد الرزاق وإسحاق بن راهويه كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٢٢).

وأخرجه أيضاً البزار كما في حديث المسجد السابق. وقال: ولا نعلم رواه عن الزهري إلا معمر.

ـ حديث ابن عباس:

أخرجه الترمذي (٥/ ٧٢٣) كتاب المناقب: باب في فضل مكة حديث (٣٩٢٦) وابن حبان (١٠٢٦ ـ موارد) وأبو يعلى (٥/ ٦٩) رقم (٢٦٦٢) والحاكم (١/ ٤٨٦) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه أيضاً ابن حبان.

قال الحافظ: أخرجه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وابن أبي شيبة، والدارمي، وعبد بن حميد، والبزار، وأبو يعلى والبيهقي في الدلائل، كلهم من رواية الزهري عن أبي سلمة عن عبد الله بن عدي بن الخيار قال: «رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ واقفاً على الحزورة، وهو يقول: «والله إنك لخير أرض الله إلى الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»، هكذا رواه عقيل ويونس وشعيب وصالح بن كيسان عنه. ورواه ابن أخي الزهري عن عمه عن محمد بن جبير بن مطعم عن عبد الله بن عدي بن الخيار: أخرجه الطبراني. وصححه الدارقطني لوجهين. ورواه النسائي، وإسحاق، والبزار، والبيهقي في الدلائل من رواية معمر عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة. ولفظه للبيهقي: «ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت». قال البزار: تفرد به معمر هكذا. وقال البيهقي: وهم فيه معمر، وقال الترمذي: رواه محمد بن عمر بن أبي سلمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة. وقول الزهري عن أبي سلمة عن عبد الله بن عدي أصح. وقال البيهقي أيضاً: ورواية محمد بن عمرو وهم. وفي الباب عن ابن عباس. أخرجه الترمذي من رواية ابن خثيم عن سعيد بن جبير وأبي الطفيل جميعاً فيه نحو: «ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك». انتهى.

---

(١) قوله «لا يختلي خلاها... إلخ»: أي لا يجز حشيشها، ولا يقطع شجرها. (ع)

(٢) قال محمود: «المراد بالبلدة مكة وإضافة اسم الله تعالى إليها لتشريفها وذكر تحريمها، لأنه أخص =

أتل: عن ابن مسعود. ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ باتباعه إياي فيما أنا بصدده من توحيد الله ونفي الأنداد عنه، والدخول في الملة الحنيفية، واتباع ما أنزل عليّ من الوحي؛ فمنفعة اهتدائه راجعة إليه لا إليّ ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ ولم يتبعني فلا عليّ، وما أنا إلا رسول منذر، وما على الرسول إلا البلاغ، ثم أمره أن يحمد الله على ما خوّله من نعمة النبوّة التي لا توازيها نعمة، وأن يهدّد أعداءه بما سيريهم الله من آياته التي تلجئهم إلى المعرفة، والإقرار بأنها آيات الله. وذلك حين لا تنفعهم المعرفة. يعني في الآخرة. عن الحسن وعن الكلبي: الدخان، وانشقاق القمر. وما حلّ بهم من نقمات الله في الدنيا. وقيل: وهو كقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية وكل عمل يعملونه، فالله عالم به غير غافل عنه لأنّ الغفلة والسهو لا يجوزان على عالم الذات(١) وهو من وراء جزاء العاملين. قرئ: تعملون، بالتاء والياء.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ طس سليمان: كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق سليمان وكذب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم، ويخرج من قبره وهو ينادي لا إله إلا الله» (١١٠٢).

١١٠٢ ـ تقدم برقم (٣٤٦).
قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ. انتهى.

أوصافها وأسنده إلى ذاته تأكيداً لشرفها ثم قال: (وله كل شيء)، فجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخول هذه البلدة المعظمة. وفي ذلك إشارة إلى أن ملكاً قد ملك هذه البلدة المكرمة وملك إليها كل شيء إنه لعظيم الشأن» قال أحمد: وتحت قوله (وله كل شيء): فائدة أخرى سوى ذلك، وهي أنه لما أضاف اسمه إلى البلدة المخصوصة تشريفاً لها، أتبع ذلك إضافة كل شيء سواها إلى ملكه، قطعاً لتوهم اختصاص ملكه بالبلدة المشار إليها، وتنبيهاً على أن الإضافة الأولى إنما قصد بها التشريف، لا لأنها ملك الله تعالى خاصة، والله أعلم.

(١) قال محمود: «لأن العالم بالذات لا يجوز عليه الغفلة» قال أحمد: قد سبق له جحد صفة العلم، وإيهام أن سلبها داخل في تنزيه الله تعالى، لأنه يجعل استحالة الغفلة عليه معللة بأنه عالم بالذات لا بعلم، والحق أن استحالة الغفلة عليه تعالى، لأن علمه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، بل هو علم قديم أزلي عام التعليق بجميع الواجبات والممكنات والممتنعات، ولا يتوقف تنزيهه تعالى على تعطيل صفاته وكماله وجلاله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيرا.

سورة القصص

مكية، [إلا من آية ٥٢ إلى غاية آية ٥٥ فمدنية، وآية ٨٥ فبالجحفة أثناء الهجرة]

وآياتها ٨٨ [نزلت بعد النمل]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣﴾

﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ مفعول نتلو، أي: نتلو عليك بعض خبرهما ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ محقين، كقوله، تنبت بالدهن ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لمن سبق في علمنا أنه يؤمن، لأنّ التلاوة إنما تنفع هؤلاء دون غيرهم.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ جملة مستأنفة كالتفسير للمجمل، كأن قائلاً قال: وكيف كان نبؤهما فقال: إنّ فرعون ﴿عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني أرض مملكته قد طغى فيها وجاوز الحدّ في الظلم والعسف ﴿شِيَعًا﴾ فرقاً يشيعونه على ما يريد ويطيعونه، لا يملك أحد منهم أن يلوي عنقه؛ قال الأعشى [من البسيط]:

وَبَلْدَةٍ يَرْهَبُ الجَوَّابُ دُلْجَتَهَا ... حَتَّىٰ تَرَاهُ عَلَيْهَا يَبْتَغِي الشِّيَعَا[1]

---

(١) وبلدة يرهب الجواب دلجتها ... حتى تراه عليها يبتغي الشيعا
كلفت مجهولها نفسي وشايعني ... همي عليها إذا ما آلها لمعا
بذات لوث عفرناة إذا عثرت ... فالتعس أولى لها من أن يقال: لعا
للأعشى، أي: ورب مفازة يخاف الجواب: أي كثير السير، من جبت الأرض: قطعتها بالسير. والدلجة، من دلج وأدلج بوزن افتعل، وأدلج بوزن أكرم: إذا سار ليلاً. والدلجة: ساعة من الليل، =

أو يشيع بعضهم بعضاً في طاعته. أو أصنافاً في استخدامه يتسخر صنفاً في بناء وصنفاً حرث ٢/٧٣ب وصنفاً في حفر، ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية. أو فرقا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة، وهم بنو إسرائيل والقبط. والطائفة المستضعفة: بنو إسرائيل. وسبب ذبح الأبناء: أنّ كاهناً قال له: يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يده. وفيه دليل بين على ثخانة حمق فرعون، فإنه إن صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن، وإن كذب فما وجه القتل؟ و﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ حال من الضمير في (وجعل) أو صفة لشيعا. أو كلام مستأنف. و﴿يُذَبِّحُ﴾ بدل من يستضعف. وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ بيان أنّ القتل ما كان إلا فعل المفسدين فحسب، لأنه فعل لا طائل تحته، صدق الكاهن أو كذب.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾

فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ وعطفه على (نتلو) و(يستضعف) غير سديد؟ قلت: هي جملة معطوفة على قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ لأنها نظيرة «تلك» في وقوعها تفسيراً لنبأ موسى وفرعون، واقتصاصاً له. (ونريد): حكاية حال ماضية. ويجوز أن يكون حالاً من يستضعف، أي يستضعفهم فرعون، ونحن نريد أن نمنّ عليهم. فإن قلت: كيف يجتمع استضعافهم وإرادة الله المنة عليهم؟ وإذا أراد الله شيئاً كان ولم يتوقف إلى وقت آخر، قلت: لما كانت منة الله بخلاصهم من فرعون قريبة الوقوع، جعلت إرادة وقوعها كأنها مقارنة لاستضعافهم ﴿أَئِمَّةً﴾ مقدّمين في الدين والدنيا، يطأ الناس أعقابهم. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قادة يقتدى بهم في الخير. وعن مجاهد ـ رضي الله عنه ـ: دعاة إلى الخير، وعن قتادة ـ رضي الله عنه ـ: ولاة، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾. ﴿الْوَارِثِينَ﴾ يرثون فرعون وقومه ملكهم وكل ما كان لهم. مكن له: إذا جعل له مكاناً يقعد عليه أو يرقد، فوطأه ومهده ونظيره: أرّض له. ومعنى التمكين لهم

= أي: يخاف المعتاد على السير من سيرها ليلاً حتى يطلب الجماعات المساعدين له على سيرها، كلفت نفسي سير المجهول منها، وعاونني عزمي على سيرها وقت لمعان آلها، وهو السراب الذي يرى عند شدة الحر كأنه ماء، مع أن سير الهاجرة أشد من سير الليل، ثم قال مع ناقة صاحبة قوة، ويطلق اللوث على الضعف أيضاً، فهو من الأضداد، عفرناة: غليظة، ويقال للعاثر: لعالك، دعاء له بالانتعاش. وتعساً له: دعاء عليه بالسقوط، يريد أنها لا تعثر، ولو عثرت فالدعاء عليها أحق بها من الدعاء لها.

في الأرض وهي أرض مصر والشام: أن يجعلها بحيث لا تنبو بهم ولا تغث[1] عليهم؛ كماكانت في أيام الجبابرة، وينفذ أمرهم، ويطلق أيديهم ويسلطهم. وقرئ: ويرى فرعون وهامان وجنودهما، أي: يرون ﴿مِنْهُم مَّا﴾حذروه: من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾

اليم: البحر. قيل: هو نيل مصر. فإن قلت: ما المراد بالخوفين حتى أوجب أحدهما ونهى عن الآخر؟ قلت: أما الأوّل فالخوف عليه من القتل؛ لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته فينموا عليه. وأما الثاني، فالخوف عليه من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع في يد بعض العيون المبثوثة من قبل فرعون في تطلب الولدان، وغير ذلك من المخاوف. فإن قلت: ما الفرق بين الخوف والحزن؟ قلت: الخوف غم يلحق الإنسان لمتوقع. والحزن: غم يلحقه لواقع وهو فراقه والإخطار به، فنهيت عنهما جميعاً، وأومنت بالوحي إليها، ووعدت ما يسليها ويطامن قلبها ويملؤها غبطة وسروراً: وهو ردّه إليها وجعله من المرسلين. وروي: أنه ذبح في طلب موسى عليه السلام تسعون ألف وليد. وروي: أنها حين أقربت وضربها الطلق وكانت بعض القوابل الموكلات بحبالى بني إسرائيل مصافية لها، فقالت لها: لينفعني حبك اليوم، فعالجتها، فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه، وارتعش كل مفصل منها، ودخل حبه قلبها، ثم قالت: ما جئتك إلا لأقبل مولودك وأخبر فرعون، ولكني وجدت لابنك حباً ما وجدت مثله فاحفظيه، فلما خرجت جاء عيون فرعون، فلفته في خرقة ووضعته في تنور مسجور[2] لم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها، فطلبوا فلم يلقوا شيئاً، فخرجوا وهي لا تدري مكانه، فسمعت بكاءه من التنور، فانطلقت إليه وقد جعل الله النار عليه برداً وسلاماً، فلما ألح فرعون في طلب الولدان أوحى الله إليها فألقته في اليم. وقد روي أنها أرضعته ثلاثة أشهر في تابوت من بردي[3] مطلي بالقار من داخله.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا

(١) قوله «ولا تغث عليهم» أي: ولا تفسد وتردؤ. أفاده الصحاح. (ع)
(٢) قوله «ووضعته في تنور مسجور» في الصحاح «التنور»: الذي يخبز فيه. وفيه أيضاً. سجرت التنور سجرا، إذا حميته. (ع)
(٣) قوله «تابوت من بردي مطلي بالقار» في الصحاح «البردي» بالفتح: نبات معروف، فلينظر. (ع)

اللام في ﴿لِيَكُونَ﴾ هي لام كي التي معناها التعليل: كقولك: جئتك لتكرمني سواء بسواء ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز دون الحقيقة، لأنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوّاً وحزناً، ولكن: المحبة والتبني، غير أن ذلك لما كانت نتيجة التقاطهم له وثمرته، شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله، وهو الإكرام الذي هو نتيجة المجيء، والتأدب الذي هو ثمرة الضرب في قولك: ضربته ليتأدّب. وتحريره: أن هذه اللام حكمها حكم الأسد، حيث استعيرت لما يشبه التعليل، كما يستعار الأسد لمن يشبه الأسد/ ٢/ ١٧٤أ. وقرئ: وحزناً وهما لغتان: كالعُدم والعَدم ﴿كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ في كل شيء، فليس خطؤهم في تربية عدوّهم ببدع منهم. أو كانوا مذنبين مجرمين، فعاقبهم الله بأن ربي عدوّهم ـ ومن هو سبب هلاكهم ـ على أيديهم. وقرئ: خاطين، تخفيف خاطئين، أو خاطين الصواب إلى الخطأ.

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾

روي أنهم حين التقطوا التابوت عالجوا فتحه، فلم يقدروا عليه، فعالجوا كسره فأعياهم، فدنت آسية فرأت في جوف التابوت نوراً، فعالجته ففتحته، فإذا بصبيّ نوره بين عينيه وهو يمصّ إبهامه لبنا فأحبوه، وكانت لفرعون بنت برصاء، وقالت له الأطباء: لا تبرأ إلا من، قبل البحر، يوجد فيه شبه إنسان دواؤها ريقه، فلطخت البرصاء برصها بريقه فبرأت[1] وقيل: لما نظرت إلى وجهه برأت، فقالت: إن هذه لنسمة مباركة، فهذا أحد ما عطفهم عليه، فقال الغواة من قومه: هو الصبي الذي نحذر منه، فأذن لنا في قتله، فهمّ بذلك فقالت آسية: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ فقال فرعون: لك لا لي. وروي في حديث: «لو قال هو قرّة عين لي كما هو لك لهداه الله كما هداها» (١١٠٣)، وهذا على سبيل الفرض

١١٠٣ ـ تقدم في سورة طه.

قال الحافظ: هذا طرف من حديث الفتون الطويل. وقد ذكرنا في طه أن النسائي أخرجه من حديث ابن عباس، وفيه: فأتت فرعون فقالت: قرة عين لي ولك، فقال فرعون: يكون لك فأما أنا فلا حاجة لي فيه. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «والذي يحلف به، لو أقر فرعون أن يكون له قرة عين كما أقرت امرأته ـ لهداه الله كما هداها، ولكن الله حرمه ذلك». انتهى.

---

(١) قوله «فبرأت» في الصحاح: برئت من المرض برءاً بالضم. وأهل الحجاز يقولون: برأت من المرض برءاً بالفتح، وأصبح فلان بارئاً من مرضه. (ع)

والتقدير، أي: لو كان غير مطبوع على قلبه كآسية لقال مثل قولها، ولأسلم كما أسلمت: هذا ـ إن صح الحديث ـ تأويله، والله أعلم بصحته. وروي أنها قالت له: لعله من قوم آخرين ليس من بني إسرائيل. قرّة عين: خبر مبتدأ محذوف ولا يقوى أن تجعله مبتدأ و(لا تقتلوه) خبراً، ولو نصب لكان أقوى. وقراءة ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ دليل على أنه خبر، قرأ: لا تقتلوه قرّة عين لي ولك، بتقديم (لا تقتلوه). ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فإنّ فيه مخايل اليمن ودلائل النفع لأهله، وذلك لما عاينت من النور وارتضاع الإبهام وبرء البرصاء، ولعلها توسمت في سيماه النجابة المؤذنة بكونه نفاعاً. أو نتبناه، فإنه أهل للتبني، ولأن يكون ولداً لبعض الملوك. فإن قلت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حال، فما ذو حالها؟ قلت: ذو حالها آل فرعون. وتقدير الكلام: فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً، وقالت امرأة فرعون كذا وهم لا يشعرون أنهم على خطأ عظيم في التقاطه ورجاء النفع منه وتبنيه. وقوله: إن فرعون... الآية: جملة اعتراضية واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه، مؤكدة لمعنى خطئهم. وما أحسن نظم هذا الكلام عند المرتاض بعلم محاسن النظم.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿فَٰرِغًا﴾ صفراً من العقل. والمعنى: أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها لما دهمها من فرط الجزع والدهش. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [ابراهيم: ٤٣] أي جوّف لا عقول فيها؛ ومنه بيت حسان [من الوافر]:

ألاَ أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي ... فَأَنْتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَوَاءُ[1]

وذلك أنّ القلوب مراكز العقول. ألا ترى إلى قوله: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦] ويدل عليه قراءة من قرأ: فرغاً. وقرئ: قرعاً، أي خالياً من قولهم: أعوذ بالله من صفر الإناء وقرع الفناء[2]. وفرغاً، من قولهم: دماؤهم بينهم فرغ، أي هدر، يعني: بطل قلبها وذهب، وبقيت لا قلب لها من شدّة ما ورد عليها ﴿لَتُبْدِى بِهِۦ﴾

---

(١) تقدم شرح هذا الشاهد ضمن أبيات في الجزء الثاني صفحة ٥٦٣ فراجعه إن شئت اهـ. مصححه.

(٢) قوله «من صفر الإناء وقرع الفناء» صفر الإناء: خلوه مصدر: صفر الشيء بالكسر، أي: خلا وقرع الفناء: خلوه من الغاشية، مصدر قرع بالكسر، أي: خلا. (ع)

لتصحر[1] به. والضمير لموسى والمراد بأمره وقصته، وأنه ولدها ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بإلهام الصبر، كما يربط على الشيء المنفلت ليقرّ ويطمئن ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدقين بوعد الله، وهو قوله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ ويجوز: وأصبح فؤادها فارغاً من الهم، حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه إن كادت لتبدي بأنه ولدها؛ لأنها لم تملك نفسها فرحاً وسروراً بما سمعت، لولا أنا طامنا قلبها وسكنّا قلقه الذي حدث به من شدّة الفرح والابتهاج، لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله لا بتبني فرعون وتعطفه. وقرئ: مؤسى، بالهمزة: جعلت الضمة في جارة الواو ـ وهي الميم ـ كأنها فيها، فهمزت كما تهمز واو وجوه ﴿قُصِّيهِ﴾ اتبعي أثره وتتبعي خبره. وقرئ فبصرت بالكسر ـ يقال بصرت به عن جنب وعن جنابة، بمعنى: عن بعد. وقرئ: عن جانب، وعن جنب. والجنب: الجانب. يقال: قعد إلى جنبه وإلى جانبه، أي: نظرت إليه مزورة متجانفة مخاتلة[2]. وهم لا يحسون بأنها أخته، وكان اسمها مريم.

﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

التحريم: استعارة للمنع؛ لأنّ من حرم عليه الشيء فقد منعه. ألا ترى إلى قولهم: محظور. وحجر، وذلك لأن الله منعه أن يرضع ثدياً، فكان لا يقبل ثدي مرضع قط، حتى أهمهم ذلك، والمراضع: جمع مرضع، وهي المرأة التي ترضع. أو جمع مرضع، وهو موضع الرضاع يعني الثدي أو الرضاع ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل قصصها أثره/ ٢/ ٧٤ب. روي أنها لما قالت: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ قال هامان: إنها لتعرفه وتعرف أهله، فقالت: إنما أردت وهم للملك ناصحون[3] والنصح: إخلاص العمل من شائب الفساد، فانطلقت إلى أمها بأمرهم، فجاءت بها والصبيّ على يد فرعون يعلله شفقة عليه وهو يبكي يطلب الرضاع، فحين وجد ريحها استأنس والتقم ثديها، فقال لها فرعون: ومن أنت منه فقد أبى كل ثدي إلا ثديك؟ قالت: إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن، لا أوتى بصبي إلا قبلني،

---

(١) قوله «لتصحر به» في الصحاح: أصحر الرجل، أي: خرج إلى الصحراء والمراد هنا تجهر به ولا تكتم أمره. (ع)

(٢) قوله «متجانفة مخاتلة» متجانفة: أي مائلة. ومخاتلة: أي مخادعة. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قال محمود: «إنهم اتهموها لما قالت ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ بمعرفة موسى عليه السلام، فقالت إنما أردت وهم للملك فرعون ناصحون، فخلصت من التهمة» قال أحمد: أوردت هذه التورية استحساناً لفطنتها، ولكونها من بيت النبوة، وأخت النبي، فحقيق لها ذلك.

فدفعه إليها وأجرى عليها، وذهبت به إلى بيتها، وأنجز الله وعده في الردّ، فعندها ثبت واستقرّ في علمها أن سيكون نبياً. وذلك قوله: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ يريد: وليثبت علمها ويتمكّن. فإن قلت: كيف حل لها أن تأخذ الأجر على إرضاع ولدها؟ قلت: ما كانت تأخذه على أنه أجر على الرضاع، ولكنه مال حربيّ كانت تأخذه على وجه الاستباحة. وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ داخل تحت علمها. المعنى: لتعلم أن وعد الله حق، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنه حق فيرتابون. ويشبه التعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى، فجزعت وأصبح فؤادها فارغاً يروى أنها حين ألقت التابوت في اليم جاءها الشيطان فقال لها: يا أم موسى، كرهت أن يقتل فرعون موسى فتؤجري، ثم ذهبت فتوليت قتله، فلما أتاها الخبر بأن فرعون أصابه قالت: وقع في يد العدوّ، فنسيت وعد الله. ويجوز أن يتعلق (ولكنّ) بقوله: (ولتعلم) ومعناه: أن الردّ إنما كان لهذا الغرض الديني، وهو علمها بصدق وعد الله. ولكنّ الأكثر لا يعلمون بأن هذا هو الغرض الأصلي الذي ما سواه تبع له: من قرّة العين وذهاب الحزن.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ واعتدل وتمّ استحكامه، وبلغ المبلغ الذي لا يزاد عليه، كما قال لَقِيطٌ [من البسيط]:

وَٱسْتَحْمِلُوا أَمْرَكُمْ لِلَّهِ دَرُّكُمُ ... شَزْرَ المَرِيرَةِ لاَ قَحْماً وَلاَ ضَرَعَا[1]

---

(١) للقيط. وروي: واستحكموا. والشزر: القتل الشديد، والشيء الشديد، فهو مصدر أو وصف، والمريرة من المرة وهي القوة. والمرير: الحبل المحكم الفتل. والقحم: الشيخ الهرم يعتريه خرق وخرف. والضرع: اللين الذليل، من الضراعة وهي الذلة والخضوع، يقول: قلدوا أمر خلافتكم رجلاً محكم العزيمة قوي الهمة، لا هرماً مختل الرأي ولا ضعيفاً، ولله دركم: جملة اعتراضية، أي: لله خيركم وصالح عملكم. وقيل: هذا البيت ملفق مما رواه أبو العباس المبرد في كامله، ومنه:

فقلدوا أمركم لله دركم ... رحب الذراع بأمر الحروب مضطلعا
ما زال يحلب هذا الدهر أشطره ... يكون متبعا طوراً ومتبعا
حتى استمرت على شزر مريرته ... مستحكم الرأي لا قحمّا ولا ضرعا

ورحب الذراع: طويل الباع واسع الصدر، أي: شجاع جواد، واضطلع بكذا: قوي عليه واشتد، من الضلاعة وهي القوة واحتمال الثقيل، وشطرت الناقة شطراً: حلبت شطر لبنها وتركت شطره، أي: نصفه وما هنا مستعار منه، أي: جربت الدهر ومرت بي ضروبه من خير وشر، فاكتسبت منه ما يصح به رائي. والأشطر: جمع شطر بدل من الدهر. ويجوزأن حلب يتعدى إلى مفعولين ولو بالتضمين. ومتبع الأول: اسم مفعول، والثاني: اسم فاعل، أي: تارة تابع، وتارة متبوع، واستمرت مريرته: قوي عزمه واستحكم أمره على شزر، أي قوة وصدق همة.
ينظر: الكامل (١/ ٣٣٠)، البحر (٨/ ١٧٤)، الدر المصون (٦/ ٢٢١).

وذلك أربعون سنة: ويروى: أنه لم يبعث نبيّ إلا على رأس أربعين سنة (١١٠٤). العلم. التوراة. والحكم: السنة. وحكمة الأنبياء: سنتهم. قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب:٣٤] وقيل: معناه أتيناه سيرة الحكماء العلماء، وسمتهم قبل البعث، فكان لا يفعل فعلاً يستجهل فيه.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

المدينة: مصر. وقيل: مدينة منف من أرض مصر. وحين غفلتهم: ما بين العشاءين. وقيل: وقت القائلة. وقيل: يوم عيد لهم هم مشتغلون فيه بلهوهم. وقيل: لما شبّ وعقل أخذ يتكلم بالحق وينكر عليهم، فأخافوه، فلا يدخل قرية إلا على تغفل. وقرأ سيبويه: فاستعانه ﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾ ممن شايعه على دينه من بني إسرائيل. وقيل: هو السامريّ ﴿مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ من مخالفيه من القبط، وهو فاتون، وكان يتسخر الإسرائيلي لحمل الحطب إلى مطبخ فرعون. والوكز: الدفع بأطراف الأصابع. وقيل: بجمع الكف. وقرأ ابن مسعود: فلكزه. باللام ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ فقتله. إن قلت: لم جعل قتل الكافر من عمل الشيطان وسماه ظلماً لنفسه واستغفر منه؟ قلت: لأنه قتله قبل أن يؤذن له في القتل، فكان ذنباً يستغفر منه. عن ابن جريج: ليس لنبي أن يقتل ما لم يؤمر ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ يجوز أن يكون قسماً جوابه محذوف، تقديره: أقسم بإنعامك عليّ بالمغفرة لأتوبنّ ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[(١)] وأن يكون استعطافاً، كأنه قال: رب اعصمني بحق ما أنعمت عليّ من المغفرة، فلن أكون ـ إن عصمتني ـ ظهيراً للمجرمين. وأراد بمظاهرة المجرمين: إما صحبة فرعون وانتظامه في جملته وتكثيره سواده حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يسمى ابن فرعون. وإما مظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم، كمظاهرة

١١٠٤ ـ قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: لم أجده. انتهى.

---

(١) قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ قال أحمد: لقد تبرأ من عظيم؛ لأن ظهير المجرمين شريكهم فيما هم بصدده. ويروى: أنه يقال يوم القيامة: أين الظلمة وأعوان الظلمة، فيؤتى بهم حتى بمن لاق لهم ليقة أو برى لهم قلماً فيجعلون في تابوت من حديد ويلقى بهم في النار.

الإسرائيلي المؤدية إلى القتل الذي لم يحل له. وعن ابن عباس: لم يستثن فابتلى به مرّة أخرى. يعني: لم يقل: (فلن أكون) إن شاء الله. وهذا نحو قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [هود:١١٣] وعن عطاء: أنّ رجلاً قال له: إنّ أخي يضرب بقلمه ولا يعدو رزقه. قال: فمن الرأس، يعني من يكتب له؟ قال: خالد بن عبد الله القسري: قال: فأين قول موسى؟ وتلا هذه الآية. وفي الحديث: «ينادي مناد يوم القيامة: أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة، حتى من لاق لهم دواة أو برى لهم قلماً، فيجمعون في تابوت من حديد فيرمى به في جهنم» (١١٠٥) وقيل معناه. بما أنعمت/ ٢/ ٧٥أ عليّ من القوّة، فلن أستعملها إلا في مظاهرة أوليائك وأهل طاعتك والإيمان بك. ولا أدع قبطياً يغلب أحداً من بني إسرائيل.

﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿يَتَرَقَّبُ﴾ المكروه هو الاستقادة منه، أو الإخبار وما يقال فيه، ووصف الإسرائيلي بالغيّ؛ لأنه كان سبب قتل رجل، وهو يقاتل آخر. وقرئ: يبطش، بالضم. والذي هو عدوّ لهما: القبطي؛ لأنه ليس على دينهما. ولأن القبط كانوا أعداء بني إسرائيل. والجبار: الذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم، لا ينظر في العواقب ولا يدفع بالتي هي أحسن: وقيل: المتعظم الذي لا يتواضع لأمر الله، ولما قال هذا: أفشى على موسى فانتشر الحديث في المدينة ورقى إلى فرعون، وهموا بقتله.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾

قيل: الرجل: مؤمن آل فرعون، وكان ابن عم فرعون، و﴿يَسْعَىٰ﴾ يجوز ارتفاعه وصفاً لرجل، وانتصابه حالاً عنه؛ لأنه قد تخصص بأن وصف بقوله: ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ وإذا جعل صلة لجاء، لم يجز في (يسعى) إلا الوصف. والائتمار: التشاور. يقال: الرجلان يتآمران ويأتمران، لأن كل واحد منهما يأمر صاحبه بشيء أو يشير عليه بأمر. والمعنى: يتشاورون بسببك ﴿لَكَ﴾ بيان، وليس بصلة الناصحين.

١١٠٥ ـ قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة. انتهى.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾

﴿يَتَرَقَّبُ﴾ التعرّض له في الطريق. أو أن يلحق.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾

﴿تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ قصدها ونحوها. ومدين: قرية شعيب عليه السلام، سميت بمدين بن إبراهيم، ولم تكن في سلطان فرعون، وبينها وبين مصر مسيرة ثمان، وكان موسى لا يعرف إليها الطريق قال ابن عباس: خرج وليس له علم بالطريق إلا حسن ظنه بربه. و﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وسطه ومعظم نهجه. وقيل: خرج حافياً لا يعيش إلا بورق الشجر، فما وصل حتى سقط خف قدمه. وقيل: جاءه ملك على فرس بيده عنزة، فانطلق به إلى مدين.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿مَآءَ مَدْيَنَ﴾ ماءهم الذين يستقون منه، وكان بئراً فيما روي. وروده: مجيئه والوصول إليه ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ وجد فوق شفيره ومستقاه ﴿أُمَّةً﴾ جماعة كثيفة العدد ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ من أناس مختلفين ﴿مِن دُونِهِمُ﴾ في مكان أسفل من مكانهم. والذود: الطرد والدفع وإنما كانتا تذودان؛ لأنّ على الماء من هو أقوى منهما فلا يتمكنان من السقي. وقيل: كانتا تكرهان المزاحمة على الماء. وقيل: لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم، وقيل: تذودان عن وجوههما نظر الناظر لتسترهما ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ ما شأنكما. وحقيقته: ما مخطوبكما، أي: مطلوبكما من الذياد، فسمي المخطوب خطبا، كما سمى المشئون شأناً في قولك: ما شأنك؟ يقال: شأنت شأنه، أي: قصدت قصده. وقرئ لا نسقي. ويصدر.

والرعاء، بضم النون والياء والراء. والرعاء: اسم جمع كالرخال والثناء[1]. وأما الرعاء بالكسر فقياس، كصيام وقيام ﴿كَبِيرٌ﴾ كبير السن ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ فسقى غنمهما لأجلهما. وروي أن الرعاة كانوا يضعون على رأس البئر حجراً لا يقله إلا سبعة رجال. وقيل: عشرة. وقيل: أربعون. وقيل: مائة، فأقله وحده. وروي أنه سألهم دلواً من ماء فأعطوه دلوهم وقالوا: استق بها، وكانت لا ينزعها إلا أربعون، فاستقى بها وصبها في الحوض ودعا بالبركة، وروى غنمهما وأصدرهما، وروي أنه دفعهم عن الماء حتى سقى لهما. وقيل: كانت بئراً أخرى عليها الصخرة. وإنما فعل هذا رغبة في المعروف وإغاثة للملهوف. والمعنى: أنه وصل إلى ذلك الماء وقد ازدحمت عليه أمّة من أناس مختلفة متكاثفة العدد، ورأى الضعيفتين من ورائهم مع غنيمتهما مترقبتين لفراغهم، فما أخطأت همته في دين الله تلك الفرصة، مع ما كان به من النصب وسقوط خف القدم والجوع، ولكنه رحمهما فأغاثهما، وكفاهما أمر السقي في مثل تلك الزحمة بقوّة قلبه وقوّة ساعده، وما آتاه الله من الفضل في متانة الفطرة ورصانة الجبلة وفيه مع إرادة اقتصاص أمره وما أوتي من البطش والقوّة وما لم يغفل عنه، على ما كان به من انتهاز فرصة الاحتساب، ترغيب في الخير، وانتهاز فرصة، وبعث على الاقتداء في ذلك بالصالحين والأخذ بسيرهم ومذاهبهم. فإن قلت: لم ترك المفعول غير مذكور في قوله: (يسقون) و(تذودان) و(لا نسقي)[2]؟ قلت: لأن الغرض هو الفعل لا المفعول، ألا ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الذياد/ ٢/ ٧٥ب وهم على السقي، ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم ومسقيهم إبل مثلاً، وكذلك قولهما (لا نسقي حتى يصدر الرعاء) المقصود فيه السقي لا المسقي. فإن قلت: كيف طابق جوابهما سؤاله قلت: سألهما عن سبب الذود فقالتا: السبب في ذلك أنا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مساجلة الرجال[3] ومزاحمتهم، فلا بد لنا من تأخير السقي إلى أن يفرغوا، وما لنا رجل يقوم بذلك، وأبونا شيخ قد أضعفه الكبر فلا يصلح للقيام به: أبلتا إليه عذرهما[4] في توليهما السقي بأنفسهما. فإن قلت: كيف ساغ

---

(١) قوله: «لا نسقي ويصدر والرعاء بضم النون والياء والراء... إلخ» يفيد أن القراءة المشهورة بفتح النون والياء وكسر الراء. والرخال: واحده رخل، وهي الأنثى من ولد الضأن والثناء: عقال البعير ونحوه من حبل مثنى، كذا في الصحاح. (ع)

(٢) قوله «وتذودان ولا نسقي» لعل بعده سقطاً تقديره: فسقى لهما، وعبارة النسفي: لا نسقي، و: فسقي. (ع)

(٣) قوله «لا نقدر على مساجلة الرجال» في الصحاح: «السجل» الدلو إذا كان فيه ماء. والمساجلة: المفاخرة بأن نصنع مثل صنعه في جري أو سقي، وأصله من الدلو اهـ. (ع)

(٤) قوله «أبلتا إليه عذرهما» لعله تحريف، وأصله: أبدتا، كعبارة النسفي. (ع)

لنبيّ الله الذي هو شعيب عليه السلام أن يرضى لابنتيه بسقي الماشية؟ قلت: الأمر في نفسه ليس بمحظور، فالدين لا يأباه. وأما المروءة. فالناس مختلفون في ذلك، والعادات متباينة فيه، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر، خصوصاً إذا كانت الحالة حالة ضرورة ﴿إِنِّى﴾ لأي شيء ﴿أَنزَلْتَ إِلَىَّ﴾ قليل أو كثير، غث أو سمين لـ﴿فَقِيرٌ﴾[1] وإنما عدى فقير باللام؛ لأنه ضمن معنى سائل وطالب. قيل: ذكر ذلك وإن خضرة البقل يتراءى في بطنه من الهزال، ما سأل الله إلا أكلة. ويحتمل أن يريد: إني فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إليّ من خير الدين وهو النجاة من الظالمين: لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة: قال ذلك رضاً بالبدل السني، وفرحاً به، وشكراً له، وكان الظل ظل سمرة ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ في موضع الحال، أي: مستحيية متخفرة[2]. وقيل: قد استترت بكم درعها. روي أنهما لما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس وأغنامهما حفل بطان[3] قال هما: ما أعجلكما؟ قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا، فقال لإحداهما: اذهبي فادعيه لي، فتبعها موسى فألزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته، فقال لها: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، فلما قص عليه قصته قال له: لا تخف فلا سلطان لفرعون بأرضنا. فإن قلت: كيف ساغ لموسى أن يعمل بقول امرأة، وأن يمشي معها وهي أجنبية؟ قلت: أما العمل بقول امرأة فكما يعمل بقول الواحد حرّاً كان أو عبداً ذكراً كان أو أنثى في الأخبار، وما كانت إلا مخبرة عن أبيها بأنه يدعوه ليجزيه. وأما مماشاته امرأة أجنبية فلا بأس بها في نظائر تلك الحال، مع ذلك الاحتياط والتورّع. فإن قلت: كيف صح له أخذ الأجر على البرّ والمعروف؟ قلت: يجوز أن يكون قد فعل ذلك لوجه الله وعلى سبيل البر والمعروف. وقيل إطعام شعيب وإحسانه لا على سبيل أخذ الأجر، ولكن على سبيل التقبل لمعروف مبتدأ. كيف وقد قص عليه قصصه وعرفه أنه من بيت النبوّة من أولاد يعقوب؟ ومثله حقيق بأن يضيّف ويكرم خصوصاً في دار نبيّ من أنبياء الله، وليس بمنكر أن يفعل ذلك لاضطرار الفقر والفاقة طلباً للأجر. وقد روي ما يعضد كلا القولين: روي أنها لما قالت: ليجزيك، كره ذلك، ولما قدّم إليه الطعام امتنع وقال: إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بطلاع الأرض[4] ذهباً، ولا نأخذ على المعروف ثمناً. حتى قال شعيب: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا. وعن عطاء بن السائب: رفع صوته

---

(١) قوله «غث أو سمين لفقير» أي مهزول كما في الصحاح. والمراد: رديء أو جيد. (ع)

(٢) قوله «أي مستحيية متخفرة» الخفر: شدة الحياء. ومنه جارية خفرة ومتخفرة، كذا في الصحاح. (ع)

(٣) قوله «وأغنامها حفل بطان» في الصحاح: ضرع حافل، أي ممتلىء لبناً. وفيه: بطن بالكسر يبطن بطنا: عظم بطنه من الشبع. (ع)

(٤) قوله «لا نبيع ديننا بطلاع الأرض ذهباً» في الصحاح «طلاع الشيء»: ملؤه. (ع)

بدعائه ليسمعهما، فلذلك قيل له: ليجزيك أجر ما سقيت، أي: جزاء سقيك. والقصص: مصدر كالعلل، سمي به المقصوص. كبراهما: كانت تسمى صفراء، والصغرى: صفيراء. وصفراء: هي التي ذهبت به وطلبت إلى أبيها أن يستأجره، وهي التي تزوجها. وعن ابن عباس: أن شعيباً أحفظته الغيرة[1] فقال: وما علمك بقوّته وأمانته؟ فذكرت إقلال الحجر ونزع الدلو، وأنه صوّب رأسه حين بلغته رسالته وأمرها بالمشي خلفه. وقولها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ كلام حكيم جامع لا يزاد عليه، لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان؛ أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك؛ وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذي سياقه سياق المثل، والحكمة أن تقول استأجره لقوّته وأمانته[2].

فإن قلت: كيف جعل خير من استأجرت اسماً لإنّ، والقوي الأمين خبراً؟ قلت: هو مثل قوله [من الطويل]:

أَلاَ إِنْ خَيْرَ النَّاسِ حَيًّا وَهَالِكاً ... أَسِيرُ ثَقِيفٍ عِنْدَهُمْ فِي السَّلاَسِلِ؟[3]

---

(١) قوله «أن شعيباً أحفظته الغيرة» أي أغضبته، كما في الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «هذا كلام حكيم جامع لا يزاد عليه؛ لأنه إذا اجتمعت القوة والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك، وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذي ساقته سياق المثل والحكم عن أن تقول: فإنه قوي أمين» قال أحمد: وهو أيضاً أجمل في مدح النساء للرجال من المدح الخاص وأبقى للحشمة، وخصوصاً إن كانت فهمت أن غرض أبيها عليه السلام أن يزوجها منه، وما أحسن ما أخذ الفاروق رضي الله تعالى عنه هذا المعنى فقال: أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوي، ففي مضمون هذه الشكاية سؤال الله تعالى أن يتحفه بمن جمع الوصفين، فكان قوياً أميناً يستعين به على ما كان بصدده رضي الله عنه. وهذا الإبهام ـ من ابنة شعيب صلوات الله عليه وسلامه ـ قد سلكته زليخا مع يوسف عليه السلام، ولكن شتان ما بين الحياء المجبول والمستعمل، ليس التكحل في العين كالكحل، حيث قالت لسيدها: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم، وهي تعني ما جزاء يوسف بما أرادني من السوء إلا أن تسجنه أو تعذبه عذاباً أليماً، ولكنها أوهمت زوجها الحياء والخفر أن تنطق بالعصمة منسوباً إليها الخنا، إيذاناً بأن هذا الحياء منها الذي يمنعها أن تنطق بهذا الأمر، يمنعها من مراودة يوسف بطريق الأحرى والأولى، والله أعلم.

(٣)
إلا إن خير الناس حيًا وميتًا ... أسير ثقيف عندهم في السلاسل؟
لعمري إن عمرتم السجن خالداً ... وأوطأتموه وطأة المتثاقل
لقد كان نهاضًا بكل ملمة ... ومعطي اللهى خمراً كثير النوافل

لأبي الشغب العبسي، يتحزن على خالد بن عبد الله القسري حين أسره يوسف بن عمرو. وخير الناس: أفعل تفضيل، مضاف إلى المعرف بأل، وهو اسم إن. وحيا وميتا، وروي هالكاً: حالان منه. وأسير: خبر إن مضاف إلى ثقيف علم القبيلة. والعلم أعرف من المحلى بأل، فخبر إن المضاف إليه أعرف من اسمها المضاف للمحلى، ولا مانع منه مع اتحاد الماصدق الذي هو مراد المخبر، وعندهم في السلاسل: حال أو خبر بعد خبر. ولعمري: قسم، إن عمرتم: أي أدخلتم وأسكنتم خالداً السجن. وأوطأتموه، أي: صيرتموه يطأ برجله الأرض كوطأة المتثاقل: الحامل لشيء ثقيل، لجعل القيد في رجليه. فهو كناية عن ذلك لقد كان نهاضاً جواب القسم، وجواب =

في أن العناية هي سبب التقدم، وقد صدقت حتى جعل لها ما هو أحق بأن يكون خبراً اسماً، وورود الفعل بلفظ الماضي للدلالة على أنه أمر قد جرب وعرف. ومنه قولهم: أهون ما أعملت لسان ممخ[1]. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أفرس الناس ثلاثة: بنت شعيب، وصاحب يوسف، في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ وأبو بكر/ ٢/ ٧٦أ في عمر. روي أنه أنكحه صفراء. وقوله: ﴿هَـٰتَيْنِ﴾ فيه دليل على أنه كانت له غيرهما ﴿تَأْجُرَنِى﴾ من أجرته إذا كنت له أجيراً، كقولك: أبوته إذا كنت له أباً، و﴿ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ﴾ ظرفه. أو من أجرته كذا، إذا أثبته إياه، ومنه: تعزية رسول الله ـ ﷺ ـ: أجركم الله ورحمكم (١١٠٦). وثماني حجج: مفعول به، ومعناه: رعية ثماني حجج فإن قلت: كيف صح أن ينكحه إحدى ابنتيه من غير تمييز؟ قلت: لم يكن ذلك عقداً للنكاح، ولكن مواعدة ومواصفة أمر قد عزم[2] عليه، ولو كان عقداً لقال: قد أنكحتك ولم يقل: إني أريد أن أنكحك. فإن قلت: فكيف صح أن يمهرها إجارة نفسه في رعية الغنم، ولا بد من تسليم ما هو مال؟ ألا ترى إلى أبي حنيفة كيف منع أن يتزوج امرأة بأن يخدمها سنة[3] وجوّز أن يتزوجها بأن يخدمها عبده سنة، أو يسكنها داره سنة، لأنه في الأول: مسلم

١١٠٦ ـ أخرجه الحافظ أبو نعيم في تاريخ أصبهان (١/ ١١٨) وله شواهد عند أبي بكر بن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٥٧) كتاب الجنائز باب في الرجل يعزى ما يقال له (١٢٠٧١) عن أبي خالد الوالبي بلفظ: «يرحمه الله ويأكركم».

وابن حبان في المجروين والضعفاء (١/ ١٢٧) من حديث إسماعيل بن يحيى بن عبد التيمي: أنا ابن أبي ذئب عن ابن عمر: «أن رسول الله ـ ﷺ ـ عزى رجلاً مسلماً برجل ذمي، فقال: آجرك الله =

الشرط محذوف، أي: كان سريع القيام بكل نازلة ثقيلة، وكان معطي اللهى ـ بالفتح ـ: جمع لهاة، كحصى وحصاة، بمعنى اللحمة التي في أقصى الفم، لكنها هنا بمعنى الفم نفسه. والأوجه أنه بالضم جمع لهوة، كغرف: جمع غرفة بمعنى العطية من أي نوع كانت، غمراً: أي عطاء كثيراً غامرا، وكان كثير الزيادات في العطاء، وأجرى «معطي» مجرى المرفوع للوزن.

(١) قوله «أهون ما أعملت لسان ممخ» في الصحاح: تمخيت من الشيء وأمخيت منه: إذا تبرأت منه اهـ. فلعل ممخ: اسم فاعل من أمخيت. (ع)

(٢) قوله «ولكن مواعدة ومواصفة أمر قد عزم عليه» لعله: ومواضعة. (ع)

(٣) قال محمود: «نقل من مذهب أبي حنيفة منع النكاح على مثل خدمته بعينه، وجوازه على مثل خدمة عبده سنة، وفرق بأنه في الأولى سلم نفسه وليس بمال، وفي الثانية سلم عبده وهو مال. ونقل عن الشافعي جواز النكاح على المنافع المعلومة مطلقاً» قال أحمد: ومذهب مالك على ثلاثة أقوال: المنع، والكراهة، والجواز. والعجب من إجازة أبي حنيفة النكاح على منافع العبد، بخلاف منافع الزوج، مع أن الآية أجازت النكاح على منافع الزوج ولم تتعرض لغيره، وما ذاك إلا لترجيح المعنى الذي أشار إليه الزمخشري. أو تفريعاً على أن لا دليل في شرع من قبلنا، أو غير ذلك، والله أعلم.

نفسه وليس بمال، وفي الثاني: هو مسلم مالاً وهو العبد أو الدار، قلت: الأمر على مذهب أبي حنيفة على ما ذكرت. وأما الشافعي: فقد جوّز التزوّج على الإجارة لبعض الأعمال والخدمة، إذا كان المستأجر له أو المخدوم فيه أمراً معلوماً، ولعلّ ذلك كان جائزاً في تلك الشريعة. ويجوز أن يكون المهر شيئاً آخر، وإنما أراد أن يكون راعي غنمه هذه المدّة، وأراد أن ينكحه ابنته، فذكر له المرادين، وعلق الإنكاح بالرعية على معنى: إني أفعل هذا إذا فعلت ذاك على وجه المعاهدة لا على وجه المعاقدة. ويجوز أن يستأجره لرعية ثمانية سنين بمبلغ معلوم ويوفيه إياه، ثم ينكحه ابنته به، ويجعل قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾ عبارة عما جرى بينهما ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ﴾ عمل عشر حجج ﴿فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ فإتمامه من عندك، ومعناه: فهو من عندك لا من عندي، يعني: لا ألزمكه ولا أحتمِه عليك، ولكنك إن فعلته فهو منك تفضل وتبرع، وإلا فلا عليك ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾ بإلزام أتمّ الأجلين وإيجابه. فإن قلت: ما حقيقة قولهم: شققت عليه، وشق عليه الأمر؟ قلت: حقيقته أن الأمر إذا تعاظمك فكأنه شق عليك ظنك باثنين، تقول تارة: أطيقه، وتارة: لا أطيقه. أو وعده المساهلة والمسامحة من نفسه، وأنه لا يشق عليه فيما استأجره له من رعي غنمه، ولا يفعل نحو ما يفعل المعاسرون من المسترعين، من المناقشة في مراعاة الأوقات، والمداقة في استيفاء الأعمال، وتكليف الرعاة أشغالاً خارجة عن حدّ الشرط، وهكذا كان الأنبياء عليهم السلام آخذين بالأسمح في معاملات الناس. ومنه الحديث «كان رسول الله ـ ﷺ ـ شريكي، فكان خير شريك لا يداري ولا يشاري ولا يماري» (١١٠٧)،

= وأعظم أجرك» وأعله بإسماعيل بن يحيى وقال: كان ممن يروي الموضوعات عن الثقات، لا يحل الرواية عنه ولا الاحتجاج به بحال.

وأخرج أبو داود في سننه (٢/ ١٠٤): كتاب الزكاة باب زكاة السائمة (٢/ ٩٦) حديث (١٥٨٣)، في حديث طويل جاء فيه: «هذا الذي عليك فإن تطوعت بخير أجرك الله فيه وقبلناه منك ومثله عند أحمد في مسنده (٥/ ١٤٢).

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان من طريق أحمد بن الحسن بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي عن آبائه إبراهيم بن الحسن عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها. قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا عزى قال: «آجركم الله ورحمكم»، وإذا هنأ قال: «بارك الله لكم وبارك عليكم»، وله شاهد مرسل أخرجه ابن أبي شيبة من رواية ابن خالد الوالبي: أن النبي ـ ﷺ ـ عزى رجلاً فقال له: «يرحمه الله ويأجركم، وفي الضعفاء لابن حبان عن ابن عمر: أن النبي ـ ﷺ ـ عزى مسلماً بذمي مات له، فقال: «آجرك الله وأعظم أجرك» وفي إسناده إسماعيل بن يحيى التيمي. وهو ساقط. انتهى.

١١٠٧ ـ أخرجه أبو داود (٤/ ٢٦٠) كتاب الأدب: باب كراهية المراء، حديث (٤٨٣٦)، أخرجه ابن ماجه (٢/ ٧٦٨): كتاب التجارات: باب الشركة والمضاربة، حديث (٢٢٨٧). وأحمد في المسند =

وقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يدل على ذلك، يريد بالصلاح: حسن المعاملة ووطأة الخلق ولين الجانب[1]. ويجوز أن يريد الصلاح على العموم. ويدخل تحته حسن المعاملة، والمراد باشتراط مشيئة الله فيما وعد من الصلاح: الاتكال على توفيقه فيه ومعونته، لا أنه يستعمل الصلاح إن شاء الله، وإن شاء استعمل خلافه ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، و﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ خبره، وهو إشارة إلى ما عاهده عليه شعيب، يريد. ذلك الذي قلته وعاهدتني فيه وشارطتني عليه قائم بيننا جميعاً، لا نخرج كلانا عنه، لا أنا عما شرطت عليّ ولا أنت عما شرطت على نفسك. ثم قال: أي أجل من الأجلين قضيت: أطولهما الذي هو العشر، أو أقصرهما الذي هو الثمان ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ أي لا يعتدى عليّ في طلب الزيادة عليه. فإن قلت: تصوّر العدوان إنما هو أحد الأجلين الذي هو الأقصر وهو المطالبة بتتمة العشر، فما معنى تعليق العدوان بهما جميعاً؟ قلت: معناه كما أني إن طولبت بالزيادة على العشر كان عدواناً لا شك فيه، فكذلك إن طولبت بالزيادة على الثمان، أراد بذلك تقرير أمر الخيار، وأنه ثابت مستقرّ، وأن الأجلين على السواء: إما هذا وإما هذا من غير تفاوت بينهما في القضاء، وأما التتمة فموكولة إلى رأيي: إن شئت أتيت بها، وإلا لم أجبر عليها. وقيل: معناه فلا أكون متعدّياً، وهو في نفي العدوان عن نفسه، كقولك: لا إثم عليّ، ولا تبعة عليّ، وفي قراءة ابن مسعود: أي الأجلين ما قضيت، وقرئ: أَيْمَا، بسكون الياء، كقوله [من الطويل]:

تَنَظَّرْتُ نَصْراً وَالسِّمَاكَيْنِ أَيْهُمَا ... عَلَيَّ مِنَ الغَيْثِ ٱسْتَهَلَّتْ مَوَاطِرُهْ[2]

= (٣/ ٤٢٥). والطبراني في معجمه الكبير (٧/ ١٦٥)، حديث برقم (٦٦١٩).
وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٤١٢). وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف من حديث السائب بن يزيد (قلت): بل هو السائب بن أبي السائب المخزومي.
وقال الهيثمي: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير منصور بن أبي الأسود وهو ثقة.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه أبو داود، وابن ماجه من حديث السائب، أنه قال: قال النبي - ﷺ -: كنت شريك، فكنت خير شريك، لا تداري ولا تماري. انتهى.

---

(١) قوله «ووطأة الخلق ولين الجانب» في الصحاح: «شيء وطيء»: بين الوطاءة. (ع)
(٢) للفرزدق. ونصر: هو ابن سيار ملك العراقين، والسماكان: كوكبان: السماك الأعزل لا نجم أمامه، والسماك الرامح أمامه نجوم، وأيهما أصله مشدد فسكن للضرورة، ثم يحتمل أنه نصب بدل مما قبله، وأنه معمول لمحذوف: أي لا أعلم أيهما وهو موصول. ويجوز أنه استفهام، وعليه فهو رفع على الابتداء، والضمير فيه راجع لنصر والسماكين، أي: ترقبت نصراً والسماكين أيهما استهلت مواطره على من الغيث، وأهل السحاب واستهل: اشتد انصبابه. والمواطر: السحائب. والغيث: المطر. وفي قرن نصر بالسماكين: دلالة على تشبيهه بهما في الخير وعلى الاستفهام، فهو من باب تجاهل العارف، وكذلك على نفي العلم. =

وعن ابن قطيب: عدوان، بالكسر. فإن قلت: ما الفرق بين موقعي (ما) المزيدة في القراءتين؟ قلت: وقعت في المستفيضة مؤكدة لإبهام، أيّ: زائدة في شياعها. وفي الشاذة تأكيداً للقضاء، كأنه قال: أي الأجلين صممت على قضائه وجدت عزيمتي له. الوكيل: الذي وكل إليه/ ٢/ ٧٦ب الأمر، ولما استعمل في موضع الشاهد والمهيمن والمقيت[1]، عدى بعلى لذلك. روي أنّ شعيباً كانت عنده عصى الأنبياء فقال لموسى بالليل: ادخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصي. فأخذ عصا هبط بها آدم من الجنة، ولم يزل الأنبياء يتوارثونها حتى وقعت إلى شعيب، فمسها ـ وكان مكفوفاً، فضنّ بها فقال: غيرها، فما وقع في يده إلا هي سبع مرات، فعلم أنّ له شأناً. وقيل: أخذها جبريل بعد موت آدم فكانت معه حتى لقي بها موسى ليلاً. وقيل: أودعها شعيباً ملك في صورة رجل، فأمر بنته أن تأتيه بعصا، فأتته بها فردها سبع مرّات فلم يقع في يدها غيرها، فدفعها إليه ثم ندم لأنها وديعة، فتبعه فاختصما فيها، ورضيا أن يحكم بينهما أوّل طالع، فأتاهما الملك فقال: ألقياها فمن رفعها فهي له، فعالجها الشيخ فلم يطقها؛ ورفعها موسى، وعن الحسن: ما كانت إلا عصا من الشجر اعترضها اعتراضاً. وعن الكلبي: الشجرة التي منها نودي شجرة العوسج، ومنها كانت عصاه. ولما أصبح قال له شعيب: إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك، فإنّ للكلأ وإن كان بها أكثر، إلا أنّ فيها تنيناً[2] أخشاه عليك وعلى الغنم، فأخذت الغنم ذات اليمن ولم يقدر على كفها، فمشى على أثرها فإذا عشب وريف لم ير مثله، فنام فإذا بالتنين قد أقبل، فحاربته العصا حتى قتلته وعادت إلى جنب موسى دامية، فلما أبصرها دامية والتنين مقتولاً ارتاح لذلك، ولما رجع إلى شعيب مسّ الغنم، فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن، فأخبره موسى ففرح وعلم أنّ لموسى والعصا شأناً، وقال له: إني وهبت لك من نتاج غنمي هذا العام كلّ أدرع ودرعاء[3]، فأوحى إليه في المنام: أن اضرب بعصاك مستقى الغنم، ففعل؛ ثم سقى فما أخطأت واحدة إلا وضعت أدرع ودرعاء، فوفى له بشرطه.

= ينظر: ديوانه ١/ ٢٨١، وشرح عمدة الحافظ ص ٣٩٣، ولسان العرب (حير)، (أيا)، والمحتسب ١/ ٤١، ١٠٨، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر ١/ ٩٣، ٥/ ٦٥، والجنى الداني ص ٢٣٤، وشرح شواهد المغني ١/ ٢٣٦، ومغني اللبيب ١/ ٧٧.

(١) قوله «والمهيمن والمقيت» أي: المقتدر، أو الحافظ. (ع)

(٢) قوله «إلا أن فيها تنينا» أي: ثعبانا. (ع)

(٣) قوله «كل أدرع ودرعاء» لعله «كل أردع وردعاء» وفي الصحاح: به ردع من زعفران أو دم، أي: لطخ وأثر. وردعته بالشيء فارتدع، أي: لطخته به فتلطخ اهـ. فالأردع: شبيه المتلطخ بلون آخر. ولفظ الخازن: أبلق وبلقاء. (ع)

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

سئل رسول الله ﷺ: أي الأجلين قضى موسى؟ فقال: أبعدهما وأبطأهما (١١٠٨)، وروي أنه قال: قضى أوفاهما، وتزوّج صغراهما. وهذا خلاف الرواية التي سبقت. الجذوة ـ باللغات الثلاث. وقرئ بهنّ جميعاً ـ: العود الغليظ، كانت في رأسه نار أو لم تكن؛ قال كثير [من البسيط]:

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَىٰ يَلْتَمِسْنَ لَهَا　　جَزْلَ الْجُذَىٰ غَيْرَ خَوَّارٍ وَلا دَعِرِ[1]

١١٠٨ ـ أخرجه الحاكم (٢/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨) من طريق سفيان بن عيينة ثنى إبراهيم بن يحيى ثنا الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس به مرفوعاً وصححه الحاكم، وقال الذهبي: إبراهيم لا يعرف وقال في «الميزان» (١/ ٧٣ ـ ٧٤): أتى بخبر منكر ـ وهو هذا الحديث ـ وهو رجل نكرة.
قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ٢٩ ـ ٣٠): قال ابن القطان في كتابه الوهم والإيهام: هذا حديث يرويه سفيان بن عيينة ثنا إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب ـ وكان رجلاً صالحاً ـ عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال: سئل... الحديث قال: وإبراهيم بن يحيى لا يعرف بغير هذا ولا يعرف أحد روى عنه إلا ابن عيينة وليس كل صالح ثقة في الحديث بل قيل: لا نرى الكذب من الصالحين في الحديث وذلك لسلامة صدورهم وتحسينهم الظن بمن يحدثهم وتشاغلهم بما هم فيه عن ضبط الحديث وحفظه ومن لم تثبت عدالته لا يصح حديثه. اهـ. =

---

(١) لابن مقبل. والحواطب: الجواري يطلبن الحطب، والالتماس ـ بحسب الأصل ـ: من اللمس، ثم اتسع فيه. والجذل: الحطب الغليظ اليابس: والجذي: جمع جذوة بتثليث الجيم فيهما وهي العود الغليظ في رأسه نار أو لا. والخوار: الضعيف. والخور معيب. إلا في قولهم: ناقة خوارة، أي كثيرة اللبن، ونخلة خوارة: كثيرة الحمل. وذعر العود دعرا كتعب كثر دخانه، فهو دعر كحذر. والدعر أيضاً: السوس والفساد. والدعار: الفسق والخبث، وغير خوار: حال من جزل الجذي. (ع)
ينظر: ديوانه (ص ٩١)، لسان العرب (دعر)، (حذا)، مقاييس اللغة (٢/ ٢٨٣)، المخصص (١١/ ٢٣، ١٥/ ١٥٦)، تاج العروس (دعر) (جزل)، (جذو)، أساس البلاغة (حذو) الكامل (ص ٦٨٣)، شرح ديوان الحماسة للتبريزي (١/ ١٠٠).

وقال [من الطويل]:

وَأَلْقَىٰ عَلَىٰ قَبْسٍ مِنَ النَّارِ جَذْوَةً شَدِيداً عَلَيْهِ حَرُّهَا وَالْتِهَابُهَا[1]

﴿مِن﴾ الأولى والثانية لابتداء الغاية، أي: أتاه النداء من شاطىء الوادي من قبل الشجرة. و﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدل من قوله: من شاطىء الوادي، بدل الاشتمال؛ لأنّ الشجرة كانت نابتة على الشاطىء، كقوله تعالى: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ﴾ [الزخرف: ٣٣] وقرئ: ﴿ٱلْبُقْعَةِ﴾ بالضم والفتح. و(الرهب) بفتحتين، وضمتين، وفتح وسكون، وضم وسكون: وهو الخوف. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾؟ قلت: فيه معنيان، أحدهما: أنّ موسى عليه السلام لما قلب الله العصا حية: فزع واضطرب، فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء، فقيل له: إنّ اتقاءك بيدك فيه غضاضة[2] عند الأعداء.

= قلت: قد توبع إبراهيم بن يحيى على هذا الحديث تابعه حفص بن عمر العدني.
أخرجه الحاكم (٤٠٧/٢) والبيهقي في «السنن الكبرى» (١١٧/٦) كلاهما من طريق حفص بن عمر العدني ثنا الحكم بن أبان به.
وقال الذهبي حفص بن عمر واه. وللحديث شاهد من حديث أبي ذر.
أخرجه البزار (٢٢٤٤ ـ كشف) والطبراني كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٣٠) من طريق عويد بن عمران الجوني عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر مرفوعاً.
قال الحافظ ابن حجر وعويد ضعيف. وله شاهد آخر من حديث عتبة بن الندر السلمي أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٥) وقال أبو نعيم: وعتبة بن الندر السلمي ذكره أبو سعيد بن الأعرابي في أهل الصفة.
وللحديث شاهد آخر من حديث أبي هريرة أخرجه ابن مردويه كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٣٠) من طريق سليمان بن داود الشاذكوني ثنا عبد العزيز بن محمد الدراوردي عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الحاكم من طريق ابن عيينة عن إبراهيم بن يحيى عن عكرمة عن ابن عباس بهذا قلت: وإبراهيم مجهول. وقوله: وروي أنه قال قضى أوفاهما وتزوج من صغراهما: أخرجه الطبراني والبزار من طريق عويد بن أبي عمران الجوني عنه عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبي: «أن النبي ـ ﷺ ـ سئل: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أوفاهما وأبرهما. قال وسئل أي المرأتين تزوج؟ قال الصغرى منهما»، وعويد ضعيف، وفي ابن مردويه من حديث أبي هريرة رفعه، قال لي جبريل: إن سألك اليهودي: أي الأجلين قضى موسى؟ فقل: أوفاهما، وإن سألك أيهما تزوج؟ فقل: الصغرى منهما»، وفي إسناده سليمان الشاذكوني وهو ضعيف.

---

(١) الجذوة في الأصل: العود الغليظ في رأسه نار أو لا، ولكن خصها الوصف بما في رأسه نار، ثم إنها استعارة تصريحية للرمح أو للسيف، والحر والالتهاب: ترشيح لها. وشديد: خبر المبتدأ الذي بعده. ينظر: البحر المحيط /٧/ ١٠٣، الدر المصون /٥/ ٣٤٠.

(٢) قوله «فيه غضاضة» أي: ذلة ومنقصة، كما في الصحاح. (ع)

فإذا ألقيتها فكما تنقلب[1] حية، فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها، ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران: اجتناب ما هو غضاضة عليك، وإظهار معجزة أخرى. والمراد بالجناح: اليد؛ لأنّ يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر. وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضد يده اليسرى، فقد ضمّ جناحه إليه. والثاني: أن يراد بضم جناحه إليه: تجلده وضبطه نفسه. وتشدّده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب/ ٢/ ١٧٧أ ولا يرهب، استعارة من فعل الطائر؛ لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما. وإلا فجناحاه مضمومان إليه مشمران. ومنه ما يحكى عن عمر بن عبد العزيز أنّ كاتباً له كان يكتب بين يديه، فانفلتت منه فلتة ريح، فخجل وانكسر، فقام وضرب بقلمه الأرض، فقال له عمر: خذ قلمك، واضمم إليك جناحك، وليفرخ روعك[2]، فإني ما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفسي. ومعنى قوله: (من الرهب) من أجل الرهب، أي: إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك: جعل الرهب الذي كان يصيبه سبباً وعلة فيما أمر به من ضم جناحه إليه. ومعنى: (واضمم إليك جناحك). وقوله: (اسلك يدك في جيبك) على أحد التفسيرين: واحد. ولكن خولف بين العبارتين، وإنما كرّر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين، وذلك أن الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء وفي الثاني: إخفاء الرهب. فإن قلت: قد جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضموماً وفي الآخر مضموماً إليه، وذلك قوله: (واضمم إليك جناحك) وقوله: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢] فما التوفيق بينهما؟ قلت: المراد بالجناح المضموم. هو اليد اليمنى، وبالمضموم إليه: اليد اليسرى وكلّ واحدة من يمنى اليد ويسراهما: جناح. ومن بدع التفاسير: أنّ الرهب: الكم، بلغة حمير وأنهم يقولون: أعطني مما في رهبك، وليت شعري كيف صحته في اللغة؟ وهل سمع من الإثبات الثقات الذين ترتضى عربيتهم؟ ثم ليت شعري كيف موقعه في الآية؟ وكيف تطبيقه المفصل[3] كسائر كلمات التنزيل؟ على أن موسى عليه السلام ما كان عليه ليلة المناجاة إلا زرمانقة[4] من صوف لا كمي لها ﴿فَذَٰنِكَ﴾ قرئ مخففاً ومشدّداً، فالمخفف مثنى ذلك. والمشدّد مثنى ذلك، ﴿بُرۡهَٰنَانِ﴾ حجتان بينتان نيرتان. فإن قلت: لم سميت الحجة برهاناً؟ قلت: لبياضها وإنارتها من قولهم للمرأة البيضاء. برهرهة، بتكرير العين واللام معاً. والدليل على زيادة النون قولهم: أبره الرجل، إذا جاء

---

(١) قوله «فكما تنقلب حية» أي: فعندما تنقلب. (ع)
(٢) قوله «وليفرخ روعك» أي ليذهب فزعك. أفاده الصحاح. (ع)
(٣) قوله «وكيف تطبيقه المفصل» لعله تطبيقه على المفصل. (ع)
(٤) قوله «زرمانقة من صوف» في الحديث: أن موسى عليه السلام لما أتى فرعون أتاه وعليه زرمانقة، يعني: جبة صوف. قال أبو عبيد: أراها عبرانية، كذا في الصحاح. (ع)

بالبرهان. ونظيره تسميتهم إياها سلطاناً من السليط وهو الزيت، لإنارتها.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾

يقال: ردأته: أعنته. والردء: اسم ما يعان به، فعل بمعنى مفعول؛ كما أن الدفء اسم لما يدفأ به؛ قال سلامة بن جندل [من الوافر]:

وَرِدْئِي كُلُّ أَبْيَضَ مَشْرَفِيٍّ ... شَحِيذِ الْحَدِّ عَضْبٍ ذِي فُلُولِ[1]

وقرئ: رداً على التخفيف، كما قرئ: الخب ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ بالرفع والجزم صفة وجواب، نحو ﴿وَلِيًّا يَرِثُنِي﴾ [مريم: ٥ ـ ٦] سواء. فإن قلت: تصديق أخيه ما الفائدة فيه؟ قلت: ليس الغرض بتصديقه أن يقول له: صدقت، أو يقول للناس: صدق موسى، وإنما هو أن يلخص بلسانه الحق، ويبسط القول فيه، ويجادل به الكفار، كما يفعل الرجل المنطيق ذو العارضة، فذلك جار مجرى التصديق المفيد، كما يصدّق القول بالبرهان. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾، وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك، لا لقوله: صدقت، فإنّ سحبان وباقلا[2] يستويان فيه، أو يصل جناح كلامه بالبيان، حتى يصدّقه الذي يخاف تكذيبه، فأسند التصديق إلى هارون، لأنه السبب فيه إسناداً مجازياً. ومعنى الإسناد المجازي: أن التصديق حقيقة في المصدّق، فإسناده إليه حقيقة وليس في السبب تصديق، ولكن استعير له الإسناد لأنه لابس التصديق بالتسبب كما لابسه الفاعل بالمباشرة. والدليل على هذا الوجه قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ وقراءة من قرأ: ردءاً يصدقوني. وفيها تقوية للقراءة بجزم يصدقني.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

العضد: قوام اليد، وبشدّتها تشتد؛ قال طرفة [من الكامل]:

---

(١) لسلامة بن جندل. يقول: وردئي الذي أتوقى به المكاره كل سيف أبيض، وعبر بكل، لأن المراد بيان الجنس لا الشخص، مشرفي: نسبة إلى مشارف اليمن قرى منها. وقيل: من الشام، شحيذ الحد: مرهفه، من شحذ المدية: حددها. عضب: قاطع، والفلول: جمع فل ـ بالفتح: وهو كسر في حد السيف وانثلام، أي به فلول من قراع الكتائب.
ينظر: الدر المصون (٥/٣٤٣).

(٢) قوله «فإن سحبان وباقلا يستويان فيه» مثل في الفصاحة. وباقل: مثل في الفهاهة والعي. (ع)

أَبَنِي لُبَيْنَى لَسْتُمُ بِيَدٍ ... إلاَّ يَداً لَيْسَتْ لَهَا عَضُدُ[1]

ويقال في دعاء الخير: شدّ الله عضدك. وفي ضده؛ فت الله في عضدك. ومعنى ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ سنقويك به ونعينك، فإمّا أن يكون ذلك لأن اليد تشتد بشدة العضد. والجملة تقوى بشدة اليد على مزاولة الأمور. وإمّا لأنّ الرجل شبه باليد في اشتدادها باشتداد العضد، فجعل كأنه يد مشتدة بعضد شديدة ﴿سُلْطَٰنًا﴾ غلبة وتسلطا. أو حجة واضحة ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ متعلق بنحو ما تعلق به في تسع آيات، أي اذهبا بآياتنا. أو بنجعل لكما سلطاناً، أي: نسلطكما بآياتنا. أو بلا يصلون، أي: تمتنعون منهم بآياتنا. أو هو بيان لـ «غالبون» لا صلة، لامتناع تقدم الصلة على الموصول. ولو تأخر: لم يكن إلا صلة له. ويجوز أن يكون قسماً جوابه: لا يصلون، مقدماً عليه. أو من لغو القسم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ سحر تعمله أنت ثم تفتريه على الله، أو سحر ظاهر افتراؤه/ ٢/ ٧٧ب. أو موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر وليس بمعجزة من عند الله ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا﴾ حال منصوبة عن هذا، أي: كائناً في زمانهم وأيامهم، يريد: ما حدثنا بكونه فيهم، ولا يخلو من أن يكونوا كاذبين في ذلك، وقد سمعوا وعلموا بنحوه. أو يريدوا أنهم لم يسمعوا بمثله في فظاعته. أو ما كان الكهان يخبرون بظهور موسى ومجيئه بما جاء به. وهذا دليل على أنهم حجوا وبهتوا، وما وجدوا ما يدفعون به ما جاءهم من الآيات إلا قولهم هذا سحر وبدعة لم يسمعوا بمثلها.

---

(١) أبني لبينى لستم بيد ... إلا يداً ليست لها عضد
أبني لبينى لا أحقكم ... وجد الإله بكم كما أجد

لطرفة بن العبد. وقيل: لأوس بن حجر. والهمزة للنداء. ولبينى: اسم أمة كناية عن أنهم أرقاء. واليد استعارة تصريحية للأقوياء. أو تشبيه بليغ، أي: لستم مثل يد من الأيدي في القوة، إلا مثل يد لا عضد لها، فهي صعبة. ويروى إلا يداً مخبولة العضد، يقال: خبلت يده أشللتها، ففي القافية الإقواء، وفيه استتباع الذم بما يشبه المدح للمبالغة في الذم، وكرر النداء لزيادة التعبير، وحقه يحقه: خصمه بخصمه، وأثبته، وأوجبه أيضا: أي لا أثبتكم. أو لستم أهلاً لمخاصمتي إياكم. ووجد عليه: غضب. ووجد به: حزن، أي: غضب الله بسببكم كما أغضب أنا. أو كرهكم كما يكره الحزين ما يحزنه. وهذا دعاء عليهم بالإهلاك.

وهو لأوس بن حجر في ديوانه ص ٢١، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٦٨، ولطرفة بن العبد في ديوانه ص ٤٥، وشرح المفصل ٢/ ٩٠، وبلا نسبة في أمالي ابن الحاجب ص ٤٤١، والكتاب ٢/ ٣١٧، والمقتضب ٤/ ٤٢١.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

يقول: ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ﴾ منكم بحال من أهله الله للفلاح الأعظم، حيث جعله نبياً وبعثه بالهدى، ووعده حسن العقبى: يعني نفسه، ولو كان كما تزعمون كاذباً ساحراً مفترياً لما أهله لذلك؛ لأنه غني حكيم لا يرسل الكاذبين، ولا ينبيء الساحرين، ولا يفلح عنده الظالمون. و﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ هي العاقبة المحمودة. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ [الرعد: ٢٢ ـ ٢٣]، وقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد ٤٢]، والمراد بالدار: الدنيا، وعاقبتها وعقباها: أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى عند الموت. فإن قلت: العاقبة المحمودة والمذمومة كلتاهما يصح أن تسمى عاقبة الدار؛ لأن الدنيا إمّا أن تكون خاتمتها بخير أو بشر، فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر؟ قلت: قد وضع الله سبحانه الدنيا مجازاً إلى الآخرة، وأراد بعباده أن لا يعملوا فيها إلا الخير، وما خلقهم إلا لأجله ليتلقوا خاتمة الخير وعاقبة الصدق، ومن عمل فيها خلاف ما وضعها الله فقد حرف؛ فإذا عاقبتها الأصلية هي عاقبة الخير. وأما عاقبة السوء فلا اعتداد بها؛ لأنها من نتائج تحريف الفجار[1]. وقرأ ابن كثير: (قال موسى) بغير واو، على ما في مصاحف أهل مكة، وهي

---

(١) قال محمود: «العاقبة هي العاقبة المحمودة، والدليل عليه قوله عز وجل: ﴿أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن﴾ وقوله: ﴿وسيعلم الكفّار لمن عقبى الدار﴾ والمراد دار الدنيا وعاقبتها أن يختم للإنسان فيها بالرحمة والرضوان وتتلقاه الملائكة بالبشرى عند الموت. قال: فإن قلت العاقبة المحمودة والمذمومة كلاهما يصح أن يسمى عاقبة لأن الدنيا إما أن تكون خاتمتها خيراً أو شراً، فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر؟ قلت: لأن الله سبحانه وتعالى وضع الدنيا مجازاً للآخرة وأراد لعباده فيها أن يعبدوه ولا يعملوا إلا الخير وما خلقهم إلا لأجله، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ فمن عمل في الدنيا على خلاف ذلك فقد حرف؛ لأن عاقبتها الأصلية هي عاقبة الخير، وأما عاقبة الشر فلا اعتداد بها لأنها من تحريف الفجار» قال أحمد: وقد تقدم من قواعد أهل الحق ما يستضاء به في هذا المقام، والقدر الذي يحتاج إلى تجديده ههنا: أن استدلاله على أن عاقبة الخير وعبادة الله تعالى هي المرادة له لا سواها بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ معارض بأمثاله في أدلة أهل السنة على عقائدهم، مثل قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ الآية. والمراد والله أعلم: ولقد جعلنا لعذاب جهنم خلقاً كثيراً من الثقلين. ومن ذلك ما يروى عن الفاروق رضي الله عنه أنه قال: وإنكم آل المغيرة ذرء النار، أي: خلقها، فلئن دلت آية الذاريات ظاهراً على أن الله تعالى إنما خلق الثقلين لتكون عاقبتهم الجنة جزاء وثواباً على عبادتهم له، فقد دلت آية الأعراف على أنه خلق كثيراً من الثقلين لتكون عاقبتهم جهنم جزاءاً على كفرهم. وحينئذٍ يتعين الجمع بين الآيتين، وحمل عموم آية =

قراءة حسنة؛ لأن الموضع موضع سؤال وبحث عما أجابهم به موسى عليه السلام عند تسميتهم مثل تلك الآيات الباهرة: سحراً مفترى. ووجه الأخرى: أنهم قالوا ذلك، وقال موسى عليه السلام هذا، ليوازن الناظر بين القول والمقول، ويتبصر فساد أحدهما وصحة الآخر [من الكامل]:

. . . . وَبِضِدِّهَا تَتَمَيَّزُ الأَشْيَاءُ[1]

وقرئ تكون: بالياء والتاء.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾

روي أنه لما أمر ببناء الصرح، جمع هامان العمال حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء، وأمر بطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير، فشيدوه حتى بلغ ما لم يبلغه بنيان أحد من الخلق، فكان الباني لا يقدر أن يقف على رأسه

= الذاريات على خصوص الآية الأخرى، وإن المراد: وما خلقت السعداء من الثقلين إلا لعبادتي، جمعاً بين الأدلة، فقد ثبت أن العاقبتين كلتيهما مرادة لله تعالى: هذا بعد تظافر البراهين العقلية على ذلك، فوجه مجيء العاقبة المطلقة كثيراً وإرادة الخير بها: أن الله تعالى هدى الناس إليها ووعدهم ما ورد في سلوك طريقها من النجاة والنعيم المقيم، ونهاهم عن ضدها وتوعدهم على سلوكها بأنواع العذاب الأليم، وركب فيهم عقولاً ترشدهم إلى عاقبة الخير، ومكنهم منها، وأزاح عللهم ووفر دواعيهم، فكان من حقهم أن لا يعدلوا عن عاقبة الخير ولا يسلكوا غير طريقها، وأن يتخذوها نصب أعينهم، فأطلقت العاقبة والمراد بها الخير تفريعاً على ذلك، والله أعلم. والحاصل: أنها لما كانت هي المأمور بها والمحضوض عليها، عوملت معاملة ما هو مراد وإن لم تكن مرادة من كثير من الخلق، وقال لي بعضهم: ما يمنعك أن تقول لم يفهم كون العاقبة المطلقة هي عاقبة الخير من إطلاقها، ولكن من إضافتها إلى ذويها باللام في الآية المذكورة، كقوله: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾، ﴿وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فأفهمت اللام أنها عاقبة الخير؛ إذ هي لهم وعاقبة السوء عليهم لا لهم، كما يقولون: الدائرة لفلان، يعنون: دائرة الظفر والنصر. والدائرة على فلان. يعنون: دائرة الخذلان والسوء، فقلت: لقد كان لي في ذلك مقال لولا ورود ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ ولم يقل عليهم، فاستعمال اللام مكان «على» دليل على إيفاء الاستدلال باللام على إرادة عاقبة الخير، والله أعلم.

(1) من يظلم القرناء في تكليفهم ... أن يصبحوا وهم له أكفاء
ويذمهم وبهم عرفنا فضله ... وبضدها تتميز الأشياء
لأبي الطيب المتنبي، يمدح هارون بن عبد العزيز، أي: أنه تظلم أقرانه في تكليفهم أن يكونوا مساوين له وفي ذلك مشقة عليهم: كناية عن أنه لا يساويه أحد. وقوله: وبضدها إلى آخره: دليل على ما قبله. ويروى: تتبين الأشياء، والمعنى واحد، أي: الأشياء تعرف بمعرفة معنى أضدادها.

يبني، فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام عند غروب الشمس، فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع: وقعت قطعة على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل، ووقعت قطعة في البحر وقطعة في المغرب، ولم يبق أحد من عماله إلا قد هلك. ويروى في هذه القصة: أنّ فرعون ارتقى فوقه فرمى بنشابة نحو السماء، فأراد الله أن يفتنهم فردّت إليه وهي ملطوخة بالدم؛ فقال: قد قتلت إله موسى، فعندما بعث الله جبريل عليه السلام لهدمه، والله أعلم بصحته. قصد بنفي علمه بإله غيره. نفي وجوده، ومعناه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨]، معناه بما ليس فيهن، وذلك لأنّ العلم تابع للمعلوم لا يتعلق به إلا على ما هو عليه، فإذا كان الشيء معدوماً لم يتعلق به موجود، فمن ثمة كان انتفاء العلم بوجوده لا انتفاء وجوده. وعبر عن انتفاء وجوده بانتفاء العلم بوجوده[(١)]. ويجوز أن يكون على

---

(١) قال محمود: «عبر عن نفي المعلوم بنفي العلم، وإنما كان كذلك لأن العلم لا يتعلق بالمعلوم إلا على ما هو عليه إن موجوداً فموجود وإن معدوماً فمعدوم، فمن ثم عبر عن نفي كونه موجوداً بنفي كونه معلوماً» قال أحمد: لشدة ما بلغ منه الوهم، لم يتأمل كيف سقوط السهم؛ وإنما أتى من حيث أن الله تعالى عبر كثيراً عن نفي المعلوم بنفي العلم في مثل قوله: قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض، أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض، فلما اطرد ذلك عنده توهم أن هذا التعبير عن نفي المعلوم بنفي العلم يشمل كل علم، ولو لم يتعلق بالمعلوم على ما هو به، وليس هو كذلك، بل هذا التعبير لا يسوغ إلا في علم الله تعالى لأمر يخص العلم القديم وهو عموم تعلقه حتى لا يعزب عنه أمر، فمن لم يتعلق العلم بوجوده يلزم أن لا يكون موجوداً، إذ لو كان موجوداً لتعلق به بخلاف علم الخلق، فلا تلازم بين نفي الشيء ونفي العلم الحادث بوجوده، ولا كذلك العلم القديم، فإن بين نفي معلومه ونفي تعلقه بوجوده تلازماً سوغ التعبير المذكور، ولكن المعلوم أن فرعون كان يدعي الإلهية ويعامل علمه معاملة علم الله تعالى في أنه لا يعزب عنه شيء، فمن ثم طغى وتكبر. وعبر بنفي علمه عن نفي المعلوم، تدليساً على ملئه، وتلبيساً على عقولهم السخيفة ـ والله أعلم ـ ويناسب تعاظمه هذا قوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ ولم يقل: فاطبخ لي آجراً، وذلك من التعاظم، كما قال تعالى: ـ وله العظمة والكبرياء، ومن ارتدى بردائهما قصمه ـ: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ فذكر هذه العبارة الجامعة لأنواع الكفر على وجه الكبرياء تهاوناً بها، وذلك من تجبر الملوك ـ جل الله وعز ـ ومن تعاظم فرعون أيضا: نداؤه لوزيره باسمه، وبحرف النداء وتوسيط ندائه خلال الأمر، وبناؤه الصرح ورجاؤه الاطلاع: دليل على أنه لم يكن مصمماً على الجحود. قال الزمخشري: وذلك مناقض لما أظهر من الجحد الجازم في قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ فإما أن يخفى هذا التناقض على قومه لغباوتهم وكآبة أذهانهم. وإما أن يتفطنوا لها ويخافوا نقمته فيصبروا. قال أحمد: ولقائل ـ والله أعلم ـ: أن يحمل قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ على الشك، ونفي علمه خاصة، وإجرائه مجرى سائر علوم الخلق في أنه لا يلزم من نفي تعلقه بوجود أمر نفي ذلك الأمر، لجواز أن يكون موجوداً عازباً عن علمه. وحينئذٍ لا يكون تناقضاً، ولو لم يكن حمله هذا هو الأصل لما سوغنا أن يرفع التناقض عن كلامه، لأنه أحقر من ذلك.

ظاهره، وأنّ إلٰها غيره غير معلوم عنده، ولكنه مظنون بدليل قوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَٰذِبِينَ﴾، وإذا ظنّ موسى عليه السلام كاذباً في إثباته إلٰها غيره ولم يعلمه كاذباً، فقد ظنّ أن في الوجود إلٰها غيره، ولو لم يكن المخذول ظاناً ظناً كاليقين، بل عالماً بصحة قول موسى عليه السلام لقول موسى له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] لما تكلف ذلك البنيان العظيم، ولما تعب في بنائه ما تعب، لعله يطلع بزعمه إلى إلٰه موسى عليه السلام، وإن كان جاهلاً مفرط الجهل به وبصفاته، حيث حسب أنه في مكان كما كان هو في مكان، وأنه يطلع إليه كما كان يطلع إليه إذا قعد في عليته، وأنه ملك السماء كما أنه ملك الأرض. ولا ترى بينة أثبت شهادة على إفراط جهله وغباوته وجهل ملئه وغباوتهم: من أنهم راموا نيل أسباب السموات بصرح يبنونه، وليت شعري؛ أكان يلبس على أهل بلاده ويضحك من عقولهم، حيث صادفهم أغبى الناس وأخلاهم من الفطن وأشبههم بالبهائم بذلك؟ أم كان في نفسه بتلك الصفة؟ وإن صحّ ما حكي/ ٢/ ١٧٨أ من رجوع النشابة إليه ملطوخة بالدم، فتهكم به بالفعل، كما جاء التهكم بالقول في غير موضع من كتاب الله بنظرائه من الكفرة. ويجوز أن يفسر الظن على القول الأوّل باليقين؛ كقوله [من الطويل]:

فَقُلْتُ لَهُمْ: ظُنُّوا بِأَلْفَيْ مُدَجَّجِ . . . . (١)

---

(١)
وكل تباريح المحب لقيتها ... سوى أنني لم ألق حتفي بمرصدي
نصحت لعارض وأصحاب عارض ... ورهط بني السوداء والقوم شهدي
فقلت لهم: ظنوا بألفي مدجج ... سراتهم في الفارسي المسرد

لدريد بن الصمة، ينذر قومه بهجوم العدو. ودريد: هو معاوية بن الحرث بن بكر بن علقمة الجشمي: قتل مشركاً يوم حنين، أي: كل الشدائد التي يلقاها المحب من محبوبه لقيتها. والحتف: الهلاك. والمرصد. والمرصاد: الطريق، وفي إضافته لنفسه معنى لطيف، أي: لم أسلك طريقاً فيه حتف لي، بل أسلك غيره فطريقي لا ضرر فيه. ونصحه ونصح له: خلص وصفاً. والشهد ـ بالتشديد: جمع شاهد. ودججه تدجيجاً: غطاه تغطية. والدجة ـ بالتشديد ـ: الظلمة. والدج: المشي بتؤدة. والمدجج: التام السلاح. وقيل: هو بالفتح: الفرس، وبالكسر: الفارس. والسراة: السادة الأشراف بفتح السين، وهي في الأصل: أعلى ظهر الحيوان، فاستعيرت لهم، وقد تضم، فوزنها «فعلة» جمع سرى وزن فعيل على غير قياس؛ إذ قياسه أفعلاء، وهو في الأصل: النهر الصغير: استعير للخير الرئيس، والفارسي: الدروع المعمولة بفارس. والسرد والتسريد: متابعة النسج، يقول: أيقنوا بهجوم جيش عظيم. والألفان: كناية عن الكثرة، أي: جيش كثير مغطى بالسلاح، أشرافه في الدروع الفارسية المتابعة النسج. والظرفية دالة على سبوغ الدروع لهم. ويروي المسود بالواو وليس بذاك.
ينظر: الحماسة للمرزوقي (٢/ ٨١٢) والمحتسب (٢/ ٣٤٢)، وابن يعيش (٧/ ٨١)، والأصمعيات (١٠٧)، واللسان: (ظنن)، والدر المصون ١/ ٢١٢، فتح القدير ١/ ١٤١، مجالس ثعلب ص ١٩٩، أسرار العربية ص ١٥٦.

ويكون بناء الصرح مناقضة لما ادعاه من العلم واليقين، وقد خفيت على قومه لغباوتهم وبلههم. أو لم تخف عليهم، ولكن كلا كان يخاف على نفسه سوطه وسيفه، وإنما قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ ولم يقل: اطبخ لي الآجر واتخذه، لأنه أوّل من عمل الآجر، فهو يعلمه الصنعة، ولأن هذه العبارة أحسن طباقاً لفصاحة القرآن وعلوّ طبقته وأشبه بكلام الجبابرة. وأمر هامان وهو وزيره ورديفه بالإيقاد على الطين منادى باسمه بيا في وسط الكلام: دليل التعظيم[(١)] والتجبر. وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه حين سافر إلى الشام ورأى القصور المشيدة بالآجر فقال: ما علمت أن أحداً بنى بالآجر غير فرعون. والطلوع والإطلاع: الصعود. يقال: طلع الجبل وأطلع: بمعنى.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

الاستكبار بالحق: إنما هو لله تعالى، وهو المتكبر على الحقيقة، أي: المتبالغ في كبرياء الشأن. قال رسول الله ـ ﷺ ـ فيما حكى عن ربه: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار» (١١٠٩). وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق ﴿يُرْجَعُونَ﴾ بالضم والفتح ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ من الكلام الفخم الذي دل به على عظمة شأنه وكبرياء سلطانه. شبههم استحقاراً لهم واستقلالاً لعددهم[(٢)]. وإن كانوا الكثر الكثير والجم الغفير، بحصيات أخذهنّ آخذ في كفه فطرحهنّ في البحر. ونحو ذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ [المرسلات: ٢٧]، ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ١٤]. ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] وما هي إلا تصويرات وتمثيلات لاقتداره، وأن كل مقدور وإن عظم وجل، فهو مستصغر إلى جنب قدرته.

١١٠٩ ـ أخرجه مسلم (٨/ ٤٢١ ـ النووي): كتاب البر والصلة والآداب، حديث (١٣٦/ ٢٦٢٠)، وهذا الحديث من مفردات مسلم؛ فلم يخرجه غيره من الجماعة.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي ـ ﷺ ـ عن ربه. انتهى.

---

(١) قوله «دليل التعظيم» لعله التعظم. (ع)
(٢) عاد كلامه. قال: «وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ مقابلة لاستكباره بفعل عبر عنه بما صورته أخذ حصيات ممتهنات، ثم نبذها، أي: طرحها في اليم بهوان، فذلك تمثيل لاستهانته به وإهلاكه بهذا النوع من الهلاك. والله أعلم.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢)﴾

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾؟ قلت: معناه: ودعوناهم أئمة دعاة إلى النار(١)، وقلنا: إنهم أئمة دعاة إلى النار، كما يدعى خلفاء الحق أئمة دعاة إلى الجنة. وهو من قولك: جعله بخيلاً وفاسقاً، إذا دعاه وقال: إنه بخيل وفاسق(٢). ويقول أهل اللغة في تفسير فسقه وبخله: جعله بخيلاً وفاسقاً. ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف: ١٩] ومعنى دعوتهم إلى النار: دعوتهم إلى موجباتها من الكفر والمعاصي ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ كما ينصر الأئمة الدعاة إلى الجنة. ويجوز: خذلناهم حتى كانوا أئمة الكفر. ومعنى الخذلان: منع الألطاف، وإنما يمنعها من علم أنها لا تنفع فيه، وهو المصمم على الكفر الذي لا تغني عنه الآيات والنذر، ومجراه مجرى الكناية؛ لأنّ منع الألطاف يردف التصميم، والغرض بذكره: التصميم نفسه، فكأنه قيل: صمموا على الكفر حتى كانوا أئمة فيه دعاة إليه وإلى سوء عاقبته. فإن قلت: فأي فائدة في ترك المردوف إلى الرادفة؟ قلت: ذكر الرادفة يدل على وجود المردوف فيعلم وجود المردوف مع الدليل الشاهد بوجوده، فيكون أقوى لإثباته من ذكره. ألا ترى أنك تقول: لولا أنه مصمم على الكفر مقطوع أمره مثبوت حكمه لما منعت منه الألطاف؟ فبذكر منع الألطاف يحصل العلم بوجود التصميم على الكفر وزيادة، وهو قيام الحجة على وجوده. وينصر هذا الوجه قوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ كأنه قيل: وخذلناهم في الدنيا وهم يوم القيامة مخذولون، كما قال: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي طرداً وإبعاداً عن الرحمة ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ أي من المطرودين المبعدين.

---

(١) قوله «ودعوناهم أئمة دعاة إلى النار» هذا التأويل وما يأتي بعده في قوله: ويجوز خذلناهم.. إلى آخره: مبنيان على أنه تعالى يجب عليه الصلاح ولا يجوز عليه خلق الشر، وهذا مذهب المعتزلة، أما مذهب أهل السنة فهو أنه لا يجب عليه تعالى شيء، ويجوز عليه خلق الشر كالخير. وقد حقق في التوحيد فلا داعي إلى تأويل الآية بمثل هذا التكلف. (ع)

(٢) قال محمود: «معناه دعوناهم أئمة دعاة إلى النار، كما تقول: جعلته بخيلاً فاسقا إذا دعوته بذلك» قال أحمد: لا فرق عند أهل السنة بين قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ وبين هذه الآية، فمن حمل الجعل على التسمية فيما نحن فيه فراراً من اعتقاد أن دعاءهم إلى النار مخلوق لله تعالى، فهو بمثابة من حمله على التسمية في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾: فراراً من جعل الليل والنهار مخلوقين لله تعالى، فلا فرق بين نفي مخلوق واحد عن قدرته تعالى ونفي كل مخلوق، نعوذ بالله من ذلك.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿بَصَآئِرَ﴾ نصب على الحال. والبصيرة: نور القلب الذي يستبصر به، كما أن البصر نور العين الذي تبصر به، يريد: آتيناه التوراة أنواراً للقلوب، لأنها كانت عمياء لا تستبصر ولا تعرف حقاً من باطل، وإرشاداً؛ لأنهم كانوا يخبطون في ضلال ﴿وَرَحْمَةً﴾ لأنهم لو عملوا بها وصلوا إلى نيل الرحمة ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ إرادة أن يتذكروا، شبهت الإرادة بالترجي فاستعير لها. ويجوز أن يراد به ترجي موسى عليه السلام[1] لتذكرهم، كقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: ٤٤].

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿ٱلْغَرْبِىِّ﴾ المكان الواقع في شق الغرب، وهو المكان الذي وقع فيه ميقات موسى عليه السلام من الطور وكتب الله له في الألواح. والأمر المقضي إلى موسى عليه السلام: الوحي الذي أوحى إليه؛ والخطاب لرسول الله ـ ﷺ ـ يقول: وما كنت/ ٢/ ٧٨ب حاضرا المكان الذي أوحينا فيه إلى موسى عليه السلام، ولا كنت ﴿مِنَ﴾ جملة ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ للوحي إليه، أو على الوحي إليه؛ وهم نقباؤه الذين اختارهم للميقات، حتى تقف من جهة المشاهدة على ما جرى من أمر موسى عليه السلام في ميقاته. وكتبة التوراة له في الألواح، وغير ذلك.

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾

فإن قلت: كيف يتصل قوله: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ بهذا الكلام؟ ومن أي وجه يكون استدراكاً له؟ قلت: اتصاله به وكونه استدراكاً له، من حيث أن معناه: ولكنا أنشأنا بعد عهد الوحي إلى عهدك قروناً كثيرة ﴿فَتَطَاوَلَ﴾ على آخرهم: وهو القرن الذي أنت فيهم ﴿ٱلْعُمُرُ﴾ أي أمد انقطاع الوحي واندرست العلوم، فوجب إرسالك إليهم، فأرسلناك وكسبناك[2] العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى عليهم السلام، كأنه قال: وما كنت شاهداً

---

(١) قال محمود: «معناه إرادة تذكرهم، لأن الإرادة تشبه الترجي، فاستعير لها. أو يراد به ترجي موسى عليه السلام» قال أحمد: الوجه الثاني هو الصواب، واحذر الأول فإنه قدري.

(٢) قوله «وكسبناك العلم» كسب يتعدى إلى مفعولين، فيقال: كسبت أهلي خيراً، وكسبت الرجل مالا، كما في الصحاح. (ع)

لموسى وما جرى عليه، ولكنا أوحينا إليك، فذكر سبب الوحي الذي هو إطالة الفترة؛ ودلّ به على المسبب على عادة الله عز وجل في اختصاراته، فإذاً هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ أي مقيماً ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ وهم شعيب والمؤمنون به ﴿تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ تقرؤها عليهم تعلماً منهم، يريد: الآيات التي فيها قصة شعيب وقومه، ولكنا أرسلناك وأخبرناك بها وعلمناكها.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ يريد مناداة موسى عليه السلام ليلة المناجاة وتكليمه، و﴿وَلَٰكِن﴾ علمناك ﴿رَّحْمَةً﴾ وقرئ: رحمة، بالرفع: أي هي رحمة ﴿مَّآ أَتَىٰهُم﴾ من نذير في زمان الفترة بينك وبين عيسى وهي خمسمائة وخمسون سنة، ونحوه قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ [يس: ٦].

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَلَوْلَآ﴾ الأولى امتناعية وجوابها محذوف، والثانية تحضيضية، وإحدى الفاءين للعطف، والأخرى جواب لولا، لكونها في حكم الأمر، من قبل أن الأمر باعث على الفعل، والباعث والمحضض من واد واحد. والمعنى: ولولا أنهم قائلون إذا عوقبوا بما قدّموا من الشرك والمعاصي: هلا أرسلت إلينا رسولاً، محتجين علينا بذلك: لما أرسلنا إليهم، يعني: أن إرسال الرسول إليهم إنما هو ليلزموا الحجة ولا يلزموها، كقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾، ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ [طه: ١٣٤]. فإن قلت: كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة هي السبب في الإرسال لا القول، لدخول حرف الامتناع عليها دونه؟ قلت: القول هو المقصود بأن يكون سبباً لإرسال الرسل، ولكن العقوبة لما كانت هي السبب للقول وكان وجوده بوجودها، جعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال بواسطة القول، فأدخلت عليها لولا، وجيء بالقول معطوفاً عليها بالفاء المعطية معنى السببية[1]، ويؤول معناه إلى قولك: ولولا قولهم هذا إذا أصابتهم مصيبة لما أرسلنا، ولكن اختيرت هذه

(١) قال محمود: «لولا الأولى امتناعية، والثانية تحضيضية، والفاء الأولى عاطفة والثانية جواب لولا. =

الطريقة لنكتة: وهي أنهم لو لم يعاقبوا مثلاً على كفرهم وقد عاينوا ما ألجئوا به إلى العلم اليقين: لم يقولوا: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [طه: ١٣٤] وإنما السبب في قولهم هذا هو العقاب لا غير لا التأسف على ما فاتهم من الإيمان بخالقهم. وفي هذا من الشهادة القوية على استحكام كفرهم ورسوخه فيهم ما لا يخفى، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]. ولما كانت أكثر الأعمال تزاول بالأيدي: جعل كل عمل معبراً عنه باجتراح الأيدي وتقديم الأيدي وإن كان من أعمال القلوب، وهذا من الاتساع في الكلام وتصيير الأقل تابعاً للأكثر وتغليب الأكثر على الأقل.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

= والمعنى: لولا أنهم قائلون إذا عوقبوا: لولا أرسلت إلينا رسولاً، محتجين بذلك لما أرسلت إليهم أحداً. فإن قلت: كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة سبباً في الإرسال لا القول، لدخول حرف الامتناع عليها دونه؟ قلت: العقوبة سبب القول، وهي سبب السبب، فجعلت سبباً وعطف السبب الأصلي عليها بالفاء السببية» قال أحمد: وذلك مثل قوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ والسر في جعل سبب السبب سبباً، وعطف السبب الأصلي عليه أمران، أحدهما: أن مزيد العناية يوجب التقديم، وهذا هو السر الذي أبداه سيبويه. الثاني أن في هذا النظم تنبيهاً على سببية كل واحد منهما: أما الأول فلاقترانه بحرف التعليل، وهو «أن» وأما الثاني، فلاقترانه بفاء السبب، ولا يتعاطى هذا المعنى إلا من قولك ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ﴾ لا من قول القائل: أن تذكر إحداهما الأخرى إذا ضلت، وكان بعض النحاة يورد هذه الآية إشكالاً على النحاة وعلى أهل السنة من المتكلمين، فيقول: «لولا» عند أهل الفتن تدل على امتناع جوابها لوجود ما بعدها، وحينئذٍ يكون الواقع بعدها في الآية موجوداً وهو عقوبة هؤلاء المذكورين بتقدير عدم بعثة الرسل، وجوابها المحذوف غير واقع وهو عدم الإرسال، لأنه ممتنع بالأولى. ومتى لم يقع عدم الإرسال كان الإرسال واقعاً ضرورة، فيشكل الواقع بعدها على أهل السنة؛ لأنهم يقولون: لا ظلم قبل بعثة الرسل، فلا تتصور العقوبة بتقدير عدم البعثة، وذلك لأنها واقعة جزاء على مخالفة أحكام الشرع، فإن لم يكن شرع فلا مخالفة ولا عقوبة. ويشكل الجواب على النحاة؛ لأنه يلزم ألا يكون واقعاً وهو عدم بعثة الرسل، لكن الواقع بعدها يقتضي وقوعه، ثم كان مورد هذا الإشكال يجيب عنه بتقدير محذوف. والأصل: ولولا كراهة أن تصيبهم مصيبة وحينئذٍ يزول الإشكال عن الطائفتين. والتحقيق عندي في الجواب خلاف ذلك، وإنما جاء الإشكال من حيث عدم تجويز النحاة لمعنى لولا أن يقولون: أنها تدل على أن ما بعدها موجود وأن جوابها ممتنع به، والتحرير في معناها أنها تدل على أن ما بعدها مانع من جوابها، عكس «لو» فإن معناها لزوم جوابها لما بعدها، ثم المانع قد يكون موجوداً وقد يكون مفروضاً، والآية من قبيل فرض وجود المانع، وكذلك اللزوم في «لو» قد يكون الشيء الواحد لازماً لشيئين، فلا يلزم نفيه من نفي أحد ملزوميه. وعلى هذا التحرير يزول الإشكال الوارد على «لو» في قوله: نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه، فتأمل هذا الفصل فتحته فوائد للمتأمل، والله الموفق.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ وهو الرسول المصدق بالكتاب المعجز مع سائر المعجزات وقطعت معاذيرهم وسدّ طريق احتجاجهم ﴿قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ﴾ من الكتاب المنزل جملة واحدة، ومن قلب العصا حية وفلق البحر وغيرهما من الآيات؛ فجاءوا بالاقتراحات المبنية على التعنت والعناد، كما قالوا: لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك، وما أشبه ذلك ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ﴾ يعني أبناء جنسهم ومن مذهبهم وعنادهم عنادهم، وهم الكفرة في زمن موسى عليه السلام ﴿بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ وعن الحسن رحمه الله: قد كان للعرب أصل في أيام موسى عليه السلام، فمعناه على هذا: أولم يكفر آباؤهم ﴿قَالُواْ﴾ في موسى وهارون ﴿سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ أي تعاونا. وقرئ إظهاراً على الإدغام. وسحران. بمعنى: ذوا سحر. أو جعلوهما سحرين مبالغة في وصفهما بالسحر. أو أرادوا نوعان من السحر ﴿بِكُلٍّ﴾ بكل واحد منهما. فإن قلت: بم علقت قوله من قبل في هذا التفسير؟ قلت: بأولم يكفروا، ولي أن أعلقه بأوتي، فينقلب المعنى إلى أن/ ٧٩/٢أ أهل مكة الذين قالوا هذه المقالة كما كفروا بمحمد ﷺ وبالقرآن فقد كفروا بموسى عليه السلام وبالتوراة. وقالوا في موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام: ساحران تظاهرا. أو في الكتابين: سحران تظاهرا؛ وذلك حين بعثوا الرهط إلى رؤساء اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد ﷺ، فأخبروهم أنه نعته وصفته، وأنه في كتابهم، فرجع الرهط إلى قريش فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا عند ذلك: ساحران تظاهرا.

﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٤٩)﴾

﴿هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ﴾ مما أنزل على موسى عليه السلام ومما أنزل عليّ. هذا الشرط من نحو ما ذكرت أنه شرط المدل بالأمر المتحقق لصحته؛ لأنّ امتناع الإتيان بكتاب أهدى من الكتابين أمر معلوم متحقق لا مجال فيه للشكّ. ويجوز أن يقصد بحرف الشكّ: التهكم بهم.

﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥٠)﴾

فإن قلت: ما الفرق بين فعل الاستجابة في الآية؛ وبينه في قوله [من الطويل]:

. . . . فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ(١)

---

(١) قوله «فلم يستجبه عند ذاك مجيب» صدره:

وداعٍ دعا يا مَنْ يجيب إلى الندى . . . .

اهـ. عليّان. قلت: وقد تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٤٥٦ فراجعه إن شئت اهـ. مصححه.

حيث عدّى بغير اللام؟ قلت: هذا الفعل يتعدّى إلى الدعاء بنفسه وإلى الداعي باللام، ويحذف الدعاء إذا عدّى إلى الداعي في الغالب، فيقال؛ استجاب الله دعاءه أو استجابة له، ولا يكاد يقال: استجاب له دعاءه. وأما البيت فمعناه: فلم يستجب دعاءه، على حذف المضاف. فإن قلت: فالاستجابة تقتضي دعاء ولا دعاء ههنا. قلت: قوله: فأتوا بكتاب أمر بالإتيان والأمر بعث على الفعل ودعاء إليه، فكأنه قال: فإن لم يستجيبوا دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى، فاعلم أنهم قد ألزموا ولم تبق لهم حجة إلا اتباع الهوى، ثم قال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ﴾ لا يتبع في دينه إلا ﴿هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي مطبوعاً على قلبه ممنوع الألطاف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ أي لا يلطف بالقوم الثابتين على الظلم الذين اللاطف بهم عابث. وقوله بغير هدى في موضع الحال، يعني: مخذولاً مخلى بينه وبين هواه.

﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾

قرئ ﴿وَصَّلْنَا﴾ بالتشديد والتخفيف. والمعنى: أن القرآن أتاهم متتابعاً متواصلاً، وعداً ووعيداً وقصصاً وعبراً، ومواعظ ونصائح: إرادة أن يتذكروا فيفلحوا، أو نزل عليهم نزولاً متصلاً بعضه في أثر بعض. كقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾ [الشعراء: ٥].

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

نزلت في مؤمني أهل الكتاب وعن رفاعة بن قرظة: نزلت في عشرة أنا أحدهم. وقيل: في أربعين من مسلمي أهل الإنجيل: اثنان وثلاثون جاءوا مع جعفر من أرض الحبشة، وثمانية من الشام. والضمير في ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ للقرآن.

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾

فإن قلت: أي فرق بين الاستئنافين إنه وإنا؟ قلت: الأوّل تعليل للإيمان به، لأن كونه حقاً من الله حقيق بأن يؤمن به. والثاني: بيان لقوله: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ لأنه يحتمل أن يكون إيماناً قريب العهد وبعيده، فأخبروا أن إيمانهم به متقادم؛ لأنّ آباءهم القدماء قرأوا في الكتب الأول ذكره وأبناءهم من بعدهم ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل وجوده ونزوله ﴿مُسْلِمِينَ﴾ كائنين على دين الإسلام؛ لأن الإسلام صفة كل موحد مصدّق للوحي.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ بصبرهم على الإيمان بالتوراة والإيمان بالقرآن. أو بصبرهم على الإيمان بالقرآن قبل نزوله وبعد نزوله. أو بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب. ونحوه ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨]، ﴿بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ بالطاعة المعصية المتقدمة. أو بالحلم الأذى.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ توديع ومتاركة. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: كلمة حلم من المؤمنين ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ لا نريد مخالطتهم وصحبتهم فإن قلت: من خاطبوا بقولهم: ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾؟ قلت: اللاغين الذين دل عليهم قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ﴾.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لا تقدر أن تدخل في الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم، لأنك عبد لا تعلم المطبوع على قلبه من غيره ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ يدخل في الإسلام ﴿مَن يَشَآءُ﴾ وهو الذي علم أنه غير مطبوع على قلبه، وأن الألطاف تنفع فيه، فيقرن به ألطافه حتى تدعوه إلى القبول ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ بالقابلين من الذين لا يقبلون. قال الزجاج: أجمع المسلمون أنها نزلت في أبي طالب، وذلك أن أبا طالب قال عند موته: يا معشر بني هاشم، أطيعوا محمداً وصدّقوه تفلحوا وترشدوا. فقال النبي ﷺ: تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك؟ قال: فما تريد يا ابن أخي؟ قال: أريد منك كلمة واحدة فإنك في آخر يوم من أيام الدنيا: أن تقول لا إله إلا الله، أشهد لك بها عند الله. قال: يا ابن أخي، قد علمت إنك/ ٢/ ٧٩ب لصادق، ولكني أكره أن يقال: خرع عند الموت[1]، ولولا أن تكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة[2] ومسبة بعدي، لقلتها، ولأقررت بها عينك عند الفراق، لما أرى من شدّة وجدك ونصيحتك، ولكني سوف أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف (١١١٠).

١١١٠ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٣١): غريب بهذا اللفظ.
وقال ابن حجر: لم أجده وقصة وفاة أبي طالب في الصحيحين من سعيد بن المسيب عن ابنه بغير =

---

(١) قوله «أكره أن يقال خرع عند الموت» في الصّحاح: خرع الرجل ـ بالكسر ـ: ضعف فهو خرع. (ع)

(٢) قوله «غضاضة» أي: مذلة ومنقصة. (ع)

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

قالت قريش، وقيل: إن القائل الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف: نحن نعلم أنك على الحق، ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب بذلك ـ وإنما نحن أكلة رأس، أي: قليلون ـ أن يتخطفونا من أرضنا، فألقمهم الله الحجر. بأنه مكن لهم في الحرم الذي آمنه بحرمة البيت وآمن قطانه بحرمته، وكانت العرب في الجاهلية حولهم يتغاورون ويتناحرون، وهم آمنون في حرمهم لا يخافون، وبحرمة البيت هم قارّون بواد غير ذي زرع، والثمرات والأرزاق تجبى إليهم من كل أوب، فإذا خولهم الله ما خولهم من الأمن والرزق بحرمة البيت وحدها وهم كفرة عبدة أصنام فكيف يستقيم أن يعرضهم للتخوّف والتخطف، ويسلبهم الأمن إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام. وإسناد الأمن إلى أهل الحرم حقيقة، وإلى الحرم مجاز ﴿تجبى إليه﴾ تجلب وتجمع. وقرئ: بالياء والتاء. وقرئ: تجني، بالنون، من الجنى. وتعديته بإلى كقوله: يجنى إليّ فيه، ويجنى إلى الخافة[1]. وثمرات: بضمتين وبضمة وسكون. ومعنى الكلية: الكثرة كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ متعلق بقوله: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ أي قليل منهم يقرون بأنّ ذلك رزق من عند الله، وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك ولا يفطنون له، ولو علموا أنه من عند الله لعلموا أن الخوف والأمن من عنده، ولما خافوا التخطف إذا آمنوا به وخلعوا أنداده. فإن قلت: بم انتصب رزقاً؟ قلت: إن جعلته مصدراً جاز أن ينتصب بمعنى ما قبله؛ لأنّ معنى ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ويرزق ثمرات كل شيء: واحد، وأن يكون مفعولاً له. وإن جعلته بمعنى: مرزوق، كان حالاً من الثمرات لتخصصها بالإضافة، كما تنتصب عن النكرة المتخصصة بالصفة.

= هذا السياق وأخص منه. انتهى.

وللحديث شاهد في الصحيحين: أخرجه البخاري (٣/٥٨٦ ـ ٥٨٧): كتاب الجنائز: باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، حديث (١٣٦٠) وأطرافه في (٣٨٨٤ ـ ٤٦٧٥ ـ ٤٧٧٢ ـ ٦٦٨٢) ومسلم (١/٢٤٤ ـ ٢٤٥ ـ النووي): كتاب الإيمان: باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، ما لم يشرع في النزع وهو الغرغرة، ونسخ جواز الاستغفار للمشركين حديث (٣٩ ـ ٢٤/٤٠) من طريق ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبيه به.

---

(١) قوله «ويجني إلى الخافة» في الصحاح «الخافة»: خريطة من أدم يشتار فيها بعسل. وفيه «يشتار»: يجتني. (ع)

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾

هذا تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم من إنعام الله عليهم بالرقود في ظلال الأمن وخفض العيش، فغمطوا النعمة وقابلوها بالأشر والبطر[1]، فدمّرهم الله وخرّب ديارهم. وانتصبت ﴿مَعِيشَتَهَا﴾ إمّا بحذف الجار وإيصال الفعل، كقوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وإمّا على الظرف بنفسها، كقولك: زيد ظني مقيم[2]. أو بتقدير حذف الزمان المضاف، أصله: بطرت أيام معيشتها، كخفوق النجم. ومقدم الحاج. وإمّا بتضمين (بطرت) معنى: كفرت وغمطت. وقيل: البطر سوء احتمال الغنى: وهو أن لا يحفظ حق الله فيه ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من السكنى. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لم يسكنها إلا المسافر ومارّ الطريق يوماً أو ساعة ويحتمل أنّ شؤم معاصي المهلكين بقي أثره في ديارهم، فكل من سكنها من أعقابهم لم يبق فيها إلا قليلاً ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ تلك المساكن من ساكنيها، أي: تركناها على حال لا يسكنها أحد، أو خرّبناها وسوّيناها بالأرض [من الكامل]:

تَتَخَلَّفُ الآثَارُ عَنْ أَصْحَابِهَا ... حِيناً وَيُدْرِكُهَا الْفَنَاءُ فَتَتْبَعُ[3]

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

وما كانت عادة ربك أن يهلك القرى في كل وقت ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ﴾ القرية التي هي أمّها، أي: أصلها وقصبتها التي هي أعمالها وتوابعها ﴿رَسُولًا﴾ لإلزام الحجة وقطع

---

(١) قوله «فغمطوا النعمة وقابلوها بالأشر والبطر» أي بطروها وحقروها. والأشر والبطر: شدة المرح والمرح: شدة الفرح. كذا في الصحاح. (ع)

(٢) قوله «كقولك زيد ظني مقيم» أي: في ظني. (ع)

(٣) أين الذي الهرمان من بنيانه؟ ... ما قومه؟ ما يومه؟ ما المصرع؟
تتخلف الآثار عن أصحابها ... حيناً ويدركها الفناء فتتبع

لأبي الطيب حين دخل مصر ورأى الأهرام التي بناها الملك سوريد. وقيل: سنان بن مشلشل. وقيل: إدريس عليه السلام. والهرمان: تثنية هرم ـ كسبب ـ وأراد بهما القريبين من مصر، ويومه: هو زمن ملكه، ويجوز أنه يوم موته، كما أن المصرع مكان الموت، والاستفهام عن هذا بعد الاستفهام عن قومه لاستحضار الصورتين والفرق بين الحالتين، ثم قال: تتخلف، أي: تتأخر الآثار من البنيان والأشجار وغير ذلك زمنا طويلاً بعد أصحابها. ثم يلحقها الفناء فتتبع أصحابها ولو طال زمن تخلفها. ويجوز أن المعنى: حيناً قليلاً. فالتنوين للتكثير أو للتقليل.

المعذرة، مع علمه أنهم لا يؤمنون؛ أو وما كان في حكم الله وسابق قضائه أن يهلك القرى في الأرض حتى يبعث في أم القرى ـ يعني مكة ـ رسولاً وهو محمد ﷺ خاتم الأنبياء. وقرئ: أمها، بضم الهمزة وكسرها لاتباع الجرّ، وهذا بيان لعدله وتقدسه عن الظلم، حيث أخبر بأنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الهلاك بظلمهم[1]، ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة والإلزام ببعثة الرسل، ولا يجعل علمه بأحوالهم حجة عليهم، ونزه ذاته أن يهلكهم وهم غير ظالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧] فنصّ في قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ أنه لو أهلكهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلماً منه، وأنّ حاله في غناه وحكمته منافية للظلم، دلّ على ذلك بحرف النفي مع لامه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

وأي شيء أصبتموه من أسباب الدنيا فما هو إلا تمتع وزينة أياماً قلائل، وهي مدة الحياة المتقضية ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو ثوابه ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه من ذلك ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأنّ بقاءه دائم سرمد وقرئ/ ٢/ ٨٠أ: يعقلون، بالياء، وهو أبلغ في الموعظة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن الله خلق الدنيا وجعل أهلها ثلاثة أصناف: المؤمن، والمنافق، والكافر؛ فالمؤمن يتزوّد، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع.

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾

هذه الآية تقرير وإيضاح للتي قبلها. والوعد الحسن: الثواب؛ لأنه منافع دائمة على وجه التعظيم والاستحقاق، وأي شيء أحسن منها، ولذلك سمى الله الجنة بالحسنى. و﴿لَٰقِيهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿ولقاهم نضرة وسرورا﴾[الإنسان: ١١]، وعكسه ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]. ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ من الذين أحضروا النار. ونحوه ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾

---

(١) قال محمود: «هذا بيان لعدله وتقدسه عن الظلم حتى أخبر بأنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا العذاب ولا يستحقوا حتى تتأكد عليهم الحجة ببعثة الرسل» قال أحمد: هذا إسلاف من الزمخشري لجواب ساقط عن سؤال وارد على القدرية لا جواب لهم عنه، ينشأ السؤال في هذه الآية فيقال: لو كانت العقول تحكم عن الله تعالى بأحكام التكليف، لقامت الحجة على الناس وإن لم يكن بعث رسل، إذ العقل حاكم، فلا يجدون للخلاص من هذا السؤال سبيلا.

[الصافات: ٥٧]، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ قيل: نزلت في رسول الله - ﷺ - وأبي جهل. وقيل: في علي وحمزة وأبي جهل. وقيل: في عمار بن ياسر والوليد بن المغيرة. فإن قلت: فسر لي الفاءين وثم، وأخبرني عن مواقعها. قلت: قد ذكر في الآية التي قبلها متاع الحياة الدنيا وما عند الله وتفاوتهما، ثم عقبه بقوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ﴾على معنى: أبعد هذا التفاوت الظاهر يسوّي بين أبناء الآخرة وأبناء الدنيا، فهذا معنى الفاء الأولى وبيان موقعها. وأمّا الثانية فللتسبيب؛ لأن لقاء الموعود مسبب عن الوعد الذي هو الضمان في الخير. وأمّا «ثم» فلتراخي حال الإحضار عن حال التمتيع، لا لتراخي وقته عن وقته. وقرئ: (ثم هو) بسكون الهاء، كما قيل عضْد في عضُد، تشبيهاً للمنفصل بالمتصل. وسكون الهاء في: فهو، وهو، ولهو: أحسن؛ لأنّ الحرف الواحد لا ينطق به وحده فهو كالمتصل.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿شُرَكَآءِيَ﴾ مبني على زعمهم، وفيه تهكم. فإن قلت: زعم يطلب مفعولين؛ كقوله [من الطويل]:

. . . . وَلَـمْ أَزْعُمْـكِ عَـنْ ذَاكَ مَـعْـزِلا[1]

فأين هما؟ قلت: محذوفان، تقديره: الذين كنتم تزعمونهم شركائي. ويجوز حذف المفعولين في باب ظننت، ولا يصح الاقتصار على أحدهما.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ الشياطين أو أئمة الكفر ورءوسه. ومعنى حق عليهم القول: وجب عليهم مقتضاه وثبت، وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ صفته، والراجع إلى الموصول محذوف، و﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾ الخبر. والكاف صفة مصدر محذوف، تقديره: أغويناهم، فغووا غيا مثل ما

---

(١) وإن الـذي قـد عـاش يـا أم مـالـك ... يموت ولـم أزعمك عن ذاك معزلا

يقول: وإن كل حي - وإن طال عمره - يموت. ولم أظنك يا أم مالك معزلا عن ذلك الحكم أو الموت. والمعزل: مكان العزلة والانفراد، أي: لم أظنك في معزل عنه، أو ذات معزل، أو معتزلة، أو نفس المقول مبالغة.

البيت للنابغة الجعدي، ينظر ديوانه ص ١١٤، شرح أبيات سيبويه (١/ ٨٧)، الكتاب (١/ ١٢١).

غوينا[1]، يعنون: أنا لم نغو إلا باختيارنا، لا أن فوقنا مغوين أغوونا بقسر منهم وإلجاء. أو دعونا إلى الغيّ وسوّلوه لنا، فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم؛ لأن إغواءنا لهم لم يكن إلا وسوسة وتسويلاً لا قسراً وإلجاء، فلا فرق إذاً بين غينا وغيهم. وإن كان تسويلنا داعياً لهم إلى الكفر، قد كان في مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان بما وضع فيهم من أدلة العقل، وما بعث إليهم من الرسل وأنزل عليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد والمواعظ والزواجر، وناهيك بذلك صارفاً عن الكفر وداعياً إلى الإيمان. وهذا معنى ما حكاه الله عن الشيطان ﴿وَعَدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ والله تعالى قدّم هذا المعنى أوّل شيء، حيث قال لإبليس ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾. ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم ومما اختاروه من الكفر بأنفسهم، هوى منهم للباطل ومقتاً للحق، لا بقوّة منا على استكراههم ولا سلطان ﴿مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ إنما كانوا يعبدون أهواءهم ويطيعون شهواتهم. وإخلاء الجملتين من العاطف، لكونهما مقرّرتين لمعنى الجملة الأولى.

﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ لوجه من وجوه الحيل يدفعون به العذاب. أو لو أنهم كانوا مهتدين مؤمنين، لما رأوه. أو تمنوا لو كانوا مهتدين. أو تحيروا عند رؤيته وسدروا[2] فلا يهتدون طريقا. حكى أوّلاً ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء، ثم ما يقوله الشياطين أو أئمتهم عند توبيخهم لأنهم إذا وبخوا بعبادة الآلهة، اعتذروا بأن الشياطين هم الذين استغووهم وزينوا لهم عبادتها، ثم ما يشبه الشماتة بهم من استغاثتهم آلهتهم وخذلانهم لهم وعجزهم عن نصرتهم، ثم ما يبكتون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وإزاحة العلل ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ فصارت الأنباء كالعمي عليهم جميعاً لا تهتدي إليهم ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً كما يتساءل الناس في المشكلات، لأنهم يتساوون جميعاً في عمى الأنباء عليهم والعجز عن الجواب. وقرئ: فعميت، والمراد بالنبأ: الخبر عما أجاب به المرسل إليه رسوله، وإذا كانت الأنبياء لهول ذلك اليوم يتتعتعون في الجواب عن

---

(١) قال السمين الحلبي: وهذا الوجه منعه أبو علي قال: لأنه ليس في الخبر زيادة فائدة على ما في صفته. الدر المصون.

(٢) قوله «وسدروا» أي تحيروا. أفاده الصحاح. (ع)

مثل هذا السؤال، ويفوّضون الأمر إلى علم الله، وذلك/ ٢/ ٨٠ب قوله تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ فما ظنك بالضّلال من أممهم.

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ من المشركين من الشرك، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَعَسَىٰٓ أَن﴾ يفلح عند الله، و«عسى» من الكرام تحقيق. ويجوز أن يراد: ترجي التائب وطمعه، كأنه قال: فليطمع أن يفلح.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾

الخيرة من التخير، كالطيرة من التطير: تستعمل بمعنى المصدر هو التخير، وبمعنى المتخير كقولهم: محمد خيرة الله من خلقه ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ بيان لقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ لأنّ معناه: ويختار ما يشاء، ولهذا لم يدخل العاطف. والمعنى: أنّ الخيرة لله تعالى في أفعاله، وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها، ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه. قيل: السبب فيه قول الوليد بن المغيرة: (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) يعني: لا يبعث الله الرسل باختيار المرسل إليهم. وقيل: معناه ويختار الذي لهم فيه الخيرة، أي: يختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح، وهو أعلم بمصالحهم من أنفسهم، من قولهم في الأمرين: ليس فيهما خيرة لمختار. فإن قلت: فأين الراجع من الصلة إلى الموصول إذا جعلت ما موصولة؟ قلت: أصل الكلام: ما كان لهم فيه الخيرة، فحذف «فيه» كما حذف «منه» في قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] لأنه مفهوم ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي الله بريء من إشراكهم وما يحملهم عليه من الجراءة على الله واختيارهم عليه ما لا يختار.

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ من عداوة رسول الله وحسده ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من مطاعنهم فيه. وقولهم: هلا اختير عليه غيره في النبوّة ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ وهو المستأثر بالإلٰهية المختص بها، و﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير لذلك، كقولك: الكعبة القبلة، لا قبلة إلا هي. فإن قلت: الحمد في الدنيا ظاهر فما الحمد في الآخرة؟ قلت: هو قولهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا

﴿ٱلْحَزَنَ﴾، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥] والتحميد هناك على وجه اللذة لا الكلفة. وفي الحديث: يلهمون التسبيح والتقديس (١١١١) ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ القضاء بين عباده.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ وقرئ أريتم: بحذف الهمزة، وليس بحذف قياسي ومعناه: أخبروني من يقدر على هذا؟ والسرمد: الدائم المتصل، من السرد وهو المتابعة. ومنه قولهم في الأشهر الحرم: ثلاثة سرد، وواحد فرد، والميم مزيدة. ووزنه فعمل. ونظيره. دلامص، من الدلاص[1]. فإن قلت: هلا قيل: بنهار تتصرفون فيه، كما قيل: ﴿بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾؟ قلت: ذكر الضياء وهو ضوء الشمس: لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة، ليس التصرف في المعاش وحده، والظلام ليس بتلك المنزلة، ومن ثمة قرن بالضياء ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ لأنّ السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده، وقرن بالليل ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأنّ غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره. وأنت من السكون ونحوه ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ زواج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة: لتسكنوا في أحدهما وهو الليل، ولتبتغوا من فضل الله في الآخر وهو النهار ولإرادة شكركم.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

١١١١ ـ أخرجه مسلم في صحيحه: (٩/ ١٩٠ ـ النووي) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيًا، حديث (١٨ ـ ١٩/ ٢٨٣٥)، وأبو داود (٤/ ٢٣٦): كتاب السنة: باب في الشفاعة، حديث (٤٧٤١) مختصراً.
كلاهما من طريق الأعمش عن أبي سفيان عن جابر به.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه مسلم من حديث جابر في أثناء حديث في صفة أهل الجنة: وفيه «يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس»، وفي رواية: «التسبيح والتكبير». انتهى.

---

(١) قوله «ونظيره دلامص من الدلاص» في الصحاح، الدلاص: اللين البراق. والدلامص: البراق. يقال: دلصت الدرع ـ بالفتح. (ع)

وقد سلكت بهذه الآية طريقة اللف في تكرير التوبيخ باتخاذ الشركاء: إيذان بأن لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به، كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده. اللهم فكما أدخلتنا في أهل توحيدك، فأدخلنا في الناجين من وعيدك.

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَنَزَعْنَا﴾ وأخرجنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهو نبيهم؛ لأن أنبياء الأمم شهداء عليهم، يشهدون بما كانوا عليه ﴿فَقُلْنَا﴾ للأمة ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ فيما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسول ﴿فَعَلِمُوا﴾ حينئذٍ ﴿أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ ولرسوله، لا لهم ولشياطينهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الكذب والباطل.

﴿۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿قَارُونَ﴾ اسم أعجمي مثل هارون، ولم ينصرف للعجمة والتعريف، ولو كان فاعولا من قرن لانصرف. وقيل: معنى كونه من قومه أنه آمن به. وقيل: كان إسرائيلياً ابن عم موسى: هو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب. وموسى بن عمران بن قاهث. وقيل: كان موسى ابن أخيه، وكان يسمى المنور لحسن صورته، وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة، ولكنه نافق كما نافق السامري وقال: إذا كانت النبوّة لموسى عليه السلام، والمذبح والقربان إلى هارون فمالي؟ وروي: أنه لما جاوز بهم موسى البحر وصارت الرسالة والحبورة لهارون يقرّب القربان ويكون رأساً فيهم ـ وكان القربان إلى موسى فجعله موسى إلى أخيه ـ وجد قارون في نفسه وحسدهما، فقال لموسى: الأمر لكما ولست على شيء/٢/٨١أ، إلى متى أصبر؟ قال موسى: هذا صنع الله قال: والله لا أصدق حتى تأتي بآية، فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كل واحد بعصاه، فحزمها وألقاها في القبة التي كان الوحي ينزل عليه فيها، وكانوا يحرسون عصيهم بالليل، فأصبحوا وإذا بعصا هارون تهتز ولها ورق أخضر، وكانت من شجر اللوز، فقال قارون: ما هو بأعجب مما تصنع من السحر ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ من البغي وهو الظلم. قيل: ملكه فرعون على بني إسرائيل فظلمهم. وقيل: من البغي وهو الكبر والبذخ: تبذخ عليهم بكثرة ماله وولده. قيل: زاد عليهم في

الثياب شبراً. المفاتح: جمع مفتح بالكسر: وهو ما يفتح به. وقيل هي الخزائن، وقياس واحدها: مفتح ـ بالفتح. ويقال: ناء به الحمل، إذا أثقله حتى أماله. والعصبة: الجماعة الكثيرة والعصابة: مثلها. واعصوصبوا: اجتمعوا. وقيل: كانت تحمل مفاتيح خزائنه ستون بغلاً، لكل خزانة مفتاح، ولا يزيد المفتاح على أصبع. وكانت من جلود. قال أبو رزين: يكفي الكوفة مفتاح، وقد بولغ في ذكر ذلك بلفظ: الكنوز، والمفاتح، والنوء، والعصبة، وأولى القوة. وقرأ بديل بن ميسرة: لينوء بالياء. ووجهه أن يفسر المفاتح بالخزائن، ويعطيها حكم ما أضيفت إليه للملابسة والاتصال، كقولك ذهبت أهل اليمامة. ومحل إذ منصوب بتنوء ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ كقوله: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، وقول القائل [من الطويل]:

وَلَسْتُ بِمِفْرَاحٍ إِذَا الدَّهْرُ سَرَّنِي .... (١)

وذلك أنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضي بها واطمأن. وأمّا من قلبه إلى الآخرة ويعلم أنه مفارق ما فيه عن قريب، لم تحدّثه نفسه بالفرح. وما أحسن ما قال القائل [من الوافر]:

أَشَدُّ الغَمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالا(٢)

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ من الغي والثروة ﴿ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ بأن تفعل فيه أفعال الخير من أصناف الواجب والمندوب إليه، وتجعله زادك إلى الآخرة ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ﴾ وهو أن تأخذ منه ما يكفيك ويصلحك ﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عباد الله ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أو أحسن بشكرك وطاعتك لله كما أحسن إليك. والفساد في الأرض: ما كان عليه من الظلم والبغي. وقيل: إن القائل موسى عليه السلام. وقرئ: واتبع.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ

---

(١) ولست بمفراح إذا الدهر سرني ... ولا جازع من صرفه المتقلب
ولا أبتغي شرًا إذا الشر تاركي ... ولكن متى أحمل على الشر أركب
لهدبة بن خشرم لما قاده معاوية إلى الحرة ليقتص منه في زياد بن زيد العذري، فلقيه عبد الرحمن بن حسان فاستنشده فأنشده ذلك. والمفراح: كثير الفرح. والمراد: نفي الفرح من أصله. وصرف الدهر: حدثانه. وإذا: شرطية فلا بد بعدها من فعل، أي: إذا كان الشر تاركي. وأحمل مبني للمجهول، وأركب للفاعل. والمعنى: أني جربت الدهر فإذا هو خئون، ومع ذلك لا أتضعضع.

(٢) لأبي الطيب، أي: أشد الغم عندي وقت السرور الذي تيقن صاحبه الانتقال عنه، وهكذا سرور الدنيا كله.

﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي على استحقاق واستيجاب لما فيّ من العلم الذي فضلت به الناس، وذلك أنه كان أعلم بني إسرائيل بالتوراة. وقيل: هو علم الكيمياء. عن سعيد بن المسيب: كان موسى عليه السلام يعلم علم الكيمياء، فأفاد يوشع بن نون ثلثه، وكالب بن يوفنا ثلثه، وقارون ثلثه، فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه فكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهباً. وقيل: علم الله موسى علم الكيمياء، فعلمه موسى أخته، فعلمته أخته قارون. وقيل: هو بصره بأنواع التجارة والدهقنة[1] وسائر المكاسب. وقيل: ﴿عِندِيٓۚ﴾ معناه: في ظني، كما تقول الأمر عندي كذا، كأنه قال: إنما أوتيته على علم، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭۚ﴾ [الزمر: ٤٩] ثم زاد ﴿عِندِيٓۚ﴾ أي هو في ظني ورأيي هكذا. يجوز أن يكون إثباتاً لعلمه بأنّ الله قد أهلك من القرون قبل من هو أقوى منه وأغنى، لأنه قد قرأه في التوراة، وأخبر به موسى، وسمعه من حفاظ التواريخ والأيام كأنه قيل ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ في جملة ما عنده من العلم هذا، حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوّته. ويجوز أن يكون نفياً لعلمه بذلك؛ لأنه لما قال: أوتيته على علم عندي، فتنفج بالعلم[2] وتعظم به. قيل: أعنده مثل ذلك العلم الذي ادعاه ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة، ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقي به نفسه مصارع الهالكين ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ﴾ للمال، أو أكثر جماعة وعدداً. فإن قلت: ما وجه اتصال قوله: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ٧٨﴾ بما قبله؟ قلت: لما ذكر قارون من أهلك من قبله من القرون الذين كانوا أقوىٰ منه وأغنى، قال على سبيل التهديد له: والله مطلع على ذنوب المجرمين، لا يحتاج إلى سؤالهم عنها واستعلامهم. وهو قادر على أن يعاقبهم عليها، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦]، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وما أشبه ذلك.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ٧٩﴾

﴿فِى زِينَتِهِۦۖ﴾ قال الحسن: في الحمرة والصفرة. وقيل: خرج على بغلة شهباء عليها

(١) قوله «والدهقنة» أي الزراعة، كما عبر غيره. (ع)
(٢) قوله «فتنفج بالعلم» أي ترفع وتفاخر وتكبر. أفاده الصحاح. (ع)

الأرجوان[1] وعليها سرج من ذهب، ومعه أربعة آلاف على زيه. وقيل: عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر، وعن يمينه ثلاثمائة غلام، وعن يساره ثلاثمائة جارية، بيض عليهنّ الحلي والديباج. وقيل في تسعين ألفاً عليهم المعصفرات، وهو أوّل يوم رؤي فيه المعصفر: كان المتمنون قوماً مسلمين وإنما تمنوه على سبيل الرغبة في اليسار والاستغناء كما هو عادة البشر. وعن قتادة: تمنوه ليتقربوا به إلى الله وينفقوه في سبل الخير. وقيل: كانوا قوماً كفاراً. الغابط: هو الذي يتمنى مثل نعمة/ ٢/ ٨١ب صاحبه من غير أن تزول عنه. والحاسد: هو الذي يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له دونه فمن الغبطة قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ ومن الحسد قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وقيل لرسول الله ـ ﷺ ـ: هل يضر الغبط؟ فقال: «لا إلا كما يضر العضاه الخبط»[2] (١١١٢)، والحظ: الجدّ، وهو البخت والدولة: وصفوه بأنه رجل مجدود مبخوت، يقال: فلان ذو حظ، وحظيظ، ومحظوظ، وما الدنيا إلا أحاظ وجدود.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾

ويلك: أصله الدعاء بالهلاك، ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضى، كما استعمل: لا أبا لك. وأصله الدعاء على الرجل بالأقراف[3] في الحث على الفعل. والراجع في ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ للكلمة التي تكلم بها العلماء، أو للثواب، لأنه في

١١١٢ ـ أخرجه الطبراني في معجمه، وإبراهيم الحربي في كتابه «غريب الحديث»، والسرقسطي في غريبه بلفظ المصنف كما في تخريج الكشاف للزيلعي (ج ٣/ ٣٢ ـ ٣٣).
قال الحافظ في تخريج الكشاف: ذكره ثابت السرقسطي في الغريب هكذا بغير إسناد. وأخرجه إبراهيم الحربي في الغريب من طريق ابن أبي حسين «أن سائلاً سأل النبي ـ ﷺ ـ أيضر الناس الغبط؟ قال: نعم كما يضر العضاه الخبط، بهذا اللفظ أخرجه الطبراني من رواية أم الدرداء قالت: قلت: يا رسول الله. فذكره. لكن قال: «الشجر» بدل العضاه. قال: الحربي الغبط إرادة السعة. وقال ثابت: الغبط الحسد. انتهى.

---

(١) قوله «بغلة شهباء عليها الأرجوان» في الصحاح: قطيفة حمراء أرجوان. وفيه أيضاً: الأرجوان صبغ أحمر شديد الحمرة، ويقال: هو بالفارسية أرغوان، وهو شجر له نور أحمر أحسن ما يكون. (ع)
(٢) قوله «إلا كما يضر العضاه الخبط» في الصحاح «العضاه»: كل شجر يعظم وله شوك. وفيه «الخبط»: ضرب الشجرة بالعصا ليسقط ورقها. (ع)
(٣) قوله «الدعاء على الرجل بالأقراف» أي بفساد الأب. أفاده الصحاح. (ع)

معنى المثوبة أو الجنة، أو للسيرة والطريقة، وهي الإيمان والعمل الصالح ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على الطاعات وعن الشهوات وعلى ما قسم الله من القليل عن الكثير. كان قارون يؤذي نبي الله موسى عليه السلام كل وقت، وهو يداريه للقرابة التي بينهما، حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار، وعن كل ألف درهم على درهم، فحسبه فاستكثره فشحت به نفسه، فجمع بني إسرائيل وقال: إنّ موسى أرادكم على كل شيء، وهو يريد أن يأخذ أموالكم، فقالوا: أنت كبيرنا وسيدنا، فمر بما شئت، قال: نبرطل فلانة البغيّ حتى ترميه بنفسها فيرفضه بنو إسرائيل، فجعل لها ألف دينار. وقيل: طستاً من ذهب. وقيل: طستاً من ذهب مملوءة ذهباً. وقيل: حكمها فلما كان يوم عيد قام موسى فقال: يا بني إسرائيل، من سرق قطعناه، ومن افترى جلدناه، ومن زنى وهو غير محصن جلدناه، وإن أحصن رجمناه، فقال قارون: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا، قال: فإنّ بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة، فأحضرت، فناشدها موسى بالذي فلق البحر، وأنزل التوراة أن تصدق. فتداركها الله فقالت: كذبوا، بل جعل لي قارون جعلاً على أن أقذفك لنفسي، فخرّ موسى ساجداً يبكي وقال: يا رب، إن كنت رسولك فاغضب لي. فأوحى إليه: أن مر الأرض بما شئت، فإنها مطيعة لك. فقال: يا بني إسرائيل، إنّ الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون، فمن كان معه فليلزم مكانه، ومن كان معي فليعتزل، فاعتزلوا جميعاً غير رجلين ثم قال: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى الركب، ثم قال: خذيهم، فأخذتهم إلى الأوساط، ثم قال: خذيهم، فأخذتهم إلى الأعناق، وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى عليه السلام ويناشدونه بالله والرحم، وموسى لا يلتفت إليهم لشدّة غضبه، ثم قال: خذيهم، فانطبقت عليهم. وأوحى الله إلى موسى: ما أفظك: استغاثوا بك مراراً فلم ترحمهم، أما وعزتي لو إياي دعوا مرة واحدة لوجدوني قريباً مجيباً (١١١٣)، فأصبحت بنو

١١١٣ ـ أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٤٠٨ ـ ٤٠٩) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. اهـ.
وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في تفسيره (٢/١٣)، والطبري في تفسيره (١٠/١١١ ـ ١١٢) رقم (٢٧٦٣٩)؛ كلهم من طريق عبد الله بن الحارث عن ابن عباس به، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/٢٦٣)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه عبد الرزاق والطبراني. من رواية علي بن زيد عن عبد الله بن الحارث بن نوفل الهاشمي. قال: فذكره موقوفاً. ووصله الحاكم بذكر ابن عباس. قال: «لما أتى موسى قومه أمرهم بالزكاة فجمعهم قارون. فذكره باختصار. قوله وفي الأخبار والآثار ما يدل عليه، يعني: وقوع الرعب في قلوب جميع الناس يوم الموقف يمكن أن يستدل له بحديث الشفاعة الطويل، ففي المتفق عليه عن أبي هريرة في حديث الشفاعة قال: «يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيبصرهم الناظر، ويسمعهم الداعي، وتدنو منهم الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، وفيه قول آدم وغيره: نفسي نفسي»، واتفقا عليه من حديث أنس كذلك. انتهى.

إسرائيل يتناجون بينهم: إنما دعا موسى على قارون يستبد بداره وكنوزه، فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله ﴿مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ من المنتقمين من موسى عليه السلام، أو من الممتنعين من عذاب الله. يقال: نصره من عدوه فانتصر، أي: منعه منه فامتنع.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قد يذكر الأمس ولا يراد به اليوم الذي قبل يومك، ولكن الوقت المستقرب على طريق الاستعارة ﴿مَكَانَهُۥ﴾ منزلته من الدنيا ﴿وي﴾ مفصولة عن كأن، وهي كلمة تنبُّهٍ على الخطأ وتندُّم. ومعناه: أن القوم قد تنبهوا على خطئهم في تمنيهم وقولهم: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ وتندموا ثم قالوا: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: ما أشبه الحال بأن الكافرين لا ينالون الفلاح، وهو مذهب الخليل وسيبويه؛ قال[من الخفيف]:

وَيْ كَأَنْ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُحْـ ... ـبَبْ وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعِشْ عَيْشَ ضُرِّ[1]

---

(1)
سألتاني الطلاق أن رأتا ما ... لي قليلاً قد جئتماني بنكر
وي كأن من يكن له نشب يحـ ... ـبب ومن يفتقر يعش عيش ضر
ويجنب سر النجي ولكـ ... ـن أخا المال محضر كل سر

لزيد بن عمرو بن نفيل القرشي. وقيل: لسعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة. وقيل: لنبيه بن الحجاج بن عامر، قتل كافراً يوم بدر. وسألتاني بقلب الهمزة ألفاً للوزن، وهي لغة قليلة، والضمير لزوجتيه، والطلاق مفعول ثان، وأن رأتا: أي لرؤيتهما، وقل: يحتمل أنه فعل ماض، فلا بد به من تقدير محذوف قبله به يتم الكلام، أي: لأن رأتاني قل مالي. أو لرؤيتهما أني قل مالي. ويحتمل أنه اسم بمعنى قليل، ولا حذف في الكلام، فالمعنى: لأن رأتا قليل مالي، أي: مالي القليل، والتفت من الغيبة إلى خطابهما بقوله: قد جئتماني بنكر، أي: منكر. وفيه معنى التعجيب من حالهما، و«وي»: اسم فعل للتعجب، وقيل: لفظه تيقظ وتندم، وكأن للظن أو للتحقيق، كما أجازه الكوفيون، وهي مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وقيل: لا اسم للمخففة. والنشب: المال. ويعش عيش ضرّ، أي: يبغض. والنجي ـ بالتشديد ـ: المناجي، أي المتكلم بالسر. ويجنب: مبني للمجهول. وسر: مفعوله الثاني. وأخا المال: صاحب المال. ومحضر: اسم مفعول، وكل مفعوله الثاني.

ينظر: خزانة الأدب ٦/ ٤٠٤، ٤٠٨، ٤١٠، والدرر ٥/ ٣٠٥، وذيل سمط اللآلي ص ١٠٣، والكتاب ٢/ ١٥٥، ولنبيه بن الحجاج في الأغاني ١٧/ ٢٠٥، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ١١، ولسان العرب (وا)، (ويا)، وبلا نسبة في الجنى الداني ص ٣٥٣، والخصائص ٣/ ٤١، ١٦٩، وشرح الأشموني ٢/ ٤٨٦، وشرح المفصل ٤/ ٧٦، ومجالس ثعلب ١/ ٣٨٩، والمحتسب ٢/ ١٥٥، وهمع الهوامع ٢/ ١٠٦.

وحكى الفراء أنّ أعرابية قالت لزوجها: أين ابنك؟ فقال: وي كأنه وراء البيت. وعند الكوفيين أنّ «ويك» بمعنى: ويلك، وأنّ المعنى ألم تعلم أنه لا يفلح الكافرون ويجوز أن تكون الكاف كاف الخطاب مضمومة إلى وي؛ كقوله [من الكامل]:

. . . . وَيْكَ عَنْتَرُ أَقْدِمِ[1]

وأنه بمعنى لأنه، واللام لبيان المقول لأجله هذا القول، أو لأنه لا يفلح الكافرون كان ذلك، وهو الخسف بقارون، ومن الناس من يقف على (وي) ويبتدىء (كأنه) ومنهم من يقف على (ويك). وقرأ الأعمش لولا منّ الله علينا. وقرئ ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾[2] وفيه ضمير الله. ولا نخسف بنا، كقولك: انقطع به، ولتخسف بنا.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿تِلْكَ﴾ تعظيم لها وتفخيم لشأنها، يعني/ ٢/ ٨٢أ: تلك التي سمعت بذكرها وبلغك وصفها. لم يعلق الموعد[3] بترك العلو والفساد، ولكن بترك إرادتهما وميل القلوب إليهما، كما قال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [هود: ١١٣] فعلق الوعيد بالركون وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: إنّ الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه، فيدخل تحتها (١١١٤). وعن الفضيل أنه قرأها ثم قال: ذهبت الأماني

١١١٤ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١١٥) رقم (٢٧٦٥٥)، والواحدي في تفسيره الوسيط (٣/ ٤١٠) كلاهما من طريق أشعث السمان عن أبي سلمان الأعرج عن علي موقوفاً.

---

(١) ولقد شفى نفسي وأذهب سقمها ... قيل الفوارس: ويك عنتر أقدم

لعنترة بن شداد من معلقته. ويروى: وأبرأ سقمها. ويروى: وأذهب غمها. ويروى: قول، بدل: قيل. وكلاهما مصدر. وويك: اسم فعل للتعجب، لكن لا يلائم البيت. وقيل: كلمة تنبيه، والكاف حرف خطاب. وقال الكسائي: أصل «ويك»: ويلك، فالكاف ضمير مجرور، لكن تبعد ملاءمته للبيت. وعنتر: منادى مرخم، وحسن الترخيم وحذف حرف النداء: أن المقام للاهتمام وسرعة الكلام، وأقدم: أي أقبل على العدو، لتمنعنا بأسه.

ينظر: ديوانه ص ٢١٩، والجنى الداني ص ٣٥٣، وخزانة الأدب ٦/ ٤٠٦، ٤٠٨، ٤٢١، وشرح الأشموني ٢/ ٤٨٦، وشرح شواهد المغني ص ٤٨١، ٧٨٧، وشرح المفصل ٤/ ٧٧، والصاحبي في فقه اللغة ص ١٧٧، ولسان العرب (ويا)، والمحتسب ١/ ١٦، ٢/ ٥٦، والمقاصد النحوية ٤/ ٣١٨، وبلا نسبة في مغني اللبيب ص ٣٦٩.

(٢) قوله: «وقرىء: لخسف بنا» يفيد أن القراءة المشهورة: لخسف، مبنياً للمجهول. (ع)

(٣) قوله «لم يعلق الموعد» لعله: الوعد. (ع)

ههنا[1]. وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يردّدها حتى قبض. ومن الطماع من يجعل العلوّ لفرعون، والفساد لقارون، متعلقاً بقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤]، ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٧٧] ويقول: من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة، ولا يتدبر قوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ كما تدبره عليّ والفضيل وعمر.

﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

معناه: فلا يجزون، فوضع ﴿الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ موضع الضمير؛ لأن في إسناد عمل السيئة إليهم مكرراً. فضل تهجين لحالهم، وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إلا مثل ما كانوا يعملون، وهذا من فضله العظيم وكرمه الواسع أن لا يجزي السيئة إلا بمثلها، ويجزي الحسنة بعشر أمثالها وبسبعمائة، وهو معنى قوله: ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾

= وقال ابن حجر: إسناده ضعيف .اهـ.
وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٢٦٥) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي موقوفاً.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الطبري والواحدي من رواية وكيع عن أشعث السمان عن أبي سلام الأعرج عن علي بهذا موقوفاً وإسناده ضعيف. انتهى.

---

(١) قال محمود: «لم يعلق الوعد بترك العلو والفساد ولكن بترك إرادتهما، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ فعلق الوعيد بالركون إلى الظلمة. وعن علي أن الرجل يعجبه أن يكون شراك نعله خيراً من شراك نعل أخيه فيدخل تحتها. وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يرددها حتى قبض. وعن الفضيل أنه قرأها وقال: ذهبت الأماني ههنا. ومن الطماع من يجعل العلو لفرعون والفساد لقارون، لقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ ويقول: من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة، ولا يتدبر قوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ كما تدبرها علي وعمر والفضيل» قال أحمد: هو تعرض لغمص أهل السنة، فإن كل موحد من أهل الجنة، وإنما طمعوا حيث أطمعهم الله تعالى، بل وحقق طمعهم في رحمته حيث يقول رسوله عليه الصلاة والسلام: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق... ثلاثاً، وفي الثالثة: وإن رغم أنف أبي ذر» اللهم اقسم لنا من رجاء رحمتك ما تعصمنا به من القنوط، ومن خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، والله الموفق للصواب.

﴿فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه، يعني: أن الذي حملك صعوبة هذا التكليف لمثيبك عليها ثواباً لا يحيط به الوصف. و﴿لَرَآدُّكَ﴾ بعد الموت ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي معاد ليس لغيرك من البشر وتنكير المعاد لذلك: وقيل: المراد مكة: ووجهه أن يراد رده إليها يوم الفتح: ووجه تنكيره أنها كانت في ذلك اليوم معاداً له شأن، ومرجعاً له اعتداد؛ لغلبة رسول الله ـ ﷺ ـ عليها، وقهره لأهلها، وظهور عز الإسلام وأهله وذل الشرك وحزبه. والسورة مكية، فكأن الله وعده وهو بمكة في أذى وغلبة من أهلها: أنه يهاجر به منها، ويعيده إليها ظاهراً ظافراً. وقيل: نزلت عليه حين بلغ الجحفة في مهاجره. وقد اشتاق إلى مولده، ومولد آبائه، وحرم إبراهيم؛ فنزل جبريل فقال له: أتشتاق إلى مكة؟ قال: نعم؛ فأوحاها إليه. فإن قلت: كيف اتصل قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ﴾ بما قبله؟ قلت: لما وعد رسوله الرد إلى معاد، قال: قل للمشركين: ﴿رَّبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ يعني نفسه وما يستحقه من الثواب في معاده ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يعنيهم وما يستحقونه من العقاب في معادهم.

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

فإن قلت: قوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ ما وجه الاستثناء فيه؟ قلت: هذا كلام محمول على المعنى، كأنه قيل: وما ألقي عليك الكتاب إلا رحمة من ربك. ويجوز أن يكون إلا بمعنى لكن للاستدراك، أي: ولكن لرحمة من ربك ألقي إليك.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾

وقرئ: يصدنك، من أصدّه بمعنى صدّه، وهي في لغة كلب. وقال [من الطويل]:

أُنَاسٌ أَصَدُّوا النَّاسَ بِالسَّيْفِ عَنْهُمُ ... صُدُودَ السَّوَاقِي عَنْ أُنُوفِ الحَوَائِمِ[1]

﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ بعد وقت إنزاله[2]. وإذ تضاف إليه أسماء الزمان، كقولك: حينئذٍ وليلتئذٍ ويومئذٍ وما أشبه ذلك. والنهي عن مظاهرة الكافرين ونحو ذلك من باب التهييج الذي سبق ذكره.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ

---

(١) تقدم.

(٢) قوله «بعد وقت إنزاله» لعله: إنزالها. (ع)



﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ إلا إياه. والوجه يعبر به عن الذات.

قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قرأ طسم القصص كان له الأجر بعدد من صدق موسى وكذب به، ولم يبق ملك في السموات والأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقاً أن كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون» (١١١٥).

١١١٥ ـ تقدم تخريجه برقم (٤٣٦) وهو حديث فضائل القرآن سورة سورة.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي وابن مردويه، والواحدي، من حديث أبي بن كعب بأسانيدهم المتقدم ذكرها.

سورة العنكبوت

مكية [إلا من آية ١ إلى غاية آية ١١ فمدنية]

وآياتها ٦٩ [نزلت بعد الروم]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾

الحسبان لا يصح تعليقه بمعاني المفردات. ولكن بمضامين الجمل. ألا ترى أنك لو قلت: حسبت زيدا وظننت الفرس: لم يكن شيئاً حتى تقول: حسبت زيداً عالماً؛ وظننت الفرس جواداً، لأنّ قولك: زيد عالم، أو الفرس جواد. كلام دال على مضمون، فأردت الإخبار عن ذلك المضمون ثابتا عندك على وجه الظن لا اليقين، فلم تجد بدّاً في العبارة عن ثباته عندك على ذلك الوجه، من ذكر شطري الجملة مدخلاً عليهما فعل الحسبان، حتى يتم لك غرضك ٢/ ٨٢ب. فإن قلت: فأين الكلام الدال على المضمون الذي يقتضيه الحسبان في الآية؟ قلت: هو في قوله: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ وذلك أن تقديره: أحسبوا تركهم غير مفتونين، لقولهم: آمنا، فالترك أول مفعولي حسب؛ ولقولهم: آمنا، هو الخبر. وأما «غير مفتونين» فتتمة الترك، لأنه من الترك الذي هو بمعنى التصيير، كقوله [من الكامل]:

فَتَرَكْتُهُ جَزَرَ السِّبَاعِ يَنُشْنَهُ . . . .[1]

ألا ترى أنك قبل المجيء بالحسبان. تقدر أن تقول: تركهم غير مفتونين، لقولهم: آمنا، على تقدير: حاصل ومستقر، قبل اللام. فإن قلت: (أن يقولوا) هو علة تركهم غير مفتونين، فكيف يصح أن يقع خبر مبتدأ؟ قلت: كما تقول خروجه لمخافة الشر، وضربه للتأديب، وقد كان التأديب والمخافة في قولك: خرجت مخافة الشر، وضربته تأديباً: تعليلين. وتقول أيضاً: حسبت خروجه لمخافة الشر، وظننت ضربه للتأديب، فتجعلهما

---

(١) تقدم.

مفعولين كما جعلتهما مبتدأ وخبرا. والفتنة: الامتحان بشدائد التكليف: من مفارقة الأوطان، ومجاهدة الأعداء، وسائر الطاعات الشاقة، وهجر الشهوات والملاذ، وبالفقر؛ والقحط وأنواع المصائب في الأنفس والأموال. وبمصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم وضرارهم. والمعنى: أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم وأظهروا القول بالإيمان: أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين، بل يمحنهم الله بضروب المحن، حتى يبلو صبرهم، وثبات أقدامهم، وصحة عقائدهم، ونصوع نياتهم، ليتميز المخلص من غير المخلص، والراسخ في الدين من المضطرب، والمتمكن من العابد على حرف، كما قال: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦] وروي أنها نزلت في ناس من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ قد جزعوا من أذى المشركين، وقيل في عمار بن ياسر: وكان يعذب في الله. وقيل: في ناس أسلموا بمكة، فكتب إليهم المهاجرون: لا يقبل منكم إسلامكم حتى تهاجروا، فخرجوا فتبعهم المشركون فردوهم، فلما نزلت كتبوا بها إليهم؛ فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم، فمنهم من قتل ومنهم من نجا. وقيل: في مهجع بن عبد الله مولى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، وهو أول قتيل من المسلمين يوم بدر، رماه عامر بن الحضرمي فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: سيد الشهداء مهجع، وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة (١١١٦)، فجزع عليه أبواه وامرأته ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ موصول بأحسب أو بلا يفتنون، كقولك: ألا

١١١٦ ـ قال الزيلعي: غريب ونقل عن الثعلبي أنه روى أثر مقاتل قال: نزلت هاتان الآيتان في مهجع ابن عبد الله مولى عمر بن الخطاب كان أول من قتل من المسلمين يوم بدر رماه عامر الحضرمي بسهم فقتله فقال النبي ـ ﷺ ـ: «سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة».
وذكره البغوي في معالم التنزيل (٣/ ٤٦٠). وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٣٥٠) رقم (٦٦٦) ورواه الحاكم (٣/ ٢٨٤) عن واثلة بن الأسقع ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «خير السودان ثلاثة لقمان وبلال ومهجع مولى رسول الله ـ ﷺ ـ».
وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
وتعقبه الذهبي بأنه لا يعرف «مهجع».
وإسناد الحديث فيه شيخ الحاكم إسماعيل بن محمد بن الفضل بن محمد الشعراني النيسابوري. قال الحاكم: ارتبت في لقيه بعض الشيوخ وذكر له حديثاً وقال غريب فرد. ينظر الأنساب للسمعاني (٨/ ١١٠)، و«اللسان» (١/ ٤٣٤).
قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: ذكره الثعلبي عن مقاتل قال: نزلت هاتان الآيتان في مهجع بن عبد الله مولى عمر كان أول من قتل من المسلمين يوم بدر رماه عامر بن الحضرمي بسهم فقتله فقال النبي ـ ﷺ ـ: سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة وسنده إلى مقاتل في أول كتابه وفي الدلائل لابن أبي شيبة من طريق القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن =

يمتحن فلان وقد امتحن من هو خير منه، يعني: أن أتباع الأنبياء عليهم السلام قبلهم، قد أصابهم من الفتن والمحن نحو ما أصابهم. أو ما هو أشدّ منه فصبروا، كما قال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟﴾ . . . الآية وعن النبي ﷺ: «قد كانَ من قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين، ما يصرفه ذلك عن دينه؛ ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب، ما يصرفه ذلك عن دينه (١١١٧) ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ بالامتحان ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في الإيمان ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيه. فإن قلت: كيف وهو عالم بذلك فيما لم يزل؟ قلت: لم يزل يعلمه معدوماً، ولا يعلمه موجوداً إلا إذا وجد[(١)]، والمعنى: وليتميزن الصادق منهم من الكاذب. ويجوز أن يكون وعداً ووعيداً، كأنه قال: وليثيبن الذين صدقوا وليعاقبنّ الكاذبين. وقرأ علي ـ رضي الله عنه ـ والزهري: وليعلمنّ، من الإعلام، أي: وليعرفنهم الله الناس من هم. أو ليسمنهم بعلامة يعرفون بها من بياض الوجوه وسوادها، وكحل العيون وزرقتها.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾

﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ أن يفوتونا، يعني أنّ الجزاء يلحقهم لا محالة، وهم لم يطمعوا في الفوت، ولم يحدّثوا به نفوسهم، ولكنهم لغفلتهم وقلة فكرهم في العاقبة وإصرارهم على المعاصي: في صورة من يقدر ذلك ويطمع فيه. ونظيره ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [العنكبوت: ٢٢]، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنفال: ٥٩]. فإن قلت: أين مفعولا «حسب»؟ قلت: اشتمال صلة أن على مسند ومسند إليه سدّ مسدّ المفعولين؛

= مسعود قال: أول من استشهد يوم بدر مهجع مولى عمر. انتهى.

١١١٧ ـ أخرجه البخاري (٧/ ٢٠٢) كتاب مناقب الأنصار باب ما لقي النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه من المشركين بمكة حديث (٣٨٥٢)، (٦/ ٧١٦) كتاب المناقب حديث (٣٦١٢) وفي (١٢/ ٣٣٠) كتاب الإكراه باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر حديث (٦٩٤٣) وأبو داود (٣/ ٤٧) كتاب الجهاد: باب في الأسير يكره على الكفر حديث (٢٦٤٩) والنسائي (٨/ ٢٠٤) وأحمد (٥/ ١٠٩ ـ ١١٠ ـ ١١١) من حديث خباب بن الأرت.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه البخاري من حديث خباب بن الأرت، به وأتم منه.

---

(١) قال محمود: «إن قلت هو لم يزل يعلم الصادقين والكاذبين قبل الامتحان، فما وجه هذا الكلام؟ قلت: لم يزل يعلمه معدوماً ولا يعلمه موجوداً إلا إذا وجد» قال أحمد: فيما ذكر إيهام بمذهب فاسد، وهو اعتقاد أن العلم بالكائن غير العلم بأن سيكون. والحق أن علم الله تعالى واحد يتعلق بالموجود زمان وجوده وقبله وبعده على ما هو عليه، وفائدة ذكر العلم هاهنا وإن كان سابقاً على وجود المعلوم: التنبيه بالسبب على المسبب وهو الجزاء، كأنه قال تعالى: لنعلمنهم فلنجازينهم بحسب علمه فيهم، والله أعلم.

كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٢١٤] ويجوز أن يضمن حسب معنى قدر وأم منقطعة. ومعنى الإضراب فيها: أن هذا الحسبان أبطل من الحسبان الأول، لأن ذاك يقدر أنه لا يمتحن لإيمانه، وهذا يظن أنه لا يجازى بمساويه ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بئس الذي يحكمونه حكمهم هذا. أو بئس حكما يحكمونه حكمهم هذا، فحذف المخصوص بالذم.

﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾﴾

لقاء الله: مثل للوصول إلى العاقبة، من تلقى ملك الموت، والبعث، والحساب، والجزاء: مثلت تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل، وقد اطلع مولاه على ما كان يأتي ويذر، فإما أن يلقاه ببشر وترحيب لما رضي من أفعاله، أو بضد ذلك لما سخطه منها، فمعنى قوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾: من كان يأمل تلك الحال. وأن يلقى ٢/٨٣أ فيها الكرامة من الله والبشر ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ وهو الموت ﴿لَآتٍ﴾ لا محالة؛ فليبادر العمل الصالح الذي يصدق رجاءه، ويحقق أمله، ويكتسب به القربة عند الله والزلفى ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء مما يقوله عباده ومما يفعلونه، فهو حقيق بالتقوى والخشية. وقيل (يرجو): يخاف من قول الهذلي في صفة عسال [من الطويل]:

إِذَا لَسَعَتْهُ الدَّبْرُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا . . . .[1]

فإن قلت: فإن أجل الله لآت، كيف وقع جواباً للشرط؟ قلت: إذا علم أن لقاء الله عنيت به تلك الحال الممثلة والوقت الذي تقع فيه تلك الحال هو الأجل المضروب للموت: فكأنه قال: من كان يرجو لقاء الله فإن لقاء الله لآت، لأن الأجل واقع فيه اللقاء، كما تقول: من كان يرجو لقاء الملك فإن يوم الجمعة قريب، إذا علم أنه يقعد للناس يوم الجمعة.

﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾

﴿وَمَن جَاهَدَ﴾ نفسه في منعها ما تأمر به وحملها على ما تأباه ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ﴾ لها، لأن

---

(١) إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها وحالفها في بيت نوب عواسل

لأبي ذؤيب، يصف عسالا يجتني العسل: بأنه إذا لسعته الدبر ـ بالفتح والكسر ـ: ذكور النحل والزنابير. وروي كذلك: لم يرج، أي: لم يخف لسعها إذا أرادت لسعه. أو لسعته بالفعل لم يخف من مثله، أو لم يرتقبه ويعتني به، وحالفها: أي لازمها. ويروى بالمعجمة، أي: خالف مرادها. أو جاء خلفها بعد أن خرجت ترعى. والنوب: ضرب من النحل واحده نائب؛ لأنه يذهب إلى بيته نوبة بعد نوبة، عواسل: كثيرة العسل. وروي: عوامل، بالميم لأنها تعمل العسل.

منفعة ذلك راجعة إليها، وإنما أمر الله عز وجل ونهى، رحمة لعباده وهو الغني عنهم وعن طاعتهم.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

إما أن يريد قوماً مسلمين صالحين قد أساءوا في بعض أعمالهم وسيئاتهم مغمورة بحسناتهم فهو يكفرها عنهم، أي يسقط عقابها بثواب الحسنات ويجزيهم أحسن الذي كانوا يعملون، أي: أحسن جزاء أعمالهم: وإما قوماً مشركين آمنوا وعملوا الصالحات، فالله عز وجل يكفر سيئاتهم بأن يسقط عقاب ما تقدم لهم من الكفر والمعاصي ويجزيهم أحسن جزاء أعمالهم في الإسلام(١).

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَنَ بِوَلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

«وصى» حكمه حكم «أمر» في معناه وتصرفه. يقال: وصيت زيداً بأن يفعل خيراً، كما تقول: أمرته بأن يفعل؛ ومنه بيت الإصلاح [من الوافر]:

وَذُبْيَانِيَّةٍ وَصَّتْ بَنِيهَا ... بِأَنْ كَذَبَ الْقَرَاطِفُ وَالْقُرُوفُ(٢)

كما لو قال: أمرتهم بأن ينتهبوها. ومنه قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ [البقرة: ١٣٢] أي وصاهم بكلمة التوحيد وأمرهم بها، وقولك: وصيت زيداً بعمرو، معناه: وصيته

---

(١) قال محمود: «المراد بهؤلاء أحد فريقين: إما قوم مسلمون سيئاتهم صغائر مغمورة بالحسنات، وإما قوم آمنوا وعملوا الصالحات بعد كفر فالإسلام يجب ما قبله» قال أحمد: حجر واسعاً من رحمة الله تعالى، بناء على أصله الفاسد في وجوب الوعيد على مرتكب السيئات الكبائر لا بالتوبة، وأطلق تكفير الصغائر وإن لم تكن توبة إذا غمرتها الحسنات، وكلا الأصلين قدري مجتنب، والله الموفق.

(٢) لمعقر بن حمار البارقي، أنشده ابن السكيت في كتابه المسمى: إصلاح المنطق، أي: امرأة منسوبة إلى قبيلة ذبيان وصت بنيها. وأن مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وخبرها: كذب، وهو قد يكون بمعنى وجب كما في الصحاح. وفي الحديث: ثلاثة أسفار كذبن عليكم، أي: وجبن. وعن عمر رضي الله عنه: كذب عليكم الحج، أي وجب. وفي الكلام معنى الحث والإغراء. والقراطف: جمع قرطف، وهو القطيفة المخملة. والقروف: أوعية من أدم يجعل فيها اللحم المشوي. والقرف ـ بالكسر ـ: المقشر. والقرفة: قشر يداوي به. والقرف ـ بالفتح ـ وعاء من جلد يدبغ بالقرفة. واقترف، واقترب: متقاربان لفظاً ومعنى، أي: وصتهم باغتنامها وحفظها معهم.
ينظر إصلاح المنطق ص ١٥، ٦٦، ٢٩٣، خزانة الأدب (٥/ ١٥)، (٦/ ١٩٩)، سمط اللآلي (ص ٤٨٤)، لسان العرب (شمس).

بتعهد عمرو ومراعاته ونحو ذلك. وكذلك معنى قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾: وصيناه بإيتاء والديه حسناً، أو بإيلاء والديه حسناً؛ أي: فعلاً ذا حسن، أو ما هو في ذاته حسن لفرط حسنه، كقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] وقرئ: حسنا. وإحسانا. ويجوز أن تجعل (حسنا) من باب قولك: زيدا، بإضمار «اضرب» إذا رأيته متهيئاً للضرب، فتنصبه بإضمار أولهما. أو افعل بهما، لأن التوصية بهما دالة عليه، وما بعده مطابق له، كأنه قال: قلنا أوْلِهما معروفاً و﴿تُطِعْهُمَآ﴾ في الشرك إذا حملاك عليه. وعلى هذا التفسير إن وقف على (بوالديه) وابتدأ (حسنا) حسن الوقف، وعلى التفسير الأول لا بد من إضمار القول، معناه: وقلنا إن جاهداك أيها الإنسان ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي لا علم لك بإلهيته. والمراد بنفي العلم: نفي المعلوم، كأنه قال: لتشكر بي شيئاً لا يصح أن يكون إلٰهاً ولا يستقيم: وصاه بوالديه وأمره بالإحسان إليهما، ثم نبه بنهيه عن طاعتهما إذا أراده على ما ذكر، على أن كل حق وإن عظم ساقط إذا جاء حق الله، وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ثم قال: إليّ مرجع من آمن منكم ومن أشرك، فأجازيكم حق جزائكم. وفيه شيئان، أحدهما: أن الجزاء إليّ، فلا تحدث نفسك بجفوة والديك وعقوقهما لشركهما، ولا تحرمهما برك ومعروفك في الدنيا، كما أني لا أمنعهما رزقي. والثاني: التحذير من متابعتهما على الشرك، والحث على الثبات والاستقامة في الدين بذكر المرجع والوعيد. روي أن سعد بن أبي وقاص الزهري ـ رضي الله عنه ـ حين أسلم قالت أمّه ـ وهي حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس ـ يا سعد، بلغني أنك قد صبأت، فوالله لا يظلني سقف بيت من الضح[1] والريح؛ وإن الطعام والشراب عليّ حرام حتى تكفر بمحمد ـ وكان أحبّ ولدها إليها ـ فأبى سعد وبقيت ثلاثة أيام كذلك، فجاء سعد إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وشكا إليه، فنزلت هذه الآية والتي في لقمان والتي في الأحقاف، فأمره رسول الله ـ ﷺ ـ أن يداريها ويترضاها بالإحسان (١١١٨). وروي أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي، وذلك أنه هاجر مع عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ مترافقين

١١١٨ ـ قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ٤٠ ـ ٤١) غريب وبهذا اللفظ وذكره الثعلبي في «تفسيره» والواحدي في «أسباب النزول» بلفظ المصنف سواء من غير سند ولا راو.
وينظر أسباب النزول للواحدي (ص ٣٥١).
والحديث أصله في صحيح مسلم (٤/ ١٨٧٧) كتاب فضائل الصحابة: حديث (٤٣ ـ ١٧٤٨/٤٤).
قال الحافظ في تخريج الكشاف: ذكره الواحدي والثعلبي والواقدي هكذا بغير سند والقصة في صحيح مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص بغير هذا السياق. انتهى.

---

(١) قوله «من الضح» في الصحاح «الضح»: الشمس. وفي الحديث: «لا يقعدن أحدكم بين الضح والظل، فإنه مقعد الشيطان» اهـ. (ع)

حتى نزلا المدينة، فخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام ـ أخواه لأمه أسماء بنت مخرمة: امرأة من بني تميم من بني حنظلة ـ فنزلا بعياش وقالا له: إن من دين محمد صلة الأرحام وبر الوالدين، وقد تركت أمّك لا تطعم ولا تشرب ولا تأوي بيتاً حتى تراك، وهي أشدّ حباً لك منا فاخرج معنا، وفتلا منه في الذروة والغارب[1] فاستشار عمر ـ رضي الله عنه ـ فقال: هما يخدعانك ٢/٨٣ب، ولك عليّ أن أقسم مالي بيني وبينك، فما زالا به حتى أطاعهما وعصى عمر، فقال له عمر: أما إذا عصيتني فخذ ناقتي، فليس في الدنيا بعير يلحقها، فإن رابك منهما ريب فارجع، فلما انتهوا إلى البيداء قال أبو جهل: إن ناقتي قد كلت فاحملني معك. قال: نعم، فنزل ليوطىء لنفسه وله، فأخذاه وشدّاه وثاقاً، وجلده كل واحد منهما مائة جلدة، وذهبا به إلى أمه فقالت: لا تزال في عذاب حتى ترجع عن دين محمد، فنزلت(١١١٩).

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ۝٩﴾

﴿فِي الصَّالِحِينَ﴾ في جملتهم. والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين، وهو متمنى أنبياء الله. قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩] وقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠] أو في مدخل الصالحين وهي الجنة، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [النساء: ٦٩] الآية.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَآءَ

١١١٩ ـ أخرجه ابن إسحاق في «سيرته» (٢/٩٣ ـ سيرة ابن هشام) ومن طريق ابن إسحاق أخرجه البزار (٢/٣٠٢ ـ ٣٠٤) من طريق نافع عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب به وقال البزار: لا نعلم رواه عن النبي ـ ﷺ ـ إلا عمر ولا نعلم روي متصلاً عن عمر إلا بهذا الإسناد.
والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/٥٨) وقال: رواه البزار ورجاله ثقات. اهـ.
قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: تقدم الكلام عليه في سورة النساء وهذا السياق أورده الثعلبي عن مقاتل وسنده إليه في أول كتابه وأخرجه ابن إسحاق في المغازي ومن طريقه البزار قال: حدثني نافع عن ابن عمر عن عمر مطولاً.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: تقدم الكلام عليه في سورة النساء وهذا السياق أورده الثعلبي عن مقاتل وسنده إليه في أول كتابه. وأخرجه ابن إسحاق في المغازي ومن طريقه البزار قال: حدثني نافع عن ابن عمر عن عمر مطولاً. انتهى.

---

(١) قوله «وفتلا منه في الذروة والغارب» في الصحاح: ما زال فلان يفتل من فلان في الذروة والغارب، أي: يدور من وراء خديعته. (ع)

نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾

هم ناس كانوا يؤمنون بألسنتهم، فإذا مسهم أذى من الكفار وهو المراد بفتنة الناس، كان ذلك صارفاً لهم عن الإيمان، كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر. أو كما يجب أن يكون عذاب الله صارفاً. وإذا نصر الله المؤمنين وغنمهم اعترضوهم وقالوا ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي مشايعين لكم في دينكم، ثابتين عليه ثباتكم، ما قدر أحد أن يفتننا، فأعطونا نصيبنا من المغنم. ثم أخبر سبحانه أنه أعلم ﴿بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من العالمين بما في صدورهم، ومن ذلك ما تكنّ صدور هؤلاء من النفاق، وهذا إطلاع منه للمؤمنين على ما أبطنوه، ثم وعد المؤمنين وأوعد المنافقين. وقرئ: ليقولنَ، بفتح اللام.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

أمروهم باتباع سبيلهم وهي طريقتهم التي كانوا عليها في دينهم، وأمروا أنفسهم بحمل خطاياهم فعطف الأمر على الأمر، وأرادوا: ليجتمع هذان الأمران في الحصول أن تتبعوا سبيلنا وأن نحمل خطاياكم. والمعنى: تعليق الحمل بالاتباع، وهذا قول صناديد قريش: كانوا يقولون لمن آمن منهم: لا نبعث نحن ولا أنتم، فإن عسى كان ذلك فإنا نتحمل عنكم الإثم. ونرى في المتسمين بالإسلام من يستنّ بأولئك يقول لصاحبه ـ إذا أراد أن يشجعه على ارتكاب بعض العظائم ـ: افعل هذا وإثمه في عنقي. وكم من مغرور بمثل هذا الضمان من ضعفة العامّة وجهلتهم ـ ومنه ما يحكى أنّ أبا جعفر المنصور رفع إليه بعض أهل الحشو حوائجه، فلما قضاها قال: يا أمير المؤمنين، بقيت الحاجة العظمى. قال: وما هي؟ قال شفاعتك يوم القيامة، فقال له عمرو بن عبيد رحمه الله: إياك وهؤلاء، فإنهم قطاع الطريق في المأمن(١). فإن قلت: كيف سماهم كاذبين، وإنما ضمنوا شيئاً

---

(١) قال محمود: «وبعض المتسمين بالإسلام إذا أراد أن يشجع صاحبه على ذنب قال له: افعل هذا وإثمه في عنقي. ومنه ما يحكى أن رجلاً رفع إلى المنصور حوائجه فلما قضاها، قال يا أمير المؤمنين، بقيت لي إليك حاجة هي العظمى. قال: وما هي؟ قال: شفاعتك في المحشر. فقال عمرو: يا أمير المؤمنين، إياك وهؤلاء فهم قطاع الطريق في المأمن» قال أحمد: عمرو بن عبيد أول القدرية المنكرين للشفاعة فاحذره، وليست الآية مطابقة للحكاية، ولكن الزمخشري يبني على أنه لا فرق بين اعتقاد الشفاعة واعتقاد أن الكفار يحملون خطايا أتباعهم، فلذلك ساقهما مساقاً واحداً نعوذ =

علم الله أنهم لا يقدرون على الوفاء به، وضامن ما لا يعلم اقتداره على الوفاء به، لا يسمى كاذباً لا حين ضمن ولا حين عجز، لأنه في الحالين لا يدخل تحت حدّ الكاذب وهو المخبر عن الشيء لا على ما هو عليه؟ قلت: شبه الله حالهم حيث علم أن ما ضمنوه لا طريق لهم إلى أن يفوا به، فكان ضمانهم عنده لا على ما عليه المضمون بالكاذبين الذين خبرهم لا على ما عليه المخبر، عنه. ويجوز أن يريد أنهم كاذبون، لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه، كالكاذبين الذين يعدون الشيء وفي قلوبهم نية الخلف ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أي أثقال أنفسهم ﴿وَأَثْقَالًا﴾ يعني أثقالاً أخر غير الخطايا التي ضمنوا للمؤمنين حملها، وهي أثقال الذين كانوا سبباً في ضلالهم ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ﴾ سؤال تقريع ﴿عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي يختلقون من الأكاذيب والأباطيل. وقرئ: من خطيئاتهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

كان عمر نوح عليه السلام ألفاً وخمسين سنة، بعث على رأس أربعين، ولبث في قومه تسعمائة وخمسين، وعاش بعد الطوفان ستين. وعن وهب: أنه عاش ألفاً وأربعمائة سنة. فإن قلت: هلا قيل تسعمائة وخمسين سنة؟ قلت: ما أورده الله أحكم. لأنه لو قيل كما قلت، لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره، وهذا التوهم زائل مع مجيئه كذلك، وكأنه قيل: تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد، إلا أنّ ذلك أخصر وأعذب لفظاً وأملأ بالفائدة[1]، وفيه نكتة أخرى: وهي أنّ القصة مسوقة لذكر ما ابتلي به نوح عليه السلام من أمّته وما كابده من طول المصابرة، تسلية لرسول الله ـ ﷺ ـ وتثبيتاً له، فكان ذكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه، أوقع وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع مدّة صبره ٢/ ١٨٤أ. فإن قلت: فلم جاء المميز أوّلاً بالسنة وثانياً بالعام؟ قلت: لأنّ تكرير اللفظ الواحد في الكلام الواحد حقيق بالاجتناب في البلاغة، إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض ينتحيه المتكلم من تفخيم أو تهويل[2] أو تنويه أو نحو ذلك. و﴿ٱلطُّوفَانُ﴾ ما أطاف

= بالله من ذلك. وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ نكتة حسنة يستدل بها على صحة مجيء الأمر بمعنى الخبر، فإن من الناس من أنكره والتزم تخريج جميع ما ورد في ذلك على أصل الأمر، ولم يتم له ذلك في هذه الآية، لأن الله تعالى أردف قولهم: ولنحمل خطاياكم، على صيغة الأمر بقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ والتكذيب إنما يتطرق إلى الأخبار.

(١) قال محمود: «عدل عن تسعمائة وخمسين لأنه يحتمل فيه إطلاق العدد على أكثره بخلاف مجيئه مع الاستثناء» قال أحمد: لأن الاستثناء استدراك ورجوع على الجملة بالتنقيص، تحريراً للعدد، فلا يحتمل المبالغة لأنها لا يجوز معها العدد.

(٢) عاد كلامه. قال: «وفيه نكتة أخرى» وهي أن القصة مسوقة لذكر ما ابتلي به نوح وكابده من طول =

وأحاط بكثرة وغلبة، من سيل أو ظلام ليل أو نحوهما؛ قال العجاج [من الرجز]:

.... وَغَـمَّ طُـوفَـانُ الـظَّـلاَمِ الأَثْـأَبَـا[1]

﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ كانوا ثمانية وسبعين نفساً: نصفهم ذكور، ونصفهم إناث، منهم أولاد نوح عليه السلام: سام، وحام، ويافث، ونساؤهم. وعن محمد بن إسحاق: كانوا عشرة. خمسة رجال وخمس نسوة. وقد روي عن النبيّ ﷺ «كانوا ثمانية: نوح وأهله وبنوه الثلاثة» (١١٢٠) والضمير في ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ للسفينة أو للحادثة والقصة.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾

نصب ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ بإضمار اذكر، وأبدل عنه ﴿إِذْ﴾ بدل الاشتمال؛ لأنّ الأحيان تشتمل على ما فيها. أو هو معطوف على (نوحا) وإذ ظرف لأرسلنا، يعني: أرسلناه حين بلغ من السنّ والعلم مبلغاً صلح فيه لأن يعظ قومه وينصحهم ويعرض عليهم الحق ويأمرهم بالعبادة والتقوى وقرأ إبراهيم النخعي وأبو حنيفة رحمهما الله. وإبراهيم، بالرفع على معنى: ومن المرسلين إبراهيم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: إن كان فيكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم. أو إن نظرتم بعين الدراية المبصرة دون عين الجهل العمياء:

١١٢٠ ـ تقدم تخريجه في سورة هود.

= المصابرة، تسلية له عليه السلام فكان ذكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه أوقع على الغرض. قال: وإنما خالف بين اللفظين فذكر في الأول السنة وفي الثاني العام، تجنبا للتكرار الذي لا يحمد إلا لقصد تفخيم أو تعظيم، قال أحمد: ولو فخم المستثنى لعاد ذلك ببعض تفخيم المستثنى منه وتكبيره عند السامع، والله أعلم.

(١) حـتـى إذا مـا يـومـهـا تـصـبـبـا وغـم طـوفـان الـظـلام الأثـأبـا

للعجاج يصف بقرة وحشية. وما: زائدة. ويروى: عم، بالمهملة وبالمعجمة، والمعنيان متقاربان. والطوفان: كل ما طاف حول الشيء وأحاط به من ظلام أو ماء أو نحوهما. والأثأب: نوع من الشجر يشبه شجر التين، الواحدة: أثأبة ونسبة التصبب لليوم: مجاز عقلي من باب الإسناد للزمان. أو على تقدير التمييز، أي: تصبب مطراً، وستر ظلامه الشجر الذي كانت فيه.

ينظر: ملحق ديوانه ٢/ ٢٦٨، ولسان العرب (صبب)، (طوف)، وتاج العروس (طوف)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٣/ ٤٣٢، والمخصص ٩/ ١٢٩، وديوان الأدب ٣/ ٣٨٦، وتهذيب اللغة ١٤/ ٣٣، وتاج العروس (أدى).

علمتم أنه خير لكم: وقرئ: تخلقون من خلق بمعنى التكثير في خلق. وتخلقون، من تخلق بمعنى تكذب وتخرص. وقرئ: إفكا، فيه وجهان: أن يكون مصدراً، نحو: كذب ولعب، والإفك: مخفف منه، كالكذب واللعب من أصلهما، وأن يكون صفة على فعل، أي خلقا إفكا، أي ذا إفك وباطل. واختلاقهم الإفك: تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء الله أو شفعاء إليه. أو سمى الأصنام: إفكا، وعملهم لها ونحتهم: خلقاً للإفك. فإن قلت: لم نكر الرزق ثم عرفه؟ قلت: لأنه أراد لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئاً من الرزق، فابتغوا عند الله الرزق كله. فإنه هو الرزاق وحده لا يرزق غيره ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وقرئ: بفتح التاء، فاستعدوا للقائه بعبادته والشكر له على أنعمه، وإن تكذبونني فلا تضرونني بتكذيبكم، فإنّ الرسل قبلي قد كذبتهم أممهم، وما ضرّوهم وإنما ضروا أنفسهم، حيث حلّ بهم ما حلّ بسبب تكذيب الرسل: وأما الرسول فقد تم أمره حين بلغ البلاغ المبين الذي زال معه الشكّ، وهو اقترانه بآيات الله ومعجزاته. أو: وإن كنت مكذباً فيما بينكم فلي في سائر الأنبياء أسوة وسلوة حيث كذبوا، وعلى الرسول أن يبلغ وما عليه أن يصدق ولا يكذب، وهذه الآية والآيات التي بعدها إلى قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ [العنكبوت: ٢٤] محتملة أن تكون من جملة قول إبراهيم صلوات الله عليه لقومه، وأن تكون آيات وقعت معترضة في شأن رسول الله ـ ﷺ ـ وشأن قريش بين أوّل قصة إبراهيم وآخرها. فإن قلت: إذا كانت من قول إبراهيم فما المراد بالأمم قبله؟ قلت: قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم، وكفى بقوم نوح أمّة في معنى أمم جمة مكذبة، ولقد عاش إدريس ألف سنة في قومه إلى أن رفع إلى السماء. وآمن به ألف إنسان منهم على عدد سنيه، وأعقابهم على التكذيب.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

فإن قلت: فما تصنع بقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾؟ قلت: هي حكاية كلام حكاه إبراهيم عليه السلام لقومه، كما يحكي رسولنا كلام الله على هذا المنهاج في أكثر القرآن فإن قلت: فإذا كانت خطاباً لقريش ما وجه توسطهما بين طرفي قصة إبراهيم والجملة أو الجمل الاعتراضية لا بد لها من اتصال بما وقعت معترضة فيه ألا تراك لا تقول: مكة ـ وزيد أبوه قائم ـ خير بلاد الله؟ قلت: إيراد قصة إبراهيم ليس إلا إرادة

للتنفيس عن رسول الله ـ ﷺ ـ، وأن تكون مسلاة له ومتفرجاً بأنّ أباه إبراهيم خليل الله كان ممنوّ بنحو ما مني[1] به من شرك قومه وعبادتهم الأوثان، فاعترض بقوله: وإن تكذبوا، على معنى إنكم يا معشر قريش إن تكذبوا محمداً فقد كذب إبراهيم قومه وكل أمة نبيها؛ لأن قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ لا بد من تناوله لأمّة إبراهيم، وهو كما ترى اعتراض واقع[2] متصل، ثم سائر الآيات الواطئة عقبها من أذيالها وتوابعها، لكونها ناطقة بالتوحيد ودلائله، وهدم الشرك وتوهين قواعده، وصفة ٢/ ٨٤ب قدرة الله وسلطانه، ووضوح حجته وبرهانه. وقرئ (يروا) بالياء والتاء. ويبدىء ويبدأ. وقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ ليس بمعطوف على يبدىء، وليست الرؤية واقعة عليه، وإنما هو إخبار على حياله بالإعادة بعد الموت، كما وقع النظر في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ على البدء دون الإنشاء، ونحوه قولك: ما زلت أوثر فلاناً وأستخلفه على من أخلفه[3]. فإن قلت: هو معطوف بحرف العطف، فلا بد له من معطوف عليه، فما هو؟ قلت: هو جملة قوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ وكذلك: وأستخلفه، معطوف على جملة قوله: ما زلت أوثر فلاناً ﴿ذَٰلِكَ﴾ يرجع إلى ما يرجع إليه هو في قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] من معنى يعيد. دل بقوله ﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ على أنهما نشأتان، وأن كل واحدة منهما إنشاء، أي: ابتداء واختراع، وإخراج من العدم إلى الوجود، لا تفاوت بينهما إلا أن الآخرة إنشاء بعد إنشاء مثله، والأولى ليست كذلك. وقرئ: النشأة والنشاءة، كالرأفة والرآفة. فإن قلت: ما معنى الإفصاح باسمه مع إيقاعه مبتدأ في قوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ بعد إضماره في قوله: كيف بدأ الخلق؟ وكان القياس أن يقال: كيف بدأ الله الخلق ثم ينشىء النشأة الآخرة؟ قلت: الكلام معهم كان واقعاً في الإعادة، وفيها كانت تصطك الركب، فلما قرّرهم في الإبداء بأنه من الله، احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء، فإذا كان الله الذي لا يعجزه شيء هو الذي لم يعجزه الإبداء، فهو الذي

---

(١) قوله «كان ممنوا بنحو ما مني به» أي: مبتلى. في الصحاح: منوته ومنيته، إذا ابتليته. (ع)

(٢) قوله «وهو كما ترى اعتراض واقع» لعله: واقع موقعه. (ع)

(٣) قال محمود: «يعيده ليس معطوفاً على يبدىء، وإنما هو إخبار على حياله، كما وقع ﴿كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة﴾ كقولك ما زلت أوثر فلاناً وأستخلفه بعدي» قال أحمد: وقد تقدم له عند قوله تعالى: ﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أنه معطوف، وصحح العطف ـ وإن كانوا ينكرون الإعادة ـ لأن الاعتراف بها لازم لهم، وقد أبى ههنا جعله معطوفاً، فالفرق والله أعلم أنه ههنا لو عطف الإعادة على البداءة لدخلت في الرؤية الماضية وهي لم تقع بعد، ولا كذلك في آية النمل، ولقائل أن يقول: هي وإن لم تقع، إلا أنها بإخبار الله تعالى بوقوعها كالواقعة المرئية، فعوملت معاملة ما رؤي وشوهد إلا أن جعله خبراً ثانياً أوضح، والله أعلم.

وجب أن لا تعجزه الإعادة[1]، فكأنه قال: ثم ذاك الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشيء النشأة الآخرة، فللدلالة والتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبه ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ رحمته، ومتعلق المشيئتين مفسر بين في مواضع من القرآن[2] وهو من يستوجبهما من الكافر والفاسق إذا لم يتوبا، ومن المعصوم والتائب ﴿تُقْلَبُونَ﴾ تردون وترجعون ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ربكم أي لا تفوتونه إن هربتم من حكمه وقضائه ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الفسيحة ﴿وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ التي هي أفسح منها وأبسط لو كنتم فيها، كقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ [الرحمن:٣٣]، وقيل: ولا من في السماء[3]؛ كما قال حسان ـ رضي الله عنه ـ [من الوافر]:

أَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ ... وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ؟[4]

ويحتمل أن يراد: لا تعجزونه كيفما هبطتم في مهاوي الأرض وأعماقها، أو علوتم في البروج والقلاع الذاهبة في السماء، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨] أو لا تعجزون أمره الجاري في السماء والأرض أن يجري عليكم، فيصيبكم ببلاء يظهر من الأرض أو ينزل من السماء.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بدلائله على وحدانيته وكتبه ومعجزاته ولقائه والبعث ﴿يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ وعيد، أي ييأسون يوم القيامة، كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الروم:١٢]. أو هو وصف لحالهم؛ لأنّ المؤمن إنما يكون راجياً خاشياً، فأما الكافر فلا يخطر بباله رجاء ولا خوف. أو شبه حالهم في انتفاء الرحمة عنهم بحال من يئس من الرحمة: وعن

---

(١) قال محمود: «إن قلت ما وجه الإفصاح باسمه تعالى مع النشأة الآخرة، بعد إضماره في البداءة أو لا؟ قلت: لأن النشأة الآخرة هي المقصودة وفيها كانت تصطك الركب، فكانت خليقة بإبراز اسمه تعالى تحقيقاً لنسبة الإعادة إلى من نسبت إليه الأولى» قال أحمد: والأصل الإظهار ثم الإضمار، ويليه لقصد التفخيم: الإظهار بعد الإظهار، ويليه وهو أفخم الثلاثة: الإظهار بعد الإضمار كما في الآية، والله أعلم.

(٢) قوله «ومتعلق المشيئتين مفسر مبين في مواضع من القرآن» تفسيره بما يأتي مبني على أنه تعالى يجب عليه تعذيب الكافر والفاسق إذا لم يتوبا وإثابة المعصوم والتائب، وهو مذهب المعتزلة. ولا يجب عليه تعالى شيء عند أهل السنة، فالمشيئة في الآية على إطلاقها. (ع)

(٣) قوله «وقيل ولا من في السماء» عبارة الخازن: ولا من في السماء بمعجز. (ع)

(٤) تقدم.

قتادة ـ رضي الله عنه ـ: إن الله ذمّ قوماً هانوا عليه فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي﴾ وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] فينبغي للمؤمن أن لا ييأس من روح الله ولا من رحمته، وأن لا يأمن عذابه وعقابه صفة المؤمن[١] أن يكون راجياً لله عز وجل خائفاً.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قرئ ﴿جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ بالنصب والرفع ﴿قَالُواْ﴾ قال بعضهم لبعض. أو قاله واحد منهم وكان الباقون راضين، فكانوا جميعا في حكم القائلين. وروي أنه لم ينتفع في ذلك اليوم بالنار، تعني: يوم ألقي إبراهيم في النار، وذلك لذهاب حرّها.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قرئ على النصب بغير إضافة وبإضافة، وعلى الرفع كذلك، فالنصب على وجهين: على التعليل، أي لتتوادّوا بينكم وتتواصلوا، لاجتماعكم على عبادتهم واتفاقكم عليها وائتلافكم، كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابهم وتصادقهم. وأن يكون مفعولاً ثانياً، كقوله: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣] أي اتخذتم الأوثان سبب المودّة بينكم، على تقدير حذف المضاف. أو اتخذتموها مودّة بينكم، بمعنى مودودة بينكم، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وفي الرفع وجهان: أن يكون خبراً لأنّ، على أن ما موصولة. وأن يكون خبر مبتدأ محذوف. والمعنى: أنّ الأوثان مودّة بينكم، أي: مودودة، أو سبب مودّة. وعن عاصم: مودّة بينكم: بفتح بينكم مع الإضافة، كما قرئ ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤] ففتح وهو فاعل ٢/ ١٨٥أ. وقرأ ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أوثاناً إنما مودّة بينكم في الحياة الدنيا، أي: إنما تتوادّون عليها، أو تودّونها في الحياة الدنيا ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يقوم بينكم التلاعن والتباغض والتعادي: يتلاعن العبدة، ويتلاعن العبدة والأصنام، كقوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢].

---

(١) قوله «صفة المؤمن» لعله: لأن صفة المؤمن... إلخ. (ع)

﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

كان لوط ابن أخت إبراهيم عليهما السلام، وهو أول من آمن له حين رأى النار لم تحرقه ﴿وَقَالَ﴾ يعني إبراهيم ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ من «كوثى» وهي من سواد الكوفة إلى «حرّان» ثم منها إلى فلسطين، ومن ثمة قالوا: لكل نبي هجرة ولإبراهيم هجرتان، وكان معه في هجرته: لوط، وامرأته سارة، وهاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة ﴿إِلَى رَبِّي﴾ إلى حيث أمرني بالهجرة إليه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي يمنعني من أعدائي ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يأمرني إلا بما هو مصلحتي.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿أَجْرَهُ﴾ الثناء الحسن، والصلاة عليه آخر الدهر والذرية الطيبة والنبوّة، وأن أهل الملل كلهم يتولونه. فإن قلت: ما بال إسماعيل عليه السلام لم يذكر، وذكر إسحاق وعقبه؟ قلت: قد دلّ عليه في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ وكفى الدليل لشهرة أمره وعلوّ قدره. فإن قلت: ما المراد بالكتاب؟ قلت: قصد به جنس الكتاب، حتى دخل تحته ما نزل على ذرّيته من الكتب الأربعة؛ التي هي التوراة والزبور والإنجيل والقرآن؟

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَلُوطًا﴾ معطوف على إبراهيم، أو على ما عطف عليه. و﴿الْفَاحِشَةَ﴾ الفعلة البالغة في القبح. و﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ جملة مستأنفة مقررة لفحاشة تلك الفعلة، كأن قائلاً قال: لم كانت فاحشة؟ فقيل له: لأن أحداً قبلهم لم يقدم عليها اشمئزازاً منها في طباعهم لإفراط قبحها، حتى أقدم عليها قوم لوط لخبث طينتهم وقذر طباعهم. قالوا: لم ينزُ ذكر على ذكر قبل قوم لوط قط. وقرئ: إنكم، بغير استفهام في الأوّل دون الثاني: قال أبو عبيدة: وجدته في الإمام بحرف واحد بغير ياء، ورأيت الثاني بحرفين الياء والنون وقطع السبيل: عمل قطاع الطريق، من قتل الأنفس وأخذ الأموال. وقيل: اعتراضهم السابلة بالفاحشة. وعن الحسن: قطع النسل بإتيان ما ليس بحرث. و﴿الْمُنكَرَ﴾ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ هو الحذف بالحصى، والرمي بالبنادق،

والفرقعة، ومضغ العلك، والسواك بين الناس، وحل الأزرار، والسباب، والفحش في المزاح. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كانوا يتحابقون[1]. وقيل السخرية بمن مرَّ بهم. وقيل: المجاهرة في ناديهم بذلك العمل، وكل معصية فإظهارها أقبح من سترها، ولذلك جاء: من خرق جلباب الحياء فلا غيبة له. ولا يقال للمجلس: ناد، إلا ما دام فيه أهله، فإذا قاموا عنه لم يبق نادياً ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما تعدنناه من نزول العذاب. كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه من المعاصي والفواحش طوعاً وكرهاً ولأنهم ابتدعوا الفاحشة وسنوها فيمن بعدهم، وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨] فأراد لوط عليه السلام أن يشتد غضب الله عليهم، فذكر لذلك صفة المفسدين في دعائه.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ هي البشارة بالولد. والنافلة: وهما إسحاق ويعقوب. وإضافة مهلكوا إضافة تخفيف لا تعريف. والمعنى الاستقبال. والقرية: سدوم التي قيل فيها: أجور من قاضي سدوم ﴿كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ معناه أنّ الظلم قد استمر منهم إيجاده في الأيام السالفة، وهم عليه مصرون، وظلمهم: كفرهم وألوان معاصيهم ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ ليس إخباراً لهم بكونه فيها، وإنما هو جدال في شأنه؛ لأنهم لما عللوا إهلاك أهلها بظلمهم: اعترض عليهم بأن فيها من هوى بريء من الظلم، وأراد بالجدال: إظهار الشفقة عليهم. وما يجب للمؤمن من التحزن لأخيه، والتشمر في نصرته وحياطته، والخوف من أن يمسه أذى أو يلحقه ضرر. قال قتادة: لا يرى المؤمن ألا يحوط المؤمن، ألا ترى إلى جوابهم بأنهم أعلم منه ﴿بِمَن فِيهَا﴾ يعنون: نحن أعلم منك وأخبر بحال لوط وحال قومه، وامتيازه منهم الامتياز البين، وأنه لا يستأهل ما يستأهلون، فخفض على نفسك وهوّن عليك الخطب. وقرئ: (لننجينه) بالتشديد والتخفيف، وكذلك منجوك.

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا [illegible] ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ

---

(1) قوله «كانوا يتحابقون» في الصحاح «الحبق» بالكسر: الردام. وفيه أيضاً «الردام» بالضم: الحبق اهـ، وهو دور فلينظر حله، ثم رأيت فيه في مادة «ضرط» الضراط: الردام، وقد ضرط يضرط ضرطاً بكسر الراء، مثال: حبق يحبق حبقاً اهـ. فالتحابق: المضارطة، كما عبر النسفي. (ع)

﴿مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ ٢/ ٨٥ب

﴿أَن﴾ صلة أكدت وجود الفعلين مترتباً أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما؛ كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان، كأنه قيل: كماأحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث[1]، خيفة عليهم من قومه ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ وضاق بشأنهم وبتدبير أمرهم ذرعه أي طاقته، وقد جعلت العرب ضيق الذراع والذرع: عبارة عن فقد الطاقة، كما قالوا: رحب الذراع بكذا، إذا كان مطيقاً له، والأصل فيه أنّ الرجل إذا طالت ذراعه نال ما لا يناله القصير الذراع، فضرب ذلك مثلاً في العجز والقدرة.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

الرجز والرجس: العذاب، من قولهم: ارتجز وارتجس إذا اضطرب، لما يلحق المعذب من القلق والاضطراب. وقرئ: ﴿مُنزِلُونَ﴾ مخففاً ومشدّداً ﴿مِنْهَآ﴾ من القرية ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ هي آثار منازلهم الخربة. وقيل: بقية الحجارة. وقيل: الماء الأسود على وجه الأرض. وقيل: الخبر عما صنع بهم ﴿لِّقَوْمٍ﴾ متعلق بتركنا أو ببينة.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَٱرْجُوا۟﴾ وافعلوا ما ترجون به العاقبة. فأقيم المسبب مقام السبب. أو أمروا بالرجاء: والمراد: اشتراط ما يسوّغه من الإيمان، كما يؤمر الكافر بالشرعيات على إرادة الشرط. وقيل: هو من الرجاء بمعنى الخوف. والرجفة: الزلزلة الشديدة. وعن الضحاك: صيحة جبريل عليه السلام؛ لأنّ القلوب رجفت لها ﴿فِى دَارِهِمْ﴾ في بلدهم وأرضهم. أو في ديارهم، فاكتفى بالواحد لأنه لا يلبس ﴿جَـٰثِمِينَ﴾ باركين على الركب ميتين.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَعَادًا﴾ منصوب بإضمار «أهلكنا» لأن قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ يدل عليه، لأنه في معنى الإهلاك ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ ذلك: يعني ما وصفه من إهلاكهم ﴿مِّن﴾ جهة

(١) قوله «من غير ريث» أي بطء. (ع)

﴿مُسْتَكِنِهِمْ﴾ إذا نظرتم إليها عند مروركم بها. وكان أهل مكة يمرون عليها في أسفارهم فيبصرونها ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ عقلاء متمكنين من النظر والافتكار، ولكنهم لم يفعلوا. أو كانوا متبينين أن العذاب نازل بهم لأن الله تعالى قد بين لهم على ألسنة الرسل عليهم السلام، ولكنهم لجوا حتى هلكوا.

﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿سَابِقِينَ﴾ فائتين: أدركهم أمر الله فلم يفوتوه.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

الحاصب: لقوم لوط، وهي ريح عاصف فيها حصباء. وقيل: ملك كان يرميهم. والصيحة: لمدين وثمود. والخسف: لقارون. والغرق: لقوم نوح وفرعون.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

الغرض تشبيه ما اتخذوه متكلاً ومتعمداً في دينهم وتولوه من دون الله، بما هو مثل عند الناس في الوهن وضعف القوّة. وهو نسج العنكبوت. ألا ترى إلى مقطع التشبيه وهو قوله: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾؟ فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وكل أحد يعلم وهن بيت العنكبوت؟ قلت: معناه لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن. ووجه آخر: وهو أنه إذا صحّ تشبيه ما اعتمدوه في دينهم ببيت العنكبوت، وقد صح أن أوهن البيوت بيت العنكبوت، فقد تبين أن دينهم أوهن الأديان لو كان يعلمون. أو أخرج الكلام بعد تصحيح التشبيه مخرج المجاز، فكأنه قال: وإن أوهن ما يعتمد عليه في الدين عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون. ولقائل أن يقول: مثل المشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله، مثل عنكبوت يتخذ بيتاً، بالإضافة إلى رجل يبني بيتاً بآجر وجص أو ينحته من صخر، وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت، كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً عبادة الأوثان لو كان يعلمون. قرئ: تدعون، بالتاء والياء. وهذا توكيد للمثل وزيادة

عليه، حيث لم يجعل ما يدعونه شيئاً ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فيه تجهيل لهم حيث عبدوا ما ليس بشيء؛ لأنه جماد ليس معه مصحح العلم والقدرة أصلاً، وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شيء، الحكيم الذي لا يفعل شيئاً إلا بحكمة وتدبير.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

كان الجهلة والسفهاء من قريش يقولون إنّ ربّ محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت، ويضحكون من ذلك، فلذلك قال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي لا يعقل صحتها وحسنها وفائدتها إلا هم، لأنّ الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المحتجبة في الأستار حتى تبرزها وتكشف عنها وتصوّرها للأفهام، كما صوّر هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال ٢/٨٦أ الموحد وعن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية فقال: «العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه» (١١٢١).

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾

١١٢١ ـ أخرجه داود بن المحبر في «كتاب العقل» كما في «تخريج الزيلعي» (٣/ ٤٣) حدثنا عباد بن كثير عن ابن جريج عن عطاء وأبي الزبير عن جابر به.

وعنه الحارث بن أبي أسامة كما في «المطالب العالية» (٣/ ٢١٤) رقم (٣٢٩٤). ومن طريقهما أخرجه أيضاً الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٢٠).

ورواه ابن حجر قال الحافظ: متروك أكثر كتاب العقل الذي صنفه موضوعات. ينظر التقريب (١/ ٣٢٤).

قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ٤٣).

وذكره ابن الجوزي في الموضوعات، ونقل عن الدارقطني أنه قال: كتاب العقل وضعه أربعة: أولهم ميسرة بن عبد ربه، ثم سرقه داود بن المحبر منه، فركبه بأسانيد غير أسانيد ميسرة، وسرقه عبد العزيز بن أبي رجاء، فركبه بأسانيد أخر، ثم سرقه سليمان بن عيسى السجزي؛ فأتى بأسانيد أخر. انتهى.

وقال الشيخ شرف الدين الدمياطي: روي من طريق داود بن المحبر، ثنا هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: أسقطت سقطاً، فسماه عبد الله، وكناني بأم عبد الله، داود بن المحبر قال فيه أحمد: شبه لا شيء لا يدري ما الحديث، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال ابن معين: ليس بكذاب، ولكنه جفا الحديث وتعبد فلما كبر؛ كثر خطؤه وتصحيفه إلا أنه ثقة، وقال ابن عدي له كتاب في العقل، فيه أحاديث منكرة، وله خارج كتاب العقل أحاديث صالحة ويشبه أن يكون الأمر فيه كما قال ابن معين: وهو في الأصل صدوق. انتهى كلامه.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه داود بن المحبر في كتاب العقل والحارث بن أبي أسامة في مسنده عنه من حديث جابر، وأخرجه من طريق الحارث الثعلبي والواحدي: والبغوي، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات. انتهى.

﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالغرض الصحيح[1] الذي هو حق لا باطل، وهو أن تكونا مساكن عباده وعبرة للمعتبرين منهم، ودلائل على عظم قدرته: ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ونحوه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ [ص:٢٧] ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

الصلاة تكون لطفاً في ترك المعاصي، فكأنها ناهية عنها. فإن قلت: كم من مصل يرتكب ولا تنهاه صلاته؟ قلت الصلاة التي هي الصلاة عند الله المستحق بها الثواب: أن يدخل فيها مقدّماً للتوبة النصوح، متقياً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ويصليها خاشعاً بالقلب والجوارح، فقد روي عن حاتم: كأنّ رجلي على الصراط والجنة عن يميني والنار عن يساري وملك الموت من فوقي، وأصلي بين الخوف والرجاء؛ ثم يحوطها بعد أن يصليها فلا يحبطها، فهي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله إلا بعداً (١١٢٢). وعن الحسن رحمه الله: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء

١١٢٢ ـ أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٥٤) رقم (١١٠٢٥) وابن أبي حاتم في «تفسيره» كما في «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤١٤) من طريق ليث عن طاوس عن ابن عباس مرفوعاً.
وليث هو ابن أبي سليم صدوق اختلط أخيراً ولم يتميز حديثه فترك كما قال الحافظ. والحديث ذكره العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ١٤٣): إسناده لين.
وقد ورد هذا الحديث موقوفاً على ابن عباس أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٤٤). وفي إسناده رجل لم يسم. وللحديث شاهد من حديث ابن عمر.
أخرجه الدارقطني في «غرائب مالك» كما عند الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ٤٤) من طريق محمد بن الحسن الأزدي المصري ثنا مالك عن نافع عن ابن عمر مرفوعاً.
وقال الدارقطني: هذا باطل لا أصل له ومحمد بن الحسن مجهول. وله شاهد موقوف عن ابن مسعود.
أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ١٥٩). وله شاهد أيضا من مراسيل الحسن.
أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٩٢) والبيهقي في «شعب الإيمان» كما في «تخريج الزيلعي» (٣/ =

---

(١) قال محمود: «أي بالغرض الصحيح» قال أحمد: لفظة قدرية ومعتقد رديء قد تقدم إنكاره على القدرية، ولو كان ما قالوه حقاً من حيث المعنى، لوجب اجتناب هذه العبارة التي لا تليق بالأدب. والله سبحانه وتعالى أعلم.

والمنكر، فليست صلاته بصلاة، وهي وبال عليه. وقيل: من كان مراعياً للصلاة جرّه ذلك إلى أن ينتهي عن السيئات يوماً مّا، فقد روي أنه قيل لرسول الله ـ ﷺ ـ إنّ فلاناً يصلي بالنهار ويسرق بالليل، فقال: «إنّ صلاته لتردعه» (١١٢٣). وروي أنّ فتى من الأنصار كان يصلي معه الصلوات، ولا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبه، فوصف له فقال: «إن صلاته ستنهاه» فلم يلبث أن تاب (١١٢٤). وعلى كل حال إنّ المراعي للصلاة لا بدّ أن يكون أبعد من الفحشاء والمنكر ممن لا يراعيها. وأيضاً فكم من مصلين تنهاهم الصلاة عن

= ٤٥) وقد ورد عن الحسن أيضاً من قوله.

أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٢٦٤) والطبري (٢٠/ ٩٢).

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الطبراني من رواية العلاء بن المسيب عمن ذكره عن ابن عباس بهذا موقوفاً. ورواه الطبراني وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق ليث عن عطاء عن ابن عباس مرفوعاً، وفي الباب عن ابن عمر. أخرجه الدارقطني في غرائب مالك. وفي إسناده محمد بن الحسن. قال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به. يروي عن مالك ما لا أصل له. وأخرجه أحمد في الزهد من قول ابن مسعود. وأخرجه عبد الرزاق والطبري والبيهقي في الشعب من مرسل الحسن. انتهى.

١١٢٣ ـ أخرجه أحمد (٢/ ٤٧) وابن حبان (٦٣٩ ـ موارد) والبزار (٧٢٠ ـ كشف) والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢/ ٤٣٠) كلهم من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً. وصححه ابن حبان.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٦١) وقال: رواه أحمد والبزار ورجاله رجال الصحيح .اهـ.

وأخرجه أيضاً إسحاق بن راهويه وأبو يعلى والبيهقي في «شعب الإيمان» كما في «تخريج الزيلعي» (٣/ ٤٥ ـ ٤٦). وللحديث شاهد من حديث جابر.

أخرجه البزار (٧٢١ ـ كشف) ثنا محمد بن موسى الحرشي ثنا زياد بن عبد الله عن الأعمش عن أبي صالح عن جابر به.

وقال البزار: وقد اختلفوا في إسناده فرواه غير واحد عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ورواه بعضهم عن الأعمش عن أبي صالح عن جابر وبعضهم يرويه عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر .اهـ.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٦١) وقال رواه البزار ورجاله ثقات.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه أحمد وإسحاق وابن حبان والبزار وأبو يعلى من طريق عيسى بن يونس ووكيع ومجاهد عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة. قال: جاء رجل إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق. فقال: إن صلاته ستنهاه، ورواه البزار من طريق زياد البكائي، وأبو يعلى من طريق أبي إسحاق الفزاري كلاهما عن الأعمش عن أبي صالح عن جابر. قال البزار: اختلف فيه عن الأعمش فقيل عنه أيضاً عن أبي سفيان عن جابر. انتهى.

١١٢٤ ـ ذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ٤٦) وقال غريب.

وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده.

الفحشاء والمنكر واللفظ لا يقتضي أن لا يخرج واحد من المصلين عن قضيتها، كما تقول: إنّ زيداً ينهى عن المنكر فليس غرضك أنه ينهى عن جميع المناكير، وإنما تريد أنّ هذه الخصلة موجودة فيه وحاصلة منه من غير اقتضاء للعموم ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ يريد: وللصلاة أكبر من غيرها من الطاعات، وسماها بذكر الله كما قال: ﴿فَٱسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] وإنما قال: ولذكر الله: ليستقلّ بالتعليل، كأنه قال: وللصلاة أكبر، لأنها ذكر الله، أو ولذكر الله عند الفحشاء والمنكر وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما أكبر، فكان أولى بأن ينهى من اللطف الذي في الصلاة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من الخير والطاعة، فيثيبكم أحسن الثواب.

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ بالخصلة التي هي أحسن: وهي مقابلة الخشونة باللين، والغضب بالكظم. والسورة بالأناة، كما قال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ فأفرطوا في الاعتداء والعناد ولم يقبلوا النصح ولم ينفع فيهم الرفق، فاستعملوا معهم الغلظة، وقيل: إلا الذين آذوا رسول الله ـ ﷺ ـ. وقيل: إلا الذين أثبتوا الولد والشريك وقالوا يد الله مغلولة. وقيل: معناه ولا تجادلوا الداخلين في الذمّة المؤدّين للجزية إلا بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا فنبذوا الذمّة ومنعوا الجزية، فإن أولئك مجادلتهم بالسيف. وعن قتادة: الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ١٩] ولا مجادلة أشدّ من السيف: وقوله: ﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ من جنس المجادلة بالتي هي أحسن. وعن النبي ﷺ: ما حدّثكم أهل الكتاب فلا تصدّقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان باطلاً لم تصدّقوهم، وإن كان حقاً لم تكذبوهم (١١٢٥).

١١٢٥ ـ أخرجه أبو داود (٣/٣١٨) كتاب العلم: باب رواية حديث أهل الكتاب حديث (٣٦٤٤) وأحمد (٤/١٣٦) وابن حبان (١١٠ ـ موارد) وإسحاق بن راهويه وأبو يعلى والطبراني كما في «تخريج الزيلعي» (٣/٤٧) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٢٠٦) كلهم من طريق نملة بن أبي نملة الأنصاري عن أبي نملة الأنصاري به وقال ابن القطان في «الوهم والإيهام» كما في «تخريج الكشاف» (٣/٤٧): ومثل هذا الحديث ليس بصحيح فإن نملة بن أبي نملة مجهول الحال ولا يعرف بغير هذا الحديث ولا روى عنه غير الزهري وأبوه أبو نملة معروف في الصحابة واسمه عماد بن معاذ بن زرارة شهد بدراً مع أبيه معاذ ثم المشاهد كلها وتوفي في خلافة عبد الملك بن =

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾

ومثل ذلك الإنزال ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي أنزلناه مصدّقاً لسائر الكتب السماوية تحقيقاً لقوله ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ وقيل: كما أنزلنا الكتب إلى من كان قبلك أنزلنا إليك الكتاب ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هم عبد الله بن سلام ومن آمن معه ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ من أهل مكة. وقيل: أراد بالذين أوتوا الكتاب الذين تقدموا عهد رسول الله - ﷺ - من أهل الكتاب. ومن هؤلاء ممن في عهده منهم ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مع ظهورها وزوال الشبهة عنها، إلا المتوغلون في الكفر المصممون عليه. وقيل: هم كعب بن الأشرف وأصحابه.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

وأنت أميّ ما عرفك أحد قط بتلاوة كتاب ولا خط ﴿إِذًا﴾ لو كان شيء من ذلك، أي، من التلاوة والخط ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ من أهل الكتاب وقالوا: الذي نجده في كتبنا أمي لا يكتب ولا يقرأ وليس به، أو لارتاب مشركو مكة وقالوا: لعله تعلمه أو كتبه بيده. فإن قلت ٨٦/٢ب: لم سماهم مبطلين، ولو لم يكن أمّياً وقالوا: ليس بالذي نجده في كتبنا لكانوا صادقين محقين؟ ولكان أهل مكة أيضاً على حق في قولهم لعله تعلمه أو كتبه فإنه رجل قارىء كاتب؟ قلت: سماهم مبطلين لأنهم كفروا به وهو أميّ بعيد من الريب، فكأنه قال: هؤلاء المبطلون في كفرهم به لو لم يكن أمّياً لارتابوا أشدّ الريب، فحين ليس[1]

= مروان رحمهما الله . اهـ.

وللحديث شاهد من حديث عامر بن ربيعة.
أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (٤٧/٣) من طريق بقية بن الوليد عن محمد بن الوليد عن الزبيري عن الزهري عن سالم عن ابن عمر عن عامر بن ربيعة به.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه أبو داود، وابن حبان وأحمد وإسحاق وابن أبي شيبة وأبو يعلى والطبراني، من طرق الزهري أخبرني ابن أبي نملة الأنصاري أن أباه أبا نملة الأنصاري أخبره. قال: «بينا هو عند رسول الله - ﷺ - جالس فذكر قصة هذا فيها»، هذا هو المعروف في إسناد هذا الحديث، وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين من رواية بقية عن الزبير عن الزهري عن سالم عن أبيه عن عامر بن ربيعة به. وأصل الحديث في البخاري من حديث أبي هريرة باختصار. انتهى.

---

(١) قوله «فحين ليس» لعله فحين كان ليس. (ع)

بقارىء كاتب فلا وجه لارتيابهم. وشيء آخر: وهو أن سائر الأنبياء عليهم السلام لم يكونوا أمّيين، ووجب الإيمان بهم وبما جاءوا به، لكونهم مصدقين من جهة الحكيم بالمعجزات، فهب أنه قارىء كاتب فما لهم لم يؤمنوا به من الوجه الذي آمنوا منه بموسى وعيسى عليهما السلام؟ على أن المنزلين[1] ليسا بمعجزين، وهذا المنزل معجز، فإذاً هم مبطلون حيث لم يؤمنوا به وهو أمي، ومبطلون لو لم يؤمنوا به وهو غير أمي. فإن قلت: ما فائدة قوله بيمينك؟ قلت: ذكر اليمين وهي الجارحة التي يزاول بها الخط: زيادة تصوير لما نفي عنه من كونه كاتباً. ألا ترى أنك إذا قلت في الإثبات؛ رأيت الأمير يخط هذا الكتاب بيمينه، كان أشد لإثباتك أنه تولى كتبته، فكذلك للنفي ﴿بَلْ﴾ القرآن ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ﴾ العلماء به وحفاظه، وهما من خصائص القرآن: كون آياته بينات الإعجاز، وكونه محفوظاً في الصدور يتلوه أكثر الأمة ظاهراً؛ بخلاف سائر الكتب، فإنها لم تكن معجزات، وما كانت تقرأ إلا من المصاحف. ومنه ما جاء في صفة هذه الأمة «صدورهم أناجيلهم» (١١٢٦)، ﴿وَمَا يَجْحَدُ﴾ بآيات الله الواضحة، إلا المتوغلون في الظلم المكابرون.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قرئ: آية، وآيات. أرادوا: هلا أنزل عليه آية مثل ناقة صالح ومائدة عيسى عليهما السلام ونحو ذلك ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ينزل أيتها شاء، ولو شاء أن ينزل ما تقترحونه

١١٢٦ ـ أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠/١٠٩ ـ ١١٠) رقم (١٠٠٤٦) من طريق إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «صفتي أحمد المتوكل ليس بفظ ولا غليظ يجزي بالحسنة الحسنة ولا يكافي السيئة مولده بمكة ومهاجره طيبة وأمته الحمادون يأتزرون على أنصافهم ويوصون أطرافهم أناجيلهم في صدورهم...».
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٧٤) وقال: رواه الطبراني في «الكبير» وفيه من لم أعرفهم.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الطبراني من رواية سنان بن الحارث عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود مرفوعاً في أثناء حديث، وروى الواقدي في الردة عن إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة عن أبيه، أن يهودياً من أهل سبأ يقال له نعمان، وكان أعلم أحبار يهود فذكر قصة فيها صفة النبي ـ ﷺ ـ في سفر عندهم مختوم وفيه هذا.

---

(١) قوله «على أن المنزلين ليسا بمعجزين» لعله: المنزلين عليهما. (ع)

لفعل ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾ كلفت الإنذار وإبانته بما أعطيت من الآيات، وليس لي أن أتخير على الله آياته فأقول: أنزل عليّ آية كذا دون آية كذا، مع علمي أنّ الغرض من الآية ثبوت الدلالة، والآيات كلها في حكم آية واحدة في ذلك، ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾آية مغنية عن سائر الآيات ـ إن كانوا طالبين للحق غير متعنتين ـ هذا القرآن الذي تدوم تلاوته عليهم في كل مكان وزمان فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحلّ، كما تزول كل آية بعد كونها، وتكون في مكان دون مكان. إنّ في مثل هذه الآية الموجودة في كل مكان وزمان إلى آخر الدهر ﴿لَرَحْمَةً﴾ لنعمة عظيمة لا تشكر. وتذكرة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وقيل: أولم يكفهم، يعني اليهود: أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم بتحقيق ما في أيديهم من نعتك ونعت دينك. وقيل: إنّ ناساً من المسلمين أتوا رسول الله ـ ﷺ ـ بكتف قد كتبوا فيها بعض ما يقول اليهود، فلما أن نظر إليها ألقاها وقال: كفى بها حماقة قوم أو ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إلى ما جاءهم به غير نبيهم، فنزلت (١١٢٧). والوجه ما ذكرناه ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أني قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم وأنذرتكم، وأنكم قابلتموني بالجحد والتكذيب ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو مطلع على أمري وأمركم، وعالم بحقي وباطلكم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ منكم وهو ما تعبدون من دون الله ﴿وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ وآياته ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ المغبونون في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان، إلا أن الكلام ورد مورد الإنصاف؛ كقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، وكقول حسان [من الوافر]:

. . . . فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ[1]

وروي أنّ كعب بن الأشرف وأصحابه قالوا: يا محمد، من يشهد لك بأنك رسول الله، فنزلت.

١١٢٧ ـ أخرجه ابن جرير الطبري (١٠/ ١٥٤) حديث (٢٧٨٣٨) وأبو داود في المراسيل (ص ٣٢٠) باب ما جاء في العلم، حديث برقم (٤٥٤)، والدارمي في سننه (١/ ١٢٤): باب من لم ير كتابة الحديث. وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٨٠٠) باب في مطالعة كتب أهل الكتاب والرواية عنهم حديث (١٤٨٥).

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٢٨٣) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم والإسماعيلي وابن مردويه.

قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف: أخرجه الطبري وأبو داود في المراسيل من طريق يحيى بن جعدة، أن النبي ـ ﷺ ـ أتاه قوم من المسلمين بكتاب في كتف، فذكر نحوه ولفظ الطبري كالأصل. انتهى.

---

(١) تقدم.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

كان استعجال العذاب استهزاء منهم وتكذيباً، والنضر بن الحارث هو الذي قال: اللهم أمطر علينا حجارة من السماء، كما قال أصحاب الأيكة: فأسقط علينا كسفاً من السماء ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ﴾ قد سماه الله وبينه في اللوح لعذابهم، وأوجبت الحكمة تأخيره إلى ذلك الأجل المسمى ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ عاجلاً، والمراد بالأجل: الآخرة، لما روي أنّ الله تعالى وعد رسول الله ـ ﷺ ـ أن لا يعذب قومه ولا يستأصلهم، وأن يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة (١١٢٨). وقيل: يوم بدر. وقيل: وقت فنائهم بآجالهم ﴿لَمُحِيطَةٌ﴾ أي ستحيط بهم ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ أو هي محيطة بهم في الدنيا؛ لأنّ المعاصي التي توجبها محيطة بهم. أو لأنها مآلهم ومرجعهم لا محالة فكأنها الساعة محيطة بهم. و(يوم يغشاهم) على هذا منصوب بمضمر، أي: يوم يغشاهم العذاب كان كيت وكيت. ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، ﴿وَنَقُولُ﴾ وقرئ بالنون والياء ﴿مَا كُنتُمْ﴾/ ٢/ ٨٧أ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ أي جزاءه.

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

معنى الآية: أنّ المؤمن إذا لم يتسهل له العبادة في بلد هو فيه ولم يتمش له أمر دينه كما يحب فليهاجر عنه إلى بلد يقدّر أنه فيه أسلم قلباً وأصح ديناً وأكثر عبادة وأحسن خشوعاً. ولعمري إن البقاع تتفاوت في ذلك التفاوت الكثير، ولقد جرّبنا وجرّب أوّلونا، فلم نجد فيما درنا وداروا: أعون على قهر النفس وعصيان الشهوة وأجمع للقلب المتلفت وأضم للهم المنتشر وأحث على القناعة وأطرد للشيطان وأبعد من كثير من الفتن وأضبط للأمر الديني في الجملة ـ من سكنى حرم الله وجوار بيت الله، فللّه الحمد على ما سهل من ذلك وقرب، ورزق من الصبر وأوزع من الشكر. وعن النبي ﷺ «من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض؛ استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم ومحمد»

١١٢٨ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٤٩): غريب قال الحافظ ابن حجر: لم أجده.
ويخالفه ما رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٥٤): كتاب الفتن، من حديث أبي بردة عن أبيه عن أبي موسى. قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن أمتي أمة مرحومة ليس عليها في الآخرة عذاب، إنما عذابها في الدنيا الزلازل والقتل، والبلاء» وأحمد في المسند (٤/ ٤١٠)، والبخاري في تاريخه الكبير (١/ ٣٨).

(١١٢٩)، وقيل: هي في المستضعفين بمكة الذين نزل فيهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧] وإنما كان ذلك لأنّ أمر دينهم ما كان يستتب لهم بين ظهراني الكفرة ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ في المتكلم، نحو: إياه ضربته، في الغائب وإياك عضتك، في المخاطب. والتقدير: فإياي فاعبدوا: فاعبدون، فإن قلت: ما معنى الفاء في (فاعبدون) وتقديم المفعول؟ قلت: الفاء جواب شرط محذوف؛ لأنّ المعنى: إن أرضي واسعة فإن لم تخلصوا العبادة لي في أرض فأخلصوها لي في غيرها، ثم حذف الشرط وعوّض من حذفه تقديم المفعول، مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾

لما أمر عباده بالحرص على العبادة وصدق الاهتمام بها حتى يتطلبوا لها أوفق البلاد وإن شسعت[١]، أتبعه قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي واجدة مرارته وكربه كما يجد الذائق طعم المذوق. ومعناه: إنكم ميتون فواصلون إلى الجزاء، ومن كانت هذه عاقبته لم يكن له من التزود لها والاستعداد بجهده.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ لننزلنهم ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ علالي. وقرئ: لنثوينهم، من الثواء وهو النزول للإقامة. يقال: ثوى في المنزل، وأثوى هو، وأثوى غيره وثوى: غير متعد، فإذا تعدى بزيادة همزة النقل لم يتجاوز مفعولاً واحداً، نحو: ذهب، وأذهبته. والوجه في تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى الغرف: إمّا إجراؤه مجرى لننزلنهم ونبوئنهم. أو حذف الجار وإيصال الفعل: أو تشبيه الظرف المؤقت[٢] بالمبهم. وقرأ يحيى بن وثاب: فنعم، بزيادة الفاء ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على مفارقة الأوطان والهجرة لأجل الدين. وعلى أذى المشركين، وعلى المحن والمصائب، وعلى الطاعات، وعن المعاصي، ولم يتوكلوا في جميع ذلك إلا على الله.

١١٢٩ ـ تقدم في سورة النساء.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي من مرسل الحسن وقد تقدم في النساء. انتهى.

---

(١) قوله «أوفق البلاد وإن شعست» أي بعدت. (ع)
(٢) قوله «الظرف المؤقت» أي المحدد، وهو الغرف. (ع)

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠)﴾

لما أمر رسول الله ـ ﷺ ـ من أسلم بمكة بالهجرة، خافوا الفقر والضيعة، فكان يقول الرجل منهم: كيف أقدم بلدة ليست لي فيها معيشة، فنزلت. والدابة: كل نفس دبت على وجه الأرض، عقلت أو لم تعقل. ﴿تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي لا يرزق تلك الدواب الضعاف إلا الله، ولا يرزقكم أيضاً أيها الأقوياء إلا هو وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها، لأنه لو لم يقدركم ولم يقدّر لكم أسباب الكسب، لكنتم أعجز من الدواب التي لا تحمل، وعن الحسن ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لا تدّخره، إنما تصبح فيرزقها الله. وعن ابن عيينة: ليس شيء يخبأ إلا الإنسان والنملة والفأرة. وعن بعضهم: رأيت البلبل يحتكر في حضنيه. ويقال: للعقعق مخابىء إلا أنه ينساها ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لقولكم: نخشى الفقر والضيعة ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما في ضمائركم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١)﴾

الضمير في ﴿سَأَلْتَهُم﴾ لأهل مكة ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ فكيف يصرفون عن توحيد الله وأن لا يشركوا به، مع إقرارهم بأنه خالق السموات والأرض.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢)﴾

قدر الرزق وقتره بمعنى إذا ضيقه. فإن قلت: الذي رجع إليه الضمير في قوله: ﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ هو من يشاء، فكأن بسط الرزق وقدره جعلا لواحد. قلت: يحتمل الوجهين جميعاً: أن يريد ويقدر لمن يشاء، فوضع الضمير موضع من يشاء، لأن (من يشاء) مبهم غير معين، فكان الضمير مبهماً مثله، وأن يريد تعاقب الأمرين على واحد على حسب المصلحة ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣)﴾

استحمد رسول الله ـ ﷺ ـ على أنه ممن أقر بنحو ما أقروا به؛ ثم نفعه ذلك في توحيد الله ونفي الأنداد والشركاء عنه، ولم يكن إقراراً عاطلاً كإقرار المشركين؛ وعلى أنهم أقروا بما هو حجة عليهم حيث نسبوا النعمة إلى الله وقد جعلوا العبادة للصنم، ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ما يقولون وما فيه من الدلالة على بطلان الشرك وصحة التوحيد. أو لا يعقلون ما تريد/ ٢/ ٨٧ب بقولك الحمد لله، ولا يفطنون لم حمدت الله عند مقالتهم؟

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿هَٰذِهِ﴾ فيها ازدراء للدنيا وتصغير لأمرها، وكيف لا يصغرها وهي لا تزن عنده جناح بعوضه. يريد: ما هي ـ لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها ـ إلا كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة خالدة لا موت[1] فيها، فكأنها في ذاتها حياة. والحيوان: مصدر حي، وقياسه حييان، فقلبت الياء الثانية واواً، كما قالوا: حيوة، في اسم رجل، وبه سمى ما فيه حياة: حيواناً. قالوا: اشتر من الموتان، ولا تشتر من الحيوان[2]. وفي بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة، وهي ما في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب، كالنزوان والنغصان واللهبان[3]، وما أشبه ذلك. والحياة: حركة، كما أن الموت سكون، فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة، مبالغة في معنى الحياة، ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقتضى للمبالغة ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ فلم يؤثروا الحياة الدنيا عليها.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟﴾؟ قلت: بمحذوف دلّ عليه ما وصفهم به وشرح من أمرهم، معناه: هم على ما وصفوا به من الشرك والعناد ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ كائنين في صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين، حيث لا يذكرون إلا الله ولا يدعون معه إلٰها آخر. وفي تسميتهم مخلصين: ضرب من التهكم ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ وآمنوا عادوا إلى حال الشرك: واللام في ﴿لِيَكْفُرُوا۟﴾ محتملة أن تكون لام كي، وكذلك في ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ فيمن قرأها بالكسر. والمعنى: أنهم يعودون إلى شركهم ليكونوا ـ بالعود إلى شركهم ـ كافرين بنعمة النجاة، قاصدين التمتع بها والتلذذ لا غير، على خلاف ما هو عادة المؤمنين المخلصين على الحقيقة: إذا أنجاهم الله أن يشكروا

---

(١) قال محمود: «إنما عدل عن الحياة إلى هذا البناء تنبيهاً على تعظيم حياة الآخرة ودوامها» قال أحمد: والذي يخص هذا البناء به إفادة ما لا يخلو من الحركة، كالنزوان والجولان. والحيوان من ذلك، والله أعلم.

(٢) قوله «اشتر من الموتان... إلخ» الذي في الصحاح: اشتر الموتان، ولا تشتر الحيوان. أي: اشتر الأرض والدور، ولا تشتر الرقيق والدواب اهـ. (ع)

(٣) قوله «كالنزوان والنغصان واللهبان» في الصحاح «اللهبان» بالتحريك: اتقاد النار. (ع)

نعمة الله في إنجائهم، ويجعلوا نعمة النجاة ذريعة إلى ازدياد الطاعة، لا إلى التمتع والتلذذ، وأن تكون لام الأمر وقراءة من قرأ وليتمتعوا بالسكون تشهد له. ونحوه قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]. فإن قلت: كيف جاز أن يأمر الله تعالى بالكفر وبأن يعمل العصاة ما شاءوا، وهو ناه عن ذلك ومتوعد عليه؟ قلت: هو مجاز عن الخذلان والتخلية، وأن ذلك الأمر متسخط إلى غاية. ومثاله أن ترى الرجل قد عزم على أمر، وعندك أنّ ذلك الأمر خطأ، وأنه يؤدي إلى ضرر عظيم، فتبالغ في نصحه واستنزاله عن رأيه، فإذا لم تر منه إلا الإباء والتصميم، حردت[1] عليه وقلت: أنت وشأنك وافعل ما شئت، فلا تريد بهذا حقيقة الأمر. وكيف والآمر بالشيء مريد له، وأنت شديد الكراهة متحسر، ولكنك كأنك تقول له: فإذا قد أبيت قبول النصيحة، فأنت أهل ليقال لك: افعل ما شئت وتبعث عليه، ليتبين لك ـ إذا فعلت ـ صحة رأي الناصح وفساد رأيك.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

كانت العرب حول مكة يغزو بعضهم بعضاً، ويتغاورون، ويتناهبون، وأهل مكة قارّون آمنون فيها، لا يغزون ولا يغار عليهم مع قلتهم وكثرة العرب، فذكرهم الله هذه النعمة الخاصة عليهم، ووبخهم بأنهم يؤمنون بالباطل الذي هم عليه، ومثل هذه النعمة المكشوفة الظاهرة وغيرها من النعم التي لا يقدر عليها إلا الله وحده مكفورة عندهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

افتراؤهم على الله كذباً: زعمهم أن لله شريكاً. وتكذيبهم بما جاءهم من الحق: كفرهم بالرسول والكتاب. وفي قوله: ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ تسفيه لهم، يعني: لم يتلعثموا في تكذيبه وقت سمعوه، ولم يفعلوا كما يفعل المراجيح العقول المثبتون في الأمور: يسمعون الخبر فيستعملون فيه الروية والفكر، ويستأنون إلى أن يصح لهم صدقه أو كذبه ﴿أَلَيْسَ﴾ تقرير لثوائهم في جهنم؛ كقوله [من الوافر]:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا ....

---

(١) قوله «حردت عليه» أي غضبت. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح؟ =

قال بعضهم: ولو كان استفهاماً ما أعطاه الخليفة مائة من الإبل. وحقيقته: أن الهمزة همزة الإنكار دخلت على النفي، فرجع إلى معنى التقرير. فهما وجهان، أحدهما: ألا يثوون في جهنم، وألا يستوجبون الثواء فيها، وقد افتروا مثل هذا الكذب على الله، وكذبوا بالحق هذا التكذيب والثاني: ألم يصح عندهم أن في جهنم مثوى للكافرين، حتى اجترؤا مثل هذه الجرأة؟

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

أطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول، ليتناول كل ما يجب مجاهدته من النفس الأمّارة بالسوء والشيطان وأعداء الدين ﴿فِينَا﴾ في حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خالصاً ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ لنزيدنهم هداية إلى سبل الخير وتوفيقاً، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] وعن أبي سليمان الداراني: والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا. وعن بعضهم: من عمل بما يعلم وفق لما لا يعلم، وقيل/ ٢/ ١٨٨أ: إن الذي نرى من جهلنا بما لا نعلم، إنما هو من تقصيرنا فيما نعلم ﴿لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لناصرهم ومعينهم.

وعن رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين» (١١٣٠).

١١٣٠ ـ هو حديث فضائل القرآن سورة سورة الموضوع والذي قد نص على وضعه جماعة من الأئمة والحفاظ. وينظر حديث (٣٤٦).
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب. انتهى.

= لجرير: في عبد الملك بن مروان. والاستفهام للإنكار، يعني: لا تنتفي زيادتكم في الفضل والكرم على جميع الناس ومن ركب المطايا: كناية عنهم، لأن الركوب من خواصهم. والراح: اسم جمع واحده راحة، وهي ما عدا الأصابع من الكف، وذلك كناية عن الكرم؛ لأن بها بذل المعروف في العادة. قيل: لما بلغ جرير هذا البيت في القصيدة، كان عبد الملك متكئاً فاستوى جالساً فرحاً وقال: هكذا مدحنا. وأعطاه مائة من الإبل.

سورة الروم

مكية، إلا آية ١٧ فمدنية
وآياتها ٦٠ [نزلت بعد الانشقاق]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾

القراءة المشهورة الكثيرة ﴿غُلِبَتِ﴾ بضم الغين. وسيغلبون بفتح الياء. والأرض: أرض العرب، لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضهم. والمعنى: غلبوا في أدنى أرض العرب منهم وهي أطراف الشام. أو أراد أرضهم، على إنابة اللام مناب المضاف إليه، أي: في أدنى أرضهم إلى عدوّهم، قال مجاهد: هي أرض الجزيرة، وهي أدنى أرض الروم إلى فارس. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الأردن وفلسطين. وقرئ: في أداني الأرض. والبضع ما بين الثلاث إلى العشر عن الأصمعي. وقيل: احتربت الروم وفارس بين أذرعات وبصرى، فغلبت فارس الروم، فبلغ الخبر مكة فشق على النبي ﷺ والمسلمين (١١٣١)؛ لأن فارس مجوس لا كتاب لهم والروم أهل الكتاب، وفرح

١١٣١ ـ قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ٥٤).
قلت: غريب، وأقرب ما وجدته، وإن طرقه تغيير يسير، ما رواه سنيد بن داود في تفسيره: حدثني حجاج، عن أبي بكر بن عبد الله، عن عكرمة قال: كانت امرأة في فارس لا تلد إلا الأبطال، فدعاها كسرى فقال: إني أريد أن أبعث إلى الروم جيشاً واستعمل عليهم رجلاً من بنيك، فأشيري عليّ أيهم أستعمل؟ فأشارت عليه بولد لها يدعى: شهربراز، فاستعمله، قال أبو بكر بن عبد الله: فحدثت هذا الحديث عطاء الخراساني، فقال عطاء الخراساني: فحدثني يحيى بن يعمر أن قيصر بعث رجلاً يدعى: قطمة بجيش من الروم، وبعث كسرى بشهربراز، فالتقيا بأذرعات وبصرى، فغلبتهم فارس، ففرحت بذلك كفار قريش، وكرهه المسلمون، قال عكرمة: ولقي المشركون أصحاب النبي ـ ﷺ ـ فقالوا: إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب، وإنكم إن قاتلتمونا؛ لنظهرن عليكم، فوالله لتظهرن الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا صلوات الله عليه، فقام أبي بن خلف فقال: كذبت =

المشركون وشمتوا وقالوا: أنتم والنصارى أهل الكتاب، ونحن وفارس أميون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرنّ نحن عليكم. فنزلت. فقال لهم أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: لا يقرّر الله أعينكم، فوالله لتظهرنّ الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له أبي بن خلف. كذبت يا أبا فصيل، اجعل بيننا أجلاً أُناحبك عليه، والمناحبة: المراهنة فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما، وجعلا الأجل ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: البضع ما بين الثلاث إلى التسع، فزايده في الخطر وماده في الأجل. فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين. ومات أبيّ من جرح رسول الله، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية، وذلك عند رأس سبع سنين. وقيل: كان النصر يوم بدر للفريقين، فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبي، وجاء به إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: تصدّق به، وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوّة، وأن القرآن من عند الله لأنها إنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله. وقرئ: غلبهم، بسكون اللام. والغلب والغلب. مصدران كالجلب والجلب. والحلب والحلب. وقرئ: غلبت الروم، بالفتح. وسيغلبون، بالضم. ومعناه أن الروم غلبوا على ريف الشام وسيغلبهم المسلمون في بضع سنين. وعند انقضاء هذه المدّة أخذ المسلمون في جهاد الروم، وإضافة غلبهم تختلف باختلاف القراءتين، فهي في إحداهما إضافة المصدر إلى المفعول. وفي الثانية إضافته إلى الفاعل. ومثالهما ﴿مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾، ﴿فَلَن يُخْلِفَ

= يا أبا فضيل، فقال له أبو بكر: أنت أكذب يا عدو الله، فقال: أناحبك عشر قلائص مني وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس؛ غرمت إلى ثلاث سنين، ثم جاء أبو بكر إلى النبي ـ ﷺ ـ فأخبره، فقال: «ما هكذا ذكرت، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع، فزايده في الخطر، وماده في الأجل» فخرج أبو بكر فلقي أبيًا؛ فقال: لعلك ندمت، قال: لا، تعال أزايدك في الخطر، وأمادك في الأجل فاجعلها مائة قلوص لمائة قلوص إلى تسع سنين»، قال: قد فعلت، وظهرت الروم على فارس قبل ذلك، فغلبهم المسلمون. وهذا مرسل.

وذكر الترمذي منه قطعة، وقال فيه: وكان ذلك قبل تحريم الرهان.

وروى الحاكم في مستدركه أيضاً منه قطعة يسيرة.

وكذلك الطبري وابن مردويه وابن أبي حاتم وهذا أقرب ما وجدناه.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه سنيد بن أبي داود في تفسيره: حدثني حجاج هو ابن محمد الأعور عن أبي بكر بن عبد الله عن عكرمة قال: «كانت في فارس امرأة لا تلد إلا الأبطال فدعاها كسرى فقال: إني أريد أن أبعث إلى الروم جيشاً وأستعمل عليهم رجلاً من بنيك فأشيري عليّ: أيهم استعمل؟ فأشارت عليه بولد لها يدعى شهربراز. فاستعمله. قال أبو بكر بن عبد الله: فحدثت هذا الحديث عطاء الخراساني، فقال: حدثني يحيى بن يعمر أن قيصر بعث رجلاً يدعى قطمة بجيش من الروم، فالتقيا بأذرعات وبصرى فغلبتهم فارس، فذكر القصة قلت: ولها طرق جمعتها في أول شرحي الكبير على البخاري. وقصة أبي بكر في المراهنة رواها الترمذي وغيره من حديث نيار بن مكرم الأسلمي، وسياقها مخالف لسياق هذه القصة. انتهى.

﴿اللَّهُ عَهْدَهُۥ﴾. فإن قلت: كيف صحت المناحبة وإنما هي قمار؟ قلت: عن قتادة رحمه الله أنه كان ذلك قبل تحريم القمار. ومن مذهب أبي حنيفة ومحمد: أن العقود الفاسدة من عقود الربا وغيرها جائزة في دار الحرب بين المسلمين والكفار. وقد احتجا على صحة ذلك بما عقده أبو بكر بينه وبين أبيّ بن خلف ﴿مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ﴾ أي في أوّل الوقتين وفي آخرهما حين غلبوا وحين يغلبون، كأنه قيل: من قبل كونهم غالبين، وهو وقت كونهم مغلوبين. ومن بعد كونهم مغلوبين، وهو وقت كونهم غالبين، يعني أن كونهم مغلوبين أوّلاً وغالبين آخراً ليس إلا بأمر الله وقضائه ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] وقرئ: من قبل ومن بعد، على الجرّ من غير تقدير مضاف إليه واقتطاعه، كأنه قيل: قبلاً وبعداً، بمعنى أوّلا وآخراً ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ ويوم تغلب الروم على فارس ويحل ما وعده الله عزّ وجل من غلبتهم ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له. وغيظ من شمت بهم من كفار مكة. وقيل: نصر الله: هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم وقيل نصر الله. أنه ولى بعض الظالمين بعضاً وفرق بين كلمهم، حتى تفانوا وتناقصوا، وفل[1] هؤلاء شوكة هؤلاء وفي ذلك قوّة للإسلام. وعن أبي سعيد الخدري: وافق ذلك يوم بدر، وفي هذا اليوم نصر المؤمنين ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ينصر عليكم تارة وينصركم أخرى.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾

﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ﴾مصدر مؤكد، كقولك: لك عليّ ألف درهم عرفا؛ لأنّ معناه: أعترف لك بها اعترافاً، ووعد الله ذلك وعداً؛ لأن ما سبقه في معنى وعد. ذمّهم الله عزّ وجل بأنهم عقلاء في أمور الدنيا، بله في أمر الدين، وذلك أنهم كانوا أصحاب تجارات ومكاسب/ ٨٨/٢ب. وعن الحسن: بلغ من حذق أحدهم أنه يأخذ الدرهم فينقره بأصبعه، فيعلم أرديء هو أم جيد. وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بدل من قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه، وجعله بحيث يقوم مقامه ويسدّ مسدّه، ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا. وقوله: ﴿ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ

---

(١) قوله «وفل هؤلاء شوكة هؤلاء» أي كسرها. أفاده الصحاح. (ع)

ينظر: ديوانه ص ٨٥، ٨٩، والجنى الداني ص ٣٢، وشرح شواهد المغني ١/ ٤٢، ولسان العرب، ومغني اللبيب ١/ ١٧، وبلا نسبة في الخصائص ٢/ ٤٦٣، ٣/ ٢٦٩، ورصف المباني ص ٤٦، وشرح المفصل ٨/ ١٢٣ والمقتضب ٣/ ٢٩٢.

﴿الدُّنْيَا﴾ يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً، فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم[1] بملاذها. وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة: يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة. وفي تنكير الظاهر: أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من جملة الظواهر. و«هم» الثانية يجوز أن يكون مبتدأ. و﴿غَٰفِلُونَ﴾ خبره، والجملة خبر «هم» الأولى، وأن يكون تكريراً للأولى، وغافلون خبر الأولى. وأيه كانت فذكرها مناد على أنهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرّها ومعلمها، وأنها منهم تنبع وإليهم ترجع.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ يحتمل أن يكون ظرفاً، كأنه قيل: أولم يحدثوا التفكر في أنفسهم، أي: في قلوبهم الفارغة من الفكر، والتفكر لا يكون إلا في القلوب، ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين، كقولك: اعتقده في قلبك وأضمره في نفسك، وأن يكون صلة للتفكر، كقولك: تفكر في الأمر وأجال فيه فكره. و﴿مَّا خَلَقَ﴾ متعلق بالقول المحذوف، معناه: أولم يتفكروا فيقولوا هذا القول. وقيل: معناه: فيعلموا، لأنّ في الكلام دليلاً عليه ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ما خلقها باطلاً وعبثاً بغير غرض صحيح وحكمة بالغة، ولا لتبقى خالدة: وإنما خلقها مقرونة بالحق مصحوبة بالحكمة، وبتقدير أجل مسمى لا بد لها من أن تنتهي إليه، وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥] كيف سمى تركهم غير راجعين إليه عبثاً. والباء في قوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ مثلها في قولك: دخلت عليه بثياب السفر، واشترى الفرس بسرجه ولجامه، تريد: اشتراه وهو ملتبس بالسرج واللجام، غير منفك عنهما. وكذلك المعنى ما خلقها إلا وهي ملتبسة بالحق مقترنة به، فإن قلت: إذا جعلت (في أنفسهم) صلة للتفكر، فما معناه؟ قلت: معناه: أولم يتفكروا في أنفسهم التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات، وهم أعلم وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ما عداها، فتدبروا ما أودعها الله ظاهراً وباطناً من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون

---

(١) قال محمود: «يعلمون بدل من الأول، وفي البدل نكتة وهي الإشعار بأنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين العلم بظاهر الدنيا، حتى كأنهما شيء واحد، فأبدل أحدهما من الآخر. وفائدة تنكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من جملة ظواهرها» قال أحمد: وفي التنكير تقليل لمعلومهم وتقليله يقربه من النفي حتى يطابق المبدل منه. وروي عن الحسن أنه قال في تلاوته هذه الآية: بلغ من صدق أحدهم في ظاهر الحياة الدنيا أنه ينقر الدينار بأصبعه فيعلم أجيد هو أم رديء.

الإهمال وأنه لا بد لها من انتهاء إلى وقت يجازيها فيه الحكم الذي دبر أمرها على الإحسان إحسانا وعلى الإساءة مثلها، حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت، والمراد بلقاء ربهم: الأجل المسمى.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ تقرير لسيرهم في البلاد ونظرهم إلى آثار المدمّرين من عاد وثمود وغيرهم من الأمم العاتية، ثم أخذ يصف لهم أحوالهم وأنهم ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ وحرثوها قال الله تعالى: ﴿لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٧١] وقيل لبقر الحرث: المثيرة. وقالوا: سمي ثوراً لإثارته الأرض وبقرة؛ لأنها تبقرها أي تشقها ﴿وَعَمَرُوهَا﴾ يعني أولئك المدمّرون ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ من عمارة أهل مكة. وأهل مكة: أهل واد غير ذي زرع، ما لهم إثارة الأرض أصلاً، ولا عمارة لها رأسا فما هو إلا تهكم بهم، وبضعف حالهم في دنياهم؛ لأنّ معظم ما يستظهر به أهل الدنيا ويتباهون به أمر الدهقنة[1]، وهم أيضاً ضعاف القوى، فقوله: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي عاد وثمود وأضرابهم من هذا القبيل. كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] وإن كان هذا أبلغ، لأنه خالق القوى والقدر. فما كان تدميره إياهم ظلماً لهم؛ لأنّ حاله منافية للظلم، ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث عملوا ما أوجب تدميرهم.

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾

قرئ عاقبة بالنصب والرفع. و﴿السُّوأَى﴾ تأنيث الأسوأ وهو الأقبح، كما أنّ الحسنى تأنيث الأحسن. والمعنى: أنهم عوقبوا في الدنيا بالدمار، ثم كانت عاقبتهم سوأى؛ إلا أنه وضع المظهر موضع المضمر، أي: العقوبة التي هي أسوأ العقوبات في الآخرة، وهي جهنم التي أعدّت للكافرين. و﴿أَنْ كَذَّبُوا﴾ بمعنى لأن كذبوا. ويجوز أن يكون أن بمعنى: أي؛ لأنه إذا كان تفسير الإساءة التكذيب والاستهزاء كانت في معنى القول، نحو: نادى. وكتب، وما أشبه ذلك. ووجه آخر: وهو أن يكون ﴿أَسَاءُوا السُّوأَى﴾ بمعنى اقترفوا الخطيئة التي هي أسوأ الخطايا، و﴿أَنْ كَذَّبُوا﴾ عطف بيان لها، وخبر كان محذوف كما

---

(١) قوله «أمر الدهقنة» أي الزراعة. (ع)

يحذف جواب لما ولو، إرادة الإبهام.

﴿اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي إلى/ ٢/ ٨٩أ ثوابه وعقابه. وقرئ بالتاء والياء.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَٰؤُا وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

الإبلاس: أي يبقى بائساً ساكناً متحيراً. يقال: ناظرته فأبلس. إذا لم ينبس[١] ويئس من أن يحتج. ومنه الناقة المبلاس: التي لا ترغو. وقرئ: يبلس، بفتح اللام، من أبلسه إذا أسكته ﴿مِّن شُرَكَائِهِمْ﴾ من الذين عبدوهم من دون الله ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أي يكفرون بإلهيتهم ويجحدونها. أو وكانوا في الدنيا كافرين بسببهم. وكتب ﴿شُفَعَٰؤُا﴾ في المصحف بواو قبل الألف، كما كتب ﴿عُلَمَٰؤُا بَنِي إِسْرَٰءِيلَ﴾ وكذلك كتبت (السوأى) بألف قبل الياء إثباتاً للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَائِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

الضمير في ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ للمسلمين والكافرين، لدلالة ما بعده عليه. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: هو تفرّق المسلمين والكافرين: هؤلاء في عليين، وهؤلاء في أسفل السافلين ـ وعن قتادة ـ رضي الله عنه ـ: فرقة لا اجتماع بعدها ﴿فِي رَوْضَةٍ﴾ في بستان، وهي الجنة. والتنكير لإبهام أمرها وتفخيمه. والروضة عند العرب: كل أرض ذات نبات وماء. وفي أمثالهم: أحسن من بيضة في روضة، يريدون: بيضة النعامة ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يسرون. يقال: حبره إذا سرّه سرورا تهلل له وجهه وظهر فيه أثره. ثم اختلفت فيه الأقاويل لاحتماله وجوه جميع المسارّ؛ فعن مجاهد ـ رضي الله عنه ـ: يكرمون. وعن قتادة: ينعمون. وعن ابن كيسان: يحلون. وعن أبي بكر بن عياش: التيجان على رءوسهم. وعن وكيع: السماع في الجنة. وعن النبيّ ﷺ: أنه ذكر الجنة وما فيها من النعيم[٢]، وفي آخر القوم أعرابيّ فقال: يا رسول الله، هل في الجنة من سماع؟ قال: «نعم يا أعرابي، إنّ في الجنة لنهرا حافتاه الأبكار من كل بيضاء خوصانية، يتغنين بأصوات

---

(١) قوله «إذا لم ينبس» أي لم يتكلم. أفاده الصحاح. (ع)

لم تسمع الخلائق بمثلها قط، فذلك أفضل نعيم الجنة» قال الراوي: فسألت أبا الدرداء، بم يتغنين؟ قال: بالتسبيح (١١٣٢). وروي: «إنّ في الجنة لأشجاراً عليها أجراس من فضة، فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله ريحاً من تحت العرش فتقع في تلك الأشجار، فتحرّك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طرباً» (١١٣٣). ﴿مُحْضَرُونَ﴾ لا يغيبون عنه ولا يخفف عنهم، كقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧]، ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٧٥].

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾

لما ذكر الوعد والوعيد، أتبعه ذكر ما يوصل إلى الوعد وينجي من الوعيد. والمراد

١١٣٢ ـ أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٤/٧٨) من طريق سليمان بن عطاء عن مسلمة بن عبد الله الجهني عن عمه أبي مشجعة بن ربعي عن أبي الدرداء به مرفوعاً.
ولين ابن عدي سليمان بن عطاء ونقل عن البخاري قوله: في حديثه بعض المناكير. وقال ابن عدي: وهو كما قال.
وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: وسليمان منكر الحديث.
والحديث أيضاً أخرجه الثعلبي كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (٣/٥٥).
قال الحافظ في تخريج الكشاف: في طريق سليمان بن عطاء عن مسلمة بن عبد الله الجهني عن عمه أبي مشجعة عن أبي الدرداء قال: «كان رسول الله ـ ﷺ ـ يذكر الناس، فذكر الجنة وما فيها... الحديث»، وسليمان منكر الحديث. انتهى.

١١٣٣ ـ قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢/٥٦): غريب ورواه الثعلبي من حديث عبد الله بن عرادة الشيباني عن القاسم بن مطيب عن مغيرة عن إبراهيم قال: إن في الجنة لأشجاراً... إلى آخره.
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: عبد الله بن عرادة الشيباني أحد الضعفاء.
وأخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده كما في «تخريج الكشاف» (٢/٥٦) أخبرنا عتاب بن بشير عن عبد الله بن مسلم بن هرمز الهرمزي عن مجاهد قال: قيل لأبي هريرة: هل في الجنة من سماع؟ قال: نعم شجرة أصلها من ذهب وأغصانها الفضة وثمرها الياقوت والزبرجد يبعث لها ريح فيحك بعضها بعضاً فما سمع شيء قط أحسن منه.
وللحديث طريق آخر عن أبي هريرة بنحو الأول أخرجه أبو نعيم في صفة الجنة (٤٣٣).
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي من رواية عبد الله بن عرادة الشيباني أحد الضعفاء عن القاسم بن مطيب عن مغيرة عن إبراهيم بهذا. وروى إسحاق في مسنده من رواية مجاهد قيل لأبي هريرة: «هل في الجنة من سماع؟ قال: نعم شجرة أصلها من ذهب وأغصانها من الفضة وثمرها الياقوت والزبرجد، يبعث لها ريح فيحرك بعضها بعضاً. فما سمع شيء قط أحسن منه». انتهى.

بالتسبيح ظاهره الذي هو تنزيه الله من السوء والثناء عليه بالخير في هذه الأوقات لما يتجدّد فيها من نعمة الله الظاهرة. وقيل: الصلاة. وقيل لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم، وتلا هذه الآية ﴿تُمْسُونَ﴾ صلاتا المغرب والعشاء ﴿تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر ﴿وَعَشِيًّا﴾ صلاة العصر. و﴿تُظْهِرُونَ﴾ صلاة الظهر. وقوله ﴿وَعَشِيًّا﴾: متصل بقوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اعتراض بينهما. ومعناه: إنّ على المميزين كلهم من أهل السموات والأرض أن يحمدوه. فإن قلت: لم ذهب الحسن رحمه الله إلى أنّ هذه الآية مدنية؟ قلت: لأنه كان يقول: فرضت الصلوات الخمس بالمدينة وكان الواجب بمكة ركعتين في غير وقت معلوم. والقول الأكثر أن الخمس فرضت بمكة. وعن عائشة رضي الله عنها: فرضت الصلاة ركعتين فلما قدم رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة أقرّت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحضر (١١٣٤). وعن رسول الله ـ ﷺ ـ: «من سره أن يكال له بالقفيز الأوفى فليقل: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾... الآية» (١١٣٥). وعنه عليه السلام: «من قال حين يصبح ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أدرك ما فاته في يومه. ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته» (١١٣٦). وفي قراءة عكرمة: حينا تمسون وحينا تصبحون. والمعنى: تمسون فيه وتصبحون فيه. كقوله: ﴿يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨] بمعنى فيه ﴿ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ الطائر من البيضة، و﴿ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾

١١٣٤ ـ تقدم تخريجه، قال الحافظ في تخريج الكشاف: متفق عليه من حديث عائشة واللفظ لأحمد وسياقه أتم. انتهى.

١١٣٥ ـ قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢/ ٥٧): رواه الثعلبي في «تفسيره» من حديث الحجاج بن يوسف بن قتيبة بن مسلم ثنا بشر بن الحسين ثنا الزبيري عن عدي عن أنس بن مالك به.
وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» وفي إسناده بشر بن الحسين وهو ساقط.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي من حديث أنس وفي إسناده بشر بن الحسين وهو ساقط.

١١٣٦ ـ أخرجه أبو داود (٤/ ٣١٩) كتاب الأدب باب ما يقول إذا أصبح حديث (٥٠٧٦) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٥٤) والطبراني في «الكبير» (١٢/ ٢٣٩) رقم (١٢٩٩١) من طريق سعيد بن بشير عن محمد بن عبد الرحمن البيلماني عن أبيه عن ابن عباس مرفوعاً.
قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢/ ٥٧): ورواه العقيلي وابن عدي في كتابيهما وأعلاه بسعيد بن بشير ونقلا عن البخاري أنه قال: لا يصح حديثه وقال العقيلي: وهو مجهول.
وقال ابن عدي: ولا أعلم لسعيد بن بشير النجراني غير هذا الحديث وإليه أشار البخاري بقوله لا يصح حديثه.
والحديث ذكره الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤٢٨) وقال: إسناده ضعيف.
قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: أخرجه أبو داود والعقيلي وابن عدي من حديث ابن عباس وإسناده ضعيف وقال البخاري لا يصح.

البيضة من الطائر. وإحياء الأرض: إخراج النبات منها ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ ومثل ذلك الإخراج تخرجون من القبور وتبعثون. والمعنى: أنّ الإبداء والإعادة متساويان في قدرة من هو قادر على الطرد والعكس من إخراج الميت من الحيّ وإخراج الحيّ من الميت وإحياء الميت وإماتة الحيّ. وقرئ: الميت، بالتشديد[1]. وتخرجون، بفتح التاء.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ لأنه خلق أصلهم منه. و﴿إِذَآ﴾ للمفاجأة. وتقديره: ثم فاجأتم وقت كونكم بشراً منتشرين في الأرض، كقوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١] ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ لأن حوّاء خلقت من ضلع آدم عليه السلام. والنساء بعدها خلقن من أصلاب الرجال. أو من شكل أنفسكم وجنسها، لا من جنس آخر، وذلك لما بين الاثنين من جنس/ ٢/ ٨٩ب واحد من الألف والسكون، وما بين الجنسين المختلفين من التنافر ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ التوادّ والتراحم بعصمة الزواج، بعد أن لم تكن بينكم سابقة معرفة، ولالقاء، ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أو رحم. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: المودة كناية عن الجماع، والرحمة عن الولد، كما قال: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [ص: ٤٣] وقال: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ﴾ [مريم: ٢]. ويقال: سكن إليه إذا مال إليه، كقولهم: انقطع إليه، واطمأن إليه ـ ومنه السكن. وهو الإلف المسكون إليه. فعل بمعنى مفعول. وقيل: إن المودة والرحمة من قبل الله وإن الفرك من قبل الشيطان[2].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

الألسنة: اللغات. أو أجناس النطق وأشكاله. خالف عزّ وعلا بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس واحد، ولا جهارة، ولا حدّة، ولا رخاوة، ولا فصاحة، ولا لكنة، ولا نظم، ولا أسلوب، ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله، وكذلك الصور وتخطيطها، والألوان وتنويعها، ولاختلاف ذلك وقع التعارف، وإلا فلو اتفقت وتشاكلت وكانت ضرباً واحداً لوقع التجاهل والالتباس، ولتعطلت مصالح كثيرة، وربما رأيت توأمين يشتبهان في الحلية، فيعروك الخطأ في التمييز بينهما، وتعرف

---

(١) قوله «وقرىء الميت بالتشديد» يفيد أن القراءة المشهورة بالتخفيف. (ع)

(٢) قوله «وإن الفرك من قبل الشيطان» في الصحاح «الفرك» بالكسر: البغض. (ع)

حكمة الله في المخالفة بين الحليّ وفي ذلك آية بينة حيث ولدوا من أب واحد، وفرّعوا من أصل فذ، وهم على الكثرة التي لا يعلمها إلا الله مختلفون متفاوتون. وقرئ: للعالمين بفتح اللام وكسرها، ويشهد للكسر قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾

هذا من باب اللفّ وترتيبه: ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار، إلا أنه فصل بين القرينين الأوّلين بالقرينين الآخرين؛ لأنهما زمانان. والزمان والواقع فيه كشيء واحد، مع إعانة اللفّ على الاتحاد. ويجوز أن يراد: منامكم في الزمانين، وابتغاءكم فيهما، والظاهر هو الأول لتكرّره في القرآن، وأسدّ المعاني ما دل عليه القرآن يسمعونه بالآذان الواعية.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

في ﴿يُرِيكُمُ﴾ وجهان: إضماران، وإنزال الفعل منزلة المصدر، وبهما فسر المثل: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، وقول القائل [من الوافر]:

وَقَالُوا: مَا تَشَاءُ؟ فَقُلْتُ: أَلْهُو ... إِلَى الإِصْبَاحِ آثَرَ ذِي أَثِيرِ[1]

---

(١) أرقت وصحبتي بمضيق عمق ... لبرق من تهامة مستطير
سقوني الخمر ثم تكنفوني ... عداة الله من كذب وزور
وقالوا: ما تشاء؟ فقلت: ألهو ... إلى الإصباح آثر ذي أثير

لعروة بن الورد العبسي، وأرقت: سهرت. والواو للمعية. والمضيق المكان الضيق. وعمق ـ بكسر فسكون ـ: شجر ببلاد الحجاز، وبضم ففتح: موضع منخفض عند مكة، ولعله سكن هنا للوزن، ولبرق: متعلق بأرقت، أي سهرت في هذا الموضع لأجل برق من تهامة جهة محبوبتي، ويحتمل أن الواو حالية، وصحبتي مبتدأ خبره بمضيق عمق، وإذا كان أصحابه فيه فهو فيه، فرجع إلى الأول ـ ومستطير: منتشر. وروي: سقوني النسيء. ونسأت اللبن: خلطته بماء، فالنسيء: هو اللبن المخلوط بماء. وتكنفوني: أحاطوا بي، وعداة: جمع عاد بمعنى عدو. وقيل: جمع عدو، أي: هم أعداء الله من أجل كذبهم وزورهم، وهي جملة اعتراضية، ويحتمل أن «عداة» بدل من ضمير الفاعل. أو فاعل على لغة من قال: أكلوني البراغيث، أي: أحاطوا بي وقالوا: ما الذي تريده، فقلت: ألهو، أي: هو أن ألهو، فأن: مقدرة معنى، وإن لم ينصب الفعل لفظاً. وقال الجوهري: يقال افعل هذا آثر ذي أثير، أي: أول كل شيء، فأشار إلى أن آثر: نصب على الظرفية المجازية أو الحالية، أي افعله حال كونه أول كل شيء يؤثر، فهو أفعل تفضيل بمعنى المفعول، ونص ابن =

﴿خَوۡفٗا﴾ من الصاعقة أو من الإخلاف ﴿وَطَمَعٗا﴾ في الغيث. وقيل: خوفاً للمسافر، وطمعاً للحاضر، وهما منصوبان على المفعول له. فإن قلت: من حق المفعول له أن يكون فعلاً لفاعل الفعل المعلل؛ والخوف والطمع ليسا كذلك. قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن المفعولين فاعلون في المعنى، لأنهم راءون، فكأنه قيل: يجعلكم رائين البرق خوفاً وطمعا. والثاني: أن يكون على تقدير حذف المضاف، أي: إرادة خوف وإرادة طمع[1]، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. ويجوز أن يكونا حالين؛ أي: خائفين وطامعين. وقرئ: ينزل بالتشديد[2].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ٢٥ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦﴾

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ قيام السموات والأرض واستمساكهما بغير عمد ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾ أي بقوله: كونا قائمتين. والمراد بإقامته لهما إرادته لكونهما على صفة القيام دون الزوال. وقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ﴾ بمنزلة قوله: يريكم، في إيقاع الجملة موقع المفرد على المعنى، كأنه قال: ومن آياته قيام السموات والأرض، ثم خروج الموتى من القبور إذا دعاهم دعوة واحدة: يا أهل القبور اخرجوا. والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف ولا تلبث، كما يجيب الداعي المطاع مدعوّه، كما قال القائل [من الطويل]:

= الحاجب على جواز ذلك وروده قليلاً، وأثره بقصر الهمزة ومدها: إذا قدمه على غيره، وأثير: اسم مفعول بمعنى مأثور. أو حقيق بالتقدم، فالمعنى: أول كل شيء صاحب شيء مأثور، فيكون هو الأثير المقدم. أو التقدير: لهوى طول الليل هو المقدم عندي.

ينظر: ديوانه (ص ٥٧)، الدرر (١/ ٧٥)، لسان العرب (أثر)، بلا نسبة في تذكرة النحاة ص ٥٣٦، الخصائص (٢/ ٢٣٣)، شرح المفصل ٢/ ٩٥، المحتسب (٢/ ٣٢)، وهمع الهوامع (١/ ٦).

(١) قال محمود: «فإن قلت: أينصب خوفاً وطمعاً مفعولاً لهما وليسا فعلي فاعل الفعل المعلل، فما وجه ذلك؟ قلت: المفعولون هنا فاعلون لأنهم راؤون، فتقديره: يجعلكم رائين البرق خوفاً وطمعاً. أو على حذف مضاف، تقديره: إرادة خوفكم وطمعكم» قال أحمد: الخوف والطمع من جملة مخلوقات الله تعالى وآثار قدرته، وحينئذٍ يلزم اجتماع شرائط النصب فيهما وهي كونهما مصدرين ومقارنين في الوجود، والفاعل الخالق واحد، فلا بد من التنبيه على تخريج النصب على غير هذا الوجه، فنقول: معنى قول النحاة في المفعول له لا بد وأن يكون فعل الفاعل، أي: ولا بد أن يكون الفاعل متصفاً به، مثاله إذا قلت: جئتك إكراماً لك، فقد وصفت نفسك بالإكرام فقلت في المعنى: جئتك مكرما لك، والله تعالى - وإن خلق الخوف والطمع لعباده - إلا أنه مقدس عن الاتصاف بهما، فمن ثم احتيج إلى تأويل النصب على المذهبين جميعا. والله أعلم.

(٢) قوله «وقرىء ينزل بالتشديد» يفيد أن المشهور بالتخفيف. (ع)

دَعَــوْتُ كُــلَـيْـبـاً دَعْــوَةً فَـكَــأَنَّــمَــا   دَعَــوْتُ بِــهِ ٱبْـنَ الـطَّــوْدِ أَوْ هُــوَ أَسْـرَعُ

يريد بابن الطود: الصدى. أو الحجر إذا تدهدى، وإنما عطف هذا على قيام السموات والأرض بثم، بياناً لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله، وهو أن يقول: يا أهل القبور، قوموا؛ فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. قولك: دعوته من مكان كذا، كما يجوز أن يكون مكانك يجوز أن يكون مكان صاحبك، تقول: دعوت زيداً من أعلى الجبل فنزل عليّ؛ ودعوته من أسفل الوادي فطلع إليّ. فإن قلت: بم تعلق ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أبالفعل أم بالمصدر؟ قلت: هيهات، إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل. فإن قلت: ما الفرق بين إذا وإذا؟ قلت: الأولى للشرط، والثانية للمفاجأة، وهي تنوب مناب الفاء في جواب الشرط. وقرئ: تخرجون، بضم التاء وفتحها ﴿قَٰنِتُونَ﴾ منقادون لوجود أفعاله فيهم لا يمتنعون عليه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَهُوَ / ٢/ ١٩٠أ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ فيما يجب عندكم وينقاس على أصولكم ويقتضيه معقولكم؛ لأنّ من أعاد منكم صنعة شيء كانت أسهل عيه وأهون من إنشائها، وتعتذرون للصانع إذا خطىء في بعض ما ينشئه بقولكم: أوّل الغزو أخرق، وتسمون الماهر في صناعته معاودا، تعنون أنه عاودها كرّة بعد أخرى؛ حتى مرن عليها وهانت عليه. فإن قلت: لم ذكر الضمير في قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ والمراد به الإعادة؟ قلت: معناه: وأن يعيده أهون عليه. فإن قلت: لم أخرت الصلة في قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وقدّمت في قوله: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٩][2]؟ قلت: هناك قصد الاختصاص وهو محزه، فقيل:

---

(١) يقول: دعوت كليباً. ويروى: خليدا. دعوة واحدة فأجابني بسرعة كأني دعوت به ابن الطود: وهو الجبل العظيم، وابنه الصدي: الذي يحاكي صوت الصائح عقب صياحه. أو الحجر إذا هوى منه متدهدها متدحرجاً إلى أسفل. وسمى ابنه. على سبيل الاستعارة التصريحية، لأنه ناشىء منه وملازم له. ثم إن فيه تجريدا حيث انتزع من كليب أمراً آخر يشبه ابن الطود في السرعة. والباء للملابسة، أي كأني دعوت ابن الطود ملابسا له. ويحتمل أنها للبدل، أي: دعوت بدله ابن الطود. أو بمعنى من. أي: دعوت منه ابن الطود. وقوله: أو هو، أي: كليب أسرع من ابن الطود في الإجابة.
ينظر لسان العرب (طود)، المخصص (١٣/ ٢٠٢)، أساس البلاغة (بني)، (طود)، تهذيب اللغة (١٤/ ٤)، تاج العروس (طود).

(٢) قال محمود: «إن قلت: لم أخرت الصلة ههنا وقد قدمت في قوله تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾؟ قلت: لأن المقصود مما نحن فيه خلاف المقصد هناك، فإنه اختصاص الله تعالى بالقدرة على إيلاد الهم =

هو عليّ هين، وإن كان مستصعباً عندكم أن يولد بين هِم[1] وعاقر؛ وأما ههنا فلا معنى للاختصاص، كيف والأمر مبني على ما يعقلون من أنّ الإعادة أسهل من الابتداء؛ فلو قدمت الصلة لتغير المعنى. فإن قلت: ما بال الإعادة استعظمت في قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ حتى كأنها فضلت على قيام السموات والأرض بأمره[2]، ثم هوّنت بعد ذلك؟ قلت: الإعادة في نفسها عظيمة، ولكنها هوّنت بالقياس إلى الإنشاء. وقيل الضمير في عليه للخلق. ومعناه: أنّ البعث أهون على الخلق من الإنشاء، لأن تكوينه في حدّ الاستحكام، والتمام أهون عليه وأقل تعباً وكبداً، من أن يتنقل في أحوال ويندرج فيها إلى أن يبلغ ذلك الحدّ. وقيل: الأهون بمعنى الهين. ووجه آخر: وهو أن الإنشاء من قبيل التفضل الذي يتخير فيه الفاعل بين أن يفعله وأن لا يفعله، والإعادة من قبيل الواجب الذي لا بدّ له من فعله، لأنها لجزاء الأعمال وجزاؤها واجب[3]، والأفعال: إما محال والمحال ممتنع أصلاً[4] خارج عن

= والعاقر، وأما المقصد هنا فلا معنى للاختصاص فيه، كيف والأمر مبني على ما يعتقدونه في الشاهد من أن الإعادة أسهل من الابتداء، فالاختصاص يغير المعنى» قال أحمد: كلام نفيس يستحق أن يكتب بذوب التبر لا بالحبر، وإنما يلقى الاختصاص من تقديم ما حقه أن يؤخر، وقد علمت مذهبه في مثل ذلك.

(١) قوله «أن يولد بين همّ وعاقر» في الصحاح «الهم» بالكسر. الشيخ الفاني. (ع)

(٢) قال محمود: «إن قلت: ما بال الإعادة استعظمت في قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ حتى كأنها فضلت على قيام السموات والأرض؟ قلت: الإعادة في نفسها عظيمة، ولكنها هونت بالنسبة إلى الإنشاء» قال أحمد: إنما يلقى في السؤال تعظيم الإعادة من عطفها بثم، إيذاناً بتغاير مرتبتها وعلو شأنها. وقوله في الجواب: إنها هونت بالنسبة إلى الإنشاء لا يخلص، فإن الإعادة ذكرت ههنا عقيب قيام السموات والأرض بأمره. وقيامهما ابتداء وإنشاء أعظم من الإعادة، فيلزم تعظيم الإعادة بالنسبة إلى ما عطف عليه عن الإنشاء ويعود الإشكال، والمخلص ـ والله أعلم ـ جعل ثم على بابها لتراخي الزمان لا لتراخي المراتب، فعلى أن تكون مرتبة المعطوف عليه العليا، ومرتبة المعطوف هي الدنيا. وذلك نادر في مجيئها لتراخي المراتب، فإن المعطوف حينئذٍ في أكثر المواضع أرفع درجة من المعطوف عليه، والله أعلم.

(٣) قوله «وجزاؤها واجب... إلخ» هذا عند المعتزلة، ولا يجب على الله شيء عند أهل السنة كما تقدم في محله. (ع)

(٤) عاد كلامه: قال في تقرير معنى قوله وهو أهون عليه: الأفعال إما ممتنع عقلاً لذاته، وإما ممتنع لصارف يصرف الحكيم عن فعله. وإما تفضل يتخير الحكيم فيه بين أن يفعل وأن لا. وإما واجب على الحكيم أن يفعله فالإنشاء الأول من قبيل التفضل، وأما الإعادة فواجبة على الله تعالى لأجل الجزاء، فلما كانت واجبة كانت أبعد الأفعال عن الممتنع، فلذلك وصفت بالتسهيل وكانت أهون من الإنشاء» قال أحمد: لقد ضل وصد عن السبيل، فلا نوافقه ولا نرافقه، والحق: أن لا واجب على الله تعالى؛ وكل ما ذكره في هذا الفصل نزغات قدرية، على أنها أيضاً غير مستقيمة على أصولهم المجتثة، فإن مقتضاها وجوب الإنشاء في الحكمة؛ إذ لولا مصلحة اقتضت الإنشاء لما وقع، وتلك المصلحة توجب متعلقها، فقد وضح أن المصنف لا إلى معالي السنة رقي، ولا في =

المقدور، وأما ما يصرف الحكيم عن فعله صارف وهو القبيح، وهو رديف المحال؛ لأنّ الصارف يمنع وجود الفعل كما تمنعه الإحالة. وإما تفضل والتفضل حالة بين بين، للفاعل أن يفعله وأن لا يفعله. وإما واجب لا بدّ من فعله، ولا سبيل إلى الإخلال به، فكان الواجب أبعد الأفعال من الامتناع وأقربها من الحصول. فلما كانت الإعادة من قبيل الواجب، كانت أبعد الأفعال من الامتناع. وإذا كانت أبعدها من الامتناع، كانت أدخلها في التأني والتسهل، فكانت أهون منها[1]. وإذا كانت أهون منها كانت أهون من الإنشاء ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: الوصف الأعلى الذي ليس لغيره مثله قد عرف به. ووصف في السموات والأرض على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل، وهو أنه القادر الذي لا يعجز عن شيء من إنشاء وإعادة وغيرهما من المقدورات، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي القاهر لكل مقدور، الحكيم الذي يجري كل فعل على قضايا حكمته وعلمه. وعن مجاهد: المثل الأعلى: قول لا إلٰه إلا الله، ومعناه: وله الوصف الأعلى الذي هو الوصف بالوحدانية. ويعضده قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] وقال الزجاج: وله المثل الأعلى في السموات والأرض، أي: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] قد ضربه لكم مثلاً فيما يصعب ويسهل. يريد: التفسير الأوّل.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

فإن قلت: أي فرق بين الأولى والثانية والثالثة في قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾، ﴿مِّن شُرَكَاءَ﴾؟ قلت: الأولى للابتداء، كأنه قال: أخذ مثلاً وانتزعه من أقرب شيء منكم وهي أنفسكم ولم يبعد، والثانية للتبعيض، والثالثة مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي. ومعناه: هل ترضون لأنفسكم ـ وعبيدكم أمثالكم بشر كبشر وعبيد كعبيد ـ أن يشارككم بعضهم ﴿فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من الأموال وغيرها تكونون أنتم وهم فيه على السواء، من غير تفصلة بين حرّ وعبد: تهابون أن تستبدوا بتصرف دونهم، وأن تفتاتوا بتدبير عليهم كما يهاب بعضكم بعضاً من الأحرار، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم، فكيف ترضون لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء؟ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل هذا التفصيل ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي نبينها: لأن التمثيل مما يكشف

= حضيض الاعتزال بقي، فلله العصمة.

(١) قوله «فكانت أهون منها» أي من بقية الأفعال. (ع)

المعاني ويوضحها؛ لأنه بمنزلة التصوير والتشكيل لها. ألا ترى كيف صوّر الشرك بالصورة المشوّهة؟

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أي أشركوا، كقوله تعالى: إنّ الشرك لظلم عظيم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي اتبعوا أهواءهم جاهلين، لأنّ العالم إذا ركب هواه ربما ردعه علمه وكفه. وأما الجاهل فيهيم على وجهه كالبهيمة لا يكفه شيء ﴿مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ من خذله[1] ولم يلطف به، لعلمه أنه ممن لا لطف له، فمن يقدر على هداية مثله. وقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ دليل على أن المراد بالإضلال الخذلان.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ فقوّم وجهك له وعدِّلهُ، غير ملتفت عنه يميناً ولا شمالاً، وهو تمثيل لإقباله على الدين، واستقامته عليه، وثباته، واهتمامه بأسبابه، فإنّ من اهتم بالشيء عقد عليه طرفه، وسدّد إليه نظره، وقوّم له وجهه، مقبلاً به عليه. و﴿حَنِيفًا﴾ حال من المأمور. أو من الدين ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ أي الزموا فطرة الله / ٢/ ٩٠ب. أو عليكم فطرة الله. وإنما أضمرته على خطاب الجماعة لقوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ ومنيبين: حال من الضمير في: الزموا. وقوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟﴾ ... ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ معطوف على هذا المضمر. والفطرة: الخلقة. ألا ترى إلى قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ والمعنى: أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام، غير نائين عنه ولا منكرين له، لكونه مجاوباً للعقل، مساوقاً للنظر الصحيح، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر، ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجن. ومنه قوله ﷺ: «كل عبادي خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين»[2] عن دينهم وأمروهم أن

---

(١) قوله «من أضل الله: من خذله» تأويل الإضلال بذلك مبني على أنه تعالى لا يخلق الشر، وهو مذهب المعتزلة، وذهب أهل السنة إلى أنه يخلق الشر كالخير، فالآية على ظاهرها. (ع)

(٢) قوله «فاجتالتهم الشياطين» أدارتهم. أفاده الصحاح. (ع)

يشركوا بي غيري» (١١٣٧)، وقوله عليه السلام: كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه وينصرانه» (١١٣٨)، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي ما ينبغي أن تبدّل

١١٣٧ ـ أخرجه مسلم (٤/٢١٩٧ ـ ٢١٩٨) كتاب الجنة وصفة نعيمها باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار حديث (٦٣/٢٨٦٥) وابن ماجه (٢/١٣٩٩) كتاب الزهد: باب البراءة من الكبر والتواضع حديث (٤١٧٩) مختصراً، وأحمد (٤/١٦٢ ـ ١٦٦) والنسائي في «فضائل القرآن» رقم (٩٥ ـ ٩٦) من حديث عياض بن حمار مرفوعاً.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه مسلم من حديث عياض بن حمار به وأتم منه. انتهى.

١١٣٨ ـ أخرجه البخاري (١١/٤٩٣) كتاب القدر: باب الله أعلم بما كانوا عاملين، الحديث (٦٥٩٩)، ومسلم (٤/٢٠٤٨): كتاب القدر: باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، الحديث (٢٥/٢٦٥٨)، وأبو داود (٥/٨٦): كتاب السنة: باب في ذراري المشركين، الحديث (٤٧١٤)، والترمذي (٣/٣٠٣): كتاب القدر: باب كل مولود يولد على الفطرة، الحديث (٣٢٢٣)، ومالك (١/٢٤١): كتاب الجنائز: باب جامع الجنائز، الحديث (٥٢)، وأحمد (٢/٢٣٣)، والحميدي (٢/٤٧٣)، رقم (١١١٣)، وعبد الرزاق (٢٠٠٨٧)، وأبو يعلى (١١/١٩٧)، رقم (٦٣٠٦) وابن حبان (١٢٨ ـ ١٣٠)، وأبو نعيم في الحلية (٩/٣٢٨)، من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج الإبل جمعاء، هل تحس فيها من جدعاء، قالوا: يا رسول الله: أرأيت الذي يموت وهو صغير، قال: الله أعلم بما كانوا عاملين.

ولفظ مسلم مصدراً بلفظ: «كل إنسان تلده أمه على الفطرة، وأبواه بعد يهودانه وينصرانه ويمجسانه، فإن كانا مسلمين فمسلم، كل إنسان تلده أمه، يلكز الشيطان في حضنيه إلا مريم وابنها.

وفي الباب عن جابر والأسود بن سريع وابن عباس وسمرة بن جندب.

ـ حديث جابر:

أخرجه أحمد (٣/٣٥٣) من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن الحسن عن جابر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فإذا عبر عنه لسانه، إما شاكراً وإما كفوراً».

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/٢٢١) وقال: رواه أحمد وفيه أبو جعفر الرازي وهو ثقة وفيه خلاف وبقية رجاله ثقات.

ـ حديث الأسود بن سريع:

أخرجه أحمد (٣/٤٣٥) وابن حبان (١٦٥٨ ـ موارد) وأبو يعلى (٢/٢٤٠) رقم (٩٤٢) والطبراني في «الكبير» (١/٢٨٣) رقم (٨٢٨) والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢/١٦٣) من حديث الأسود بن سريع بمثل حديث جابر.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/٣١٩) وقال: رواه أحمد بأسانيد والطبراني في الكبير والأوسط... وبعض أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح.

ـ حديث ابن عباس:

أخرجه البزار في «مسنده» (٢١٦٧ ـ كشف) وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/٢٢١) بلفظ: كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه. =

تلك الفطرة أو تغير. فإن قلت: لم وحد الخطاب أولا، ثم جمع؟ قلت: خوطب رسول الله - ﷺ - أولاً، وخطاب الرسول خطاب لأمته مع ما فيه من التعظيم للإمام، ثم جمع بعد ذلك للبيان والتلخيص ﴿مِنَ الَّذِينَ﴾ بدل من المشركين ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ تركوا دين الإسلام. وقرئ: فرّقوا دينهم بالتشديد، أي: جعلوه أدياناً مختلفة لاختلاف أهوائهم ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ فرقاً، كل واحدة تشايع إمامها الذي أضلها ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ منهم فرح بمذهبه مسرور، يحسب باطله حقا - ويجوز أن يكون (من الذين) منقطعاً مما قبله، ومعناه: من المفارقين دينهم كل حزب فرحين بما لديهم، ولكنه رفع فرحون على الوصل لكل؛ كقوله [من الطويل]:

وَكُلُّ خَلِيلٍ غَيْرُ هَاضِمِ نَفْسِهِ .... [(1)]

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤)﴾

الضر: الشدّة من هزال أو مرض أو قحط أو غير ذلك. والرحمة: الخلاص من الشدّة. واللام في ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ مجاز مثلها في ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾. ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ نظير ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وبال تمتعكم. وقرأ ابن مسعود: وليتمتعوا.

﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥)﴾

السلطان: الحجة، وتكلمه. مجاز، كما تقول: كتابه ناطق بكذا، وهذا مما نطق به القرآن. ومعناه: الدلالة والشهادة، كأنه قال: فهو يشهد بشركهم وبصحته. وما في ﴿بِمَا

= وقال الهيثمي: رواه البزار وفيه ممن لم أعرفه غير واحد.
- حديث سمرة بن جندب:
أخرجه البزار (٢١٦٦ - كشف) وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٢١) وقال: رواه البزار وفيه عباد بن منصور وهو ضعيف ونقل عن يحيى القطان أنه وثقه.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: متفق عليه من حديث أبي هريرة. انتهى.

---

(١) وكل خليل غير هاضم نفسه ... فبالصد والإعراض عنه جدير
للشماخ: ويروى: بدل الشطر الثاني: بوصل خليل صارم أو مصادر. وغير هاضم - بالرفع -: صفة كل. أو بالجر: صفة خليل، أي: من لم يخفض نفسه لصاحبه فهو حقيق بالصد والإعراض عنه لا بالمودة. وزادت الفاء، لأن المبتدأ فيه معنى الشرط. والصارم: القاطع. والمصادر: المجانب، أي: من لم يهضم نفسه لوصل خليله، أدى به ذلك إلى القطيعة، فإن لم تكن فإلى المجانبة، فكأنه مقاطع، أو مجانب بالفعل.

كَانُوا﴾ مصدرية أي: بكونهم بالله يشركون. ويجوز أن تكون موصولة ويرجع الضمير إليها. ومعناه: فهو يتكلم بالأمر الذي بسببه يشركون. ويحتمل أن يكون المعنى: أم أنزلنا عليهم ذا سلطان، أي: ملكاً معه برهان فذلك الملك يتكلم بالبرهان الذي بسببه يشركون.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي نعمة من مطر أو سعة أو صحة ﴿فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي بلاء من جدب أو ضيق أو مرض - والسبب فيها شؤم معاصيهم - قنطوا من الرحمة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

ثم أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه هو الباسط القابض، فما لهم يقنطون من رحمته، وما لهم لا يرجعون إليه تائبين من المعاصي التي عوقبوا بالشدّة من أجلها، حتى يعيد إليهم رحمته.

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾

حق ذي القربى: صلة الرحم. وحق المسكين وابن السبيل: نصيبهما من الصدقة المسماة لهما وقد احتج أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية في وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب. وعند الشافعي رحمه الله: لا نفقة بالقرابة إلا على الولد والوالدين: قاس سائر القرابات على ابن العم، لأنه لا ولاد بينهم. إن قلت: كيف تعلق قوله: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بما قبله حتى جيء بالفاء؟ قلت: لما ذكر أنّ السيئة أصابتهم بما قدّمت أيديهم، أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أن يراد بوجهه ذاته أو جهته وجانبه، أي: يقصدون بمعروفهم إياه خالصاً وحقه، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [الليل: ٢٠] أو يقصدون جهة التقرّب إلى الله لا جهة أخرى، والمعنيان متقاربان، ولكن الطريقة مختلفة.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾

هذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦] سواء بسواء، يريد: وما أعطيتم أكلة الربا ﴿مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ﴾ أموالهم: ليزيد ويزكو في أموالهم،

فلا يزكو عند الله ولا يبارك فيه ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ أي صدقة تبتغون به وجهه خالصا، لا تطلبون به مكافأة ولا رياء وسمعة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ذوو الإضعاف من الحسنات. ونظير المضعف: المقوي والموسر، لذي القوّة واليسار: وقرئ بفتح العين. وقيل: نزلت في ثقيف، وكانوا يربون. وقيل: المراد أن يهب الرجل للرجل أو يهدي له، ليعوّضه أكثر مما وهب أو أهدى، فليست تلك الزيادة بحرام، ولكن المعوّض لا يثاب على تلك الزيادة. وقالوا: الربا ربوان؛ فالحرام: كل قرض يؤخذ فيه أكثر منه: أو يجرّ منفعة. والذي ليس بحرام: أن يستدعي بهبته أو بهديته أكثر منها/ ٢/ ١٩١أ. وفي الحديث «المستغزر يثاب من هبته» (١١٣٩). وقرئ: وما أتيتم من ربا، بمعنى: وما غشيتموه أو رهقتموه من إعطاء ربا. وقرئ: لتربوا، أي: لتزيدوا في أموالهم كقوله تعالى: ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦] أي يزيدها. وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ التفات حسن، كأنه قال لملائكته وخواص خلقه: فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم: هم المضعفون. فهو أمدح لهم من أن يقول: فأنتم المضعفون. والمعنى: المضعفون به، لأنه لا بد من ضمير يرجع إلى ما، ووجه آخر: وهو أن يكون تقديره: فمؤتوه أولئك هم المضعفون. والحذف لما في الكلام من الدليل عليه، وهذا أسهل مأخذا، والأوّل أملأ بالفائدة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ أي الله هو فاعل هذه الأفعال الخاصة التي لا يقدر على شيء منها أحد غيره، ثم قال: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ الذين اتخذتموهم أنداداً له من الأصنام وغيرها ﴿مَّن يَفْعَلُ﴾ شيئاً قط من تلك الأفعال؛ حتى يصح ما ذهبتم إليه، ثم استبعد حاله من حال شركائهم. ويجوز أن يكون ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ صفة للمبتدأ، والخبر: هل من شركائكم، وقوله: ﴿مِن ذَٰلِكُم﴾ هو الذي ربط الجملة بالمبتدأ، لأن معناه: من أفعاله ومن الأولى والثانية والثالثة: كل واحدة منهنّ مستقلة بتأكيد، لتعجيز شركائهم، وتجهيل عبدتهم.

١١٣٩ ـ قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢/ ٥٨): لم أجده إلا من قول شريح، رواه ابن أبي شيبة في البيوع ثنا ابن أبي زائدة عن هشام عن ابن سيرين عن شريح قال: المستغزر يثاب من هبته أو ترد عليه.

ورواه عبد الرزاق في «مصنفه» في الهبة: أخبرنا معمر عن أيوب عن ابن سيرين به. اهـ.

وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق من وجهين عن ابن سيرين عن شريح بهذا موقوفاً.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾

﴿ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ نحو: الجدب، والقحط، وقلة الريع في الزراعات والربح في التجارات، ووقوع الموتان في الناس والدواب، وكثرة الحرق والغرق، وإخفاق الصيادين[1] والغاصة، ومحق البركات من كل شيء، وقلة المنافع في الجملة وكثرة المضارّ. وعن ابن عباس: أجدبت الأرض وانقطعت مادّة البحر. وقالوا: إذا انقطع القطر عميت دواب البحر. وعن الحسن أنّ المراد بالبحر: مدن البحر وقراه التي على شاطئه. وعن عكرمة: العرب تسمي الأمصار البحار. وقرئ في البر والبحور ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] بسبب معاصيهم وذنوبهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] وعن ابن عباس ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ﴾ بقتل ابن آدم أخاه. وفي البحر بأن جلندى كان يأخذ كل سفينة غصباً: وعن قتادة: كان ذلك قبل البعث، فلما بعث رسول الله ـ ﷺ ـ رجع راجعون عن الضلال والظلم. ويجوز أن يريد ظهور الشر والمعاصي بكسب الناس ذلك. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؟ قلت: أمّا على التفسير الأول فظاهر، وهو أنّ الله قد أفسد أسباب دنياهم ومحقها، ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة، لعلهم يرجعون عما هم عليه. وأمّا على الثاني فاللام مجاز، على معنى أنّ ظهور الشرور بسببهم ما استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم إرادة الرجوع، فكأنهم إنما أفسدوا وتسببوا لفشوّ المعاصي في الأرض لأجل ذلك. وقرئ: لنذيقهم، بالنون.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾

ثم أكد تسبب المعاصي لغضب الله ونكاله: حيث أمرهم بأن يسيروا في الأرض فينظروا كيف أهلك الله الأمم وأذاقهم سوء العاقبة لمعاصيهم، ودل بقوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ على أنّ الشرك وحده لم يكن سبب تدميرهم، وأنّ ما دونه من المعاصي يكون سبباً لذلك.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾

القيم: البليغ الاستقامة، الذي لا يتأتى فيه عوج ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ إمّا أن يتعلق بيأتي، فيكون المعنى: من قبل أن يأتي من الله يوم لا يردّه أحد، كقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾

---

(١) قوله «وإخفاق الصيادين» في الصحاح: أخفق الصائد، إذا رجع ولم يصطد. (ع)

[الأنبياء: ٤٠] أو بمردّ، على معنى: لا يردّه هو بعد أن يجيء به، ولا ردّ له من جهته. والمردّ: مصدر بمعنى الردّ ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ يتصدّعون: أي: يتفرّقون، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم: ١٤].

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ كلمة جامعة لما لا غاية وراءه من المضارّ، لأنّ من كان ضاره كفره؛ فقد أحاطت به كلّ مضرّه ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي يسوّون لأنفسهم ما يسوّيه لنفسه الذي يمهد فراشه ويوطئه، لئلا يصيبه في مضجعه ما ينبيه عليه وينغص عليه مرقده: من نتوء أو قضض[1] أو بعض ما يؤذي الراقد. ويجوز أن يريد: فعلى أنفسهم يشفقون، من قولهم في المشفق: أمّ فرشت فأنامت. وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على أنّ ضرر الكفر لا يعود إلا على الكافر لا يتعدّاه. ومنفعة الإيمان والعمل الصالح: ترجع إلى المؤمن لا تتجاوزه ﴿لِيَجْزِيَ﴾ متعلق بيمهدون تعليل له ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ مما يتفضل عليهم بعد توفية الواجب من الثواب؛ وهذا يشبه الكناية، لأن الفضل تبع للثواب، فلا يكون إلا بعد حصول ما هو تبع له: أو أراد من عطائه وهو ثوابه؛ لأن الفضول والفواضل هي الأعطية عند العرب. وتكرير ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وترك الضمير إلى الصريح/ ٢/ ٩١ب لتقرير أنه لا يفلح عنده إلا المؤمن الصالح. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تقرير بعده تقرير، على الطرد والعكس.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿ٱلرِّيَاحَ﴾ هي الجنوب والشمال والصبا، وهي رياح الرحمة. وأما الدبور. فريح العذاب، ومنه قوله ﷺ: «اللهمّ اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً» (١١٤٠). وقد عدد

١١٤٠ ـ أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١٥٣٣)، وأخرجه أبو يعلى (٤/ ٣٤١) رقم (٢٤٥٦) من طريق الحسين بن قيس عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً.
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٣٨) وقال: رواه الطبراني وفيه حسين بن قيس الملقب بحنش وهو متروك، وقد وثقه حصين بن نمير، وبقية رجاله رجال الصحيح.
وذكره الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» (٣٣٧١) وعزاه لمسدد وأبي يعلى. وللحديث طريق =

---

(١) قوله «من نتوء أو قضض» النتوء: الارتفاع، والقضض: صغار الحصى. أفاده الصحاح. (ع)

الأغراض في إرسالها، وأنه أرسلها للبشارة بالغيث ولإذاقة الرحمة، وهي نزول المطر وحصول الخصب الذي يتبعه، والروح الذي مع هبوب الريح وزكاء الأرض. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا كثرت المؤتفكات زكت الأرض» (١١٤١). وإزالة العفونة من الهواء، وتذرية الحبوب، وغير ذلك ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾ في البحر عند هبوبها. وإنما زاد ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ لأن الريح قد تهب ولا تكون مؤاتية[1]، فلا بد من إرساء السفن والاحتيال لحبسها، وربما عصفت فأغرقتها ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يريد تجارة البحر؛ ولتشكروا نعمة الله فيها. فإن قلت: بم يتعلق وليذيقكم؟ قلت: فيه وجهان: أن يكون معطوفاً على مبشرات على المعنى، كأنه قيل: ليبشركم وليذيقكم. وأن يتعلق بمحذوف تقديره: وليذيقكم، وليكون كذا وكذا: أرسلناها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

اختصر الطريق إلى الغرض بأن أدرج تحت ذكر الانتصار والنصر ذكر الفريقين، وقد أخلى الكلام أوّلاً عن ذكرهما. وقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تعظيم للمؤمنين

= آخر عن ابن عباس.

أخرجه الشافعي في «الأم» (١/ ٢٥٣) ومن طريقه البيهقي في «المعرفة» (٣/ ١٠٧). قال الشافعي: أخبرني من لا أتهم قال: ثنا العلاء بن راشد عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً.

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: أخرجه الشافعي: أخبرني من لا أتهم عن العلاء بن راشد عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً نحوه. ومن طريقه. أخرجه في المعرفة وفي الدعوات، وهذا المبهم: هو إبراهيم بن أبي يحيى وهو ضعيف. وله طريق أخرى عند أبي يعلى والطبراني وابن عدي من رواية حسين بن قيس عن عكرمة به وحسين ضعيف أيضاً.

وهذا المبهم هو إبراهيم بن أبي يحيى وهو ضعيف.

١١٤١ ـ قال الحافظ الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ٦٠): غريب.

وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده اهـ.

وقد ذكر هذا الحديث ابن قتيبة في «غريب الحديث» (٢/ ٢٨٠) وقال: يرويه إسماعيل بن أبي أويس عن كثير بن عبد الله المزني عن ربيح بن عبد الرحمن عن أبيه عن جده أبي سعيد.

وذكره الخطابي أيضاً في «غريب الحديث» (١/ ٦٧٩) من قول بعض الأعراب فقال: وقال الأصمعي عن بعض الأعراب: إذا كثرت المؤتفكات زكت الأرض.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: لم أجده. انتهى.

---

(١) قوله «ولا تكون مؤاتية» في الصحاح: آتيته على ذلك الأمر مؤاتاة، إذا وافقته. والعامة تقول: واتيته. (ع)

ورفع من شأنهم، وتأهيل لكرامة سنية، وإظهار لفضل سابقة ومزية، حيث جعلهم مستحقين على الله أن ينصرهم، مستوجبين عليه أن يظهرهم ويظفرهم، وقد يوقف على (حقا). ومعناه: وكان الانتقام منهم حقاً، ثم يبتدأ ﴿عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وعن النبي ﷺ «ما من امرىء مسلم يردّ عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يردّ عنه نار جهنم يوم القيامة» (١١٤٢). ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩)﴾

﴿فَيَبْسُطُهُ﴾ متصلاً تارة ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾ أي قطعاً تارة ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ في التارتين جميعاً. والمراد بالسماء. سمت السماء وشقها، كقوله تعالى: ﴿وَفَرْعُهَا فِي

١١٤٢ ـ أخرجه الترمذي (٤/ ٣٢٧) كتاب البر والصلة باب ما جاء في الذب عن عرض المسلم حديث (١٩٣١)، وأحمد (٦/ ٤٥٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ١١١) رقم (٧٦٣٥)، والطبراني في «الكبير» كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٦١) كلهم من طريق أبي بكر النهشلي عن مرزوق أبي بكر التيمي عن أم الدرداء عن أبي الدرداء مرفوعاً.
وقال الترمذي: حديث حسن.
قلت: وفي تحسينه ـ رحمه الله ـ لهذا الحديث نظر؛ فإن مرزوقاً التيمي مجهول.
وقال الحافظ في «التقريب» (٢/ ٢٣٧): مقبول. يعني عند المتابعة وإلا فلين الحديث.
قال الزيلعي: قال ابن القطان في كتابه: ومانعه من الصحة مرزوق هذا؛ فإنه لم تثبت عدالته.
قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف: أخرجه الترمذي، وأحمد، والطبراني من حديث أبي الدرداء. وقال: حسن. ورواه إسحاق، والطبراني، وأبو يعلى، وابن عدي من طريق شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد مرفوعاً نحوه وإسناده ضعيف. واختلف فيه على شهر بن حوشب: فقال العداج عنه هكذا، وقال ليث بن أبي سليم عنه عن أبي هريرة، أخرجه ابن مردويه. انتهى.
وللحديث شاهد من حديث أسماء بنت يزيد أخرجه أحمد (٦/ ٤٦١)، وابن المبارك في الزهد (٦٨٧)، وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» رقم (١٥٧٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٦٧)، والطبراني في «الكبير» (٤٤٢ ـ ٤٤٣) كلهم من طريق عبيد الله بن أبي زياد عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من ذب عن لحم أخيه بالغيب كان حقاً على الله أن يعتقه من النار». وأخرجه أيضاً إسحاق بن راهويه وأبو يعلى كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٦١). وشهر بن حوشب ضعيف.
وعبيد الله بن أبي زياد القداح. قال الحافظ: ليس بالقوي.
وقد خولف في هذا الحديث خالفه ليث بن أبي سليم، فرواه عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء مرفوعاً.
أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٩).

﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، وبإصابة العباد: إصابة بلادهم وأراضيهم ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ من باب التكرير والتوكيد، كقوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ﴾ [الحشر: ١٧]. ومعنى التوكيد فيه: الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد، فاستحكم بأسهم وتمادى إبلاسهم[١] فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك.

﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٥٠﴾

قرئ: أثر وآثار، على الوحدة والجمع. وقرأ أبو حيوة وغيره: كيف تحيي، أي: الرحمة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ يعني إنّ ذلك القادر الذي يحيي الأرض بعد موتها، هو الذي يحيي الناس بعد موتهم ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من المقدورات قادر، وهذا من جملة المقدورات بدليل الإنشاء.

﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ ٥١ فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ٥٢ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ٥٣﴾

﴿فَرَأَوۡهُ﴾ فرأوا أثر رحمة الله. لأنّ رحمة الله هي الغيث، وأثرها: النبات. ومن قرأ بالجمع: رجع الضمير إلى معناه؛ لأن معنى آثار الرحمة النبات، واسم النبات يقع على القليل والكثير، لأنه مصدر سمي به ما ينبت. ولئن: هي اللام الموطئة للقسم، دخلت على حرف الشرط، و﴿لَّظَلُّواْ﴾ جواب القسم سدّ مسدّ الجوابين، أعني: جواب القسم وجواب الشرط، ومعناه: ليظلنّ ذمّهم الله تعالى بأنه إذا حبس عنهم القطر قنطوا من رحمته وضربوا أذقانهم على صدورهم مبلسين، فإذا أصابهم برحمته ورزقهم المطر: استبشروا وابتهجوا، فإذا أرسل ريحاً فضرب زروعهم بالصفار، ضجوا وكفروا بنعمة الله. فهم في جميع هذه الأحوال على الصفة المذمومة، كان عليهم أن يتوكلوا على الله وفضله. فقنطوا. وأن يشكروا نعمته ويحمدوه عليها. فلم يزيدوا على الفرح والاستبشار. وأن يصبروا على بلائه، فكفروا. والريح التي اصفرّ لها النبات: يجوز أن تكون حروراً وحرجفاً. فكلتاهما مما يصوح[٢] له النبات ويصبح هشيماً. وقال: مصفراً: لأنّ تلك

(١) قوله «إبلاسهم» الإبلاس: اليأس من الخير. والسكوت، والانكسار غماً وحزناً. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «وحرجفا... إلخ» في الصحاح «الحرجف»: الريح الباردة. وفيه أيضاً «صوحته الريح»: أيبسته. (ع)

صفرة حادثة. وقيل: فرأوا السحاب مصفراً، لأنه إذا كان كذلك لم يمطر.

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ/ ٢/ ٩٢أ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾

قرئ: بفتح الضاد وضمها، وهما لغتان، والضم أقوى في القراءة، لما روى ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: قال: قرأتها على رسول الله ـ ﷺ ـ من ضَعف، فأقرأني من ضُعف (١١٤٣). وقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٥٤] كقوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] يعني أنّ أساس أمركم وما عليه جبلتكم وبنيتكم الضعف ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] أي ابتدأناكم في أول الأمر ضعافاً. وذلك حال الطفولة والنشء حتى بلغتم وقت الاحتلام والشبيبة، وتلك حال القوّة إلى الاكتهال وبلوغ الأشدّ، ثم رددتم إلى أصل حالكم وهو الضعف بالشيخوخة والهرم. وقيل: من ضعف من النطف، كقوله تعالى: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ وهذا الترديد في الأحوال المختلفة، والتغيير من هيئة إلى هيئة وصفة إلى صفة: أظهر دليل وأعدل شاهد على الصانع العليم القادر.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ القيامة، سميت بذلك لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا، أو لأنها تقع بغتة وبديهة. كما تقول: «في ساعة» لمن تستعجله، وجرت علماً لها كالنجم للثريا، والكوكب للزهرة. وأرادوا: لبثهم في الدنيا، أو في القبور، أو فيما بين فناء الدنيا إلى البعث. وفي الحديث: «ما بين فناء الدنيا إلى وقت البعث أربعون» (١١٤٤). قالوا: لا

١١٤٣ ـ أخرجه أبو داود (٤/ ٣٣) كتاب الحروف والقراءات: حديث (٣٩٧٨)، والترمذي (٥/ ١٨٩) كتاب القراءات: باب ومن سورة الروم حديث (٢٩٣٦)، وإسحاق بن راهويه، والبزار كما في «تخريج الكشاف» كلهم من طريق عطية العوفي عن ابن عمر به.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث فضيل بن مرزوق.
وأخرجه أبو داود (٤/ ٣٢) كتاب الحروف والقراءات حديث (٣٩٧٩) من طريق عبد الله بن جابر عن عطية العوفي عن أبي سعيد قال الزيلعي: ووهم ابن عساكر في أطرافه فعزاه للترمذي في ترجمة عطية عن الخدري وأهمله في ترجمة عطية عن ابن عمر.
وللحديث طريق آخر عن ابن عمر أخرجه ابن مردويه كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٦٢) من طريق سلام بن سليمان المدائني عن أبي عمرو بن العلاء عن نافع عن ابن عمر.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه أبو داود، والترمذي، وإسحاق، والبزار من حديث عطية عن ابن عمر دون التفسير، ورواه ابن مردويه من رواية أبي عمرو بن العلاء عن نافع عن ابن عمر، لكن في إسناده سلام بن سليمان. انتهى.
١١٤٤ ـ قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ٤٨٧): غريب بهذا اللفظ.

نعلم أهي أربعون سنة أم أربعون ألف سنة؟ وذلك وقت يفنون فيه وينقطع عذابهم، وإنما يقدّرون وقت لبثهم بذلك على وجه استقصارهم له. أو ينسون أو يكذبون أو يخمنون ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ أي مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون عن الصدق والتحقيق في الدنيا، وهكذا كانوا يبنون أمرهم على خلاف الحق. أو مثل ذلك الإفك كانوا يؤفكون في الاغترار بما تبين لهم الآن أنه ما كان إلا ساعة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾

القائلون: هم الملائكة، والأنبياء، والمؤمنون ﴿فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ في اللوح. أو في علم الله وقضائه. أو فيما كتبه، أي: أوجبه بحكمته. ردّوا ما قالوه وحلفوا عليه، وأطلعوهم على الحقيقة ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث بقولهم: ﴿فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق لتفريطكم في طلب الحق واتباعه. فإن قلت: ما هذه الفاء؟ وما حقيقتها؟ قلت: هي التي في قوله [من الهزج]:

. . . . فَقَدْ جِئْنَا خُرَاسَانَا[1]

وحقيقتها: أنها جواب شرط يدل عليه الكلام. كأنه قال: إن صح ما قلتم من أن خراسان أقصى ما يراد بنا فقد جئنا خراسان، وآن لنا أن نتخلص، وكذلك إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث، أي فقد تبين بطلان قولكم، وقرأ الحسن يوم البعث، بالتحريك ﴿لَّا يَنفَعُ﴾ قرئ بالياء والتاء ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ من قولك: استعتبني فلان فأعتبته. أي: استرضاني فأرضيته. وذلك إذا كنت جانياً عليه. وحقيقة أعتبته: أزلت عتبه؛ ألا ترى إلى

= وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده هكذا .اهـ.
والثابت في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً: ما بين النفختين أربعون قالوا: أربعون يوماً قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؛ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت.
أخرجه البخاري (٨/ ٥٥٨) كتاب التفسير باب تفسير «عم يتساءلون» حديث (٤٩٣٥)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٠ ـ ٢٢٧١) كتاب الفتن: باب ما بين النفختين حديث (١٤١/ ٢٩٥٥).
قال الحافظ في تخريج الكشاف: لم أجده هكذا. وفي الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً «ما بين النفختين أربعون قالوا: يا أبا هريرة أربعون سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ أبيت، قالوا: أربعون يوماً؟ قال: أبيت». انتهى.

---

(١) تقدم.

قوله [من الكامل]:

غَضِبَتْ تَمِيمٌ أَنْ تُقَتَّلَ عَامِرٌ   يَوْمَ النِّسَارِ فَأُعْتِبُوا بِالصَّيْلَمِ[1]

كيف جعلهم غضابا، ثم قال: فأعتبوا، أي: أزيل غضبهم. والغضب في معنى العتب. والمعنى: لا يقال لهم أرضوا ربكم بتوبة وطاعة، ومثله قوله تعالى: ﴿لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ [الجاثية: ٣٥]، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾. فإن قلت: كيف جعلوا غير مستعتبين في بعض الآيات، وغير معتبين في بعضها، وهو قوله: (وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين)؟ قلت: أما كونهم غير مستعتبين: فهذا معناه. وأما كونهم غير معتبين، فمعناه: أنهم غير راضين مما هم فيه، فشبهت حالهم بحال قوم جني عليهم، فهم عاتبون على الجاني غير راضين عنه، فإن يستعتبوا الله: أي يسألوه إزالة ما هم فيه، فما هم من المجابين إلى إزالته.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَلَقَدْ﴾ وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل في غرابتها، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن، كصفة المبعوثين يوم القيامة، وقصتهم، وما يقولون وما يقال لهم، وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم، ولكنهم ـ لقسوة قلوبهم ومج أسماعهم حديث الآخرة ـ إذا جئتهم بآية من آيات القرآن، قالوا: جئتنا بزور وباطل، ثم قال: مثل ذلك الطبع يطبع الله على قلوب الجهلة. ومعنى طبع الله: منع الألطاف[2] التي ينشرح لها الصدور حتى تقبل الحق، وإنما يمنعها من علم أنها لا تجدي عليه ولا تغني عنه، كما يمنع الواعظ الموعظة من يتبين له أنّ الموعظة تلغو ولا تنجع فيه، فوقع ذلك كناية عن قسوة قلوبهم وركوب الصدأ والرين إياها، فكأنه قال: كذلك تقسو وتصدأ قلوب الجهلة، حتى يسموا المحقين مبطلين، وهم أعرق خلق الله[3] في تلك الصفة ﴿فَاصْبِرْ﴾ على عداوتهم ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بنصرتك وإظهار دينك على الدين كله ﴿حَقٌّ﴾ لا بدّ من إنجازه والوفاء به، ولا يحملنك على الخفة والقلق جزعاً مما يقولون ويفعلون فإنهم قوم شاكون

---

(١) تقدم.

(٢) قوله «ومعنى طبع الله منع الألطاف» أوله بذلك بناء على أنه تعالى لا يخلق الشر وهو مذهب المعتزلة وذهب أهل السنة إلى أنه يخلقه كالخير، فالآية على ظاهرها. (ع)

(٣) قوله «وهم أعرق خلق الله» في الصحاح: أعرق الرجل. أي: صار عريقاً، وهو الذي له عرق في الكرم. (ع)

ضالون لا يستبدع منهم ذلك. وقرئ بتخفيف النون. وقرأ ابن أبي إسحاق ويعقوب: ولا يستحقنك، أي: لا يفتننك فيملكوك ويكونوا أحق بك/ ٢/ ٩٢ب من المؤمنين.

عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قرأ سورة الروم كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك سبح الله بين السماء والأرض وأدرك ما ضيع في يومه وليلته» (١١٤٥).

١١٤٥ ـ تقدم برقم (٣٤٦) وهو حديث فضائل القرآن سورة سورة.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب. انتهى.